في شبه الجزيرة العربية المجهولة

بقلم الرائد

آر. إي. تشيزمان

(.O.B.E وسام ضابط الإمبراطورية البريطانية)

احتياطي ضباط الجيش الاعتيادي

قنصل صاحب الجلالة البريطانية في شمال غرب الحبشة

السكرتير الخاص سابقاً للمندوب السامي في العراق ١٩٢٠ - ١٩٣٢م

عضو الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية

عضو مراسل لجمعية علم الحيوان بلندن

عضو الاتحاد البريطاني لعلم الطيور

منح ميدالية جل التذكارية سنة ١٩٢٥م من قبل الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية

تقديم الرائد

آر. إي. تشيزمان

ترجمة

د. عبدالله بن محمد المطوع — د. محمد بن عبدالله الفريح

قسم التاريخ - جامعة الملك سعود — قسم التاريخ - جامعة الملك سعود

صدر بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

الرياض ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

ح مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

تشيزمان، آر . اي

في شبه الجزيرة العربية المجهولة / ترجمة عبدالله محمد المطوع ، محمد عبدالله الفريح .- الرياض،

ص ؛ ١٧X٢٤سم

ردمك ٤-٣٧-٦٢٤-٩٩٦٠

١ - الجزيرة العربية - وصف ورحلات ٢- السعودية - وصف ورحلات

أ - المطوع ، عبدالله محمد (مترجم) ب - الفريح، محمد عبدالله (مترجم) ج - العنوان .

ديوي ٩١٥، ٣٠٠١٠٤ ١٩/٦٣٥

رقم الإيداع : ١٩/٢٦٣٥

ردمك : ٤-٣٧-٦٢٤-٩٩٦٠

الرياض ١٤١٩هـ

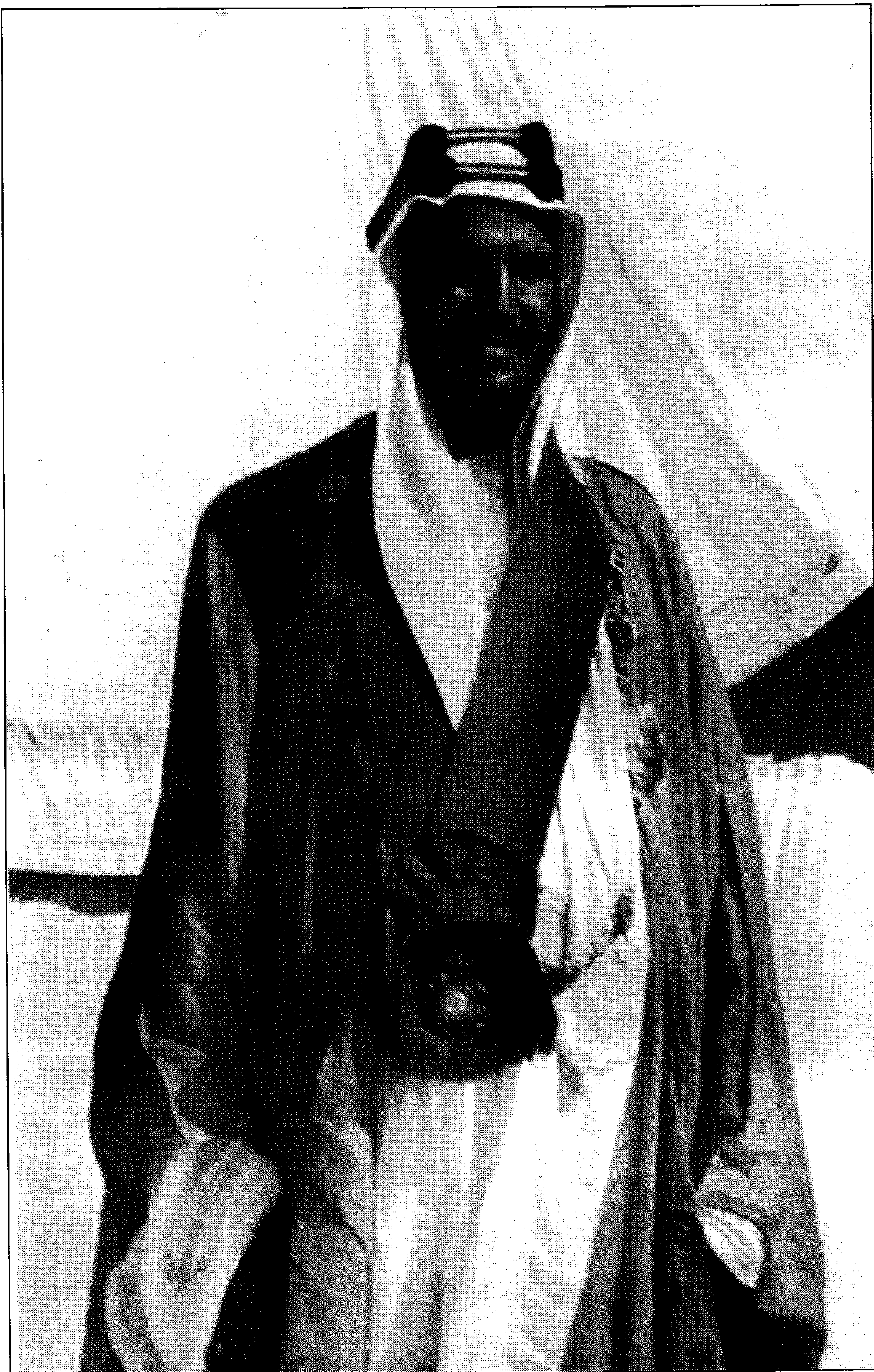
ص.ب: ٨٦٤٨٦ الرياض ١١٦٢٢ - هاتف: ٤٩١١٣٠٠

ناسوخ: ٤٩١١٩٤٩ - برقياً: ٤٠٦٤٤٤

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤلف في سطور :

- روبرت إرنست تشيزمان .
- ولد في وست ول كنت في ١٨ أكتوبر سنة ١٨٧٨م .
- إلتحق بمدرسة مرشانت تايلور سنة ١٨٩١م .
- حصل على شهادة في الكيمياء من كلية واي الزراعية سنة ١٨٩٥م .
- إلتحق بكتيبة البقس وعُين في بومبي سنة ١٩١٤م .
- ذهب إلى البصرة وقام برحلة في نهر دجلة إلى كوت العمارة سنة ١٩١٥م .
- كون مجموعة كوكس ـ تشيزمان لعينات الطيور في سنة ١٩١٦م وأرسلها إلى متاحف جنوب كينسجتون وترنج وبومبي .
- عُين في سنة ١٩٢٠م سكرتيراً خاصًا لأول مندوب سام في العراق .
- في سنة ١٩٢١م منح وسام الإمبراطورية البريطانية (O.B.E) ، ومنح كذلك ميدالية جل التذكارية من قبل الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية .
- عُين في سنة ١٩٢٥م قنصلاً لبريطانيا في شمال غرب أثيوبيا ودعي للقيام برحلة كشفية في نهر النيل الأزرق .
- نشرت دار ماكميلان كتابه «في شبه الجزيرة العربية المجهولة» سنة ١٩٢٦م .
- منح في سنة ١٩٣٥م وسام قائد فرسان الإمبراطورية البريطانية(.C.B.E) ونشرت دار ماكميلان كتابه «بحيرة تانا ونهر النيل الأزرق» .
- منحته الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية في سنة ١٩٣٦م الميدالية الذهبية لدراسته لنهر النيل الأزرق .
- عُين مستشاراً للشؤون الأثيوبية في الخرطوم سنة ١٩٤٠م .
- عُين عضواً في المفوضية البريطانية في أديس أبابا سنة ١٩٤٢م .
- تقاعد من الخدمة وعمل في الزراعة بمقاطعة كنت سنة ١٩٤٤م .
- بعد وفاة زوجته سنة ١٩٥٨م بدأ بكتابة مذكراته .
- توفي في تلسدن ـ كران بروك يوم ١٣ فبراير سنة ١٩٦٢م .



صاحب العظمة عبدالعزيز بن عبدالرحمن سلطان نجد وملحقاتها (G.C.I.E.)

تصدير

الحمد الله على نعمة التوحيد والوحدة ، والشكر للمولى عز وجل على شرف حمل رسالة نبي الأمة ، وخدمة أقدس بقعتين على وجه الأرض ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

كانت هذه الأمّة ـ ومازالت ـ تضرب بجذورها في أعماق التاريخ الإنساني بعد ما تشرفت بهبوط الرسالة الإسلامية على أرضها الطاهرة ، لتنير ظلام العالم وتبدد جهالته ، تنجب الرجال الأفذاذ على مدار التاريخ ، فخرج من صلب أرض الجزيرة العربية ، من قيضهم الله تعالى ، ليعيدوا لهذه البلاد الغالية مجدها وسؤددها ويدخلوها التاريخ الحديث بعد قرون من التنازع والتناحر والفرقة وانتشار الخوف على النفس والعرض والمال ؛ فكان الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود ـ طيب الله ثراه ـ الذي حقق فيها ما يشبه المعجزات في فترة زمنية محدودة ، حينما زاوج بين الماضي والحاضر ، في أسلوب عزَّ أن يكون له مثيل في العالم ، وأصبحت إنجازاته ـ طيب الله ثراه ـ دينًا على عاتق أجيال هذه الأمة حاضراً ومستقبلاً .

انطلقت مسيرة التوحيد المظفرة في الخامس من شهر شوال عام ١٣١٩هـ ؛ لتتوالى مسيرة الوحدة والبناء لهذه البلاد . والآن وبعد مسيرة المائة عام والتي نحتفي بها جميعًا ؛ تخليداً لذكرى استرجاع الملك المؤسس عبدالعزيز آل سعود ـ طيب الله ثراه ـ لمدينة الرياض ، والإعلان عن هذه الانطلاقة المظفرة والميمونة

لتوحيد أجزاء الجزيرة العربية في وحدة عظيمة لا مثيل لها في العصر الحديث ؛ وتقديراً لما تحقق من إنجازات عظيمة في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز ـ حفظه الله ، فإن مكتبة الملك عبدالعزيز العامة والتي تشرفت بحمل اسم الملك المؤسس والتي أنجزها ورعاها بخيره وبره صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ، ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء ، رئيس الحرس الوطني والرئيس الأعلى لمجلس إدارة المكتبة ـ حفظه الله ـ تشارك في هذه المناسبة الغالية علينا جميعًا بمجموعة من المشاريع العلمية والتوثيقية لتاريخ الملك المؤسس ـ طيب الله ثراه ، حيث تأتي ترجمة كتاب **(في شبه الجزيرة العربية المجهولة)** إلى اللغة العربية ترجمة صادقة لاهتمام المكتبة بدعم ومساندة الدراسات التي تخدم تاريخ الملك عبد العزيز ـ طيب الله ثراه ـ وتاريخ المملكة العربية السعودية وتراثها الوطني .

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل .

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

مقدمة الترجمة

كانت الجزيرة العربية تثير اهتمامًا فريداً في أذهان الغربيين ، ولكشف مجاهلها فقد تعاقب عليها عبر القرون عدد من الرحالة الغربيين . كان من أوائلهم الرحالة لودفيكو دي ڤارتيما ، الذي زار مكة المكرمة متنكراً مع قافلة الحج الشامي سنة ١٥٠٩م . وفي القرن الثامن عشر جاء الرحالة كارستن نيبور ، وكان أول من نقل أخبار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى أوروبا . في بداية القرن التاسع عشر جاء جون لويس بوركهارت ودون لنا معلومات قيمة عن تلك الفترة المهمة . خلال ذلك القرن تواصل تدفق الرحالة الغربيون على الجزيرة العربية وخاصةً على الجزء الشمالي منها . وفي أوائل القرن العشرين زاد الاهتمام بالجزيرة العربية من قبل الرحالة والمبعوثين الغربيين إلى دولة الملك عبدالعزيز الناشئة . إن هؤلاء الرحالة مهما كانت أهدافهم من هذه الرحلات ، فقد دونوا لنا كنزاً عظيمًا من المعلومات عن مغامراتهم ومشاهداتهم في الجزيرة العربية . لكن معظم كتب هذ الرحلات بقي حبيس تلك اللغات التي كتبت بها ، والتي لابد أن تنشط مراكز الترجمة لتقديمها لقراء العربية . وإنطلاقًا من أهمية هذه الرحلات بوصفها مصادر لتاريخ الجزيرة العربية الحديث رأت مكتبة الملك عبدالعزيز العامة تكليف الباحثين بترجمة كتاب « في شبة الجزيرة العربية المجهولة » لمؤلفه الرائد آر إي. تشيزمان (In Unknowh Arabia By Major R. E. Cheesman) . يعتبر هذا الرحالة فريداً من بين الرحالة الآخرين فقد أتى في المقام الأول لدراسة طيور شرق الجزيرة العربية .

جاء رحالتنا بوصفه عسكريًا زجت به أحداث الحرب العالمية الأولى إلى المنطقة . وبعد نهاية الحرب بقي في العراق سكرتيراً للسير برسي كوكس أول مندوب سام

بريطاني في العراق . من الصدف العجيبة طوال هذه الفترة أن جمع بينه وبين رئيسه في العمل ـ السير برسي كوكس ـ ولعهما وحبهما للطيور . كان الاثنان حتى في أثناء فترة الحرب يجمعان عينات من الطيور والحيوانات من العراق وجزر الخليج ويبعثان بها إلى بريطانيا . وإكمالاً لهذه الرغبة سأل الرائد تشيزمان السير برسي كوكس أن يطلب له أذنًا من الملك عبدالعزيز (سلطان نجد وملحقاتها في ذلك الوقت) أثناء انعقاد مؤتمر العقير سنة ١٩٢٢ ـ ١٣٤١هـ لزيارة شرق الجزيرة وجمع عينات منها . ومع هذا فلم يكتف رحالتنا بجمع عينات من الطيور والحيوانات بل كان شموليًا في ملاحظاته فجاء كتابه سفرًا حافلاً بالمعلومات .

يكتسب هذا الكتاب أهمية تاريخية خاصة ، فقد قابل المؤلف الملك عبدالعزيز في الأحساء عدة مرات في فترة مبكرة من حكمه ، ودون ملاحظاته وإعجابه الكبير بشخصية الملك وأعماله . إن هذا الكتاب لا يظهر الملك عبدالعزيز بوصفه زعيم دولة فحسب بل سياسيًا مطلعًا ومتابعًا لمجريات وأحداث السياسة العالمية المعاصرة . كما يظهر هذا الكتاب معرفة الملك عبدالعزيز العميقة بالحياة الفطرية في بلاده . بالإضافة إلى ذلك فقد دون المؤلف معلومات عن بعض الشخصيات المهمة مثل الأمير (الملك) فيصل بن عبدالعزيز والأمير عبدالله بن جلوي . من ناحية أخرى يعتبر هذا الكتاب مصدرًا مهمًا عن الأحساء والحياة فيها في تلك الفترة . أما معلوماته عن الحياة الفطرية والتي تلقى الآن اهتمامًا عالميًا متزايدًا ، فيعتبر الكتاب سجلاً مهمًا لتلك الفترة . كما أن المؤلف كان سباقًا في ذلك الميدان عندما أشار إلى تخوفه من انقراض بعض الحيوانات . لقد اشتمل الكتاب على وصف لرحلة قام بها المؤلف إلى سلوى سنة ١٩٢١م بالإضافة إلى رحلته الأخيرة سنة ١٩٢٣م والتي اشتملت على واحتي الأحساء ويبرين . جاء الجزء الأخير من الكتاب على شكل ملاحق عن الثدييات والطيور والزواحف والبرمائيات والأسماك والحشرات وملاحظات حول النباتات والجيولوجيا وسجل للأرصاد الجوية .

إن مما زاد من صعوبة ترجمة هذا العمل بالإضافة إلى لغة وأسلوب المؤلف هو تنوع المواضيع التي عالجها، مما جعل ترجمة هذا الكتاب أشبه ما تكون بحرب خنادق تخرج منهكًا من هذا الخندق، لترى أمامك سلسلة أخرى من الخنادق التي يجب إجتيازها . لكن بالإصرار والعزيمة والتشجيع المتواصل من مكتبة الملك عبدالعزيز تمكنا والحمد لله من إنجاز هذالعمل .

مع أهمية هذا الكتاب التي لاشك فيها إلا أنه يوخذ على رحالتنا إيراده لبعض الملاحظات من غير تدقيق، أو ذكره لبعض الأسماء بطريقة خاطئة وبلا شك أن هذا نتيجة لعدم إجادته اللغة العربية بشكل يجعله يفرق بين اللهجات المختلفة . إن مما يجب التنويه إليه هو أننا قد قمنا بتغيير كلمة « الخليج الفارسي » إلى«الخليج العربي» ما لم تكن اقتباس من مصدر آخر ، كما أننا حذفنا بعض الأسطر غير الملائمة للنشر . إتمامًا للفائدة رأينا ضرورة إيراد الأسماء العلمية للحيوانات والطيور وغيرها من الكلمات التي قد تختلف معانيها من منطقة إلى منطقة. بالنسبة للهوامش التي أوردها المؤلف فقد وردت كما هي أما الهوامش التي قمنا بعملها فقد أعقبت في كل مرة بكلمة (المترجمان) بين هلالين . وبعد فلقد حرصنا بقدر الإمكان أن تكون هذه الترجمة أمينة وصادقة لنقل أفكار المؤلف إلى قراء اللغة العربية ، نرجو أن نكون قد وفقنا في ذلك ولكن الكمال لله وحده .

وفي الختام نتقدم بالشكر لسعادة وكيل الحرس الوطني للشؤون الثقافية والتعليمية والمشرف العام على مكتبة الملك عبدالعزيز العامة الأستاذ فيصل بن عبدالرحمن بن معمر ، وكذلك نائب المشرف العام على المكتبة الدكتور عبدالكريم ابن عبدالرحمن الزيد على دعمهما المتواصل لهذا العمل. كما نشكر الأستاذ فهد بن عبدالكريم العبد الكريم من مكتبة الملك عبدالعزيز العامة وكذلك الأستاذ عبدالرحمن ابن سليمان الرويشد. والشكر موصول للعديد من الإخوة على ما قدموه من مساعدات لإتمام هذا العمل وهم:

أ. د . عبدالله أحمد الطاهر ود. عبدالمحسن عبدالله الحجي ـ قسم الجغرافيا ـ كلية الآداب بجامعة الملك سعود ، وأ. د علي عبدالله الفريح ـ قسم الجيولوجيا ـ

كلية العلوم بجامعة الملك سعود ، وأ . د محمد صالح الخليفة ود . عوض متيريك الجهني ، وأ . د . إبراهيم بن محمد كيلاني ، وأ . د . محمد بن صالح الخليفة ـ قسم الحيوان ـ كلية العلوم بجامعة الملك سعود ، ود . محمد يحيى الصيادي ـ قسم الانتاج الحيواني ـ كلية الزراعة بجامعة الملك سعود ، ود . عبداللطيف ناصر الحميدان ـ قسم التاريخ ـ كلية الآداب بجامعة الملك سعود ، ود . سليمان بن عبدالرحمن الذييب ـ قسم التاريخ ـ كلية الآداب بجامعة الملك سعود ، ود . عبدالرحمن مديرس المديرس قسم التاريخ كلية الآداب ـ بجامعة الملك سعود ، ود . مشاري عبدالرحمن النعيم قسم العلوم السياسية ـ كلية العلوم الإدارية بجامعة الملك سعود ، ود . صالح بن سليمان العمير ، ود . عبدالله بن إبراهيم العسكر من كلية الآداب بجامعة الملك سعود ، ود . محمد بن عبدالعزيز السديس من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، والأستاذة مها بنت محمد الرشيد من كلية الآداب بجامعة الملك سعود ، والأستاذ مصطفى بو شارب ـ قسم اللغة الانجليزية ـ كلية اللغات والترجمة بجامعة الملك سعود ، والأستاذ عبدالمحسن مديرس المديرس . كما لا يفوتنا أن نشكر د . عبدالهادي الحاج من كلية الآداب بجامعة الملك سعود ، والأستاذ صالح الشثري على مراجعتهما اللغوية للنص العربي والشكر موصول للأستاذ محمود ناجي والأستاذ محمد عبدالرحمن ، على جهودهما لطباعة وتعديل نسخ النص العربي .

وأخيراً نشكر الإخوة الزملاء في قسم التاريخ ـ كلية الآداب بجامعة الملك سعود ، وكل من قدم لنا أي عون أو مساعده لإخراج هذا الكتاب في صورته النهائية .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الرياض

د . عبدالله بن محمد المطوع

د . محمد بن عبدالله الفريح

١٤١٩/٦/١هـ

« تقديم »

مؤلف هذه القصة المفعمة الإنسانية في أسفار الصحراء، هو وكيل العريف تشيزمان، والذي كان عندما إندلعت الحرب الكبرى ـ مثله مثل كثير من الشبان الوطنيين البريطانيين تواقًا لأن يؤدي دوره في هذا الصراع وحريصًا على تجنب التأخير الحتمي المصاحب للتأهل للرتبة العسكرية ـ ولذلك انخرط في كتيبة البفس (Buffs) الخامسة التي كانت في البصرة في صيف ١٩١٦م وقدم نفسه لي حاملاً رسالة تعريف من صديق سابق في الخدمة العسكرية . في تلك الفترة بالذات وفي مقر القوة الهندية المتقدمة (D) كانت الاستعدادات الشاقة تجري على قدم وساق لحملة الشتاء القادم، عبر دجلة تحت القيادة الفذة للسير ستانلي مود وذلك للتعويض عن كارثة الكوت[1] والتي ستجعل بغداد تحت سيطرتنا . كانت آلية الجيش تعمل بشكل مضن لكل عضو في القيادة العامة ، ولكن حتى أكثرنا انشغالاً كان لديه ساعات من الراحة في بعض الأحيان . وما هو إلا وقت قصير من الرفقة بيني وبين وكيل العريف لنكوّن رابطة قوية من التعاطف والاهتمام المشترك في حب الطبيعة الشديد التي كانت تلازم كلاً منا ، والتي لم تستطع حتى اهتمامات اللحظة الأكثر خطورة من إخفائها نهائيًا عن حياتنا اليومية . على أية حال كانت رفقة عملت على بقائنا على ارتباط وثيق طوال السنوات السبع القادمة وخلال السنوات الثلاث

---

(١) كان الجيش البريطاني قد استولى على كوت العمارة في أواخر سنة ١٩١٥م ولكن الجيش العثماني تمكن من استردادها في أوائل سنة ١٩١٦م بعد حصار دام ١٤٣ يومًا اضطر بعدها الجنرال البريطاني طاونزند على الاستسلام . انظر : المس بيل ، فصول من تاريخ العراق القريب ، ترجمة جعفر الخياط، بغداد : ط٢ ، ص ١٠٠-١٠١ .

الأخيرة منها كان الرائد تشيزمان - بعد أن حصل في تلك الأثناء على رتبته العسكرية - موظفًا قديرًا من ضمن الموظفين التابعين لي بوصفي مقيمًا ساميًا في العراق . خلال هذه الفترة الأخيرة استمرينا كلما سنحت الفرصة ، وفي كل ظروف السلام السهلة نطور مجموعات التاريخ الطبيعي ، والتي وضعت أساساتها بشكل متقطع خلال سنوات الحرب المتقلبة .

ولخدمة علم الحيوان في المقام الأول ، خطط الرائد تشيزمان لرحلته الحديثة إلى بقعة غير مكتشفة من شرق الجزيرة العربية ، والتي أعطى وصفًا لها في هذا الكتاب الذي بين أيدينا ، والذي أثنى عالم التاريخ الطبيعي الشهير اللورد روثشيلد على قيمته وأهمية النتائج التي توصل إليها خاصة في حقل علم الطيور . لكن بينما براعة الرائد تشيزمان بوصفه عالمًا ميدانيًا في التاريخ الطبيعي تجعل ملاحظاته عندما يتحدث عن حيوانات المنطقة ذات معنى ووزن خاصين إلا أن أنشطته ليست محدودة بذلك المجال فقط . على النقيض من ذلك فقد كان يعرف قبل بدء رحلته الاهتمامات الجغرافية والأثرية بهذه المنطقة والتي يأمل اكتشافها ، ولهذا بذل جهدًا لإعداد نفسه بتدريبات وقراءات أولية - كما يجب أن يفعل الرحالة الجادون في هذه الأيام إذا أرادوا أن يقوموا بعمل ذي قيمة - ليتعامل بفعالية مع مثل هذه القضايا التي قد تصادفه والنتيجة أنه تمكن من عمل إضافة قيمة إلى معرفتنا في كلا المجالين .

في مجال الجغرافيا - على سبيل المثال - فهو لم يمط اللثام فقط عن «اللغز» مستوطنة يبرين ، والتي كانت لأجيال اسمًا يستحضر الأرواح فيما بين الرحالة والجغرافيين المهتمين بشبه الجزيرة العربية ، ولكنه استطاع أن يلقي بعض الضوء المفيد حول موضوع تصريف مياه السيول من منطقة نجد المرتفعة ، وقد كانت مشكلة حيرت الجغرافيين منذ أقدم العصور .

مرة أخرى في مجال الآثار فإن المعلومات والدلائل التي حصل عليها خلال رحلته إلى شواطىء خليج سلوى ، مع أنها لم تصل إلى إثبات قطعي ، فهي أرضية صلبة للتوصل إلى أن موقع سوق الجرهاء الذي تحدث عنه قدماء الجغرافيين يوجد في المنطقة المجاورة مباشرةً لميناء العقير الحالي وليس عند رأس خليج سلوى كما كان يفترض سابقًا .

كفى بالجوانب العلمية والفنية للرحلة ، فإذا نظرنا إلى القصة نفسها ، فإننا سنجد فيها سجلاً صادقًا ومفعمًا بالحيوية لسفر الصحراء والذي غالبًا ما تم في أصعب الظروف مع صبر ودأب لا ينضبان . اتسم ذلك كله بروح مرحة ـ حقًا ـ غالبًا ما فرضت نفسها ومكنت الرحالة من الحفاظ على سماحة طبعه وتهوين مصاعبه .

وأخيراً مع أننا اتفقنا وتفاهمنا على عدم الخوض أبدًا في السياسة ، فإن صفحات (كتاب) الرائد تشيزمان تعطينا لمحات خاطفة وصادقة لحكم صاحب العظمة عبدالعزيز بن سعود (GCIE) [١] سلطان نجد وملحقاتها ، والذي يسيطر الآن على الحجاز بأماكنه المقدسة ، وقد أصبح في الوقت الحاضر شخصية بارزة في العالم العربي . كما ولدت اتصالاتي معه لمدة خمسة عشر عامًا حافلة بالأحداث مشاعر ود شخصي للرجل والصديق ، وإجلالاً عميقًا لسجاياه الطيبة بالاعتماد على شجاعة النفس ومهارته القيادية ، وكل هذه السجايا أسهمت كثيراً في تقرير مصيره .

نادي الأثنيوم ، يناير ١٩٢٦م — بي . زى . كوكس

(١) G.C.I.E. هذه الحروف اختصار للكلمات التالية (Kinght Grand Commander of the order of the Indian Empire) وهو ما يمكن ترجمته بوسام القائد الأعلى لفرسان الإمبراطورية الهندية . (المترجمان)

مقدمة المؤلف

في سنة ١٩٠٨م كان الملازم أول بويد الإسكندر يعطيني موجزًا عن خططه لرحلته القادمة عبر الصحراء الأفريقية . كان قد عبر بنجاح القارة الأفريقية من نهر النيجر إلى النيل وكان يفكر في عبورها عن طريق أكثر خطورة إلى الشمال من طريق رحلته السابقة يمر عبر بعض أجزاء من السودان (التاريخي) القليل المياه ، حيث يأمل في العثور على أنواع من الطيور والحيوانات المتأثرة ببيئتها الصحراوية، وتختلف عن قرائنها في أقاليم الغابات إلى الجنوب .

لم يضعف مرور الزمن حزنه لفقد رفيقيه في حملة النيجر ـ النيل وهما : أخوه النقيب كلود الإسكندر والنقيب جوسلنج ،وكان مصممًا على السفر لوحده . سألته إذا كان بالإمكان مرافقته وبعد برهة من التفكير العميق أجاب : لا ، إنك لا تريد أن تترك عظامك في أفريقيا ، هل تريد ؟ قلت إنني لابد أن أتركها في مكان ما ـ فيما أظن ـ ثم ضحكنا سويًا . استمر يكشف عن طموحاته ـ فيما لو عاد سالمًا ـ في القيام برحلة أخرى ، وفي هذه المرة للجزيرة العربية التي لم يصلها عالم طيور قط، وكان متأكدًا من أنه سيعثر على أنواع جديدة من الطيور . قال : إن تتبع العلاقة بين طيور الجزيرة العربية، وطيور الصحراء الأفريقية كان إحدى المهمات التي تنتظر عالم الطيور وبالنسبة له فقد كانت مشكلةً تستحوذ على اهتمامه .

بعد عامين من هذه المحادثة في ٢ فبراير ١٩١٠م قام قتلة متوحشون في نيري بوسط أفريقيا بإنهاء حياة رجل شاب شجاع كان قد تمكن من تحقيق أشياء كثيرة،

وبموته كانت خسارة علمي الجغرافيا والطيور لا يمكن أن تقدر أو تؤبن . أمضيت طوال السنوات الست من حياتي في مقاطعة كنت الجميلة وكانت الرحلة خارج حدود المقاطعة تعتبر حدثًا مهمًا وسيكون عرافًا جرئيًا مَنْ كان يتنبأ لي «برحلة بحرية طويلة» عادية .

ثم جاء شهر أغسطس المشؤوم من عام ١٩١٤م، وانخرطت في كتيبة البفس مؤملاً أن تنتهي الحرب في غضون ثلاثة أشهر بطريقة أو بأخرى . أثبت بعض الناس بإحصائيات لا تقبل الجدل بأن الألمان ليس لديهم المال ولا الرجال لإطالة أمد الحرب أكثر من ستة أشهر ، وكان لدى هؤلاء الاستعداد للدفاع عن وجهة نظرهم هذه عشرين مرة في اليوم، لمن لم يكن منشغلا بالتجنيد . (مررنا) بتدريب عنيف للتهيؤ لكتيبة فرنسا ، ثم جاءت إشاعات بأن أوامر سرية قد وصلت بأننا سنتوجه إلى مكان غير معلوم ووزعت علينا التوبيات (قبعة هندية) الهندية، وتدربنا على الكاكي الخفيف . أمضينا سنة في الهند في تدريبات مركزة ثم نقلنا إلى مكان غير معلوم، ونزلنا في بلاد ما بين النهرين . وأخيراً الخدمة العسكرية المباشرة بعد ١٨ شهراً من إعلان الحرب ، ومازال الألمان باقون .

وفي بداية صيف عام ١٩١٦م قابلت المقدم السير برسي كوكس في البصرة ، الذي كان وقتها كبير الضباط السياسيين في الحملة البريطانية لبلاد ما بين النهرين . ترقيت إلى رتبة وكيل عريف، وأصبحت أعمل في القيادة العامة ـ التشكيل الثالث ـ في البصرة . كانت طيور بلاد ما بين النهرين جديدة تمامًا بالنسبة لي، وكان السير برسي كوكس أول عالم طيور أقابله في هذا البلد . مع أنه كان لديه أسبقية المعرفة الطويلة بطيور الخليج العربي ، إلا أنه مثلي كانت معرفته بأصناف العراق شحيحةً ولكنه شاطرني رغبة التعرف أكثر على هذه الطيور . بدأنا جمع العينات في ذلك الصيف ، ووصل العدد الآن إلى عدة آلاف من الجلود . خلال فترة الحرب أعارني

السير برسي كوكس بندقية حيث إن بندقيتي عيار ١٢ ، والتي أحضرتها مموهةً ومخبأة في صندوق الأدوات ، قد ضاعت في معركة مشائخ سعد[1] . كما أنه كان لديه وسيلة الوصول إلى الكتب ، وبهذا أمكن التعرف على العينات كلما أضيفت عينات جديدة . وكان النقيب إن . بي . كينر من جمعية التاريخ الطبيعي ببومبي جاهزاً دائمًا للتعرف على العينات المرسلة بالبريد هذا بالإضافة إلى مهماته العسكرية .

بحصولي على رتبة ضابط في الجيش الهندي أرسلت في الخريف إلى الشعيبة (بالعراق) وطوال الليل والنهار كانت أسرابٌ من الطيور المهاجرة تمر فوق خيامنا متجهةً جنوبًا صوب صحراء الجزيرة العربية كما يتضح من لمحة للخريطة . بالتأمل في رحلة وكلام بويد الإسكندر ، بدأت أتعجب عما إذا كان القدر ـ الذي بمعجزة جعلني قريبًا جداً ـ يمكن أن يمكنني من رؤية داخل (الجزيرة العربية) ولو أن هذا يبدو احتمالاً بعيداً .

بعد نهاية الحرب عدت إلى بغداد في شهر أغسطس ١٩٢٠م بوصفي سكرتيراً خاصًا للسير برسي كوكس أول مندوب سام في العراق . توقفنا في رحلة الخروج في العقير على الخليج العربي لمقابلة صاحب العظمة عبدالعزيز بن سعود سلطان نجد، لمناقشة بعض القضايا السياسية المهمة . وهنا رأينا أطراف الصحراء الكبرى ـ من زاوية أخرى للبوصلة ـ بالإضافة إلى ذلك فقد كانت هذه بوابة الصحراء . خلال السنوات الثلاث القادمة كان سعادته (برسي كوكس) وموظفوه منشغلين بتأسيس مملكة فتية في العراق .

---

(١) ربما أن المقصود هو الشيخ سعد وهي قرية في العراق تقع في قضاء كوت العمارة على الضفه اليمنى لنهر دجلة . انظر : ج . ج . لوريمر ، دليل الخليج ـ القسم الجغرافي قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر ، الجزء السادس ، ص ٢٠٤٣ . (المترجمان)

كان العمل اليومي يستغرق كل النهار ويمتد أحيانًا إلى الليل . على أية حال أحضر السير برسي كوكس على حسابه الخاص سلاخًا أنجلو ـ هنديًا كان قد تدرب في جمعية التاريخ الطبيعي ببومبي . وخلال تلك السنوات الثلاث في بغداد كان هذا السلاخ المحترف يُرسل في رحلات ـ لا نتمكن من القيام بها أنفسنا ـ إلى المناطق البعيدة من أراضي مملكة فيصل[1] وبين جزر الخليج العربي . من ناحية أخرى كنا نساهم بجمع العينات عبر الرحلات القصيرة ، وأرسل الكثير (من هذه العينات) من قبل المتحمسين والصيادين المحليين . كانت الجلود ترسل في مجموعات إلى المتحف البريطاني (التاريخ الطبيعي) حيث تقوم السلطات مشكورة بخزنها . كان الدكتور سي . بي . تايسهيرست يدرس على هذه الطيور أثناء زياراته الموسمية للندن ، ويخبرنا بما هو مطلوب (من العينات) . بينما قدم لنا السيد أولدفيلد من المتحف البريطاني خدمة مشابهة فيما يخص الثدييات ، ولهذا فقد تمكنّا من جعل عملية الجمع أكثر تنظيمًا .

إن مجموعات العينات التي حصلنا عليها زادت لهيب حماسي لمعرفة الأصناف التي تعيش في وسط الجزيرة العربية . لا يوجد شيء من الجنوب في متاحف العالم لمقارنة عيناتنا . كان هناك بعض المعلومات لما حول الساحل ، ولكن معرفتنا بحيوانات وسط شبه الجزيرة العربية كانت معدومة ، كما هو الحال بالنسبة لخريطة المنطقة نفسها .

الجزء الأكبر من صحراء الجنوب العظيمة تقع ضمن ممتلكات سلطان نجد : «منطقة نفوذ» وهو وصف ينطبق أكثر على بلد في أغلبه غير مأهول بالسكان وبلا علامات بارزة ، حيث لا يوجد ولا يمكن أن توجد حدود . كثيراً ما ناقشت مع السير

(١) المقصود هنا هو الملك فيصل بن الحسين الذي تولى عرش العراق سنة ١٣٣٩هـ . (المترجمان)

برسي كوكس الطرق والوسائل لإرسال جامع للعينات إلى الداخل . إن وهج الوهابية وتعصب بعض اتباعها جعل من المستحيل إرسال أي شخص أنجلو-هندي بغض النظر عن دينه ، لأنه سينظر له بوصفه وثنيًا . فباقترافه أدنى حماقة يمكن أن يجعل رجال القبائل المتوحشين يهاجمونه كزنابير غاضبة ، وستكون العواقب وخيمة . من الواضح أن أول خطوة باتجاه الجنوب هو الحصول على موافقة وتعاون السلطان نفسه. وهذا يمكن الحصول عليه فقط إذا حكم على الرحالة بأنه فوق الشبهات وليس له غرض خفي .

إن فكرة جمع الطيور والحيوانات بحد ذاتها صعبة التصور لذهن العربي . ومساو لهذا في الأهمية الحصول على موافقة الحكومة البريطانية على المشروع. لابد أن يكون عالم الطبيعيات رجلاً موثوقًا فلا يرمي بشرر حتى ولو بطريقة عرضية في مخزن بارود السياسية العربية . ومن الواضح كذلك أن الرجل يجب أن يكون عالم ميدان . كان السير برسي كوكس الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يلعب كل هذه الأدوار الثلاثة، ولكن بما أنه لا يستطيع أن يقوم بالرحلة بنفسه ، فقد تمنيت لو عينني وكيلاً له، ذلك أن هذا سيكون ضمانًا مبطنًا يرضي كل الأطراف .

في اجتماع بين السير برسي كوكس وسلطان نجد في ديسمبر ١٩٢٢م سئل الأخير عما إذا كان لديه مانع لسفري إلى بلاده من أجل صيد الطيور وجمع الجلود. كانت الإجابة مميزة : «مرحبًا به ولكن الطيور لدينا هي الطيور الشائعة فقط» .

غادرنا العراق في شهر مايو من العام اللاحق، ومنعتني واجباتي من الاستفادة من الدعوة التي قدمت لي أخيراً حتى وصلت إنجلترا. وفي شهر أكتوبر ١٩٢٣م باشرت العمل في مانشستر لتحقيق طموحي الكبير . ولكن في ذلك الوقت لم يكن مؤكدًا بأي حال من الأحوال أنني سأرى حتى ساحل الجزيرة العربية . مرت عدة أشهر على ذلك إلا أن أوضاع الجزيرة العربية المتقلبة باستمرار تجعل من إمكانيات

اليوم مستحيلات الغد، وكان من الضروري التهيؤ لخيبة الأمل، والعودة من البحرين من دون تحصيل أي شيء .

كانت فرصة الوصول إلى الصحراء الجنوبية مازالت بعيدة، وربما وجب علي أن أقنع برحلة على طريق القوافل إلى الهفوف والرياض محاذيًا لتخوم شمالي الصحراء الكبرى ، وهذا الطريق قد وُطيء من قبَل الكثير من الأوروبيين . لحسن حظي فإنهم قد أهملوا تمامًا حيوانات المنطقة لوحدها تاركيها صفحةً فارغةً لتملأ بمن يأتي بعدهم. كنت أحمل رسالة من السير برسي كوكس ذاكراً فيها عدة أماكن يريد مني زيارتها إذا سمحت الظروف . كان اسم جبرين[1] (واحة يبرين) من بينها ، ولكني أعرف أنه لا يوجد قوافل تمر بها أو تذهب إليها ، وهي في الحقيقة معزولة في صحراء بلا ماء والفرصة ضعيفة للوصول إليها . لهذه الأسباب فإنها قد استعصت على عيون الأوروبيين بل وحتى أنه لم يرها إلا القليل من العرب .

كانت أشجار نخيلها محاطة بسياج من الغموض، ويرعى البدو المؤمنين بالخرافات إبلهم في محيطها، وينسجون حولها الكثير من القصص والسحر . ربما أنها أعجوبة صغيرة أن احتلت هذه الرحلة الأسبقية في ذهني على كل الأشياء الأخرى، وكانت كذلك تعني دخول الأرض التي أريدها أي الجزء الشمالي من صحراء الجنوب العظيمة .

أخيراً تعدينا البحرين والعقير وأوصلتني الجمال الراغية إلى الهفوف . كان هناك تشكيلات صحراوية شاحبة وطيور وبهائم وزواحف وكلها جديدة بالنسبة

(١) الاسم الصحيح لهذه الواحة هو يبرين التي تقع إلى جنوب الجنوب الغربي من الهفوف ، وعن هذه الواحة وتاريخها انظر : حمد الجاسر ، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ، المنطقة الشرقية (بعد ذلك معجم المنطقة الشرقية)، منشورات اليمامة ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩هـ ، القسم الرابع ، ص ١٨٦٩ ـ ١٨٨٠ . (المترجمان)

لي . يومًا بعد يوم كان يتضح لنا أن الجمع عملية تستحق العناء، فإما نحصل على شيء جديد أو نسجله لرحلة قادمة . أكثر من ذلك فإن الرحلة المقترحة إلى يبرين لم يرفضها السلطان، وتذكر كإمكانية إن لم تكن احتمالية . كان هناك عقبة واحدة فقط هي أن جنوب البلاد لم يُمطر منذ عام، والشجيرات لم تنمُ بما يكفي لغذاء إبلنا . كانت المسافة تسعة أيام إلى تلك الواحة وتستطيع الإبل الذهاب إليها بدون ماء طوال تلك المدة، ولكن لابد من الانتظار حتى نزول المطر وظهور العشب الكافي لإطعام بهائمنا طوال الطريق . كان الانتظار طويلاً لكن أخيراً نزل المطر وتبعه نمو البراعم والأغصان الخضراء على شجيرات الصحراء .

ذات صباح كان هناك مسافرٌ ملتح رث الثياب وجالسٌ على تلة حجرية ، وقد تقشرت قطع كبيرة من جلد وجهه، وما تبقى يكاد يكون أسود من حروق الشمس، وبالرغم من ذلك كان رجلاً سعيداً . كان العرب (البدو) يصنعون القهوة في غار والإبل ترعى في الخلف . كانت تلك التلة الحجرية تطل على منخفض يمتد جنوبًا، وكان في وسط هذه الصورة رقعة سوداء عريضة محاطة بإطار ذهبي باهت تتلألأ تحت حرارة شمس الشتاء المدارية . تلك كانت نخيل يبرين مستكنةً في عالم من القفر والرمل وهذا الانعزال الشديد هو سر عظمة المكان .

عاد ذهن الرحالة إلى الوراء لسنوات بعيدة . «قال: كلا . إنه على حق . أنا لا أريد أن أترك عظامي في أفريقيا بل إنني سعيد بإحضارها إلى الجزيرة العربية لتقوم بالعمل الذي كان هو سيقوم به أفضل مني لو أنه فقط أعطي مهلة ليعيش» .

الفصل الأول :
الاستعدادات للرحلة

بوصولي إلى لندن من بغداد بعد أن حصلت على دعوة من سلطان نجد لزيارته، والقيام بجمع عينات من الطيور في دولته ، كانت خطوتي الأولى هي الحصول على موافقة الحكومة البريطانية على المشروع، وطلب الإذن من وزير المستعمرات في ذلك الوقت صاحب السمو دوق دفنشر للاستفادة من هذا العرض . حصلت على الموافقة اللازمة، وسهلت وزارة المستعمرات الإجراءات الرسمية المصاحبة للترتيبات الأولية للرحلة ، وهنا أسجل شكري الجزيل لهم . كانت الجمعية الملكية الجغرافية كالعادة جاهزة لتقديم المساعدة، وعندما علموا بغايتي أعاروني مجموعة من الأجهزة القيمة . كما أني مدين للقسم الجغرافي بمكتب الحرب، فقد أمدوني بمجموعة من الخرائط تشتمل على أحدث ما عمل لصحراء الجزيرة العربية.

غادرت الباخرة ميناء مانشستر في الرابع من أكتوبر ١٩٢٣م متجهة إلى البصرة وكانت تقلني مع حقائبي السبع عشرة الواسعة وغلامي العربي مهدي بن صالح . هناك طرق أسهل وأسرع للوصول إلى البصرة أكثر من السفر بالبحر، ولم أكن مشتاقًا لرؤية خليج الباسكاي(*) ، ولكن بالنسبة للسفر في الشرق فإن من الأفضل الأخذ برأي المثل القديم القائل: الأحمق هو الذي سرعان ما ينفصل عن أمتعته . إذا كانت حقائبك مليئةً بالملابس فإنك لا تهتم كثيراً إذا لم تصل في الوقت المحدد حتى

(*) يقع خليج الباسكاي في أسبانيا . (المترجمان)

ولو أصبحت موضة قديمة عند وصولها /p.1/ . ولكن إذا كانت ـ كما في حالتي ـ مليئةً بالبنادق والرصاص ومصائد الفئران وقطن طبي وصابون زرنيخي ـ وكنت عالم طبيعيات ـ فستتفق معي بأنه من الأفضل السفر مع الحقائب لتضمن وصولها لغايتها سليمة وفي اللحظة نفسها التي تصل فيها .

كانت البحرين غايتي الحقيقية ولكن توجب عليّ الذهاب إلى البصرة ، لأن السفينة متجهة إليها ، ومن هناك أتحول إلى سفينة البريد البطيء لشركة الهند البريطانية إلى البحرين مروراً بالمحمرة والكويت وبوشهر . مع أننا بقينا في البحر ستة أسابيع فعندما وصلنا البحرين كان عدد حقائبنا لايزال سبع عشرة وكنا جاهزين لبدء الرحلة التالية من حملتنا إلى الداخل . لو فقدت واحدة من هذه الحقائب فإن هذا يعني تأخر أسبوع على الأقل ، وهذا غالبًا ما يكون الفرق بين النجاح والكارثة . الخيار سيكون الانطلاق بدونها ، ولكن في مهمة من هذا النوع فإن الشخص لا يحمل شيئًا ما لم يكن ضروريًا .

إن هدفي من التأكيد على هذه التفاصيل الدقيقة إلى هذا الحد هو تحذير رحالة المستقبل من التساهل والمآزق المغرية في الطريق . إن جاذبية الوسائل الأكثر سرعة للوصول إلى الهدف ـ والمتوفرة اليوم براً وجواً وإرسال الأدوات عن طريق البحر ـ مغرية جداً تجعلك في البداية تقلل من أهمية خطر التأخير . لكن في الجزيرة العربية فرصة التعويض عن أي نقص في المستلزمات تكون صعبة حقًا . لهذا السبب فقد ضمنت الملاحق قائمة بمحتويات الصناديق واتضح أنها كافية لإقامة أربعة أشهر في ذلك البلد ومن الممكن أن تكون مرشداً لحملة مماثلة مع إدخال بعض التعديلات التي توصي بها الظروف أو العامل الشخصي .

بعد أن عرفتكم بالأمتعة ، يبقى أن أعرفكم بمهدي بن صالح صديقي الوفي في هذه الرحلة والذي سيتردد اسمه كثيراً في هذه القصة . عرفته أولاً قبل ثلاث سنوات بوصفه خادمًا في دار المقيمية في بغداد فأبوه عربي من بغداد ، وكان يعمل

معه في /p.2/ الحياكة. من الواضح أنه كان قد سئم حياة الاستقرار، وخرج عن سيطرة والديه ليضرب في الأرض. كان غير متعلم تمامًا، والفرص أمامه محدودة، ولكنه تعلم أن يكون خادمًا نافعًا وعندما وقف أمامي كان غلامًا طويلاً ومرتبًا يبلغ من العمر ١٦ عامًا، ومعه توصية جيدة من عمله السابق. كانت المقابلة قصيرة: هل تحب أن تكون خادمًا لي؟ فأجاب «ما يخالف». هل تحب كذلك أن تتعلم سلخ الطيور والحيوانات؟ وكانت الإجابة «ما يخالف». ماذا تريد أجرًا لك؟ فذكر مبلغًا كان عاليًا نوعًا ما، وكانت إجابتي «ما يخالف» وانتهت المقابلة. عاد في خلال نصف ساعة حاملاً صرة تحت إبطه وبها جميع ما يملك في هذا العالم، وفي صباح الغد سافرنا في أول رحلة له إلى البصرة والبحرين وجزر أخرى في الخليج العربي بما فيها رحلة على الجمل على ساحل الجزيرة العربية إلى سلوى (اللوحة رقم ١٠).

بعودتنا لبغداد لم يثبت أنه خادم مقتدر فحسب بل أنتج جلودًا جيدة، وكان في البداية يعمل تحت إشرافي ثم عمل بعد ذلك ـ سريعًا ـ بدون أي إشراف. كان كل ما يلزمني عمله فقط هو أن أنهي كتابة البطاقات على العينات. من الآن فصاعدًا أصبحت فائدة اصطحابه معي واضحة إذا أردت أن أنجح في الوصول إلى الجزيرة العربية.

تعتبر شخصية الخادم ومؤهلاته في رحلة مثل هذه من الأهمية بمكان، وخاصة خارج وقت العمل، ولهذا فإن العناية في اختياره لا تذهب سدى. لابد في بلد وهابي أن يكون (الخادم) مسلمًا. ورغم أن مهدي من أتباع الرسول ﷺ فإنه لم يكن من النوع الذي يسيطر عليه الهاجس الديني وشعرت بأن عليه خطرًا طفيفًا من المناقشات الدينية في السوق أو في بلاط السلطان وقد تقوده إلى مشادة كلامية أو لطمات. كما أنه لم يكن من ذلك القسم الكبير من المسلمين الذين تهيمن عليهم رغبة الدعاء عندما يؤدون أعمالاً دنيوية مثل حمل صناديق ثقيلة. /p.3/ مما ساعدني

في جهودي للاحتفاظ به في رحلتي إلى لندن، وأثناء تحضيراتي النهائية في بريطانيا لرحلتي القادمة إلى الجزيرة العربية، هو اقتراحي أنا والسير برسي كوكس أخذ مجموعة من الحيوانات الحية (من دار المقيمية) لنقدمها لحدائق الحيوانات . تشتمل هذه الحيوانات على : نعامتين عربيتين، ومالك الحزين الجبار، وصقور ومخلوقات أخرى خطيرة لمن لا يعرف كيف يتعامل معها . عمومًا كان لدينا في دار المقيمية مجموعة وحوش : غرير (حيوان ثديي) وفهد ودب أسمر ـ أحضر بالطائرة من كردستان ـ، وقرود وخنزير بري وبجعة. وهذه مجرد أمثلة من الحيوانات الكثيرة التي جلبت إلى حدائق دار المقيمية في بغداد خلال السنوات الثلاث الأولى من وجودها ، والحقيقة أن السير والسيدة برسي كوكس محبان ومخلصان للحيوانات . كان من السهل السيطرة على هذه الحيوانات الأليفة الغريبة في البداية عندما كانت صغيرة ولكن بظهور شخصياتها المتوحشة كان مهدي من بين كل الخدم هو الذي يمكن الاعتماد عليه في حالة هروب أي منها لترويضها بلا خوف وبأكبر نسبة نجاح ممكنة.

لهذا وقع الاختيار عليه حارسًا لهذه البضاعة ليطعمها ويعتني بها في طريقها إلى لندن . خلال الأشهر الأربعة التي أمضيتها في لندن ألحقته بمتحف جنوب كنسنجتون لدراسة مادة صقل المهارات في السلخ وتمكن من إنتاج جلود طيور وحيوانات بدرجة عالية ، وقال معلموه : إنهم لم يروا عاملاً أسرع منه . بلباس أوروبي ومعرفة باللغة الانجليزية لا بأس بها أصبح قادرًا على استخدام الحافلة بسهولة ودقة في لندن أكثر من سيده ويُظن أنه أوروبي حتى يتكلم . كان سلوكه مثاليًا أثناء إقامته في تشيلسي، وكوّن العديد من الأصدقاء لما يتحلى به من هدوء ولطف لا يفارقاه أبدًا .

بقرب موعد الرحيل ذكرني بوعد قطعته له بأنه عند مجيئه إلى لندن سيرى الملك جورج . وبمطالعة الصحف اليومية /p.4/ علمت بأن الملك جورج سيفتتح منتزهًا في واندز وورث فأخذت الغلام مبكرًا إلى هناك وحصلنا على مكان جيد على الحاجز في طريق الموكب . لم يكن يومٌ أفضل من ذلك اليوم للتأثير في أجنبي بكيفية استقبال الشعب الأبيض لمليكه . كانت الأرصفة على مرأى النظر مكتظة بالبشر وعلى منحدر خلفنا شكل آلاف الأطفال الحاملين الأعلام منصة كبيرة . كان مهدي عندما مرت السيارة الملكية ممسكًا قبعته بيده على الطريقة البريطانية (اللباس العربي الأصلي للرأس لا ينزع كعلامة للاحترام) وكان على بعد عدة ياردات من صاحب الجلالة الذي أطل خارج النافذة ليرد تحية الأطفال . كان الغلام العربي مبتهجًا بهذا اليوم أكثر من كل عجائب لندن ، وظن أن الملك خصه برد التحية .

«كثير من العرب سيدفع ألف جنيه ليرى ما رأيته أنا وصاحبي مقابل لاشيء . ألم أسلم على الملك جورج؟» كان هذا ما قاله مهدي لمجموعة من البدو المدهوشين ، وهم متحلقون حول النار ذات ليلة في الجزيرة العربية بعد أن ذهبت إلى خيمتي لأنام . /p.5/

الفصل الثاني :

البحرين

رست الباخرة (بريتش إنديا) في يوم ١٤ نوفمبر ١٩٢٣م فيما يسمى بميناء البحرين . صحيح أن البحرين يمكن أن تُرى من المرسى ، ولكن نظرًا لضحالة الماء ، فيلزم نقل المسافرين وأمتعتهم على قوارب محلية صغيرة (اللوحة رقم ١) . رغم أن البحر ضحل إلا أنه يكاد يكون مائجًا على الدوام ومسافة الأميال الستة إلى الفرضة الحجرية الصغيرة غالبًا ما تكون مبللة ونهايةً غير سعيدة للرحلة .

بعد أن زحفنا بسلام إلى الشاطئ بدون فقدان أي من الصناديق ، تلقيت دعوة لطيفة للسكن عند المقيم السياسي البريطاني الرائد دالي وزوجته . كان الإذن الرسمي لرحلتي القادمة قد وصل من وزارة المستعمرات عبر القنوات الاعتيادية . وكان الرائد دالي قد أرسل رسالة إلى أمير الأحساء الشيخ عبدالله بن جلوي(١) مزودًا إياه بالتاريخ المتوقع لوصولي وطالبًا منه أن يرسل الإبل من الهفوف لتقابلني في العقير ، الميناء على بر الجزيرة العربية . وبما أن سفينتي كانت متأخرة فقد ظن (الرائد دالي) أن القافلة قد وصلت فعلاً إلى هناك (إلى العقير) . بقي عليّ فقط أن أبحر إلى العقير في بغلة وهي مركبة بحرية عربية جميلة تستخدم لصيد اللؤلؤ والتجارة في الخليج العربي .

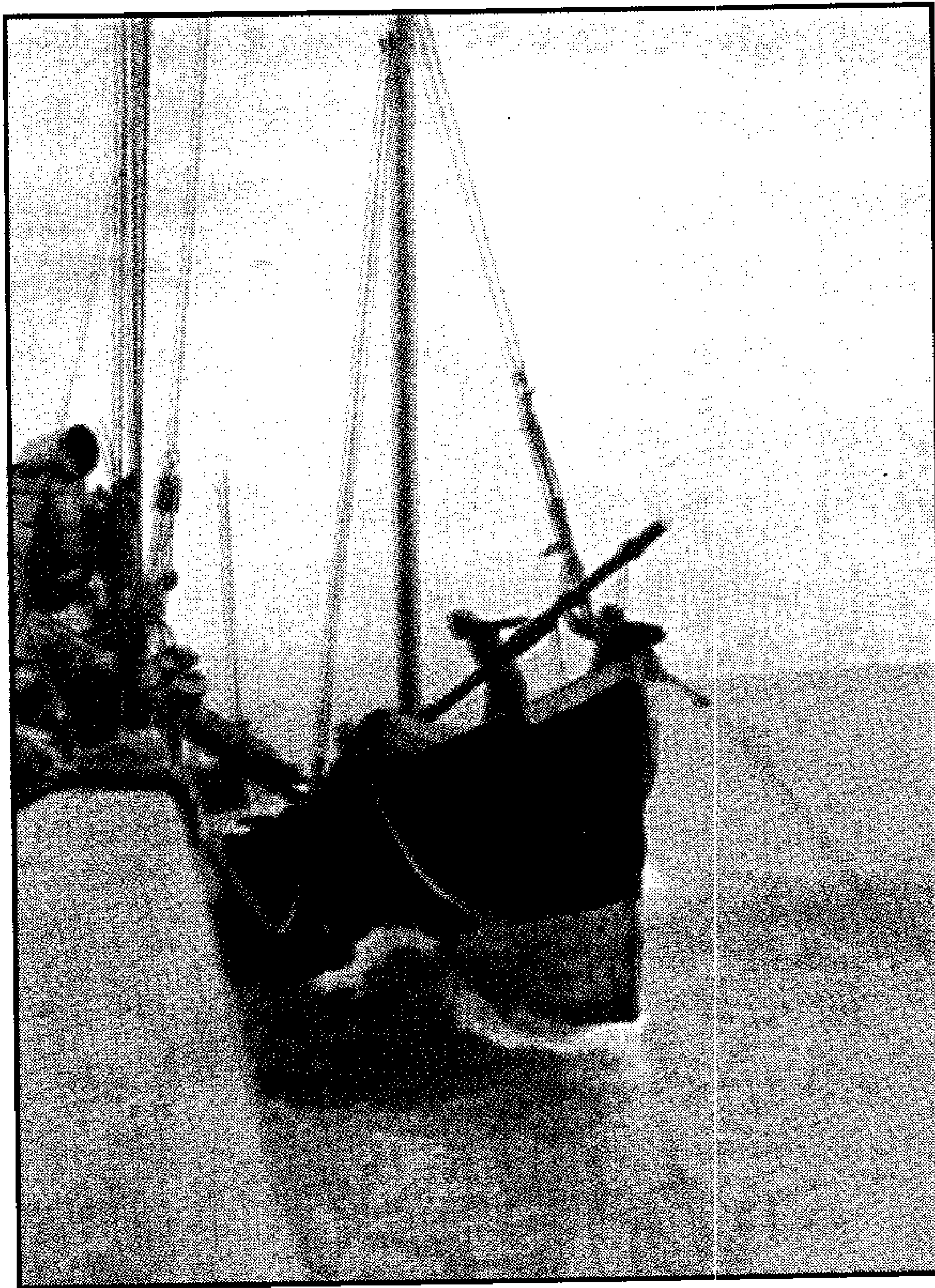
---

(١) هو الأمير عبدالله بن جلوي بن تركي بن عبدالله كان له دور بارز في إسترداد الرياض مع الملك عبدالعزيز كما شارك في توحيد البلاد وتولى إمارة بريدة سنة ١٣٢٦هـ ثم إمارة الأحساء في سنة ١٣٣١هـ حتى توفى سنة ١٣٥٤هـ . انظر : خير الدين الزركلي ، شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبدالعزيز ، جـ٢ ص ٤٥٩ ـ ٤٦٢ . (المترجمان)

في زيارة سابقة عام ١٩٢١م قمت بزيارة بعض الأماكن المشوقة في البحرين . كان الحاكم هو الشيخ عيسى بن علي آل خليفة[1] ، وكان رجلاً مسنًا ويحكم منذ أربعة وخمسين عامًا ، وقد تخلى عن إدارة كثير من الأمور لابنه الأكبر الشيخ حمد (اللوحة رقم ٢) الذي كان يقوم بدور الوصي على العرش . شُغلت حكومة الشيخ عيسى في الأيام الأولى من حكمه بالقضاء ـ بمساعدة الحكومة البريطانية ـ على عصابات القراصنة /p.6/ التي أزعجت هذه البحار . وهي مهمة لم تكن سهلة على أية حال حيث شكلت الخلجان والجزر الصخرية معاقل حصينة لهم ينطلقون منها للنهب وقتل التجار المسالمين في الخليج العربي . إن تاريخ قمع هؤلاء القراصنة المظلمي الوجوه ، وتقليص نشاطهم في تجارة الرقيق والسلاح ، تجعل قراءة حوليات الخليج العربي أفضل بكثير من قراءة كتب القصص الخيالية . فمنذ وقت قريب في سنة ١٩١٠م حصل قتال بحري بين سفينة صاحب الجلالة هايسنث *Haycinth* ومجموعة من الخارجين على القانون وسقط ضحايا من الجانبين ، ولكن الخليج اليوم يحترم القانون مثل أي بحر آخر . اتجهت قبائل السواحل للعمل في صيد السمك واللؤلؤ والتجارة ، وبقي فقط الاسم المهجور ساحل القراصنة ، تلك التسمية القديمة لساحل عمان ، على الخرائط القديمة ليذكر السكان بأيام ما قبل الاصلاح .

تعتبر البحرين الكبرى من بين مجموعة من الجزر على الساحل الجنوبي الغربي للخليج العربي ، وتنبع أهميتها التجارية وشهرتها العالمية من كونها مركزًا لصناعة الغوص على اللؤلؤ . ومنذ وقت قريب كان عقد مصنوع من لؤلؤ البحرين معروضًا للبيع في لندن بمبلغ ٢٥٠,٠٠٠ جنيه . تحتشد هنا في كل عام أول الصيف بضعة آلاف من القوارب الجميلة من قرى السواحل والجزر المجاورة ، ويقود تحركاتهم

(١) الشيخ عيسى بن علي آل خليفة امتد حكمه من سنة ١٨٦٩ ـ ١٩٢٣م ، انظر : عبدالله محمد الوهيبي ، النفوذ البريطاني في البحرين ، رسالة ماجستير في جامعة الملك سعود ـ قسم التاريخ ، سنة ١٤٠٤هـ . (المترجمان)



اللوحة رقم (١)
قارب محلي يحمل من الباخرة بريتش إنديا في الخليج العربي



اللوحة رقم (٢)
شيخ البحرين حمد بن عيسى آل خليفة (K.C.I.E., C.S.I.)(*)

(*) K.C.I.E. هذه الحروف اختصار للكلمات التالية (Knight Commander of the Most Eminent order of the Indian Empire) وهو ما يمكن ترجمته بوسام قائد فرسان الإمبراطورية الهندية.
أما C.S.I. فهي اختصار للكلمات التالية (Companion of the Most Exalted order of the Star of India) وهو ما يمكن ترجمته بالوسام المميز لزميل جماعة نجمة الهند.

شخصية كبيرة مثل أميرال الأسطول . يرفع المحار من قبل غطاسين عراة إلى السطح حيث يفتح ويستخرج اللؤلؤ . ويوجد ممثلون لكبار تجار اللؤلؤ في العالم ينتظرون وصول الأسطول، ولهذا فالأسعار ليست أرخص من بومباي أو باريس . لكن لو رغب شخص رؤية اللؤلؤ فسيحُضره له تاجر محلي، فبعد أن يتحسس ثوبه الفضفاض يخرج خرقة رثة وممزقة ويبسطها بطريقة طقوسية حتى يخرج من زاويتها السفلي عدداً كبيراً من الجواهر اللامعة .

كما أن هناك صناعة إضافية من عروق اللؤلؤ(*) حيث تجمع الأصداف وتحمل إلى البحرين . /p.7/ حجم محارة اللؤلؤ العادية مثل تلك الموجودة في وايتستيبل لها طبقة رقيقة في عرق اللؤلؤة وإذا كانت المحارة كبيرة تحصل على طبقة أكثر سماكة بحجم المحار المروحي الشكل وتجمع خصيصًا لهذه الصناعة . كانت هذه التجارة قبل الحرب بأيدي الألمان وفي وقت زيارتي كانت أكوام من الأصداف قد جمعت لعدة سنوات في انتظار المشتري .

للبحرين أيضًا تجارة عامة كبيرة بين الهند ووسط الجزيرة العربية . تأتي سفن الهند البريطانية وغيرها من السفن إلى البحرين بانتظام ، ولكن بسبب ضحالة الماء فإنها ترسو في الميناء الخارجي على بعد ستة أميال من اليابسة . نزول الركاب عندما يكون البحر مائجًا غالبًا ما يكون منظراً مضطربًا ومحفوفا بالمخاطر ، إذ ترتطم المركبة الهشة بجوانب السفينة في الوقت الذي يقفز الرجال مسافة عشرين قدما إلى سلالم الحبال المتأرجحة . أما النساء المحجبات والمرتبكات فيوضعن في سلة برتقالية من خشب الأسل مربوطة بحبل ضعيف ويسحبن بواسطة أقاربهن ، كما تسحب حزم

(*) عرق اللؤلؤ أو أم اللآلئ هي مادة صلبة ناعمة قزحية اللون تشكل بطانة بعض الأصداف وتستخدم في صنع الأزرار والحلي . (المترجمان)

القماش . تفرغ القوارب حمولتها في الفرضة الحجرية قرب مبنى الجمارك، ولكن ارتفاع الماء لا يتعدى قدمين أو ثلاثة فقط في حالة الجزر وحتى في حالة المد فإنه لا يصل إليها إلا قوارب المياه الضحلة .

السوق كبير ويشتمل على الحوانيت العادية لأي بلدة شرقية : بنائي القوارب وتجار القماش يبيعون بضائع قطنية من الهند ومانشستر وحواك ونحاسين ومقاهي ومطاعم ويتم معظم البيع والشراء فيها . كما يوجد وفرة من البضائع الأوروبية الرخيصة وأصناف تافهة يؤثرها أصحاب الدكاكين الهنود . يتكون مجتمع التجار في الأساس من عرب وفرس وهنود. كما يوجد قرية نائية تتكون من أكواخ صغيرة تُسكن كليًا من قبل المماليك الزنوج المعتقين ويعملون في صناعة اللؤلؤ وبعضهم غواصي لؤلؤ . يوجد (في البحرين) فرع لبنك بريطاني وممثل لشركة السفن التجارية الهندية البريطانية وإرسالية أمريكية تتولى الإنفاق على قسيس وطبيب ويتبعها كنيسة ومستشفى في البلدة .

كان الشيخ عيسى في منزله الشتوي بجزيرة المحرق /p.8/ والزيارات الرسمية له تصبح مناسبة ذات طابع احتفالي كبير . فعلى رصيف الجزيرة المغطى بالأحجار المبعثرة تظهر فوهة ستة مدافع ـ شكلها مخيف ـ ولكنها تستعمل فقط للتحية . كان بانتظار قاربي في المياه الضحلة حصان كبير أسود ، ذو غطاء مزركش فاتح اللون ، يمسك به خادم زنجي ساعدني على امتطائه وقاده مسافة نصف ميل عبر السوق المزدحم . سرعان ما تعرف الناس على الزي الرسمي لحصان الشيخ ، ووقف معظم أهل الدكاكين مظهرين كل علامات الاحترام . كانت ساحة القصر تعج بالخدم وبعضهم يصافح باليد بينما بعضهم الآخر اكتفى بقول «السلام عليكم» طبقًا لرتبهم . استقبلني الشيخ عيسى لوحدي في غرفة الاستقبال في الطابق العلوي

وكانت ملابسه فخمة ويرتدي سيفًا عربيًا طويلاً منحنيًا ومرصعًا بالفضة . كانت رموشه مكحلة وعولجت بشرته بعناية لتخفي أثر سنين عمره التي تربو على السبعين. ولقد تركت صورة هذا المتأنق المعمر والمعتنى به أثرًا باقيًا في ذاكرتي. طلب مني بأدب أن أجلس وتبادلت معه ملاحظات عامة حتى أحضرت القهوة وأعقبها شراب حلو معطر بماء الورد منهيًا بذلك المرطبات . بعد هذا جيئ بماء الورد في دورق فضي لنغسل أصابعنا . أخيرًا أُحضر البخور حيث تجذب بيدك الدخان تجاه الوجه وتستنشقه بابتهاج . وبهذا انتهت الزيارة وأستأذنت للانصراف .

يوجد في البحرين ثلاثة معالم طبيعية : ينابيع المياه الحلوه والركاميات أو التموليات القديمة وتل يسمى جبل دخان[١] . ويقال هنا بأن الينابيع هي ماء متدفق من مرتفعات وسط الجزيرة العربية . فتأتي السيول من الجبال وتختفي في السهول الرملية لهضبة نجد وتمر من تحت الصحراء إلى البحر، لتخرج مرة أخرى في البحرين وما حولها . ينبع أحد هذه الينابيع على الأقل من تحت ماء البحر، ويتدفق بقوة حتى أن القوارب المحلية تستطيع التزود بماء الشرب منه . /p.9/ ينقل فائض المياه من البرك الأرضية عن طريق القنوات إلى الحدائق ، وبما أن كمية المطر غير كافية لقيام الفلاحة، فإن الزراعة تعتمد كليًا على هذه القنوات للري .

إن المرء يرى فعلاً مزارع نخيل جيدة تمتد لأميال على طول الساحل الشمالي وكذلك حدائق الفواكه من الرمان والبرتقال . وتنمو جيدًا أشجار الطرفاء والتمر الهندي وكذلك اللوز الهندي (*Terminalia Catappa*) . لكن يتولد لدى الإنسان فكرة أن البستنة ينظر لها على أنها هواية مربحة للسكان الأثرياء أكثر من كونها صناعة . تجفف أسماك البحر الصغيرة لكثرتها في الشمس وتستخدم كعلف يعوض

(١) هو أعلى جبل في جزيرة البحرين وأرخبيلها ، يقع على بعد ١٣ ميلاً جنوبي مدينة المنامة ويبلغ ارتفاعه ٤٤٠ قدمًا ويمكن أن تشاهد كل البحرين من قمة هذا الجبل ويرى من البحر على مسافة ٢٤ ميلاً . انظر : ج.ج. لوريمر ، دليل الخليج ، القسم الجغرافي ، جـ٢ ، ص ٦٣٣-٦٣٤ .

النقص في غذاء ماشية اللبن ، وتحب الأبقار هنا هذا العلف الغريب فتدر محصولاً ممتازًا من الحليب والزبد .

في مجال الآثار فإن حقلاً من الركاميات (التموليات) القديمة قرب قرية عالي[١] ماتزال غامضة وهي تغطي مساحة لا تقل عن إثني عشر ميلاً مربعًا . هذه الركاميات ذات حجمين، فالأكبر - والذي لا يوجد الكثير منه - عبارة عن رواب مخروطية الشكل تتكون من حصباء هشة، وترتفع عن السطح حوالي أربعين قدمًا تغطي قبورًا من جلاميد صخرية كبيرة غير مهذبة (اللوحتان رقم ٣ ، ٤) وبعض هذه المباني ذات طابقين . قام الرائد إف . بي. برايدو ، الممثل السياسي سابقًا (الكولونيل برايدو المقيم البريطاني في الخليج العربي الآن) بحفريات ووجد هياكل عظمية وفخار ، وهذه عادة ما تكون سمة للقبور الشرقية حيث يترك الأقارب طعامًا وماءً للميت ليستخدمها لرحلته للعالم الآخر . كما وجد قطعة من ثور منحوت ويبدو من الصورة أنها تشبه بعض المنحوتات السومرية للعجول التي اكتشفها السيد ليونارد سي. وولي في (مدينة) أور الكلدانية ما بين سنتي ١٩٢٣ - ١٩٢٤م . أرسل الرائد برايدو عيناته إلى الهند للفحص (حيث توجد الآن) ونشر نتائج تحقيقاته مع بعض الصور الممتازة في مقالة بعنوان «مدافن التمولي في البحرين» . كما قام السيد ثيودور بنت بفتح عدة قبور ركامية[٢] /p.10/ وأعطى وصفًا لذلك في المجلة الجغرافية[٣] . كان الاعتقاد السائد في ذلك الوقت بأن هذه المخلفات فينيقية الأصل . أعيد طرح السؤال أثناء مناقشة لبعض المقابر الركامية في الجزيرة العربية بعد

---

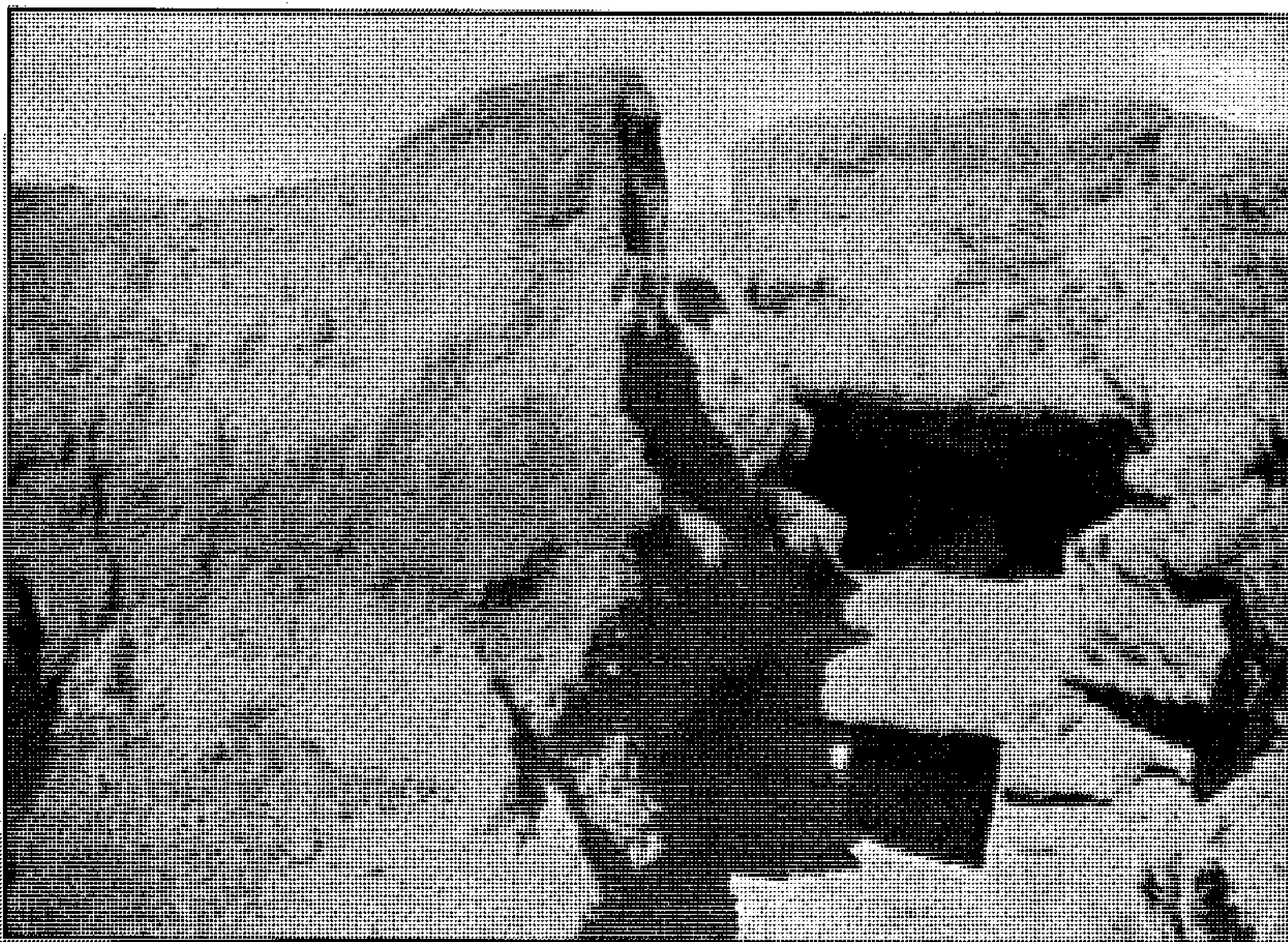
(١) قرية عالي في البحرين تبعد ستة أميال عن قلعة المنامة وتقع بها أكبر أماكن الدفن الأثرية . انظر : ج. ج. لوريمر ، دليل الخليج ، القسم الجغرافي ، جـ ١ ، ص ٨١-٨٢ . (المترجمان)

(٢) كما قام الرائد دوراند بفتح أحد القبور الركامية وقام ضباط سفينة صاحب الجلالة سفينكس بفتح قبر آخر .

(٣) The Bahrein Islands in the persian Gulf. p*roceedings of the Royal Geographical Society*, New Series, Vol. XII., 1890



اللوحة رقم (٣)
القبر الركامي (التمولي) الأكبر في البحرين وتظهر عليه آثار الحفريات



اللوحة رقم (٤)
قبر ركامي (تمولي) في البحرين : بناية من طابقين

أن قدم السيد ڤيلبي ورقة في اجتماع الجمعية الجغرافية الملكية سنة ١٩٢٠م ولن أستطع عمل أفضل من أن أنقل عن الدكتور هوغارث قوله حول هذا الموضوع :[١]
«أخشى أن الدلائل التي تقول بأن ركاميات البحرين فينيقية هي في الواقع لا تساوي شيئًا. قال السيد ڤيلبي ـ حسب الرأي الراجح كثيراً ـ : إن القبر الذي حفره السيد بنت كان فينيقيًا . وهكذا مرت ثلاثون عامًا على ما كان رأيًا راجحًا في ذلك الوقت، ولكن الدلائل التي بُني عليها هذا الرأي كانت عبارة عن بعض عاجيات في المتحف البريطاني اكتشفت أصلاً من قبل ليراد في كالخ (نمرود) ، إحدى عواصم آشوريا القديمة والتي صنفت على أنها فينيقية لأنه لم يكن معروفًا في ذلك الوقت من هو قادر على إنتاج ذلك النوع من الفن . ولكن نحن نعلم الآن بأنه لم يكن بأية حال مستحيلاً أنها صنعت من قبل سكان شمال سوريا أو من قبل الآشوريين أنفسهم، وأنا أظن أن الرأي الراجح الآن يقول بأنها ليست فينيقية . لم يجد السيد بنت في القبر الذي اكتشفه ـ والذي كان قد نُهب بشكل كبير ـ إلا القليل مثل بعض قطع العاج والتي بنى عليها وعلى تشابه صناعتها مع تلك العاجيات في المتحف البريطاني السيد أ. إس . دوري رأيه بأن القبر الذي اكتشفه السيد بنت كان بلاشك فينيقيًا . إنني أخشى أنه حتى لو كان فينيقيًا أو لو كانت العاجيات التي من آشوريا فينيقية فلن يثبت هذا شيئًا حول أصل الفينيقيين . وكما قال السيد ڤيلبي بأن الفينيقيين إذا حصل أنهم هاجروا من الخليج العربي فإن هجرتهم كانت حوالي ٣٠٠٠ ق.م . كما أن عاجيات نمرود ترجع لفترة متأخرة جدًا أي بعد حوالي ٢٠٠٠ سنة» . /p.11/

هذا يلخص معرفتنا بركاميات (بتموليات) البحرين في الوقت الحاضر . نزلت إلى بعض الخنادق التي حفرها المنقبون في وسط الركاميات، فوجدت أن التجويفات تتكون من طابق أو طابقين، ويظهر من الفتحات التي تلتحم فيها الروافد

---

(١) *Geographical Journal,* December,1920.

بالجدار أنها (الروافد) كانت أعمدة برؤوس حادة وعُملت السقوف بوضع قطع صخرية تمتد من الجدار إلى الجدار . في أحد القبور الركامية (التموليات) كان الطابق السفلي متقاطعًا على شكل حرف تي (T) وبحالة جيدة . وجد برايدو في الطرف الأقصى من ممر التقاطع هيكلاً إنسانيًا ولكن القبر الآن مسكنًا لزوج من بوم المخازن (*Tyto alba*) ووجدت قشر بيضهما وبقايا طعامهما من القوارض الصغيرة .

تعد هذه القبور الركامية (التموليات) الصغيرة بالآلاف وهي ليست كبيرة الحجم لتشتمل على مبان صخرية ولكن اكتشف بها هياكل عظمية مستلقية . ربما يدل هذا على أنها كانت مقابر للجنود العاديين . بينما دفن الزعماء (القادة) في قبور أكثر فخامة ولكنه يصعب حتى التخمين حول أصلها .

لا يوجد ـ حسب علمي ـ مدافن مثل هذه في الخليج العربي[(١)] ولهذا فيمكن الافتراض بأن البنائين كانوا جالية أجنبية صغيرة محدودة في الجزر والمناطق المجاورة. لقد طرح القس سي. فورستر ، في كتابه جغرافية الجزيرة العربية (*Geography of Arabia*) (الجزء الأول ص٣٠٦ نشر ١٨٤٤م) ، نظرية حول سكان البحرين الأوائل مع أنها بنيت على دلائل ضعيفة نوعًا ما، ولكنها مثل غيرها يحتمل أن تكون صحيحة وبالتأكيد مثيرة .

قال : «ولكن ثمي بطليموس (Themi of Ptolemy) تم التعرف عليهم كجزء من بني تمين (تميم) في البحرين ، قبيلة سابقة لعهد محمد بوقت طويل ، وكانوا مجوسًا وأنصاراً متحمسين للمجوسية . يقول باروخ في كتابه ، هذا الجنس الهاجري (نسبة إلى هاجر) ، تجار مران وثيمان ، ينظر لهم بوصفهم طلاب حكمة

(١) قال السيد سيسل هـ. سمث (من المتحف البريطاني) في مناقشة بعد محاضرة بنت «إن مقبرة كبيرة بقبور ركامية كبيرة مثل تلك التي في البحرين تعتبر في الواقع فريده» .

/p.12/ وراغبي تفاهم بمعنى آخر بوصفهم مجوسًا أو حكماء . وليس أكثر من هذه الحقائق التاريخية لاستنتاج طبيعي، وهو أن المجوس أو حكماء الشرق والذين جاءوا لإعلان بيعتهم وتقديم هدايا هم القيمة للمهدي الرضيع، وبإذن من العلماء سُمح لهم بالمجيء من الجزيرة العربية ، كانوا في الحقيقة من نسل إسماعيل من قبيلة مجوسية من (Tema) تامة أو من بني تمين من البحرين؟» .

في الختام أود أن أضيف أن غياب أي نقش حجري بارز يخلد ذكرى موتى هذه القبور يجعلني أقول إن هؤلاء لم يكونوا أناسًا عسكريين، ولكن إما علماء أو تجارًا مسالمين. ولم يرو لنا التاريخ أن أمراءهم قاموا بحملات حربية ، ولكن من المعروف أن جيرانهم في الجرهاء تخلصوا من الغزاة الذين يهددون بنهب البلدة عن طريق تقديم الهدايا القيمة .

جزيرة البحرين عبارة عن هضبة صغيرة تتكون من أحجار رملية جيرية تعود للعصر الأيوسيني . في وسطها منخفض على شكل فوهة بركان أطرافه شديدة الانحدار ، وفي بعض الأماكن تبدو جروف بيضاء بارتفاع ٢٠ قدمًا . على بعد حوالي ستة عشر ميلاً جنوب الميناء، وفي وسط الجزيرة تقريبًا يوجد ـ تل ـ جبل دخان ويرتفع إلى ٤٤٠ قدمًا ، ويعتبر علامة بارزة للسفن في البحر . ويتكون (الجبل) من صخور أكثر سوادًا ـ أشرت إلى أنها بركانية ـ ولكن كان عندي بعض الشك حول هذا الموضوع ؛ لأني وجدت بعد وصولي إلى إنجلترا أن أحد الثقات قد قال عنها من قبل أنها أحجار جيرية . المناطق المجاورة قاحلة ولكن إلى الغرب من التل يوجد قصر صغير وبئر تسمى صخر حيث يسكن الأمير وأعضاء من الأسرة الحاكمة عندما تصبح رطوبة البحرين لا تطاق . ومن هنا تأخذ الأرض في الارتفاع إلى جبل دخان وآخر ٢٠٠ قدم منها عبارة عن قمة صخرية عالية ومنها يبدو أمامك

منظر الجزيرة بكاملها . لا ترى إلا القليل من الطيور فلقد رأيت أرنبًا بريةً وحدأةً *(Milvus migrans)* تحلق فوق أعلى قمة ورميت طائر الأبلق المبرقع (*Saxicola Monacha*) وهو يعتبر طيرًا نادرًا في أي مكان . /p.13/ يوجد كذلك كهف على شكل تجويف صخري ويعتبر مخبًأ جيدًا للقراصنة . الدخول إلى هذا المكان يتم بالزحف حبوًا في نفق ضيق دامس الظلام طوله عشرين ياردة وفي نهايته غرفتين صغيرتين بسقف على شكل قبة وبارتفاع تسع أقدام وعرض ست أقدام .

بتجهيزات البحار أحضر رفيقي ـ النقيب بوينتز من البحرية الملكية (البريطانية) الهندية ـ طرف شمعة وأشعلها ولم نكن نعلم أبدًا إلى أين ستقودنا اكتشافاتنا . بعد ذلك بقليل وبعد أن تعودت أعيننا على النور أسقطت الشمعة من يده ثم دخلنا مرة أخرى في ظلام دامس بينما لطختنا أجنحة شبحية على الوجه . لوهلة كنا في ربكة في ذلك المكان الصغير جدًا ، ولو لم أخطف نظري إلى النفق خلفنا ورأيت شكلاً مسرعًا تجاه الفتحة وطار في ضوء النهار لكنا لا ندري إلى هذا اليوم أن الذي هاجمنا كان بومة مخازن سددنا عليها طريق الهروب بدخولنا .

الآن يجب أن نعود إلى سنة ١٩٢٣م والتجهيزات للرحلة إلى بر الجزيرة العربية . إن عبدالعزيز القصيبي من عائلة ثرية من تجار البحرين ومالك سفن وممثل لسلطان نجد في البحرين كذلك . لعائلة القصيبي فروع أخرى في بومبي والهفوف ويدار كل فرع بأحد إخوته . معظم التجارة مع وسط الجزيرة العربية تمر عبر أحد أو كل هذه المراكز ، ولذا فإن حجم التجارة التي تقوم بها أسرة القصيبي كبير . لهذه الأسرة احترام في داخل الجزيرة العربية ليس فقط ذلك الاحترام الذي تتمتع به الشركات العريقة عادةً ولكن بالإضافة إلى ذلك فهي ركيزة من ركائز الاقتصاد السياسي للسلطان (عبدالعزيز) ويمكن اعتبارها خزانة له .

كان عبدالعزيز القصيبي حاضراً في المؤتمر قبل سبعة أشهر، عندما قدم السلطان دعوته للسير برسي كوكس حيث التفت عليه وقال: «عندما يحضر تشيزمان فسهل إجراءات قدومه». بالإضافة إلى ذلك فقد كنت أحمل رسالة إلى السلطان من السير برسي كوكس /p.14/ تحمل تحياته، وخط سير بالأماكن التي كنا أكثر رغبة في جمع عيناتها ومن ضمنها واحتي يبرين والجافورة(١). كانت نسخة من الرسالة قد أرسلت مسبقًا للسلطان لإعطائه الوقت اللازم لعمل الترتيبات التي يراها ضرورية.

على ذكر هذه الرسالة فلا بأس أن أستطرد قليلاً لأشرح فخًا وقعت فيه بدون قصد، وهذا يوضح كيف أن الرحالة يجب أن يكون حذرًا ويمحص معلوماته قبل أن يدلي بها. لا يعرف إلا القليل عن المنطقة الصحراوية بدءًا من جنوب طريق الرياض ـ الهفوف ماعدا معلومات ثانوية فقط وعن طريق أخبار بدو آل مرة. مع أن آل مرة أخضعوا لأول مرة في التاريخ لحكم ابن سعود العظيم(٢)، إلا أنه لم يسبق قط لمسئول في الحكومة الحالية أن ذهب هناك. ليس غريبًا أن حكومةالأتراك السابقة لم تتجرأ أبدًا على الخروج حيث إن سلطتها لم تتعد أسوار الهفوف، وطريق الرياض الهفوف ذاته كان في قبضة عصابات لصوص آل مرة.

لا يوجد إلا قليل من المناطق في العالم التي لا يتوفر حولها معلومات إرشادية، وقد بحثت في كل المصادر عن معلومات أولية عن هذه المنطقة ولكن بلا جدوى؛ لهذا كان من الطبيعي أن أعتمد على السند الوحيد وآخر عمل موثوق عن هذا البلد كتاب فيلبي *(Heart of Arabia)*. في الفصل الخاص بالصحراء الجنوبية (الجزء الثاني ص ٢١٦)، والتي اهتم بها كثيراً ولم يأل جهداً في جمع كل ما استطاع من

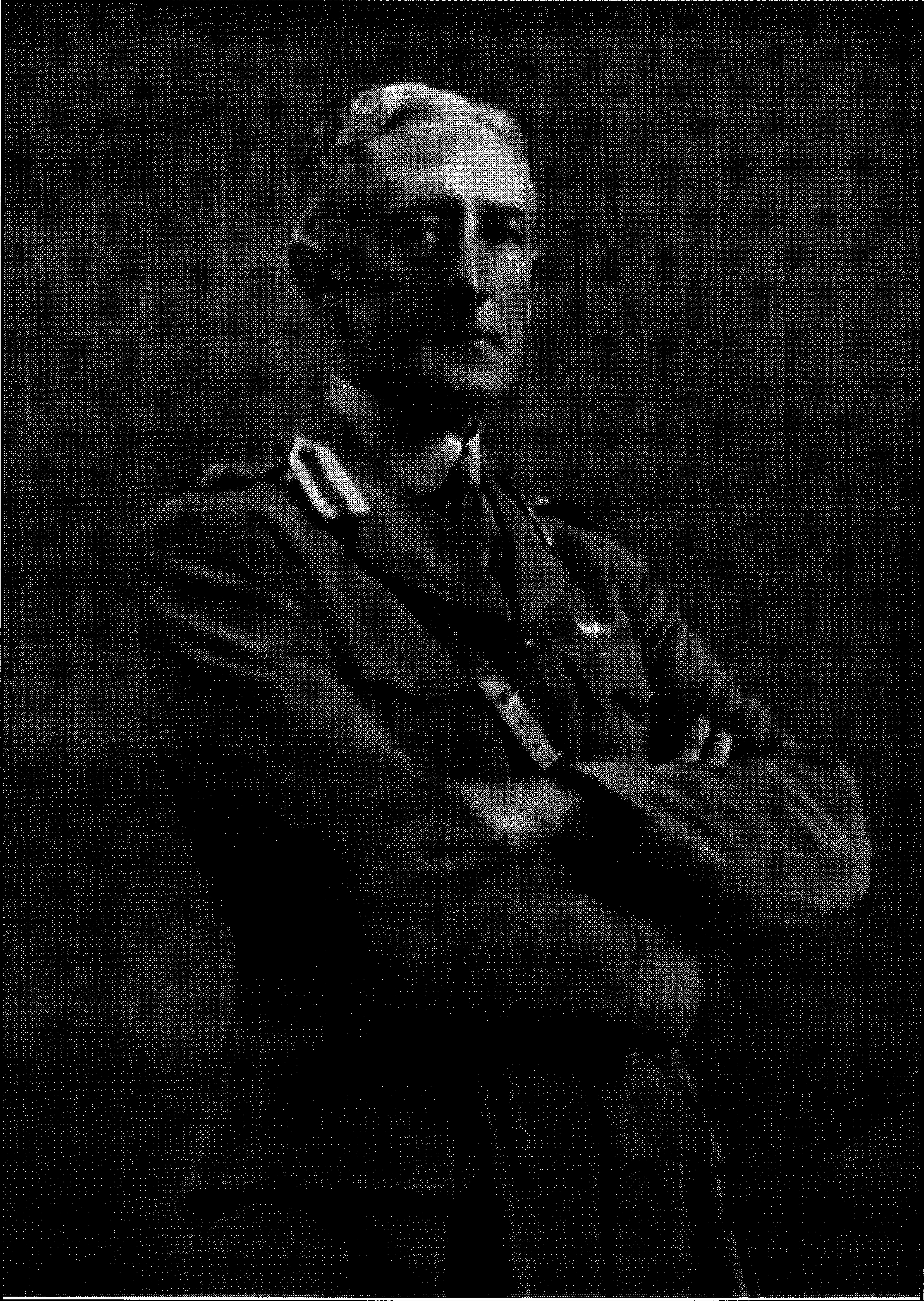
---

(١) الجافورة هي صحراء رملية واسعة جداً وصعبة المسالك لغزارة رملها، تمتد من العقير شمالاً حتى الربع الخالي جنوبًا ومن ساحل الخليج العربي شرقًا حتى واحة الأحساء غربًا. انظر: حمد الجاسر، معجم المنطقة الشرقية، القسم الأول، ص ٣٥٦ـ٣٦٣. (المترجمان)

(٢) من المعروف أن آل مرة دخلوا تحت الحكم السعودي قبل ذلك. (المترجمان)

معلومات حولها ، نجده يعطي وصفًا لها حسب ما رواه له مرافق من آل مرة . عندما قرأت هذا الفصل توصلت إلى أن الجافورة كانت واحة أو قصراً يحوي مخلفات مدينة مهجورة ، وبها برك من الماء المالح ، وأنها تقع إلى الجنوب من يبرين . كما أن ڤيلبي قد وضعها بجراءة على خريطته على بعد حوالي ١٥٠ ميلاً إلى الجنوب وعليها علامة استفهام . ظننت بأن علامة الاستفهام هذه تعني أن الجافورة يمكن أن تكون على بعد حوالي ٢٠ ميلاً شرقًا أو غربًا من الموقع المعين ، ولم يخطر ببالي أنها تقع على بعد ١٠٠ ميل /p.15/ إلى الشمال الغربي وإلى الغرب من يبرين وأنها ليست واحة بل صحراء رملية شاسعة لا ماء فيها ، ويجب عليّ المرور بها في طريقي من الهفوف إلى يبرين . لهذا ففي أثناء صياغة الرسالة للسلطان اقترحت على السير برسي كوكس الفقرة التالية : «إن أكثر ما اهتم به أن يحضر معه عينات من واحتي يبرين والجافورة حيث من شبه المؤكد أن يجد في هذه المناطق أصنافًا شيقة وجديدة»، وهذه هي الصيغة النهائية للرسالة .

بعد وصولي فعلاً إلى يبرين اتضح لي الخطأ . ومع أننا أمضينا عدة أيام نجتاز صحراء الجافورة إلا أنني لم أربط بينها وبين الصورة التي تكونت من وصف ڤيلبي لواحة صغيرة ذات أحواض مالحة ومخلفات مدينة مهجورة في محيطها مدفونة في الرمال وتبعد عن يبرين مسير عدة أيام جنوبًا . عندما بدأنا نتحدث حول الموضوع أثناء مقابلتي للسلطان كان طبيعيًا أن يكون بيننا تناقض . بدا مندهشًا عندما قال لي أنه سيسهل سفري إلى يبرين ، وأضفت مسرعًا والجافورة كذلك » قال «نعم» «والجافورة كذلك» . حينئذ كان دوري لأن أبدو مندهشًا على موافقته بسهولة على هذا الاقتراح ولم يدر بخلدي أن مشكلة الجافورة صغيرة مقارنة مع مشكلة يبرين . لو كانت صياغة رسالة السير برسي كوكس بطريقة مختلفة ، لو ذكرت كلمة الجافورة فقط ، على أساس أنه ـ لتصل إلى هناك ـ لابد من المرور بيبرين في الطريق



اللوحة رقم (٥)
اللواء سير برسي كوكس (G.C.M.G, G.C.I.E.) أول مندوب سام في العراق (*)

(*) G.C.I.E. هذه الحروف اختصار للكلمات التالية (Knight Grand Commander of the order of the Indian Empire) وهو ما يمكن ترجمته بوسام القائد الأعلى لفرسان الإمبراطورية الهندية .
أما G.C.M.G. فهي اختصار للكلمات التالية (Knight Grand Cross of the Most Distinguished order of St. Michael and St. George) وهو ما يمكن ترجمته بوسام الفارس المميز من درجة القديس مايكل والقديس جورج .

فإنني سأكتشف متأخراً جداً بأنني لا أستطيع قطع أكثر من نصف الطريق إلى يبرين . كان السلطان سيظن أنه بسماحه لي بالسفر إلى الجافورة يكون قد أرسلني إلى المكان الذي كان السير برسي كوكس أكثر اهتماماً به لجمع عينات منه ولكن بالنسبة لي كانت فعلاً ستكون مأساة(١) . /p.16/

فكرت في هذا الأمر وأستطيع القول فقط أنه لابد أن ڤيلبي ومرافقه المري كانا في وقت المحادثة جنوب يبرين في الطريق إلى وادي الدواسر . كان ڤيلبي يتخيل أنه قادم من الهفوف باتجاه يبرين ـ بمعنى أنه قادم من الشمال ـ بينما كان مخبره يستطيع فقط أن يرى المكان من حيث هو بالفعل ، بمعنى من الجنوب مما سبب إرباكاً في تحديد الاتجاه. بقية وصف ڤيلبي لديار آل مرة تطابقت تماماً مع ملاحظاتي .

لقد ساعدتني الأوراق الاعتمادية والتحضيرات الممتازة لتصبح المرحلة الأولى من الرحلة سهلة بما فيه الكفاية . لو لم تتم الترتيبات مع السلطان في الرياض لحين وصولي البحرين ، لكنت أضعت شهراً قبل أن يصل الرد من الرياض إذ أن الجمل أسرع وسيلة للمواصلات .

جاء عبدالعزيز القصيبي لزيارتي في اليوم التالي ، ١٥ نوفمبر ، وقال إن البغلة ستبحر في صباح الغد إلى العقير ، وقد تمت الترتيبات لسفري المريح عليها . سأل عن السير برسي كوكس وقال : إنه يأمل بعد وصولي إلى الهفوف أن يقودني حبي للقنص إلى مزارع عائلته حيث يوجد الكثير من الأشجار وتتوفر الطيور .

(١) معلومة أخرى حصل عليها ڤيلبي من نفس المصدر تحتاج إلى تصحيح . يقول عندما نتحدث عن وادي السهباء Sahba (تكتب Wadi Sahaba في الخرائط السابقة ولكن حرف a في الوسط لا ينطقه آل مرة) «يوجد في وسط الوادي قرب تقاطع طريق الأحساء أربع آبار : الخن ويوجد شجرة نخل صغيرة بجوارها وحرض وبئرين آخرين» . لا يوجد في تلك المنطقة آبار ولا أشجار نخيل في الوادي ولا يتوفر الماء بين زرنوقة والأحساء ويبرين .

مناخ البحرين لطيف من الخريف إلى الربيع . رافقت النقيب دالي الذي كان يقوم برد زيارة رسمية لقائد سفينة صاحب الجلالة (*Crocus*) كروكس التي كانت راسية في الميناء . تتم التحية للحكام المحليين وللرسميين من موظفي الحكومة البريطانية في الخليج عن طريق مفرقعات نارية تطلقها المدافع ، وإلغاء هذا أو حتى طلقة واحدة مما هو مقرر من التحية الكاملة للشيخ يمكن أن تسبب مشاكل سياسية خطيرة . بعد أن غادر الزورق السفينة التي كانت الراية البريطانية ترفرف على مؤخرتها أطلقت المدافع تحية لتخبر البحرين بأن الراية البريطانية قد تبادلت السلام مع الملازم البحري الأبيض .

في يوم ١٦ نوفمبر دفعت مئة جنيه من كتاب اعتمادي /p.17/ لبنك الشرق - فرع البحرين وأخذت خمسمائة روبية نقداً للرحلة في أكياس ثقيلة وكبيرة نوعًا ما . العملة الفضية في داخل الجزيرة العربية هي الريال[١] أي دولار ماريا تريزا الفضي النمساوي . تقبل الروبية بعض الدكاكين في الهفوف ولكنني كنت معتمداً على بيت القصيبي ليس فقط لتحويل الروبيات إلى ريالات ولكن لصرف شيك على البحرين فيما لو حصلت لي مشاكل مالية في الأحساء . سيكون هناك وقت للتشاور معهم كذلك حول أفضل الترتيبات للمرحلة القادمة من الرحلة حيث إن النقود الورقية غير متداولة في أراضي السلطان . /p.18/

(١) الريال الذي كان متداولاً في ذلك الوقت والذي اشتهر باسم الريال الفرانسي هو عملة نمساوية تسمى دولار ماريا تريزا . (المترجم)

الفصل الثالث :

العقير

غادرنا البحرين الساعة ١١,٢٠ صباحًا وأجبرتنا في المرحلة الأولى ريح شمالية قوية على التعرج كثيراً ولكنتا سرنا بسرعة جيدة عندما اتجهنا جنوبًا مبحرين بمحاذاة الجزيرة ووصلنا إلى خارج مدخل ميناء العقير الساعة ١٠,٣٠ مساءً حيث أرسينا هناك . طول مياه الميناء أربعة أميال وهو ميناء طبيعي واسع وضحل المياه ولكن المدخل ضيق وغير مضاء طبعًا ، ولهذا لم يغامر القبطان بالدخول في الظلام . انطلقنا عند الفجر من صباح الغد ، والرياح الشمالية مازالت تهب ، وأمضينا ثلاث ساعات في عبور الأميال الأربعة من مياه الميناء حتى وصلنا الرصيف . كانت التجهيزات التي رتبت لي على هذه المركبة عبارة عن مكان على السطح لأفرش سريري وكرسي كان قد استعاره ربان السفينة العربي لهذه المناسبة . تقدم وجبتان في اليوم بعد الظهر وبعد صلاة المغرب وكانتا متناهيتين في البساطة : أرز مسلوق مع قليل من السمن المذاب عليه وقطعة من اللحم أو السمك المخلوط أحيانا مع الأرز وطبق آخر من التمر . وبصفتي مسافراً من الدرجة الأولى فقد كانت الأطباق تقدم لي أولاً ، وعندما أنتهي يجتمع الملاحين ويجهزون على البقية . يأتي بعد ذلك الشاي ثم دلة نحاسية صغيرة تصب منها القهوة - بكميات قليلة أحيانًا - في فناجين صغيرة .

الجانب البحري من ميناء العقير عبارة عن منخفض رملي ضيق وموقعه بهذا الشكل الجيد يجعله يخدم الميناء كحاجز صناعي للأمواج ويسمى هذا اللسان البحري برأس الحربة .

استقبلني عبدالرحمن أمير العقير وممثل السلطان على رصيف الميناء، وأخذني إلى منزله في مقر /p.19/ الإمارة لتناول القهوة وقدم لي جنديين من جنود أمير الأحساء كانا قد أحضرا الإبل لنقلي إلى الهفوف . كان سعيد الأكبر منهما متأنقًا في (زبونه) أو عباءته القرمزية وتحتها صدرية صوفية بأطراف مذهبة . يظهر جلده الداكن عن مزيج زنجي قوي في أسلافه . كان الآخر شابًا وسيمًا من نجد وتعرفت عليه كأحد الحراس الذين رافقوني من العقير إلى سلوى سنة ١٩٢١ في مهمة بحث غير ناجحة عن خرائب الجرهاء الميناء الفينيقي القديم . كان سعيد متلهفًا للانطلاق في الحال ولتقوية حجته ، قال: إن الإبل كانت تنتظر هناك لعدة أيام ولا يوجد لها مرعى في المنطقة المجاورة . كما ذكر بأنه يخشى غضب ابن جلوي عليهما لغيابهما الطويل وربما يحتاج لخدماته (سعيد) للقيام بأعمال أخرى .

لم يكن مناسبًا أن أستعجل المغادرة لأن العقير هو أول مكان يجب أن يحدد منه خط العرض والطول . كان موقعها قد وضع بشكل مؤقت على الخرائط ولكنه لم يحدد أبدًا بطريقة صحيحة ، ولذا فليس من الصعوبة إيضاح أهمية هذا العمل . إن المزواة جهاز مخيف الشكل في أي وقت، وهذه هي المرة الأولى التي تصل إلى بلاد السلطان، ويبدو أنه من الحكمة الاستعداد وعدم تعريض فرص نجاح المراحل المقبلة من الرحلة للخطر بإثارة الشكوك . بما أنه كان من المعروف جيدًا أنني قدمت لهدف صيد الطيور، وفي نفس الوقت شعرت بأن فترة الأسبوع الأول تقريبًا لابد أن تكون فترة تدقيق خشية أن تكون الأولوية لمشاريع أخرى غير دراسة الطيور. لقناعتي بإمكانية حصول هذا التشكك فلابد من إسداء الشكر لشابين أمريكيين قابلتهما في البصرة . تعجب الشابان بشدة عندما علما بأهداف رحلتي وأعتقد جازمًا أنهما ظنا بأن التظاهر بجمع الطيور كان عملاً بارعًا وأصيلاً وأن الإنسان يقوم فقط بمثل هذه الرحلة للبحث عن الذهب أو النفط أو الألماس . ومع هذا فقد قررا الإبقاء /p.20/

على المرح حتى افترقنا عندما قال أحدهما بابتسامة معبرة: «نتمنى أن تصيد الكثير من العصافير» .

خطر ببالي عذر معقول لتأخير سفري من العقير ليومين . كنت في زيارتي السابقة قد حددت جحور بعض جرذان الخُلد (*Nesokia*) ، في موقع منعزل يحده أربعين ميلاً من التلال الرملية من جهة والبحر من الجهة الأخرى ومجموعة القوارض هذه يبدو أنها مثيرة للاهتمام . أخبرت الأمير والجنديين أنني سأنصب المصائد لهذه الجرذان لليلتين وسأكون جاهزًا للسفر في الصباح التالي . اعترض سعيد وكان لابد من إسكاته أخيرًا بأن بإمكانه السفر مع الإبل إذا اعتقد أن الأمير (ابن جلوي) يطلب حضوره . كنا محظوظين بأن اصطدنا جرذًا (*Nesokia*) لأن الجرذان عادة ما ترفض المصائد المزودة بالطعم . كان مثل شبيهه في العراق (*N. buxtoni*) إلى الشمال منا وبينهما ٤٠٠ ميل من الصحراء . كيف وصلت هذه المجموعة إلى هذا المكان الصغير من شجر الأسل ، بطول حوالي ١٠٠ ياردة وعرض ٥٠ ياردة ، وعلى ماذا عاشت؟ كل هذا مازال لغزًا عندي .

المشكلة التي لم تحل بعد ، كانت كيف نقدم جهاز المزواة لأن الليل قادم ومن الضروري أن نبدأ العمل على رصد النجوم حالما تكون مرئية . كنا جميعًا مجتمعين مرة ثانية في غرفة الضيوف عندما ألهمتني رائحة القهوة أثناء تحضيرها فكرة مناسبة . بدأت بوصف الطيور في المتحف البريطاني ، والتي جاءت من كل أرجاء العالم ، باستثناء البلاد التي يحكمها ابن سعود . مضيت في الكلام لأقول : أتمنى أن أملأ هذا الفراغ ، ولكن من الضروري عندما نجمع طيور وحيوانات من أماكن غير معروفة أن أقوم بدراسة على النجوم والشمس لكي أبرهن عند عودتي أنني ذهبت فعلاً إلى المكان وإلا ربما يأتي من يقول أنني لم أذهب إلى هناك أبدًا وأن الطيور قد اصطدتها

في البحرين . إن قراءات النجوم تختلف لكل مكان في العالم وهي تعتبر دليلاً قاطعًا . أصغى الجميع بشغف، وسأل الأمير كيف يستطيع أي شخص /p.21/ معرفة ما هي الأرقام الصحيحة إذا لم يكن أحد قد وصل إلى المكان من قبل . لم أتوقع هذا (السؤال) وشعرت بأن الحاضرين ينتظرون جوابي بشوق غير عادي، ولحسن الحظ أن الجواب الذي خطر ببالي أولاً كان له أثر مطمئن ودائم . أجبت «بأنه يوجد في لندن رجال حكماء يعرفون القراءات الصحيحة للقسطنطينية والبحرين ويستطيعون حساب القراءات الصحيحة للأماكن الأخرى التي تقع بينهما . لذلك فسيكونون قادرين على معرفة ما إذا قلت الحقيقة» قال الآخرون: «طبعًا» وهم ينظرون إلى الأمير «نحن نعرف ذلك ! ياله من سؤال مضحك !»

مرت المشكلة ولم نضع وقتًا لإخراج الآلة وبدأنا نعمل ، كان مهدي ممسكًا بالدفتر وساعة الكرونومتر (أداة دقيقة لقياس الزمن) والمصباح بينما كنت أدون قراءات الآلة على النجوم في الشرق والغرب للحصول على خط الطول وعلى النجم القطبي للحصول على خط العرض . يكاد يكون العمل في الليل وحيداً على جهاز المزواة مستحيلاً ، ومع أن مهدي أصبح نافعًا جداً فهو يقوم بالأشياء الروتينية وتصلني الأشياء المطلوبة قبل أن أطلبها إلا أنني احتجت بشدة إلى مساعدة رجل آخر يتولى عملية التدوين في هذه الأوقات ويراجع عملي . أخذنا قراءة الشمس في الغد، شرق وغرب دائرة خط الطول ، وعلى دائرة خط الطول لمراجعة أرقام الليلة السابقة .

لا يوجد على الساحل أو في هذا الميناء الرملي الصغير إلا القليل من الطيور . تكاد تصل صحراء الكثبان الناعمة إلى البحر تاركة ما يقارب الميل من السهول المالحة وغير المستوية . أقيم في نهاية هذا الامتداد الفرضة الحجرية الصغيرة والقلعة ومبنى كبير للجمارك وهذه تشكل بلدة العقير . ولقد تُرك هنا كل من الأمير ومأمور المالية

ومأمور الجوازات وكاتبه وهم السكان الوحيدون في هذا المكان . إن هؤلاء ينظرون لعملهم هنا كإقامة عقابية ويطمحون للترقية التي ستأخذهم إلى موقع أكثر ملاءمة . إذا كان عدد السكان المستقرين قليلاً ، فإن المتنقلين كثُر ومتنوعون . تأتي السفن عدة مرات في اليوم لتفرغ بالات من الملابس والأرز وبضائع تجارية أخرى متجهة إلى الداخل /p.22/ وتحزم كل هذه الأشياء في رزم ملائمة للنقل على الإبل أو الحمير . تغدو مجموعات من قوافل الإبل وفرق من الحمير البيضاء الكبيرة الأحسائية وتروح من وراء التلال الرملية حاملة أثقالاً مذهلة ومطوقة بالطرود المنزلية حتى إنك لا ترى منها إلا الأذنين والأرجل فقط . باستثناء موسم التمر ، عندما يتوفر للتصدير قليل من بالات تلك الفاكهة الزائدة ، فإن الاستيراد يزيد على التصدير كثيراً وهذا الأخير قليل جداً . لا تنتج الصحراء إلا القليل مما يحتاجه العالم الخارجي .

الجواز عبارة عن وثيقة بسيطة مكتوب بلغتين ، العربية والإنجليزية كالتالي :

سلطنة نجد وملحقاتها . إلى من يهمه الأمر . حامل هذا الجواز أحد رعايا سلطنة نجد وملحقاتها ونطلب السماح له بحرية المرور . العمر ، الطول ، لون العينين ، المهنة ثم يأتي بعد ذلك التوقيع أو الختم الرسمي . الصورة ، كما سنلاحظ ، يجب الإعفاء منها حيث لا وجود للكاميرات في هذه الديار .

قبل أن أتوغل في داخل هذا البلد سيكون من الأفضل أن أشرح وضع عبدالعزيز بن سعود ، سلطان نجد وملحقاتها (صورة الغلاف) لأولئك الذين ليسوا على دراية بأمور الجزيرة العربية . منذ لحظة نزولي في العقير ، وأنا في أرض عاهل مستقل عن أي دولة مجاورة أو قوة أجنبية . ينحدر السلطان الحالي من أسرة شيوخ عريقة وبسياسته الحكيمة أقام مملكة واسعة وبسط نفوذه عليها . الرابطة الدينية التي تجمع بين القبائل (البدو) والحضر معًا تحت قيادته هو التزامهم بالوهابية ـ تعاليم

عبدالوهاب[١] ـ أول من نادى بالعودة إلى عبادة الواحد الأحد كما جاءت في القرآن الكريم[٢] . وهاجم الممارسات الشركية التي دخلت العبادة في الأماكن المقدسة مثل المدينة ومكة وكربلاء . وللسلطان سيطرة روحية على أتباع الطائفة بالإضافة إلى قيادته للأمور الدنيوية بوصفه شيخ مشائخهم /p.23/ أو السلطان [٣] ، ولقد أهله لهذا الوضع شخصيته القوية وقابليته الفطرية للزعامة . أنيط الوعظ والتعليم الديني والتربية بالملالي (المشائخ) المسئولين عن المساجد مع أن واجب إمامة الصلاة خارج البلدان تقع عادة على الأكبر في المجموعة أو أي شخص آخر تحركه العاطفة الدينية[٤] .

قبل أن أترك الوهابيين لابد أن أذكر الإخوان ، وهم فرع من تلك الطائفة أكثر تقشفًا ، لأن أنشطتهم غالبًا ما تذكر في الصحافة الأوروبية . أسس هذا المجتمع من قبل السلطان العظيم نفسه الذي أظهر عبقريةً في تسخيرهم والتحكم بطاقة هذه المجموعة غير المنضبطة . حوله هذا الإنجاز سريعًا إلى رجل دولة بخلاف كثير من أعيان الشرق الميالين ـ كسياسيين ـ لإشعال غضب جزء من المجتمع فقط ليجدوا الحريق يخرج عن سيطرتهم . هذا الغضب الذي يريدون توجيهه لمصلحتهم غالبًا ما ينقلب ضدهم ويدمر المجتمع الذي لا يكون ـ الذي يراد إشعال غضبه ـ هذا الجزء إلا قسم منه .

ليس الأمر كذلك بالنسبة للسلطان فالقبائل التي تشكل أغلبية رعاياه هم الأكثر اعتزازًا واستقلالاً والأكثر صعوبة للسيطرة عليهم من أي من شعوب العالم القديم .

---

(١) المقصود هنا هو التزامهم بمباديء دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب . (المترجمان)
(٢) هذه من الأخطاء التي يقع فيها بعض المؤرخين الغربيين فالشيخ لم يأت بجديد وإنما دعا إلى العودة إلى ما كان عليه السلف الصالح . (المترجمان)
(٣) الملك عبدالعزيز (سلطان نجد في ذلك الوقت) ليس زعيم طائفة مثلما يزعم المؤلف بل كان إمامًا للمسلمين . (المترجمان)
(٤) هذه من ملاحظات المؤلف غير الدقيقة فشروط الإمامة في الصلاة واضحة عند المسلمين . (المترجمان)

كل قبيلة ، أحيانًا أكبر بقليل من عائلة كبيرة ، تكون عادة في صراع مع جارتها فالمرعى لا يكاد يكفي لرعي القطعان ولا توجد حدود واضحة ومن الطبيعي أن تحل مسألة الملكية بالحرب التي أصبحت حدثًا سنويًا في حين أن سرقة الجمال أصبحت عادة .

حولت حركة الإخوان هذه المجموعة المضطربة إلى قوة عسكرية تتحكم بها الدولة تقريبًا لخدمتها ، وكان مجندوها دائمًا على أهبة الاستعداد . يُمنع القتال بين قبيلتين تابعتين للسلطان بدون إذنه ، وهو الذي يملك الوسيلة لحل الخلاف بدون إراقة دماء . /p.24/ لا يجرؤ شيخ على الخروج على النظام ، وهو بدوره يعتبر ممثلاً للحكومة المركزية ويعاقب المتمردين بشدة . لهذا فإن السلام يسود البلاد بشكل لم يسبق له مثيل . الطرق التجارية الممتدة لمئات الأميال في الداخل آمنة للمسافر مثل طرق الريف الإنجليزي . على النقيض من ذلك كان الحكم التركي للأحساء الذي أنهاه السلطان في ربيع ١٩١٣م بإرسال حامية الهفوف التركية المستسلمة تحت الحراسة إلى قطر ومن هناك ركبوا السفينة إلى البصرة[١] . كانت سلطة الحكومة حتى ذلك الوقت محصورة في أسوار البلدة وكانت القبائل تفرض رسومًا باهظة على الأنفس والممتلكات المارة بطرق القوافل حتى أبواب البلدة .

يعتبر الدين عامل الإغراء لاتباع حركة الإخوان وواجباتها مثل واجبات الوهابية تقريبًا ولكنها أكثر صرامة . تعتبر الإخوانية (حركة الإخوان) بعث جديد للوهابية وقد حلت محلها الآن . الكحول والتبغ بالطبع محرمان والمكافأة الوحيدة التي يمكن أن أراها لأتباعها (الإخوانية) هو شعورهم بطهارة الذات والتفوق على

(١) ملاحظة المؤلف هنا غير دقيقة ، فالمعروف أنهم رحلوا عن طريق ميناء العقير . انظر : أمين الريحاني ، تاريخ نجد الحديث ، دار بيروت ، الطبعة السادسة ١٩٨٨م ، ص ٢٠٩ - ٢١١ . (المترجمان)

غيرهم من الخلق في هذه الدنيا ، وضمان النجاة في الآخرة . إن نمط معيشتهم هذا ينمي ما يشبه الشعور القومي القوي . في داخل البلاد مصطلح وهابي في طريقه إلى أن يصبح عتيقا ـ إن لم يكن قد أصبح كذلك بالفعل ـ مع أنه مازال يحتفظ بأهميته القديمة خارج دولة السلطان . أعلن سقوط نجران الذي ذكر مؤخراً في الهفوف كالتالي «أخذ الإخوان نجران» . المصطلح هنا لا يعني أن طائفة معينة من الوهابيين استولت على البلدة بل تعني جنود السلطان عموماً . لكن الصحافة الأوروبية كانت ستصيغ نفس الخبر كالتالي «استولى الوهابيون على نجران» .

الانخراط في جماعة الإخوان اختياري، فقد تكون القبيلة بكاملها أو بعض منها فقط . البساطة في اللباس مهمة وغالبًا ما يحرمون أنفسهم حتى من الألوان . يلبسون غطاء الرأس (الغترة) والعقال الأبيض (العمامة) ـ إذا أمكن ـ وغسل الملابس ليس شيئًا إجباريًا عند الإخوان ويبدو أنها تعد ضمن مظاهر الأبهة والغرور . /p.25/ تجمع كل الطوائف الإسلامية الأخرى ، مثل السنة والشيعة مع الهندوس واليهود والنصارى بوصفهم كفاراً . لهذا فإن لدى السلطان خيار واسع من مواضيع الاختلاف التي يمكن أن تثير الجهاد أو الحرب الدينية[١] ويستطيع أن يستدعي أعداداً كبيرة من الإخوان للخدمة الفعلية خارج مناطقهم القبلية . في وقت السلم يعودون إلى خيامهم، وبما أن الحكومة لا تدفع لهم مرتبات، فهم لا يشكلون عبئًا على الدولة .

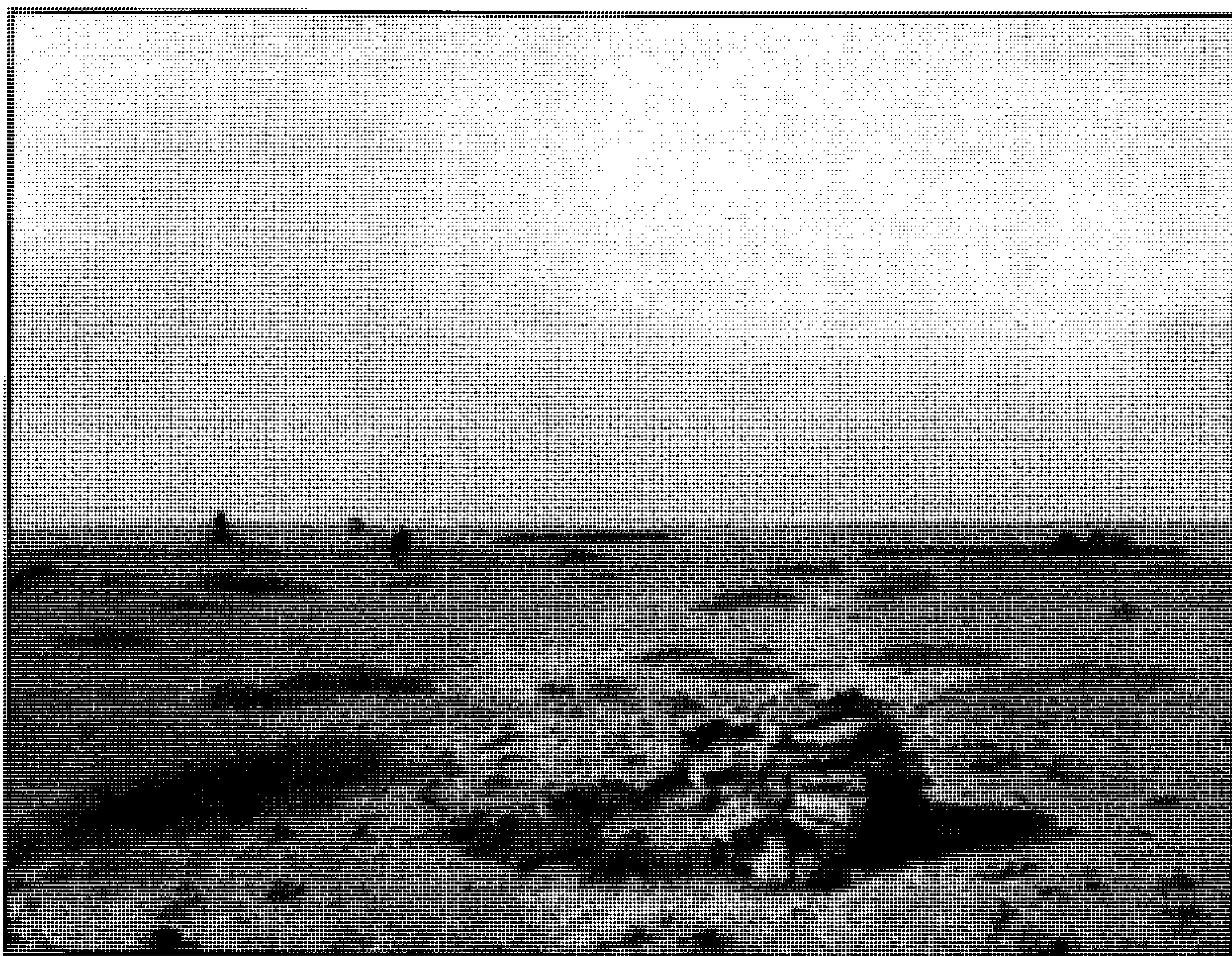
ذكرت بأنه لا يجرؤ شيخان تابعان (للسلطان) على مهاجمة بعضهما ، ولكن يحصل قتال عندما تتاخم حدود القبيلة قبيلة أخرى تحت حكم أجنبي ـ بمعنى ـ خارج تخوم السلطان . هنا يسود نفس النظام القديم من الغارات والغارات المضادة، وكل فريق يقدم لسلطانه في الوقت المناسب روايته للأحداث المبالغ فيها والمحرفة .

(١) هذه من آراء المؤلف غير الدقيقة . (المترجمان)

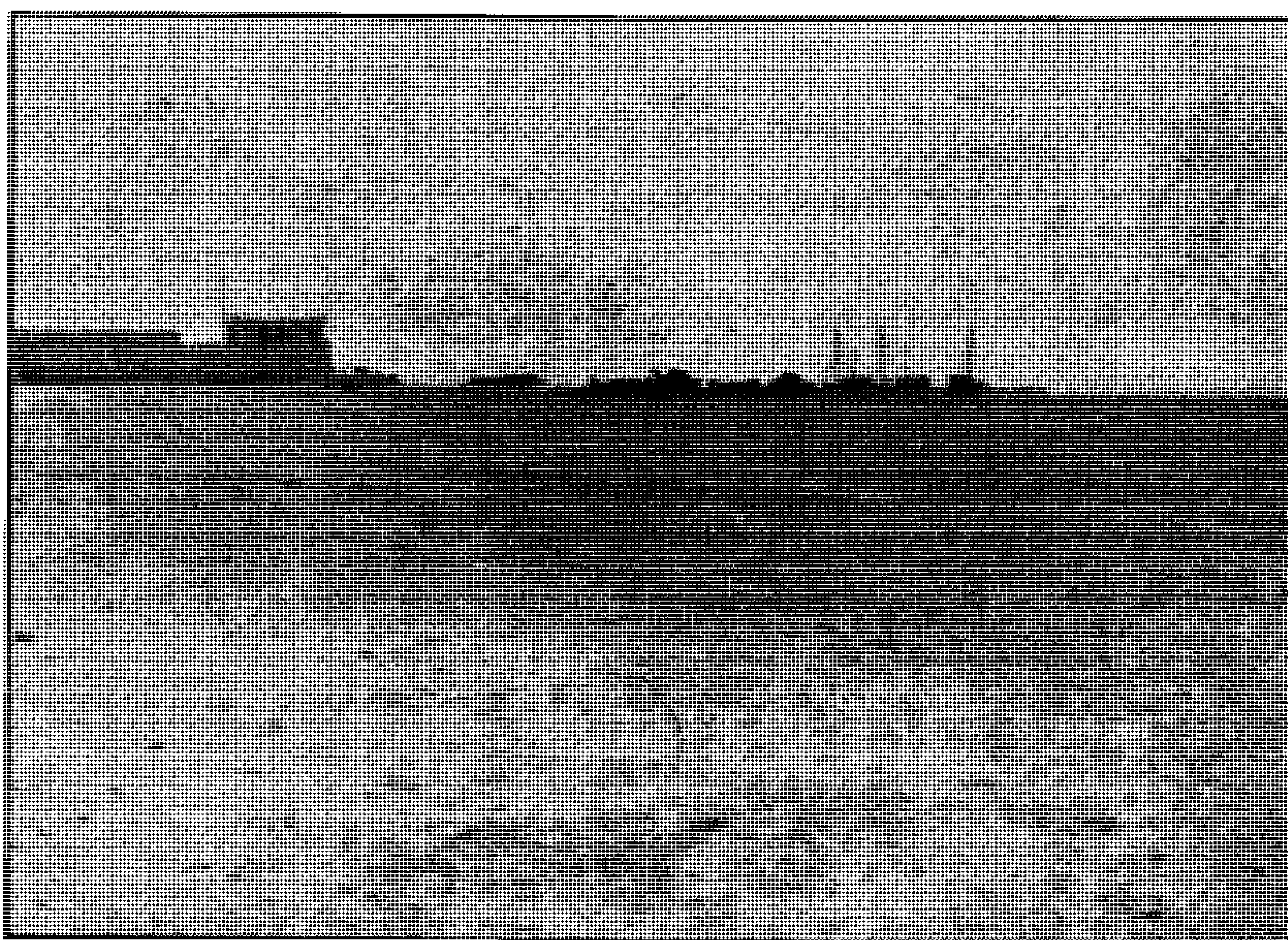
وفي هذه الحاله تطلق كلمة الإخوان بحرية من قبل الطرف الآخر على أي من رجال القبائل الموالين لابن سعود، ومع هذا فمن الممكن ألا يكون أي من الإخوان في هذه الغزوة. برغم ذلك فإن استخدام مصطلح الإخوان يدل ضمنًا على أن القتال حصل بتوجيه من السلطان ، ومن الجائز جداً أنه لا يعلم شيئًا عن ذلك إلا بعد مرور ثلاثة أو أربعة أسابيع بعد أن يصله المرسول لاهثًا بالأخبار .

لأن هذا الشكل المتشدد من الإسلام في تصاعد، فيمكن القول بأن السياسة العامة هي : الجزيرة العربية للعرب مع التزام منع الأجانب عن داخل البلاد . هنا لا يوجد اليهودي لكي ينافس الرأسماليين المحليين لأنه لا يسمح له بدخول الحدود، ولنفس السبب فإن التجار والمرابين سواء منهم بابو الهندي[1] أو اليوناني أو الأرمني لا ينعمون على حساب شعب كادح كما يفعلون في معظم بلدان الشرق الأخرى . يقيم السلطان سياسته الخارجية منذ مجيئه للسلطة على الصداقة مع بريطانيا العظمى التي هو معها في معاهدة علاقات حميمة . في داخل دولته فإن الأمور العسكرية والمدنية والمالية والدفاع عن /p.26/ الحدود تعتبر من شئونه الخاصة. حدود دولته مترامية الأطراف في ديار ليس بها مبرقات وقليل من الطرق الصالحة لسير الخيل . بسبب عدم وجود الماء في الصحراء، يصبح الجمل أسرع وسيلة للمواصلات، فالرسالة المستعجلة إلى بلدة حدودية والرد عليها ربما يستغرق من شهرين إلى ثلاثة شهور . للرحلات القصيرة من يوم إلى يومين يمكن أن يحث الجمل ليسير ستين ميلاً في اليوم قاطعًا جزءًا كبيراً من هذه المسافة خببًا ، ولكن للحملات الطويلة فإن المتوسط الجيد لسيره هو ثلاثون ميلاً في اليوم . باستعدادات استثنائية فقد سجل للجمل معدلات أسرع من ذلك. وعمومًا فإن حكاية العربي المسافر على الجمل

(١) هذه عبارة تحقيرية تطلق على الهندي الحاصل على القليل من التعليم الإنجليزي. (المترجمان)



اللوحة رقم (٦)
حقل أبو زهمول الخرب ـ العقير



اللوحة رقم (٧)
الرمال المغنية والميناء والقلعة في العقير كما ترى من طريق الهفوف

تكون نهايتها على شكل صدمة فيقول : إنه كاد أن ينقطع شواءه بعد أن أوصل رسالته ليضمن صدق أجمل الحكايات .

انشغلت بعد ظهر يوم ١٧ نوفمبر في نصب المصائد وأصطحبت بندقية فيما لو رأيت طيراً أريد صيده . كنا على بعد ميل من القلعة عندما شد انتباهي شجرة زيزفون استقر عليها بعض الطيور. كانت في مزرعة صغيرة ذات بئر مالحة قليلاً وعليها رافعة ماء تسقي رقعة صغيرة من البرسيم . تقع بالقرب منها على حافة الكثبان الرملية بئر ماء عذب محصنة ويعتمد عليها سكان العقير[1] كليًا للحصول على ماء شربهم، ويسمى هذا الموقع أبو زهمول . لأنها البقعة الوحيدة المزروعة في العقير، فإن هذه المزرعة تبشر بصيد جيد . ما كدت أصل إلى الشجرة حتى وجدت نفسي في وسط حقل خراب واسع (اللوحة ٦) . أينما نظرنا كان هناك أكوام من الحطام وفخار مكسر ذو طلاء أزرق ومتعدد الأشكال .

كنت على اطّلاع تام بمظهر المدن الخربة في سوسه وبابل وغيرها من المواضع المعروفة في العراق . هذه تختلف عنهن فقط في الارتفاع إذ لا يزيد ارتفاع أي من الأكوام عن ستة إلى ثمانية أقدام، ولكن بالإمكان تتبع حدود البيوت الكبيرة والشوارع . وتكوَّن لدي كل المبررات للاعتقاد بأنني /p.27/ عثرت على موقع الجرهاء الميناء الفينيقي القديم .

موقع الخرائب في أبي زهمول هو تمامًا موقع الجرهاء الذي أشار إليه بطليموس ونشره في قائمته الجغرافية حوالي منتصف القرن الثاني بعد الميلاد . لهذا السبب وبالإضافة إلى التشابه القوي بين الاسمين، فإن العقير يتوفر لها أقوى الأدلة لتكون موقع الجرهاء. هذا بالإضافة إلى أنها الأفضل حماية من غيرها من الموانيء . لكن

(١) تنطق العجير .

لم يرو أنه شوهد بها خرائب كما يوجد مؤيدون، لكون الموقع في القطيف أو سلوى أو غيرها من الخلجان الصغيرة . من ضمن المرجحين للعقير المؤرخ الألماني شبرنجر (Sprenger) الذي كتب سنة ١٨٧٥م كتابه «الجغرافية القديمة لشبه الجزيرة العربية» والذي أشار فيه إلى الجرهاء، وقد تلطفت أمي بترجمة شيء من هذا الجزء . يقول: «هذا الاسم غالبًا ما يسمع ويكتب (Gerha) : وكتبها بلني مرة فقط (Carrhae)» وتعني (Ger'â) القرعاء أي المكان أو البقعة التي لا تنبت شيئًا» وهذه الأخيرة بالتأكيد تنطبق على العقير. في الأحساء أماكن مخيمات ومواطن قوية لتميم خاصة بقبيلة تميم سعد» . كان بنو تميم أناس مشاهير قبل عصر النبي ﷺ ولكن لا أعلم ما المستند لينسب لهم بناء الأحساء . «يقع سوقهم (تميم) على تلة رملية تسمى القرعاء (al-Ger'a) وهنا زاول العرب (البدو) مقايضتهم» . «وهنا وقريبًا جدًا من الأخير العاصمة الحسا كانت تقع في يوم من الأيام القرعاء» . «الفقرة المقتبسة من بلني طبقًا لقراءتي (شبرنجر Sprenger) تشير إلى خليج الجرهاء. بلدة (يقصد الميناء) الجرهاء يبلغ محيطها خمسة أميال رومانية ولها أبراج مبنية من كتل الملح» . «أخطأ بطليموس في وضع بلدة الجرهاء على الساحل، وهو يعني بلاشك العقير» ولهذا فبقدر ما كانت الجرهاء نقطة بداية الطريق فإنها تتطابق مع القرعاء . تلك العادة السيئة عند القدماء بإطلاق /p.28/ اسم العاصمة على الميناء سبب هذا الارتباك» . «في الجرهاء كان الأهالي أساسًا يجتمعون في سوق موسمية، وبعد ذلك تحولت إلى سوق لتجارة التوابل» . «ويؤكد جوبا (Juba) بأن تجارة التوابل، وخاصة البخور، تأتي أصلاً من مستودع الجرهاء لتمر عبر الجزيرة العربية عن طريق تهامة (تهامة، حجاز) إلى فلسطين»[١] .

(١) الأدبيات حول ميناء الجرهاء متناثرة بشكل كبير وتتراوح ما بين أعمال قدماء المؤرخين إلى يومنا الحاضر . كذلك استفدت في بحثي من كتاب لم ينشر بعد للسيد أي . تي . ولسون الذي تلطف بوضع مذكراته تحت تصرفي .

يقع الحقل الخرب في العقير على بعد ميل تقريبًا من ماء البحر ، على أرض مرتفعة ، مما يوحي بأنها ربما كانت في يوم من الأيام على الساحل . الأرض منخفضة أمامه بشكل يوحي بأن الماء ربما قد انحسر عنها ، وحتى الآن لا ترتفع سوى عدة أقدام عن الماء في حالة المد .

إن الشريط الواسع من الأصداف والمرجان على طول الساحل من هنا إلى سلوى ، يمكن أن يدل على أن مستوى الأرض قد ارتفع نسبيًا في السنوات الحديثة ، ونتيجة لذلك انخفض عمق البحر ، وقد حصلت زلازل في الأحساء في السنوات الحديثة . حسبت أن باستطاعتي تتبع بقايا السور البحري والسور المحيط بالبلدة إلا أن كل شيء مساو للأرض تقريبًا الآن . كان الأمر سيحتاج إلى وقت أطول لأخذ فكرة جيدة عن كيفية امتداد المباني . ولقد قدرت مدى امتدادها ليكون ميل في نصف ميل ، والأطول باتجاه الشمال والجنوب ، بمعنى أن طولها على ساحل البحر ميل واحد ، هذا إذا كان حدسي فيما يخص الساحل صحيحًا . توجد كومة أو كومتين خلف بقايا الخراب يمكن أن تكون بقايا قلاع . تم بناء الجدران من ألواح من الصخور المرجانية التي يمكن الحصول عليها من الساحل . البئرين الموجودتين الآن ـ إحداهما عذبة ، والأخرى مالحة قليلاً ـ غير كافيتين لإمداد مدينة بهذا الحجم . لابد من وجود آبار أخرى جفت أو طمرت بالتلال الرملية القادمة من الشمال والغرب ، وقد طمر فعلاً جزء من منطقة الخرائب هذه . يبدو أن البئر المالحة قليلاً والمزرعة الصغيرة كانتا في ميدان مفتوح . النبات الآخر الوحيد في هذه المنطقة كان بقعة خضراء داكنة وكبيرة من شجيرات الأراك (*Salvadora persica*) والتي يمكن أنها تعود إلى أيام أن كانت مأهولة بالسكان . /p.29/ لم ألحظ هذه الشجيرة بالذات في أي مكان آخر في الصحاري أو في بلدان الأحساء ، وأقرب مثال مدون لها كان بعض (الشجيرات) التي وجدها فيلبي في وادي الدواسر . تعتبر هذه الشجيرة ثمينة

حتى في وقتنا الحاضر لتنظيف الأسنان . بالرغم من الحفر المستمر حولها للبحث عن الجذور إلا أن مجموعة الشجيرات هذه تبدو مزدهرة .

في طريق عودتي من يبرين بعد حوالي أربعة أشهر قمت بزيارة سريعة للحقل الخرب لأخذ الصور، وجمعت بعض الفخاريات الملقاة على السطح وقطعة عملة نحاسية صغيرة ، وقد تلطفت سلطات المتحف البريطاني بفحص هذه العينات عند وصولي إلى إنجلترا . قال المستر هوبسون أن ذلك الطلاء الأزرق على الفخار لم يكن معروفًا فقط لدى الحرفيين في العصور المبكرة جداً، بل استمرت صناعته كذلك إلى وقتنا الحاضر . لهذا فإنه من الصعب جداً أن نضع لها تاريخًا ولكنه يرى أن العينات تعود إلى القرن السادس عشر الميلادي . كان هناك قطعة من جرة تشبه زخرفتها الزخرفة اليابانية بقدر ما تشبه أي زخرفة أخرى ولم يستطع تحديد تاريخها . وصف السيد ألن القرص النحاسي الصغير كعملة تركية تعود للقرن السادس عشر وربما أنها سكت في المخا .

لو تمكنت من البقاء فترة أطول وحفرت لعمق قدم أو قدمين تحت القشرة العلوية لربما كان بإمكاني اكتشاف بقايا من فترة أقدم وعلى أية حال تكون متزامنة مع أساسات الجدران . نستطيع فقط أن نخمن من هذه الشواهد الضعيفة بأن آخر من سكنها هم رجال من القرن السادس عشر، وربما كان هؤلاء بدواً ضربوا خيامهم على الخرائب .

عوضني هذا الاكتشاف عن فشل سابق فقد جئت سنة ١٩٢١م إلى العقير وتنقلت على الجمل والقارب على طول الساحل المهجور إلى سلوى للبحث عنها (مدينة الجرهاء) خاصةً ولم أجد أي شيء يشير إلى المدينة المفقودة . ولابد أنني مررت على بعد ميل واحد من هذه الخرائب نفسها ولكنها كانت محتجبة عني . والآن بإمكاني أن أقحم تقريراً قصيراً عن هذه الرحلة، لأنها تغطي منطقة لم يسبق وضعها على الخرائط أو اكتشافها . /p.30/

الفصل الرابع :

الرحلة إلى سلوى(*)

غادرت العقير يوم ٣٠ مارس ١٩٢١م وسافرت جنوبًا على طول الساحل مصحوبًا ـ كما في سنة ١٩٢٣ ـ بمهدي وجنديين وثلاثة مماليك وأربع من الإبل للركوب وثلاث أخرى لحمل الأمتعة أرسلت من قبل ابن جلوي . زودنا عبدالعزيز القصيبي ببغلة كلفت بمرافقتي ، لترسو قرب الساحل قدر الإمكان خلال الليل لأتمكن من الذهاب إليها ، كما كان معي جهاز مزواة عيار ٦ بوصة ، وجهاز كرونوميتر سفينة كبير أعير لي من مصلحة الأشغال العامة بالبصرة .

لا يعرف شيء عن الساحل جنوب العقير ما عدا أنه خليج . تجرأ بعض رسامي الخرائط على رسم خط غير صحيح بينما قام بعضهم الآخر الأكثر أمانة برسم خط منقط على شكل كيس حلوى ليدل على أنه لاشيء يعرف عن حدوده . بطريقة ما تسربت معلومات إلى الوثائق الرسمية عن وجود خرائب واسعة في الزاوية الجنوبية من الخليج . ربما أنها بدأت بخريطة أصدرتها شركة الهند الشرقية التي قام موظفوها بوضع هذه الخرائب في موقع استمدوه من الروايات المحلية حيث يبدو أنه لا يوجد سجل بأنهم ذهبوا هناك ليروا بأنفسهم[1] . لهذا لفتت انتباه القس شاس فورستر (Rev. Chas. Forester) الذي ادعى في كتابه جغرافية شبه الجزيرة العربية

(*) سلوى دوحة عظيمة واقعة شمال شبه جزيرة قطر تبعد عن الهفوف ١٥٠ كم وعن الدوحة ١٠٠كم، انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، القسم الثاني ، ص ٨٦٢ . (المترجمان)

(١) دليل السفن في الخليج (الفارسي)، ١٩١٥ يقول «يذكر العرب : وجود خرائب واسعة» .

(*Geography of Arabia*) (١٨٤٤) بأنه اكتشف خرائب الجرهاء التي طال ضياعها، ولم أكن قرأت كتابه هذا في ذلك الوقت . اقترح المستر فيلبي عندما سمع بعزمي على السفر على طول ساحل /p.31/ الجزيرة العربية للبحث عن الطيور إضافة سلوى إلى خط رحلتي وحل هذه القضية نهائيًا . كانت أهداف الحملة ثلاثة : القيام بجمع حيوانات من المنطقة، واكتشاف خرائب الجرهاء إن أمكن، أو إحضار معلومات أكيده حول وجود أو عدم وجود الخرائب . وكذلك عمل خريطة صحيحة لخط الساحل والمنطقة المجاورة لها مباشرة بواسطة المسح الاجتيازي بالبوصلة وتثبيت الموقع الصحيح للطرف الجنوبي من الخليج (سلوى) عن طريق الملاحظات الفلكية .

أول لسان أرضي يمكن التعرف على اسمه هو رأس صغير مشكلاً جانبًا من المدخل إلى ميناء العقير . يليه تل رملي يمتد إلى نقطة مقابلة الزخنونية(١) ويسمى رأس أم العواء ،وهنا خيمنا وانتظرنا وصول البغلة . جزيرة الزخنونية عبارة عن رابية رملية جرداء ويبدو أن بها حوالي عشرين بيتًا حجريًا في القرية على الساحل الغربي وبغلتين راسيتين قرب الشاطيء . لا يوجد بها أشجار نخيل ولكن كانت عدة جمال تتجول على التلال الرملية العالية الخلفية، ولهذا فلابد من وجود شيء قليل من الحياة النباتية . لم نكن قد استقرينا طويلاً قبل أن يهاجم البحر من قبل سرب من عدة آلاف من طيور غاق سوقطرة السود الصغيرة ـ طير خاص بهذه البحار ـ وكنت قد حصلت على أول بيض معروف لهذا النوع (من الطيور) أثناء رحلة بحرية حول جزر الخليج العربي . تنزل طيور المقدمة في أثناء التحليق وتغطس في البحر بحثًا عن السمك لترتفع مشكلة المؤخرة (السرب) وبهذا يستمر تقدم السرب .

(١) الزخنونية جزيرة تقع جنوب ميناء العقير بقرب الساحل ، انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، القسم الأول ، ص ٣٩٩ . (المترجمان)

جزيرة البحرين

واحة قاير

العقير

قلعة العقير

ماء

نقطة شبه الجزيرة

رأس الصفيراء

جزيرة الزخونية

رأس أم العوا

قناة بعمق ٤،٥ قدم

٣٠٠ قدم تقريباً

رأس أبو محارة

رأس سوداء

آبار أبو محارة ـ ماء عذب

بئر أم حويقي ـ ماء عذب

جبل أم حويقي

رأس أم حويقي

دوحة أم حويقي

مفتاح الخريطة

طرق

تلال رملية

ماء عذب

رأس حويقل

جزيرة غبير

جزيرة غبير

دوحة فشم الحصيني

جبل متول

دوحة سلوى

آبار سلوى

الحزائي ٦ أقدام

لقد رسم طريق الرائد تشيزمان بالاعتماد على الاختلاف المغناطيسي للبوصلة معدلاً لموقعه المحدد فلكياً في سلوى . الأدوات المستخدمة هي مزواة قياس ٦ بوصة وساعة زمنية (كرونوميتر) وقد تم تصحيح الخطأ في توقيت جرينتش والنسبة قبل وبعد الرحلة بإشارات لاسلكية. كما تم الحصول على خط العرض من ضعف ارتفاع الشمس والتوقيت المحلي من أربعة أضعاف ارتفاع الشمس شرق خط الطول . أخذ موقع العقير من آخر خريطة للبحرية .

البصرة

ميل ١٠٠ ١٠٠

الكويت

شيراز

بوشهر

فارس

البحرين

العقير

الرياض

مخطط خريطة الساحل من العقير إلى سلوى والتي لم يسبق رسم خريطة لها أو اكتشافها

وصلت البغلة حسب البرنامج ورست على بعد ربع ميل من الساحل ، لأن الماء ضحل والقعر صخره مسطحة . استطاع قارب التجديف الصغير أن يأتي على بعد عشرين ياردة . بدأت أتناول منذ ذلك المساء الوجبات مع الملاحين، والطعام المعتاد هو زبدية كبيرة من الأرز وتمر وبعض قطع من اللحم القاسي وكعكات مسطحة من خبز بلا خميرة . كانت الرياح تهب بشدة في بعض الأوقات خلال الليل ، ولأن كل الملاحين كانوا نائمين ، فيمكن أن تغرق سفينتنا قبل أن يستيقظ أي شخص . /p.32/

هطل قليل من المطر في صباح الغد وتغيرت الرياح إلى شمالية شرقية . أوصلني القارب الصغير إلى الساحل، وامتطينا إبلنا وانطلقنا الساعة ٧,٣٠ صباحًا . كان موعد اللقاء لتلك الليلة مقابل جرف عال يسمى خشم الحصيني (خشم الثعلب) ولكن لم يقدر لنا أن نصله حتى يوم ٢ أبريل حيث لم تكن مجموعة البر ولا مجموعة البحر تعرف الموقع تمامًا . تحمل هذه المنطقة شبهًا رتيبًا بالمنطقة التي قطعناها في اليوم السابق . يمكن أن نرى خلفنا رأس أم العواء يمتد إلى الشمال الشرقي أقرب إلى الشرق، ومنتهيًا في نقطة صخرية تكاد تصل إلى جزيرة الزخنونية. الطرف الجنوبي من الجزيرة أقرب إلى النقطة الشمالية من جبل الدهيم مع قناة ضيقة تفصل بينهما عمقها أربعة أقدام ونصف فقط . توقفنا كالعادة بعد حوالي ساعة من رحيلنا، للصلاة والقهوة ، وهامت الإبل بعيداً مما اضطرنا إلى المشي طويلاً على الأقدام للقبض عليها .

عثر سالم ـ أحد الجنود ـ خلال توقفنا على ما قال بأنه أثر أرنب برية وبدهشة كبيرة طلب مني أن أشحن البندقية عيار ١٢ وأمسك بالزناد ولفرحتي رأيته متخلفًا يقص الأثر بحيث أصبحت المجموعة بعيدة عن مرمى البندقية وعلى أية حال فشل في العثور عليها . وبعد أن استأنفنا المسير أرسلنا سالمًا ورجلاً ثانيًا في طريق آخر

للبحث عن آبار ماء معروفة أنها قرب جبل أم عويض[١] ، وإذا نجحا في العثور على الماء فسيملآن القرب ، ويحضرانها إلى محطتنا في الليلة القادمة . سمعنا رمية البندقية بعد أن فارقناهما بقليل ورأينا سالمًا مقبلٌ على جمل يعدو ومعه أرنب كان قد رماها شاردة وهو على ظهر جمله . كانت عينة شاحبة اللون وصغيرة وقد حفظنا الجلد وثبت أنها من جنس جديد وسماها السيد أولد فيلدتوماس بهذا الاسم *(Lepus Omanensis cheesman)* .

أجبرنا لسان بحري على قطع مسافة بعيدة باتجاه الغرب بعيداً عن الساحل ، وعندما وصلنا طرف اللسان الجنوبي اجتزنا بعض السبخات المالحة والناعمة . كان الرجال حذرين بعدم السماح للإبل بشرب ماء البحر مع أنها كانت تواقةً له . وصلنا إلى الساحل /p.34/ بعد أن قطعنا سلسلة من التلال العالية ثم نظرنا إلى البحر بحثًا عن شراع البغلة فلم نره ، ولا ندري إن كانت خلفنا أم أمامنا . أصبح بالإمكان رؤية تلال قطر عبر خليج سلوى لأول مرة من هذه النقطة . مشينا طوال هذا اليوم بصمت على الساحل الرملي الأبيض ناظرين إلى الخلف أحيانا بحثًا عن أحمد وقاربه المفقودين . وجدنا طائر غطاس متوجًا *(Podiceps Cristatus)* ميتًا بين الأعشاب البحرية وعليه ريش تفريخ في حالة جيدة . توقفنا في الساعة ٤,٣٠ لتفحص مخيم قديم كما يدل على ذلك روث الضأن ، وقررنا أنه لابد من وجود آبار ماء في المنطقة المحيطة به . سرعان ما اكتشفنا بئرين بعد ذلك ، وهما مجرد حفرتين مدورتين حفرتا بعمق حوالي ١٢ قدمًا . وأنزلنا رجلاً للاستكشاف وكانت الأولى جافة والثانية بها قليل من الماء الكدر فتذوقها وقال إنها حلوة . هنا سلسلة الجبال مكسوة بألواح من الجبس البلوري كأنها كتل من الرخام الأبيض أما سلسلة الجبال الجبسية فتنحدر من الغرب وتنتهي في البحر .

---

(١) يبدو أن المقصود جبل أم حويض وهو تل على الساحل على بعد خمسة عشر ميلاً جنوب شرقي رأس الجميل ، انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، القسم الرابع ، ص ١٣٨٥ . (المترجمان)

ظن محمد الآن أننا إذا أكملنا المسير ـ بمشيئة الله ـ سنجد البغلة ، ولكنني قررت التخييم لأن الشمس كانت منخفضة . نصبنا خيمة صغيرة وصنعنا خبزاً وذلك بعمل عجينة من حب مسحوق ودفنها في الرمل تحت النار وكان الخبز الناتج صلبًا جدًا يخالطه شيءٌ من الرمل . وقد شكل هذا مع قليل من التمر وجبة المساء .

شاهدنا قبيل الشفق نموذجًا شاحبًا لقنبرة الصحراء (*Ammomanes*) وهي تتغذى . لم يبق لدي إلا القليل من الجهد لمطاردتها وصيدها وربما كانت تنتمي لجنس جديد ولكنها لسوء الحظ كانت الوحيدة التي حصلنا عليها أو رأيناها[١] .
مررنا خلال النهار بمجموعة من طيور السمامة الشاحبة (*Micropus murinus*) تطير باتجاه الشمال الغربي على الساحل . كانت الطيور الأخرى التي شاهدناها هي طائر وروار عادي وعقاب شاحب وقنبرة ذات عرف وذعرة زرقاء الرأس .

جاء الرجلان بعد انسدال الظلام بقربهم المليئة بالماء /p.35/ وأخبرانا بأن البغلة راسيةً أمامنا على بعد أربعة أميال تقريبا . استيقظنا مبكرين في صباح الغد ، وبعد أن مشينا ساعة وجدنا البغلة ، وصعدت عليها وقمت بتعبئة ساعة الكرونوميتر .
اعتذر أحمد كثيراً على تركه لنا في الخلف ، ذلك أنه وجد ريحًا مواتية فأسرع بغض النظر عن التعليمات لديه بأن يكون على مرأى منا . هددته بأنه سيسافر على الجمل غدًا فتعلم كيف يراقب مسيرنا .

ذهل الجمالة لرؤية طائر الفلامنجو يحلق فوق الساحل . قام فريق الملاحين بعملية صيد سمك ناجحة ، وإن كان بطريقة غير عادية ومدهشة . كان البحر ضحلاً والماء صافيًا كالزجاج والرمل الأبيض في القاع يجعل السمك واضحًا . قدم الرجال بالمجاديف والأعمدة إلى المياه الضحلة في قارب التجديف وساقوا السمك قرب الساحل ، ثم قفزوا في الماء وقاموا بضرب الأسماك بالعصي على رؤوسها وسط

---

(١) تسمى الآن (*Ammomahes deserti azizi*) انظر الملحق رقم ٢ .

الصيحات ورشقات الماء . تمكنوا من اصطياد سمكتين مرقطتين جميلتين من سمك القد (Rock Cod) تزن الواحدة حوالي ٨ أرطال وسبع سمكات (deep-keeled) تتراوح أوزانها من ٥ ـ ٦ أرطال . كان لون هذه الأسماك أزرق داكن جميل ، وعلى ظهرها بقعة صفراء شاحبة بمساحة قدم مربع ، وكلا هذين النوعين ممتاز للأكل .

أسقيت الجمال الماء لأول مرة منذ مغادرتنا للعقير . بعد استئناف مسيرنا بقليل تركنا الرأس الجبسي المرتفع ، وعبرنا سلسلة من خلجان الرمل المرجانية ومن رؤوس الكثبان الرملية . لاحظنا مرة أخرى مجموعات مهاجرة من طيور السمامة وطيور سنونو المداخن وطيور الجشنة ذات اللون الأسمر المصفر ، وأمسكت ذعرة بيضاء متعبة على ظهر البغلة . كان هدفنا رأسًا (بحريًا) نراه إلى الجنوب عنا . قال أحمد في البداية : إن هذا رأس الحصيني المحير ولكن عند الوصول إليه ، قال : إنه رأس حويقيل (تنطق حويجيل) . كان يضطرني في كل مرة يغير فيها أسماء المعالم إلى تغيير ملاحظاتي وتعليقاتي .

رست البغلة تلك الليلة على الجهة الجنوبية من رأس حويقيل ـ على بعد ربع ميل من الساحل ـ في أعمق ماء قابلنا حتى الآن في رحلتنا . /p.36/ جاء القارب الصغير على الساحل الرملي للمرة الأولى والوحيدة . يشتهر هذا الخليج في البحرين بحطبه ومائه العميق وبكونه ملجأ من العواصف الشمالية . تنمو شجيرات الطرفاء (*Tamarix mannifera*) بين الأكوام المدورة من الرمل الخفيف مما يعطي للأرض منظرًا غريبًا يشبه مغرسة الدبابيس . أمسكت بعظاءتين (*Agama*) والتي عندما تمسك إحداها باليد تظهر ألوانًا رائعة فتصبح الحنجرة أرجوانية والجسم والرأس أزرق سماوي والذيل قرمزي ، ولكن كل هذا في الواقع يتحول إلى اللون الرملي العادي .

تذوق الجمالة السمك هنا لأول مرة ، وكانوا قد رفضوا في أول الأمر هدية من سمك القد غير المطبوخ قائلين بأنهم يفضلون أكل الأفعي . بما أنهم لم يروا السمك من قبل قط ، فمن الواضح أنهم لا يعلمون ما حكم القرآن فيه حلال أم حرام ؟ أحضر لهم أحمد زبدية من السمك المطبوخ عندما وصلوا جائعين . بعد نقاش بدأ محمد حسن في الأكل بحذر وسرعان ما حذا حذوه بقية الإخوان مجازفين بآمالهم للفوز بالجنة . ولم يتوقفوا في الأيام اللاحقة عن طلب المزيد من السمك .

أصبح الوصول إلى خشم الحصيني نكتة مستديمة بين الرجال ، ولكن أحمد وعد بأننا سنراه حتمًا في الغد . كانت الرياح في الساعة السادسة صباحًا يوم الثاني من أبريل شمالية قوية، والسماء ملبدة بالغيوم تمامًا . ولكن درجة الحرارة كانت ٧٨ ف . يقع خشم الحصيني بالتأكيد على بعد عدة أميال في الداخل ، وهو عبارة عن جرف عال في نهاية سلسلة من جبال الحجر الرملي ، ويرتفع حوالي ٣٠٠ قدم فوق سطح البحر . حقًا إنه يحمل شبهًا قويًا بخشم الثعلب ـ كما يدل اسمه ـ ، وهو نقطة واضحة من الأرض والبحر . كان اتجاهنا العام ـ كما في السابق ـ جنوبًا إلى جنوب شرقي . اجتزنا سلسلة من الخلجان يفصل بينها بحر داخلي صغير ذو مدخل ضيق ، قال أحمد : إنه دوحة حمر[1] . وبعد هذا تراجعت الخلجان لمنبسط من ساحل مستقيم وكان رسونا في هذا المساء معرضًا لرياح شمالية . كان عمق الماء أربعة أقدام فقط على بعد نصف ميل من الساحل وغاصت البغلة بعمق أربعة أقدام ، أو كما قال أحمد أكلت ، /p.37/ فلم يستطع الإبحار أقرب من ذلك ، حتى أن قارب التجديف غاص في قدم من الماء على بعد ٢٠٠ ياردة . كانت الأمواج تتقاذفنا طوال الليل وبدت البغلة وكأنها تتقلب عند نهاية حبل المرسى .

---

(١) ربما أن المقصود دوحة حماه ، انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، القسم الثاني ، ص ٧١٢ . (المترجمان)

مررنا خلال النهار بقافلة بدو صغيرة متجهة شمالاً ومعهم حمار وجملان وقليل من الضأن واستمروا في سيرهم بعيداً إلى الغرب منا، وكانوا بلاشك يراقبوننا بدقة مثلما فعل الجمالة تجاههم ، وقيل إنهم كانوا على طريق القوافل بين الأحساء وقطر . لاحظنا أصنافًا جديدة من الطيور المهاجرة بلاشك : طائر جشنة أحمر الرقبة ريشه في حالة تفريخ، وطيور ذعرة صفراء وطيور خطاف صخري (*Ptyonoprogne rupestris*) وطائر هازجة وطيور خطاف الرمل ، وأيقظنا أرنبين بريتين.

خفت الرياح قليلاً يوم الثالث من أبريل ولكن القارب مازال يتمايل وكنت سعيداً بنزولي للشاطيء . مازالت هناك غيوم جعلتني أشك في إمكانية الحصول على رصد للشمس في سلوى التي يتوقع أنها تبعد عن مخيمنا مسيرة ثلاث ساعات. أشار محمد السهلي بعد أن اجتزنا أول رأس (بحري) إلى بعض الأجسام غير الواضحة في الأفق، وقال: هذه أشجار نخيل سلوى . يقع إلى الغرب منا العديد من التلال والسلاسل الجبلية التي يبلغ ارتفاعها ٣٠٠ قدم، وقد أعطاها أحمد اسمًا عامًا هو جبل سخول وأكد ذلك الجمالة. كنت قد اتبعت طريقة قبول الأسماء التي يتفق عليها الفريقان فقط . يوجد بين البحر والتلال سهل يتراوح عرضه من ميلين إلى ثلاثة أميال، ومن وسطه يمر طريق قوافل الأحساء ـ قطر. شاهدنا عشرين جملاً تسير على هذا الخط في اتجاه الهفوف ، وكانت مجموعة لطيفة تتعامل في التجارة مع الأحساء . توقفنا بجانب أجمة صغيرة من أشجار النخيل البرية وكانت الوحيدة على الشواطيء الغربية لهذا الخليج، وفي الحقيقة أنها العلامة البارزة الوحيدة. أخذت قراءة البوصلة على عدد من أجمات النخيل في الساحل الشرقي عبر البحر الذي ضاق الآن ليشكل زاوية حادة إلى الجنوب منا . /p.38/

لا يوجد آبار قرب النخيل ولكن ثبت لنا وجود جحر ضبع في الشجيرات تدل عليه آثار أقدامه الحديثة جداً . بما أن الرأس الجنوبي للخليج هو أحد المصبات المحتملة لوادي السهباء، فقد تفحصته بشكل خاص لأرى إذا كان به أصداف مياه عذبة أو أحافير أو أي تكوينات طمية، ولكني وجدت أصدافًا مرجانية وبحرية فقط . يلتقي السهل الممتد جنوبًا بسلسلة من التلال والوديان على مسافة أربعة أميال، ويبدو عليها مظهر التكوين العام للمصب . عندما استدرنا شمالاً وشرقًا عبرنا من الساحل الغربي إلى الساحل الشرقي بتخطينا للطرف المستدق للبحر، وهو هنا ياردة فقط . اتجهنا مباشرة لأول مجموعة من النخيل على الساحل الشرقي على بعد ٣٠٠ ياردة واحدة من البحر : نخلات مكتظة يبلغ ارتفاعها حوالي ١٢ قدمًا ، وقد تراكم الرمل الخفيف حولها . لم يشذ عن هذا إلا عدة شجيرات حسنة الشكل نمت بارتفاع ٣٠ قدمًا ، ولا يوجد أي مؤشر على إثمار حتى تلك الشجيرات .

مع أن معظم هذه الأماكن لا يوجد بها آبار ماء إلا أن من المحتمل وجود الماء العذب قرب سطح الأرض في أي منها وأن جذورهن (الأشجار) فعلاً في الماء . تركنا الكومة الثانية من الأشجار على يسارنا، واتجهنا إلى المجموعة الثالثة على بعد ميل ونصف في الداخل، حيث توجد أربعة آبار ماء فأنخنا جمالنا في الظل وبدأنا نجهز المخيم .

أمسك محمد بيدي وقادني خفية إلى موقع الخرائب على بعد بضع مئات من الياردات في الجانب الآخر من الأشجار . كانت (الخرائب) أكبر مما توقعت طبقًا للتقارير الحديثة، ولكنها لا توحي بالتأكيد ببقايا بلدة كبيرة مثلما يمكن أن تكون الجرهاء. أثبتت (الخرائب) أنها مخطط قلعة واسعة ذات جدران مستطيلة ، ٩٥ ياردة في ٧١ ياردة ، ومشتملة على ساحة (اللوحة رقم ٨) . كان سمك الجدران في الأصل ٦ أقدام مبنية من ألواح صخرية مغطاة بالأصداف بقيت مثبتة جيداً حيثما هي

محفوظة، ولكنها كانت في الأغلب متناثرة شذر مذر حول القاعدة . يمكن تتبع البرج والقلعة الداخلية بوضوح، فمازال ارتفاع الجدران أربعة أقدام وارتفاع البرج إثني عشر قدمًا ، ولكنها الآن عبارة عن كومة منهارة من الصخور المفككة . يوجد في الساحة الكبيرة بئر ماء /p.39/ رصف ما حولها بصخور ملساء وبنيت جوانبها بالحجارة التي لاتزال بحالة جيدة . وجدنا عدة قطع من الفخار والمرمر وقشرة بيضة نعامة مكسورة ،كما عثرنا على أنقاض شبيهة بذلك على عمق قدمين إلى ثلاثة أقدام من السطح .

أرسلت هذه الأشياء إلى الدكتور هوغارث الذي تلطف بكتابة التقرير التالي حولها : «الفخار والبورسلين والزجاج بما في ذلك قطع السوارات حسب ما يبدو من مظهرها كأنها تعود لمستوطنة عربية من فترة ما بعد الإسلام ذات علاقات تجارية مع الساحل الفارسي للخليج . يمكن أن يعود تاريخ المستوطنة إلى عهد الكندي (دولة كندة) في القرن السادس الميلادي ولكن يبدو أن الأمتعة تعود لفترة متأخرة ..... ووصفك للخرائب يوحي بالتأكيد إلى مورد ماء وسلالم فقط ، لكن الجرهاء بالطبع يمكن ألا تكون أكثر من ذلك » .

جاء فريق من العرب إلى آبار الماء بإبلهم الاثنتي عشرة وكانوا قد باعوا حمولتهم من الدهن في قطر ، وهم الآن في رحلة العودة إلى الأحساء ببضائعهم . اثنان منهم من عنيزة وأربعة من الجنوب وتناولوا جميعًا القهوة معنا وتبادلنا الأخبار . لا يقدر محمد السهلي أهل قطر كثيراً، وعبر عن ذلك بأخذ قليل من التراب في يده ثم رماه بعيداً .

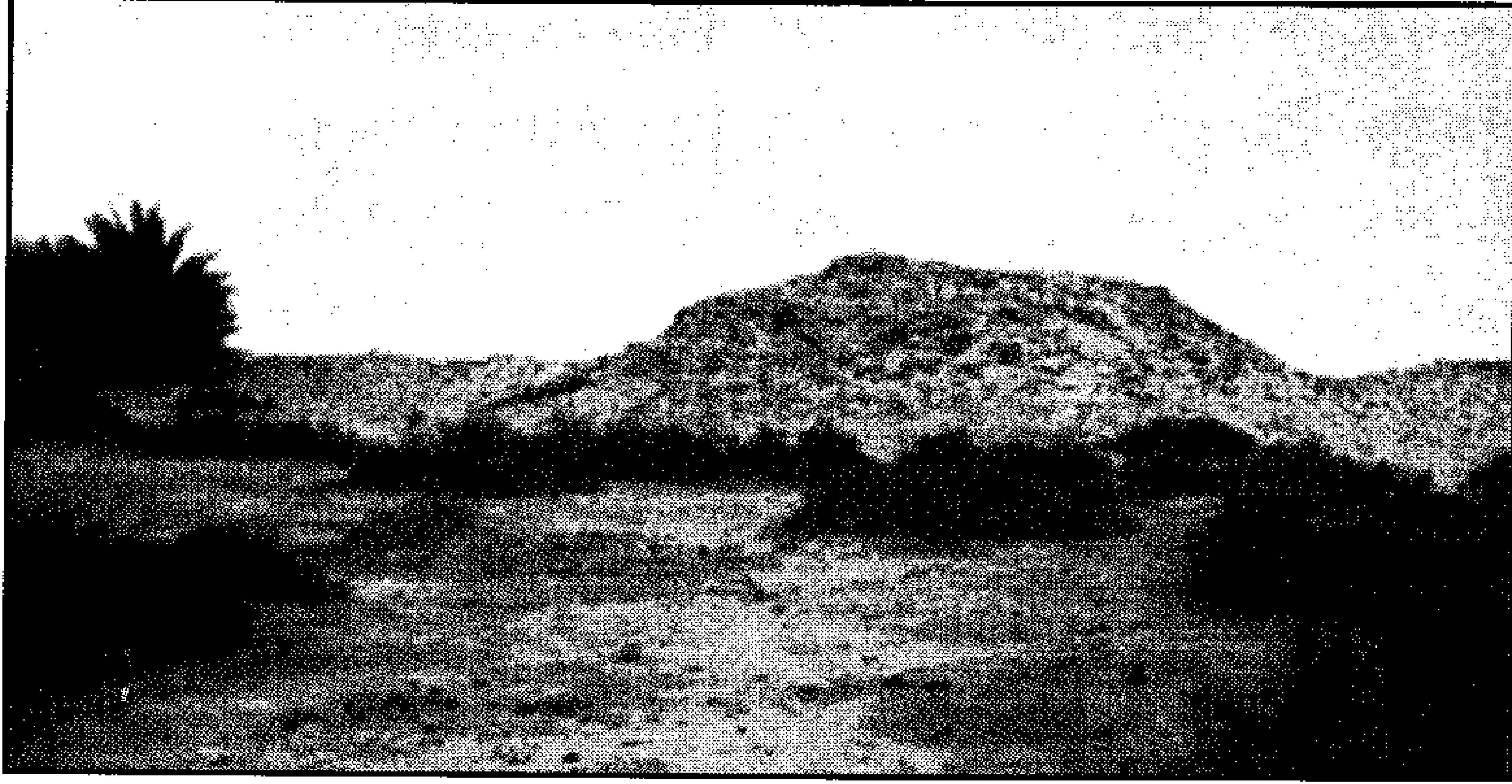
تقع سلوى بواسطة الجمل على بعد مسير ثلاثة أيام من قطر وأربعة من الأحساء . عمق الآبار ستة أقدام ورائحتها غير جيدة ، وبها قشرة خفيفة من الملح على الجوانب قرب الماء، ولكننا مع ذلك شربنا منهن خلال إقامتنا ولم يحصل لنا أي أذى . لم يحاول أحد المحافظة على نظافة آبار الماء ووجدنا في أحدهن طائر نورس

ميت كما وجدنا جيفة جمل قرب الأخرى . هطل مطر خفيف في الساعة السابعة مساءً وكان زوج من الغربان (*Corvus Corax ruficollis*) تحوم باستمرار حول المخيم ورأينا عدة قنابر ثنائية التقليم في المنطقة المحيطة .

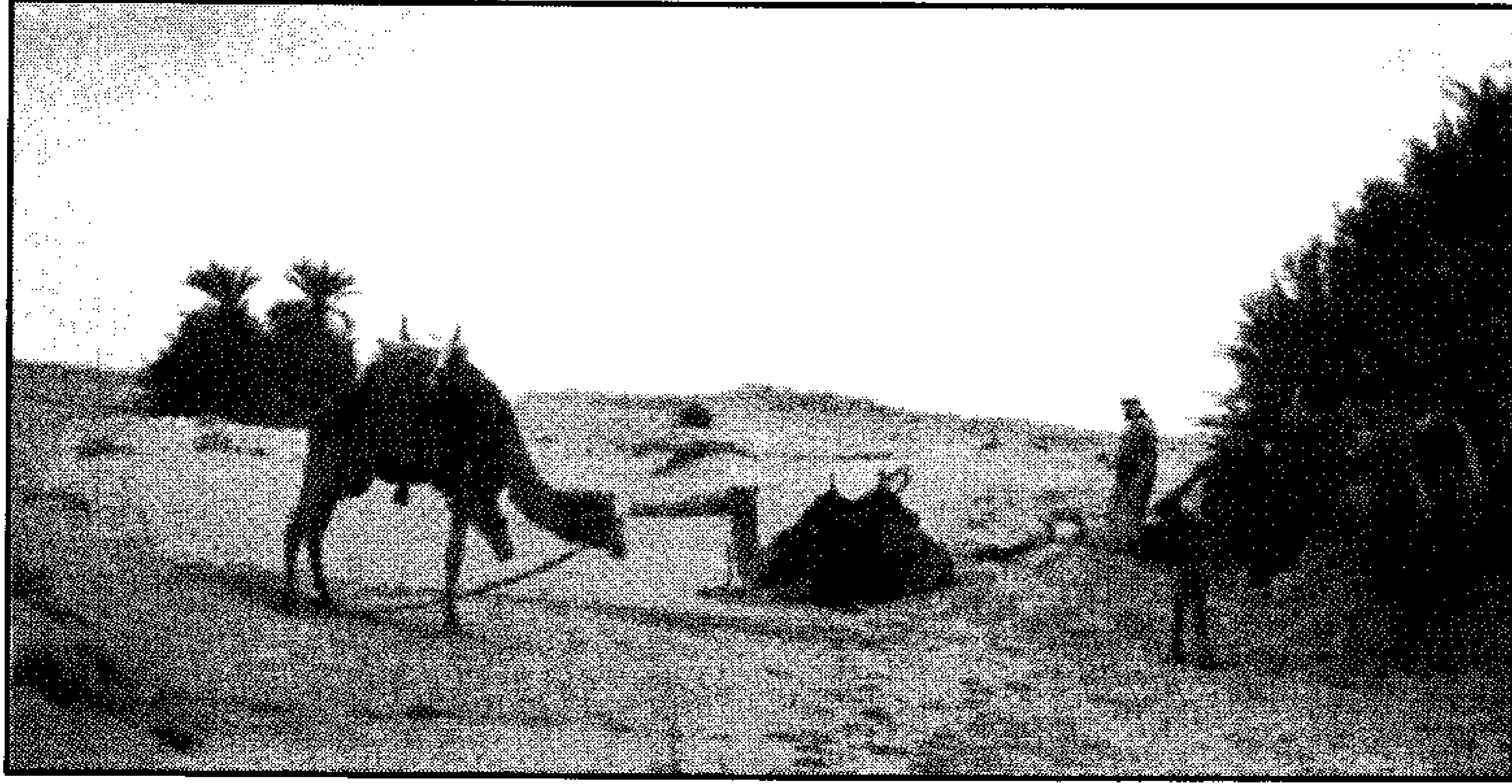
كان كلا فريقي البحر والبر تواقًا للمغادرة بعد أن وصلنا الآن إلى سلوى ، ولكن خططنا في اليوم التالي لجولة دائرية نصف قطرها خمسة أميال لنرى إن كان هناك خرائب بعيدة قرب التلال .

كانت درجة الحرارة في الظل ٧٩ْ عند الساعة السادسة /p.40/ والنصف من صباح اليوم الرابع من أبريل وعند الخامسة مساءً كانت ٩٥ْ . كان البحر هادئًا والشمس مشرقة ولكن الغيوم غطتها عندما هممت بأخذ ارتفاع خط الطول . وصلت الإبل إلى الشاطيء عند الساعة ٧,٤٥ صباحًا ، وسرنا شرقًا على طول ساحل البحر ، وبعد ربع ساعة دعاني محمد وقال «انظر قلعة أخرى» . عثرنا على مبنى مربع صغير من الخرائب مبني من ألواح صخرية تشبه كثيراً تلك التي وجدناها في القلعة الأكبر والتي تقع على بعد ميل ونصف إلى الداخل بزاوية ١٧٢ْ ، يحتمل أنهما من نفس الفترة وقد تكون الصغرى مركز دفاع ساحلي . أنخنا الإبل لنتفحصها عن قرب واكتشفنا قليلاً من قطع الفخار المكسر والسوارات .

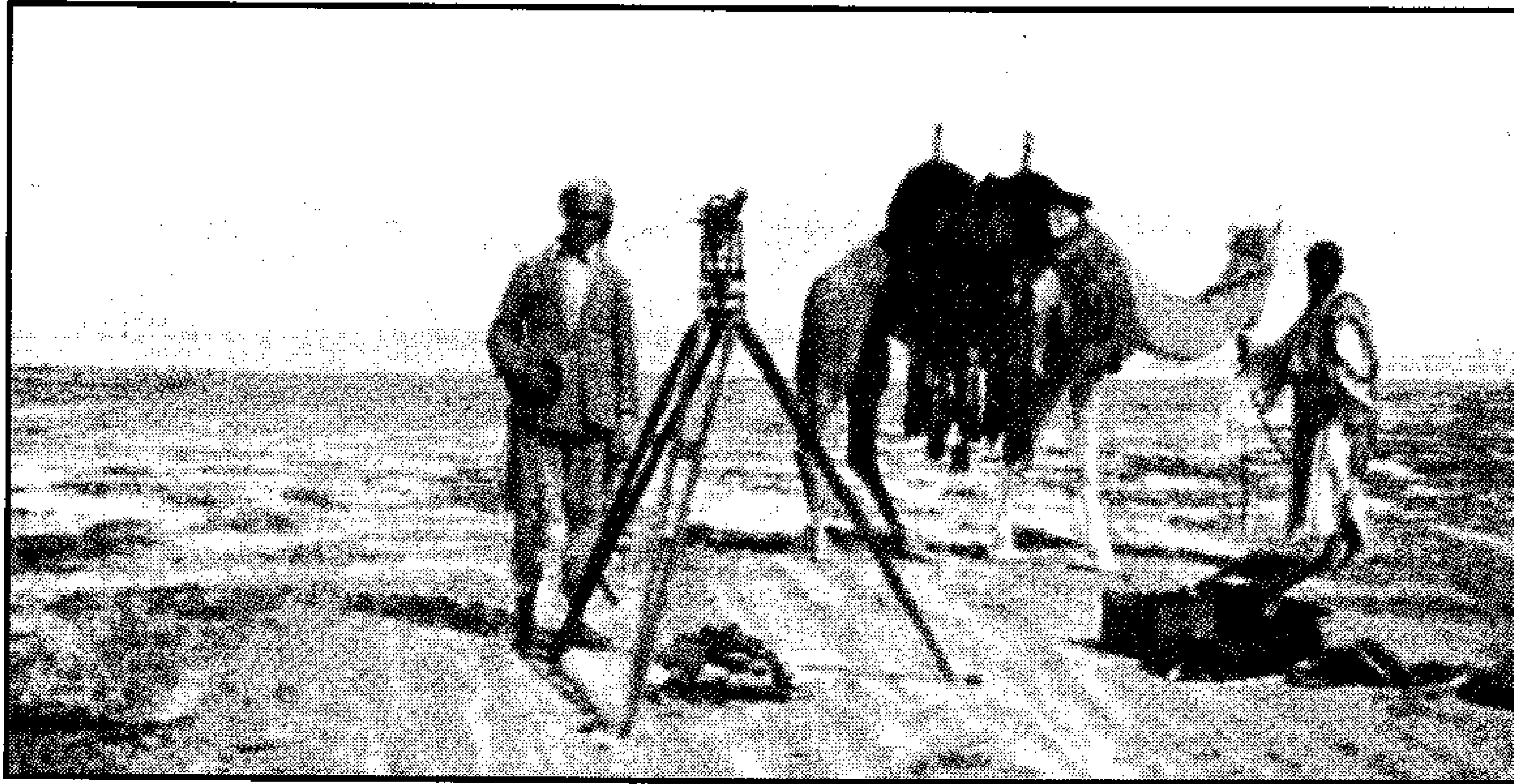
زادت توقعاتي الآن بوجود بقايا مدينة كبيرة . سرنا قليلاً على الساحل وبعد ثلاثة أميال من نقطة البداية انحرفنا إلى الداخل باتجاه الجنوب واجتزنا طريق قافلة سلوى ـ قطر ونفذنا عبر سهل رملي أبيض إلى سلسلة صفراء من تلال الحجر الرملي التي تقع على بعد ثلاثة أميال جنوبًا من آبار سلوى (اللوحة رقم ٩) وارتفاعها التقريبي ٣٠٠ قدم . توقفنا في واحة أخرى صغيرة من شجر النخيل البري حيث عملنا القهوة في جهتها الشمالية وقمت بتفحص الموقع .



اللوحة رقم (٨)
القلعة الخربة في سلوى



اللوحة رقم (٩)
جنوب سلوى بجانب تلال من الحجر الرملي والممتدة شمالاً إلى قطر



اللوحة رقم (١٠)
مهدي مع جهاز المزواة على الساحل في سلوى

تعود الرجال تدريجيًا على الآلات ، ونظر الجميع من خلال المزواة والبوصلة الموشورية، ولكنهم قالوا : إنهم يفضلون منظار الميدان . أوضحت (لهم) أن الجهاز الأول قد أحضر خصيصًا لاكتشاف الخرائب . عندما أستأنفنا مسيرنا أيقظنا ثعلب فضي اللون من بعض شجيرات النخل، ولكنه هرب قبل أن ننتزع البنادق من عدول الخرج وعدنا إلى آبار سلوى من دون أي اكتشافات أخرى .

كانت الرياح تهب من الجنوب ومواتية للإبحار للبحرين، وكان أحمد قلقًا باستمرار ليبدأ الانطلاق. أصبح الزاد قليلاً والماء شحيحًا ولا يريد (أحمد) ملء صهاريجه من هذه الآبار . كان علينا أن نرتب للمغادرة في اليوم التالي سواء تمكنت من رؤية الشمس أم لا ، ولكن لكي يهدأ أخبرته بأن يغادر حالاً ويتركني خلفه مما كان له /p.41/ التأثير المطلوب . ظهرت الشمس في الساعة الواحدة ظهرًا ورجعنا إلى القارب لإحضار المزواة (اللوحة رقم ١٠) . كان هناك القليل من الوقت لأخذ قراءتين للشمس قبل أن تحجبها الغيوم لبقية اليوم. لأنني أحضرت آلتين ثقيلتين كل هذه المسافة واستأجرت قاربًا خصيصًا لنقلهما ، فقد شعرت بأن هذا حظًا سيئًا ومزعجًا ، فحتى محاولة أخذ قراءة الشمس من زوايا مختلفة هزمها السراب وانكسار الضوء (الانحراف) . عدنا إلى البغلة عند الليل بعد أن حددنا موقع المزواة وكان مساءً حارًا وهادئًا جدًا . استعار سالم بندقيتي عيار ١٢ ملم ليترصد لطير يسميه الكروان يأتي بانتظام ليشرب من إحدى الآبار . اتضح لي بعد أن أحضروه أنه جنس شاحب يسمى زقزاق نورفولك[١] ويسمونه أيضًا ابن الحبارى .

في الخامس من أبريل وفي الساعة ٧,٣٠ صباحًا ذهبنا إلى الساحل وقمنا برصد زاوية السمت وخط الطول وقضينا وقتًا مع المزواة لكن كان لابد من صرف

(١) انظر الملحق رقم ٢ .

النظر عن أي فكرة للبقاء بعد الظهر . جاء الجمالة في الساعة الحادية عشرة لوداعنا وغادروا مباشرة إلى الهفوف . كنا في الفجر قد وجدنا بغلتنا تطفو بصعوبة في أربعة أقدام من الماء فقط إذ أنها قد رست على بعد ربع ميل من ساحل سلوى . كان لابد من دفعها بالأعمدة إلى الماء الأعمق ويقودها رجل يمشي أمامها على قعر البحر ، وبعد أن أبحرنا ميلاً أصبحنا في ماء عمقه ١٢ قدما . القارب الذي يتطلب أكثر من أربعة أقدام يجب ألا يقترب من آبار سلوى بل يجب أن يواصل باتجاه ساحل قطر ، بمعنى إلى الشرق من وسط دوحة سلوى[١] . ارتفع الشراع وأبحرنا عند الظهر ، ومع أنه هبت رياح شمالية إلا أننا استطعنا تغيير مسارنا باستمرار عكس الرياح باتجاه قطر ملازمين طريقًا موازيًا للساحل وعلى بعد ربع ميل من الشاطيء . مكننا مسيرنا هذا وما أعقبه من تعرجات كثيرة في خط سير السفينة من أخذ فكرة جيدة عن معالم الجانب الشرقي من الخليج . كان الشاطيء في البداية منخفضًا مع تلال رملية في الخلف ولكنها تلتقي إلى الشمال /p.42/ بالشاطيء ، وتمتد شمالاً غير بعيد عنه والبحر ليس عميقاً في أي مكان .

في رحلة العودة رأينا مرة أخرى التلال والرؤوس البحرية الواقعة على طريق رحلة الذهاب وتأكدت تقريبًا من مواقعها . مع أن خشم الحصيني في الحقيقة هو ثالث سلسلة من التلال إلى الشمال من سلوى إلا أنه أول تل له اسم .

في الساعة الثالثة ظهراً هبت علينا في الجانب القطري رياح شمالية قوية ، «ريح الشمال» المفزعة . أسرع القارب أمام العاصفة بحثًا عن خليج محمي (كملجأ) ولكن يبدو أن ساحل قطر هنا مستقيمًا جداً ، وبالفعل كان كذلك أينما نظرنا خلال اليومين القادمين . رُميت مرساة السفينة في عرض البحر لتقاوم العاصفة ولم يكن

---

(١) دوحة سلوي خليج كبير يفصل شواطيء الأحساء ، انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، القسم الثاني ص٧١٣ـ٧١٤ . (المترجمان)

أحمد يعرف هذا الساحل، وقال: إنه لم يُمسح من قبل . تمنينا أن تخف الرياح بعد المغيب، ولكنها هبت بشدة طوال الليل . لقد كان رائعًا أن نرى أحمد يقف منتصبًا «ويؤذن للصلاة» بينما كان القارب يتأرجح في كل اتجاه .

هدأت الرياح في اليوم التالي مما أتاح لنا مغادرة المرسى وكنا حتى الغروب نقطع الخليج من شاطيء إلى آخر وأخيرا رسينا تلك الليلة قرب شمال ساحل دوحة حويقيل حيث كنا قد خيمنا في طريق الذهاب . وجدنا هنا أعمق ماء مررنا به وقدره أحمد بعشرين قدمًا، ولم أستطع أن أرى القاع أو ألمسه بعمود . كان المكان محميًا جيدًا من جهة الشمال، ولكن الرياح سرعان ما هدأت تمامًا بعد إنزال الشراع .

كنا قد مررنا خلال النهار على بعد ربع ميل من جنوب جزيرة عنيبر، والتي تبلغ مساحتها حوالي فدان . تتكون هذه الجزيرة من صخور رملية ذات لون أصفر يميل إلى البياض وخالية من النباتات، وترتفع عند وسطها حوالي ٨ أقدام عن سطح البحر. كانت مغطاة بطيور غاق سوقطري، ويمكن شم رائحة الطيور التي تذكر برائحة السمك من على بعد مسافة نصف ميل . يوجد على بعد ربع ميل إلى الجنوب الغربي من الجزيرة صخرة على عمق قدم تحت الماء، وكانت الأمواج تتكسر من فوقها عند مرورنا . أخذت قراءة ٤٠ درجة عندما أصبحت الصخرة /p.43/ والجزيرة على خط واحد . يصبح ساحل قطر هنا عبارة عن شاطيء رملي وتنمو الأشجار الخفيفة قرب البحر وعبر ميل أو ميلين من الكثبان الرملية المتموجة حتى تصل التلال ، التي تبدو رتيبة ومستوية القمم ، الممتدة موازية للساحل والتي ترتفع من ٢٠٠ - ٣٠٠ قدم. عرض دوحة سلوى حوالي ثمانية أميال وكلا الساحلين مرئيين بوضوح من الوسط (وسط الدوحة) .

حل علينا السابع من أبريل وقاربنا راسٍ لانعدام الرياح في دوحة حويقيل . رُفع الشراع في الثالثة صباحًا لنغتنم نسيمًا خفيفًا كان قد هب ولكن الرياح بقيت

ضعيفة . بحلول منتصف النهار كان قاربنا قد انحرف إلى حوالي منتصف الطريق بين أم عويض[١] وساحل قطر والبحر يبدو أن عرضه لا يتجاوز ثمانية أميال . يكسر سكون البحر أحيانًا خبطة ذيل خنزير بحر (دلفين) هادئة . التف في الماء في إحدى المرات قطيع من صغار سمك التغذيه مما جذب بعضًا من طيور الخرشنة التي جاءت من حيث لا ندري ولكنها بقيت بعيداً عن مرمى بندقيتي . خلاف ذلك كانت بعض من طيور النورس الرقيق المنقار (*Larus gelastes*) هي الأحياء الوحيدة التي رأيناها خلال النهار .

بدأنا نتحرك مدفوعين في الخامسة مساءً برياح شرقية وكانت ماتزال تهب عند الساعة السادسة ونحن مبحرين شمالاً في وسط البحر . تجاوزنا جزيرة الزخنونية (لم نرها) عند الشفق، وكنا نتوقع أن نكون في البحرين في صباح الغد الباكر . ارتفعت معنويات فريق الملاحين مع تبدل ظروف الإبحار . وفي العاشرة والنصف مساءً كنت مضطجعًا على بطانياتي وأنظر إلى نجم الدب الأكبر، وأفكر في أن الأمور ربما تكون أسوأ بينما كان القارب يخترق الأمواج مبحراً إلى الأمام . فجأةً دوت صيحة «الأرض أمامنا» فأُنزل الشراع كيفما اتفق باندفاع شديد . لم يعرف أحمد تمامًا أين موقعه ولكنه ظن أنها رأس البحر[٢] ، النقطة الجنوبية لجزيرة البحرين، ولم يرد أن يغامر أكثر من ذلك بالإبحار في الظلام فأرسينا لننتظر الفجر .

اكتشفنا في الصباح أننا كنا متجهين صوب رأس البحر مباشرةً وعرفنا ذلك فقط في الوقت المناسب /p.44/ وهو عبارة عن رأس رملي منخفض يتلاشى بانحدار تدريجي جنوبًا باتجاه البحر . لحسن الحظ مازالت الرياح الشرقية نشطة ومكنتنا من الاستمرار في طريقنا بمحاذاة الساحل الغربي وبالإبحار على طول الساحل الشمالي وصلنا فرضة المنامة في ميناء البحرين ظهر ذلك اليوم . /p.45/

---

(١) يبدو أن المقصود أم حويض كما أشير إلى ذلك سابقًا (المترجمان)

(٢) من المؤكد أن المؤلف أخطأ في اسم المكان فهو كما يتضح من الخريطة المرفقة يقصد رأس البر وهو الحد الجنوبي للجزيرة ويعرف أيضًا باسم رأس حد البحرين . انظر : ج.ج. لوريمر، دليل الخليج ، القسم الجغرافي ، جـ١ ، ص ٢٦٤ . (المترجمان)

الفصل الخامس :

رمال العقير

كفى وصفًا لحملتي القصيرة سنة ١٩٢١م وسنتحقق الآن بأن اكتشافي في النهاية لخرائب العقير في سنة ١٩٢٣م كان عملاً مرضيًا جدًا .

عندما عدت من حقل الخرائب إلى القلعة استخرجت المزواة ـ عندما حل الظلام ـ لرصد نجمي النسر والثور لاستخراج خط الطول ، ولرصد نجم القطب لاستخراج خط العرض . النجم القطبي منخفض جدًا ولكن سماء شبه الجزيرة صافية ورائعة ، ولن تجد مكانًا تبدو النجوم فيه جميلة مثلما هي هنا حتى أن النجوم الصغيرة تبدو واضحة جدًا من لحظة إشراقها ، ويأخذ نجم الشُعرى اليمانية حجم وتألق شمس صغيرة .

قلص الوقت الذي قضيته مع الخرائب قنصي لذلك اليوم . كنت قد حصلت على ثلاث قنابر ثنائية التقليم (*Alaemon*) وكان علي سلخها بعد أن أضع الجهاز جانبًا . لاحظت بالإضافة إلى ذلك وجود طائر الليموزيه ذي الذيل القائم ، ومالك الحزين البحري على الساحل ، وزقزاق رملي كبير ، وقنبرة ذات عرف ، وذعرة بيضاء على الرمال . كان قد خصص لي غرفة في القلعة ، ولكني كنت أتناول الوجبات مع مأمور المالية خليل أفندي . في صباح الغد ١٨ نوفمبر ـ بعد ليلة باردة نوعًا ما ـ كانت درجة الحرارة عند الشروق ٦٠° ، وارتفعت خلال الصباح إلى ٧٨° عند الظهر في الظل . انطلقنا مبكرين بعد تناولنا وجبة إفطار مكونة من حليب طازج وتمر حساوي من محصول ذلك العام . خصصنا الجزء الأكبر من ذلك اليوم لتجهيز

المزواة وعمل كل التعديلات اللازمة ، وإنه لأمر مدهش كم قليل من اليوم يبقى لأي شيء آخر عندما تولى عناية بكل القضايا الجانبية المصاحبة للعمل الفلكي . كما قمت بغلي بعض من /p.46/ الماء في الهبسومتر (جهاز مقياس الارتفاع) وأخذت درجة الحرارة من أجل تحديد مستوى سطح البحر واتخاذه معياراً لبقية الرحلة .

رأيت خلال مشية قصيرة على الشاطيء ستة من طيور الفلامنجو واقفة في المياه الضحلة وكذلك خطاف رمل يلتقط عدداً من الذباب حول البنايات قبل أن يسرع في هجرته إلى الجنوب . رأينا طيوراً أخرى مهاجرة هي طائر الأبلق ذو اللون البني ـ الأصفر ، وطائر سمنة الصخور الأزرق ، وطائر دُرسَّة الذرة مع ثلاثة أنواع من طيور الجشنة : جشنة المروج والجشنة السمراء المصفرة والجشنة حمراء الحلق وغرابين صحراويين أو بنيي الرقبة ، وهذه عادة ما تكون في أزواج ويصعب تمييزها بين الصخور من مسافة بعيدة .

لاحظت عندما عدت ماشيًا على الرمال فوق مستوى المد بقليل جنوب القلعة (اللوحة رقم ٧) جلبة صفير مميزاً منبثقًا في الأرض حولي وكل خطوة تحدث استجابة في شكل نغم حاد وخافت يستمر حوالي خمس ثوان ويبدو أنه يبعد مسافةً من خمس إلى عشرين خطوة . سمعت صوتًا مشابهًا لذلك أول مرة في ساحة ثكنات العشار[١] في البصرة خلال الأيام الأولى للحرب ، وحاولت عندئذ أن أعثر على الصوت ولكن بلا جدوى . كانت صرارات الليل كثيرة جداً في ذلك الوقت في البصرة ، ومن ذلك الحين ارتبط الصوت في ذهني دائمًا بصوت تلك الحشرات . من الممكن أن هذا صوت تحذيري أو صوت بعض الحشرات الأرضية عندما تسمع وقع أقدامي وتسرع تحت الأرض . صممت على محاولة حل هذا اللغز في العقير ولمدة تقارب الساعة ذهبت إلى هنا وهناك متتبعًا هذا الصوت المراوغ ولكن لم أجد

(١) العشار إحدى ضواحي البصرة نسبة إلى نهر العشار ، انظر : ج.ج لوريمر ، دليل الخليج ، القسم الجغرافي ، الجزء الأول ، ص ٣٤١، ٣٤٣. (المترجمان)

أي مؤشر بل لم أتأكد حتى من الجهة الدقيقة التي يأتي منها . يبدو في البداية أنه على بعد عشرين خطوة إلى الأمام ثم عندما أتقدم ينبثق من على بعد خمس خطوات إلى الخلف ثم إلى الجنب وهكذا حتى تعبت وانهزمت وكان لابد من الإسراع في العودة إلى المزواة .

تحققت بعد وصولي إلى إنجلترا ، وقراءتي لكتاب اللورد كيرزون «حكايات السفر» (*Tales of travel*) ، والذي خصص فصلاً كاملاً منه لأصوات الكثبان الرملية والشواطيء الموسيقية/p.47/ ، جمعت سابقًا تحت عنوان «الرمال المغنية» ، عنئذ ، بأنني قد قابلت ظاهرة الشواطيء الموسيقية . لو علمت مسبقًا بهذه المعلومات الموجودة في هذا الكتاب لكان تناولي للموضوع من زاوية أخرى آخذًا في الاعتبار أن مصدر هذه الأصوات قد يكون آليًا بقدر ما هو حشراتي . يقال بأن الصوت يصدر عن كثبان رملية ذات شكل معين لم أسمعه ولم أسمع عنه في الصحارى التي مررت بها . إن أحسن وصف للصوت كما سمعته هو ما قاله ثورو (Thoreau) الذي زار شاطئًا شهيرًا في مانشستر (Manchester-by-Sea Mass.,) في سنة ١٨٥٨م . يقول : « إن الصوت لم يكن موسيقيًا ولا عاليًا على الإطلاق . إن السيد .R الذي لم يسمعه من قبل كان محقًا تقريبًا عندما قال : إنه مثل ذلك الصوت الذي يحدث عندما تفرك بأصبعك زجاجًا مبللاً . أنا ظننت أنه يشبه كثيرًا الصوت الذي يحدث عند صقل الطاولة» .

كنت مازلت أسمع ذلك الصوت الغريب عندما كنت جالسًا ذلك المساء على سطح قلعة العقير المطلة على الرمال ، رغم أن كل شيء كان يبدو هادئًا ولم يكن هناك أي اهتزاز ليسبب هذا الصوت . سجلت في يومياتي هذا الحدث بهذه الكلمات : «بعد يوم مشمس كان المساء باردًا وبلا رياح ، الصرارات في الأرض تغني من حولنا ، والقمر الساطع منعكسًا على البحر » . /p.48/

الفصل السادس :

طريق الهفوف

غادرنا العقير عند شروق الشمس يوم التاسع عشر من نوفمبر لنجتاز أربعين ميلاً من الكثبان الرملية الناعمة إلى الجشة[1] ، أول قرية في واحة الأحساء . يعتبر هذا أفضل ترتيب لأنه يبقى ساعتين فقط من المسير إلى الهفوف في اليوم التالي . إنه من الأسهل كثيراً لمضيفك أن توقت موعد استقبالك الرسمي عندما يكون المجلس مليئًا بالناس فتكون الحفلة أكثر تأثيراً . أرسل لنا ست من الإبل مع أن الفريق يتكون من جنديين ومهدي بالإضافة إليّ أنا ولا يحتاج إلا لأربع من الإبل فقط إلا أنه لم يخطر ببالنا ارتكاب إهانة بحق المطيتين الأخريين كتحميلهما ببعض الأمتعة . لهذا فقد قيْدَنا بخطاميهما غير محملتين بينما سبعة من الحمير الأحساوية البيض منشغلة بنقل الصناديق .

لم يؤخذ في الاعتبار عند التصميم وزن وحجم وشكل هذه الصناديق لملاءمة تحميلها على ظهور الحيوانات . حُدد لكل حمار طردين ولم أر قط أصعب انقياداً من قافلة البهائم هذه حيث تصطدم وتحتك ببعضها عند خروجها من بوابات القلعة واستيقظت العقير كلها مبكرةً لترى الانطلاقة . عندما واجهنا أول التلال الرملية ونظرت إلى الخلف باتجاه الشمال الشرقي برز من فوق أفق البحر قمة جبل دخان في

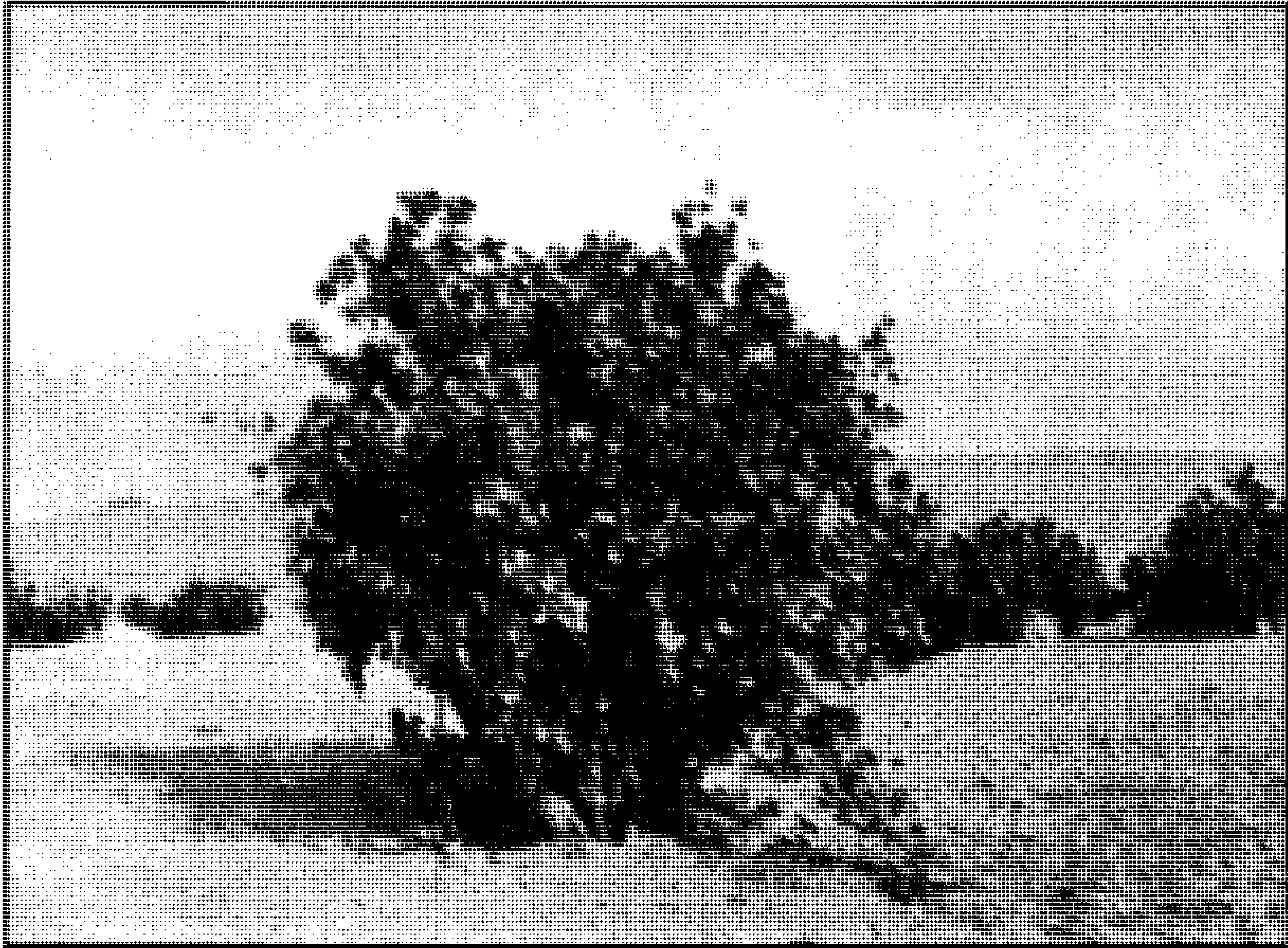
(١) الجشة قرية من قرى الهفوف الكبيرة وهي آخر قراها الشرقية . انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية القسم الأول ، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦ . (المترجمان)

جزيرة البحرين وقد حجب السراب قاعدته . يفترض طبقا لكل القوانين أن يحتجب تحت الأفق ولكن من خلال فلتة غريبة لانكسار الضوء والتي كثيراً ما تلاحظ في هذه المناطق فقد كان بارزاً بوضوح ومغريًا لأخذ قراءة بالبوصلة وكنت سعيداً لعمل ذلك. كان جبل دخان قد ثُبت موضعه فلكيًا بواسطة المسح البحري ومكنني هذا الإشعاع /p.49/ من الربط ومقارنة خرائطي مع موقع صحيح يقع في العالم المعروف والذي تركته خلفي .

منطقة الكثبان الرملية تجعل السير كئيبًا حيث لا وجود لطريق . ساعة بعد ساعة ونحن نلتف حول التلال الرملية ملازمين المنطقة المنخفضة تقريبًا باتجاه الغرب مع ميل إلى الجنوب قليلاً . تمتد الكثبان باتجاه الشرق والغرب وانحدار الجوانب خفيف من الشمال وحاد من الجنوب ، مما يدل على أن معظم الرياح تأتي من الشمال ، وأن الكثبان تتحرك باطراد في اتجاه الجنوب . كانت أول استراحة لنا في أم الذر حيث يمكن الحصول على الماء العذب بالحفر قليلاً في الرمل على بعد ثلاثة إلى أربعة أقدام . سبقتنا الحمير وكانت قد أخذت كفايتها من الماء قبل وصولنا ، وبمشيتها العادية السريعة قليلاً تقطع الحمير حوالي خمسة أميال في الساعة وللحاق بها يجب على سائقي الحمير ـ الذين نادراً ما يركبون ـ أن يجروا معظم الطريق . أمضينا خمسًا وثلاثين دقيقة عملت خلالها القهوة وتناولناها . يتكون الطعام من التمر وخبز بلا خميرة فقط ، ولم يأخذ الأمر منا وقتًا طويلاً . الوقود قليل هنا كما هو متوقع حيث تتوقف العديد من القوافل يوميًا ، وهناك القليل من الشجيرات التي يظهر عليها سوء الاستخدام . هناك شجرة واحدة تستحق الملاحظة طولها عشرة أقدام ويسميها العرب العُشر وتسمى علميًا (*Calotropis procera*) (اللوحة رقم ١٢) فأوراقها الخضراء الكبيرة وعناقيد زهرها الأرجواني تشكل منظراً غير متوقع في صحراء من



اللوحة رقم (١١)
نبتة الطرثوث على اليمين ونبتة الذانون على اليسار



اللوحة رقم (١٢)
شجيرة عشر في أم الذر

الكثبان الرملية وأحسب أنها أكثر ملاءمة لغابة استوائية . لحاء شجرة العشر مكسي بغطاء كثيف من عروق الفلين وعندما يُكسر الساق ينساب منه سائل أبيض ولزج .

الأكثر لفتًا للنظر هو ثمرة خضراء كبيرة على شكل كلية ، وقد تمكنت من أخذ عينات منها ولكن واجهتني مشكلة أكبر في تجفيفها . ربما أنها استغرقت أكثر من شهر قبل أن أتمكن من حفظها بعيداً عن الهواء وحتى بعد ذلك فقد وُجدت متعفنةً عند الاختبار . حصلت المشكلة نفسها في حالة شجيرة السواد (*Suaeda*) ذات الأوراق اللبية وغيرها من شجيرات الملح والجعفيل (نبات طفيلي) ولكن رزمتي /p.50/ من صحائف الورق النشاف عملت بما فيه الكفاية بالنسبة للعينات النباتية الأخرى .

نظرنا بعد حوالي ساعة من السير إلى الخلف لنحصل على آخر منظر للبحر من مكان يسمى قهديَّة[١] . كان البحر على بعد خمسة عشر ميلاً خطاً أزرق باهتًا ويتخلله سلاسل غير واضحة من الكثبان المتعبة التي اجتزناها . كنا نرتفع تدريجيًا باطّراد حتى وصلنا إلى أعلى أرض بين الهفوف والبحر ولبقية الرحلة كان هناك نزول تدريجي مساو لذلك الارتفاع . كان سعيد ـ أكبر الجنود سنًا ـ هو المسئول وكان متلهفًا لجعل الإبل تسير خبًا والإسراع بنا بينما كنت لراحتي الشخصية مصممًا على عدم الامتثال لذلك . انطلق في إحدى المرات جملي مسرعًا إلى الأمام فجأة عندما كان سعيد خلفي وأظهر توقًا مفرطًا لينطلق في عدو وئيد . عندما جاء خلفي في المرة القادمة التفت فجأة وأطبقت عليه ممسكًا بعصا جمله يكز بها مطيتي وكزةً خفية لم أتساهل في هذا الأمر ، لهذا وبقدر كبير من القوة شددت خطام البعير حتى

---

(١) قَهْديَّة موضع يقع غرب العقير ينحرف عنها طريق العقير إلى الأحساء نحو الجنوب . انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، القسم الرابع ، ص ١٤٩٦ . (المترجمان)

خفت سرعته إلى مجرد دبيب . أحيانًا عندما يكون الطريق جيدًا استحثه ليخب خبًا ولكني سعيد جدًا بأن أتركه يعود إلى مشيه العادي مرة أخرى فخبب الجمل غير مريح أبدًا ويجعل حتى العربي يبدو بمظهر غير جليل يتمايل أثناء ركوبه غير المتزن على الرحل .

توقفنا قليلاً بعد سبع ساعات من السير الصعب وبينما صلى الرجال تجولت قليلاً وفكرت في تصلب عظام جسمي عند امتطائي للجمل في نهار الغد . قطعنا ستة أميال من سهل مستو مالح ـ اجتزناه خبًا ـ ثم مزيد من التلال الرملية قبل أن نرى أخيرًا واحة الأحساء .

بالإضافة إلى الشعور بالفرح الكبير بعد ساعات عديدة من النظر المقيد بمنظر الكثيب الأصفر القادم على بعد ٤٠٠ ياردة في أي اتجاه ، فإن النظرة الأولى نحو واحة الأحساء تصدم الإنسان فعلاً بجمالها . من بعيد هناك منظر داكن لثلاث أو أربع سلاسل من التلال مرتفعة عن السهل وكل واحدة طولها يقارب الميل وترتفع عن الأرض حوالي ٣٠٠ قدم . كان أطرفها إلى الجنوب يسمى جبل الأربع(١) له أربع نتؤآت /p.51/ صخرية صغيرة ، وكل واحدة منفردة تمامًا عن الأخرى وعن الجبل نفسه . يقع جبل القاره(٢) إلى الشمال وقد علمت عنه مسبقًا حيث زاره الرحالة الألماني بوركهاردت في سنة ١٩٠٤م ووصف كهوفه . توجد مساحة مظلمة بين التلال ، وهي منظر مألوف في الصحراء كحد فاصل للمناطق المزروعة ببساتين النخيل في الواحة . يبدو من النظرة الأولى أنها منطقة يسهل عمل خريطة لها بآلات

(١) الأربع هضبات ذات رؤوس أربعة شامخة تقع جنوب بلدة الهفوف . انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، القسم الأول ، ص ١٤٧ . (المترجمان)

(٢) جبل القاره يقع شمال شرق الهفوف بجوار قرية القاره . انظر : حمد الجاسر معجم المنطقة الشرقية ، القسم الرابع ، ص ١٣٨٣ . (المترجمان)

بسيطة مثل البوصلة الموشورية . الجبال ذات معالم واضحة وقائمة في كل خانات البوصلة وأخذ اتجاه الزوايا من ثلاثة أو أربعة اتجاهات ، يحدد موقعها بدقة كبيرة ، ولكن الصعوبة تبدأ عندما تحاول أخذ مواقع القرى وشبكة الطرق من خلال المزارع . كما أن القرى مطوقة جيداً بالأشجار الطويلة بحيث لا تستطيع رؤية أي شيء من الجبال المحيطة ، وتصبح وكأنك في غابة استوائية . تفاصيل خرائط الأحساء جمعت عن طريق توقيت مسير الرحالة القلائل الذين مروا من هنا وعن طريق ملاحظاتهم ونتيجة لذلك وجدت أنه حتى الجبال البارزة وضعت بعيداً جداً عن مواضعها الحقيقية وبعضها أغفل تمامًا . من ناحية أخرى فإن عمل خريطة لواحة الأحساء ليس جزءاً من برنامجي ، ولم أرد أن أظهر حماساً زائداً لذلك ـ فهذه منطقة يسهل الوصول إليها نسبيًا ـ مما قد يفسد فرصة السماح لي بأخذ الأجهزة إلى منطقة بعيدة .

تقع الجشة عند الطرف الجنوبي من الواحة ، والقرية خارج نطاق النخيل مباشرة . وصلنا بيت الأمير بعد رحلة شاقة استغرقت عشر ساعات كاملة ، كان أحد أعضاء الفريق على الأقل متعبًا ذهنيًا بالإضافة إلى تعبه الجسمي الشديد . حُسبت المسافة فيما بعد وكانت سبعة وثلاثين ونصف ميل وقُطعت بمعدل ٩ ,٣ ميل في الساعة بعد خصم الوقت الذي أمضيناه في التوقف . أمر الأمير الذي كان على علم بقدومنا بتحضير الشاي والقهوة مسبقًا ، ولم أتركه يحتار في رأيي حولهما بأنهما كانا ممتازين . تبع ذلك وبسرعة /p.52/ خروف مشوي ، كاملاً برأسه وإليته على كومة من الأرز ، وبعض من الأطباق الجانبية من دون التأخير الكثير المعتاد لحين الإمساك بالخروف وذبحه وطبخه الذي هو عائق في حالة معظم الضيافات العربية .

كان الأمير رجلا مسنًا حاد الطبع ويعطي أوامره إلى خدمه بصوت نزق ، وكان أحدهم ذا مظهر لافت للانتباه بشعره الأسود الطويل المجدول . جلس بجانبي عندما كنت آكل منفرداً ولحق ببقية المجموعة في الخارج عندما رفعت الصحون .

كان من النادر طوال وجودي في شبه الجزيرة العربية أن أكلت مع مضيفي أو مع بقية المجموعة مع أنهم غالبًا ما ينضمون إلي فيما بعد لشرب القهوة . ليس هذا ـ كما يمكن أن نتصور ـ بسبب أن لديهم اعتراض على الأكل مع كافر ولكنه رغبة في إظهار أكبر قدر من الاحترام لضيف السلطان . كانت غرفة الضيوف واسعة بالنسبة للمباني العربية فعرضها ١٨ قدمًا وطولها ٣٠ قدمًا . يُحمل الامتداد الكبير للسقف المنبسط بواسطة ثلاث دعامات من جذوع النخل الطويل موضوعة بشكل مواز للجانبين الطويلين، ومدعمة عند أطرافها الغليظة بقوسين من الحجر الجيري ملحمين بجدران المبنى (وغير مدعم من الأرض أو بواسطة دعامات حائطية) وتتقوس فوق عرض الغرفة مذكرة بطراز الأديرة . معظم غرف البيوت العربية محدودة في عرضها بطول جذوع النخيل التي تصف جنبًا إلى جنب من الجدار إلى الجدار لتحمل السقف . نحن الآن في بلد يلعب فيها القوس دوراً مهمًا في العمارة مع أن نوع القوس قد يكون بدائيًا بعض الشيء . ذكرتني بعض أقواس الساحة والحاملة للشرفة بالأقواس الإنجليزية العائدة للعهد النورماندي . مواد البناء في متناول اليد بالإضافة إلى توفر الموارد من تلال الحجر الرملي الجيري حيث يمكن اقتلاع كتل حجرية جيدة من الصخر الأبيض من أي مكان في السهل .

ساد الهدوء في القرية سريعًا ولم يكدره سوى مجموعة من أبناء آوى وهي أول ثدييات ألاحظها في الواحة . استغربت وجودها هنا نوعًا ما، لأنها لا تميل للعيش في الصحراء ما لم تكن على مسافة قريبة من البلدات بحيث يمكن وصولها في جولة ليلية . لابد أن أول زوج وصل إلى الهفوف /p.53/ قطع مسافة ٤٠٠ ميل من أرض صعبة وعديمة الماء، ولكنه كوفيء جيداً ، فقد وجد الواحة التي يصعب تخيل مكان أفضل منها للاستيطان ـ ففوقك ظل نخيل غير محدود وتحتك فراش من البرسيم الأخضر تضطجع عليه خلال النهار . كما أن بها قرى للتردد عليها أثناء

الليل وإطلاق عواء غريب وأنين مريع تعبيراً عن البهجة لاحتمال القيام بغارة للبحث عما تجمع من العظام ذلك اليوم في أكوام الزبالة المحلية .

قمنا بجولة في القرية ـ بعد شروق الشمس مباشرةً ـ من صباح الغد وركبنا جمالنا خارج أسوارها ، وقد كان ارتفاع سقف مدخلها بقدر ما يكفي فقط لمرور الجمل وراكبه . كانت الحمير قد انطلقت أمامنا بعدما أعطيتهم سرير سفري لحمله . كان التصلب الناتج عن رحلة اليوم السابق أشد ما يكون في عضلات الفخذ حيث كان الساق يحتك بالطرف الخشبي لمقدمة الشداد ـ الذي هو مثبت حوله ـ والرجل الأخرى مسنودةً عند مشط القدم على الطريقة البدوية حيث تكون الأطراف في نفس الوضع الذي تكون فيه أطراف سيدة راكبة على سرج جانبي إنجليزي .

دخلنا حالاً في بساتين النخيل المعتنى بها جيداً . تكشف أشجار النخيل الطويلة عن خصوبة التربة عندما تحصل على الماء الضروري المتوفر هنا بكثرة . كانت معظم الأرض الواقعة تحت أشجار النخيل مزدهرة بالبرسيم الأخضر النضر . بعد الأميال القليلة الأولى يبدأ العقل الزراعي يتساءل عما يمكن أن يلتهم هذه الكميات الهائلة من البرسيم . لا تتضح الإجابة إلا بعد أن تتجول في طرقات الهفوف والطرق الرئيسة حول الواحة وعندها فقط تدرك أنك حيثما اتجهت تجد سيلاً متتابعًا من الحمير البيض . هناك حمير محملة بالبضائع من العقير ، وأخرى محملة بالحطب المجلوب من الصحراء ، وصفوف من الحمير محملة بكتل من الحجر الجيري المجلوب من المحاجر في طريقه إلى القرية أدوات للبناء . يقود هذه الحمير ولدٌ صغيرٌ جالسٌ على مؤخرة الحمار الأخير . /p.54/ تكون الحمير في طريق العودة غير محملة وتجري في موكب عبر الشوارع الضيقة يسوقها ولد (عفيريت) مرح في المؤخرة ، يرتفع في الهواء عاليًا مع كل وثبة لحماره ، ولكن بنوع من التجاذب

العجيب - خارج نطاق التوازن - يعود إلى النقطة نفسها على ظهر حماره في كل مرة، ويصيح على الحمار الذي في المقدمة بشكل متواصل . ينادي بصوت مرتفع «إلى الأمام (Hike!)» آخذًا نفسًا طويلاً يتبعه هذر من اللعنات ذات الوقع العظيم على الحمير مستمراً على ذلك مادام له نفس يتحمل حتى يصبح آخر نداءه مجرد لهاث غير مفهوم . يمكن أن تتغير الكلمات ولكن الكلمة الأولى « إلى الأمام Hike» وطريقة الإلقاء لا تتغير ، ولهذا فإن صيحة سائقي الحمير في الأحساء ذات وقع مستمر . ثم هنالك حمير التجار والمعروفة بزخارفها الثمينة وكانت أكثر هدوءاً تلك المنطلقة بانسياب إلى السوق بسرعة ستة إلى سبعة أميال في الساعة .

تروح آلاف من الحمير الأخرى وتجيء ساعة بعد ساعة في منحدر رافعة الماء (الغرافة) مسايرة أغنية الرجل الذي يسوقها ووقع صوت القرب الكبيرة (الغروب) عندما تفرغ ماءها في الأحواض عند نهاية كل لفة . كل هذه الحمير لا تأكل سوى البرسيم والتمر طوال العام، والصحراء لا تنتج شيئًا يمكن الاعتماد عليه غذاءً للحيوان إلا إذا ذهبت إلى مناطق البدو وإبلهم على بعد مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام . يوجد بعض الخيل في الهفوف بخلاف تلك المعتبرة خيلاً حكومية في إسطبل الأمير وقليل من الماشية الهزيلة التي يحتفظ بها مصدراً للحليب الطازج . تعتمد هذه الحيوانات وحتى الإبل التي تعيش في البلدة على البرسيم الأخضر والتمر غذاءً . ولهذا فلو سُئلت عن الصناعتين الأساسيتين في الهفوف ، فسأقول : التمر أولاً والبرسيم يحل بجدارة في المرتبة الثانية .

كانت الانطباعات الأولية عن واحة الأحساء سارة بما فيه الكفاية . كان سعيد قد تعهد بوضوح لإيصالي إلى باب الأمير في وقت معين، وكان تواقًا لأن يسرع بنا /p.55/ مثلما كنت مصممًا على المشي ببطء والاستمتاع بالطبيعة . توصلنا إلى حل وسطٍ بأن نقطع خبًا الأرض الحجرية الرملية الجرداء التي يقودنا طريقنا خلالها في

حين أنه على طول طرق المزارع تمشي المسافة كلها . تنمو أشجار ليمون وبرتقال تحت أشجار النخل في بعض المزارع . من الغريب أن محصول البرتقال كان قد انتهى في منتصف شهر نوفمبر بينما في العراق كان هذا سيكون بداية القطفات الأولى ـ الفرق شهران وليس لدي إيضاح لذلك مع أن اختلاف أسبوعين سيكون معقولاً بحكم اختلاف المناخ وخط العرض . كانت الاستعدادات جارية لزراعة القمح على مساحات صغيرة من الأرض خارج منطقة النخل ، حيث يمكن الحصول على قدر أكبر من الشمس . تكون سيقان القمح في منطقة ظل النخيل نحيلة ويمكن زراعة حب من الدرجة الثانية فقط . تحرث الأرض باليد بواسطة آلة مثل المسحاة ولها يد مثل المجرفة والمحاريث غير معروفة في الأحساء . من الغريب أن تخصص منطقة صغيرة لزراعة القمح مع الأخذ في الاعتبار أن الشعير لا يزرع وأحد الأسباب لذلك هو أن الأرض غير مستوية ، وأن المسطحات المناسبة للري يصعب إيصال الماء إليها . عندما نستعرض التكلفة فإنه من الأفضل زراعة البرسيم أو الأرز أو البرتقال تحت أشجار النخيل بمعنى محصولين في السنة بدلاً من أن تكون محدوداً بمحصول واحد هو القمح ، والذي لا يزدهر تحت أشجار النخيل . يبذر القمح بعد حرث الأرض مباشرةً ثم يسقى بالماء . عندما يسنبل القمح في ٤ نوفمبر ، فالحصاد يكون في حوالي منتصف مارس أي قبل العراق بشهر إلى خمسة أسابيع مع أن وقت البذر في البلدين متزامن تقريبًا . هنا يطلق اسم البر عندما نتكلم عن الحنطة بشكل عام .

يكون التباين الأكبر مع الصحراء في الخارج حتى في غير الحياة النباتية في تدفق الماء على جانب ـ وأحيانًا على جانبي ـ الطريق وتحت الجسور ومجاري المياه المبنية بالحجارة وكذلك في نباتات السرخس التي تنمو في الشقوق . وهذه المياه ليست/p.56/ جداول راكدة بل إنها صافية ولها تيار وحجم قناة طاحونة إنجليزية . إن الشرايين المائية للواحة قرب المنبع عبارة عن أنهر متدفقة قبل أن يتفرق ماؤها في قنوات جانبية .

كان السؤال الذي طرأ على ذهني ، منذ سمعت لأول مرة بجداول الهفوف الجارية ، هو هل يوجد بها أسماك ؟ يبدو أنه غير ممكن ، ولكن على ذمة بلغريف فإن الأسماك والضفادع تكثر في الجدول التي تقع في الأسفل من عين أم سبعة[١] الحارة. أثمر بحثي في البرك عند منابع الشلالات الصغيرة والأجزاء الهادئة والصافية من الجداول حيث يمكن رؤية الحصا في أسفل الماء أثناء مرورنا . وأخيرًا رأيت فوجًا من الأسماك الصغيرة بحجم سمك المنوه لدرجة أني وجدت نفسي أبحث عن سمك السلمون . كانت المياه مثالية لعيش الأسماك وعلى عدة جداول منبسطة كان يمكن إنزال مركبة خفيفة ولكن عجائب المكان لم تبلغ هذا الحد . ربما أنه حتى لو استقدم سمك السلمون فإن مياه الجداول الفاترة ستكون غير مناسبة لعيشه خاصةً في فصل الصيف . أعطاني هذا الاكتشاف فرصة جمع عينات لأعرف ماهيتها ، وإلى أي درجة حرارة تستطيع البقاء وكيف وصلت إلى هناك؟ بالنسبة للمشكلتين الأولين فقد حُلتا أخيراً ، ولكن الأخيرة مازالت لغزاً . أقرب ماء عذب إلى هنا هو شط العرب على بعد ٤٠٠ ميل .

تُستهلك مياه ينابيع الهفوف في ري المزارع أو تصب في الرمال القريبة وتختفي . تحتوي كل الجداول على الأسماك حتى الفرعية منها والتبريرات المرضية لهذه الظاهرة ليست سهلة ، فهناك تبريران ولكنهما على أية حال غير مقنعين . يمكن أن تكون طيور الماء نقلت بيض السمك بواسطة أرجلها أو صدورها إلى الهفوف ، أو يمكن أن تكون قد جاءت إلى هناك من جداول الجبال في نجد وقطعت مسافة ١٥٠ ميلاً تحت الأرض مع الماء . لكن ليس لدينا معلومات بأن السمك وجد في نجد في أي وقت . هذا السؤال بكامله نوقش بتفصيل أكثر في الملحق رقم ٤ .

(١) عين أم سبعة هي إحدى عيون الأحساء وماؤها شديد الحرارة لاسيما في أيام الشتاء ، انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، القسم الثالث ، ص ١٢١٣ . (المترجمان)

هناك طائران لم نرهما في العقير أو على طريق الصحراء وشاهدناهما في كل مزرعة مررنا بها /p.57/ هما طائر صعوة الدخل (*prinia gracilis hufufae*) والبلبل أبيض الأذنين (*pycnonotus leucotis*) . يبدو هذا البلبل ـ وأخيراً أثبت ذلك ـ مماثلاً لبلبل العراق، ولكن طائر صعوة الدخل بدا من أول رؤية له ذلك الصباح أنه أكثر سواداً وأطول ذيلاً والنقط السود على نهاية ريش ذيله أكثر وضوحًا من مثيله الشمالي في العراق . غالبًا ما تكون الاختلافات الطفيفة في الألوان هي التي تفرق ما بين تحت أنواع الطيور، والمعروفة جيداً للمراقب تكون واضحة عند رؤيتها لأول مرة، في حين أنها غير واضحة عند مقارنة الجلود ولا يمكن التفريق بينها إلا بعد وضع مجموعة من الجلود جنبًا إلى جنب، لإثبات الفوارق العرقية التي لاحظناها في الميدان. في هذه الحالة وفي حالة عصفور المنازل ، الذي شوهد كذلك في النخيل والقرى لأول مرة ، يبدو أنه أصغر ورماديًا أكثر من مثيله في العراق، وبعض الفوارق البسيطة التي لوحظت أثبتت أخيراً في المتحف . وعلى أية حال فإن اختلافات ريش الطائر في الضوء والظل مظلله جداً ومن غير الحكمة الاعتماد عليها كثيراً في هذه المطابقات الميدانية .

مررنا بقريتي الجفر[١] والفضول[٢] إلى اليسار قليلاً من طريق الجشه ـ الهفوف وقطعنا عدة سهول مرتفعة، عرض أحدها ميلان وأرضه مرتفعة جداً على الري . استغلت تلك السهول أثناء الحكم العسكري التركي القديم حيث شيدوا بها حصونًا مسورة بالطين والحجر ،وأقاموا بها حاميات لحماية الطرق . من المؤكد أنها تصلح ميدانًا جيداً للرماية ولكن تحت حكم السلطان الحالي فإن مثل هذه المخافر المتقدمة غير ضرورية، ولذا أخذت جدرانها في التساقط . يستخدم أحد هذه الحصون مستودعًا، وقيل لي إن به بعض الجنود ولكنهم لم يظهروا للعيان . /p.58/

(١) الجفر قرية من قرى الهفوف تقع شرق قرية الفضول . انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، القسم الأول ، ص٤٠٨ . (المترجمان)
(٢) الفضول قرية تقع إلى الشرق من الهفوف مسافة ساعة لراكب الدابة . انظر : حمد الجاسر ، ص ١٣١١ . (المترجمان)

الفصل السابع :

بلدة الهفوف

إن آخر سهل جيري هو ذلك الذي يمكن أن تُشاهد في طرفه الأقصى أو الغربي منازل الهفوف وقبة المسجد ومنارته . كان منظراً طبيعيًا من البياض ، لأن لون حجر المنازل الرملي الجيري مثل لون المنطقة المحيطة به مع خلفية خضراء داكنة من النخيل ، التي تروى من مجموعة مختلفة من العيون المتدفقة إلى الشمال والغرب من البلدة . بوابة العقير هي المدخل الشرقي للبلدة من خلال سورها المنيع ، وهي من أكثر البوابات حركة ونشاطًا ، وعندما اقتربنا كان هناك سيل مطرد من الحمير المحملة وغير المحملة داخلة وخارجة منها .

وجدنا مقبرة بالقرب من البلدة والعديد من أكوام الزبالة حيث تُجمع نفاية البلدة لتوزيعها لأغراض السماد . كانت المقبرة غير مرتبة ومهملة ، وهي عبارة عن سلسلة من الأكوام المرتفعة قليلاً ويكون للقبر أحيانًا بلاطة من حجر أو قضيب يغرس في طرف واحد من كل قبر . عندما وصلت إبلنا إلى البوابة حاول سعيد أن يوقف الحمير المربكة عند مرورها محملة في مدخل ضيق . صاح سعيد محذراً من خلال البوابة عندما وصل موكب جنازة والناس يحملون الجسم المغطى بالقماش ومنطلقين بسرعة حتى أن الأقارب ـ كلهم من رجال ـ يجارونهم بصعوبة ويبدو أنه حتى الجثمان كان يمر بمشقة . ظننت أن سعيداً يحاول إيقافهم حتى نمر ولكنه تركهم يمرون على مضض فأسرعوا بدون أي احترام للميت لا من حامليه ولا من المعزين أو

من المارة على الجانبين . تمكنا بعد ذلك من إفساح الطريق ودخلنا من خلال شارع واسع كان نظيفًا بالمقارنة مع كثير من البلدات العربية . /p.59/

تبنى البيوت من كتل من الحجر الرملي الأبيض واجهاتها مطلية بطلاء من الحجر الرملي ولها أسقف مستوية من الخشب ، وجدرانها مغطاة بالطين ولم أشاهد مباني من الآجر المحروق . كان هناك عدة قطعان من الأبقار ـ أشبه بالأبقار الجرسيه ـ الحدب ذات الوجوه النحيلة والطويلة . كانت الأبقار تتجول من دون راع ، تلتقط قشر البرتقال وتنبش الزبائل ، لأن الأبقار في المشرق ميالة لذلك ، ومعها قطيع من الضأن ذي الشعر الأسود الطويل والإليات السمينة ، وقطعان من الماعز السود ولابد من تدقيق النظر للتفريق بين هذه الحيوانات . بعد عبورنا السوق الواسع في الزوايا الجنوبية دخلنا بوابة أخرى إلى القلعة ، وهي حصن مسور داخل بلدة مسورة وهذا أثر آخر من أيام الحامية التركية حيث كانت ثكنات المعسكر والمقر الرسمي للإدارة العثمانية . دخلنا في شارع ضيق جذاب تطل عليه دكاكين النحاسين من كلا الجانبين ، وانحرفنا إلى الغرب كثيراً ثم انحرفنا أخيراً إلى اليمين ، وأنخنا جمالنا عند باب قصر الأمير حيث كان يتجول هناك عدد من المماليك السود المرتدين للملابس الرسمية .

كان سعيد أول من ترجل وبعد أن أسرع وقبل كل من حوله رجع وساعدني لفك نفسي من الرحل وأخذني إلى داخل المبنى . كان قد حذرني مسبقًا من التدخين في حضور الأمير أو في شوارع الهفوف . مررنا بعدة ساحات ثم صعدنا سلمًا عريضًا من الدرج وكل درجة يحرسها مزيد من الجنود والخدم الجالسين على الجانبين . كانت غرفة الاستقبال الكبيرة العلوية مزدحمة بالجنود ورجال الحاشية حول الجدران وكل منهم يحمل سيفًا عربيًا محدبًا ذا غمد فضي مرصع . كان

يجلس في صدر المجلس رجل عربي قصير عريض المنكبين في أواخر الخمسين من عمره هو الشيخ عبدالله بن جلوي أمير منطقة الأحساء وابن عم السلطان . كانت سحنة وجهه أكثر دكانةً من سحنة وجه رجل إنجليزي لوحته الشمس وينير ذلك الوجه عيون عسلية عربية حادة . مع أن لونه قاتم بعض الشيء إلا أن قسماته لطيفة وأقل بقليل من أن يقال عنه وسيم . كانت ملابسه أنيقه ولكنها بسيطة جداً ما عدا أن غمد سيفه مرصعٌ بالذهب . /p.60/ من الواضح أننا جئنا إليه وهو منهمك في عمله اليومي وبرغم ذلك نهض لمصافحتي وأجلسني على كرسي بجانبه وبكلمة واحدة أخلي المكان من الجميع ماعدا الجنود . عندئذ قدمني لرجل كان جالسًا على يساري ذلك هو محمد أفندي [1] وقد كان رجلاً كبيراً في السن تبدو عليه سمات الخير . كان يبدو أكثر شحوبًا حتى من الأمير وهو مدير المالية وكاتب ومستخدم عام في إمارة الأحساء . علاوة على ذلك فهو تركي تبنته الحكومة الحالية لغرض الاستمرارية ـ إذا جاز التعبير ـ عندما غادرت الحامية التركية . كان لديه خبرة بكل تعقيدات جمع الضرائب ومعرفة دقيقة بالأمور المالية العامة في الأحساء وبما أنه تزوج من الأحساء فقد كان سعيداً جداً بهذا التبني . بخلاف الجيل الجديد من عائلته فسيكون من الصعب استبداله من بين صفوف الوهابيين الذين يتكونون في الأساس من طبقتين : أسر الشيوخ (الأمراء) وأسر أخرى مالكة للأرض ومع أنهم متعلمون إلا أنهم ينظرون بدونية إلى العمل المكتبي وكأنه عبودية . الطبقة الأخرى تتكون من الفلاحين أو العمال وهم غير متعلمين . من الصعب جداً إبعاد أحد أفراد الأسر التجارية المحلية عن شئونه الخاصة ليرضى بوظيفة حكومية .

---

(١) محمد أفندي موظف عثماني جاء من الموصل إلى الأحساء سنة ١٢٩٨هـ وأسند إليه العثمانيون شئون المال . ولما استولى الملك عبدالعزيز على الأحساء سنة ١٣٣١هـ أبقاه في وظيفته لأمانته وكفاءته الإدارية وبقي في هذه الوظيفة حتي توفي سنه ١٣٤٥هـ ، انظر إبراهيم العتيبي ، تنظيمات الدولة في عهد الملك عبدالعزيز ، الطبعة الأولى ، الرياض ١٤١٤هـ ، ص ٢٩٣ ،(هامش رقم ٣) . (المترجمان)

الأمير (الشيخ) عبدالله كان جنديًا أولاً وآخرًا وسيبقى كذلك دائمًا ، ولذا فالانضباط ملازم لجو مجلسه، وفي حضرته ترى موظفيه دائمًا كأنهم في عرض عسكري . إنها ليست الطقوس المرتبة للنظام العسكري الأوروبي، ولكن مع ذلك فالانضباط الصارم هو نفسه . عندما ينهض ينهض معه الحضور جميعًا تصحبهم قعقعة السيوف . عندما يطلب القهوة يكرر الطلب بأصوات خشنة في الغرفة عبر الباب وتسمع كلمة «قهوة» يرددها الخدم على الدرج ثم يخفت الصوت في الدهاليز. ونادرًا ما ينتهي صدى الصوت إلا وقد حضرت القهوة ولم يخطر ببال أحد قط أن يؤخر أو يشك في أي طلب للأمير (الشيخ) عبدالله . مثل القهوة هذا شاهد غير ذي شأن، ولكنه ينطبق بصورة متساوية على البدو المتهمين بخرق القوانين القبلية أو القيام بأعمال السلب . /p.61/ مع أن البدوي يبدو آمنًا في منزله بالصحراء النائية إلا أنه يركب جمله عندما يتلقى الأوامر ويأتي إلى الهفوف ليعفى عنه أو يعاقب . إن سر سيطرة الأمير (الشيخ) عبدالله على البدو المتوحشين - بعضهم لم يسبق أن خضعوا لأحد - هو ما يتمتع به الأمير من سمعة واسعة بالعدل والعطف مصحوبةً بعقاب قاس للمذنب . ليس هنالك بلد مثل هذا تلقى الجريمة جزاءها المستحق بسرعة شديدة حيث لا يوجد مرافعين لذر الرماد في عيون السلطات القضائية نيابة عمّن يستطيع أن يدفع لهم . بالإضافة إلى ذلك فالأنظمة يسهل فهمها والمحافظة عليها وهي ليست جائرة . يتحكم هذا الرجل العظيم وبمهارة في قوة أخرى وهي عداء الحضر للبدو والبدو للحضر . يعتبر كل منهما الآخر أقل شأنًا ، وأي كلمة لم يحسب حسابها من مسئول تجعلهم في خصام بعضهم مع بعض، وتجعل المنطقة في اضطراب . أخبرني بدوي أن لدى الأمير محاباة للحضر، كما أفضى إلي حضري بمعلومات تفيد بأن قلب الأمير رقيق تجاه البدو، ولهذا فهو يحافظ على السلام بين الطرفين اللذين لم يبدُ أنهما سيتحدان ضد الحكومة .

لاتزدهر السياسة ولا السياسيون في هذا الجو بل ولا تخطر ببال أحد والأمر متروك لله ثم لمثله الإمام ابن سعود .

سأل الشيخ عبدالله ـ كما يسميه البدو والحضر ـ بأدب وعاطفة شبه أبوية عن صحتي وصحة السيد برسي كوكس ، وأعطى تعليمات إلى محمد أفندي ليهتم بي خلال إقامتي وبعد تناول القهوة أخبرني عن بيت الضيافة الذي أعد لإقامتي . أعد هذا البيت كليةً لضيافة القليل من الأوروبيين الذين يزورون الأحساء . صعب علي إلى حد ما فهم لغة الشيخ عبدالله ، إن كلامه أنقى لأنه نابع من الصحراء فهو يخرج من أقصى الحلق . بينما استطعت أن أتحدث بسهولة مع محمد أفندي الذي هو من مواليد الموصل ، لأن أذني تعودت على لغته في بغداد . /p.62/ عندما دخلت الصالة المزدحمة كنت مرتديًا سترة النورفولك وقبعة لباد رمادية مترهلة ولفافة الساقين وجزمة عالية وشعر ذقن لم يحلق منذ أربعة أيام ، ولهذا فلم أرتح لأنني شعرت بأن مظهري مناف للذوق السليم . الطريقة الأوروبية في نزع القبعة والإبقاء على الأحذية عندما يكون عكسها تماما هو العادة المؤدبة لذلك البلد فالناس لا تعجب هناك مثلما لا تعجب الناس هنا بعادات من دُعي لحفلة استقبال رسمية في لندن وأتى حافي القدمين وقبعته على رأسه . صممت على أن أغتنم أول فرصة لشراء ملابس عربية . أحضر سعيد ـ الجندي ـ مهدي إلى المجلس وقدمه للأمير وأوضحت له بأنه خادمي فصافحه ثم رجع مهدي بينما سعيد يشرح عملياتنا في العقير من نصب المصائد والسلخ والتي كان سيده متشوقًا لها بشدة . جيء بالشاي وبعدئذ دُعي سعيد مرة أخرى ليأخذني إلى بيت الضيافة .

يقع مدخل المنزل في شارع يشغله في الأساس دكاكين صناع الدلال ومجاور للقصر الذي يسكنه ابن سعود عندما يكون في الهفوف . يتكون من الفناء المغلق

العادي وعلى جانبي الباب غرفتين كبيرتين، إحداهما معدة لعمل القهوة مع موقد صغير في الوسط، وفي الأخرى وجدت صناديقي قد وضعت ومهدي مرهقًا ومستلقيًا في زاويتها . كان سكني في الغرفتين العليين والوصول إليهما عن طريق الفناء بواسطة درج من الحجر الرملي . يؤدي هذا الدرج كذلك إلى شرفة عريضة على طول المنزل مدعومة بصف من أقواس مبنية من الحجر الرملي . يتكون أثاث إحدى الغرف ـ التي وجدت سرير سفري فيها ـ من كرسي ومقعدين طويلين وطاولة وزجاجة ماء للحمام وكأس . رتبت الغرفة الأخرى على الطريقة الشرقية كغرفة استقبال فالأرضية مفروشة بالسجاد والوسائد مصفوفة حول جدرانها . يوجد في المنزل خادم ممتاز يقوم بدور كبير الخدم وآخر للمهام الثانوية جداً وخادم زنجي يعمل على تجهيز القهوة باستمرار ولهذا ففي أي وقت خلال النهار كانت القهوة /p.63/ والشاي دائمًا جاهزة هذا بالإضافة إلى جنديين ينامان في الدور الأرضي ويصحباني عندما أخرج .

بناءً على أصوات الصخب والآتية من الدور الأرضي في كل وقت والمصحوبة أحيانًا بنفحات من التبغ المحرم، فإنني أظن أن كثيراً من الزوار يجتمعون هناك محتمين بالتساهل العام الممنوح من السلطات للضيف الكافر . حذرني سعيد من أن يراني أحداً وأنا أدخن في البلدة وأضاف «المنزل خاص بك تستطيع أن تعمل ما تشاء بداخله» .

جاء الخدم عند منتصف النهار من مطبخ محمد أفندي يحملون أطباق الصحون: صحن من الأرز المسلوق المكوم عاليًا وعليه دجاجتان محشوتان وصحون من لحم الضأن المفروم مع حلوى الأصابع والطماطم وكومة من شرائح خبز بلا خميرة وبيض مسلوق على خليط من اللحم المتبل، هذا بالإضافة الـ

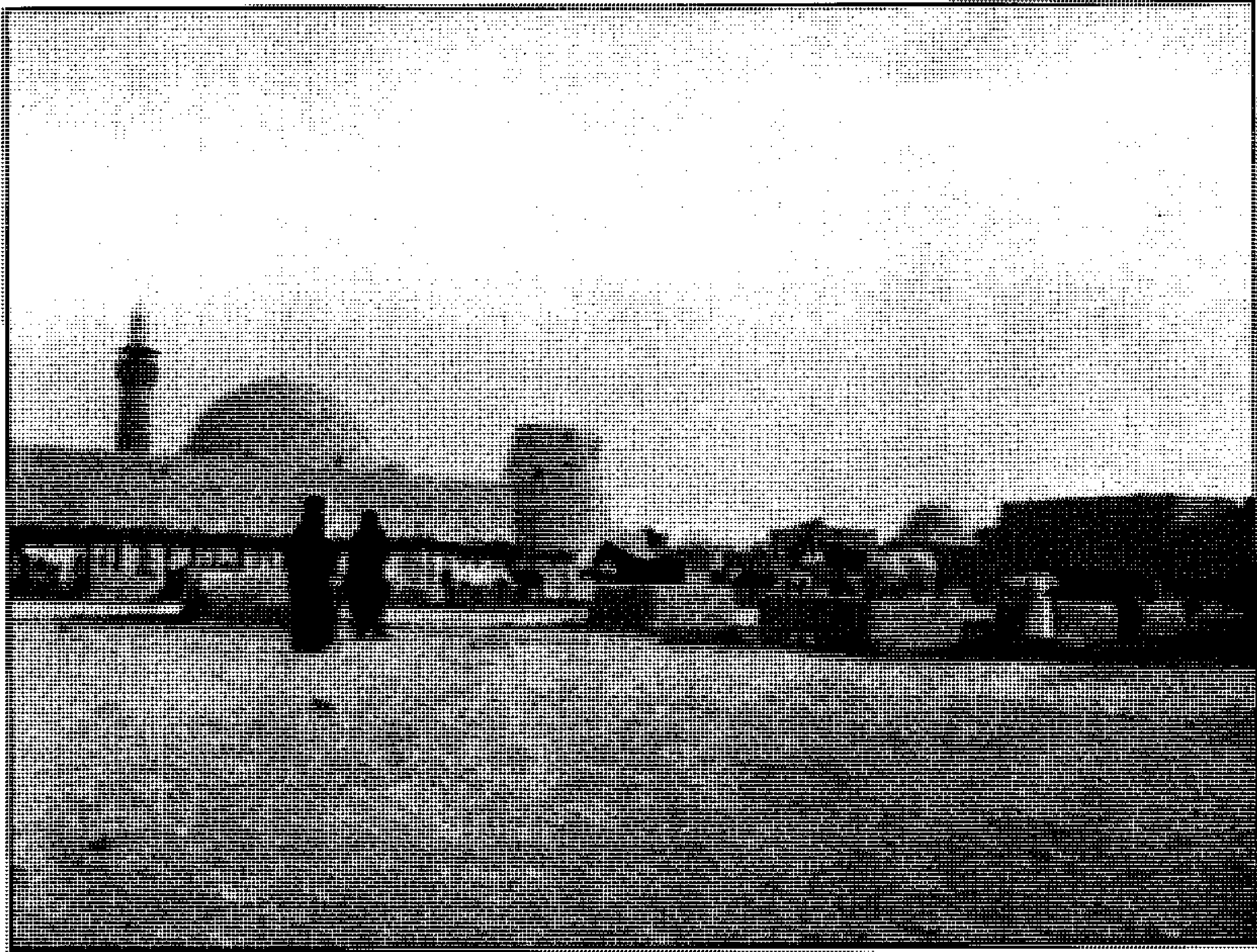
صحن من تمر الخلاص الحلو المذاق . جلست على الأرض أمام هذا الكم المتواضع وأكلت في عزلة عظيمة وعملت ما في وسعي أن أترك أثراً واضحاً في الأكل فغمست بيدي في الحساء وأطباق أخرى غريبة ، لأنه بالطبع كل الهفوف لا تتباهى بالسكين والشوكة مع أن الملعقة تلمح في بعض المناسبات . انتظر في الخارج خادمٌ مرتد غترة (كوفية) بيضاء وزبون (مشلح) ومعه منشفة وزجاجة ماء ، ولاستغرابي قطعةً من صابون بيرز (Pears) وكل هذا يذكرني بجاكدو الريمز *Jackdaw of Rheims*) . كما أنه أرسل مهدي ليرى ما إذا كان لدي ملابس للغسيل ، لأن هناك رجلاً ينتظر ليأخذها إلى أحد العيون الحارة ويحضرها في الغد نظيفة ومجففة . كانت هذه الأخيرة مفاجأة سارة لأنه لا يوجد في البصرة ولا على سفينة شركة الهند الشرقية ـ حتى في هذه الأيام المتنورة ـ ترتيبات منتظمة يستطيع عن طريقها المسافر أن يرتب لغسل ملابسه وقد تكدس لدي كم كبير من الملابس المتسخة . تكررت الوجبات خلال فترة إقامتي ـ تقريباً نفس أصناف الطعام ـ عند منتصف النهار وبعد صلاة المغرب . بالإضافة إلى ذلك فبعد طلوع الشمس مباشرة يُحضر الإفطار الذي يتكون من بيض مسلوق وخبز وحليب البقر الحار . /p.64/

ذكرت لسعيد بعد الغداء من يوم وصولي عزمي على التجول في المزارع ببندقيتي عيار ٠٤١٠ لأخذ فكرة عن الطيور الشائعة في هذه المنطقة . لم يستقبل كلامي بحماس وبعد أن ذكرت له بأنني لا استطيع الذهاب بدونه تركني بحجة أنه ذاهب ليبحث عن صبي ليحمل صفيحتي الصغيرة لجمع العينات . أدركت من أول لقاء لنا بالعقير أن هجين الزنوج هذا سيحتاج إلى معاملة دقيقة ، وكنت متهيئاً لأن أراه يحاول التحكم بي لمصلحته الخاصة بمكره الساذج الأخرق الذي يتمثل في شخصية الزنجي ، مثلما هو غريب على طبيعة العربي القح . يحاول هذا الأخير أن يجعل الموقف مرضياً بدون إثارة نفس القدر من التذمر في الضحية المقصودة .

انتظرت سعيد لمدة نصف ساعة وعندما لم يحضر استدعيت الجندي الآخر من موقد القهوة وانطلقت ، وأنا أعلم جيداً أن هذا المقصر سيأتي مسرعًا إلي خوفًا من أن يخبر الأمير بأنني دخلت البلدة بدونه . قضينا ساعة جميلة بين مزارع النخيل (اللوحة رقم ١٣) وكانت هذه الزيارة القصيرة للمعاينة وواعدة بمستقبل حافل بجمع العينات . كانت الأسماك صغيرة ووافرة في كل الجداول كما كانت الجدران الطينية المحيطة بحقول البرسيم كانت مثقبة بجحور بعض الحيوانات . كان هناك فراشات صغيرة وكبيرة وتعرفت على أحدها وهي الفراشة العادية ذات الذيل الخطافي وأخرى أكبر منها وهي فراشة الليمون الخطافية البطيئة جداً في طيرانها حتى أني أمسكت واحدة منها بيدي عندما مرت بي . بخلاف البلبل وطيور صعوة الدخل - التي كانت كثيرة - لم أر طيوراً ، وبدأت أتحقق بأن جمعي للطيور من المحتمل أن يكون عدداً صغيراً من عينات مختلفة . مع ذلك كان هناك كمية كبيرة وكافية لتشغلني لعدة أسابيع وبدأت أتساءل عما إذا كنت سأرحل إلى الرياض أو حتى العودة إلى بريطانيا بدون أن يكون لدي وقت كاف للحصول على عينة نموذجية من طيور الواحة. في طريق العودة انضم إلينا سعيد الذي كان يراقب مدخلي البلدة الشماليين /p.65/ لأجل أن يمر في الشوارع متباهيًا بأنه كان في صحبتي . بدا مرتبكا نوعًا ما ولكنني لم أقل له شيئًا لعلمي بأن الصراع سيبدأ عندما أبدأ العمل الجاد . بدخول البوابة الواقعة في الطرف الغربي للسور الشمالي مررنا مباشرة بالكوت واجتزنا منطقة فضاء بها سبعون أو ثمانون حصانًا عربيًا جميلاً تتبع للأمير ومربطة عند معالفها وتمضغ البرسيم (لوحة رقم ١٤). تحفظ هذه الحيوانات في الخارج خلال فصل الشتاء ولكنها توضع تحت عشش من أغصان النخيل خلال فصل الصيف الحار . قضيت أول أمسية في الهفوف أسلخ خمسة من طيور صعوة الدخل وبلبل واحد . /p.66/



اللوحة رقم (١٣)
في البساتين بالهفوف . شجر نخيل وشجرة زيزفونه (على اليسار)



اللوحة رقم (١٤)
إسطبلات خيل ابن جلوي بالهفوف - في الخلف مسجد إبراهيم باشا

الفصل الثامن :

بلغريف وڤيلبي

قرأت بعد الإفطار من صباح الغد ، يوم ٢١ نوفمبر ، كتاب ڤيلبي (Heart of Arabia)[١] لأقارن وصفه لواحة الهفوف بوصف بلغريف . كما أعدت قراءة نقده لوصف بلغريف[٢] في نفس الكتاب . كنت قد أحضرت كتب كلا المؤلفين ، ولأن لدي ميزة التواجد في الموقع ولا أدافع عن أي منهما فقد ظننت أنها ستكون فرصة جيدة لأستقر على حكم مبني على جدارتهما . قابلنا في اليوم السابق(صفًا) قافلة من الإبل ربط رأس كل منها بمؤخرة الذي أمامه ، قادمة عبر طريق ضيق بين مزارع النخيل ولاقينا بعض الصعوبات لاجتيازها . رأى بلغريف في بريده نفس نوعية هذا الصف الغريب ووصفه بالتالي : «سلسلة كاملة من الجمال خطام كل منها مربوط بحبل في مؤخرة الجمل الذي يسبقه وفي سفرهم يضايقون جداً من يقابلهم في منعطف ضيق» . علق ڤيلبي على ذلك بقوله : «من المؤكد أن طريقة ربط حيوانات القافلة بهذا الشكل غير منتشرة في صحراء الجزيرة العربية والمرة الوحيدة التي قابلتها طوال مقامي في البلد كان في الطريق بين الطائف ومكة في الحجاز» . هذه النقطة حسمت لصالح بلغريف لأنه في مناسبة أخرى مررت بسلسلة من الإبل المحملة ربطت بنفس الطريقة كما وصفها بلغريف تمامًا وعندما تحدثت مع أحد الجنود ـ

(١) *The Heart of Arabia,* H. st. J. Philby,1922

(٢) *A year's Journey through central and Eastern Arabia,* W.G. Palgrave (1862-63), 1908.

حسن ـ قال : إنها تشاهد كثيراً وسأل عن سر اهتمامي بذلك . وعندما أخبرته قال ضاحكًا : «بلغ سلامي لفيلبي وقل له لاشيء غير عادي في هذا» . ولهذا نستطيع أن نفترض بما /p.67/ أنها طريقة ليست غير عادية في الأحساء والحجاز فيكون بلغريف رآها فعلا في بريدة .

وبجراءة أكثر منها حذراً دخل فيلبي الميدان كذلك حول قضية أنواع الحبوب التي تنمو في الأحساء ، واقتبس عبارة بلغريف بأنه «تقريبًا كل البقول والحبوب ، ماعدا الشعير (على الأقل فلم أره ولم أسمع به) ، تغطي الأرض المنبسطة» . مع أن الكلمات القليلة حول عدم وجود الشعير هي فقط الجزء الصحيح تمامًا من جملة بلغريف إلا أن فيلبي كذبها مباشرة بعبارة «إن الشعير ينمو بشكل وافر» . عند السؤال أخبرت بأن الشعير الوحيد الذي يدخل الهفوف يستورده الأمير من الخارج لخيوله ، وقد تمكنت من إثبات ذلك بتفحصي أثناء تجولنا لكل حقل مزروع بالحبوب . بالإضافة إلى ملاحظة الفرق في ورق النبات التي تلف ساق نبتة الشعير وهي لا توجد في القمح وقد اعتدت على مضاعفة التأكد باستخراج البذرة المتصلة بالنبتة . وكانت دائمًا قمحًا ومع ذلك إنصافًا لفيلبي يجب ذكر أنه كان هناك مساحة صغيرة من البرسيم وبها بقع من الشعير المزروع حول أطرافها ، غير أن هذا المحصول لا يملأ كيسًا واحدًا .

ومع أن القمح هو النوع الوحيد من الحبوب الذي يزرع في الشتاء فلا نستطيع أن نقول أنه يزرع بشكل واسع ، فالمساحات التي يزرع بها صغيرة وفي الحقيقة أنك تحتاج إلى بحث كبير لتجدها وأكبر قطعة رأيتها في كل الواحة كانت حوالي ثلاثة فدادين . لهذا فلا كلام بلغريف «تغطي كل الأرض المنبسطة» ولا كلام فيلبي «ينمو بوفرة» يعطي فكرة صحيحة جداً عن حجم زراعة حب الشتاء في واحة الأحساء .

معظم معلومات بلغريف عن الزراعة والبستنة مضللة ، فهو من ناحية لا يملك المعرفة الضرورية حول الموضوع ، ومن ناحية أخرى بسبب أخطائه المطبقة . ومثال

على هذا الأخير هو ذكره للحيوانات التي تستخدم للحراثة في الهفوف . قال : « . . . لكن يجب ألاّ أتجاهل العدد المتزايد من الأبقار ، وكلها حدب على شاكلة بقر الهند والتي تستخدم غالبًا في الحرث ولكن ليس بشكل دائم فتستبدل /p.68/ أحيانًا بالحمير ، وأما الخيل فغني عن القول أنها لا تستخدم لهذا الغرض أبدًا» . ومع أن هذه لم تكن من العبارات التي اعترض عليها فيلبي ولكنها بحق سببت اعتراضًا من السيد جي . بي . مكي Mr. J.B. Mackie (*Geographical Journal,* March 1924) . إحدى غرائب هذه الواحة أن المحاريث غير معروفة بها فالحراثة تكون كلها باليد وتشق الأرض بمسحاة حديدية عريضة مثبتة على مقبض خشبي على شكل مجرفة .

ورد نبتتان في قائمة بلغريف على أنهما توجدان في المزارع وهما شجرة (الببايا) وقصب السكر ولكن لا ينبت أي منهما هناك كما أشار إلى ذلك فيلبي . لكني أظن أننا نستطيع أن نوضح أن هذا الخطأ ليس مناف للطبيعة كما يبدو لأول وهلة . نبات الخروع ينمو فعلاً هناك وبسبب التشابه في شكل أوراقه ذات اللون الأزرق المخضر مع أوراق شجرة الببايا ومع شكلها العام فيمكن بسهولة الالتباس على أنها شجرة ببايا ضعيفة النمو والتي قال بلغريف إنه رآها . مرة أخرى بالنسبة لقصب السكر الذي رآه يباع في السوق بالتجزئة على شكل حُزم حيث يأخذه المشترون إلى بيوتهم لقضمه في وقت الراحة فهذا يمكن أن يكون نبتة خاصة بالصحراء ذات ساق غض مطمور تحت الأرض وتسمى الطرثوث (*Cynomorium coccineum*) (انظر اللوحة رقم ١١) . ساق الطرثوب أحمر وردي ويباع في السوق في سلال ويتجول المشترون وهم يقضمون الطراثيث مثلما يفعل أهل الهند مع قصب السكر ولهذا فإن الخطأ في التعرف عليه يمكن اغتفاره .

قال بلغريف أنه رأى جواميسًا تتمرغ في برك الأحساء وهذه العبارة استسخفها فيلبي ، وأنا أقول : إنها طيش حماقة . ليس بالإمكان أن يكون قد رأى الجواميس ، ولا أن شخصًا مثله قد زار الهند تشتبه عليه (الجواميس) مع الماشية المحلية . سألت

الجنود وأهل المزارع على الخصوص عما إذا كانت الجواميس قد استوردت في أي وقت . رآها بعضهم في البصرة والهند وليس هناك شك في حكمهم عندما قالوا : إنه لم يستوردها أحد أو حتى احتمال استقدام الجواميس/p.69/ للأحساء لأن الأحوال غير مناسبة لها تمامًا . الحالة التالية رغم أنها لم تكن من الحالات التي شكك فيها ڤيلبي إلا أنها مثال آخر على عدم اكتراث بلغريف بالدقة . كان ذلك عند وصفه لمغادرته بريدة في الليل عندما كان من الواضح أنه يريد أن يؤثر في القارئ بمعرفته القوية في الفلك قال : «تألق نجم سهيل بكل إشراقة في جهة الجنوب» (نجم سهيل [بالعربية سهيل] كان من أشهر النجوم عند العرب واسم مفضل يطلقونه على صقورهم المحترمة) . لو ترك العبارة بهذا الشكل لكان حسنًا ولكن لانه بلغريف فقد أضاف : «وستشرق الجوزاء عما قريب» . لو أنه درس خريطة النجوم لأدرك بأن الجوزاء تكون قد ارتفعت في السماء عندما يظهر نجم سهيل .

قيل ما يكفي لإظهار أن أكثر وصف بلغريف التفصيلي والذي أورده بتأكيد صفيق لا يمكن الاعتماد عليه ابدًا . اعترض ڤيلبي بحق على كثير من معلوماته، ولكنني وجدت على الأقل في حالتين من الخلاف بين ڤيلبي وبلغريف أن الأخير ليس محقًا فقط بل إن ڤيلبي على خطأ . توصلت بتمحيص الأدلة إلى استنتاج بأن كليهما لابد أن يكونا قد زارا الأحساء . إنه من السهل جدًا مهما كان الشخص حذرًا أن يقع في أخطاء بسيطة فقط لمحاولة الحمل على التصديق بوصفه للمكان ولايزال أسهل من ذلك كله ـ كما لاحظت ـ أن تأتي وتشير إلى نواقص من سبقك. إنني متأكد بأن الرجل الذي سيعقبني لن يحتاج إلى مجهر إذا كانت رغبته الكشف عن الأخطاء . لا استطيع موافقة ڤيلبي عندما يوحي أن بلغريف لم يذهب أبدًا إلى الأحساء . إن الصورة التي رسمها بلغريف للهفوف ومزارعها وقناطرها وصناعاتها والناس بها هي ما رأيته تمامًا ولا يستطيع جمعها إلا شاهد عيان . على الرغم من أن

كلا الفنانين رسما نفس الموضوع إلا أنني وجدت في كتابيهما لوحتين من مدرستين مختلفتين . الأولى لفيلبي من مرحلة ما قبل روفائيل الذي يحرص عندما يرسم مجموعة من زهور الربيع /p.70/ على أن يحصل على العدد الصحيح للبتلات من كل وردة بينما بلغريف ـ الإنطباعي ـ يأخذ انطباعه عن سلسلة زهور الربيع بدون أن يحاول حتى إبراز كل وردة على انفراد . تلقى بلاشك أن بلغريف العديد من الأسئلة عند عودته حول مواضيع لم تهمه أثناء سفره وحاول بتهور أن يرضي الناس بتعبئة الفراغات وزخرفة الموضوعات بأعمال خيالية حية في حين أن الصمت الذهبي أو الاعتراف ببعض من قلة الملاحظة كان أفضل وسيلة .

في الختام يمكن القول أن خريطة بلغريف للهفوف مليئة جداً بالأخطاء ولم أستطع حتى معرفة اتجاهاتها . /p.71/

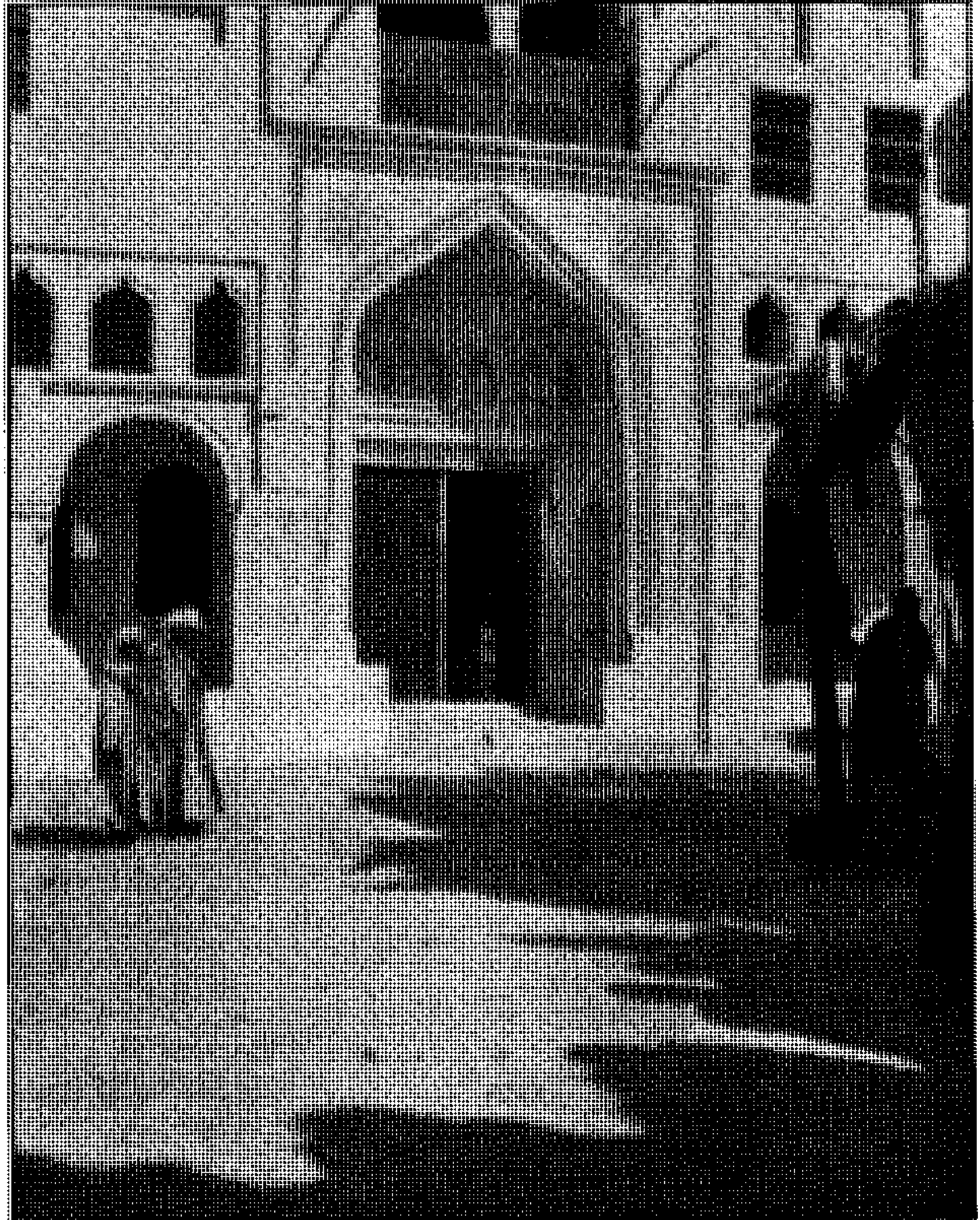
الفصل التاسع :

الحياة في الهفوف

تلقيت رسالة في الصباح من الأمير يطلب مني فيها أن أحضر بعض المصائد لأشرح له كيف تمسك بالحيوانات ، كما طلب إحضار بعض من جلود الحيوانات والطيور . أقمنا معرضًا في وسط صالة الاستقبال وبدا مهتمًا كثيراً بالمصائد ، وسأل عما إذا كان ممكنًا الحصول على واحدة كبيرة بما يكفي لصيد الغزال ، فأجبته ضاحكًا بأن بإمكانه إذا أراد الحصول على واحدة قوية تكفي لصيد رجل . لا يهتم الأمير نفسه بالرياضة ، وفي الحقيقة أنه دائمًا في مقر الإمارة ولا يُرى في البلدة أو حولها . كان استجمامه الوحيد هو الحضور للمسجد الوهابي لأداء الصلوات الخمس والتي يتوقع أن يحضرها كذلك جنوده وموظفوه . أخبرني جنوده بأنه منذ أن أصبح أميراً للأحساء قبل عشر سنوات لم يغادر بلدة الهفوف باستثناء رحلة للعقير قبل مجيئي ببعض الوقت عندما قابل الرائد دالي Daly ليتسلم منه وسام C.I.E (١) . من ناحية أخرى فإن أبناءه صيادون متحمسون ولديهم حوالي ثلاثين صقراً موزعة بينهم ، وأعتقد أن الأب كان مهتمًا جداً ببنادقي والرصاص وحجم الطلقة والمدى الفعال لكل سلاح من أجلهم .

كان علي بعد ذلك أن أخرج مع الجنديين وأوسع عملية جمع العينات إلى المزارع المجاورة . كان سعيد كثير الأعذار ففي الأول كان يريدنا أن ننتظر إلى ما بعد

(١) C.I.E هذه الحروف إختصار للكلمات التالية (Companion of the Most Eminent Order of the Indian Empire) وهو ما يمكن ترجمته بوسام زميل جماعة الإمبراطورية الهندية .



اللوحة رقم (١٥)
باب مكتب القصيبي الجديد بالهفوف ويظهر عليه آثار العمارة الفارسية



اللوحة رقم (١٦)
سوق الخميس بالهفوف ويظهر به صف جديد من الأعمدة مع أقواسها المدورة

الغداء وبعد ذلك يجب أن يصلي مع الأمير . كان يستحيل في هذه المرحلة المبكرة التأكد عما إذا كان ينفذ سياسة عليا /p.72/ لتثبيطي بقدر الإمكان عن التجول أو أنه كان ينتهج سياسته الخاصة لتعويقي إما ليخفف عن نفسه المتاعب أو لاستمالتي لإعطائه بعض النقود . داريته اليوم بالانتظار حتى تجهز وبدأنا بعد الظهر متأخرين نوعًا ما . لكن في كل يوم كنت أتعلم المزيد عن طرق البلدة والمزارع وصممت على اصطحاب مهدي وترك الجنديين حالما أتعرف على طريق الذهاب وأستطيع أن أتأكد من طريق العودة . كان بيت الضيافة في حي الكوت حيث يوجد القصر والمباني الحكومية والمساكن . كان الكوت محاطًا كليةً بسور عال حصين من اللبن الطيني، وعليه أبراج مستديرة متباعدة وخندق مائي جف الآن وبدأت تظهر على السور علامات الخراب . كنت عندما أخرج من البيت الذي أسكن فيه وأنعطف باتجاه الشرق أمر بحوانيت الصفارين الصغيرة . يمكن من الصباح إلى المساء وفي أيام الأحد والجمعة سماع رنين مطارق النحاسين حيث يحنون ويطرقون النحاس ليعملوا منه دلال قهوة ذات ميازيب طويلة مثل مناقير الطيور . يمكن أن يتصور المرء بأن صناعة مثل هذه لابد وأن تدر ثروة من دون أي فرصة لتبذير الدخل، ولكن أكد لي الجنود بأن الأمر ليس كذلك . بقدر ما يزيد دخل الصفارين بقدر ما يزيد أكلهم ويذهب كل ما جمعوه لشراء الأكل أو ـ للعدالة ـ لضيافة مسرفة لأصدقائهم .

يفضي هذا الشارع من خلال بوابة جميلة إلى سور الكوت وينتهي إلى فضاء مفتوح واسع ممتد باتجاه الشمال والجنوب ـ سوق الخميس ـ أي : إلى موقع سوق الخميس[1] (اللوحة رقم ١٦) . توجد المكاتب الجديدة لعائلة القصيبي في الطرف الأقصى (اللوحة رقم ١٥ ، ٢٤) كما يوجد صف طويل من الأعمدة الجديدة لمبنى ذي أقواس بيضاء مع دكاكين في أروقة مغطاة ، وهذه جزء من السوق الجديد

(١) هو سوق يقام يوم الخميس ويعرض فيه الحاضرة والبادية بضائعهم ومنتوجاتهم وكان من أهم أسواق الهفوف . انظر : خالد بن جابر الغريب ، منطقة الأحساء عبر أطوار التاريخ ، ط ٢ ، الخبر : الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص ٣١٤-٣١٧ . (المترجمان)

ومخطط السلطان لتجديد بناء الهفوف . يقع حي الرفعه خلف السوق في الجهة الشرقية من البلدة وبه بيوت التجار وبعض المناطق الفقيرة ومن خلاله يمر طريق عام مزدحم تمر به القوافل المنطلقة إلى العقير أو العائدة منه . تمتد جدران سور الكوت/p.73/ بجانب السوق حيث يغشاها العديد من طيور الخطاف الصخري ذات اللون الرمادي الشاحب وغير العادي والتي كانت منشغله طوال اليوم بالذباب الكثير في السوق وبلا شك أنها تظهر على الجدران العلوية لتتشمس . كان من المستحيل صيدها في البلدة المزدحمة وفي نفس الوقت كان مهمًا الحصول على عينات من هذا الطير ، والذي لايبدو أنه يفارق الأبراج أبدًا . كانت هذه إحدى المشاكل التي شغلت ذهني عندما اتجهنا شمالاً عبر مكان السوق المفتوح لنخرج من البوابة الشمالية ونعبر سهل الحجر الجيري الفاصل بين البلدة والمزارع وندخل بساتين النخيل التي تسقى من عين أم خريسان[١] ذات الماء الفاتر . تقع العين في وسط المنطقة المزروعة وتشرف على أراض تقع في واد صغير ويصل ماؤها إلى تلك المنطقة عن طريق قناة عميقة ومنها يسقى البرسيم ومزارع النخيل بواسطة رافعات الماء التي تشغلها حمير بيض وتسمى محليًا بالصدر (*Suds*)[٢] .

يمكن أن يسير الماء في الأماكن المنخفضة من الأرض بقوة الجاذبية إلى المزارع . تترك أوطأ المناطق من الأرض للماء النازّ المشبع تمامًا بمادة الملح والذي يتسرب ليشكل بحيرة ضحلة ويخلف التبخر رواسب ثقيلة من الملح . بهذه الطريقة فإن التصريف المدهش لتربة المزرعة يفسر الجودة العالية في الإنتاج . يلفت النظر جودة أشجار النخيل ومحاصيل البرسيم ولا وجود للملح على سطح الأرض الذي هو مشكلة

(١) وردت في النص الأصلي (umm al Khorsan) تقع عين أم خريسان قرب الهفوف في الجهة الشرقية يفيض بعض مائها في مجري سليسل . انظر : حمد الجاسر، معجم المنطقة الشرقية، القسم الثالث، ص١٢١٢ . (المترجمان)

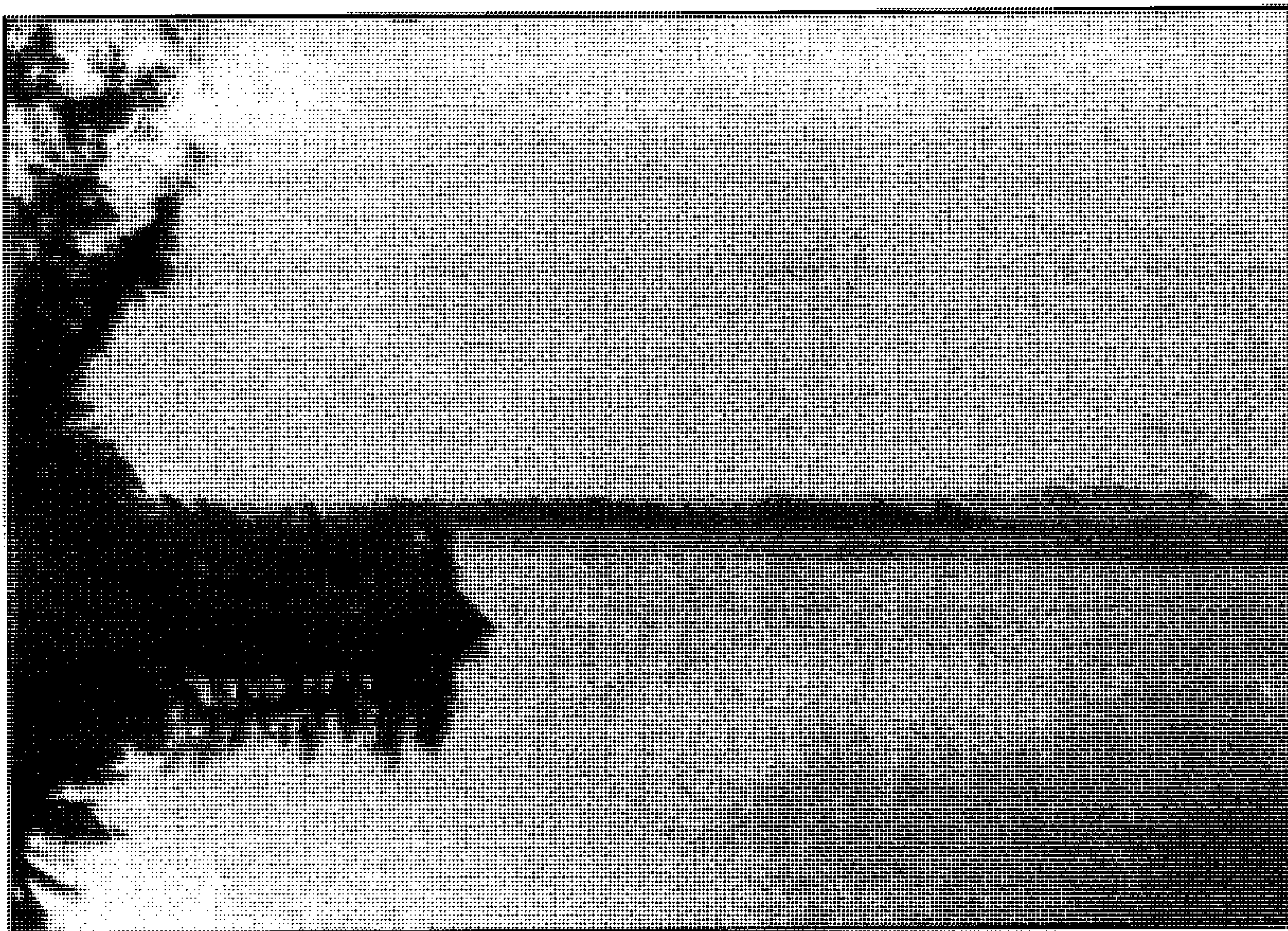
(٢) لابد أن المؤلف أساء سماع كلمة (Suds) والصحيح صدر فهذه الكلمة وكلمة غرافه من الكلمات المستخدمه في الأحساء وهي تعني السواني (المترجمان)

كبيرة لمهندسي الزراعة في أجزاء من العراق والهند حيث يسهل توصيل المياه لمسطحات كبيرة من الأرض، ولكن غالبًا لا يوجد منحدر للتخلص من المياه المصرفة، ولهذا فإن الأرض عرضة لأن تتحول من سهل خصب إلى صحراء ملحية.

تنبع العين في بركة كبيرة عرضها ١٥٠ ياردة ومنها تتشعب قنوات التوزيع (اللوحة رقم ١٨). يوجد في الطرف الشمالي منها حمام مغلق للنساء ولكن معظم السيدات يفضلن الاستحمام إلى الخارج قليلاً حيث الماء أنظف/p.74/ عند زيارتي كان هناك عدد ١٢ امرأة في الماء الخارجي بعضهن يغسلن الملابس وبعضهن يغسلن أطفالهن. ليس هناك حاجة إلى الخصوصية لأن استحمام المرأة يتكون ليس من السباحة أو الغطس ولكن مجرد الوقوف في الماء إلى الوركين، ونزع العباءة فقط والحجاب ينزع أحيانًا. تُبقي المرأة القميص الخارجي أو ما تحته من الملابس ورغم أنه عندما يكون رطبًا يلتصق بالجسم جدًا فإن اللابس يكون مكسيًا دائمًا.

كنت منشغلا تمامًا في البحث عن الأسماك الصغيرة في البركة التي يمكن التقاطها بشبكة، وقد وجدت قليلاً من الأسماك وأخطط للمجيء في يوم آخر وكان هذا مما أشغلني عن الانتباه فتقدمت باتجاه حرم حواء (حمام النساء). لكنني لاحظت الجدران عندما اقتربنا منها، وعندما أخبرت عن ماهيتها انحرفت سريعًا إلى اليسار قائلاً للجنود بأنني لا أريد أن أعكر عليهن خصوصيتهن. لو لم أغير اتجاهي بمبادرة مني لكنت مررت كما يبدو بدون استياء من أي أحد، ومن جهة أخرى فهناك دائمًا إمكانية حدوث موقف محرج بسبب هذا.

تبعد عين أم خريسان مجرد عشر دقائق فقط عن البلدة سيرًا على الأقدام ويتردد عليها الناس كثيرًا. كان يوجد في جانب منها صانع عباءات يغمر عباءاته المصبوغة للتو باللون الأسود في الماء ليتخلص من الصبغة الزائدة والتي غيرت لون مسافة من



اللوحة رقم (١٧)
بحيرة تصريف المياه من البساتين في الهفوف ويمكن رؤية جبل أبو غنيمة في الخلف



اللوحة رقم (١٨)
عين أم خريسان في الهفوف وحمام النساء في الخلف

مجرى الجدول. كان جزار في وسط البركة مع ذبيحته الأخيرة وقد استحم وغسل اللحم في عملية كريهة . مررنا بالمزارع التي كان عرضها ثلاثة أرباع الميل فقط وشاهدنا باتجاه الشمال سهلاً فسيحًا . كان هناك أولاً البحيرة الضحلة من مياه المزارع المتدفقة، وتبلغ مساحتها حوالي عشرين فدانًا (اللوحة رقم ١٧) ثم صحراء رملية متدرجة الارتفاع قليلة النبات . يوجد في الأفق على بعد ثلاثة أميال تلال من الحجر الرملي الجيري وجبل أبو غنيمة[1] ، وسلسلة هضبة حادة من الجروف الغريبة والجميلة وصخور رملية بعضها متآكل ويبلغ ارتفاعها عن الأرض ٢٠٠ قدم (اللوحة رقم ٢٩). /p.75/

لم يكن هذا المنظر واعدًا بأنه سيكون منطقة صيد طيور . لقد أصبح واضحًا بأن مزارع هذه الواحة ستثبت أنها رائعة فقط للعدد القليل من الأصناف التي تحتويها، وكلما حدقت في هذه الجبال القاحلة اتضح لي أن الفرص ضعيفة في كونها مسكونة بأي شيء يمكن أن يطير . من ناحية أخرى فإن وجد شيء هناك فسيكون مشوقًا . وبمشاعر متناقضه عدنا باتجاه المنزل بعد أن مشينا مشيًا ممتدًا لأكثر من ميل منذ أن غادرنا المنزل .

كان الجنديان يتظاهران بالتعب الشديد وجلسا يتنهدان مرة بعد مرة عندما أتوقف لفحص أي شيء . أشعرتهما بتعاطفي بإخبارهما أنني الآن أدرس فقط الاحتمالات ولكن عندما أبدأ القنص فعلاً فيمكن أن يقتلهما التعب وقد كنت حذرًا مبتسمًا ـ بالطبع ـ عندما قلت ذلك . أيقظنا خلال النهار عددًا من أبناء آوى النائمة بترف على مسطحات من البرسيم الأخضر . تدل ألوانها على أنها من بنات آوى العادية (*Canis aureus*) بشعر الشتاء الجميل جدًا ورقبة مكشكشة بطول رقبة كلب

---

(١) جبل أبو غنيمه يقع غرب الهفوف قرب عين نجم ، انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، القسم الأول ص ١٠٨ . (المترجمان)

الكولي[١] . قال الجندياني : إن سكان العيون ـ قرية منعزلة بها بساتين نخيل على بعد حوالي خمسة عشر ميلا إلى الشمال ـ يأكلون أبناء آوى وربما أن الفلاحين يأكلون تقريبًا أي شيء يقع في أيديهم بوصفه لحمًا بغض النظر عما يقوله القرآن (بغض النظر عن حلاله أو حرامه)[٢] .

الأغنام والماشية غالية جداً ونادرة ولذا فهي تشكل غذاء التجار والحرفيين في البلدة . ليس هناك رعي في الصحاري لتسعة أشهر من العام على الأقل ولذا يجب إطعام الإبل والبقر والأغنام والحمير على نحو مكلف تمامًا بالبرسيم والتمر . يحتكر الأمير شراء كل القش للإمارة ولهذا فإن قطيع الغنم الوحيد ذا الحجم الكبير هو قطيع الشيخ عبدالله وهو الوحيد الذي يستطيع أن يتحمل تكلفة تربية الأغنام . ترى في السوق أحيانًا رجلاً يساوم على خروفين أو ثلاثة خراف سمان والتي هي في طريقها إلى بطون التجار لامحالة .

دخلنا البلدة من الجهة الشمالية الغربية ويبدو في الخلف امتداد السور مع منارة وقبة مسجد إبراهيم /p.76/ في الوسط مشكلة منظراً جميلاً حيث السهل الأجرد بدون نخيل تحجب الرؤيه مما يعطي منظراً متواصلاً لكامل شرفات الحصن الشمالية مع السور . تنتأ الزاوية الشمالية الغربية من البلدة على شكل مستطيل مغلق مرتبط مع الكوت والمسكون أساسًا من قبل الجنود . دخلنا عبر البوابة الشمالية الغربية بوصفها جزءًا من السور الدفاعي بني فوقها غرف مأوى للجنود . يبدو أنه كان محتمًا علي ذلك اليوم أن أمر بمواقف محرجة مع النساء . كانت أقواس المدخل متجهة بنفس الطريقة التي وصفها بلغريف وبما أنه كان في الخلف منظر لخيل الأمير

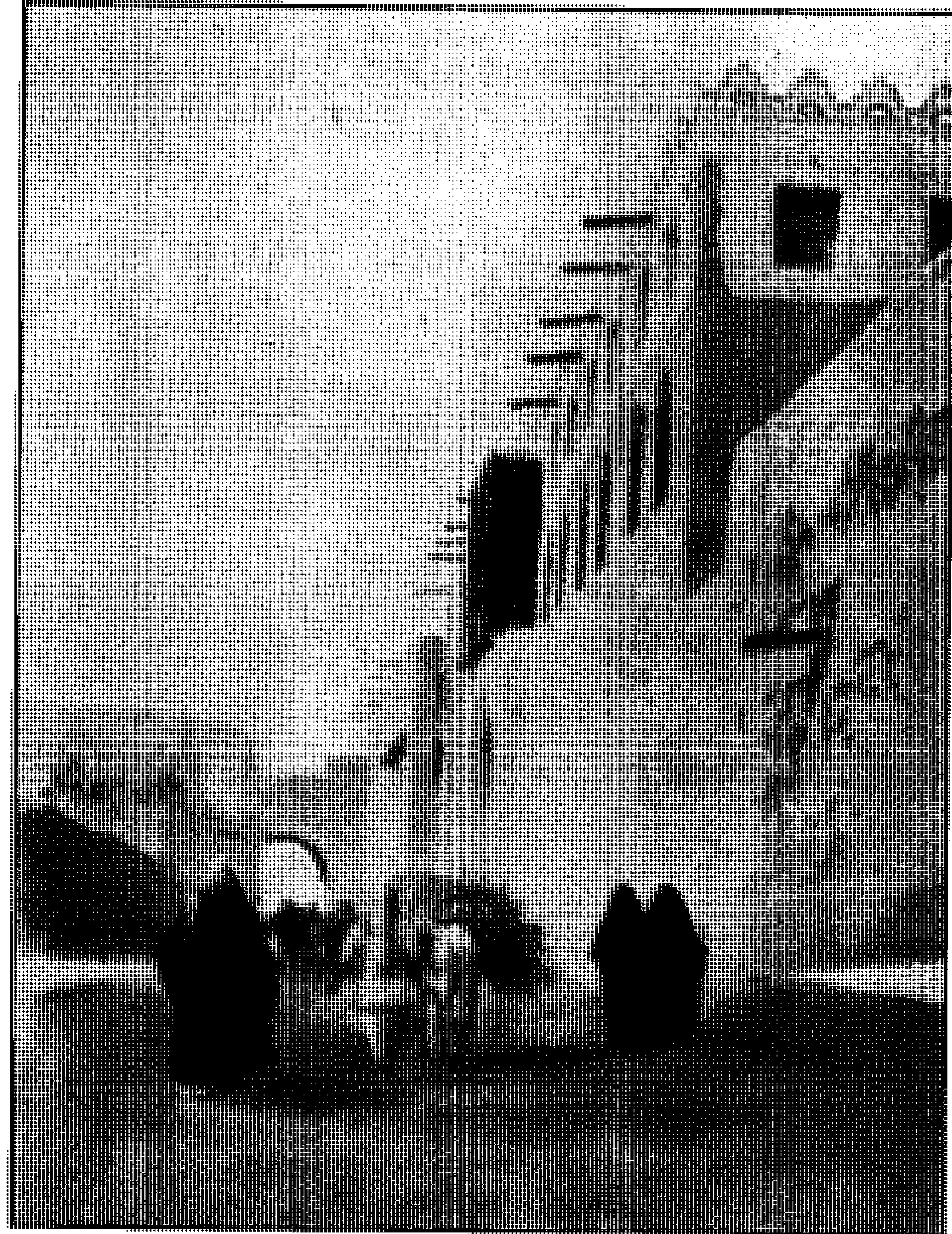
---

(١) الكلب الكولي هو كلب اسكتلندي يستخدم في رعي الغنم . (المترجمان)
(٢) هذه المعلومة التي أوردها المؤلف غير صحيحة فلم يثبت أن ابن آوى يؤكل في الأحساء . (المترجمان)

في الإسطبلات فقد توقفت لألتقط صورة. عندما ضغطت على الزر ظهر لي شيء في الطرف البعيد من المدخل يتصرف بحماقة عجيبة واتضح أخيراً أنه امرأة كانت تحاول أن تبتعد عن مجال الكاميرا . كانت قد دخلت فجأة من الطرف الآخر لتعبر وتراجعت مسرعةً بقدر مايسمح لها لباسها المغلف لها . لو كانت مصحوبة بأقارب من الرجال فلربما أظهروا استياءهم ولكن هذا الحادث مر بسلام . استمرينا مسرعين في طريقنا وتعجب الجنود أنفسهم ، ومع ذلك ظننت أنه من الأفضل أن أوضح بأن المرأة لن تخرج في الصورة ، لأني كنت فقط أصور الخيل في الإسطبل . لكن عند تحميض الفيلم وجدت أن المرأة قد احتلت وسط الصورة (اللوحة رقم ٢٠) .

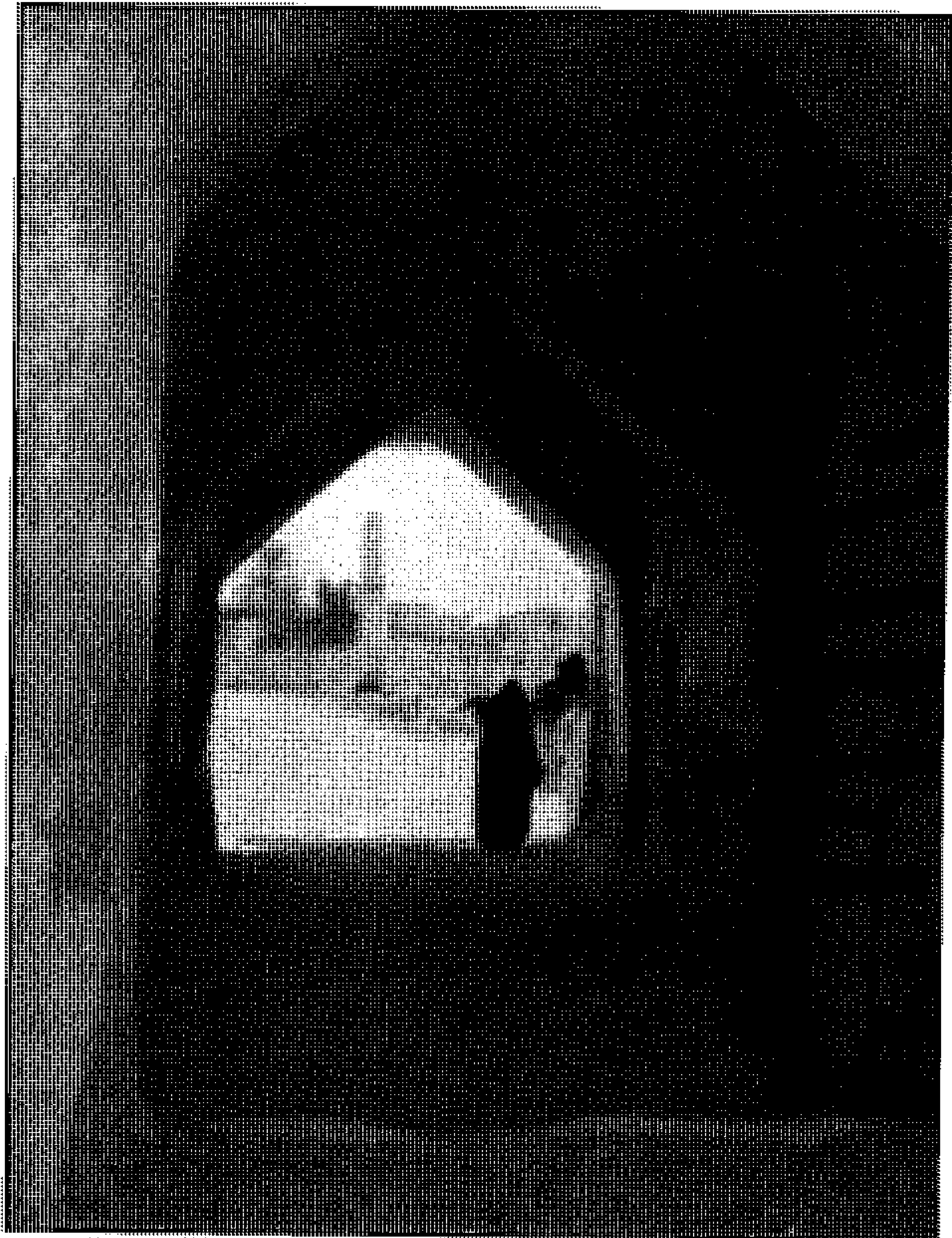
أرسلت سعيداً في ذلك المساء ليسأل الأمير عما إذا كان بإمكاني الذهاب إلى جبل قاره وهو سلسلة هضبة حادة القمم تتكون من تلال الحجر الرملي. يقع هذا الجبل على بعد تسعة أميال باتجاه الشرق وللوصول إليه لابد أن نمر من خلال كل بساتين النخيل من الغرب إلى الشرق إلى الشمال قليلاً عن طريق العقير الذي دخلنا منه البلدة .

كنت قد اقترحت استكراء خيل لنفسي ، ولكن سعيداً أوضح بأن هذا سيعد عيباً. قال : بأن عادة العرب تجهيز ضيوفهم بكل شيء وأوضح أن واجب الضيف هو أن/p.77/ يعطي الجنود بسخاء ويترك باقي الأمر لهم. لم تلق هذه الإجابة الساذجة الجائزة التي تستحقها ، ولم يعد المرسول المخيب للآمال بأي جواب فيما يتعلق بحملة الغد . شغلت وقتي بمحاولة اصطياد عينات لبعض الخفافيش الصغيرة الشاحبة والتي تعيش خلف أعمدة سقف الشرفة وتبشر بأنها (وقد حصل ذلك أخيراً) تتبع تحت نوع جديد (*pipistrellus kuhli ikhwanius*) أو خفاش الإخوان الصغير. لكنها كانت على أية حال نشطة جداً فلم أستطع إمساكها بشبكة الفراش التي لم تصل ولو على بعد قدم منها . أورد غياب سعيد احتمالاً هو أن الأمير بعث



اللوحة رقم (٢٠)

البوابة الشمالية الغربية في الهفوف مع قوس قديم مستدق الرأس



اللوحة رقم (١٩)

واجهة قصر السلطان الجديد في الهفوف

برسالة إلى السلطان في الرياض ليعرف إلى أي مدى يسمح لي بتنفيذ مشاريعي على طيور وبهائم الأحساء . إذا كان هذا صحيحًا فأتوقع أن يكون هناك تأخير من أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع قبل استلام الرد . تمنيت أن تكون تلك المقاومة السلبية التي كان علي مناضلتها من جانب سعيد لوحده فكونها وعكة موضعية سيجعلها تستجيب للدواء بسهولة، مع أن الوصفة التي كنت أجهزها لم تكن تلك اللطيفة التي يتوقعها المريض .

جاءت رسالة بواسطة سعيد في ساعة مبكرة من الصباح التالي تفيد بأن الأمير قد أعطى أوامره لتجهيز خيل من إسطبلات الإمارة في اليوم التالي من أجل حملة جبل قاره . اقترح علي في هذا الوقت ـ بما أنه يوم الخميس ـ أن أقنع بالذهاب لمشاهدة سوق الخميس العظيم من خلال نافذة في مكتب القصيبي وأسرع ليؤكد لي أن كل الأوروبيين قد فعلوا ذلك . كما أرسل الأمير عن طريقه (سعيد) طقمًا كاملاً من الملابس العربية مع طلب بأن ألبسها وطقمًا مماثلاً لمهدي تُرك في الطابق الأرضي. من الواضح أن هذه لحظة كان يتوقع فيها الإكرامية ومع أنني كنت مستعداً لمكافأة الخدمة بالتمام في الوقت المناسب إلا أنني كنت مصممًا على ألاّ أكره على إعطاء النقود في كل وقت للحزين أو البائس أو المزعج /p.78/ . استغرب سعيد كثيراً من هذا العمل وأدرك أن كل حيله قد فشلت، ومن يأسه سأل مهدي: كيف أنني لا أعطي نقوداً ـ مضيفًا اقتراحًا وهو يعلم أن مهدي سيوصله لي ـ بأن غيري من الإنجليز الذين مروا بهذه المنطقة أعطوه مبالغ زهيدة مثل عشرة جنيهات كل عدة أيام؟ . كانت إجابتي لمهدي وأنا أعلم جيداً أنه سيوصلها بأنني أختلف تمامًا عن الباقين وبأنني أول أوروبي يأتي خصيصًا لصيد الطيور بينما كان الآخرون يمرون بوصفهم ممثلين سياسين ورسميين ذوي رواتب عالية . بالإضافة إلى ذلك فقد جئت

بدعوة من السلطان بوصفي صديقًا وضيفًا له ولهذا فليس من الضروري أن أقدم أي هدية على الاطلاق ما لم أكن راغبًا في ذلك .

لم نضع وقتًا لتجربة الكساء الجديد . المشلح مصنوع من الصوف الأسود وهو إحدى منتجات الهفوف وشهير في كل مكان ، والزينة الوحيدة به هي ياقة من خامة خيط مذهب . هذه المشالح تسمى محليا بشت (*bishe*)[١] ولكن كلمة عباءة (*aba*) في بغداد تُفهم لنفس النوع من اللباس . تستخدم الكافية (الغترة) أو منديل قطني لغطاء الرأس يستورد من مانشستر وكانت كافيتي الجديدة عليها صورة غزال أحمر مختومة في الركن علامة تجارية . ويعتبر هذا أحد الأمثلة القليلة حيث أتت الشركات التجارية الإنجليزية إلى البلد وبحثت عن الشيء الذي يرغبه الناس وأنتجته بالشكل المطلوب تمامًا وبسعر أرخص بكثير مما يكلف محليًا . لهذا فإنهم قد سيطروا على السوق تمامًا إلى حد أن الصناعة المحلية للكافية لم تمت فحسب بل إنه يبدو أن نساء العرب نسين هذه الحرفة تمامًا . تعتبر الكافيه جزءاً من الملبس لا غنى عنه في كل البلاد العربية[٢] ومعظمها صناعة بريطانية وتنقلها القوافل من الموانيء إلى المناطق الداخلية البعيدة. أما لباس الراعي المخطط المنسوج محلياً فيعاد إنتاجه ببراعه على شكل مربعات باللون الأزرق والأبيض أوالأحمر والأبيض أو الأسود والأبيض .

كان للسوق منظر يستحق المشاهدة فمكتب القصيبي الجديد /p.79/ يقع في وسط السوق المزدحم (اللوحة رقم ١٥) ومررت عبر الحشد المزدحم ولم يلاحظني أحد . كان [تغيير اللباس] راحة لي بعد التحديق المستمر الذي هو نصيب الشخص عندما يرتدي الملابس الأوروبية وخفَّت مهمات حراسي بعد هذا التغيير . استقبلني عند

---

(١) من الواضح أن المؤلف لم يسمع الكلمة جيداً فكتبها (*bishe*) بدلاً من بشت (*bisht*) . (المترجمان)
(٢) لاشك أن المؤلف بنى حكمه على ماشاهده في العراق والجزيرة العربية . (المترجمان)

دخولي الباب الأخ الأصغر من شركة عائلة القصيبي الذي خرج من غرفة كبيرة مفروشة وبها مجموعة من التجار العرب جالسين على الأرض. يتكون مكتب القصيبي من مسند يجلس خلفه ليكتب الأوامر. صعدنا إلى الدور العلوي حيث يوجد المزيد من المكاتب يؤخذ إليها الزبون إذا استدعى الأمر إجراء محادثة خاصة. خارج هذه المكاتب يمتد ممر بنوافذ تطل على السوق حيث جلسنا على مقاعد خشبية ولدينا الحرية للفرجة على السوق أو التقاط الصور بين فترات تمرير القهوة أو الشاي. كان المكان مكتظًا بالناس الذين يتحركون في شكل دائري داخلين وخارجين وكأنهم أنماط مشكال[١]. كانت النساء المتحجبات يتمشين في السوق ويغزلن الصوف أثناء مشيهن وبعضهن كن بنظرة خبير يتفحص جرات خزفية في كشك. جاء رجل وطلب جرةً وأخذها بعد أن دفع قيمتها ثم انصرف. الأمر ليس كذلك عند النساء فهن يرفعن كل جرة ويضربنها بالإصبع لسماع رنينها ثم يضعنها حتى يتم اختبار كل الجرات تقريبًا. وأخيرًا أظن أنها أول جرة رفعت هي التي وقع عليها الاختيار. مر بمحاذاتنا بعد ذلك رجلٌ وبقرةٌ مندفعان بسرعة فتبدد الحشد بسرعة من أمامهما. لم يكن الأمر بنفس السرعة بعد قليل عندما مرت عجلة مع ولد يقودها من وسط هذا الجمع فكانت خائفة تتقدم ببطء. وأخيرًا أطلقها فانطلقت مباشرة بين مجموعة من القدور الفخارية الهشة على الكشك الذي تركته النساء للتو، وسمعنا قعقعة مشئومة عندما أسرعت الأظلاف الصغيرة بين الفخار في طريقها إلى الجانب الآخر. كان صاحب الكشك غير قلق على الإطلاق كما هو متعود على مثل هذه المصائب الصغيرة ولاستغرابي فعندما أعاد ترتيب سلعه لم يجد أيًا منها مكسورًا. /p.80/

(١) المشكال هو أداة تحتوي على قطع متحركة من الزجاج الملون ما إن تتغير أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية المختلفة الألوان. (المترجمان)

نستطيع من هذا المكان كذلك رؤية عدة دكاكين في المنطقة المغطاة من بناية السوق الجديد . كان صاحب الدكان الرئيسي المقابل لنا بائع تجزئة لدلال القهوة التي تتراوح من أكبر حجم ممكن إلى أصغر حجم ولكن يبدو أن أكثر الطلب على الحجم المتوسط الذي يسع نصف بانيت(١) . طراز دلال الهفوف يكون بميزاب طويل يشبه منقار الطير وتصنع من النحاس ولكن صاحب الدكان لديه عدد مماثل من دلال أطول وبميازب أقصر تصنع من مادة تبدو كأنها صفر وهذه الأخيرة تجلب من دمشق . كما أنه يتعامل في بيع المنافيخ الخشبية المزينة بجلد فاتح اللون . يأتي بجانبه دكان تحف قديمة بتشكيلة متنوعة من لوازم قديمة للإبل كمزاود للإبل أو الحمير المغزولة في المنازل .

كان بالسوق دلال ثرثار مسلٍ لنا وله علاقة بالمؤسسة . يظهر أولاً مرتديًا عباءة أو عباءتين واحدة فوق الأخرى فيقنع عدداً معينًا من الواقفين ليجربوا العباءتين ويمررونها من رجل إلى رجل بينما هو ينادي بآخر سعر على كل منهما . إذا لم تصل الملابس السعر المحدد تعاد إلى المحل وهناك سجادة مفروشة على الأرض وعدد (دوسته) من الأيدي الناقدة تقوم مباشرة بتفحص الغرزات وتتحسس الوبر وهكذا . لا توصف سعادة هذا الدلاّل عندما يريد بيع هاون القهوة مع يده فبرنين مثل جرس الكنيسة ينطلق ذهابًا وإيابًا حتى يشتريه أحد لينقذ نفسه من الصمم . كان له منافس ظننت في البداية أنه دلاّل ولكنه كان في الواقع منادي البلدة ، فعندما كان ينادي كنت أجد صعوبة في فهم كلامه ،وكان لابد من ترجمته لي . كان هناك شخص من إحدى القرى قد فقد ولداً وبنتًا صغيرين وآخر قد أضاع نقوداً على الطريق ووضع خمسها كجائزة لمن يعيدها له . وأخيراً كان هناك رجل قد ضاع منه جرس حماره .

(١) البانيت يساوي ثمن غالون . (المترجمان)

لأكثر من مرة تصل مجموعة صغيرة من الإبل لتوها ببضائع من العقير وتناخ وتنزل حمولتها . تكفي ضربتين أو ثلاث على رقبة الجمل الطويلة مصحوبةً /p.81/ بكلمة من سائقه مثل «أسكت»(١) لجعل الجمل المدرب جيداً يجثو ثم يثني أرجله مثل وضع القطة . يناخ الجمل الأصعب مراساً بضربات خفيفة إضافية على مقدمات الساق ويجر خطامه إلى أسفل . تنهض الإبل دائما وتهيم عند أول فرصة ولهذا يجب منع ذلك بعقل إحدى القوائم الأمامية للجمل في وضع منحن . يصاحب أيًا من هذه العمليات السابقة زمجرة وهدير من الجمل الفاغر فاه وهذا لا يعني شيئًا لأن كل الإبل تفعل ذلك ولم أر أبدًا جملاً يعض . قال لي الجنود بأن الجمل قد يؤذي صاحبه بعض الأحيان في موسم الفحولة . بعد إنزال حمولتها في السوق تعطى الإبل طعامًا سادًا للشهية من شجر العرفج اليابس الذي يشبه حزم أعواد من عصا المكنسة وكنت أظنه حطبًا . قال الجنود إجابة على استفساري بأن هذا يملأ بطونها فقط ولا يفيدها أو يضرها وسيقوم مالكي الإبل لاحقًا بإعطائها حفنات من التمر أو يشترون لها برسيمًا ، لأن غذاءها بهذه الشجيرات فقط سيضر بها .

رأينا شخصية مهمة تجتاز السوق مع خادم أو خادمين يمشيان خلفها برزانة . كان يلبس بزهو أكثر مما يعد لباسًا محتشمًا بالنسبة للوهابيين وتدل كافيته ذات الحرير الأبيض والمخططة باللون الأرجواني ـ وربما أنها صناعة كشميرية ـ على أنه من آل خليفة عائلة شيخ البحرين المتعددة الفروع كان في زيارة للهفوف . يوجد هنا وهناك بدو من الجنوب وهذا هو الاسم الذي يطلقه سكان الأحساء بطريقة غامضة على رجال القبائل من وادي الدواسر ، أو أي منطقة لا تقع إلى الشمال أو الغرب منهم . لا يحبذ هؤلاء البدو بشوت الأحساء السود فيستبدلونها بكساء شعبي من الصوف

(١) عادة تستخدم كلمة إخ لإناخة الجمل . (المترجمان)

الأبيض بنفس الشكل وبدون الياقة المطرزة بالذهب وإنما بثلاث قطع صغيرة مطرزة ومزوية فوق الكتف تشاهد بارزةً على العباءات السود (*abas*) لأهل الشمال . أشير إلى عدة مجموعات من الإخوان الذين تحدث عنهم /p.82/ مرافقي بسخرية لأنهم في الأساس مسؤولون عن منع التبغ وهم القوة التي ستستدعى لإعادة الأمن والنظام في الهفوف في حالة كون ذلك ضروريًا وهذا بعيد الاحتمال . الإخوان ذوو وجوه صارمة (كلمة *Ikhwan* تعني إخوان) ويبدو أنهم يشعرون بالإهانة التي فرضها عليهم قدرهم القاسي وأجبرهم على ترك جو الصحراء الطاهر ليختلطوا مع سكان بلدة الأحساء المرحين من أجل الحصول على مجرد ضرورات الحياة .

قضيت الساعات المتبقية من ذلك المساء في المنزل للحصول على ضغط الماء عند درجة الغليان لأتحقق من الارتفاع عن سطح البحر ، ومن شرفة منزلي قمت بعمل مخطط صغير للموقع الشمالي من البلدة . هطلت اليوم زخات قليلة من المطر خلال النهار ولم يكن منها ما يكفي لإخماد الغبار ولكن يرحب في هذا البلد بأقل كمية من المطر نظرًا لأن تجارة البلدة تعتمد على ازدهار القبائل وقطعانها بالرغم من أن المزارع ـ بمعنى محاصيل التمر والبرسيم والقمح والأرز ـ لا تعتمد أبدًا على سقوط المطر . أيام الشتاء وبشكل خاص في المساء جميلة بقدر ما تجدها في أي مناخ آخر . سجلت درجة حرارة الظل اليوم عند الظهر ٧١ْ وكان هناك نسيم خفيف يكفي لتحريك الهواء داخل المنازل ، ولا يحتاج أن أضيف ، بأن الصحاري المجاورة تكفل جفاف الجو تمامًا .

كان تذمري الوحيد ـ وإن لم يكن ذلك جديًا ـ ضد ذباب المنزل وقد وجدت استخدامًا جديدًا لشبكة الفراش عندما أصبح وجود الذباب لا يطاق . أغلقت الباب وحالاً حشرتهم في شبكة البيزه الخضراء ورميت الجثث لبعض من النمل الذي كان له مستعمرة في صدع الشرفة . لم أسمع طنين البعوض إلا نادرًا وهذا الغياب ربما

يكاد يعتبر خيبة أمل لأني قد سمعت بسمعته الشريرة حيث يسبب الحمى في هذه الواحة وغيرها من الواحات، وقد تمنيت إحضار بعض منه إلى بريطانيا . وجدت طوال كامل إقامتي نوعًا واحدًا فقط من البعوض (*Culex fatigans*) وهو الأقل ضررًا من بين هذه الحشرات الضارة /p.83/. لم يعضني أبدًا شيء من هذه الحشرات ولكن تعودت سماعها تمر من فوق رأسي بعد إطفاء النور ثم أسرع في إعادة إضاءة المصباح لعلها أخيرًا تكون بعوضةً من فصيلة (*anopheles*) . ومع أن الاحتمال ضعيف في وجود بعوضة (*anopheles*) إلا أنه من الممكن جدًا ظهورها في الصيف . وبالرغم من أنني لم أعثر على أثر لذبابة الرمل في الفترة من نوفمبر إلى مارس إلا أن ظهورها محتمل جدًا في آخر السنة . هناك ثلاثة أوضاع غير مواتية للبعوض . فالماء الآسن مالح جدًا وكل ما رأيت في فصل الشتاء كان خاليًا تمامًا من الحياة الحشرية، وتقلل الأسماك الصغيرة المتواجدة في جداول الماء من اليرقات . بالإضافة إلى أنه لا يسكن أو ينام أي شخص في المزارع إذ يعود الجميع عند الغروب إلى بيوتهم في البلدة . يقال إن بعضهم ينام في المزارع مرة في العام أثناء موسم نضج التمر لحراسته من المختلسين .

كان لطلبي حمامًا دافئًا تكملة مسلية . أرسلت مهدي ليسأل عن الترتيبات التي يمكن إجراؤها وعاد بمعلومات تفيد بأن كل الزوار الأوروبيين ذهبوا للاغتسال في الينابيع الحارة . وكانت إجابتي أنني نادرًا ما أفعل ما يفعله الآخرون وغالبًا أفعل ما لم يفعلوه وطلبت من مهدي أن يأخذ صفيحة من الماء ويضعها في الشمس لمدة ساعة ثم يصب الماء في حمام السفر المصنوع من الشراع . وبينما كنت أنتظر كسر الصمت جلبة الصفيح المرتطم بعضادات الباب وجاء رجلٌ يتهادى حاملاً مرجلاً نحاسيًا كبيرًا عبر الساحة إلى مرحاض خارجي وكان ـ بالفعل ـ أحد القدور الكبيرة من مطبخ محمد أفندي . كان (المرجل) مليئًا بالماء فأشعلت النار تحته وعندما أصبح الماء

دافئًا بما فيه الكفاية أخذت حماماً فوق الجذوة الخامدة (*in situ* في موضعه الأصلي). لم تترك حبيبات الأرز المتناثرة بكثرة في الماء وحول الحواف ـ أي شك لدي حول مهمة الإناء سابقًا. حصلت التكملة /p.84/ فيما بعد أثناء غيابي في الرحلة إلى يبرين وبعد عودتي نبهت إلى بناية صغيرة كانت قد ارتفعت فوق الشرفة. بُني حمام جديد ومريح ذو مغطس نحاسي سيعتبره زوار المستقبل للهفوف أمرًا طبيعيًا ما لم يكونوا قد قرأوا عن تاريخ ما سماه الجنود ضاحكين بـ (عين حار بالقدر مال الأفندي) «عين حاره من قدر الأفندي».

توقعت انطلاقة مبكرة لقاره[١] في يوم ٢٣ نوفمبر، فقبل طلوع الشمس تناولت الإفطار الذي يتكون من بيض مسلوق جيد وحليب. كنت عادلا جدًا في شراهتي لأكل الإفطار لكي يكفيني طوال اليوم إذا كان ذلك ضروريًا. وصل سعيد دون أن تكون معه الخيل بعد ساعة من الوقت المحدد للانطلاق ليسأل عما إذا كان سيسعدني أكثر لو انتظرنا لتناول وجبة الغداء قبل أن ننطلق. عاد مسرعًا بقناعة أن هذا لن يسعدني أبدًا وأنني أريد الانطلاق حالاً. مرت ساعة أخرى قبل أن ينبهني وقع أقدام على الدرج بوصول خادمين حاملين وجبة منتصف النهار ـ كومة من الأرز والدجاج وما إلى ذلك ـ مع رسالة يفترض أنها جاءت من الأفندي تقول بأنه لا يستطيع تركي أذهب دون تناول طعام الإفطار. وبمشاعر مختلطة تصارع فيها الانزعاج مع الضحك تذكرت بأسف ما أكلت من البيض المسلوق. واستقريت على أن أتظاهر وتظاهرت بالأكل مرة أخرى. أخيراً أفرغ الجنود ـ الذين جلب لهم ترويهم على حسابي وجبة ممتازة ـ الصحون واستنفدوا كل مخزون الأعذار ثم أحضروا الخيل وانطلقنا.

(١) القارة قرية تقع في الجانب الشرقي من جبل قاره، انظر: حمد الجاسر، معجم المنطقة الشرقية، القسم الرابع ص ١٣٨١-١٣٨٣. (المترجمان)

طلبت حصانًا هادئًا ـ من دون إعطاء أي سبب ـ ، لأنني كنت أريد أخذ الاتجاهات على البوصلة الموشورية من على ظهر الحصان، وكنت قد صممت على مشي كامل الطريق من أجل تقدير المسافة بدقة . والسبب الآخر هو أن الحزام العادي لكاميرا كوداك غير مناسب أبدًا لأي سرعة أخرى . مع كل خطوة أثناء السير تميل الكاميرا ثم تعود بضربة قوية في جنبك وهذا ليس جيدًا للحفاظ لا على الآلة ولا على مزاج من يستعملها . /p.85/ كان حصاني هادئًا بالتأكيد وبدا لي فيما بعد أن طلبي قد أخذ علامة أكيدة على أني لا أستطيع ركوب الخيل . لا يهمل عربي يجيد ركوب الخيل إظهار براعته على السرج بعد خمس دقائق من الانطلاق مع الغرباء الذين يمكن أن يؤثر فيهم بمهارته في ركوبها، ولكن تصميمي على المشي لم يحتمل في أذهانهم إلا تفسيرًا واحدًا . كان اهتمامي في الأساس منصبًا على المحافظة على الحيوان من السقوط على أنفه . العربي سيء بوصفه مالك خيل، فمع أنه لا يسيء معاملة الخيل إلا أنه لا يمنحها إلا القليل من الاهتمام . لدى الأمير إسطبل كبير وعدد غير محدود من الرجال ومع هذا فحوافر الخيل لا تقلم أبدًا . تثبت حذوة حديدية غير متقنة الصنع على الطرف النحيل للحافر والذي غالبًا ما يكون مشوهًا مانعة (الحذوة) بذلك الحافر الطبيعي . لهذا فالخيل تتعثر وتنزلق في مشيها وغالبًا ما تسقط ، ونادرًا ما تجد أيًا من هذه الخيول الثمينة بحوافر غير مشوهة وهذا عيب يصلحه طبيب بيطري إنجليزي في عشر دقائق .

ما كدنا نترك البلدة وراءنا بمسافة نصف ميل تقريبًا ونحن نجتاز سهلاً من الحجر الرملي يطوق الأسوار الشمالية والشرقية للبلدة رأينا مجموعة من طيور الخطاف الصخري تصطاد الذباب . كنت سعيدًا بوجودها أخيرًا وسهولة الوصول إليها فتركت الحصان واصطدت اثنين منها قبل أن أواصل مسيري . دخلنا بعد ذلك بقليل منطقة البساتين الكبيرة الواقعة باتجاه الشمال الشرقي من الهفوف . تحتل حقول

العيون

شجيرات كثيفة

جبل الكلابية

الغرايم

شمال

غرب

شرق

جنوب

كثبان رملية

جبل الورية

عيون أم سبعة

قلعة

سلسلة جبال تمتد شرقاً وغرباً

قلعة

المبرز

جبل أبو غنيمة

تلال رمل جيري

كثبان رملية

قارة

جبل قارة

الجشة

الفضول

قلعة

سهل حجري طيني جيري

إلى الرياض

قلعة خزام

الهفوف

منطقة نخيل تمر

جداول

مـــاء

مـبـاني

طـريق المؤلف

الزليقة

بئر ومنزل

حقل قمح

مخطط الهفوف وواحـــة الاحســاء

ملاحظــة : الخريطة مبنية على خط سير وانحراف مغناطيسي أخذت من على تلال بارزة وليست بالمسح المنتظم.

مقياس الرسم التقريبي بوصة لكل أربعة أميال

الأرز الأراضي المنخفضة والتي تشرف عليها العيون ، ولهذا فإن الماء يغمر الحقل بدون رافعة اصطناعية . حُفر بعض هذه الحقول للحصول على المستوى المطلوب ، وترمى التربة الزائدة على الضفاف الجانبية بارتفاع كبير . عندما تسد الفتحة يمكن تجفيف الأرض تمامًا وزراعة القمح بين موسم حصاد الأرز وزراعته للموسم القادم. لكن المحصول سيكون نوعية غير جيدة ويعود السبب جزئيًا إلى الأرض التي أنهكها المحصول السابق وكذلك لأن معظم أرضية حقل الأرز مغطاة بالنخيل مما يعرقل نمو القمح ويعطيه بذلك سيقانًا غير سليمة فينتج حباً رديئًا . /p.86/ لا تجلب مياه عيون الهفوف الصافية تربة غنية لتجدد الأرض سنويًا مثلما هو الحال مع حقول الأرز في العراق والتي تستفيد مرتين من فيضان مياه دجلة والفرات ولهذا فعلى مزارعي الهفوف أن يعتمدوا على طرق صناعية . /p.87/ تكدس نفاية القرى خارج البلدة لتحملها قافلة الحمير البيض لكي تستعمل في استصلاح الأراضي الضعيفة .

كان موسم حصاد الأرز في أوجه وكان الرجال يحصدونه ويجمعونه في حزم بجانب الحقول من أجل أن تنقله الحمير البيضاء ليكدس في مكان خارج المزارع غالبًا حيث يشكل مسطح صلب من الحجر الرملي أرضية جيدة لدرس الأرز . يمهل المحصول عدة أيام للحصاد وليتصلب الحب ثم يضرب الأرز من قبل رجال يحملون عصيًا أو توضع الحزم على شكل دائرة ويُؤتى بالحمير البيض لدرسه . تربط الحمير إلى عمود بوسط الدائرة مثبت في الأرض وتساق الحمير في دورات طوال اليوم بينما هي تدوس الحب . يقف رجل جانبًا ومعه عمود طويلة ومخزون من الشتائم وجيشان من الأغاني ليتأكد من عدم توقف الحمير لتأكل عندما تتعب . يُعزل الحب عن التبن بذريه في الهواء من كومة إلى أخرى . يُقام في هذه المرحلة كشك صغير في الموقع ويسكن به مراقب حتى يُنقل الحب من قبل مالكه الحقيقي . يمكن من الجذامه (الحصيدة) أن تلاحظ بأن الأرز قد بُذر أو نقلت غرساته ليزرع في صفوف متوازية وتبعد الغرسة عن الأخرى قدمًا في أي اتجاه .

تشغل الحمير المحملة بالمحاصيل معظم الطريق الضيق الذي غالبًا ما يحده من كلا الجانبين منزلق إلى الجداول الجارية طوله ثمانية أقدام . يسوس رجل أو صبي حوالي ثمانية أو إثني عشر حمارًا وبينما هو يمشي خلف آخر حمار فالبقية تهيم في المقدمة بحرية ويجب عليك أن تحسب حسابك عند مقابلتها . تسبب مطر الليلة السابقة ـ مع أنه لم يترك أثرًا في تربة الهفوف الحجرية الرملية العطشة ـ في جعل الطرق المظللة زلقة جدًا . مررنا على بعد ثلاثة أميال من المدينة فوق (أوشكت على الوقوع فيها) بركة عين برابر[١] الشهيرة . كان الطريق محدبًا وزلقًا وبميل بسيطًا تجاه الجسر فانزلق حصاني ذو الحوافر المضطربة ثم تمالك نفسه بحركة بهلوانية رائعة ورجع إلى الطريق بعد أن كان سقوطه في الماء محققًا . /p.88/ يعتبر ماء عين برابر أفضل ماء في الواحة لأغراض الشرب وعندما يسافر السلطان من الرياض إلى الهفوف ترسل له على بعد مئات الأميال إمدادات قرب الماء من عين برابر ليشرب منها على طول الطريق . كلما مشينا شرقًا باتجاه قاره انخفض مستوى الأرض وزادت الأراضي المزروعة بالأرز وقل البرسيم . في الواقع إن مزارع قاره «تشرب» من عين الخدود[٢] التي تنبع على بعد ثمانية أميال تقريبًا باتجاه الغرب وعلى بعد ميل من الهفوف باتجاه الشرق .

أشير لنا إلى إحدى المزارع الملكية على يميننا والتي يبدو أنها ـ كما يقولون هنا ـ «تشرب» من عين برابر وتملك عائلة القصيبي مزرعة أخرى على يسارنا . كان هناك هضبة صغيرة من الحجر الرملي على يسارنا وقمتها أعلى قليلاً من أشجار النخيل ، وأثبتت أنها أحد المعالم القليلة في الغابة . تمكنت بعد مرور حوالي ثلاثة أشهر من رؤيتها عندما كنت على جبل خارج المنطقة لأخذ اتجاه الزاوية . سأل سعيد بوقاحة

(١) عين برابر تقع في الجهة الجنوبية من الأحساء وتشتهر بعذوبة مائها . انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، القسم الثالث ص ١٢١٧ . (المترجمان)

(٢) عين الخدود من أقوى عيون الأحساء تقع شرق الهفوف . انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، القسم الثالث ص ١٢٢٣ ـ ١٢٢٤ . (المترجمان)

معتادة عما إذا كان يمكن الاكتفاء بالصعود على قمة الهضبة بدون مشي كل هذه المسافة (إلى قاره). كما علق بأن الأمير يتوقع عودتهم بصلاة الظهر وأضاف بأنه ليس هناك طيور في قاره وأن هذا التل يسمى قاره الصغيرة. تأكدت الآن بأن هذه التصرفات المعيقة ليس لها علاقة بأي سلطة عليا وأنه في الواقع يحاول أن يلعب «الجندي المتمرس» على جندي متمرس ولهذا صممت على تقاعده بلطف من خدمتي في أقرب فرصة ممكنة.

مررنا بقرية صغيرة تسمى ثعالة [١](Thaila) تقع قرب الطريق وعلى بعد حوالي ستة أميال من الهفوف وهي مجرد مجموعة من الزرائب المبنية للفلاحين. كانت الجداول مصدراً للمتعة لا ينضب طوال سيرنا بمحاذاتها. أماكن الفرجة الجميلة هذه ستبرز حتى في إنجلترا بوصفها مناطق جميلة نسبيًا، ولساكن الصحراء لابد أنها أكثر روعة. ذكرتني الجداول إلى حد ما بالمزارع في طهران حيث تجري الجداول من جبال بوروز /p.89/ على طول طرق المزارع في أوقات معينة من النهار ولكنها تفتقد استمرارية وحيوية جداول الهفوف المليئة بالحياة، مثل جدول سمك السلمون الإنجليزي. توجد بقع من العشب الأخضر الزاهي وشرائط من حشائش الماء كالأعلام الخفاقة تتمايل جيئة وذهابًا مع تيار الماء وأصبحت ملاجيء على السطح حيث ترقص الخنفساء المدومة رقصة الريغادون في دوران وانحراف رشيقين. تتطارد حشرات اليعسوب ذوات الألوان القرمزية وتتشمس على الضفاف. كما أعطى طائر رفراف أزرق لمسة إنجليزية أخرى إلى المنظر عندما مر كالسهم ليستقر على صفصافة متدلية مراقبًا السمك الصغير في المياه الصافية تحته مكونة له أكلاً شهيًا عندما يريد.

---

(١) بعد البحث في المعاجم الجغرافية وغيرها من الكتب التي تتحدث عن واحة الأحساء لم نجد أي إشارة لهذا الاسم ولا حتى من قبيل التأويل. (المترجمان)

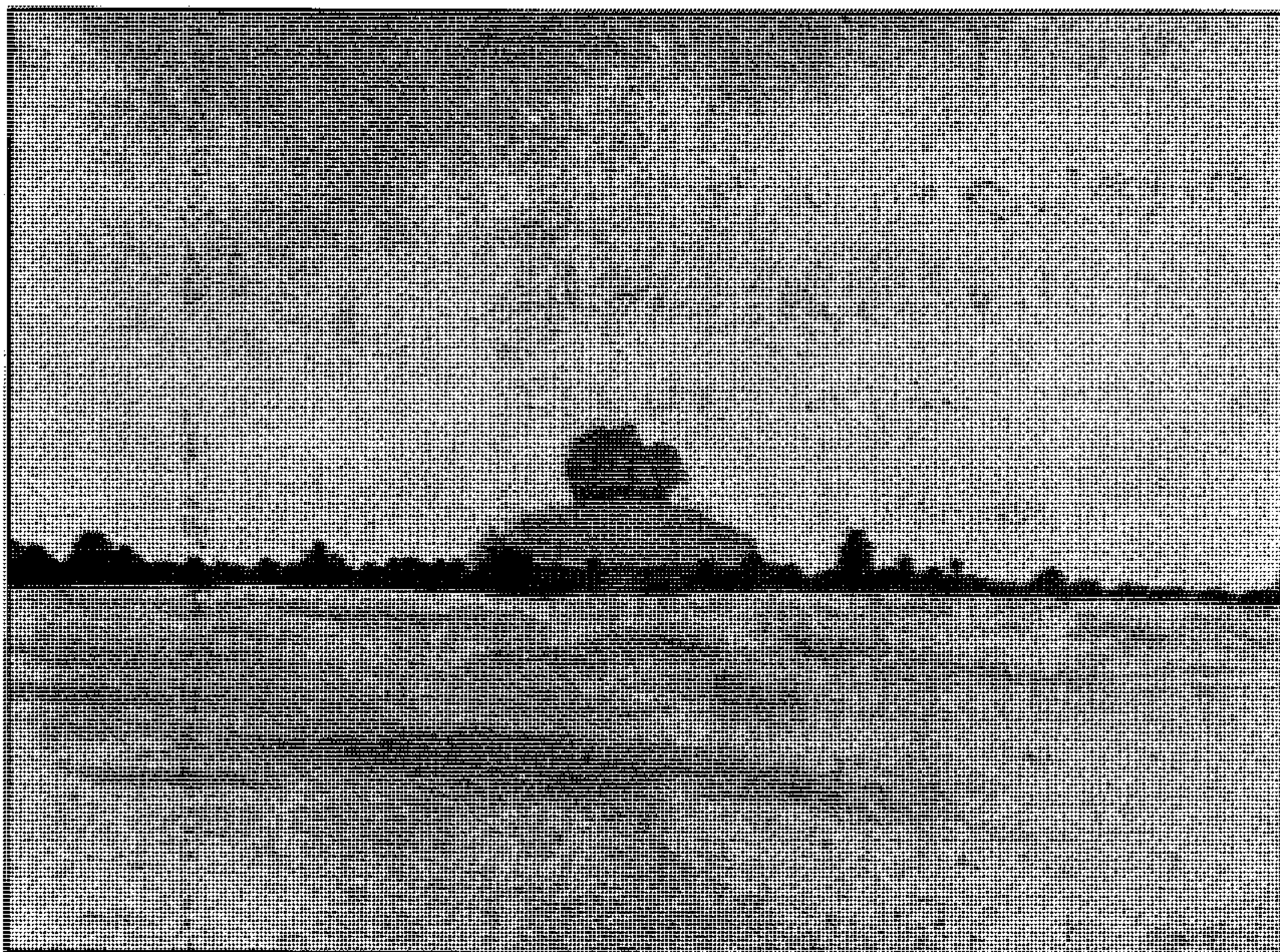
لمحنا لأول مرة بعد أن تجاوزنا المزارع تلال قاره عبر سهل أجرد من الكثبان الرملية الزاحفة على الأراضي المزروعة باتجاه الجنوب، ويبدو لي أننا حصلنا على دليل بكيفية تكون الكثبان الرملية. كان السهل يشكل طبقة بارزة وعالية جداً من الحجر الرملي لا يمكن أن يصلها ماء الري من القنوات، ولهذا بقي الصخر يقاسي التحلل من أثر العوامل الجوية. تحمل الرياح الجارفة كميات كبيرة من مسحوق الحجارة وتكدس الرمل السائب على شكل كتل. سئم سعيد من مشيتي البطيئة حالما وصلنا المنطقة المفتوحة، فاستحث حصانه للعدو وانطلق مسرعًا كالبرق عبر الرمال وملابسه الفضفاضة تتطاير في الهواء. وجدناه عندما لحقنا به مستلقيًا على ظهره بمظهر اللامبالي بينما كان جواده ـ والذي كان ممسكًا بمقوده ـ مستمتعًا يتمرغ في الرمل الأبيض بسرجه وغطائه وكل ما عليه. كان من المدهش دائمًا كلما نترجل عن خيلنا أن نرى هذه الخيول العربية تربض عند أقدام أصحابها، مثلما تفعل الكلاب، منتظرة رغبتهم لإكمال الرحلة.

بعد مشية قصيرة عبر المزارع ـ المنتجة غالبًا للأرز إضافةً إلى نوعيات رديئة من النخيل بسبب انغماس جذورها في كميات كبيرة من الماء ـ على ما يبدو ـ دخلنا قرية قاره الصغيرة المحتمية بسلسلة جبال قاره إلى الغرب منها. كانت البيوت مبنية بمتانة من كتل/p.90/ من الحجر الرملي ـ ولو أن ليس من بينها أي كتلة كبيرة ـ وكلها مساكن لفلاحين من المنطقة المجاورة. لم تكن القرية مسورة وكل بيت يحتوي على باب خشبي متين وجدران عالية مما يجعله آمنًا تمامًا في حالة الهجوم عليه. لم نشاهد حوانيتًا بالقرية، ومررنا بشوارعها الضيقة ورأينا رجلاً واحدًا فقط ولكن كان هناك عدد من الماشية المحدبة والتي كنت آمل فحصها عن قرب. ربما أنها استوردت أصلا من الهند، ولكنها اكتسبت هذه الوجوه النحيلة الطويلة فأصبحت العلاقة غير واضحة الآن. كانت أجسامها عبارة عن هياكل عظمية يربطها مع بعضها جلد قوي. يمكن أن تكون هذه الحيوانات من جنس هزيل، ولكن معاملتها تدعو إلى

الشفقة فبخلاف ما يمكن التقاطه من طعام قليل في البلدة فهي لا تطعم أبدًا . كانت هناك جثة بقرة ملقاة على جانب الطريق وقريبتها تلتقط عظامها . كان شيء جديد بالنسبة لي أن أرى بقرة في دور آكلة لحم بقرة أخرى، ولكن بعد أن مشينا قليلاً مررنا بأخرى حاملة عظمًا تمضغه أثناء سيرها بتلذذ كان ابن آوى أجدر به . تكاد تكون كل محاصيل الحنطة والخضروات في مزارع قاره محمية من العين الشريرة بجمجمة حيوان بيضاء مثبتةً على عمود . كانت أكثر وضوحًا هنا لأن وفرة الأبقار الميتة مكنت كل مالك صغير من توفير جمجمة كاملة، ولكن الخرافة نفسها منتشرة في كل مكان بالواحة وفي أماكن أخرى كالبصرة وبغداد . كما أنني قد رأيت محاصيل مزدهرة تحت حماية جمجمة غزال في حين أنه حتى العظم الأبيض يعتبر كافيًا .

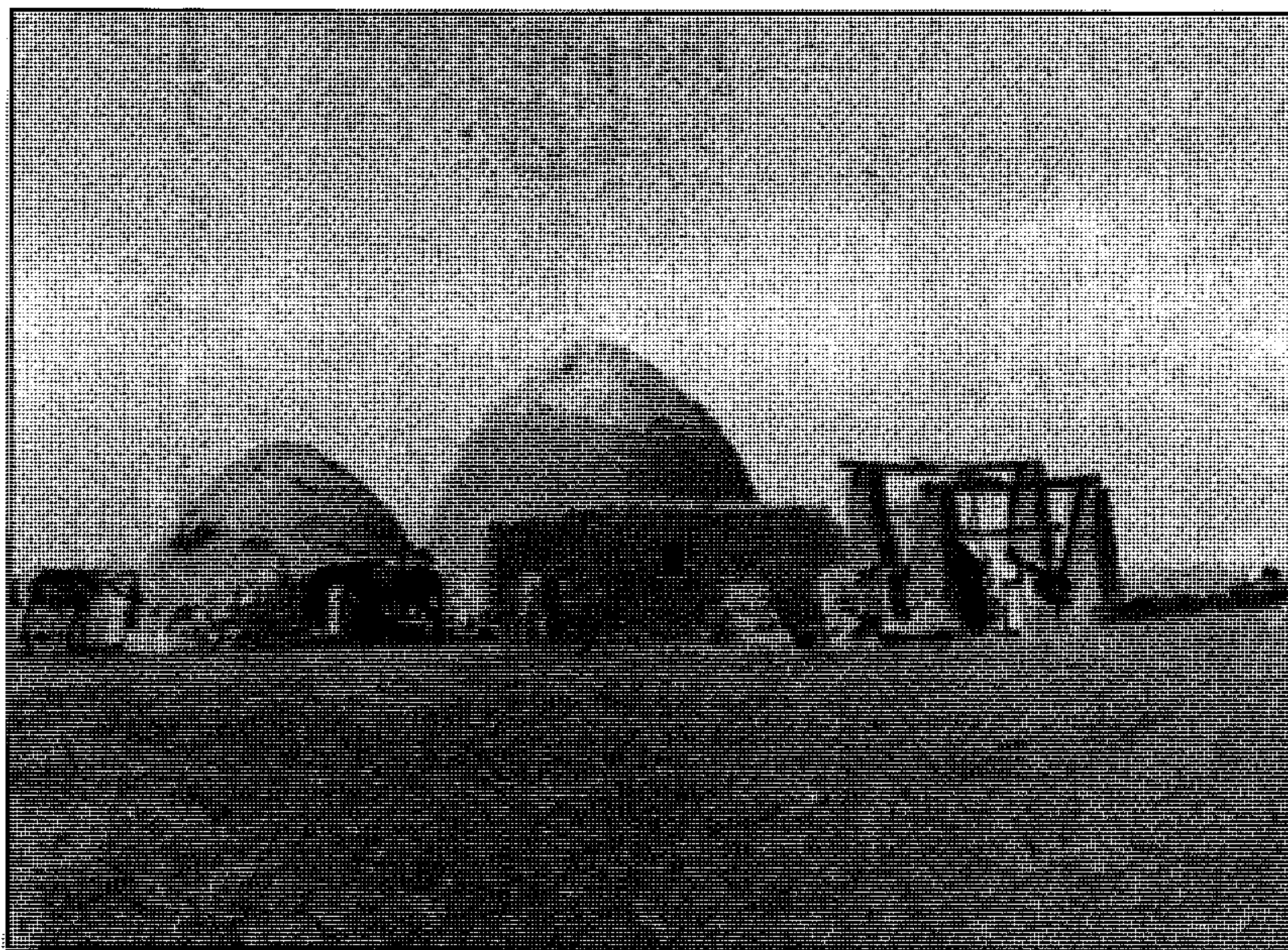
يبلغ طول سلسلة جبال الحجر الرملي الجيري حوالي الميل ممتدة من الشمال إلى الجنوب، وترتفع حوالي ٢٠٠ قدم (اللوحة رقم ٢١) . الأحجار نفسها بيضاء ولكن عندما تتعرض للجو تصبح صفراء كرومية وحمراء وردية . سقط العديد من الصخور الكبيرة وأحاطت بالقاعدة مشكلةً بذلك أركانًا وكهوفًا ظليلةً ولأجل ذلك فالمكان يشتهر منتجعًا لأهل الهفوف الذين يأتون للإقامة في هذه الأماكن لعدة أيام هربًا من حرارة الصيف . /p.91/ قال بلغريف : إن هذه العادة كانت سائدةً في أيام زيارته للهفوف ونبه إلى خوف فيصل[١] ـ سلف السلطان الحالي ـ الذي كان يخشى من أن تشغل الناس مثل تلك الملاهي الدنيوية بدلاً من العمل للآخرة ولهذا منع هذه الحملات، وغرَّم وسجن كل متهم . تغير الوقت الآن فالسلطان الحالي أحرى به أن يأخذ مجموعة من أصدقائه ليستمتعوا برحلة من هذا النوع إلى قاره (مع أنني لم أسمع أنه عمل ذلك) بدلاً من محاولة منع شعبه من الذهاب إلى هناك .

(١) هو الإمام فيصل بن تركي (١٢٥٠ـ١٢٥٤، ١٢٥٩ـ١٢٨٢هـ) . (المترجمان)



اللوحة رقم (٢١)

جبل من الحجر الرملي الجيري في جبل قاره بالهفوف وتظهر عليه آثار عوامل التعرية



اللوحة رقم (٢٢)

حمام في عين نجم بالهفوف

مازالت الأميال التسعة التي قطعناها مخيبة للآمال، فبخلاف طيور صعوة الدخل والبلابل لم نر أصنافًا جديدة تثير الاهتمام، والآن وقد تجاوزنا المزارع لم نلحظ أي طير. كنت قد تمنيت أن تكون هذه السلسلة الجبلية الجرداء بحكم قربها من الماء الجاري ستكون بلاشك مأوى لقنبرة الصحراء الشاحبة (*Ammomanes*). كنت قد حصلت على عينة منها على تلال سلوى، ولذلك فأنا أحتاج إلى مجموعة (من هذه الطيور) لأتأكد من أن خصوصياتها ثابتة وتبرر تصنيفها جنسًا جديدًا. ليس هناك أي إشارة بوجود هذه الطيور واكتشافها سيحفظ لمناسبة لاحقة. الحدث الوحيد بشأن الطيور كان رؤية طائر خطاف صخري يطوف حول الجبل. هذه الظاهرة تدل على أن منزلها كان في المنحدرات الصخرية بالسلسلة الجبلية البعيدة، وأن ظهور طيور الخطاطيف في البلدة ما هو إلا احملات بحث عن الطعام. بالإضافة إلى ذلك فإذا استطعت إثبات تفريخها في المنحدرات الصخرية فسيتأكد وضعها مستوطنة لتلك الأماكن.

جاء إلينا شيخ القرية ومعه بعض ليمونات حامضة صغيرة ورمان وبعض من التمر الأسود الذي سماه رطبًا ثم أتبعها بلازم الضيافة وهودلة القهوة. كنت مسرورًا لأن أجلس مع المجموعة لمدة ساعة لأنه ليس هناك ما أصطاده. أشغلت غليوني بعد القهوة وسألني الشيخ إذا كنت أرغب أن أجرب ما عندهم. لأنني كنت أعلم بما وراء الاقتراح أبديت رغبتي الشديدة فأحضر نارجيلة عادية جدًا ذات حوض طيني /p.92/ وعليها علامات الاستعمال الكثير ومُررت حالا على الدائرة وشارك سعيد في ذلك. لم يشارك الجندي الآخر محمد حسن (اللوحتين رقم ٤٢، ٤٨)، والذي كان في الواقع مؤمنًا بتعاليم الوهابية ويتقيد بها بلا فضولية من دون أن يحاول أبدًا فرضها على الآخرين.

كان حديثنا حول الزراعة وكان مضيفنا رجلاً مرحًا مضيافًا ويبدو أنه راض جدًا عن الحكومة ولكن كلامه المجامل بحضرة الجنود ربما صيغ ليناسب نقله إلى

الآخرين . كانت محاصيله من الأرز جيدة ، الحمد لله ثم لحكم عبدالعزيز (السلطان) الخير . كانت هذه فرصة مواتية لأبحث عن حقيقة جاموسة بلغريف . كان هذا الشيخ قد زار البصرة وقد رأى الجواميس تسبح في النهر وكان متأكداً بأن أحداً لم يحاول إحضارها للهفوف . قال : إن أبقار الأحساء لا تستخدم في أي عمل، ويحتفظ بها للحليب فقط ، وهي لا تعطي الكمية التي تعطيها الجاموسة، ولكن حليبها أدسم وزبدته أكثر . كان قد رأى الطائرات أثناء وجوده في العراق ودخل مع سعيد في محادثة حول مزاياها . من الواضح أن هذا الأخير قد اشترك في حرب ضد كلّ من الطائرات والسيارات المصفحة وتولد لديه احترام حذر لكليهما . سمعته في طريق العودة ـ بعد أن تخلى عني ويئس مني ـ يحاول أخذ قليل من المعلومات العسكرية من مهدي الذي يعرف أقل من لاشيء عن الموضوع . ابتهج بجواب السؤال الأول عندما علم بأن عدد الجنود البريطانيين في بغداد أقل مما كان عليه من قبل ، ومهدي يعني بالطبع بأن العدد أقل الآن مما كان عليه خلال الاحتلال البريطاني في وقت الحرب . كان السؤال اللاحق كم هناك من الطائرات ؟ وكان جواب مهدي : « واجد ، واجد ، » كثير ، كثير فطار قلبه وطارت معه المحادثة .

سأل الشيخ عما إذا كنت أريد أن أصعد الجبل أو ألقي نظرة على الكهوف وقلت بما أنه ليس هناك طيور ونحن بعيدون عن البلدة فلابد أن نعود حالاً . /p.93/ بعض هذه الكهوف مظلم جداً وطويل ويغامر العرب فقط بدخولها فقط عن طريق استخدام حبل يطلقونه ثم يتبعونه ليخرجوا من الكهف . بعضها الآخر مليء بالخفافيش ورائحتها، ومما يعوق الناس عن استخدام شمعة في الدخول هو تلك الأسراب من الخفافيش التي تقابلك عندما تزعجها بالإنارة . هذا الوصف يتطابق تماماً مع خبرة السيد أندرسون عند دخوله كهفاً مليئاً بالخفافيش في مقابر الملوك بمصر . هذا النوع هو الخفاش ذو الأنف ثلاثي الشعب والذي أصطدت منه فيما بعد

ثلاثة نماذج وهي في طريقها قادمةً من اتجاه جبال الحجر الرملي . إن هذه الخفافيش يتعذر تمييزها من العينات المصرية وهذه حقيقة زادت اهتمامي بقبر توت عنخ آمون .

تقع قرية أخرى تدعى الدالوه(١) في الطرف الجنوبي من التل ومررنا بتنور في جبل من الحجر الرملي الجيري حيث تصنع القدور والجرار الفخارية . لسبب ما فإن هذا التنور مهجور منذ سنوات ، وقد تركت كمية من القدور ملقاة كما كانت عندما أطفئت آخر نار له . الفخاريات المصنوعة من هذه المادة ذات لون أخضر باهت وجميل يشبه خضرة ماء البحر .

كانت رحلة الإياب مخيبةً للآمال أكثر حتى من رحلة الصباح إذ قادنا الطريق المتجه شرقًا عبر منطقة أقل زراعة حتى التقينا أخيراً مع طريق العقير ودخلنا الهفوف . عندما اجتزنا أحد الحصون التركية القديمة قام سعيد بمحاولة يائسة أخيرة ليبدأ محادثة حول الموضوع الأهم بالنسبة له وهو الأمور العسكرية وتطوع بمعلومات حول أن السيد طالب(٢) من البصرة كان في الماضي آمرًا في الهفوف تحت الحكم التركي . كان منهمكًا في تعداد الكتائب والرجال الذين كانوا تحت قيادة طالب عندما تركته لأختل طائر الأبلق الصحراوي وهو العينة الوحيدة التي حصلت عليها من رحلة ١٨ ميلاً . رأيت الجنود عندما عدت إلى الطريق يقضون وقتهم بالصلاة وأظن بأن هذا كان آخر يوم لي من فترة الاختبار . فحقيقة أنني لم أرد أن أصعد على قمة جبل قاره وآخذ اتجاه الزاوية مثلما فعل الضباط الأتراك وعدم اهتمامي المتعمد بأي موضوع عسكري أو سياسي أقنعهم أخيرًا بأنني جئت فعلاً لجمع الطيور . /p.94/ كان سعيد ـ فيما أظن ـ قد كلف بالبحث عن أي شيء يمكن أن يكون الأساس

(١) الدالوه من قرى الهفوف إلى الشمال الشرقي من الجشة . انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، الجزء الثاني ، ص ٦٦٠ . (المترجمان)

(٢) هو السيد طالب بن رجب النقيب (١٢٧٩ ـ ١٣٤٨هـ/ ١٨٦٢ ـ ١٩٢٩م) زعيم سياسي عراقي من أعيان البصرة عين واليًا على الأحساء ما بين سنتي ١٣١٩ ـ ١٣٢٠هـ . انظر : خيرالدين الزركلي ، الأعلام ، بيروت : دار العلم للملايين ، ط ١٢ ، ١٩٩٧م ، جـ٣ ، ص ٢١٨ . (المترجمان)

للسبب المعلن لرحلتي وبطريقته الخرقاء فقد عمل كل ما في وسعه . يبدو أنه قد عمل في مناصب مختلفة وكان في أحد المرات أميرًا على القطيف، وهو عمل أكثر مسئولية من عمله الآن . كما أتصور بأن تفسيره للأمور خدمةً لنفسه تسبب في عزله من ذلك المنصب .

اليوم اللاحق ، ٢٤ نوفمبر ، كان نهارًا جميلاً ومشمسًا وفي المساء اختفت غيوم الأمس بزخات من المطر الخفيف ولكنها تشتت . كنت كئيبًا بسبب النتائج الضعيفة لرحلتي بحيث إنني توصلت إلى استنتاج سريع بأنه ليس هناك ما يستحق الانتظار في الأحساء، وقررت أن أطلب مقابلة الشيخ عبدالله لأسأله عن إمكانية مواصلة رحلتي إلى الرياض . ومن حسن الحظ أنني منعت من التصرف المبني على هذا القرار المتسرع . لو أنني سافرت في غضون الأيام القليلة القادمة لما فات علي فقط جنس جديد وعدد من الطيور المهمة التي عثرت عليها في الأحساءولما تمكنت من جمع عدد من القوارض الجديدة وخفاشين جديدين ولكانت الرحلة إلى يبرين أبعد احتمالاً من أن تتم . ومع ذلك فلم يتحقق حظي الجيد إلا بعد فترة طويلة انتظرتها بفارغ الصبر . أرسل الأمير ردًا بأنه يفضل مقابلتي بعد الظهر عندما ينجز معظم الأعمال اليومية ويصبح مجلس الاستقبال خاليًا من الناس .

تباع ثلاثة أنواع من القمح في سوق الأحساء : أحدها مستورد من كراتشي والعراق ولهذا فهو ليس بذي شأن بالنسبة لي ولكن النوعين الآخرين يزرعان محليًا وحصلت على عينات منهما لأعود بها معي . أفضل نوع يسمى السعيدية *(Saidiya)* وهو عينة جيدة من القمح الأحمر الصلب الأملس ولا يخلط معه شعير وقد عرف باسم (*Triticum Vulgare*) . النوع الآخر يعرف باسم كودلا (*Koda*) [(١)] . وبجانب

(١) السعيدية والكودلا صنفان محليان من القمح . انظر صبحي يوسف عيد ، الجغرافيا الزراعية لواحات الأحساء ، رسالة دكتوراه مقدمة لقسم الجغرافيا ـ كلية الآداب ، جامعة القاهرة ١٣٩٩هـ ، ص ٣٠٨ـ٣٠٩ . (المترجمان)

كونه خليطًا من نوعين من القمح (*T. durum* و *T. Vulgare*) فهو يحتوي على نسبة ٩٪ من الشعير الرقيق . /p.95/

قمت بعملية شراء أخرى من السوق وكانت رخيصة جداً . كنت أريد صندوقًا خشبيًا طوله حوالي قدمين وعرضه وعمقه قدم واحد لأضع العينات فيه ، ووجدت أن أفضل نموذج كان يصنع من الصناديق الخشبية لصفائح البنزين بسعر روبية وثماني آنات (شلن وعشرة بنسات) للواحد بما في ذلك المفصلات والإبزيم . كنا قد اشترينا من البحرين قبل عدة أسابيع شيئًا مشابهًا له تمامًا بأربع روبيات . تقبل الروبيات بسهولة من قبل التجار وتُعطى الفكة بالعملة التركية الصغيرة . تباع السجائر في البلدة ولكنها تجارة سرية ولا تعرض في الدكاكين . وهذا هو التنازل البسيط للحكومة الوهابية ولكن بالذهاب إلى الخلف بمعنى إلى المساكن الخاصة ببعض التجار ، يمكن شراء السجائر بسعر مرتفع وهو مائة بأربع روبيات (خمسة شلنات وأربعة بنسات) . التبغ هو من محصول الموصل وكردستان وقد استخدمته لأقتصد في تمويني من لفات التبغ ووجدته مقبولاً في الغليون .

تمور الهفوف هي الأنواع التالية : يأتي الخلاص أولاً حسب التقييم المحلي ، ومن الواضح أن شهرته قد وصلت الهند إلا أن المعروض منه قليل . الخلاص تمر ناعم أصفر ـ ذهبي ولكن عندما يعبأ تخرج تمراته فرادى من الكتلة الكبيرة . للأسف فإنه يعبأ مع اليانسون منثوراً عليه وهذه النكهة أقل جودة بالنسبة لي من التمر ذاته . ينمو الخلاص في الطرف الغربي من الواحة ، بمعنى : أنه أقرب إلى بلدة الهفوف . الفرق الأساسي في البساتين هو أن أراضيها عادةً أعلى من الماء ويبدو لي أن هذه النخلة تكون أجود في التربة الجافة . من ناحية أخرى فإن نواة تمر الخلاص طويلة ونحيلة .

الرزيز هو التمر الذي يلي الخلاص في الأهمية ولونه غامق أحمر ـ ذهبي وصلب وأصغر من الخلاص ونواه قصير ومستدير . أظن أن له نكهة أفضل من الخلاص مع أن رأي أهل الأحساء لا يتفق معي في ذلك ويبدو أنها مساوية أو أفضل من تمر تونس وأفريقيا . يوجد كذلك الشيشي وهو تمر أحمر ، والخنيزي وهو تمر أحمر ـ غامق ، والخصاب أو الرطب وهو فاكهة (تمر) سوداء . لم أر أوأتذوق من بين الأنواع الثلاثة /p.96/ الأخيرة إلا الرطب فقط والذي يعتبر أقل جودة ، ويعتبر الاثنان الأولان فقط ذوا أهمية تجارية . أما الشهل فتمر لونه أحمر ويؤكل فقط بعد جنيه من النخلة ولا يعبأ .

لم يرني الأمير بملابس عربية من قبل ، وكنت قد وضعت حذائي عندما دخلت بين مجموعة الأحذية التي تُجمع عند مدخل البيت العربي وأقبلت عليه بهدوء وأنا حافي القدمين . كان لوحده باستثناء مجموعة قليلة من الخدم ومنهمكًا في قائمة تقارير بالأرقام العربية التي أظن أنها ربما تكون عائدات دخل كان يدققها . لم يسمعني حتى أصبحت قريبًا منه ثم رفع عينيه فقط وكان على وشك أن يواصل حساباته عندما أضاء وجهه نظرة تعرف فنهض لمصافحتي . قال «عفواً . إنني لم أعرفك وظننت أنك عربي» . شكرته على الترتيبات التي تمت لإراحتي وقلت بأن عملي في الهفوف انتهى والآن أريد الذهاب إلى الرياض لمقابلة السلطان . قال بأنه سيرى ما الإجراءات الممكن عملها وسيخبرني في غضون يوم أو يومين .

تبدو الخيل الموجودة في إسطبل الأمير ملساء وسمينة وغير مقتّر عليها في الطعام . تغذى بالتمر ثلاث مرات يوميًا وفي الوجبة الرابعة حول مغيب الشمس تأكل ما تستطيع أكله من البرسيم الأخضر . كما يوجد حارس للخيل طوال الليل ويقوم بهذا العمل الجنود الذين اقترفوا جرائم مشينة عقابًا لهم . فوجئت بينما كنا نتجول بعد الغروب بين إسطبلات الخيل بسماع خشخشة سلاسل قادمة نحونا

وظننت بأن هذا مجرد صوت جاء من حصان يعرج ثم ظهر من الظلام رجل مكبل بالحديد ليستكشف من نحن وما أمرنا؟ .

شاهدت اليوم الأحد ، ٢٥ نوفمبر ، مثالاً على كيفية عمل النظام القضائي للشيخ (الأمير) عبدالله . كانت إحدى القبائل قد غرمت٦٠٠ جمل لتقاتلها مع قبيلة أخرى، وقد وصلت اليوم إلى ضواحي الهفوف الـ ٦٠٠ جمل بالإضافة إلى الأغنام التي حُكم عليها تسليمها . /p.97/ كان جميع الجنود منشغلين تمامًا بهذا الأمر وفي نفس الوقت جاءت إخبارية بأن قرويًا قد سرق جملاً وحماراً . لهذا اضطروا إلى استدعاء بعض مساعدي فاستدعي محمد حسن ليذهب ويبحث عن اللص ويحضره .

جاء مرسول خلال النهار يقول بأن محمد أفندي قادم لزيارتي . لم يكن لدي إلا قليل من الوقت لألبس مشلحي العربي والكافية (الغترة) حيث كان السيد المسن يتبعه على الأثر ويلتقط أنفاسه بعد صعود الدرج . جلسناعلى أحد المقاعد في غرفة النوم، وبعد جملة أو جملتين تمهيدتين حول الحيوانات وصلنا إلى الغرض من الزيارة، لأنه من غير اللائق أن تبدأ مباشرة بأي محادثة مهمة مهما كان الوقت قصيراً أو الأمر ملحًا يستدعي العجلة . كانت الرسالة ومعناها في الواقع مغلفان بكياسة حتى أنني فشلت تمامًا في التحقق من إبلاغي إياها مع أنه من المؤكد أن الأفندي لم يأت لمجرد تمضية وقت النهار . كانت كلماته أن الشيخ عبدالله قد أخبره بأنه لم يسقط مطر على المائة والخمسين ميلاً من الصحراء الفاصلة بين الهفوف والرياض، وأنه لا توجد مراع للإبل في الطريق . كما أن كل الطيور والحيوانات قد تركت تلك المنطقة وذهبت شمالاً حيث كانت الأمطار تتساقط منذ بداية الخريف . قال في الواقع أن هناك العديد من الحيوانات على طريق الكويت حيث سيكون الصيد

جيداً. وبعد مزيد من بعض التعليقات غير المهمة غادر السيد المسن وتركني في حيرة من معنى هذه الزيارة .

كانت في الواقع دعوة لأن أقوم برحلة إلى الكويت بدلاً من الرياض لكي لا تتضرر الجمال من قلة المرعى . طريقتي الخاصة بالسفر جعلت الامتدادات الصحراوية الكبيرة والخالية من الماء أمراً صعباً حيث أريد التوقف في بعض الأحيان لمدة يوم أو يومين وغالباً في منطقة لا يتوفر بها الماء ولا المرعى . من ناحية أخرى فإن المسئولين عن الإبل يريدون التوقف في الأماكن الأفضل لبهائمهم ، ويسرعون من دون أي وقفة بينهما ولهذا فإن فكرتي السير هاتين غير متطابقتين . /p.98/ لاشك أن الأمير ظن أنه إذا استطاع إغرائي بالتوجه إلى منطقة من البلاد تتوفر بها موارد المياه على مراحل متقاربة ويوجد بها عشب وافر تقريباً في كل مكان أتوقف فيه فإنه سيكون باستطاعتي أن أتوانى في المسير حسب ما أريد من دون أن ألحق ضرراً بإبله . لو أن مسيرة الـ ٤٠٠ ميل المقترحة تنتهي في أي مكان بالداخل فلربما كان لها جاذبية أكبر ولكنني لا أحبذ فكرة أن أجد نفسي في نهاية المطاف على الساحل مع فرصة جيدة بإعلامي أنه لا يتوفر كمية كافية من المرعى لكي يسمح لي بالعودة إلى الداخل مرة أخرى وهنا يكون لا خيار عندي إلا أن استقل أول باخرة إلى إنجلترا . يبدو أنه من الأفضل انتظار تطورات إضافية وفي غضون ذلك أقوم بمشاهدة المزيد من ضواحي الهفوف .

أمضيت ساعة أو ساعتين في المزارع عملت على إحياء اهتمامي بالمكان . تمكنت من اصطياد بعض الأسماك الصغيرة من عين أم خريسان باستخدام شبكة الفراش . كان أكبرها لا يتعدى طوله طول مسمار عادي ، ولكن لأنني لم أر سمكة بالغة ، فلم أدرك بأن هذه مجرد أسماك صغيرة . بينما كنا نمشي بين مزارع البرسيم

انطلق أمامنا جرذ (Jird) ، قارض ذو لون رملي شاحب ،بحجم الفأر وله ذيل طويل جدًا ودخل جحرًا في أسفل الحائط الطيني الذي يبنى حول معظم المزارع ليفصل بين مختلف الملكيات الصغيرة . يبلغ ارتفاع بعض هذه الحوائط ثلاث أقدام فقط بينما بعضها الآخر موانع حقيقية حيث يبلغ ارتفاعها حوالي ثماني أقدام ومثبت على الطبقة العلوية منها شجيرات شوكية . أساسات تلك الحوائط مثقبة بجحور هذه الحيوانات ، وقال الرجال العاملون هناك : إنها تخرج عندما تسخن الشمس وتأكل البرسيم . لأنني اعتقدت أنها جميعًا حيوانات ليلية ، فقد تجاهلت المعلومات المحلية ، وخلال الليل أرسلت مهدي ليراقب المصائد المطعمة بجوز الهند وليقضي ساعات بلا جدوى .

يبدو أن البرسيم هو المحصول الوحيد الذي يزرع بانتظام ويحتكر معظم الأرض الواقعة تحت أشجار النخيل في الأجزاء الغربية والوسطى . /p.99/ بزراعتهم لهذين المحصولين فإن أهل الأحساء لا يحتاجون إلى تعلم شيء آخر . فالبرسيم يزود التربة بالنتروجين الذي هو مفيد للنخل ويُبقي على محاصيل البرسيم المتوالية بواسطة التسميد القوي لظاهر الأرض. يتم ذلك بسماد يجلب من البلدات ويخلط مع قليل من الحجر الرملي الناعم فيدخل التربة كمسحوق ناعم مخصب . يحصد هذا المحصول الأخضر أيضًا طوال العام وحالما تذبل الجذور تحرث الأرض وتسمد وتُبذر مرة أخرى. هناك عدة مساحات من النبتات الصغيرة ستثمر في نوفمبر وديسمبر . تخصص بعض المزارع لأشجار البرتقال والخوخ والرمان والأترج التي تنمو جيدًا تحت أشجار النخيل وبعد زراعتها لا تحتاج ولا تحصل إلا على القليل من العناية بخلاف جني الثمر . هذه المحاصيل تحتل المسطحات العالية أما الحقول المنخفضة فهي تخصص للأرز . بقية الزراعة من نوع المصادفة فهنا يزرع بصل في هذه المساحة وباذنجان في تلك الأخرى .

معظم الملاك لديهم صف من شجيرات تذكرني بالليغسطروم وهذا هو الحنا الذي يستخدم في الغالب لتزيين مقدمة الحمير البيضاء . لا يوجد إلا القليل من الحمير التي لم تشوه بهذه الخطوط والأشكال من الصبغ الأحمر . وبطريقة مماثلة تحمر كذلك أظافر أيدي وأرجل الأنيقين من سكان المنطقة . تقطع الأغصان بأوراقها الخضراء وتجفف في الشمس . يسحق الكل ليصبح مسحوقًا أخضر وبعد ذلك يخلط مع أي سائل حامض ليصبح عجينة ويمسح على الجزء المطلوب تلوينه ويترك ليجف وبعد عشر دقائق يُزال المعجون وتبقى الصبغة الحمراء . يفترض أن العلاج بالحنا يمنع ويعالج قروح السرج وذلك بتقوية جلد الحيوان . هذه الأشكال لابد أنها مفيدة بوصفها علامات فارقة لأن آلاف الحمير البيضاء المتشابهة تمامًا تلتقي وتختلط دائمًا . اليانسون شجرة أخرى تشاهد في معظم المزارع مبعثرة في أي ركن مثل الأعشاب .

رُتب لي ليلة يوم ٢٦ نوفمبر الحصول على إذن بالذهاب إلى المزارع والحصول على المزيد من طيور الخطاف الصخري التي يبدو أنها تصل إلى البلدة بعد ساعتين من شروق الشمس . /p.100/ لم يحضر أحد في الوقت المحدد وفيما بعد جاءت رسالة من سعيد بأنه سيأتي معي بعد الظهر وهذه لم أر أنها مؤشر جيد فيما يتعلق بالرحلة الصباحية لطيور الخطاف . مرت الظهيرة والمساء ولم يأت أحد وكنت طوال ذلك اليوم الضائع مستعدًا للتحرك في أية لحظة . جمع العينات في الجزيرة العربية ليس أمرًا سهلاً كما يبدو للإنسان ـ حتى ولو كان عندك دعوة من السلطان ـ فمن الممكن جدًا أن تأتي إلى البلد وتخرج منها بدون تحقيق هدفك .

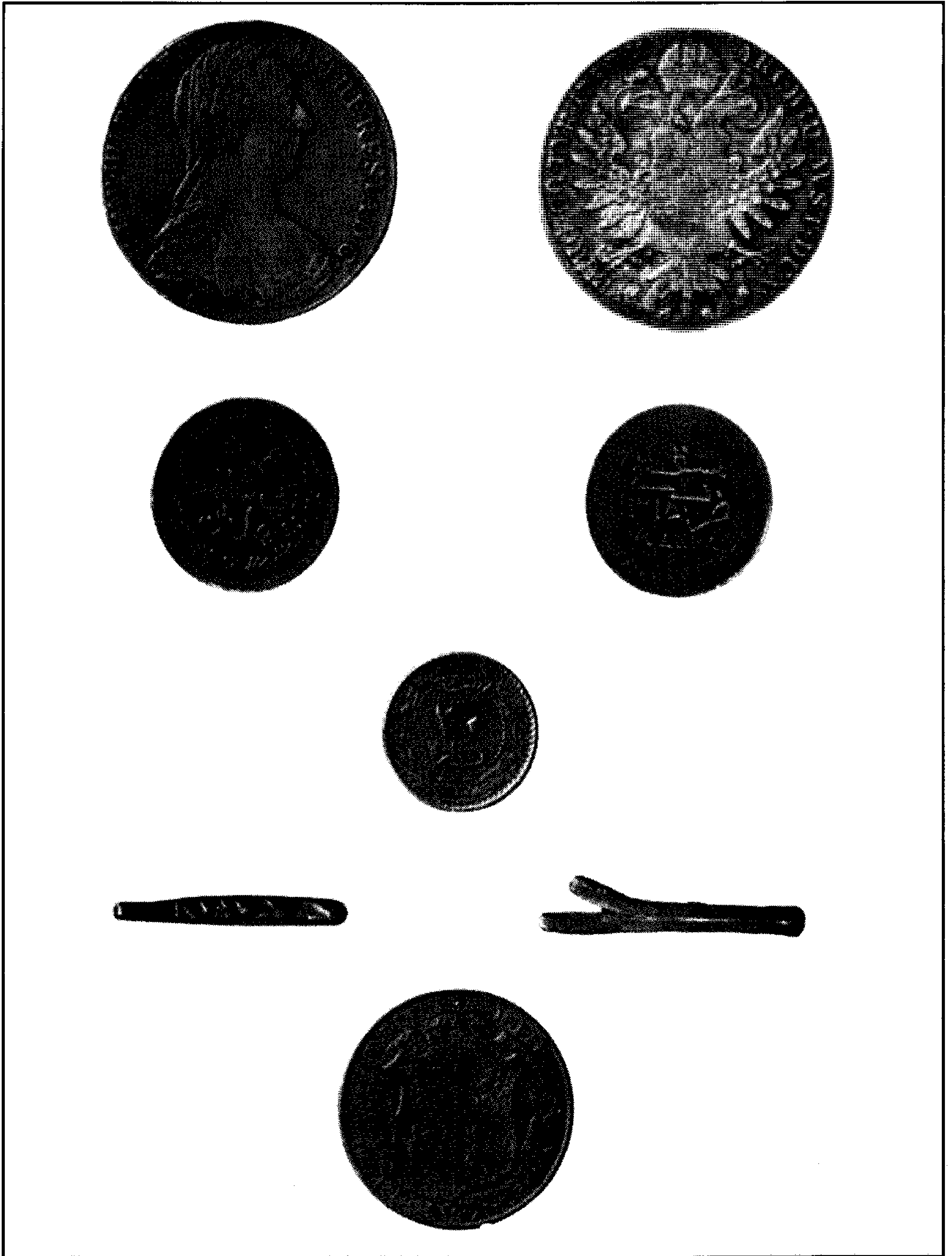
أشغلت الخدم بالجري إلى السوق وجمع وإحضار العملات المعتبرة عملةً متداولة في الهفوف . لا يشاهد الذهب في المعاملات التجارية الصغيرة مع أن الجنيه الإنجليزي والليرة التركية مقبولة ـ بالطبع ـ في أي مكان بالبلدة . من الغريب أن

شيك الرجل الإنجليزي في هذه المناطق يلقى تقديراً أكثر مما يعادله من الأوراق النقدية من الروبية الهندية أو الجنيه الإنجليزي وهذا خير دليل على احترامنا . أخبرني السيد كيلنج (Mr. Keeling) ، الذي هرب من السجن في تركيا أثناء الحرب ، بأنهم بوصفهم سجناء لم يواجهوا أي مشكلة في الدفع لأي شيء يستطيعون شراءه من التجار المحليين في تركيا حيث تُقبل الشيكات بسهولة . كان من حظه بعد الهدنة أن يأخذ ملء كيس من هذه الشيكات ليصرفها في إنجلترا ، وباستثناءات قليلة جداً دفعت كلها من قبل البنوك . الاستثناءات كانت في حالة المتوفين وبما أن الحكومة البريطانية قررت دفع تلك الشيكات فإن كل شيك في كيسه المليء قد دفع كما ينبغي . الريالات (أو دولارات ماريا تريزا كما تسمى بالإنجليزية) هي عملة فضية كبيرة بحجم قطعة الخمسة شلنات ويبلغ وزنها أونصة واحدة فقط ، وتعتبر الأكثر شيوعاً لأنها العملة الوحيدة التي يقبلها البدو . الريال عملة ذات تصميم جميل فعلى أحد الوجهين رأس ماريا تريزا من النمسا وعلى الآخر النسر النمساوي ذو الرأسين وشعار النباله وتحمل تاريخ سنة ١٧٨٠م (اللوحة رقم ٢٣ a و b) . /p.101/ أخبرني السيد جي . ألن (J. Allen) من المتحف البريطاني بأن دولار ماريا تريزا لسنة ١٧٨٠م مازال يسك في فيينا للتصدير إلى منطقة البحر الأحمر ، لأنه الأكثر شيوعاً هناك . «لماذا هو أكثر شيوعاً ؟» قال : «لا أدري ولكنه أبعد الدولار الإسباني والهولندي تماماً من السوق (الجزيرة العربية)» .

توجد عملة أخرى معتبرة في الهفوف وهي الطويلة (اللوحة رقم ٢٣ F و g) . وتساوي مئة وخمسون منها ريالاً واحداً . لكن مع أن الأسعار تعطى عادة بالريال والطويلة فإن هذا ما يعنيه الدلال عندما ينادي «ثلاثة عشر» على سبيل المثال . الطويلة هي أصعب العملات للحصول عليها وتكاد تكون منقرضة . إنها ـ أو كانت ـ عبارة عن مسكوكة على شكل قطعة قوية من سلك نحاسي طولها حوالي بوصتين مثنية ومدموغة بكتابة عربية مزخرفة وغير مقروءة وقد فتح طرفيها على

شكل حرف v . لم يثمر بحث دؤوب استمر لعدة أيام إلا عن طويلتين وقد أخبرت بأن إحداهما ستقبل في الدكاكين بقيمة ربع بنس . مع أن هذه العملة غير مقبولة خارج الهفوف . من المؤكد أن أصل الطويلة من اللارينه الفارسية وهي عملة فضية شبيهة في تصميمها . قال السيد جي . ألن (J. Allen) في مقالته حول اللارينه وعملات أخرى في مجلة النميات (*Numismatic chronicle*) السلسلة الرابعة الجزء ١٢ والتي أهداني مشكوراً نسخة منها ، قال : «كانت اللارينه إحدى العملات المتداولة في المحيط الهندي في حوالي نهاية القرن السادس عشر الميلادي . ويبدو أنها سكت أول الأمر ، ربما في حوالي بداية القرن السادس عشر الميلادي ، في لار في الخليج الفارسي حيث أخذت اسمها» . الآن تسمى إحدى العملات المعدنية التركية طويلة (اللوحة رقم ٢٣ e) . تم التغلب على مشكلة الفكة الصغيرة عن طريق العملات التركية الحديثة التي استقدمها الأتراك خلال حكمهم وتركوها عندما أخرجوا من الأحساء. تقبل الروبيات الهندية الفضية (وتساوي شلنًا واحدًا وأربع بنسات) من دون اعتراض بقيمة ٨٥ طويلة للروبية .

يقبل هنا علاوة على ذلك عملة أخرى وهي البيزة أو البيزة الحمراء العمانية ولكنها ليست متداولة بشكل عام . /p.102/ معلوماتي عن هذه العملة هو أنها مطلوبة أكثر في الرياض لأنها تسود مع الريال بلا منافس . البيزة عملة نحاسية بحجم نصف البنس تقريبًا ويساوي اثنان منها طويلة واحدة (اللوحة رقم ٢٣ c و d) . ضربت البيزات بأمر من سلطان مسقط ، فيصل بن تركي ، سنة ١٨٩٥م وكتب على أحد وجهيها بالإنجليزية فيصل بن تركي إمام مسقط وعمان ، ربع آنه وكتب عليها بالعربية مسقط والتاريخ الهجري ١٣١٥هـ . على الوجه الآخر إكليل مستدير من أوراق الأشجار وكتب في الوسط بالعربية فقط ، فيصل بن تركي سلطان عمان . قال راويتي بأن القروش ، التي سمعتها تذكر كثيراً ، هي عبارة عن مبلغ من المال لا



اللوحة رقم (٢٣) :

a و b : الريال أو دولار ماريا تريزا

c و d : البيزة أو بيزة عمان الحمراء

e : الطويلة وهي عملة تركية حديثة من المعدن الأبيض حلت محل العملة النحاسية

f و g : الطويلة عملة الهفوف النحاسية

h : نصف كراون إنجليزي لمقارنة الحجم

تمثله عملة ولكنه يذكر كثيراً في ثنايا الكلام وهو (القرش) ويمثل إما ثلث الروبية أو مبلغ غير محدد أو دفعة حساب . . . الخ .

بما أن القيمة التي وضعتها لا تتفق في كل الحالات مع ما أعطاه الرحالة السابقون، فسأضيف هنا قائمة مصححة بتاريخ فبراير ١٩٢٤م :

بيزة عمان وتساوي نصف طويلة .

عملة الطويلة النحاسية وتساوي طويلة واحدة .

العملات التركية الحديثة من المعدن الأبيض :

قطعة بحجم ثلاثة بنسات إنجليزية تقريبًا تسمى نصف بيزة وتساوي ربع طويلة .

قطعة بحجم ستة بنسات إنجليزية تقريبًا تسمى البيزة وتساوي نصف طويلة .

قطعة بحجم أقل من حجم الشلن تسمى الطويلة وتساوي طويلة واحدة .

قطعة بحجم الشلن مرتين وتساوي طويلتين .

عملات تركية فضية حديثة :

قطعة بحجم أصغر من ثلاثة بنسات وتساوي ٦ طويلات .

قطعة بحجم السابقة مرتين تقريبًا وتساوي ١٢ طويلة .

قطعة بحجم شلن واحد تقريبًا وتساوي ٣٠ طويلة .

الروبية الهندية ـ تساوي ٨٥ طويلة ، عادةً حوالي شلن وأربعة بنسات .

الريال النمساوي ـ يساوي ١٥٠ طويلة حوالي شلنين وأربعة بنسات . /p.103/

الروبية والريال تختلف حسب الصرف .

أضفت إلى عيناتي سحليتين من سحالي (أبو بريص)، وهي سحلية شبحية البياض ظهرت من خشب السقف في المساء تبحث في الجدران عن العث والذباب . تمكنت بعد أن وازنت نفسي على كرسي من بهرهما بنور مشعل كهربائي ثم أمسكت بهما على الخشبة بواسطة طرف ماسورة بندقيتي التي كانت تصل إلى السقف ، غير

أن المطاردة لم تنته حينئذ . كان من الضروري الانتظار حتى يحركا أرجلهما ذات الأصابع الأربعة اللاصقة عن الخشبة في وقت واحد ثم أتركهما ليسقطا على الأرض. يكفي سحلية أبو بريص وضع إصبع واحد على الخشبة لتلتف في لحظة واحدة وتنجو بسرعة . /p.104/

الفصل العاشر :

الحياة في الهفوف (يتبع)

كان الصباح يوم ٢٧ نوفمبر غائمًا وخلال المساء السابق سقط علينا أغزر مطر حتى الآن وكان أكثر مما يكفي لإخماد الغبار . إنه من الصعب تمامًا أن تصدق أن الأرض هنا تصل إلى درجة الوحولة ولكن الخدم أخبروني أنه بعد بعض العواصف الممطرة تتوقف قوافل الإبل تمامًا من هنا إلى الساحل بسبب الطرق الزلقه . ترك المطر الغزير في أحد فصول الشتاء الماضية ـ وسيبقى رقمًا قياسيًا لسنين عدة ـ بركًا من الوحل والماء في بعض شوارع البلدة لم يجف لمدة شهرين ، وهذا يحدث سنويًا في بغداد .

لما كانت العصافير والبلابل تشكل جزءًا من غذاء ذواقة الهفوف ، فإن نقص البارود والرصاصات الصغيرة فقط هو الذي يفسر بقاءها بهذه الأعداد . البنادق هنا صناعة إنجليزية من العهد الفكتوري المبكر وتشحن عن طريق الفوهة وهي ذات ماسورة واحدة طويلة ومقبضها صغير نسبيًا . يضيف أصحاب البنادق نصف دائرة خشبية ـ مزخرفة بجلد غزال ـ إلى المقبض بحيث لا يدخل عقب البندقية في الكتف . بنادق القبائل هي في الغالب من طراز مارتينز القديم بينما بنادق جنود الحكومة حديثة من طراز لي ـ متفوردز القصيرة .

كان هذا اليوم يومًا حافلاً في تاريخ حملتي القصيرة حيث تمكنت من إبعاد سعيد عن المسرح وشعرت بأن عملاً جادًا بلا معوقات سيبدأ الآن . بالإضافة إلى

ذلك فإنها كانت حادثة مضحكة فلقد اختلق أعذاراً بأنه كان بالأمس لدى الإمارة أعمالاً زائدة ولم يستغنوا عنه ولذلك رتبت ـ صابراً ـ موعداً آخر لننطلق قبل موعد وصول طيور الخطاف الصخري بنصف ساعة ثم انصرف بعد ذلك . /p.105/ عندما لم يحضر في الوقت المعين أخذت بندقيتي وانطلقت مع مهدي مخبئين صفيحة جمع العينات تحت مشالحنا . بعد أن أرسلت أحد الخدم ليبحث عن سعيد ومحمد حسن ويخبرهما بأننا قد ذهبنا ، انطلقنا بسرعة عبر البلدة والسهل المفتوح إلى أكمة من الحجر الرملي وتجهزنا فيما لو مرت الطيور من فوقنا . لم تأت الطيور ولهذا فلم نطلق رصاصًا ليدل على اتجاهنا وكنا قد مررنا عبر الشوارع المزدحمة من دون أن يلاحظنا أحد ولم نترك أي دليل على مكان تواجدنا . رأينا بعد مرور حوالي الساعة شبحًا من بعيد يخرج من مزارع النخيل الغربية يهيم هنا وهناك ويسأل المارة وأمكن بسهولة التعرف من لباسه على أنه محمد حسن . لم يكن لدي أي ضغينة ضده لأنه يأخذ دوره من الرجل المسن ، ولكن لأنه بعيد فلم أناده والمشي الإضافي لن يضره . وأخيراً رآنا جالسين على تلة جيرية فقبع خلفي بعد أن بدت عليه علامات الفرح . قال بأن أحداً لم يرانا مع أنه أوقف كل شخص ليسأل عنا في البلدة والمزارع . كانت هذه ـ بالطبع ـ أخباراً سارة لأنه سيصل إلى مسامع الشيخ عبدالله بأنني قد خرجت بدون حراسة وسيلام سعيد على ذلك . لم يدر محمد أين كان زميله لأنهما افترقا في الهفوف وسلكا طريقين مختلفين على أمل أن يعثر أحدهما علينا . سرعان ما رأيناه من بعيد قادمًا من جهة البساتين الشرقية راكبًا حماراً كان قد اغتصبه من ولد صغير . قاده طريقه الذي سلكه إلى حيث نحن جالسين تمامًا وكان قريبًا منا قبل أن يرانا . ترجل عن الحمار وحاول أن يظهر بأنه لم يركبه ولكن الولد المسكين تبعه آملاً في إكرامية بينما كان هذا الطاغية الناكر للجميل يهمس له بأن يبعد الحمار . باركت لسعيد على طريقة ركوبه للحمار وأشرت له بأنه نسي أن يكافيء الولد وببراءة سألته لماذا جاء ، بينما /p.106/ هو قابع في صمت حزين ليرتاح ويفكر كيف سيلقاه الشيخ

عبدالله عند عودته وإلى أي حد أشيعت هذه القصة وعن الأعذار التي يمكن أن يسوقها .

وأخيراً جاء يومي ولكن سعيد أنقذ من تهكمي ، لأنه في تلك اللحظة مر من فوقنا مجموعة من طيور الخطاف الصخري واصطدت أربعة منهن . كان قادماً إلى البلدة قافلة من البدو بجمالهم وعدة مجموعات من الصبية سائقي الحمير فتوقفوا لمشاهدة هذه الرياضة . رمي الطيور في الهواء بالنسبة لهم هو أمر لم يسمع به من قبل وشجعوا بإعجاب الرميات الموفقة . عدنا إلى المنزل وقت الغداء وتبعني الجنديان في صمت مهذب . قلت بوضوح عندما دخلت الباب : «سأخرج غداً عند الساعة الثامنة» وتركتهم على هذه الحال . كانت هذه هي النهاية بالنسبة لسعيد ، الذي خرج الآن من القصة ، ليظهر فقط مرة أخرى بعد شهر عندما وزعت أول إكرامياتي ورأيت أنه يستحق بعض المكافأة لاستقباله لي في العقير . ظهر في الواقع مرة أخرى في شهر فبراير قبل أن أغادر إلى يبرين عندما أعطيت بعض الإكراميات للخدم الذين أسدوا مساعدة لي . في تلك المناسبة لم يعمل شيئًا ولهذا شكرته على شرف الزيارة وعاد خالي الوفاض مع كلمة «في أمان الله» .

انطلق مهدي بناءً على اقتراحه عند منتصف النهار تقريبًا ليختبر إصرار الفلاحين بأن الجرذان تخرج في النهار فقط وكانت محاولتنا وضع المصيدات لها ليلاً قد فشلت . أخذ بندقية الصيد عيار ٤١٠ . بعد أن حصل على معونة من صديق يبدو عليه مظهر الخسة كان قد تعرف عليه في السوق والذي طبقًا لروايته المتواضعة يستطيع أن يصيب الإبرة برصاصة البندقية على بعد ١٠٠ ياردة . فيما لو وجدت طلقة الرصاصة أن الحيوانات هدف أصعب من الإبرة ، أخذ مهدي ست مصائد مع بعض الخبز طعمًا لها . عاد بعد ساعة تقريبًا منتصراً بجرذ كان قد دخل المصيدة بينما

هو ينظر إليه . كان جرذًا شاحبًا ذا لون بني أصفر فاتح وله ذيل طويل بطرف أسود كثيف الشعر في حين أن شعره أملس وناعم لدرجة أنه يصعب الإمساك بجسمه حتى وهو ميت . /p.107/ شُغلنا تمامًا لفترة ما بعد الظهر في سلخ وتصنيف الجرذ والخطاطيف . سطعت النجوم عند الظلام بتألق غير طبيعي مما استدعى القيام بعملية أخرى من القراءات على نجم النسر والعيوق والقطب الشمالي للتأكد من قراءات سابقة أخذت في مناسبتين سابقتين من شرفة منزلي بالهفوف .

لم يكن هناك أي تأخير عند الانطلاق من المنزل في نهار الغد . أخذ محمد حسن ـ الذي أنا سعيد لأقول ـ مكان سعيد رئيس حرسي وكان جاهزًا تمامًا قبل الموعد المحدد . احتفظ بهذا المنصب طوال إقامتي وكان مسئولاً خلال حملتي إلى يبرين وودعني على القارب في العقير بعد مرور حوالي أربعة أشهر . كنا خلال تلك الفترة دائمًا على وفاق تام . كنا نناقش أي خطة مسبقًا ويعطي رأيه لما هو في صالح الخيول أو الإبل فهي مسئوليته بينما أنا أعطي مخططًا للمنطقة التي أريد أن أجمع عينات منها . لهذا فالتفاصيل تسوى بما فيه مصلحة الطرفين ويُتبع البرنامج اليومي بطريقة صحيحة .

عوى ذئب ليلة البارحة قرب أسوار البلدة . كان عواءً عاليًا ومتوحشًا ولو كنت على طريق مهجور فسيكون مروعًا . كما أنه أثار اهتمام كلاب البلدة التي أخذت تنبح بينما لم تنبح ضد مجموعة كاملة من أبناء آوى كانت كعادتها تنحب وتعوي . لم تبتلي الهفوف بالزحمة العادية لكلاب الطرقات المزعجة التي تراها في البلدات العربية . في الحقيقة من النادر أن ترى أو تسمع الكلب (في الهفوف) وإنه فقط عواء الذئاب في الليالي الساكنة هو الذي جعلني أتحقق أنه يوجد بعض منها في حارتي .

الذئاب هنا هي أقرب ما تكون إلى الذئب الهندي (*Canis pallipes*) وهي انعزالية ونادراً ما تخرج للقنص في شكل مجموعات مثلما تفعل قريباتها الأكبر حجمًا في المناطق الشمالية . كما في البلدان العربية الأخرى، فالذئاب لها مكانة عالية في التراث العربي من حيث الذكاء والشجاعة والميل للسرقة . عواء الذئب الهندي مميز تمامًا عن عواء ابن آوى ويتكون من ثلاث إلى أربع نبحات حادة وبنغم مرتفع في تتابع سريع ثم وقفة طويلة قبل أن يعيده ، ويمكن سماعه من مسافة بعيدة /p.108/ . سمعت مثل هذا العواء مرة واحدة فقط في حياتي، فمنذ سنين مضت كنت أمرض مجموعة من جراء السبنيلي[١] الأصيلة أعمارها تقارب الأربع والعشرين ساعة . كانت مصابة بمرض قاتل شبيه بالصرع، وكلما مات أحدهما أطلق صوتًا شبيهًا بعواء الذئب . وكان صوتًا مرتفعًا جداً حتى أنه من الصعب أن تظن هذا الصوت آتٍ من هذه الأجسام الصغيرة جدًا من السلة المحاذية لي . سمعت لأول مرة بعد مرور عشرين سنة على هذا الحدث عواء الذئب حول المخيمات في بلاد ما بين النهرين ولكن ذاكرتي لنباح الجراء التي استغربتها كثيراً عادت إلى ذهني في الحال وتعجبت عما إذا كان صوت السبنيليات الصغيرة غير العادي مرتبط بأي شكل من الأشكال مع سلفهم البعيد والغامض أي الذئب . نباح الكلب ليس به أدنى شبه مع عواء الذئب .

أطفال الهفوف مرحون ولديهم ذخيرة من الحيل لتسلية أنفسهم وهم يخرجون للعب في الشوارع في عمر مبكر ، غير مقيدين بنظافة الملابس، فهم أحرار ليلعبوا بالأوساخ كما يشاؤون، وأيامهم ما هي إلا مهرجان طويل في عمل عجينة من الطين. شاهدنا اليوم طفلاً صغيراً قذراً يلعب مرتبًا دكانًا خياليًا بأشياء صغيرة عرضت في صفوف ويلثغ بمحادثة حيوية بين المشتري المفترض والبائع . كما نشب

(١) السبنيلي كلب صغير قصير القوائم طويل ومموج الشعر . (المترجمان)

اليوم قتال نشط بين محاربين من أطفال البلدة وأطفال الإخوان في الخامسة من العمر . شُنت تلك المعركة بقدر كبير من الصراخ من كلا الجانبين، وكانت تقريبًا هي الشيء الوحيد الذي أوقف لبعض الوقت رنين مطارق النحاسين؛ لأن كل السوق خرج للفصل بين المتحاربين ولمعرفة السبب ولمواساة الجرحى . ضوضاء النحاسين أثناء العمل ليست مزعجة ـ بالمناسبة ـ فالإنسان يتعود عليها وحتى أنه بعد مدة لا يشعر بها .

ليالي الهفوف هادئة، ويكسر السكون قبل الفجر فقط أنين دواليب الماء وصريرها في المزارع على بعد حوالي نصف ميل متبوعةً بصوت غروب الماء عندما تصل القمة وتفرغ ماءها في الحوض . /p.109/ يأتي بعد ذلك الطرق طاخ، طاخ، طاخ على الأبواب الخشبية الثقيلة لأحد الدكاكين المقابلة، ويأتي بعد ذلك صوت ينادي «أخي» ويستمر الطرق حتى يستجيب صوت الأخ النائم، وبعد قليل يعلن سحب المزاليج أن البيت قد استيقظ . يشق جو الصباح الهادىء بعد ذلك صوت الأذان للصلاة، الذي يرفعه أحد المؤمنين من سطح منزل : «الله أكبر، الله أكبر» . وسريعًا ما يرتفع مئة صوت مرددة الأذان من مئة سطح مختلف وهكذا يبدأ اليوم في البلدة الإسلامية[١] .

وجدت اليوم الشاهد الوحيد على زراعة الشعير في الأحساء عندما كنت حسب طريقتي المعتادة أتفحص بذر كل حب نابت . زُرعت قطعة الأرض هذه بالشعير ولم ينشر على الأرض كلها، بل زرع على شكل حُزم كل واحدة على بعد ياردة عن الأخرى في صف على أطراف بقعة البرسيم . طريقة زراعة الحب هذه يبدو أنها اتبعت لضمان أن يحصل الشعير على أكبر قدر ممكن من الشمس والهواء . كانت قطعة الأرض نفسها في العمق تحت ظل بعض النخلات، وكانت في الظروف

---

(١) هنا سطران لم تترجم حيث شبه المؤلف صوت المؤذن بشيء لا يليق بالإسلام . (المترجمان)

العادية ستنبت سيقانًا ضعيفة وحبوبًا صغيرة . قطعة الأرض الصغيرة هذه تستحق الذكر فقط بسبب الضجة التي أثارها ڤيلبي .

يشتمل الجدول الدافيء الذي يجري من عين أم خريسان على تشكيلة من الأعشاب المائية . أكثرها وجودًا هي تلك التي تشبه ذيلية إنجلترا ولها دوَّارات بأوراق ليفية، ولكن يوجد كذلك نبتة خضراء مشرقة ذات أوراق بشكلين مختلفين . فعلى حافة الأوراق القديمة تظهر نبتات صغيرة كاملة وفي النهاية تنفصل عن النبتة الأم . كنت قد لاحظت طريقة التكاثر هذه في نبات السرخس ، ولكن ليس في النبتات المائية ، مع أنها تصبح عينةً رطبة ورخوة عندما تخرجها من الماء، وقد أحضرت نبتةً منها وعرفت بسرخس الماء . إنها نبتة نادرة ومميزة في أي مكان ولا يعرف من عائلتها إلا هذا النموذج فقط . /p.110/ يوجد من بين النبتات نوعان من حلزون الماء وهما صغيران جدًا ومن الصعب أن يكونا مكتملي النمو . لم آخذ درجة حرارة عين الماء، ولكنها تبدو حارة وتبرد بسرعة في الهواء الذي تبلغ درجة حرارته ٧٠° . عندما ترتفع درجة حرارة الجو في الصيف إلى ١١٠° في الظل فسترتفع درجة حرارة هذه الجداول ، والتي تنبع من الأرض بحرارة تقارب ٩٠° وستصل إلى ما يقارب ١٠٠° . بطبيعة الحال فإن السكان المحليين ينخدعون بأن العيون في الشتاء أدفأ منها في الصيف من دون أن يعلموا أن الفرق الظاهر هو في الجو . كما أنهم يظنون بأن الفتحات الكبيرة في الأرض التي تخرج منها الجداول أحدثها تساقط النجوم . حتى إن أحد أفراد عائلة القصيبي المثقفة وكثيرة الأسفار، قال لي ذلك بجزم أسكت النقاش. إذا كنا بحاجة إلى برهان فهناك الماء والفتحة التي دخل منها النجم . بالإضافة إلى الفراشة ذات الذيل الخطافي وفراشة الليمون ذات الذيل الخطافي الأكبر حجمًا، فقد أمسكنا بفراشة من نوع جديد بنية اللون بحجم الخلنج الكبير وذات بقعة زرقاء زاهية. كما يوجد فراشات صغيرة ذات لون أزرق وأخرى زرقاء ذات ذيل طويل وكذلك فراشات عادية لونها أصفر داكن .

مررنا في طريق عودتنا بجدار معرض لأشعة الشمس وقاعدته مثقبة بجحور الجرذان كما أن البرسيم القريب منه كان مقطفًا ولابد أن الخراب الذي تحدثه الجرذان يشكل خسارة عظيمة للفلاحين . كانت عدة حيوانات تتحرك بينما كنا نراقبها ولكنها كانت حذرة جداً . كانت رؤوسها ظاهرة بعيونها الصغيرة المستديرة، ولا يظهر منها الكثير بخلاف آذانها المنتصبة . كان هذا كافيًا لإقناعي بأن هذه الأصناف نهارية تمامًا ، ولذا فقد اقترح مهدي إحضار مصائد إلى هنا بعد الظهر . بينما كنا عائدين انضم إلينا رجلان حاملان مسحاتين واشتكيا كثيراً من الجربوع كما يسمونه . مع أنني عندما ألحيت عليهما اعترفا بأن هذه (جراذي مال بر) جرذان برية ، لأنها مميزة عن الجربوع الحقيقي ذي الأرجل الطويلة والمتواجد في الصحراء . /p.111/ الجرذ دون غيره هو فأر أسود يتغذى على أشياء غير نظيفة، ويعتبر «حرام» أو غير نظيف ، بينما الجربوع «حلال» ولهذا فيمكن أكله طبقًا للشريعة الإسلامية . لذلك فإننا وجدنا سببًا وجيهًا لتعميم تصنيف الجربوع على الجرذان آكلة الخضار وحيوانات العضل حيث يمكن أكلها من دون تأنيب للضمير . أخذ الرجلان يهدمان الجدار على طوله بمسحاتيهما ولكن لما لم تظهر حيوانات ـ ولم أكن متأكداً مما إذا كان هذا الجدار الذي يهدم الآن هو جدارهما فعلاً ـ فإنني غادرت المكان لامنع تدميرهما للجدار كليةً والذي يبلغ طوله حوالي خمسين ياردة . نظراً لتحمسهما فمن الواضح أن القنص استمر بعد مغادرتنا ، لأنه عندما رجع مهدي في المساء ذكر بأنه وجد الجدار كله مهدمًا وأربع عينات قد قتلت في المناوشة وألقيت ، بينما أخذت ثلاث عينات أخرى حية وذبحها أحد الرجلين قائلاً: باسم الله الرحمن الرحيم وأخذها لأكلها في البيت .

٢٩ نوفمبر يبدو أن الجو ليلة البارحة كان أكثر برودة مما كان عليه في الآونة الأخيرة . كان الهواء منذ وصولي ساكنًا في الليل والنهار ولا يحركه إلا نسيم في بعض الأحيان . وكان الجو في المزارع حاراً جداً في الشمس لدرجة أن الشخص

يفضل البقاء تحت ظل النخيل ، وقد تمكنت البارحة من الجلوس في الشرفة المفتوحة لمدة ساعتين قبل أن أنام ولم أشعر بالبرد على الاطلاق . تتكون ملابسي حتى الآن ـ عندما لا أكون مرتديًا اللباس العربي ـ من سترة نوفولك خفيفة وبنطلون رمادي من الصوف الناعم وقميص وسروال من القطن الخفيف وبدون صدرية . في الليل ألبس بجامة صوفية (عيار شتوي) وأربع بطانيات وهي في الواقع حارة جداً ولكن البطانيتين تصبحان باردتين قليلاً عند الصباح .

كان مهدي يشتكي من صداع في رأسه وألم في بطنه وتمنيت لو أن كلانا تجنب مضاعفات المرض . ربما أنه لم يتعود بعد على الماء المالح الذي يفسِّد الصابون كثيرًا ، وقد أثر علي ولكنه حتى الآن لم يضايقني . كنا نحصل على ماء شربنا من العين إذ كان يأتينا رجل مرتين يوميًا يحمل قربًا ليملأ الأوعية الفخارية . يمكن الحصول على الماء بوفرة من بئر بساحة الدار يبلغ عمقها عشرين قدمًا ، /p.112/ ولكن لأنها لابد وأن تكون ملوثة بمجاري البلدة ، فقد كان قرار السلطات بعدم صلاحيتها للشرب فرجًا لنا . تجاوب مرض مهدي مع علاج بسيط أعطيته له وقد تردد في أخذه لبعض الوقت حتى طمأنته بأنه علاج لا يتعارض مع تعاليم الإسلام .

مررنا اليوم بسوق الخميس ومنه إلى المزارع وفي أثناء مرورنا نظر الجنود بشوق إلى نافذة مكتب القصيبي ولكن لم يقولوا شيئًا . كانت فكرتهم ليوم مثمر هو الجلوس هناك لشرب القهوة، والحديث مع الواصلين الجدد، أو مجرد الجلوس لمشاهدة الحشود في الأسفل . أضيف لحراستي جندي اسمه أبو سعود ، وهو وغد مرح وكان مهرجًا أكثر مما هو حارس . كان به خليط كبير من دم زنجي ولكن بما أنه في موقع ثانوي فلن يستطيع إحداث أي مشكلة وقد جعل مرحه المعدي كل منا في مزاج جيد. يقام سوق الماشية في السهل خارج البوابة الشمالية ـ الشرقية في نفس الوقت مع السوق الآخر . يتواجد البدو ، الذين يتجنبون حبس (البقاء في البلدة) البلدة ولو لساعة واحدة ، في كل مكان بين قطعان الإبل والضأن والماعز والبقر .

تباع بعض الأبقار الجيدة جداً وكذلك بعض الضأن الممتاز والتي من الواضح أنها قد اختيرت للجزار . كل هذه الضأن من النوع الطويل الشعر الكبير الإلية وهي إما بيضاء أو سوداء وبيضاء وتشبه الماعز كثيراً ، لأن فقدان رائحة الماعز في بعض الحالات هو المميز الوحيد إذا لم يكن الذيل بارزاً .

كان سيرنا بين المزارع هادئًا إذ لم نعثر على شيء . وجدنا يرقة بشارة كبيرة في البرسيم ، ولكن لم نستطع التعرف عليها ، ومر من فوقنا بارتفاع عال ثلاثة من طيور القطا المرقط متجهةً من الجنوب إلى الشمال، وهي أول ما رأينا من طيور الصيد. من وصف بلغريف للبحيرات تصورت نفسي واقفًا إلى ركبتي وسط القصب بينما تتقدم مجموعة من مثيري الطرائد ومجموعات كبيرة من البط السذج وغيرها من طيور الماء تتطاير من حولي وتتساقط يمنةً ويسرة . /p.113/ كنت قد أحضرت معي أربعمائة رصاصة معبأة بطلقات رقم ٤ خصيصًا لإثارة الطرائد هذه ، لأن أحدًا ممن كتب عن هذه البلاد لم يذكر أي شيء ليجنبني من هذا الوهم . بعد أسبوعين من البحث الدؤب، كانت هذه القطا هي الطيور الوحيدة التي تستحق الطلقات رقم ٤ من بين ما رأينا أو سمعنا من طيور حتى الآن . هذا وقد أعدت كل الرصاص من ذلك الحجم إلى إنجلترا باستثناء ما يقارب العشرين منها .

يأتي محمد حسن بانتظام بعد الإفطار لمعرفة ما إذا كان هناك أي أوامر . أطلعته على سكين مع أدوات كثيرة سآخذها كهدية لفيصل بن سعود[١] ، ابن السلطان ، وقلت إنني أود بكل تأكيد تقديمها له عندما أصل إلى الرياض ـ قلت هذا وأنا أعلم بأن كل كلامي سينقل للأمير ـ. استلمت الرد في اليوم التالي حيث أورد محمد حسن في محادثة عامة بأن شخصًا قد ذكر له أنه لا توجد طيور في الرياض . رددت

(*) المقصود هنا الأمير فيصل بن عبدالعزيز (الملك فيصل بن عبدالعزيز ١٣٨٤ ـ ١٣٩٥هـ) . (المترجمان)

عليه قائلاً بأنه لا يوجد عربي يعرف أي طير ما عدا الدجاجة والحبارى ولا يهمني أي منهما، وهذه هي الطريقة المستحسنة للقيام بمفاوضات دقيقة في الجزيرة العربية .

الأول من ديسمبر كان النسيم العليل من الشمال ـ الغربي والشمس المشرقة ستجعل مقامي طيبًا لو أن خططي المستقبلية فقط قد سويت . انتهت وعكة مهدي، مع أنه مازال على حمية من حليب طازج ، ويظن أن هذا هو السبب الأكبر في شفائه لأنه عندما ادعيت أن الشفاء بسبب ما أعطيته من دواء قال لا إنه مرض مباشرةً بعد شربه .

طلب الأمير رؤية جلود الحيوانات المثبتة على لوح خشبي لتجف وكانت موضع استغراب الجنود الذين قالوا : إنها شبه حية وبلاشك أنهم نقلوا الأخبار وأثاروا فضول الأمير . المثير للدهشة بعض الشيء هو إهمال الرحالة لجمع الثدييات ـ حتى وإن كانوا علماء طبيعة ـ لأنها أكثر تعبًا من جمع الطيور . السبب في ذلك ليس فقط حتمية إضاعة عدة أيام في نصب المصائد /p.114/ في مكان معين مع فرصة جيدة بأن تأتي بنات آوى وتفرغ المصائد أو تجر الصيدة والمصيدة وكل شيء، ولكن لأن تجفيف جلود الثدييات أيضًا يستغرق أربعة أيام على الأقل قبل أن تستطيع نزعها من على اللوح الخشبي للتعبئة . وإذا لم تكن أمتعتك محدودة فيمكن التغلب على هذه الصعوبة بالحصول على صناديق خاصة ذات أرفف يمكن تثبيت الجلود الرطبة عليها وتعبأ في الحال . القياسات التي يجب أخذها للثدييات هي الرأس والجسم والأقدام الخلفية والأذن والذيل وكل هذا يستغرق وقتًا لتسجيله . من ناحية أخرى فإن الطيور لا تحتاج إلى استخراج مقياس المليمتر أو الأطوال ، إذ ترميها بسهولة وهي تطير من دون أي تأخير استثنائي ويمكن سلخها وتعبئتها في الحال ويمكن أن تثق بأنها ستجف وتكون في شكل جيد عند وصولها إنجلترا . لهذه الأسباب ففي أغلب الرحلات يمكن الجزم بأن ثدييات البلد غير معروفة جيداً مثل الطيور، وأن نسبة عالية من أنواع جديدة من الحيوانات يمكن الحصول عليها أكثر من الطيور .

تفحص الأمير كل عينة بعناية وسأل عما بداخلها، فأطلعته على أجسام القطن الاصطناعية وأوضحت بأن الجلود قد غسلت بالسم . شم العينات بحذر شديد ويبدو أنه كان مرتاحًا لعدم وجود رائحة ماعدا الكافور . يحيط الأمير نفسه دائمًا بالعطور وهي ليست من مادة الزهور، ولكن من عطر الأشجار ذات النكهة الأكثر روعة مثل البخور، وقد استغربت لمجازفته ولمسه للجلود . سألته عندما طُلبت القهوة ـ ربما بصراحة نوعًا ما ـ متى سيكون هناك فرصة لمواصلة السفر إلى الرياض؟ وكانت إجابته : «ألم يأتك محمد أفندي ويقابلك؟» فقلت : «نعم ، ولكنه لم يخبرني متى يمكن أن انطلق إلى الرياض» .

تركنا الأمر على هذه الحال لبعض الوقت، ويستحيل أن تتنبأ حول الأسباب وراء ذلك . يمكن أن تكون الصعوبة حقًا في جفاف العام الماضي، أو يمكن أن تكون الأسباب سياسية أو مرةً أخرى فمن الجائز جدًا أنه كان يريد كسب الوقت لتصل إليه التعليمات من السلطان . /p.115/

كان هناك شيء مثير جدًا اليوم في الشارع المقابل لنافذتي . كانت الناس تصرخ وتجري وتفرق الأولاد سائقي الحمير المبتهجين الممسكين بحميرهم شذرمذر في الشوارع الجانبية، وكان كل شخص يمد رقبته من النافذة أو من خارج الباب . تعجبت من سبب هذا الاهتياج فنظرت كذلك من النافذة مع أن رؤيتي كانت محجوبةً ببيت مجاور . بعد انتظار طويل كان خيالي خلاله قد تصور أن جريمة قتل قد حدثت على الأقل، هنالك جاء الصوت المعروف لمنبه سيارة فورد، ومرت بنا سيارة مسرعة مليئة بالعرب ويلحقها حشد مبتهج من الرجال والأولاد ويجرون خلفها مسرعات . حتى النساء والبنات شاركن في ذلك متناسيات ذوقهن المعتاد مسرعات في أثرها وأحجبتهن تتموج من خلفهن . مع أن هذه لم تكن السيارة

الأولى التي تقوم بالرحلة عبر الرمال إلا أنها مازالت غريبة لتسبب اهتياجًا، فمعظم السكان لم يروا حتى عربة يجرها حصان. مرت بالهفوف مؤخراً سيارتان أو ثلاث سيارات في طريقها إلى الرياض، وعند وصولها استطاع السلطان استخدامها على الطرق الحجرية الصلبة والسهول. وكان قد استلزم جر تلك السيارات عبر مسافة أربعين ميلاً من الرمل الناعم بين العقير والهفوف ومرةً أخرى عبر الدهناء[1] بين الهفوف والرياض، ويقال أن سيارة كبيرة من طراز كروسلي احتاجت لأربعين جملاً لجرها عبر هذا الحاجز الرملي.

(٢ ديسمبر) تغير الهواء في مساء الأمس من شمال غربي إلى جنوب غربي وتلبدت السماء بالغيوم بعد أن كانت صافية وأصبح الهواء دافئًا. توصلنا اليوم إلى مشهد آخر من المسرحية الصغيرة فكل مشهد يحتل يومًا ولأنها غير متصلة فقد أصبحت الحبكة طويلة ويصعب تتبعها وفهمها. عرّج علي ابن أخ لمحمد أفندي ليسأل عن سبب عدم زيارتي لمحمد أفندي في بيته، وهذه هي أول مرة أسمع أن له منزلاً حيث كان لدي تصور غامض بأنه يسكن مع الأمير. /p.116/ قلت له ألا شيء يسعدني أكثر من زيارته. اتفقنا على أن يكون الموعد بعد وجبة العشاء عندما يفتح هذا السيد المسن مجلسه للاستقبال، لأن واجباته الرسمية تستغرق وقته طوال اليوم تمامًا. قضيت بقية اليوم في استخراج خطوط العرض والطول من قراءات سبق أخذها. يبدو أنه كان لدى مساعدي اهتمام كبير بالزيارة، فجاءوا كلهم فرادى وعلى التوالي، وعرضوا خدماتهم بأن يدلوني الطريق، ولهذا فإنه لابد أن مؤسسة الأفندي لها سمعة جيدة بالقهوة الممتازة، لأنه لا يوجد عامل جذب واضح غير هذا. تركت اختيار الحراسة لمحمد حسن الذي اختار سعوداً وأحد الخدم ليحمل

(١) تكتب الدهناء على الخرائط بهذا الشكل (Dahana) ولكن حرف a في الوسط لا ينطق في الأحساء.

الفانوس أمامنا . بدأت أرتب لباسي بطريقة أكثر مهارة من السابق، ولكن لأن الطرق غير مستوية بسبب وقع حوافر الحمير المستديم فيها فعندما يلبس الشخص أحذية خفيفة فإنه يعرض نفسه للعثور في إحدى الحفر ويلتف كاحله، ولهذا فإن الفانوس كان إضافة جيدة . لقد كان منظراً رائعًا جداً المشي في الشوارع الهادئة وشبه المهجورة الآن . مر بنا الطريق عبر الإسطبل الخارجي حيث مضغ البرسيم بهدوء وعطسه عرضية من حصان تدل على أن كل شيء مطمئن هناك . كان الإسطبل تحت حراسة ستة رجال ولكننا لم نر إلا واحداً خرج من الظلام إلى ضوء فانوسنا وحدَّق بنا، وعندما تعرف على الجنود اختفى في الظلام .

يقع بيت الأفندي في الحي الشمالي الغربي من الكوت وكانت البيوت التي مررنا بها كبيرة كما يليق بمساكن الرسميين . الشوارع هنا مثل أي مكان في البلدة في حالة فوضى مستديمة ـ ونفس التذمر غالبًا ما يقال ضد السلطات في لندن ـ ولكن ترميم المنازل في الهفوف هو سبب الفوضى . كنا سعيدين مرة أخرى بنور الفانوس لنتجنب السقوط على أكوام التراب أو ركام الحجارة الملقاة في قارعة الطريق . قلت للجنود ضاحكًا بأن أهل بلدتهم يقضون وقتهم في جلب هذه الجبال الترابية ثم يرمونها في /p.117/ أحد الطرق ثم يأتي في اليوم التالي جيش من الحمير لنقلها إلى شارع آخر وبالنسبة للغريب فإن هذا يبدو ما هو حاصل بالفعل .

كان مضيفي جالسًا لوحده في صدر مجلس طويل بينما الجدران الثلاثة الأخرى مزدحمة بالأصدقاء الذين يأتون ويذهبون . من الواضح أنه لا يوجد أحد في المجلس بدرجة عالية تكفي لأن يجلس على نفس المستوى مع الأفندي وربما أنه جنَّد كل أتباعه الموجودين ليعطي التأثير المطلوب عند دخولي . جلس الجنود معهم وأعطيت شرف الجلوس بجانبه . كان هذا الرجل المسن ساحراً جداً فتحدثنا بمرح

حول الموصل ـ مكان مولده ـ ومواضيع زراعية خاصةً التمر . قال بأن تمر الأحساء مساو لأي تمر في العالم، ولكن أهل الأحساء لا يعرفون التصنيف والتعليب، وسأل الكثير حول طريقة عمل الطرق الإنجليزية ومحطات المياه . ربما أنه بقدوم السيارة تنبأ بمشكلة إصلاح الطرق قادمة على الأفق . قال كذلك إنه ليس نادراً أن نشعر بهزات أرضية في الأحساء . يمكن رؤية موقد القهوة في أقصى ممر مظلم ينيره لهب أحمر متقطع حيث يحوم حولنا مجموعة من الخدم بصف من دلال القهوة الكبيرة . جاء الشاي أولاً ثم القهوة المعمولة من القهوة البرية اليمنية .

كان من اللباقة ألاّ أذكر موضوع رحلتي بل أترك هذه الزيارة ينظر لها بوصفها زيارة ودية . لم تمكننا زحمة الناس من تبادل الأحاديث الخاصة، فاقترحت أن أزوره في الغد، ولكنه قال: إنه يفضل أن يأتي لزيارتي في الصباح التالي . أخرني عندما نهضت للمغادرة لاستكمل التشريفات الأخيرة بتمرير البخور . أحضر الخادم المبخرة الصغيرة للمضيف الذي أخرج كيساً من جيبه واختار قطعة صغيرة من العود ووضعها على الجمر الملتهب ثم نفخها إلى درجة التوهج . جذب الدخان بعد ذلك بيده إلى وجهه ـ شمًا واستنشاقًا ـ /p.118/ وأخيراً لفَّ المبخرة كاملةً بأطراف كوفيته حابسًا الدخان حول لحيته . مُررت المبخرة بعد ذلك على الجالسين الذين عملوا الشيء نفسه . تدار المبخرة مرتين أو ثلاث مرات ثم يسمح للضيوف بالمغادرة . ذكر الأفندي بأن البخور جلب من الحجاز . للقهوة نظام شرب احتفالي يتبع بدقة وهو يبين حق الضيوف في التصدر أمام الحاضرين . أصر محمد أفندي علي بأن آخذ الفنجان الأول مع أنني اتبعت الرسميات حيث أشرت لحامل الفنجان تجاهه . من ناحية أخرى فإن الشيخ عبدالله ـ الأمير ـ بوصفه ممثلاً للسلطان لا يخاطر بذلك فعندما زرته أعطاه الخادم الفنجان الأول وشرب قبلي . لو كنت هناك رسميًا ، بمعنى ، ممثلاً لحكومتي فإنه كان سيصر علي أن أشرب أولاً لأنني الضيف . على أية

حال فإن السلطان نفسه أو أولاده يأخذون الفنجان الأول إلا إذا كان الضيوف حكاماً من نفس المستوى .

(٣ ديسمبر) كانت السماء ملبدةً بالغيوم البيضاء، ووصل الأفندي مبكراً للقائنا الخاص . جاء محمد حسن خلفه مباشرة ودخل الغرفة وكأنه صديق للعائلة ، ومن الواضح أن حب الاستطلاع قد استولى عليه ليسمع ما نقول، وخاب أمله عندما قلت له : مرحبًا بك فيما بعد . حصلنا أخيراً على الخصوصية التي أريد وما أن استقرينا لنتكلم حتى نودي باسم عبدالله أفندي . لم يكن لدي أي فكرة عمّن يكون المنادي وبما أنني كنت مصمماً مهما كلف الأمر على قصر المقابلة بيننا نحن الاثنين فقد كنت ميالاً إلى جعل القادم الجديد ينتظر . من ناحية أخرى يبدو أن الرجل المسن كان تواقًا لقدومه ولهذا تساهلت ـ ولدهشتي ـ دخل د. عبدالله وهو صديق قديم قابلته سابقًا في مناسبات كثيرة في بغداد، ولكنني لم أتعرف عليه باسمه في الهفوف. كان موصليًا بالمولد وتعلم الطب في القسطنطينية، ولكنه الآن هجر الطب للسياسة ويعمل وزيراً للشئون الخارجية لدى السلطان[١] . /p.119/ كان ـ في الواقع ـ ماراً في طريقه من الرياض إلى الكويت ليمثل سيده في مؤتمر الكويت[٢] وأصبح طرفًا مرحبًا به في نقاشنا. أصبحت الهفوف موطنه الآن وقد تزوج ابنة محمد الأفندي ولكن ليس لديه متسع من الوقت للبقاء مع عائلته ماعدا زيارات خاطفة مثل هذه ، لأن مهماته بوصفه سفيراً جعلته كثير الأسفار . كان تواقًا لمعرفة الأخبار

(١) يبدو أن المقصود هنا هو الدكتور عبدالله الدملوجي الذي عمل مستشاراً للملك عبدالعزيز وأول وكيل للخارجية أنظر خير الدين الزركلي ، شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز ، ج٣ ص١٠١٢-١٠١٣ . (المترجمان)

(٢) هذا هو مؤتمر الكويت الذي عقد عام ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م بدعوة من العميد نوكس الوكيل البريطاني في الخليج العربي وحضرته وفود من نجد والحجاز والعراق وشرقي الأردن وكان الغرض من عقد ذلك المؤتمر هو تصفية ما بين مجتمعين من مشاكل حول الحدود والقبائل وقد انتهى المؤتمر بالفشل . الزركلي ، خير الدين ، شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز ، جا ، ص ص ٣٢٥-٣٢٦ .

العالمية حيث إن جرائده قد تأخرت ولكن بما أن جرائدي تأخرت أيضًا فلم نتمكن من تبادل أو مناقشة أمور لم تكن في ذلك الحين شائعة في الصحافة ، ولذا فقد كان إسهامنا قليلاً لتنوير بعضنا بعضًا . أحضر صندوق من السجائر المصرية المزينة بالذهب وشعرت بأن هذا بديل سيء لبخور محمداً من الليلة السابقة . بما أن محمداً لا يدخن فقد شعرت بالراحة في أن صاحب هذه الأعشاب الكريهة ليس فقط ممثلاً معتمداً للسلطان الوهابي بل ومن أقرب أقارب ضيفي .

كان عبدالله قد قرأ رسالة السير برسي كوكس إلى السلطان ومن الواضح أنه أبلغ التعليمات الرسمية للأمير فيما يتعلق بضيافتي ولاحظت تغيراً واضحًا في كل تعاملاتي مع الرسميين . أفضى إليّ الجنود فيما بعد أن خلاصة التعليمات هو أن أعامل باحترام بالغ . كان عبدالله ، الذي يتحدث بإيحاء من الرياض ، يعتقد أنه بعد بقائي هناك ما يقارب الشهر فلن يكون هناك مشكلة في الذهاب إلى العاصمة ، ولكن المنطقة في الوقت الحاضر تعاني من الجفاف . أرسل كل حيوان يمكن الاستغناء عنه الآن للرعي في الشمال على بعد مئات الأميال ومات العديد منها بسبب الجفاف في الجنوب . اقترح علي مرةً أخرى بأن أسلك طريق الكويت حتى ينزل المطر ، ولهذا سألت إذا كان السلطان يرى بأن رحلة يبرين ماتزال ممكنة لأن السير برسي كوكس كان قد أرسل جامعًا للعينات قضى عدة أسابيع في الكويت وما حولها . مع أن عبدالله قال بأن رحلة يبرين ممكنة إلا أن السيد المسن الذكي والذي كان يستمع بهدوء لم يوافق وقال إنه لابد أن يسأل الأمير . /p.120/ تلاشت رغبتي في الرياض بسرعة عندما بدت رحلة يبرين محتملة ولكن إذا أمكن ترتيب زيارة الاثنتين فهو الأفضل . أوضحت بأنني أحمل رسالة من السير برسي كوكس للسلطان وأنني مصمم على ألا أغادر حتى أسلمها بيدي . سأل عبدالله بسرعة إذا كانت تتضمن اتصالات رسمية وقلت لا إنها مجرد رسالة خاصة ولكنني لن أتكل

على أي مرسول لإيصالها. كانت هذه ملاذي الضعيف والوحيد فيما لو اقترح علي أن أنهي أنشطتي في الأحساء وأعود إلى الساحل. قال عبدالله إن السلطان قد أصيب بحمى في عينيه ووجهه ويعالجه طبيب أمريكي كان زائرًا للرياض من البعثة الأمريكية في البحرين. لم يكن المرض خطيرًا، وكان على وشك الشفاء عندما غادر عبدالله الرياض.

غادر الاثنان معًا ووعد عبدالله أنه سيعود ولكنه ذهب إلى الكويت في صباح الغد الباكر وكان بلاشك خائب الأمل لأنه لم يتمكن من إقناعي بمرافقته في الطريق. قضيت ذلك اليوم أحضر لصيد الخفافيش عندما تخرج من السقف في المساء. استخرجت شحنة الرصاص عيار ٤١٠ وأعدت ربع كمية البارود الأصلية مع الطلقة والحشوة. ثم قمت بقطع الطول الزائد من العلبة وقلبتها، لعلي أتمكن من رمي الخفافيش من مسافة عشرة أقدام من دون الإضرار بأجسامهن أثناء توقفهن للحظة أو طيرانهن من على الأعمدة الخشبية. لم تنجح هذه الطريقة، لأن قليلاً من البارود يقطعهن إربًا وإذا كانت كمية البارود غير كافية لتنظيف حشوة اللباد الوسطى من ماسورة البندقية - ومر هذا دون أن يلاحظ - فإن الطلقة التالية قد تسبب إنفجار ماسورة البندقية. ثبت قطعةً من ورقة بيضاء على رأس ماسورة البندقية عندما ازداد الظلام لتسهل علي التصويب وجلست والمصباح خلفي. استغرق هذا معظم الأمسيات وكان مسليًا مثل انتظار صيدة أكبر في الهند لأنني كنت متيقنًا بأن صيدتي ستكون جديدة مما سيعوض عن حجمها المتواضع. /p.121/

تجولنا خارج البلدة عند المغيب، ننتظر ظهور الخفافيش في مكان يمكن أن نرميها برصاص من عيار ١٢ ملم من دون إزعاج للمصلين. كان هناك خفاش شاحب وكبير نوعًا ما يميل للطيران المنخفض، وفي الحقيقة أنه كان الأصعب صيدًا، لأنه لم

يبدُ أبدًا تجاه سماء المغيب أو فوق الأفق وفي العتمة يجعل الشخص يضيع الكثير من الرصاص . بما أن هذه الخفافيش لم تأت من البلدة فإنه من شبه المؤكد أنها أتت من الجبال الواقعة على بعد ثلاثة أميال . اتضح أنها من فصيلة (*Asellia tridens*) مماثلة لخفاش قبور ملوك مصر . كانت الأصناف الأخرى صغيرة وكثيرة ويبدو أنها مماثلة لتلك الموجودة في سقف منزلي وهذا هو الخفاش الصغير (pipistrelle) والتي سميتها خفاش الإخوان الصغير (Ikhwan pipistrelle) .

كنت مشغولاً تمامًا يوم الخامس من ديسمبر في استخراج خطوط الطول . إن عدم توفر اللاسلكي كان عائقًا كبيراً لأن هذه القراءات تعتمد كليًا على الوقت وضبط الوقت عندي يعتمد كليًا على ساعة جيبي الكرونومترية . إذا استطعت أن تحصل على إشارة لاسلكية فيمكن أن تعرف بدقة معدل تقديم الساعة أو تأخيرها ويمكن أن تقدر اللحظة الدقيقة التي أخذت فيها القراءة . كانت الطريقة الوحيدة المتوفرة لدي هي معرفة كم ثانية أخرت ساعتي في كل يوم بعد مغادرتي لباخرة الهند البريطانية . وقد تلطف ضابط الملاحة بعمل ذلك ، وافترضت أن الساعة استمرت في تأخيرها بنفس المعدل طوال الأسابيع الثلاثة التي مرت بعد نزولي من تلك السفينة ، ولو تغير هذا المعدل واستمرت على الوقت الصحيح أو حتى تقدمت عن توقيت جرينتش العام فإن أي حسابات تعتمد على التأخير ستكون غير صحيحة . الضابط الوحيد هو معرفة فارق الوقت مع جرينتش عندما أعود مرة أخرى مغادراً للبلد ثم أستخرج المتوسط حسب عدد الأيام التي مرت وهي في حالتي هذه حوالي أربعة أشهر .

حالة شاذة يمكن أن توضح هذه المشكلة لو أنه بمغادرتي السفينة كانت ساعاتي صحيحة حسب توقيت جرينتش لمدة ثلاثة أيام متوالية مما يعني أنها لم تقدم أو

تؤخر. لكن عندما نزلت إلى البر أصبحت تؤخر ثانيتين يوميًا بسبب حرارة الجو، /p.122/- لنفترض ذلك - فإنه بعد مرور تسعين يومًا تصبح مائة وثمانين ثانية أو ثلاث دقائق تأخير. بهذا فإنه بنهاية الرحلة ستكون قراءة خط الطول التي أخذت بها ثلاث دقائق خطأ في الوقت. في رحلة العودة تبدأ الساعة تتقدم ثانيتين يوميًا وفي خلال ٩٠ يومًا بعودتي للسفينة مرة أخرى يصبح الوقت صحيحًا تمامًا فيمكن افتراض أنه طوال الرحلة كانت الساعة حسب توقيت جرينتش العام. بهذا تكون المشكلة كبرت ثم صححت نفسها بنفس الطريقة من دون أن تُلاحظ، بينما لو حصلنا على إشارة الوقت اللاسلكية بعد التسعين يومًا الأولى كانت ستوضح بأن الساعة متأخرة ثلاث دقائق عندما أخذت القراءة.

الفارق بين الوقت الدقيق في الموقع وتوقيت جرينتش في نفس اللحظة يعطيك خط الطول شرقًا أو غربًا حسبما هو قبل أو بعد جرينتش. لكن الوقت الدقيق بالثانية يمكن الحصول عليه فقط من زاوية الشمس أو النجوم والتي يجب قياسها بالمزواة أو آلة السدس في نفس اللحظة التي تأخذ فيها قراءة الوقت. نحصل على خط العرض بنفس الطريقة تقريبًا، وذلك بقراءة زاوية الشمس عندما تكون على دائرة خط الزوال أو ارتفاع النجم القطبي وتتحقق من موقعك بواسطة الحسابات الضرورية من علم المثلثات. قد يكون عدم أخذ القراءات ولا الحسابات التالية تبدو سهلةً جدًا وهي ليست سهلة كما تبدو. إن فرص إخراج كل الأجهزة خلال مسيرة صعبة جدًا قليلة ومتباعدة والاتجاه العام وموقع المعالم يمكن التحقق منه فقط عن طريق البوصلة الموشورية الأقل دقة والعملية كثيرًا. هذا يستلزم منا سلسلة من القراءات المتواصلة كل عشر دقائق تقريبًا طوال وقت المسير. من ناحية ثانية وجدت أنه بالإمكان أخذ القراءات بواسطة بوصلة موشورية من النوع الذي يستخدمه الجيش بدقة كافية من دون أن توقف الجمل، كما أنه بالإمكان كتابة الملاحظات

والأرقام أثناء السير في دفتر الملاحظات إلى حد أنها مقروءة . البوصلة التي يجب أخذها لسير الجمل هي تلك التي تطفو إبرتها في الزيت /p.123/ وليست حساسة مثل تلك التي معي لهزات وخب الحيوان الذي تحتك (الجمل) .

بعد أن تحصل على الاتجاه أو كم درجة يبعد عن الشمال خط سيرك يبقى معرفة كم ميلاً قطعت في ذلك الاتجاه؟ وهنا تأتي أهمية ساعة الكرونومتر مرة أخرى . بتدوين أوقات الانطلاق والتوقف وكذلك وقت بداية الوقفات القصيرة ونهايتها ، لنقل لتناول القهوة أو رمي طير ، فمن الممكن معرفة كم ساعة وكم دقيقة أمضيتها فعلاً في المسير . بتقدير عدد الأميال التي تقطعها في الساعة بأكثر الوسائل ـ التي تحت تصرفك ـ دقةً ثم تجمع المسافات المختلفة وإذا كان لديك متسع من الوقت للحصول على مواقعك فلكيًا كل عدة أيام فإنها يمكن أن تصحح الرحلة مع قليل من الأخطاء . تُعرف الارتفاعات فوق سطح البحر بأخذ قراءة البارومتر (مقياس الضغط الجوي) المعدني وللتحقق من ذلك يُغلى الماء في جهاز الهبسومتر (جهاز يقيس العلو بقياس درجة غليان الماء) وتسجل الدرجة التي يغلى الماء عندها .

قيل الكثير لتوضيح أن وقت الرحالة يكون مشغولاً جدًا إذا أراد إحضار معلومات ذات قيمة . بالإضافة إلى مشاغل الطريق العادية مثل رفع أحمال جمل سقطت وما إلى ذلك فيمكن إدراك أنه بعد الوصول إلى المخيم فإن وقتًا طويلاً يمضي قبل أن تجد فرصة لترتاح مهما كان اليوم متعبًا ، لأنه قد يكون هناك ساعة لسلخ الطيور والحيوانات يتبعها كتابة التصنيف وتدوين كل عينة في دفتر . يجب وضع الزواحف في محلول كحولي وتصنف كما توضع الأزهار في لباد من الورق النشاف . يجب كذلك مراجعة وتنقيح كتيب الميدان عندما تقتضي الخربشة التي كتبت على ظهر البعير ذلك . ثم دفتر اليوميات الذي إذا لم يدون يوميًا فمن الأفضل تركه كليةً ، لأنه ليس هناك شيء أكثر سهولة من خلط التواريخ إذا تأخر تدوين المادة لعدة أيام .

وصل اليوم مرسول من العقير يحمل أول بريد لي ومعه رسائل وثلاثة أعداد من (*Weekly Times*) /p.124/ اثنان منها بتاريخ ١٨ أكتوبر والآخر بتاريخ ٢٥ أكتوبر وبسبب عدم اهتمام الموظف حصلت على عددين فقط بعد كل هذا الانتظار الطويل. من أجل تنظيف ذهني من جيوب الزاوية وجيوب التمام والمشاكل المخثرة للمخ المتعلقة بالحسابات، أخذت بندقيتي وجلست على جدار مزرعة خارج البلدة ساعة الغروب . كادت المنطقة عند الشفق أن تكون مهجورة حيث دخل الناس إلى البلدة لأداء الصلاة . رأينا مجموعة من عشرين شخصًا قادمين عبر السهل شاقين طريقهم إلى إحدى البوابات . كان في المقدمة رجلان يرتديان ملابس جميلة وأخبرت بأن أحدهما كان فهد بن جلوي ابن الأمير[(١)] . كان مع الحاشية حوالي عشرين صقرًا من كلا النوعين الصقر والباز . كان في المؤخرة خادم ومعه مجموعة من كلاب السلوقي تتراوح ما بين كلاب كبيرة وجراء . لكل الكلاب السلوقية هذه شعر ناعم ولهذا فهي قريبة الشبه بالكلب السلوقي الإنجليزي أكثر من الكلب السلوقي العراقي . اللون السائد بين مجموعة ابن جلوي هو الرمادي المسود ويكاد يكون رمليًا مع أن واحدًا منها كان أسود وأبيض . ذكر لي شيخ البحرين بأن الكلاب السلوقية ذات الألوان الباهتة تتحمل حرارة الصيف أكثر من السوداء.

كانت نصف ساعة جميلة أعقبت غروب الشمس حيث رنين أجراس الحمير المتأخرة عندما يستحثها راكبوها للبوابات . يتغير لون السماء من أحمر إلى أخضر-بحري وترسم صورة مظللة للبلدة ذات اللون الرمادي-الأبيض مكسوةً بجدران سورها البالغ ارتفاعه خمسة وعشرين قدمًا والمبني من الطين والحجارة وبحصونه ذوات الأبراج بين كل مرحلة وأخرى . كانت المنارة وقبة المسجد بارزتين فوق كل

(١) هو فهد بن عبدالله بن جلوي توفي سنة ١٣٤٧هـ . انظر محمد بن عبدالله بن عبدالقادر الأحسائي ، تحفه المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد . الطبعة الثانية ، الرياض : مكتبة المعارف ١٤٠٢هـ، ص ٢٣٠. (المترجمان)

شيء . عن بعد كان هناك بلبل يغني يشبه العندليب كثيراً فيغني ويتوقف بنفس الطريقة تقريبًا ولكنه يفتقر إلى تشكيلة النغمات الموسيقية الجميلة . يُسمع بعد ذلك اللحن البري لراعي قطيع إبل الأمير حيث يغني لماشية غير متجاوبة معه، وهو يسوقها من مرعاها اليومي في منطقة شجيرات جرداء جدًا على بعد حوالي ثمانية أميال جنوبًا . يشبه صوته كثيراً صياح الصياد ، ويختلف بانبعاث فاصلتين موسيقيتين قصيرتين من أغنية بلا كلمات دائمًا بنفس الصوت ، ولا يتعب منها أبداً ولها إيقاع ملازم خاص بها . يقترب الصوت شيئًا فشيئًا وأخيراً ينعطف حول سور مزرعة ممتطيًا جملاً /p.125/ أسود مجعد الشعر وتدفق وراءه سبعون إلى ثمانين بهيمة جميلة من قطيع الأمير ما بين كبيرة وصغيرة وبالطبع كلها ذات سنام واحد فقط . الجمل المشوه الخلقة ذو السنامين غير معروف هنا وهو بالتأكيد لن يسمى جملاً . يُظهر الحيوان البختياري ذو السنامين في كتب الأطفال للأسف على أنه هو الجمل . ولا أدري على أي أساس بُني هذا بينما مفخرة الجزيرة العربية وأفريقيا وفيالق الجمال الأصيلة كلها ذات سنام واحد . توقف بعض القطيع بفضول ليشم ويمد أنوفه تجاه أكوام التبن التي ظن أنها غير محروسة حول مكان درس الأرز في السهل الخارجي . لكن المالك ظهر من الكشك الصغير فأسرعت الإبل بمشية متثاقلة لتلحق ببقية القطيع بينما كانت صغارها تستعرض بقفز الوعل أو أفضل ما يستطيع الجمل أن يؤدي . رفرف بعد ذلك طائرا سنونو فوق سور البلدة ليلتقطا الذبابة الأخيرة بعد المغيب وجاءت الخفافيش بعدها .

كان الأوائل من بنات آوى تنحب كالأشباح في مزرعة بعيدة وأصوات مائة رجل تردد الأذان من أعالي البيوت . وصلت إلينا هذه الأصوات وقد مزجها البعد في انفجار حقيقي لصوت واحد . يخفف بعض من أهل الهفوف من وتيرة الأذان بتنغيم وترخيم بعض كلماته وهذا يظهر ميلاً إلى الطقوسية كما يظهر تسامح

الحكومة الحالية في الأمور الدينية . وقت الأذان الذي حدده الرسول ﷺ هو عندما لا يميز الخيط الأسود من الخيط الأبيض[١] وهذا عادة هو إشارة لي بأن علي أن أخرج الرصاص من البندقية وأعود إلى المنزل .

غادر البلدة عندما اقتربنا من البوابات خفاش وهو أكبر ما رأيت في حياتي (باستثناء خفافيش الهند آكلة الفاكهة) وطار بتخبط ببطء إلى المزارع . ذهبت من حيث عبر وانتظرت مرور غيره ولكن لم يظهر شيء حتى أصبح من الصعب الرؤية لشدة الظلام فمشيت باتجاه المنزل عازمًا على انتظارها في مساء آخر . /p/126/

كنا ننتظر في نفس المكان والساعة في اليوم التالي وكنا متأكدين بأنه لو عبر من نفس المكان فسيكون ضوء الأصيل خلفه . جاء في اللحظة ذاتها ومن نفس الخط شكل شبحي غريب بدا كصيدة سهلة فأسرع مهدي مع الجنود إلى المكان ولكنني سبقتهم إليه . لقد كان غريبًا جدًا كما تصورته في ذهني بأذنين طويلتين شفافتين وجناحين وفرو رمادي شاحب وفي الحقيقة إنه شكل مرعب . أثبت هذا الخفاش أنه نوع جديد من جنس نادر جدًا يسمى خفاش (*Otonycteris*) ويوجد منه في المتحف البريطاني ستة جلود فقط وسعدت جدًا بقنص هذا المساء وعدت إلى المنزل .

كان صباح يوم ٧ ديسمبر غائمًا مع بقع زرقاء في السماء وكانت السحب تتحرك ببطء شديد جدًا مصحوبة برياح جنوبية خفيفة ، ويبدو أن السحب تصاحب دائمًا الرياح الجنوبية وظهر قوس قزح قبالة السحب الشمالية . بتعطش للمزيد من الخفافيش الكبيرة ، اتخذنا في المساء موقعًا لمراقبة الجهة المقابلة أو الركن الشمالي - الغربي من البلدة . بدا وكأننا لن نجد شيئًا وأخرجت الرصاص من البندقية وعندئذ مر من فوقنا واحد يطير بترو مثل سابقه واتجه إلى المزارع .

---

(١) يظهر هنا اللبس الواضح الذي وقع فيه الكاتب مع وقت الإمساك في رمضان . (المترجمان)

كان يوم ٨ ديسمبر يومًا ساكنًا بلا رياح ولا سحب ، ومر فوق طرف البلدة البعيد سربان كبيران من طيور الزرزور وكان صيدها سيكون أكثر إمتاعًا لو أنها فقط مرت في نفس المكان والزمان لعدة أيام ولكنها كانت هذه المرة الأولى والأخيرة لظهور طيور الزرزور في الواحة . طيور هذه المنطقة رائعة في الواقع ويصعب القول إيهما أكثر مفاجأة : غياب طيور الشتاء المهاجرة أو المحلية .

جاء محمد حسن بعد الإفطار مباشرة ليسأل عما إذا كنت أريد مقابلة الشيخ عبدالله . أجبته بأنني سأكون سعيدًا بذلك ، لأن سؤالاً من هذا النوع لابد وأنه كان بإيحاء . ذهب وعاد ليقول إنه سيستقبلني حالاً ، وهذا يعني بأن علي أن أسرع في إرتداء ملابسي العربية . /p.127/ أخذنا معنا لوحًا مثبتًا عليه ثلاثة أنواع من الخفافيش لتجف . كان الشيخ عبدالله في وسط مجلسه الصباحي وكان محمد الأفندي ـ الذي نهض ليفسح لي ـ جالسًا إلى يساره . لم يكن المكان مزدحمًا وكانت هناك قضية مستمرة أثناء مقابلتي وأحيانًا كان شاهد يتقدم ويعطي بعض الإثباتات ولكنني لم أستطع معرفة ما يقال . بدا أن الشيخ أكثر ميلاً للكلام منه في المرات السابقة ، ولذلك فقد جلست وقتًا أطول من المرات السابقة حتى أديرت القهوة مرة أخرى . نظر بتركيز إلى الخفافيش وسأل عما إذا كانت كلها رميت وهي تطير وبما أن ذلك فن لا يعرفه العرب[١] فيبدو أنه يؤثر فيهم أكثر من أي شيء آخر . لأنه لم يفتح موضوع مغادرتي فلم أقل شيئًا كذلك ، مع أنني عندما قرأت يومياتي فيما بعد ظننت أنه كان من المناسب ذكرها . مع ذلك فإن تأجيل المفاوضات حتى في أكثر مراحلها حرجًا يمكن أن يغتفر أو يثير الاحترام بينما سيعتبر هنا عملاً قليل الكياسة ما يسميه الأمريكان النشاط المكثف (Hustle) . أستطيع تحمل كوني مهذبًا جدًا مادام هناك المزيد مما يمكن الحصول عليه من عينات الخفاش المرعب .

(١) ملاحظة المؤلف هنا غير دقيقة فالعرب ماهرين في الرمي وخاصة في الصيد . (المترجمان)

تلقت قطط الهفوف درسًا في الهندسة الميكانيكية خلال هذا الأسبوع . كانت القطط مصدر إزعاج كبير منذ البداية حيث تتشاجر وتتقاتل في ساحة المنزل وأخيرًا غزت غرفتي بحثًا عن عينات الخفاش والطيور التي تشمها . لدى قطط الشرق الأليفة حاسة شم قوية جدًا أكثر من مثيلاتها في الغرب . بلغ السيل الزبى عندما قفزت إحداهن علي وأنا نائم الليلة البارحة . طلبت من مهدي أن يحضر لي واحدة من أصغر المصائد قاصمة ظهر الفئران ، ولم أكن راغبًا في إيذاء قطة جيراني ، وزودتها بطعم من اللحم وربطتها بحبل طويل في طرف الشرفة . سمعت بعد أن أطفأت المصباح بقليل فرقعة حادة للمصيدة وانسحاب سريع للهرة الخائفة . وبسهولة مرت ببابي مسرعة ولابد أنها قفزت الجدار عبر الشارع الضيق /p.128/ إلى المنزل المقابل أو سقطت إلى الأسفل في الطريق . أعدت تركيب المصيدة وبعد ربع ساعة كان هناك فرار جماعي وكان الحال كذلك في الليلة التالية . كانت المصيدة قوية بما يكفي لإعطاء القطط ضربة خفيفة وحادة على أعلى الأنف عندما تمسك باللحمة . كان لهذه المفاجأة أثر باق حتى أنني كنت أستطيع ترك العينات ولم تأت أي قطة قرب المنزل لتعبث بها .

قضيت بعض الوقت في كتابة رسائل إلى بريطانيا وكان بريدي يرسل ويصلني عن طريق موظفي الأمير . وكان يرسل ويصلني بدون أي تأخير ، ولكن يحصل بعض الاختلاط في المظاريف المعنونة بالإنجليزية حيث كان بالرياض طبيب أمريكي . وبما أنه لا يوجد من يقرأ المظاريف فأنا أحصل على كلا البريدين ولابد أن أقوم بفرزها . لا يوجد في الهفوف إلا القليل جدًا من الناس الذين يستطيعون القراءة بالعربية وكنت أستطيع فقط قراءة ما يكفي بالعربية لتجنب فتح رسائل السلطان التي تصلني أحيانًا عن طريق الخطأ . لم يظهر الخفاش المرعب ذلك المساء مع أننا انتظرنا حتى صارت الدنيا مظلمة جدًا بحيث لو ظهر فلن نراه .

الصيف هنا حار في الأحساء طبقًا لوصف محمد أفندي ولكنه معتدل مقارنة مع بعض المناطق المجاورة وليس هناك ضربات شمس ويفترض في الصيف أن البعوض كثير في المزارع .

غطت البلدة يوم ٩ ديسمبر سحابة من الضباب عند طلوع الشمس، وتدنى مدى الرؤية إلى ٣٠٠ ياردة . فرقت الشمس التي تشرق في السابعة إلا ربعًا وتغيب في الخامسة الضباب بسرعة . عُوضنا عن فشلنا بالأمس بأن تمكنا من الحصول على خفاشين مرعبين ، وقد جاءا في نفس الوقت تمامًا كما حصل قبل ليلتين وسلكا نفس الطريق . لابد أن هذه الخفافيش نادرة ، لأن هذه هي الرؤية الثالثة لها طوال مراقبتنا الدقيقة .

في الصباح الباكر يوم ١٠ ديسمبر كان هناك ست بطات تطير بعيدًا جدًا حول المزارع بحيث لم أتمكن من معرفة نوعها ولكنها تبدو وكأنها بط الشولر . /p.129/ كانت هذه هي المرة الأولى والوحيدة التي شوهد فيها بط بري في الواحة أو في ـ في الواقع ـ الداخل . كان هذا حدث جدير بالاهتمام أكثر مما يبدو خاصة وأن هناك الكثير من البحيرات الضحلة وأدغال من القصب والتي ستكون مأهولة بالطيور البرية في أي مكان آخر .

ظننت أن من المستحسن أن أتقدم خطوة إلى الأمام فيما يتعلق بخططي المستقبلية ولهذا اقترحت على جنود ي أن أقوم بزيارة لمحمد أفندي بقصد سماع ما حدث بعد أن تركني ليسأل عن إمكانية سفري إلى يبرين . أعلن بعد وقت قصير عن حضور محمد أفندي ومن المؤكد أنه جاء مسرعًا من عند الأمير . تمالكت نفسي بما يكفي من الوقت لتبادل العبارات الترحيبية ولأعطيه كذلك وقتًا ليلتقط أنفاسه بعد صعود الدرج ثم سألته عما قاله الشيخ عبدالله فأجاب بإيجاز مماثل بأنه لا مانع من

ذلك . هذه في الحقيقة أخبار سعيدة ولكن لا يمكن اعتبارها يقينية . لايزال هناك الكثير من الاحتمالات للتعديل أو حتى للإلغاء مع أن كلمة «نعم» من الشيخ عبدالله تعني أكثر مما تعنيه من معظم الرجال . خشيت أنها ربما تتبع بشروط فأسرعت لأسأله ـ محمد أفندي ـ عما إذا كان قد زار يبرين ولكنه لم يزرها ولاستغرابي فقد كانت معرفته بالمكان قليلة رغم أنه موظف حكومي . يبدو أن السلطات تعتمد تمامًا على وصف رجال القبائل للمكان .

أخبرني أن الطريق إلى يبرين شبه مهجور زمنًا طويلاً ومحاط بمخاطر أكثر من طرق العقير أو الرياض أو الكويت . تأتي قبيلة آل مرة (واحدهم يسمى مري) إلى الواحة فقط لتصرم التمر في موسم الثمرة وتغادر مرةً أخرى خوفًا ـ كما قال ـ من الحمى المنتشرة بين الأشجار . هذه البلدة الخربة تسكنها «الجن» الأرواح التي يسمع عويلها حول الجدران وتظهر أمام أي شخص مريض أو ضعيف ولم يسكن المكان منذ مدة تقدر بستمائة عام[١] . يفترض أن العيون نقية وحلوة وأن الماء يفيض منهن /p.130/ على سطح الأرض مما يجعل رافعات الماء غير ضرورية للري (سنرى من وصفي للمكان بأن الآبار لا تفيض حيث لا يوجد أثر لوجود قنوات للماء توحي بأنها كانت كذلك) .

سألني عما إذا كان لدي كتب تصف يبرين فقلت بالتأكيد لا إذ لا يُعرف شيء حول هذا المكان . يبدو أنه ليس هناك أي إمكانية لمعرفة الكثير عن المكان قبل أن أبدأ رحلتي نظراً لأن الحكومة كانت راضية بالإشاعات وحكايات الجن حوله . لما كان تنظيم الحملة أمر يصعب عليهم فيما يبدو ، فقد اقترحت أن أستأجر إبلاً وأقوم بالترتيبات اللازمة إذا قام الشيخ عبدالله بالإشراف على الأمر وأوصى بدليل . رد

---

(١) كانت يبرين مأهولة منذ فترة قديمة فقد كان يسكنها بنو سعد بن زيد مناة من قبيلة تميم . انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، جـ٤ ، ص١٨٦٩ ـ ١٨٨٠ . (المترجمان)

على هذا بالرفض القاطع قائلاً : لا وأن الشيخ عبدالله لن يقبل به . غادر بعد ذلك بعد أن وعد بأنه عندما توشك الترتيبات على الانتهاء فسيشعرني قبل يومين أو ثلاثة لكي أجهز نفسي .

باءت محاولاتي لمعرفة المزيد حول يبرين الغامضة بالفشل . كان أبو سعود ـ أحد الجنود ـ قد زار المكان ولكن فكرته غامضة جداً حول ما شاهده هناك . مر بهذا المكان منذ سنوات في جماعة من الجند أرسلها الشيخ عبدالله ربما لتأديب وإيقاف هجمات القبائل العمانية ، لأن هذه الجماعة دخلت في مناطقهم ولكن الرجال متكتمون دائمًا حول أي من هذه الحملات السياسية ولم أرغب في إظهار اهتمام غير ضروري بها .

١١ ديسمبر كانت شبكة الفراش أفضل حماية فعالة ضد ذباب المنزل وتُفرغ الغرفة لبعض الوقت بمذبحة أحيانًا وإلا كانت إزعاجًا كبيراً . قضيت معظم هذا اليوم مع جهاز المزواة وقد تجدد اهتمامي به الآن لأن هناك إمكانية كبيرة لاستخدامه في يبرين ومن الأهمية بمكان أن يكون كل شيء في حالة ممتازة عندما نبدأ رحلتنا . هذا مع أن الصندوق الذي شُحن فيه نال نصيبًا وافراً من الصدمات القوية والسقطات مما سيجعل صانع هذه الآلة يصاب بنوبة قلبية لو أنه فقط رآهن وسمعهن . /p.131/ جهاز المزواة عيار ٣ بوصة ليس سهل القراءة بدقة مثل جهاز المزواة عيار ٦ بوصة . تمكنت من إصلاح جهازي ببعض التعديلات البسيطة ولكن خشيت أن ينطوي ذلك على مغامرة كبيرة مخافة أن يقع الأسوأ .

أخذت قراءات لخط العرض عندما كانت الشمس على خط الزوال ووجدت صعوبة في الحصول على المستويات الصحيحة ، لأنه في لحظة القراءة كانت (المستويات) عمومًا خارج نقطة الدائرة ولابد من أخذ القراءة مرة أخرى . يُرى نجم

العيوق في المساء في الشرق ونجم ذنب الدجاجة في الغرب ، كما يمكن رؤية النجم القطبي. الفارق بين خطوط الطول من نجم العيوق إلى نجم ذنب الدجاجة مجرد ست ثوان، ولكن مازالت لدينا ساعة الكرونومتر لنتأكد من ذلك ـ والتي ربما أنها كانت تحفظ الوقت كاملاً ـ ولكن لا نستطيع أن نعرف ذلك حتى نصل مرة أخرى إلى جهاز لاسلكي .

مدى تعبئة ساعات الجيب هذه محدود بـ ٢٤ ساعة فقط ومن المؤكد أن مدى تعبئتها لابد أن يكون ٤٨ ساعة على الأقل ، فمثلاً إذا لم تتمكن من تعبئة ساعتك في ليلة ما أو أصابتك حمى أو حتى نسيت في إحدى المرات فستقف ساعتك في صباح الغد والنتائج ستكون خطيرة بالنسبة لعملك . تغلبت على هذه الصعوبة جزئيًا بتعبئة الساعة مرتين في اليوم وفي إحدى المرات التي نسيت تعبئتها في الليل وجدتها في الصباح مازالت مستمرة وبهذا أنقذ الموقف .

رأيت خمسة من الخفافيش المرعبة فقط واصطدتها جميعًا ومن الغرابة أنني وجدتها كلها من الذكور . قلت لمحمد حسن بأن التفسير الوحيد لهذا هو أن هذه لابد أن تكون جنود الخفافيش . قال لي في اليوم التالي بأنه ذكر ذلك للشيخ عبدالله الذي أعجب كثيراً بالفكرة وهز رأسه إلى الخلف مقهقهاً بالضحك. كانت هذه سمة في شخصية ابن جلوي لم أعرفها من قبل، ولم أعلم بأنه قادر على مثل هذا المرح . /p.132/

الفصل الحادي عشر :

الحياة في الهفوف (يتبع)

[١٣ ديسمبر] كان الجنود المرافقون لي دائمًا على أتم الاستعداد وغير متذمرين ومكافأةً لهم على ذلك أبديت رغبتي لمشاهدة سوق الخميس ، من نافذة مكتب القصيبي مرة أخرى ، وقد تلقوا الخبر بفرح عارم . ماكدنا نجلس هناك حتى انضم إلينا تاجر عربي شاب حسن الملبس جلس بجانبي ، وقال كلامًا ظنًا منه أنني مجرد عربي آخر . كشفت إجابتي عن هويتي في الحال فألقى نظرة لا إرادية على قدمي ليتعرف على جنسيتي . أظن أنهم يستطيعون أن يعرفوا عن طريق اللون : فالأوروبي تكون أرجله بيضاء جداً أو إذا كانت مغطاة بالحذاء فسيتعرفون عن طريق الطراز . على أية حال فإن أحذيتي لن تساعد كثيراً على ذلك حيث كنت مرتديًا حذاءً فارسيًا من نوع قفه (*ghiveh*) مصنوعة من قطن أبيض منسوج بإحكام . سأل بعد ذلك عما إذا كنت طبيبًا لأن أغلب الأوروبيين الذين مروا بالأحساء مؤخرًا كانوا أطباء فقلت : لا ، أنا أفهم فقط كيف أطبب نفسي . ثم أدار محمد حسن المحادثة معتقداً أننا بحاجة إلى بعض التوضيح ووصفني بـ «صاحب القنوص» . وكان هذا لقب احترافي عظيم حيث لم يسمع به أحد[١] من قبل ، ومن المؤكد أنه مرض وبالأخص أنني أُشاهد دائمًا حاملاً بندقيتي . كثيراً ما سمعت محمد عندما يقابل مجموعة من الأصدقاء

(١) يبدو أن المؤلف جانب الصواب وإلا كيف يطلق عليه لقب من أناس لم يسمعوا به من قبل !!(المترجمان)

يُمطر بأسئلة على شكل همسات مسموعة . «هل هو طبيب؟» «لا» «هل هو موظف سياسي؟» «لا إنه صاحب القنوص» وهذا يرضي فضولهم تمامًا .

جاء عبدالله القصيبي [١]، شريكًا في الشركة فيما بعد ، /p.133/ للترحيب بي وكنت قد قابلته مؤخراً في فندق الكارلتون بلندن سنة ١٩١٩م عندما كان في إنجلترا مع البعثة النجدية بقيادة ـ الابن الصغير للسلطان ـ فيصل بن سعود [٢] . نسينا بعضنا بعد ذلك ، ومن المستبعد أنه يتذكر ملامح رجل غير معروف قابله في أوروبا حتى بدون لحيتي وملابسي العربية . عندما تذكر الاجتماع السابق أرسل إلى بيته في طلب صندوق من الكنوز يحتوي على محفظة طرود جلدية مليئة بالصور الشخصية والبطاقات البريدية والجرائد المزينة بصور البعثة النجدية في إنجلترا . كان يريد أن يخرج قوائم الطعام في فندق كارلتون الموقعة من قبل الضيوف في الحفلات المختلفة . لم أتذكر أنني وقعت على شيء من ذلك ولكنه نقب بين الأوراق ليطلعني على قوائم الطعام واحدة تلو الأخرى حتى وصل تقريبًا إلى الأسفل فاستخرج واحدة تحمل توقيعي . كان سروره لا حدود له وكما قال فنحن أصدقاء منذ خمسة أعوام وسمعت أنه ذهب في اليوم التالي إلى الأمير ليخبره بذلك وقد زادت أهميتي بسببه .

ازدادت في الواقع أهميتي ومحتمًا لها أن تكون كذلك لأن هذا الوفد قُوبل من كبار المسئولين في لندن . كانت مجموعته الفنية خليط مضحك من البطاقات

(١) هو عبدالله بن حسن بن عبدالله القصيبي ينتمي لعائلة تجارية مشهورة مارست تجارتها بين الأحساء والبحرين والهند . كما كان ممثلاً ووكيلاً تجاريًا للملك عبدالعزيز في البحرين . انظر :
Michael Feild, The merchants:The big business Families of Arabia, London : John Murray, 1984, pp. 217-239.

(٢) المقصود هنا الأمير فيصل بن عبدالعزيز وكان ملك انجلترا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨م قد وجه الدعوة للملك عبدالعزيز فأناب ابنه الأمير فيصل ليمثله ويرأس البعثة السياسية التي ذهبت إلى إنجلترا . انظر : أمين سعيد ، فيصل العظيم ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٣٨٥هـ ص ٢١ .

البريدية لبلدان ومناجم فحم، وبعض بطاقات ملونة وغريبة لنساء بملابس غير محتشمة ، ولحسن الحظ أنها طبعت كلها في بروكسل ، وقد أعطيت له خلال جولة على ميادين المعارك في القارة . احمر وجهي خجلاً عندما مُرِّرت الصور على هذا التجمع ولكنني استعدت هدوئي عندما رأيت البطاقات تفحص مقلوبة من الجوانب والإعجاب بها كمناظر طبيعية .

وصل خلال النهار بريد آخر وبه مجلة (*Ibis*) والمجلة الجغرافية الملكية ونموذج من مكتب الحرب يطلب تاريخ ميلادي . لبعدي عن إنجيل العائلة وكون ذهني مشتتًا بأشياء أخرى كثيرة ، فلم أتأكد من الأمر وكان علي أن أجيب بأنني لا أعرفه .

[١٤ ديسمبر] أخذت البارحة قراءة لنجم العيوق ونجم ذنب الدجاجة مرة أخرى/p.134/ واستخرجت اليوم خط الطول وكان بنتائج أفضل حيث كان الفارق بينهما كان مجرد جزء من الثانية . لم يكن هذا مرضيًا فقط، لأنني أخيرًا حددت موقع الهفوف بل لأنه وضح أن جهاز المزواة جاهز لرحلة يبرين . تجمعت سحب ممطرة وأفسدت علي فرصة لأخذ ارتفاع الشمس فوق دائرة خط الزوال مع أن كل الأدوات كانت جاهزة في الخارج . تلا ذلك سقوط زختين خفيفتين من المطر لم تكف لتهدئة الغبار وبعد مغيب الشمس كان يلوح في الأفق برق كثير باتجاه الشمال والشمال الشرقي . سيكون هذا المطر على الساحل باتجاه الخليج العربي قرب القطيف ويبدو أن الأمطار تنزل على تلك المنطقة ولكنها تتجنب الهفوف .

رأيت بعض شجيرات قطن في إحدى المزارع (ستجد لها وصفًا تفصيليًا في ملحق رقم ٦) ولكن لم نلاحظ أي محاولة لزراعته بطريقة منظمة فكانت مجرد بضع شجيرات في صفوف غير منتظمة . يستورد القطن بكميات كبيرة للهفوف عن طريق البحرين لأن المحصول المحلي لا يعتد به . يقال: إن أفضل نوعية تأتي من فارس عن طريق المحمرة وأحضرت من السوق نماذج لقطن أبيض جدًا من مادة

ناعمة . تأتي النوعية الثانية من كراتشي وهذا النموذج أسوأ ما رأيت في حياتي ويبدو أنها حثالة الحقول ، تُجمع بعد سقوط المطر ، وأظن أنها لا تساوى شيئًا في أي مكان آخر . كلا هذين النوعين يستخدم لحشو الوسائد .

[١٥ ديسمبر] فاتني اليوم رصد الشمس على خط الزوال بسبب خطأ في حساب معادلة الوقت . أخذت أول رصد لها في وقت متأخر قليلاً وأظن أن الشمس قد بدأت في الانحدار مرةً أخرى . هذا النوع من العمل مليء بالمصائب وأقل خطأ يجعل العملية بكاملها عديمة الفائدة .

بدأت أمد تجوالي إلى خارج منطقة المزارع، ووصلت اليوم إلى سهل من الحجر الرملي على الطريق إلى المبرز . كان هناك حفرة تمثل بركة من مياه التصريف من المزارع ـ التي تسقى من عين أخرى ـ ويغطي الماء مساحة حوالي عشرة فدادين . يبدو أن هناك إهداراً كبيراً لمياه الري، وهذا هو الواقع عادة في هذا الوقت من العام . /p.135/ يجب أن نتذكر أنه في فصل الصيف يحتاج إلى المزيد من الماء ليس بسبب التمر والبرسيم فقط بل إن أراضي الأرز تستهلك كميات كبيرة منه، ومن الممكن استغلال كل قطرة من الماء، وأي اقتراح لزيادة الفلاحة لا يأخذ هذا في الحسبان فسيحكم عليه بالفشل . يوجد بهذا السهل محجر وبه رجال يقلعون كتلاً مربعةً من الحجر الأبيض للبناء . مر ت بنا أسراب من القنابر ذوات الأصابع القصيرة لتشرب من جانب البحيرة ثم عادت وقد سمعت صوت قنبرة ذات عرف ومع أني بحثت عنها في تلك المناطق الرملية التي جاء منها الصوت فلم أرها .

[١٦ ديسمبر] زرنا عين الخدود والمزارع الواقعة شرق الهفوف التي يفصلها عن بوابة العقير سهل رملي بطول ميل إلى ميل ونصف . توجد عين صغيرة تسمى أم الجمال[١] قرب المدخل إلى المزارع تقع قرب الطريق ومثلها مثل بقية العيون تتدفق

(١) الصحيح أنها تسمى عين أم جمل وتقع في الجهة الجنوبية الشرقية من الهفوف ، حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، القسم الثالث ص ١٢١٢ . (المترجمان)

في بركة عميقة . تمكنت بعد إمعان النظر في هذه البركة من رؤية سمك كامل لأول مرة بطول حوالي ثلاث بوصات . كما لاحظت أن كل هذا الذي عانيت حتى الآن لصيده وحفظه كان مجرد أسماك صغيرة قليلة الفائدة . بقيت الأسماك الكبيرة في الأسفل وكان بالبركة كذلك العديد من قطعان الأسماك الصغيرة . بينما كان من الواضح أنه لابد من صيد الأسماك الكبير ة بطريقة ما فقد بدا جليًا كذلك بأن الأسماك الصغيرة ستكون مشكلتي الكبرى . إن أي محاولة لصيد الأسماك الكبيرة بسنارة صغيرة وخيط سيؤدي إلى الإمساك بلا شيء باستثناء الكثير من صغار السمك . رمى أحد الرجال تمرة في الماء وطوقت في الحال بمئات من الأسماك الصغيرة تجر وتشد في كافة الاتجاهات . وسرعان ما فُتِّتَتْ وبصعوبة حصل كبار السمك على لقمة منها . توجد عين الخدود قريبًا جداً إلى يمين هذه العين، وهي أكبر منها بكثير وربما أنها أكبر عين في الأحساء . تأتي مدومةً من صدع رملي - جيري كبير يكفي لغطس حصان بعربته واختفائه عن الأنظار من دون أن يلمس الجانبين . غطس رجل كان يستحم في الماء الدافيء وهبط إلى منتصف الصدع وأخرج حجراً وكانت كل /p.136/ هذه العملية مرئية بوضوح في الماء الصافي . جلس بعد ذلك على الطرف مدليًا رجليه في الماء ليأتي حشد من الأسماك الصغيرة ويقضمها . يخرج ماء العين من البركة عن طريق منفذ واحد ويحمل الفائض نهر عرضه حوالي ثلاثين قدمًا ذو تيار سريع .

اقترح محمد حسن أن نواصل الجولة إلى مزرعة كبيرة تملكها عائلة القصيبي، قال : إنها تبعد عنا عشر دقائق فقط سيراً على الأقدام . بدأ بعد نصف ساعة من المشي الحثيث يسأل المارة وكل يقول إنها تبعد عنا بحوالي عشر دقائق . أخيراً وصلنا إلى أبواب المزرعة بعد أن قطعنا أربعة أميال من المشي على الأقدام وكنا سعداء بالاستراحة في بيت مزرعة شيد مؤخراً على الطراز المعماري الحديث . لم يكن هذا

البيت مستخدمًا سكنًا ولكنه ذو طابقين يحتوي الأعلى منهما على غرف لنوم العائلة ليلة أو ليلتين أحيانًا ليهربوا من مشاغل العمل في المكتب . كانت الغرفة الرئيسية عبارة عن رواق كبير مفتوح من جهة من خلال أقواس حجرية تطل على المزرعة ومبني بها مقاعد طويلة من الحجر ليتكيء عليها الضيوف . كان يوجد في الأسفل غرفة كبيرة يجري من وسطها جدول مائي دافئ ومجهزة كدهليز استحمام ولها أرضية مرصوفة بالحجر للجلوس على حافة الماء . كان بها أيضًا عدد كبير من الأواني الجميلة للاستخدام من قبل المستحمين في حين أن من يتقدم بخطوات أكثر مغامرة تؤدي به إلى جدول الماء في الأسفل .

صدف أن سعداً أصغر عائلة القصيبي كان موجوداً بالمزرعة فعاتب محمد حسن بشدة لأنه لم يخبره مسبقًا بمجيئنا لكي يجهز وجبة الغداء . أوضحت له بأننا جئنا فقط لنتعرف على الطريق وأننا سنأتي للغداء مرةً أخرى ولا نرغب الآن إلا بفنجان قهوة فقط قبل أن نعود . قدم لنا وبكرم مميز حميراً لنعود عليها حيث كان الطريق طويلاً، وأرسل مرسولاً من قبله سراً إلى الهفوف ليحضر طعامًا وتعمد تأخير مجيء القهوة ليبقيني هناك . أحضرت القهوة بعد مرور ساعة عندما رأى نفاد صبري . كانت الحمير /p.137/ البيضاء الصغيرة ، بسروجها البسيطة والتي يسافر عليها كل الناس ، مجهزةً لكل واحد منا ومشينا بخطى سهلة بمعدل ستة أميال في الساعة . ليس لهذه الحمير أعنة ويمكن أن يوجه الحمار بضربات خفيفة بالعصا على رقبته ليتجه يمينًا أو يساراً ولكنني لم أفهم كيف يوقف . ظهرت لنا عند البوابة نتيجة المؤامرة ، إذ كان هناك رجل ينتظرنا على حماره المحمَّل بأجود أنواع الطعام وألقى الجنود نظرة توق إليه وربما كانوا شركاء في المؤامرة وبرغم ذلك واصلت السير وكان عليهم أن يتبعوا . قابلنا عبدالله القصيبي بعد مسافة ميل خارجًا على حمار سريع . شعرت وقتها بالأسف وكان بودي أن أقف وأوضح الموقف ولكن حماري حسم الأمر لأنني لم أتمكن من إيقافه بسرعة .

تزرع نخلة الرزيز بشكل كبير في هذه المزارع الشرقية وهي عينات جيدة من النخيل ويزيد ارتفاعها عشرين قدمًا عن النخلة العادية في شط العرب وقد اعتني بها جيداً وقطعت عسبانها الميتة . تغلب حقول الأرز في المستويات المنخفضة على حساب حقول البرسيم . كان رجال بمساح كبيرة يضربون الحصيدة التي جني منها الأرز مؤخراً مخلفين وراءهم كتلاً ترابية مكومة على شكل خطوط متوازية لتتهوى وتجف ، ثم بعد ذلك تُحرث وتُسوى ويزرع بعضها بالبصل محصول إضافيًا .

[١٧ ديسمبر] كانت الرياح غربية وهطلت بعض الأمطار الغزيرة أكثر مما يلزم لتهدئة الغبار . بدا وكأن المطر نزل في كل الجهات البعيدة ولهذا كنت آمل أن يكون كافيًا لإنماء النبات . أعطيت مهدي قبل أن ينام دواء الكينين (مادة شبه قلوية شديدة المرارة تعالج بها الملاريا) إذ كان لديه أعراض حمى ، وكنت خائفًا من هجوم الملاريا في الوقت الذي تتم فيه استعدادات السفر . رأيت اليوم طيوراً حول البحيرة الضحلة أكثر من أي يوم مضى ـ غراب وسرب من القطا المنقط وعدة أسراب من القنابر ذوات الأصابع القصيرة ـ تغدو وتروح إلى الماء . كانت مجموعة من ١٠٠ طير من طيور زقزاق ـ كنت في بريطانيا وبعض من طيور الطيطوي الصغير /p.138/ تأكل على الشاطيء واصطدت أنثى الأبلق الصحراوي والتي يشاهد ذكرها كثيراً . انزعجت طيور الخطاف كثيراً من الرطوبة فعند سقوط أول قطرات من المطر التجأت إلى أبراج الكوت والتف بعضها حول بعض في مجموعات متراكمة تحت أي ملجأ في نتوءات الجدران الطينية .

[١٨ ديسمبر] كان صباحًا مشمسًا واختفت سحب الأمس الممطرة . أحضرت اليوم خيطاً رقيقًا لاصطاد به الأسماك الكبيرة . كانت السنانير مصنوعة من دبابيس حشرات معكوفة بحيث تكون أكبر من أفواه الأسماك الصغيرة . استخرجت الطلقة

من الرصاص وقسمتها إلى نصفين تقريبًا وشددتها بالحبل . كان ميل رؤوس السنانير صحيحًا تمامًا ولكن لم أتمكن من ضبط الشوكة . أخذ مهدي ـ الذي استعاد عافيته ـ أدوات الصيد ليُطلع مصنعي السنانير عليها حيث لم يروا مثلها من قبل ، لكنهم انتقدوها بشدة وقالوا بتعاطف إنهم سيشرحون لنا الطريقة . أخذت بعضًا من اللحم النيء والتمر طعمًا للسمك ووصلت في الوقت المناسب إلى عين أم الجمال حيث توجد الأسماك الكبيرة . حاولت الصيد بالتمر في أول الأمر وحسبنا ست من الأسماك الكبيرة في البركة ولكن لم يصل التمر إلى أي منهن حيث يقطعه صغار السمك وهم فيما يشبه تمامًا مباراة في لعبة الرجبي . أستطيع فقط معرفة مكان الطعم في الماء بالنظر إلى تمركز المناوشة . حاولت الصيد بعد ذلك بلحم نيء مربوط بالقطن إلا أنها لم تستطع نهشه من السنارة رغم أن القتال للحصول عليه كان أشرس . رأينا أخيرًا إحدى الأسماك الكبيرة تصعد من الماء العميق لتنضم إلى المعركة، ولكن الطعم كان صغيرًا جدًا بحيث احتاجت إلى بعض الوقت قبل أن تستطيع الرؤية من خلال الزحام لتكتشف سبب هذه الفوضى . أصبحت بعد لحظة هذه السمكة الكبيرة مطمئنةً في وسط الحشد وفجأة توقف الاندفاع حول الطعم . ظننت أنها ابتلعت الطعم فسحبته سحبًا خفيفًا حتى أمسكنا بها . جلب الطعم نفسه أربعًا من الأسماك الست التي اصطدناها أما السمكتان الأخريان فاصطدناهما فيما بعد . /p.139/

كان منافسونا من أصحاب السنانير المحلية في هذه الأثناء مازالوا منشغلين بسلة مصنوعة من سعف النخيل ـ وكما هو متوقع ـ فإن الأسماك الكبيرة كانت حذرة جدًا من دخول السلة . تمكنوا على أية حال من الإمساك بالكثير من الأسماك الصغيرة . كانت الأسماك التي جلبتها أكبر من كل العينات الأخرى من هذا الجنس في المتحف البريطاني . ربما أن معظم جامعي العينات الآخرين حصلت لهم الإشكالية نفسها التي حصلت لي مع هذه الأسماك الصغيرة ناقصة النمو .

[١٩ ديسمبر] قضيت هذا اليوم في تجهيز أول صندوق من العينات وتسجيلها لإرسالها إلى إنجلترا . كان الصندوق معبأ منذ ثلاثة أسابيع لاحتمال مغادرة مستعجلة والتي يبدو أن فرصها ضئيلة وقد ملأت الآن معظم الفراغات التي كانت محشوةً في السابق بالورق .

كان صغار النمل الذي يسكن في صدع بشرفة المنزل مدهشًا بمقدرته على التخزين . غالبًا ما أقتل مائة ذبابة في اليوم وأرميها إلى الأسفل بجانب بيت النمل ، وفي وقت قصير جدًا تقطع الأجنحة وتُفصل رؤوس الذباب عن أجسادها وتصعد كل نملة بقطعة . غالبًا ما يكون بينها ازدحام عند المدخل الضيق ولكن لن تجد جسد ذبابة على الأرض خلال ساعة من الزمن ومهما كان عدد الذباب فسيكون هناك نمل بلا عمل ليأخذ الغنائم .

[٢١ ديسمبر] انتشرت شمس مشرقة وكانت الرياح شمالية - غربية مصحوبةً بنسيم خفيف فقط . كانت حركة الرياح خفيفة جدًا في أغلب الأيام لدرجة أنه يصعب أن تحدد اتجاهها . ازدادت قوة النسيم آخر النهار وتحول - بالأحرى - إلى مساء غير سعيد عندما بدأ الغبار يتطاير ويدخل من فجوات الأبواب والنوافذ . ذهبت إلى العين الأخرى - أم خريسان - وكان سمكها من النوعية نفسها مع أنه ليس هناك اتصال بين ماء العينين .

كانت درجة حرارة الماء ٨٨ْ فهرنهايت على طرف بركة عين أم خريسان ولابد أنها كانت تتجاوز ٩٠ْ في المركز حيث يتدفق الماء من باطن الأرض ودرجة حرارة الجو كانت ٦١ْ . حفظت الأسماك في محلول كحولي بطريقتين من أجل معرفة ما إذا كان بالإمكان اكتشاف طريقة تحتفظ فيها الأسماك بلونها الذي يبهت بسرعة . /p.140/ استخدمت محلولاً بالميثانول وبدون إضافة ماء إليه . وضعت

مجموعة منها في الكحول وتركتها فيه بينما الأخرى وضعت لمدة خمس دقائق، ثم أخرجت لتجف لمدة نصف ساعة قبل أن أعيدها في الكحول. يبدو أن السمكات التي أخرجت وجففت احتفظت أكثر بلونها، وكلا المجموعتين حفظتا في الظلام لأطول وقت ممكن. شقت بطون الأسماك بسكين جيب لكي يتخلل الكحول أجسامها. بعد ثلاثة أو أربعة أيام تم تجهيزها للشحن، فأفرغت الزجاجة من الكحول تمامًا ومُلئت الأماكن الفارغة في الزجاجة بالقطن المشبع بالكحول. كان هذا للحفاظ على رطوبة الأسماك ولتجنب خطر التسرب، ووصلت إلى إنجلترا في حالة جيدة. تتوفر في السوق زجاجات ذات فتحات واسعة، ولكن واجهتنا مشكلة مع السدادات والفلين غير المتوفر. عندما حصلنا على بعض السدادات الخشبية المصنعة محليًا اتضح أنها نفاذة وتسرب الكحول بشكل كبير. أخيراً كان لابد من جعلها مقاومة للكحول وذلك بقلي السدادات على شمعة لمدة خمس دقائق.

يوجد بعض الطفيليات في الجداول، ولكن بما أنني لم أر إلا اثنين فمن الواضح أنها ليست من الكثرة بحيث تزعج المستحمين. أمسكت بواحد كان لونه أخضر مع خط قرمزي على الجانب وطوله ثلاث بوصات. أصبت اليوم ببرد في رأسي وذهبت إلى السرير مبكراً بعد أن أخذت قليلاً من الدواء الذي كان له أثر في تخفيف الألم(١).

[٢٢ ديسمبر] كان الصباح باردًا ولكنه كان منيراً ومشمسًا وبما أننا لم نر الجزء الجنوبي من البلدة فقد سرنا هذا اليوم في ذلك الاتجاه. لم يصل حرسي في الوقت المحدد، لهذا انطلقت مع مهدي بدونهم بعد أن تركت لهم خبراً عن وجهتنا وسرعان ما لحقوا بنا عدواً يلهثون. خرجنا من بوابة العقير وواصلنا السير خارج الأسوار في

(١) حذفت بعض الجمل غير اللائقة بالنشر. (المترجمان)

سهل صلب يستخدم كثيراً لدرس الأرز . /p.141/ تبدو الناحية الجنوبية ـ الشرقية من البلدة كأنها ضاحية هُجرت قبل أن تكتمل . كان هناك الكثير من الشوارع والبيوت خارج الأسوار ولكنها خالية من السكان . يوجد القليل من البساتين في الناحية الجنوبية قرب الأسوار ولكن آبارها ـ بعمق عشرين قدمًا ـ لا يطفو ماؤها ولابد من رفعه بالرافعات . لهذا السبب فإن منطقتهم محدودة مع أن حمير الرافعة قد يصل عددها إلى خمسة . يقع أكبر حقل رأيته للقمح خارج منطقة النخيل ، ومع ذلك كانت مساحته ثلاثة فدادين فقط . كانت مجموعة من عشرين صبيًا داخلين في صف على القمح مشكلين بذلك منظراً طبيعيًا ، ويقتلعون النباتات البرية ذات الزهرة الصفراء . كان حقل القمح الجديد هذا مزدهراً ذا لون أخضر غامق .

عدنا من بوابة السور الجنوبي التي تفتح على ميدان تخييم كبير تبلغ مساحته ١٥٠ ياردة مربعة وهذه سمة من سمات البلدان الصحراوية حيث بالإمكان دخول قوافل كبيرة من الإبل والاحتماء داخل الأسوار . يمتد طريق مستقيم جداً من الجهة الأخرى للميدان باتجاه الشمال وتكثر الدكاكين على جانبيه . يأتي أولاً صناع الأحذية والنعل إذ الطريق مكسو بقصاصات الجلد الملقاة على الأرض وليس هناك من يجمعها . كما كان هناك دكان لإصلاح السيوف وعدد من تجار الحبوب ونحاسين وصانعي سروج الحمير والإبل . يصل الطريق بعد نصف ميل من البوابة الجنوبية إلى الطرف الجنوبي من السوق الأكبر ـ سوق الخميس ـ في الركن الجنوبي ـ الشرقي من سور الكوت .

[٢٣ ديسمبر] قمت بجولة أخرى في السوق وقد كان معروضًا للبيع جزر من النوع الصلب الذي يزرع كذلك في العراق وسلات من الفجل الأحمر المستدير الجذاب . وكان المنظر الأكثر جمالاً تلك الأكوام الأنيقة من الأترج الأصفر الكبير .

تعتبر سلال الحمير إحدى أجود الصناعات المحلية، وهي تصنع ببراعة من ليف النخيل على شكل عش طير، ويشمل استعمالها العام حمل كتل الحجارة والتراب .

انتشرت اليوم إشاعة بأن السلطان قادم من الرياض إلى هنا /p.142/ ونقلها مهدي إلي من السوق . شعرت بوعكة مرة أخرى وكنت خائفًا من أن البرد قد عاد إلي مرة أخرى. تمكنت من أخذ درجة حرارة جسمي رغم أنني نسيت إحضار ترمومتر طبي . استعضت عن ذلك بأحد الترمومترات الزجاجية التابعة للجمعية الجغرافية الملكية حيث قرأته بمرآة من دون أن أخرجه من فمي وقد كان كافيًا بالغرض. كانت قراءته ٩٨° بمعنى أنه لا شيء يقلق من ناحية الحمى .

[٢٤ ديسمبر] قمت في هذا اليوم بالزيارة المرتقبة منذ زمن طويل إلى مزرعة القصيبي عندما شعرت بأنني سأنام طويلاً في البيت . الأمر سيان بالنسبة لي ولكن يجب أن أعترف بأنني شعرت بتحسن كبير عندما عدت مع أنني لم أشف تمامًا .

أحضر محمد حسن ـ المسئول عن خطط سيرنا ـ الخيل بعد شروق الشمس بساعة ومشينا مشيًا بطيئًا ، بما أننا أسميناها رحلة قنص، فقد أخذت بندقيتي لكنني لم أتوقع أن أستخدمها، ومع هذا خرجت في آخر النهار واصطدت طائر (رفراف) فقط لكي لا أخيب آمال مضيفي . كان عبدالله القصيبي هناك، ولم يحتج إلا إلى القليل من التشجيع ليسترسل في ذكرياته حول لندن . لقد انبهر بفندق السافوي (Savoy Hotel) أكثر من فندق الكارلتون (Carlton Hotel) والسبب الأساسي في ذلك هو ما يتوفر به من وسائل التسلية . يأتي بوليس لندن في المقام الأول من بين العجائب التي رآها هناك . قفز إلى وسط الغرفة وأعطى عرضًا رافعًا يده ومحدقًا بتركيز وقوة في الجدار المقابل كما لو أنه يتصور صفًا من الحافلات تندفع نحوه ويؤشر لها بهيبة حتى مرت كلها . قال للحاضرين « ستجدون صعوبة في تصديقي»

«لكن رجل البوليس لا يصرخ أبدًا بل ولا حتى يتكلم!» . من عجائب لندن التي رآها أيضًا الضباب الذي يبدو أنه رأى الكثير منه . شارك أثناء وجوده في إنجلترا في رحلة لصيد طائر التدرج (طائر شبيه بالحجل) اشترك بها كلبا صيد وتأثر بمهارتهما أكثر من مهارة الرماة أنفسهم ، وخاصةً عندما أحضر الكلبان الطيور من بحيرة متجمدة . قال : إنه من المؤسف أن يبقى الصيد لمدة أسبوع قبل أن يؤكل في حين أنه من الأفضل /p.143/ كثيرًا أن يؤكل يوم صيده ، ولم أذكر له أنها غالبًا ما تحفظ لمدة شهر . تحدث كذلك عن الكتب العربية من كل العصور في مكتبة كيمبردج وقال : إن نسخ القرآن تعد بالآلاف وأن الأستاذ براون يعرف عن الأدب العربي أكثر من أي عربي . أحضرت له بنت (ربما مضيفته) عنقود عنب من بيت زجاجي في منتصف فصل الشتاء وكان هذا مازال حيًا في ذاكرته .

بجانب حقول الأرز ، كان هناك عدة حقول من القصب الطويل ، مررت بها بعد الوجبة الدسمة ، مررت بها دون أن أرى طيرًا واحدًا من أي نوع . كان هناك آثار عدو لبعض الحيوانات الصغيرة وجحور بحجمين مختلفين على طول الضفاف ، وبما أنني لم أتأكد ما هي لذا قررت أن آتي إلى هنا في المستقبل وأبقى إلى الليل لأنصب المصيدة . تمكنت بعد مرور بعض الوقت من عمل ذلك ، فوجدت الجحور الصغيرة للفئران العادية ، والجحور الكبيرة للجرذان السوداء ، ولا يستحق أي منها التعب الذي مر بنا . كانت الصيدة الأكثر إمتاعًا (ذكر) حشرة ماء ضخم (*Hydrocyrius Columbia*) وجدناه في الحمام ، ليس جذابًا بوصفه مرافقًا في الحمام ، ولكنه أقل ضررًا مما يبدو . كان على ظهره تسعون بيضة ناتئة كقطع بولنج مربوطة بسلك في القدم ، وكل واحدة لها عينان سوداوان صغيرتان . تضع الأنثى بيضها قسرًا على ظهره ولا خيار لديه بعدها سوى أن يتحمل كل مسئوليات العائلة . مثال متكامل على تحرر المرأة لم ألاحظه من قبل ، وقد جعلته عائلته بطيء الحركة فأمسكه محمد حسن بملقط ورماه في الصفيحة .

أخبرني القصيبي بأن القمح ينمو أفضل خارج النخيل . يكون لدى الملاك مساحتان من الأرض يزرعهما بالتناوب فقط ، فيترك الأرض المراحة لتستعيد قوتها وإلا تُنهك التربة . من الرائع أن تصلح الشمس التربة في كل البلدان المشمسة في عام واحد من دون أسمدة صناعية . تنبع عيون صغيرة في كل هذه المنطقة ويكفي بعضها لري مزرعة واحدة فقط . /p.144/ كما أن عين الخدود تجري مياهها هناك وتسقي جزءاً كبيراً من هذه المنطقة ذات المزارع الجميلة .

كل الأخشاب المستخدمة في بيت مزرعة القصيبي منشورة من جذوع النخل حتى بوابة المدخل كانت من خشب النخل الخالص . معظم بوابات المزارع والأبواب في هذه المنطقة مصنوعة من ألواح خشبية خشنة وغير متطابقة جيداً وهي إما من جذوع شجر التوت أو شجر الأثل .

كانت الرياح يوم عيد الميلاد شمالية وأسرع من المعتاد والشمس ساطعة . معظم نساء الهفوف يمشين ومعهن حزمة من صوف الغنم ومغزل مثل الخذروف ويغزلن أثناء المشي . تصنع الحبال من ليف النخيل من قبل رجال ـ يجلسون في زوايا الشارع المشمسة ـ يفتلون الليف بأيديهم الخشنة فيمتد تدريجياً في الشارع على شكل حبل . هذا الحبل صناعة خشنة ولكن وجدنا في السفر أنه يتحمل احتكاك النقل على الجمل أفضل من الحبل القنبي الذي أحضرته معي . كان هناك تاجر أسماك يبيع أسماكاً مجففة في سلال ، ومن الواضح أنه من البحرين : منها نوع بحجم سمكة البلم الكبير وروبيان مجفف وبعض الأسماك شوكية الظهر مثل سمكة الأسقمري الكبيرة . اللافت للنظر كثيراً هو عدم انتشار المقاهي في الهفوف . وفي الواقع كان هناك ثلاثة مقاه مع أنني لم أر منها إلا واحداً فقط وهو خيمة صغيرة بالسوق الكبير . سألت رستم ـ الخادم ـ لماذا المقاهي ليست كثيرة فقال : إنه من عادة أهل الهفوف أن يتناولوا القهوة في البيوت وليس في المقاهي ما عدا قليل من البدو الذين لا يعرفون

أحداً في البلدة فيذهبون إلى المقاهي التي لا يقدم فيها إلا القهوة السوداء فقط ، بمعنى أنك لا تستطيع الحصول على الشاي هناك . من ناحية أخرى ففي البحرين يشاهد حتى المشائخ الكبار في المقاهي الشعبية . ربما أن هذا نتيجة تشدد الحكم الوهابي القديم عندما كان من الأفضل للناس أن يكونوا غير ظاهرين بقدر الإمكان وربما أن أمر منع تدخين التبغ له علاقة بذلك .

قمت بزيارة الأمير ـ وكانت في الواقع زيارة بمناسبة يوم عيد الميلاد ـ مع أنني لم أذكر له ذلك . /p.145/ توقع أن يكون السؤال حول تأخير مغادرتي ولكني أبقيت هذه المواضيع جانبًا ولم أتطرق إليها إلا عندما سألت عما إذا كان قد سقط أي مطر فأجاب بسرعة «لم تمطر أي منطقة في الجنوب» . كان أكثر اهتمامًا بمعرفة حجم الطلقة المستخدمة في الرصاص . كان يريد طلقة كبيرة لصيد الغزلان وأرسل يطلب بعضاً من رصاصة عيار ١٢ ملم ليأخذ رأيي حولها . كانت كلها تحمل الرقم ٥,٥٠ ومن صناعة إنجليزية حصل عليها عن طريق وكيل في بومبي ولا يعرف كيف يطلبها . اقترحت عليه الرصاصة رقم ١ وقلت : إنها يجب أن تشحن خصيصًا بناءً على الطلب وإنني سأرسل له بعضًا منها بعد أن أعود إلى لندن . كان كل هذا من أجل أولاده ، لأنه لم يكن يخرج أبدًا للقنص ، فهو حبيس أعماله الرسمية .

في المساء ذهبت لزيارة محمد الأفندي بدون ذكر هذا العيد المسيحي ومع ذلك مر ذكره بيننا . كانت مواضيع الحديث متنوعة وأرهقني ببعض أسئلته التي تراوحت ما بين الزراعة في البلدان الأجنبية إلى الطائرات والمناطيد وزلزال اليابان والطقس في القطب الشمالي .

كان يوم ٢٦ ديسمبر يوم فتح الهدايا وكان مناسبة لتوزيع أول هبات على الخدم. أوضحت لكل منهم بأن هذه مناسبة سنوية في إنجلترا حيث توزع الهدايا وأكدت على الطبيعة السنوية لهذا العمل . حصل محمد حسن على نصيب الأسد

ليس فقط لأنه يستحق أكثر نظير خدمته اللطيفة بل لأنه لم يكافأ على رحلته معي إلى سلوى سنة ١٩٢١م ولهذا أعطيته خمسة جنيهات . رئيس الخدم ـ الذي كان كذلك صباب قهوة ـ حصل على جنيهين ومؤدي المهام العامة حصل كذلك على جنيهين . أما الرجلان ـ اللذان كانا يحضران وجبات الطعام عبر الهفوف من مطبخ الأفندي ـ فقد حصل كل منهما على جنيه وعشرة شلنات . حصل السقا على سبعة شلنات و٦ بنسات أما أبو سعود ـ الجندي الآخر ـ فقد حصل على جنيه وعشرة شلنات . كنت قد أبقيت ثلاثة جنيهات لكي أرسلها إلى سعيد ولكن الأخبار وصلته قبل أن أنهي إعطاء الخدم الآخرين . حضر سعيد وقال إنه جاء للسلام علي وبهذا وفر متاعب إرسالها إليه . /p.146/ قال : إنه استدعي من خدمتي ليكون مسئولاً عن تموينات مطبخ ضيافة الأمير . أعتقد بأن الضيوف المساكين لابد وأن يدفعوا كثيراً مقابل ضيافة الحكومة خلال إقامتهم . قلت لسعيد ضاحكًا الحمد لله أنه رجع للحياة مرة أخرى لأنني كنت مشتاقًا له إذ لم أره منذ مدة وخشيت أن العمل الشاق الذي كلفته به قد قتله . عد نقوده بدقة ليعرف كم هي قبل أن يضعها في جيبه ولم يقترف أي من الآخرين مثل هذ العمل المشين .

أخبرني رستم بأن الرياض عمليًا لا يوجد بها سوق أو صناعات[١] . يجلب سكانها سلعهم من دمشق أو الهفوف وهم إما ملاك مزارع أو فلاحون يعملون لديهم .

كان الجو باردًا ولذا ظهرت أحذية عالية هي إنتاج آخر من منتوجات الهفوف يلبسها البدو والقرويون . تسمى هذه الأحذية بالزرابيل وتكلف ثلاث روبيات للزوج الواحد وهي عبارة عن جوارب من وبر الجمل المحبوك تصل إلى ما فوق

(١) هذه من المآخذ التي تؤخذ على الرحالة عند سؤالهم لمن معرفته ناقصة ثم يأخذون ما يقولونه كحقيقة . (المترجمان) .

الكاحل وتربط ويُلبس القدم بحذاء من جلد البقر مصنوع محليًا . أحذية الجو الدافىء هي النعال العادية (*nala*) وهي تصنع كذلك محليًا . كنت سعيدًا لكوني مرتديًا ملابس صوفية داخلية مع قميص خفيف وسترة نورفولك خفيفة مع أنني كنت محتاطًا بقمصان صوفية وسترة نورفولك ثقيلة فيما لو أصبح الجو أكثر برودة (خلال إقامتي لم استخدمها) .

[٢٧ ديسمبر] لم يكن المسجد الكبير والمنارة يستخدمان للصلاة ، لأن بهما زخارف كثيرة تتنافى مع الذوق الوهابي التقليدي . كانت المنارة تستخدم أساسًا من قبل الصقارة اللذين يضيعون صقرًا كل عدة أيام فيصعد الصقار إلى أعلى المنارة لإلقاء نظرة جيدة على المنطقة المحيطة .[١]

أخبرني حسن بأنه لا وجود لليهود في الهفوف لأن الشيخ عبدالله أخرجهم من البلاد عندما عُين أميرًا منذ اثني عشر عامًا .[٢]

رأيت هذا اليوم أول حالة حمى شديدة وهي التي تصيب السكان هنا . انهار أحد الخدم بعد أن شعر بتوعك شديد ، وأعطيته جرعة من الكينين والفيناستين ولكن حالته ساءت كثيرًا وحُمل أخيرًا إلى بيته حيث بقي على حافة الموت لمدة /p.47/ أسبوعين وكان هزيلاً مثيرًا للشفقة عند عودته . تبدو الأعراض وكأنها أعراض ملاريا في مرحلة متقدمة لأنه قال إنها تأتيه على فترات متقطعة . قال أخيه رستم بأنه أصيب بهذه الحمى لأنه ضرب قطة بعصا منذ عدة أيام ، ولأن القطط مفعمة بالحمى فقد تسلقت القطة العصا وأعدته بالحمى .

[٢٨ ديسمبر] كان الضباب البارد يلف البلدة عند طلوع الشمس وتفرق بعد ساعة . أنعشت رياح جنوبية آمالي في المطر حيث كانت الجهة الجنوبية الغربية هي

(١) ملاحظات المؤلف حول هذا المسجد (وربما أنه مسجد إبراهيم) غير دقيقة ولا يوجد في المصادر ما يؤيد ما ذهب إليه المؤلف . (المترجمان)
(٢) لم يرد في المصادر أي ذكر لوجود اليهود في الأحساء في تلك الفترة . (المترجمان)

الأكثر مواتاةً لنزول المطر . يمكن رؤية السحب الممطرة في أي اتجاه ترتفع وتتفرق عندما تقترب من الهفوف ثم تمر دون أن تنزل قطرة واحدة .

تعتبر تربية الحمام الداجن إحدى وسائل التسلية في الهفوف. هذا الحمام في الغالب من نوع الراسل القديم وله زائدة لحمية كبيرة حول العينين ولكن هذا النوع مثل كل الحيوانات الأليفة هنا. تربى بعض الأرانب كعادة من بقايا الاحتلال التركي. الدجاج هنا من النوع الكبير والبيض كبير مثل البيض الإنجليزي أما بيض دجاج الهند الصغار فلن يلقى استحسانًا هنا . تتم دباغة جلود الأغنام والجمال والأبقار محليًا بتنقيعها في حوض مع قشر الرمان والتمر والروث .

اصطدت اليوم ابن آوى لأنني ظننت أن من الأفضل الحصول على عينة منه لأنه قد يكون فريداً . أصابته الرصاصة في الرئتين مما جعله يقوم ببعض الحركات الأكثر غرابة فقفز في الهواء عاليًا كمن به مس . ضحك الجنود بقوة وخاصة عندما عاد ابن آوى آخر ـ كان بجانبه عند الرمية وهرب ـ وكأنه أعجب بقفزاته فبدأ يقلدها بطريقة مضحكة تعجز الكلمات عن إيضاحها . وتمدد أخيراً بجانب الجثة في البرسيم حتى تأكدنا تمامًا من موت ابن أوى الأول وسرنا لنأخذ الجثة فقفز ابن آوى الآخر وهرب . كان لابد أن نضع الجثة عاليًا على شجرة نخل بعيدًا عن أبناء آوى الأخرين وفي صباح الغد الباكر أحضر مهدي سكينًا وسلخه . /p.148/ بعد أن جهز الجلد وحشاه مؤقتًا بالتبن وضعه في الشارع حيث بدا وكأنه نائم وسلّى الرجال أنفسهم بمراقبة المارة يلتفون في دائرة واسعة لتحاشيه .

اشتريت اليوم خنجراً بدويًا جميلاً كان معروضًا للبيع في السوق وكان ثمنه ثمانية ريالات وعشر طويلات أي أقل من الجنيه بقليل . كان في حالة باليه لكنه مطعم بالفضة وتصميمه جنوبي بمعنى من وادي الدواسر أو نجران . رأيت أيضًا بدويين من أوحش ما رأيت بالسوق ذوي جدائل ولحى سوداء طويلة وعيون سوداء

مدققه في كل شيء . تحدثا مع حسن وسألته من أين هما ؟ فبدا خجلاً وقال إنهما «من وادي الدواسر» . اكتشفت فيما بعد بأن هذه كانت كذبة مؤدبه وبأنهما كانا في الحقيقة من عوامر عمان الذين يقطنون إلى الجنوب من قطر وهم أسهل إنقيادًا من أقربائهم الجنوبيين وأنهم يضطرون أحيانًا إلى المجيء ليستعطوا من الأمير . يضطرون في مثل هذه السنوات عندما لا تكون مراعي صحاريهم كافية بسبب الجفاف، إلى طلب الإذن بالقدوم شمالاً إلى مناطق حكم سلطان نجد الذي يسمح لهم بذلك لاعتبارات إنسانية . يمكن أن يلغى الإذن إذا كان سلوكهم غير حسن والحكومة قوية لتطبيق قراراتها .

[٣٠ ديسمبر] اختفت السحب لتعود وتتجمع عند الغروب . غربت الشمس في وهج بهي ذي لون ذهبي وأحمر ، مضيئة بأشعتها الأخيرة سلسلة تلو سلسلة من الجبال إلى الشمال منا وقد حولتها إلى ذهب . ظننت أن جبل أبو غنيمة سلسلة منعزلة إلا أنه يوجد عدة سلاسل جبلية موازية له تمتد شرقًا وغربًا إلى الشمال الغربي منا . استلمت اليوم رسالة بواسطة بريد حيفا ـ بغداد الجوي ونسخة من التايمز بتاريخ ٢٢ نوفمبر بواسطة بريد بومبي .

[٣١ ديسمبر] بدأت أدرك أن بقائي الطويل في الهفوف سيكشف عن بركة خفية وأن تسرعي في الحكم على عدم وجود أشكال مهمة كان سابقًا لأوانه . /p.149/ إن ما يبحث عنه عالم التاريخ الطبيعي موجود هنا بلاشك ولكنه يتطلب وقتًا وصبرًا للحصول عليه . أمسكنا اليوم بعينه من الجرذان وهو نوع يختلف تمامًا عن تلك التي تكثر في مزارع البرسيم . لاحظت الجحور في سهل رملي شمال البلدة باتجاه المبرز . وضعت المصائد المزودة بطعم من جوز الهند وفي الصباح وجدنا بها هذه المخلوقات وهي حيوانات ليلية تمامًا وتختلف كذلك عن الأخريات بكون شعرها طويل .

رتبنا اليوم حملة إلى جبل أبو غنيمة (اللوحة رقم ٢٩) وعين نجم تلك العين الكبريتية الواقعة على سفحه في الصحراء . ذكر بلغريف أنها كانت، ومازالت تشفي من الأمراض وأثارت شكوك الحاكم الوهابي فيصل بن سعود[١] ، الذي خاف أن يفتتن الناس بها فأمر بدفنها[٢] . يكاد يكون الحمام في الوقت الحاضر مبنًا خربًا مع أنه لا قيود على استخدامه (اللوحة رقم ٢٢) . توجد به غرفتان معدتان كدهليز مسقوف وموصل إلى الماء كذلك . تمتد منها قناة إلى الخارج تأخذ الماء إلى الرافعة . وجدنا شخصًا يحاول تنظيفها ليبدأ زراعة مساحة من القمح وكان هناك رجلان يحركان طينًا أسود ونتنًا في الحمام نفسه . قيل لي إن ماءها حار يمكن أن تسلق الدجاجة فيه ولكنه كان فاترًا فقط ولهذا لم آخذ درجة حرارته وبدا لي وكأن العين بدأت تجف .

سمعت على السطح أنين قنبرة الصحراء ورأيتها فوق إحدى قباب العين وكانت هي ذلك الطير الشاحب الذي أبحث عنه . كنت قد حصلت على اثنتين منها الأصغر حجمًا كان لونها أكثر دكانة، وإحداهما وهي من نوع آخر من القنفذه في عسير، وقد عرفت من قبل باسم (*Alauda cinctura pallida*) . الطير الأكبر كان جديدًا وقد سمي *(A deserti azizi)* تقديرًا للسلطان عبدالعزيز بن سعود . كانت الأحجار الرملية في المنحدرات الصخرية قد تشققت مكونةً كهوفًا وصدوعًا وكان يوجد في فتحاتها مخلفات البومة النسارية .

لم استطع أن أتخيل أنواع البوم التي يمكن أن تسكن هذه الجبال المنعزلة ولم نعثر /p.150/ على الطائر . توجد أعشاش طائر الخطاف الصخري على بعض

(١) المقصود هو الإمام فيصل بن تركي (١٢٥٠ ـ ١٢٥٤ و١٢٥٩ ـ ١٢٨٢هـ) . (المترجمان)

(٢) تقع عين نجم بالقرب من جبل أبو غنيمة في براح مرتفع من الأرض ، وحول ملابسات دفن العين في أيام الإمام فيصل بن تركي انظر حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، القسم الثالث ، ص ١٢٣٥-١٢٣٨ . (المترجمان)

المنحدرات الناتئة على شكل صحون فناجين من الطين بارزة جانبًا ، حيث تأوى الطيور إليها في المساء لتنام . لما كنا في فصل الشتاء فهي ليست مفرخة ولكن وجود الأعشاش أعطاني الدليل الذي أريده ، وهو أن هذه الطيور مقيمة وليست زائرة في فصل الشتاء . وجدتني وأنا في طريقي إلى البيت أتمنى أن يتأخر رحيلي إلى يبرين إلى أن أحصل على البومة النسارية .

تجاوزنا بعض المنخفضات الواقعة باتجاه المبرز حيث يستطيع الأهالي حفر الأرض فيجدون ماء كافيًا لري قليل من الرودات المربعة(١) المزروعة بالقمح الرديء . تدار الرافعة باليد فينغمس الدلو الذي يشبه مغرفة على شكل قارب في البئر ويُرفع إلى الحوض بينما يعادل وزنه ببكرة خشبية مثبتة على عمود طويلة . لا يكاد محصول القمح القليل يكفي لمكافئتهم على كدحهم اليومي . أخذنا الخيل كالعادة مشيًا في ذهابنا وإيابنا . تقدم محمد حسن ـ المقتنع الآن بأنني لا أستطيع ركوب الخيل ـ لوحده مستعرضًا يعدو بفرسه عبر السهل ، ولم أنتبه حتى سمعت مهدي يتمتم «هذا جزاءه» . رأيت عندما نظرت حولي فرس محمد البيضاء منتكسة على رأسها في الرمل وهو على بعد ياردة إلى الأمام منها منتكسًا على رأسه أيضًا . استعدلت الفرس أولاً حيث نهضت وعدت بسرعة مذهلة إلى المزارع المؤدية إلى الهفوف . أما محمد فقد جمع حاجياته المبعثرة وسار يعرج خلف فرسه . لم يتعاطف مهدي معه أبدًا لأنه كان غاضبًا من التشهير بفروسية سيده ، ويضحك مع نفسه قائلاً «الآن لن نسمع بذلك أبدًا» . بخلاف ربطة على مشط قدمه وعرج لعدة أيام لم يصب محمد حسن ولا فرسه بأي أذى ماعدا تضميد على مشط قدمه وعرج لعدة أيام .

---

(١) الروده (Rod) مقياس للطول يعادل ٢٩ , ٥م . (المترجان)

[١ يناير] اشتريت اليوم خنجرًا آخر ذا أحجار ملونة مثبتة في الفضة بثمن وقدره ستة ريالات، كما اشتريت سيفًا بدويًا مزينًا بالفضة بثمن وقدره عشرون ريالاً. /p.151/ ينتشر هنا استعمال نوعين من السيوف أحدهما منحن والآخر مستقيم. عندما سألت محمد حسن عن الفرق بينهما رأى فرصته وقال بطرفة عين مرحه «أحدهما ذكر والآخر أنثى» وكان قد أخذ جرعة مثل هذه في الفروق بين الجنسين في الطيور والثدييات خلال جولاتنا.

[٢ يناير] تقطع سيقان القصب والأسل وتجمع في حزم لتجف وتنسجها النساء إلى أطوال لصنع حصيرة أنيقة من الخيوط الناعمة. سيقان القصب لا تشق وقد وجدتها مفيدة جدًا بوصفها منظفات للغليون وتستخدم هذه الحصيرة المتينة جدًا لتغطية أرضية معظم البيوت.

مرة أخرى اشتريت خنجرًا آخر وهو خنجر فضي من بلاط ابن رشيد أمير حائل، التي استولت عليها قوات السلطان مؤخرًا. كان ذا غمد فضي مزخرف عليه ثلاث فيروزات. كان هذا الخنجر أصغر وأكثر استقامة من الأشكال التي تأتي من الجنوب.

يبعد أقصى امتداد للنخيل في الناحية الغربية للواحة ميلاً واحدًا فقط عن غرب بلدة الهفوف ومتصلة بالنخيل التي تسقى من عين أم خريسان شمال البلدة. المبرز بلدة منعزلة في السهل ولكن بساتين نخيلها تقع إلى الجنوب منها. تنبع إلى الشمال منها عين الحارة [١] وتسيل شرقًا وإلى الشمال قليلاً حتى ينفذ ماؤها تمامًا بعد ثلاثة أو أربعة أميال. توجد بساتين إلى الشمال منها قليلاً ـ ولو أنها منعزلة ـ وتشرب من أم سبعة. وإلى الشمال أكثر قليلاً، تقع بساتين العيون المنعزلة والمرئية فقط من قمة جبل أبو غنيمة.

---

(١) تعتبر عين الحاره من العيون الحاره وتقع في شمال الأحساء بقرب مدينة المبرز. انظر: حمد الجاسر، معجم المنطقة الشرقية، القسم الثالث ص ١٢٢١. (المترجمان)

قصصت اليوم شعري بواسطة مقص أظافر ومرآة وقد تعجبت من سهولة ذلك، وبدا جميلاً مثل كثير من قصات شعري التي أدفع شلنًا مقابلها .

[٣ يناير] اكتشفت اليوم اسم جبل آخر يقع إلى الشمال تمامًا من جبل قارة وهو سلسلة جبال بارزة ومحدد على بعض الخرائط وغير موجود على بعضها الآخر ويسمى الكلابية(١) وينطق الشلابية .

[٤ يناير] تحيط الصعاب بعمل جامع الثدييات /p.152/ وكان حظي اليوم سيئًا مع المصائد : أمسكت أربع مصائد من ست بجرذانات صغيرة وكلها سُرقت من قبل بنات آوى وسُحبت المصائد وضيعت .

لم يتوقف هدوء أهل هذه البلده ومثابرتهم أبدًا عن إثارة إعجابي . قد يكون السبب في ذلك هو أن نظام الضرائب سهل وليس هناك تشدد في تطبيقه كما أن آليته غير معقدة أو متعبة للعقل الشرقي . مرة أخرى فكل الأحكام منوطة بالشيخ عبدالله فهو قاضي المرافعة وقاضي الاستئناف. كان قضاؤه عادلاً فالحكم يتبع استماع الحجج وتنفيذ الحكم يعقب ذلك سريعًا . لا تتعاطف البلدة ذاتها مع تعاليم الوهابية والإخوان، ومصطلح الإخوان يستخدم سرًا تعبيرًا للسخرية حتى بين الغالبية من جنود الأمير، وبينما يؤيد هو الإخوان بشكل مفتوح فلم يحاول إجبار الناس على قبول معتقداتهم. أومضت عيناه عندما أخبرته بأن بنات آوى سرقت المصائد وأن هناك لصوصًا خارج أسوار بلدته وليس له سلطة عليهم .

[٥ يناير] اشتريت اليوم خرجين من صنع الأحساء معمولين من صوف الضأن ووبر الإبل . كانا خرجي حمار من صناعة نساء القرية كلف أحدهما عشر روبيات (١٣ شلنًا وأربعة بنسات) بينما كلف الآخر ست روبيات . تمكنت كذلك من شراء

(١) الكلابية قرية تقع شرق المبرز . انظر: حمد الجاسر، معجم المنطقة الشرقية، القسم الرابع، ص١٥١٣ . (المترجمان)

بعض الجرائد الإنجليزية المصورة بتاريخ أغسطس ١٩٢١م بثمانية بنسات للجريدة الواحدة . ومع أنها كانت قديمة جداً إلا أنها احتفظت بقيمتها في هذا المكان النائي وقد وجدت أن الجرائد تستورد لغرض لف الطرود .

[٦ يناير] انخفضت الحرارة اليوم قليلاً بعد عدة أيام ساطعة دافئة . خرجت إلى عين تسمى أم سبعة على بعد حوالي سبعة أميال شمالاً . كنت مصمماً على قضاء يوم طويل في القنص بينما كان الجنود يتطلعون إلى الاستمتاع بشرب القهوة والأكل فكان لهم ما أرادوا . وصلت وجبة منتصف النهار المعتادة بعد الإفطار الأول مباشرة ولكننا انطلقنا بعد شروق الشمس بساعة واجتزنا المبرز ، وهي بلدة مسورة وبداخلها مساحات واسعة من /p.153/ جهة كلتا بوابتيها الجنوبية والشمالية اللتين دخلنا وخرجنا من خلالهما . كما يوجد بها سوق صغير يتكون من اثني عشر دكاناً تقريباً والشوارع ضيقة ومكتظه تماماً بالحمير المثقلة بالأحمال . توجد آبار للماء العذب في البيوت ويقع على بعد نصف ميل من البوابة الشمالية بركة عين الحارة . كان بها ثلاثون امرأة يستحممن في الطرف البعيد من البركة الفاترة ، ولم يكنّ كلهن محجبات . يمكن أن تشاهد منطقة حزام النخيل المروية من هذا الماء ممتدة إلى الشرق وتنتهي في الصحراء على بعد ميلين من العين .

يمتد الطريق إلى الشمال تقريباً عبر سهل رملي أجرد ، وبه حصن حكومي صغير على بعد ميلين ونصف من المبرز . دخلنا منطقة حزام بساتين عين أم سبعة على بعد ستة أميال من الهفوف ، وسرعان ما وصلنا حوض بركة العين . يوجد في الوسط فتحة سوداء يندفع الماء منها ويسيل بسرعة إلى الخارج متفرعاً في سبعة جداول مختلفة جيدة الحجم . وجدت درجة الحرارة ١٠١° فهرنهايت على حافة البركة ودرجة حرارة الجو حوالي ٦٠° فهرنهايت . ولهذا فإن درجة حرارة الماء قد تكون نقصت درجة أو ثلاث درجات أثناء وصولها إلي . عندما تتعامد عليها شمس

الصيف فستصل درجة حرارة الجو إلى ١٢٠° على الأقل ولابد أن ترتفع درجة حرارة الماء إلى ١١٠° عند تدفقها في الجداول . ذهبت خصيصًا لأرى إن كان هناك أي أسماك، ووجدت بعضها في مخرج البركة تقاوم جريان الماء السريع بسهولة ومن الواضح أنها كانت مستمتعة بدرجة الحرارة التي يمكن اعتبارها حمامًا ساخنًا لكنها أبرد درجة عرفتها هذه الأسماك . من الطريف أن نعرف عما إذا كانت الطبيعة أمدت هذه الأسماك بأي تكيف لتحمل هذه الظروف غير العادية . كان من الشائع خروج الأغنياء من أهل الهفوف في رحلات استحمام إلى العيون حيث يأتون في مجموعات كبيرة على حمير صغيرة مستأجرة بريال في اليوم الواحد . تناولنا القهوة مع مجموعتين مختلفتين من المتنزهين، وأكلنا وجبة مشبعة مع مجموعة ثالثة، وبعد ذلك كان علي أن أسحب جنودي الممانعين من هذا الجو المضياف .

تجولنا باتجاه الشمال عبر النخيل حتى وصلنا إلى أطرافها الشمالية من أجل التحقق من نهايتها حيث تلاشت في الصحراء على بعد حوالي ثلاثة أميال من العين. رجعنا نشق طريقنا في الماء عبر حوض ضحل كبير من مياه التصريف/p.154/ كان طوله يبلغ ميلين، وأدغال من القصب ولم يتحرك طير واحد إذ أن هذا مكان عديم الحياة مثله مثل الصحراء عديمة الماء . كنا نمر بآخر بقعة من الأسل عندما قفز ذكر دراج أو طائر حجل أسود واختفى في القصب الكثيف . كانت بندقيتي في الخرج وبالرغم من نصف ساعة من البحث عن هذا الطير فلم نستطع أن نجده مرة أخرى ،وكان علينا أن نتخلى عنه . يسميه الناس الورارة (*Warara*) وهذا ليس الاسم المعروف به في العراق حيث يسمى دراج (*Daraj*) أو الاسم العام حجر (*Hajar*)[١] وقالوا إنهم نادرًا ما يرون هذه الطيور . وجهت الجماعة بعيدًا عن

(١) يبدو أن الاسم قد اشتبه على المؤلف فالمقصود حجل وليس حجر . (المترجمان)

جماعات المتنزهين عند العين ولكنهم هزموني في المبرز ، لأن الأمير المحلي قد أُخطر في الصباح بتجهيز القهوة لنا . كانت ملامحه زنجية لأن الأمير الرسمي محمد بن ثنيان كان خارج البلدة . جلسنا في الخارج مقابل مباني الإمارة، وحالما ترجلنا عن خيلنا اضطجعت والتفت في الرمل قربنا ثم نامت . كان حصاني رماديًا منقطًا بنقط ضاربة للحمرة أرسله الملك حسين شريف مكة هدية للسلطان . غادرنا المكان بعد أن تناولنا شايًا بالزنجبيل والقهوة وطقوس مدخنة البخور .

[٧ يناير] بدا وكأن السلطان سيقضي وقتًا طويلاً في الهفوف . كان قصره الضخم الجديد (اللوحة رقم ١٩) قرب بيت الضيافة ولا يفصل بينهما سوى بيت واحد. كان الصبيان سائقو الحمير يفرغون طوال اليوم كتل الحجارة لتجديد الجزء الأوسط من القصر . تكاد غرف السلطان الخاصة تلامس منزلي من الجهة الخلفية وتطل النوافذ بعضها على بعض .

[٨ يناير] أخذت صورة لإحدى كلاب الأمير السلوقية التي جاءت مع الخادم وتسمى ظبي (gazelle) وكانت كلبة ذات لون أصفر ببياض . كان شعرها ناعمًا ولكنه حريري وكثيف وذيلها ناعم منخفض وبدون خصل من الشعر على رجليها أو أذنيها (اللوحة رقم ٤٤) .

سمعت بأن لدى الشيخ عبدالله ثمانية أولاد يسكنون في الهفوف واثنان منهم متزوجان ويسكنان في بيتين خاصين . عزمنا على المشي إلى مزرعة القصيبي وقد قاومت بقوة كل الإغراءات لأخذ الخيل /p.155/ ولكن ظهور ثلاثة أولاد بحميرهم على الطريق كان أكثر من أن يقاوم بالنسبة للجنود وحاولوا «استعارة» الحمير قائلين بأن الصاحب يريد أن يركب . لحسن الحظ لم يخف ذلك أصحاب الحمير بل ضربوا حميرهم لتعدوا رافضين التوقف بغض النظر عما إذا كان هؤلاء جنود الأمير أم لا .

لقد كان منظراً مضحكًا أن ترى الجنود بثيابهم المتدلية وسيوفهم المتمايلة يجرون خلفهم وكان رائعًا كيف تمكن الأولاد من أن موازنة أنفسهم بجلسة جانبية على السرج وأرديتهم تتطاير في الهواء ثابتين على حميرهم وقد تقدموا على ملاحقيهم الذين كانوا كل شيء عدا أن يكونوا رياضيين . كان هناك جرذ أحمر جداً خارج المزارع الشرقية وظننت أنني أقتفي أثر نوع آخر ، وفيما بعد تم التأكد من أنه تحت نوع مختلف .

كان لدى المسئول (المزارع) عن مزرعة القصيبي طبق من الرطب المجني من نخلة ويعتبر هذا ترفًا عظيمًا لأننا لسنا في موسم الرطب . يجنى هذا الرطب من نخلات صغيرة جداً وغير شائعة ولابد من حمايتها من الطيور بلفها في حصيرة بينما يوضع في بعض الأحيان صحن من الفاكهة بجانبها لتحويل انتباه الطيور إليه . قال المزارع كذلك : إن العرب لا يقتلون الجرذان لأنهم يتذكرون أعداءهم ويأتي الأقارب الحزينون في الموسم القادم ويقضمون عذوق النخل من قبيل الأخذ بالثأر . قيل هذا لي بجدية تامة ولكن بما أن الفئران تعمل هذا على أية حال ، فمن الصعب معرفة أين ينتهي الخراب المعتاد ويبدأ الأخذ بالثأر .

[٩ يناير] أخبرني اليوم محمد حسن بأن رجلاً رأى بومة كبيرة على جبل أبو غنيمة وأنها تأتي إلى صخرة معينة كل مساء وتنعب عند الغروب . كما أخبرني عن محادثة له مع الأمير عندما قال له هذا الأخير أنه يأسف لأن المطر لم ينزل ، ولهذا اضطر إلى تأجيل حملتنا إلى الجنوب . كان من الواضح أنهم متلهفون لعمل أقصى ما يستطيعون لمساعدتي في مشروعي الذي هو من نوع غير عادي أبداً . لو كنت أعلم بحالة البلد ، لكنت جئت إلى هنا في الفترة ما بين يناير وفبراير للقيام/p.156/ برحلات بطيئة عبر البلاد لأنه في الفترة ما بين فبراير ويونية تكتسي الشجيرات بكمية

معينة من الخضرة حتى في أوقات الجفاف . لكن بسبب جهلي فقد وصلت في الأشهر الثلاثة الأكثر جفافًا من السنة كما أن ذلك العام كان استثنائيًا من ناحية جفافه .

[١٠ يناير] كان صباحًا ضبابيًا آخر وباردًا برطوبة . كما وصلت اليوم أخبار بأن السلطان سيصل إلى هنا في غضون عدة أيام ومعه ٣٠٠ رجل ما بين حاشيته وعائلته . بما أن أبناءه حتى الصغار منهم يحتاجون إلى إقامة في بيوت خاصة، فإن هذا يعني بأن توفير المأوى أمرًا ليس سهلاً وأن هناك عملاً صاخبًا في معسكر الشيخ عبدالله . كان على جنودي أن يساهموا في هذا النشاط العام ذهابًا وإيابًا، وكان محمد الأفندي في السوق لشراء بعض من مرشحات الماء الفخارية الجديدة . أخبرني رستم بأن السلطان غالبًا ما يقيم في الهفوف لمدة أربعة أشهر في هذا الوقت من السنة . بقي ابنه الأكبر سعود بن عبدالعزيز بن سعود[١] مسؤولاً في الرياض أثناء غياب والده .

[١١ يناير] يقوم المهندس المعماري محمد بن أحمد بالكثير من البناء للسلطان ولعائلة القصيبي . تعلم هذه المهنة في بوشهر بفارس، وهو من مواليد الهفوف وعمل فيما بعد بالكويت، وهو يعمل الآن مع السلطان مهندسًا معماريًا للحكومة . كان رجلاً أعور ذا قدم مشوهة كثيرًا عند الأصابع ربما بسبب سقوطه من عارضة خشبية وقال : إنه يبدأ برسم مخططاته على الورق . لابد من جلب الأخشاب الكبيرة من الهند بالإضافة إلى أخشاب الروافد ،وهي جذوع أشجار مدورة ومستقيمة قطرها حوالي ثلاث بوصات . ويستخدم كذلك روافد من جذوع

(١) هو سعود بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود شارك في توحيد البلاد وأصبح وليًا للعهد سنة ١٣٥٢هـ وتولى الحكم بعد وفاة والده سنة ١٣٧٣هـ . امتد حكمه إلى سنة ١٣٨٤هـ وتوفي سنة ١٣٨٨هـ . انظر : خير الدين الزركلي ، الأعلام ، جـ٣ ، ص ٩٠ .

النخيل، ولكنها لا تعطي امتداد واسعًا في الغرفة مثل الروافد الخشبية الأخرى. مادة البناء معظمها من الأحساء وهي من كتل صخرية جيرية وجص. يستورد الأسمنت ويستخدم لأماكن خاصة ودائمًا في الأماكن التي يلامس بها الماء المبنى. تنعم الجدران الداخلية بالجص وتزين بتصميمات بسيطة كمربعات ودوائر تحفر بسكين. النوافذ الأرضية زجاجية وغالبًا ما تكون مدعمة بقضبان حديدية من الخارج /p.157/ وفي أعلى النوافذ هوايات مصنوعة من كتل آجر مربعة ومخرقة. ذكر بأنه لا يبني أكثر من طابقين نظرًا لصعوبة صعود الدرج. أقواسه المدورة جميلة جدًا والأبواب الخشبية أعمال فنية، فهي مزينة من الأعلى والجانبين بنقوش بيضاء. هذا النمط المعماري أقرب إلى منطقة ساحل الخليج العربي منه إلى شمال فارس (اللوحة رقم ١٥). من الواضح أن للسلطان دورًا كبيرًا في تخطيط القصر الجديد لأن التصميم عربي (اللوحة رقم ١٩) فالقوس المستدق الرأس والذي يسميه السلطان «إبراهيمي» كان بلغريف قد ذكره وأعجب به أثناء زيارته سنة ١٨٦٢م. يقول جي. بي. مكي (J.B. Mackie) في المجلة الجغرافية عدد مارس سنة ١٩٢٤م بأن المسجد الجميل (اللوحة رقم ١٤) كان من عمل إبراهيم باشا، أحد الحكام الأتراك قبل ١٥٠ سنة، وبلاشك فإن النمط القديم لهذا القوس يعود لنفس الفترة. تشكل الأقواس من جذعي نخلة يوضعان على دعائم مائلة أحدهما تجاه الآخر حيث يلتقيان في الوسط ويشكلان السقف. لهذا فإن هذا النمط الجديد للقوس المدور والمزود بحجر عقد، سيخلق هنا نمطًا معماريًا يرتبط بحكم عبدالعزيز، السلطان الحالي.

بدأت طيور صعوة الدخل تغني بقوة مما يجعل المرء يظن بأن الشتاء انتهى قبل أن يبدأ. إنها لم تكن أغنية، لكن لحن يتكرر مع تغيرات كثيرة حتى إنه ليخيل للمرء أن هناك طائرًا آخر. كان له نغمة موسيقية فبدا هذا المغرد الصغير وكأنه سينفجر، ونغمة أخرى كأنها شقشقة طائر الهازجة، وعلاوة على ذلك فله صوت آخر يشبه

تدوير تعبئة الساعة . كدت أن أقطع طرف إبهامي أثناء سلخ إحدى هذه العينات الصغيرة ولكنه شفي من دون أي مضاعفات حيث كويته حالا ببرمنغنات بلورات البوتاس المبللة باللعاب وقد احتطت لكي لا تدخل البلورات في الجرح . يبدو أن هذا علاج ناجع إذا كان الجلد مقطوعًا وهو يضمن شفاء سريعًا ونظيفًا غالبًا ما يكون صعبًا في المناخ الحار . إنه يكون أكثر فاعلية إذا وضعت محلول البرمنغنات القوي على الجرح قبل غسله لأن الماء نفسه غالبًا ما يحتوي على جراثيم تسبب التقيح . /p.158/

[١٢ يناير] طبقًا لما ذكره محمد حسن فإن الإبل لا تستخدم حتى تبلغ خمس سنوات من العمر . يسمى الجمل في السنة الأولى حوار وفي الثانية مفرود عندما يفطم عن الرضاع . في السنة الثالثة يسمى حق وفي الرابعة يسمى لقي وفي الخامسة يسمى ثني . بعد ذلك تستخدم الإبل وتبدأ في التناسل وتكتمل أسنانها . عندما تظهر أسنان الجمل الأولى يسمى رباع وعندما تسقط وتظهر المجموعة الثانية يسمى سديس .

ركبنا خيلنا إلى عين نجم لنحصل على المزيد من طيور القنبرة الصحراوية وإن أمكن فسنبحث عن البومة النسارية على جبل أبو غنيمة . لم تتقدم عملية التنظيف في العين حيث انهار جانب من الرافعة ، وكانت رائحة الماء أسوأ مما كانت عليه من قبل ، ولست متأكدًا عما إذا كان السبب في هذا هو الكبريت أو بقايا رغوة الصابون . كان الماء سيئًا جدًا فكره الجنود لمسه ، ولكن مجموعة صغيرة من البدو كانت تستريح هناك ، وتشرب الماء ويبدو أنهم مستمتعون بذلك ومن المدهش ما الذي سيشربه هؤلاء الناس . كان مع اثنين من منظفي العين مصائد من صناعة محلية يستخدمونها لصيد طيور القنبرة الصحراوية والتي يسمونها حُمّرة وكذلك لصيد طيور الأبالق . المصيدة تقليد جيد جدًا للمصيدة قاصمة الظهر ولو أن الفكرة بالطبع قديمة جدًا .

تتكون من نصف دائرتين من الخشب معمولتين لتطبقا فجأة بعضهما على بعض وبقوة لا تصدق بواسطة زنبرك مصنوع من صوف الضأن المفتول . يطلق الطير السقاطة بسحب الخيط الذي ربط به الطعم وهو دودة بيضاء تسمى السرو تتواجد في الرمال . ويوضع السرو كذلك على يرقة أو يرقانة فراشة .

أرسلت الجنديين مع الخيل إلى جرف ظليل عند وصولنا إلى صخور في الجبل وتفحصت كل تلة بعناية . تمتد السلسلة لميل أو ميلين باتجاه الغرب ولم أجد إلا طائر الأبلق أحمر الذيل (*Oenanthe Chrysoppygia*) الذي كنت سعيداً بالحصول عليه لأنني كنت قد وجدت عشه مبنيًا على ارتفاع ١٠,٠٠٠ قدم في جبال البورز شمال طهران والآن عرفت مآويه الشتوية . ظهر ثعلب من الجانب الآخر عندما كنت في طريقي إلى آخر تلة قبل أن أعود إلى الخيل وجرى أمام عيني وتبعته بومتان نساريتان من أشحب ما رأيت في حياتي . كانتا لحسن الحظ بعيدتين جداً فلا يمكن رميهما بالبندقية لأن رأس محمد ظهر في الأفق بعد ذلك بلحظة . /p159/ كان قد رأى الثعلب ولحقه ببندقيته ، وكان ذلك مزعجًا لي بشكل كبير لأنه أربك الموقع تمامًا وكان من الممكن أن يطلق رصاصة باتجاهي . انتظرنا حتى الغروب لتعود البومة إلى صخرتها المفضلة ولكنها لم تعد ولم يكن من الممكن لها أن تعود بعد كل هذه الفوضى .

لم يكن هناك متسع من الوقت لتحديد الاتجاهات ولكن المنظر من قمة جبل أبو غنيمة كان مشهداً عظيمًا وهذه نقطة جيدة لمن أراد أن يلقي نظرة عامة على الواحة . يقع باتجاه الشمال نخيل العيون تحت سلسلة من التلال ، وباتجاه الجنوب جبل الأربع بارزاً على السهل وكأنه قلعة ضخمة . تقع على الأفق الجنوبي سلسلة جبلية أخرى تسمى جبل خرما زرنوقه[1] . يمكن تتبع طريق الرياض عبر السهل باتجاه جبل

(١) الخرماء جبل ممتد من الشمال نحو الجنوب يقع جنوب الأحساء . انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، القسم الثاني ، ص ٦٠٢ ـ ٦٠٣ . (المترجمان)

الغوار[١] الذي هو سلسلة جبلية يمكن رؤيتها على الأفق الغربي بينما تمتد مساحة النخيل الخضراء الداكنة من الهفوف باتجاه الشرق إلى سفح جبل قارة . عندما صعدنا على القمة في المرة التالية لم أستطع تمالك نفسي فأخذت بعض الاتجاهات مع أنني لم أرد أن أظهر بمظهر المهتم بجغرافية الهفوف . سطعت الشمس هذه المرة على جبل إلى الشمال بعيداً عن العيون، وارتفع عاليًا على السهل كقلعة مستقيمة الجدران ويسميه الناس غريمة[٢] . لقد كان من الممكن تتبع حدود البساتين من عين الحارة باتجاه الشرق ثم الجنوب في خط متصل يلتقي مع نخيل عيني الخدود وحقل[٣] ومن ثم إلى جبل قارة . بدا في الأفق إلى الشمال والشمال الغربي مجموعة من السلاسل الجبلية ممتدة بشكل متواز باتجاه الشرق والغرب . تمكنت بعد عودتي لإنجلترا من عمل مخطط خريطة تقريبية للواحة بناء على هذه الملاحظات . لو علمت أن هذه المنطقة بكاملها تفتقر إلى خريطة لكنت غامرت بعمل مسح أكثر تنظيمًا .

[١٣ يناير] كانت السماء ملبدة بغيوم كانت ستمطر لو أنها في بلد آخر . نفد زيت المحرك الذي أستخدمه لتنظيف البنادق وكنت قد أحضرت ملء حوالي ثلاثة كؤوس بيض وكان يجب أن يكون معي زيت احتياطي لأنه لا يمكن شراؤه من الهفوف . معظم الزيت المحلي مصنوع من شحم الحيوانات وتصدأ مواسير /p.160/ البنادق بسببه . من الخطأ أن تضع أي مادة زيتية على البندقية أثناء سفر الصحراء لأن الرمل الناعم سرعان ما يغطي وصلاتها . يجب أن تجفف البنادق جيداً بعد التنظيف وحتى بعد ذلك فإن الرمل يدخل في البندقية ويضر بها . وصلتني اليوم رسائل من

(١) جبل الغوار يقع غرب الأحساء . انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، القسم الثالث ، ص ١٢٧١ـ ١٢٧٢ . (المترجمان)

(٢) ربما أن ما قصده المؤلف هو جبل غريميل الواقع شمال الأحساء . انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، القسم الثالث ، ص ١٢٦٠ ـ ١٢٦١ . (المترجمان)

(٣) المقصود هنا عين الحقل في الأحساء . انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، القسم الثالث ، ص ١٢٢١ . (المترجمان)

لندن بتاريخ ٧ و ١٢ ديسمبر وكلاهما وصل بالبريد الجوي عن طريق بغداد وعليهما ملاحظة من دالي مؤرخة بتاريخ ٨ يناير في البحرين .

جاء رجل اليوم ومعه قرب ماء ليرتوي من الهفوف ويعود بها إلى مخيم السلطان ولهذا عرفنا فعلاً أنه قادم في الطريق .

[١٤ يناير] جو دافيء يدل على أن الشتاء انتهى وسمعت قصف رعد في السحب وقد يكون المطر سقط بعيداً ولكن لم يسقط علينا شيء . خرجنا مرة أخرى في محاولة لصيد البومات النسارية . أحضرت الخيل إلى الساحة وفي أثناء التسريح رفس حصان فحل محمد حسن على ذراعه ولم ينكسر عظمه ولكنه تورم فضمدته بمحلول اليود . كان على محمد حسن أن يركب حصانًا إنجليزيًا بديلاً مستورداً من استراليا . بدأ تاريخ هذا الحصان في البحرين حيث من الواضح أن عائلة الشيخ عيسى اشترته بعد الحرب من مبيعات الخيل البدائل وقد وجدوه ضعيفًا. عندما مر فيصل وبعثة نجد بالبحرين في طريق عودتهم من لندن، كان لابد من تبادل الهدايا واستغلت عائلة آل خليفة الفرصة لأداء الواجب والتخلص من هذا الحصان الضعيف في نفس الوقت [١] . لهذا فإن الحيوان أهدي ونُزِّل في العقير وأوصله السائس الذي انتدب لهذا الغرض إلى الواحة ولكنه خلال إحدى السباقات الاستعراضية عثر بسبب حوافره الطويلة فسقط السائس وكُسر أنفه وكان عليه أن يذهب للدكتور الأمريكي في البحرين لعلاجه .

هذا هو الحصان الموجود الآن في ساحة المنزل وقد توقعت أنه سيسبب لنا متاعب لأنه كان ينتصب عاليًا على قدميه الخلفيتين عندما يقتربون باللجام العربي لوضعه حول رأسه .

(١) هذه من ملاحظات وانطباعات المؤلف الشخصية والتي ليست في الغالب صحيحة . (المترجمان)

يعتبر اللجام العربي من أعنف اللجامات، ويمكن أن يكون قاسيًا جدًا ، /p.161/ إذا كان في يد غير خبيرة . إن جر حلقة العنان التي حول اللسان والفك السفلي يمكن أن توقف الحصان فجأة . يمتطي العربي حصانه عادةً بحبل من الصوف مربوط بطوق على العنق ولا يوجه الحصان عن طريق فمه بل بمجرد تحريك يديه فوق العنق يمنةً ويسرة ويلمس اللجام أحيانًا . لاشك أن هذا الفرس البديل قد جرب اللجام ويرفض أن يراه بجانبه . لهذا فبعد بعض التأخير انطلق محمد حسن على حصانه بطوق العنق فقط وبعد أن قطع أقل من نصف ميل خارج البلدة تبين له أن هذا الحصان صعب المراس ولن يتحكم به جيدًا . اقترحت عليه أن يحضر لجامًا إنجليزيا ولكنه ذكر بأنه لا يوجد مثل هذا في البلدة . طلب من أحد الجنود أثناء ركوبه أن يحاول وضع اللجام العربي مرةً أخرى . لكن الحصان وقف منتصبًا في الهواء للحظة ومحمد متشبث بالسرج ثم سقط الحصان إلى الوراء عليه . كان هناك ضربة مدوية على الأرض الصلبة وكنت مسرورًا لرؤيته ينهض مع الحصان في نفس الوقت تقريبًا . لم يصب بأذى ولكنه قرر أن يعود بالحصان ويستبدله . لم يلحق بنا على أية حال واعتذر بأنه لم يجد حصانًا آخر ولو أن الاحتمال الأكبر أنه حصل على ما يريده من تمارين الفروسية لهذا اليوم .

ذهبنا إلى الجبل وتركنا الرجال مع الخيل وأبلغناهم بألا يتركوا المكان حتى نستدعيهم . أخذت مهدي معي وبدأت أستكشفت من بعد بمنظار ميدان الأماكن المنعزلة وصدوع الصخور . رأيت في مدخل إحدى الفتحات البومة النسارية جاثمةً منتصبة شعر الأذنين باديةً وكأنها كسرة حجر تمامًا حتى أنه ليتعذر رؤيتها بالعين المجردة . تركت مهدي يراقبها فيما لو فرت والتفيت لفةً طويلة بعيدًا عن مرأى البومة حتى وصلت إلى سفح الجبل . بدأت بعد ذلك أصعد صخرة ملساء شديدة الانحدار مكسوة بكثير من قطع الحجارة السهلة الانجراف بحيث يحتاج الشخص

إلى عناية شديدة ليتجنب اقتلاع أي من هذه الحجارة التي قد تسقط محدثة صوتًا . حددت مكانها الدقيق بما حولها من الصخور البارزة ووصلت على بعد مرمى البندقية من المدخل ولم أر أي أثر للبومة . /p.162/ وبتوازن غير ثابت إلى حد ما رميت حجراً صغيراً وفجأة قابلني وجه شاحب يميل إلى الصفرة وعينان ذهبيتان جميلتان . حدق كلانا في الآخر للحظة حيث كانت الشمس خلفي فانبهر الطير بالضوء وفي اللحظة القادمة فرت مندفعة تحلق بأجنحتها الهادئة عبر الوادي . لو أنها بقيت في مكانها لربما تغلب علي جمالها وتركتها حرةً حتى بعد هذه المطاردة الطويلة المتعبة لكن برز حدس القنص مرة أخرى عندما رأيتها تبعد بسرعة عن مرمى البندقية فسقطت على بعد مئة قدم إلى الأسفل . انجرفت الصخرة الهشة في الوقت نفسه من تحت قدمي وانزلقت إلى نفس النقطة التي سقطت فيها قبل أن أستطيع التوقف . كان مهدي قد قطع المسافة من مكانه الذي كان يراقب منه الصيدة ويصيح : «هذه جديدة . لم نر مثل هذه من قبل» . كانت في الواقع طيراً جميلاً بأدق درجات اللون الأصفر الفاتح منه والرملي الذي يندرج ضمن ما يسمى لون الصحراء . كانت هذه أول مرة أرى فيها البومة النسارية (*Bubo desertorum*) . لون بومة العراق النسارية أغمق بكثير ، ولها تموجات بنية صارخة وخطوط جميلة جداً ولكنها لا تقارن ببومة الأحساء ذات اللون الأصفر الشاحب المتناسق الجميل . بحثت بلا جدوى بعد عودتي لإنجلترا لأجد مثيلاً للجلود التي أحضرتها من بين عينات البومة النسارية التي جاءت من فلسطين وشمال أفريقيا ، ولكن عندما قورنت بثلاثة جلود أحضرها النقيب إنجوس بيوكانن من إير (Air)(١) من الصحراء الغربية ومحفوظة الآن في متحف ترنج (Tring) ، وجد لها مثيلاً مطابقًا لها في درجات لون الصحراء .

(٢) إير اقليم جبلي في الصحراء الكبري في دولة النيجر الحديثة ويعرف أيضًا بأسبن وتقدر مساحته بحوالي ٥٨٠٠ ميل مربع . ينقسم سكانه إلى عنصرين أساسين هما السود والطوارق وقد بلغ الإقليم أوجه عندما استولى عليه الحاج محمد اسكيا سلطان سنغاي . انظر : د. عبدالرحمن زكي ، تاريخ الدولة الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية ، القاهرة : المؤسسة العربية الحديثة ، ١٩٦١م ، ص ١٢٨-١٢٩ . (المترجمان)

كانت البومة الأخرى ـ الأنثى ـ أكثر مكراً فقد قادتني إلى قمة جبل ثم طارت في الصحراء المكشوفة حيث أصبح من المستحيل اختيالها خفية . فبعد أن أزحف طويلاً على الرمل الحار تطير البومة قبل أن أصبح منها على بعد مرمى البندقية ثم تنزل على بعد خمسمائة ياردة . إذا اختفت عن النظر فهي تجثم منبطحة على الأرض وتتعذر رؤيتها تماماً بين التربة والشجيرات الصغيرة . كان علينا بعد ذلك أن نعود إلى الخيل /p.163/ وقطعنا مسافة طويلة فبين فترة وأخرى تنزل البومة على مقربة منا وبرغم ذلك فإنها دائما تطير قبل أن أتمكن من رميها . أخيراً اقترح أبو سعود أن يركب حصانه ويردها باتجاهنا وبدا أن هذه الحيلة لن تنجح مثل غيرها من الحيل ولكنها ستكون مسلية . ومن شدة يأسه حاول أن يلحق بها وهي تطير وياللغرابة ففي مبارزة عادلة بين حصانه الصغير والبومة تمكن الحصان فعلاً من تجاوزها ولكنه ردها في الاتجاه الخاطيء . أوقفنا المطاردة فقط عندما ازداد الظلام كثيراً بحيث تصعب رؤيتها . مع أنني لم أتمكن من رميها إلا رميةً واحدةً فقط وبعيدة إلا أن الحظ كان حليفي . جئنا إلى هنا لنبحث عنها بعد مرور خمسة أيام وبعد معاينة الجبل بالمنظار لم نجد شيئًا قال محمد حسن : إنه يرى شيئًا بعيدًا إما أن تكون البومة أو قطعة من ثوب قديم وعند ذهابنا إلى المكان وجدنا البومة ميتةً . توقعت أن أجدها متعفنة بحيث لا يمكن الاستفادة منها ولكن على العكس من ذلك وجدتها طازجة جداً فقد ساعد الجو البارد في المحافظة عليها . أما لماذا لم تخربها الثعالب أو الغربان فسيبقى هذا سراً إلى الأبد وقد تعجبت أكثر من فرصة العثور عليها فلربما سقطت بسهولة في مكان لا يجدها فيه أحد ولكان هذا هدراً لحياتها ونقصًا كبيراً في عينات هذه المنطقة . /p.164/

الفصل الثاني عشر :

مع السلطان في الهفوف

[١٥ يناير] أسقطت عاصفة رعدية عنيفة قادمة من الشمال مطراً غزيراً خلال الليل مدة قصيرة . سكن الغبار أخيراً ، ولكن الشوارع العطاش لم تجر المياه فيها ، ومع ذلك فقد كان مطراً جيداً بالمقاييس المحلية ، وكان أكثر غزارة مما سقط خلال عامين . هبت الرياح هذا الصباح من كل الاتجاهات ، ومع أنها كانت عاصفة إلا أنها لم تكن قوية . لم أواجه في الهفوف حتى الآن ريحاً تجاوزت سرعتها عشرين ميلاً في الساعة . فارقني النوم كلية ليلة البارحة ، ويعود ذلك إلى قوة صوت الرعد من ناحية ، وإلى الاستثارة لحصولي على البومة من ناحية أخرى . جربت حبة من الفيناسيتين ولكن بلا جدوى وعندها تناولت مسكناً واستغرقت في النوم .

وصل السلطان قبل الغروب بساعتين ومعه ٣٥٠ جملاً بالإضافة إلى الحاشية والجنود . لم أشاهد وصول الموكب ؛ لأنهم دخلوا من بوابة أخرى ، لكنني توقعت أن أسمع بوصولهم ؛ لأن فارساً مدفوعاً بالابتهاج الصرف مر بجانب المنزل منطلقاً بأقصى سرعته ومفرّقاً في طريقه المارة في كل الاتجاهات . أخبرني الخدم بأن ابنه فيصل كان معه ، وأن السلطان بنشاطه وحيويته المميزة قد عقد مجالس استقبال حتى ساعة متأخرة من الليل ، ذلك أن كل فرد كان يود أن يكون الأول في تقديم التحية

له؛ ولذا فلابد أن موظفي البلاط قد أمضوا وقتًا صعبًا في ترتيب الأقدمية . أشار عليّ محمد حسن بأن أقوم بزيارة تحية للسلطان في اليوم التالي عندما ينتهي مجلس الاستقبال الأول .

[١٦ يناير] أمضى محمد حسن صباحًا متعبًا في الترتيب لزيارتي الرسمية ، فقد أشعرني قبل ساعة من الموعد لكي أتمكن من إرتداء ملابسي العربية ، وأكون جاهزًا عندما يأتي الاستدعاء الأخير . كان مهدي /p.165/ سيقدم للسلطان في الوقت نفسه . وصلت أخيرًا رسالة الاستدعاء فحملت رسالة السير برسي كوكس وانطلقت حيث أدخلت في نفس الغرفة التي كثيرًا ما استقبلني فيها الشيخ عبدالله . من الواضح أن قاعة السلطان الجديدة لم تكن جاهزة بعد . كان حفل الاستقبال هو نفسه المعتاد باستثناء أن عدد الناس أكثر ، وهناك العديد من الوجوه الغريبة في نهاية القاعة . كان السلطان يجلس على المقعد الذي اعتاد أن يشغله الشيخ عبدالله الذي توقعت أن أراه جالسًا بجانب سيده السلطان . عندما أشرت فيما بعد إلى غيابه لمحمد حسن كان هذا الاخير متعجبًا بدرجة كبيرة ، وأخبرني أن الشيخ عبدالله كان حاضرًا وكان على مقربة مني ، فقد كان ـ في الحقيقة ـ يجلس على الأرض بالقرب من أحد أبواب المدخل ، تذكرت عندها أنني لاحظت شخصًا في ذلك الموقع المتواضع ، وكنت قد اعتقدته مملوكًا . «ذلك هو» قالها حسن ضاحكًا «كان ذلك أمير الأحساء» . يمثل هذا الانطفاء الكامل لشخص بارز عند وصول آخر أبرز منه مظهرًا رائعًا للمجتمع العربي . إنه لا يحتل المكان الثاني ، ولكنه يختفي تمامًا . بدا الأمر قريبًا من الفظاظة ألاّ يتعرف المرء على وجود الشيخ عبدالله ، ولذلك فعندما علمت بعد أسبوع أنه يعقد مجالس استقبال صغيرة في منزله خلال إقامة السلطان ، اقترحت على محمد حسن أن أقوم بزيارة مجاملة له . من المحتمل

أنه نقل رغبتي إلى الشيخ عبدالله ولو أنه لم يعترف بذلك صباح اليوم التالي عندما أخبرني أنه لا يظن أن زيارتي المقترحة ضرورية طالما أن السلطان موجود ويمكنني أن أذهب وأراه ، فماذا يمكن أن يطلب أحد أكثر من هذا ؟ ولذا فقد انتهى الأمر إلى أنني لم أر الشيخ عبدالله أبداً مرة أخرى ، وقد كان ذلك مدعاة أسف حقيقي لي ، ذلك أني قد حملت قدراً عظيمًا من الاحترام للأوتوقراطي الداهية العجوز .

كنت أتساءل في داخلي وأنا أمشي متقدمًا إلى صدر الغرفة الطويلة أي نوع من التصرف كان متوقعًا مني؟ لكن ابتسامة السلطان عندما رآني ووقف لتحيتي أراحتني بشكل فوري . أجلسني عن يساره ، وبعيد برهة كنا نتبادل الأسئلة والأخبار الشخصية . سأل عن أحوال السير برسي كوكس ، وأخبرني عن الصداقة العظيمة التي يشعر بها /p.166/ تجاهه . سلمته الرسالة وسأل إن كانت مماثلة لتلك التي سبق أن تلقّى نسخة منها ؟وعندما رددت بالإيجاب وضعها بجانبه بدون قراءتها ثم قال : «قال السير برسي كوكس في رسالته : إنه آسف إذ لم يكن بإمكانه المجيء هو أيضًا ؛ هو ليس أكثر أسفًا مني » . سأل بعدها عما إذا كان كوكس لا يزال في خدمة الحكومة فبينت له بأنه قد تقاعد ، وأنه مشغول بالاستقرار في منزل جديد في لندن . هنأني السلطان بعدها على تنكري كعربي . وفي الحقيقة أنه مع بلوغ لحيتي طولاً محترمًا ، فقد كنت أشعر بالفخر الكبير لمظهري الأميري . أُحضر مهدي بعدها إلى الغرفة وقُدم إلى السلطان الذي مال إلى الأمام وهو جالس على كرسيه وقبله مهدي على جبهته ثم انسحب إلى مقعد في منتصف الغرفة .

انهمك ابن سعود في الحديث بينما كانت الدورة الأولى من القهوة تقدم من قبل زنجي شديد السواد ، قدمها أولاً لسيده الذي شرب قبل أي شخص آخر . كنت محتاراً في كيفية مخاطبته ، وخطر لي بشكل تلقائي أن أناديه بـ « جنابك» ولقد وجدت لغته العربية أسهل على الفهم من تلك التي يستخدمها الشيخ

عبدالله، وقد فهمني هو بشكل أفضل . قال: إن المطر لم يسقط على نجد باستثناء الوشم (إلى الشمال) الذي حصل على كمية وافرة منه ، وقال أيضًا : إنهم قابلوا في الطريق قبل ليلتين أطراف عاصفة رعدية إلا أنها لم تمطر بما يكفي لجعل الطريق زلقًا على الإبل . تحدث أيضًا عن المرض الذي سبق أن ذكره لي الدكتور عبدالله أفندي، وقال: إنه عبارة عن حمى تصيب العينين والرأس والوجه ،وقد تمكن الدكتور ديم[١] (طبيب البعثة التبشيرية الأميركية) ،الذي وجد صدفة لحسن الحظ في الرياض، من إيجاد علاج ناجح له،وقد واصل الدكتور جولته إلى شقراء تقريبًا في الوقت الذي غادر فيه السلطان الرياض . ربما كانت إصابة العين هذه أصل الإشاعة التي وصلت العالم الخارجي عبر فلسطين ، والتي كانت تتضخم بسرعة عبر انتقالها حتى وصلت إلى الساحل في شكل تقرير كاذب عن وفاته والتي أعلنت في الصحافة الأوربية مصحوبة بطوفان من بيانات التأبين التشهيرية /p.167/ غير الدقيقة مثلها مثل التقرير نفسه . إذا لم يكن هذا هو أصل الإشاعة، فلابد أنها مختلقة كلها من قبل سياسي ما وقف ليستفيد ولو مؤقتًا من وفاته.

بعد الاستفسار عما إذا كان هواء الهفوف ناسبني ، عبر السلطان عن أسفه في أن رحيلي قد تأخر طويلاً لكنه أردف قائلاً : إن تجنب التأجيل لم يكن ممكنًا . أجبته بأن كل شئ في البلدة كان سارًا ، وأن جلودًا لمائة وأربعين طيرًا وحيوانًا قد جمعت، كما أن صندوقًا قد تم إرساله إلى السير برسي كوكس. أضفت أنني قد عملت كل شيء ممكنًا لي أن أعمله هناك ، وأنني أنتظر المضي قدمًا.عبرت عن رغبتي في أن أُحضر في الوقت المناسب بعض العينات لأريه إياها ، وذلك عندما تنتهي استقبالاته . (وكان قد خصص اليوم الأول والثاني كليهما تقريبًا لاستقبال الناس) .

---

(١) هو طبيب أميركي الجنسية كان يعمل في البعثة الأميركية في البحرين . (المترجمان)

استفسرت أيضًا عما إذا كان ممكنًا لي أن أقدم احترامي لابنه فيصل الذي سبق أن قابلته في لندن . أجاب السلطان « إنه هنا الآن . هل تود أن تراه ؟» ثم نادى «تعال، فيصل» ! نهض شاب طويل نحيل وسيم من بين حشد الجنود في نهاية القاعة وتقدم إلى منتصف الغرفة . كنت قد قابلته منذ حوالي خمس سنوات عندما كان طفلاً رزينًا موفور الكرامة يرأس البعثة التي أرسلها والده إلى لندن، وكنت قد ذهبت معه إلى حديقة حيوان لندن، وأحمل ذكرى له واقفًا بين صخور بيت أسود البحر بينما كانت الحيوانات تطعم . كان ذا شخصية صغيرة جليلة يرتدي ثيابًا مموّجة، ويتوشح سيفًا وعقالاً ذهبيين . كان قيمُ البيت يرمي السمك برشاقة في الجانب البعيد من حوض الماء ، ومن ثم ، وبدون أن يُلاحظ من قبل أي أحد باستثناء أكبر أسود البحر ، أسقط بهدوء سمكة عند قدمي الأمير الصغير . ظهر في لحظة وجه كبير من الماء متبوع بجسم يتقاطر مندفعا مباشرة نحو السمكة والأمير. وقف الصبي لحظة، متماسكًا ثم تراجع مسرعًا إلى الخلف. ذهبنا في يوم آخر إلى متحف التاريخ الطبيعي في جنوب كنسنجتون حيث اجتذبته بشكل خاص غوريلا ضخمة وعندما /p.168/ سئل عن سر ذلك فأجاب بأن وجهها ذكّره بشخص يعرفه . كان هذا هو الصبي الذي كبر الآن إلى درجة لا يمكن التعرف عليه فيها ، والذي كان يتقدم في الغرفة . ذهبت للقائه وتصافحنا في المنتصف. رغم أن طريقته الآن في المشي هي تلك التي تعود لرجل ، إلا أن ملامحه لازالت تحتفظ بتلك الوسامة الرقيقة التي كانت لدية وهو طفل . لما بدا أنه ميالٌ إلى العودة إلى ركنه بعد التحية ، فقد انضممت إلى السلطان ثانية . لم يكن لائقًا من الابن أن يحتجز ضيفًا في حضرة أبيه .

كان مسئولو المخيم طوال الوقت الذي كنت فيه هناك يرتبون طابوراً مستمراً من العرب من بين الجنود ويقدمونهم بالاسم إلى السلطان . كانوا يقبلون جبهته لكنه نادراً ما ألقى بالاً لهم ، ولم تكن هناك من كلمة تقال سوى همهمة « السلام

عليكم» من جانب الزائر . لم يكن السلطان ليجيب واستمر في الحديث معي دون أن يقف. أما الزائرون فكانوا يغادرون بدون أن يجلسوا . سأل إن كنت أحمل أخباراً عن نتيجة الانتخابات العامة في إنجلترا ، وعما إذا كانت مسألة التعويضات بين فرنسا وألمانيا قد حلت . لم أتمكن من إعطائه معلومات عن أي من الموضوعين. كانت معرفته بالشؤون الغربية تبدو محدثة بشكل جيد إلى تاريخه واعتقدت أنه سيسمع شيئًا نهائيًا حول الموضوعين قبل أن أسمع به أنا . أخبرته عن وصول النعامة العربية التي أرسلها إلى السير برسي كوكس إلى لندن، وأن عدداً كبيراً من الناس قد ذهبوا لرؤيتها ، بينما لا تزال المها العربية أو الوضيحي التي سبق أن أهداها إلى الملك حية في حديقة الحيوان . قلت له إنني آمل أن أصطاد مهًا عربية، لكن بدا أنه لا يظن ذلك محتملا، لأن الامطار لم تسقط منذ سنين، وقد أرغمت جميعها على الذهاب بعيداً إلى الجنوب . المكان الوحيد الذي عرف وجود المها العربية فيه هو الصحراء قرب نجران حيث يضطرّ صيّادوها من العرب على الاعتماد كلية على حليب الإبل . عندما أديرت القهوة للمرة الثانية أوضحت أنني يجب ألاّ أشغله أكثر من ذلك وطلبت الإذن بالمغادرة.

ألقيت نظرة خاطفة من طرف عيني نحو المجتمعين قرب الباب، وأمكنني التعرف فقط على محمد أفندي /p.169/ بين أولئك الجالسين على الارض، لكن الجنود أخبروني عن بعضهم فيما بعد . كان أحد الحاضرين المرافقين هو ضيدان[1] شيخ قبيلة العجمان الذي كان منذ خمس سنين مضت يقود عصيانًا علنيًا ضد السلطان إلا أنه منذ ذلك الحين أعلن خضوعه وحاز موقعًا من الثقة والتشريف لدى

(١) هو ضيدان بن حثلين زعيم قبيلة العجمان وكان يقيم ، بعد انضمامه هو وقبيلته لحركة الإخوان ، في هجرة الصرار في وادي المياه ببادية الأحساء وكان أحد ثلاثة من زعماء الإخوان تمردوا على الملك عبدالعزيز وقد قتل في العوينة في حملة وجهت ضده بقيادة فهد بن عبدالله بن جلوي الذي قتل هو الآخر، وذلك في ١٩ ذي القعدة ١٣٤٧هـ (١٩٢٩م) . انظر : الزركلي ، شبه الجزيرة ، جـ٢ ، ص ص٤٦٥ ـ ٤٦٦ ، ٤٨٩ . (المترجمان)

البلاط ، وقد كان يلبس عباءة حمراء فاتحة اللون ؛ لأنه ـ بالمناسبة ـ كان يذهب إلى كل مكان مرافقًا للسلطان ، فقد كانت مراقبته ممكنة . ضيف مكرم آخر كان يعامل عند السفر كأحد أبناء السلطان ، ولا يمكن بالقدر نفسه الاستغناء عنه في الحاشية ، هو وريث عرش حائل الشاب عبدالله بن رشيد مصحوبًا بأخيه صالح[١] ، وكلاهما أخذا وديعة من قبل قوات السلطان عند الاستيلاء على حائل . يقال إن وريث العرش السابق الذي كان قد أخذ أيضًا ، وجد أن الضيافة الإجبارية في بلاط الفاتح مضجرة أكثر من اللازم، وقد قتل بينما كان يحاول الهرب متخفيًا بلباس امرأة[٢] . سيجد بعض سياسيينا الطائشين ـ الذين يذهبون إلى حد القول بأن القتل مبرر إذا أمكن القول بأنه ارتكب لأهداف سياسية ـ مكانهم الروحي في حائل؛ ذلك أن ڤيلبي ، كتب عن سنة ١٩١٧ يقول : « بين عبدالله[٣] وابن حفيده

---

(١) هو عبدالله بن متعب بن عبدالعزيز بن متعب بن عبدالله بن علي آل رشيد . تولى حكم حائل لمدة عام واحد ١٣٣٨ ـ ١٣٣٩ بعد اغتيال عمه الأمير سعود بن عبدالعزيز بن متعب آل رشيد عام ١٣٣٨ ، ثم استسلم للأمير (الملك) سعود بن عبدالعزيز آل سعود ، وأرسل إلى الرياض وعاش فيها مكرمًا معززًا حتى وفاته بها عام ١٣٦٧ . انظر : الزركلي ، شبه الجزيرة ، جـ١ ، ص ٢٥٤ . أما قول المؤلف إنه كان مصحوبًا بأخيه صالح فغير صحيح ، فقد ذكرت الاستاذة الفاضلة مها بنت محمد بن سعود الرشيد، المحاضرة في قسم التاريخ بجامعة الملك سعود مشكورة أن عبدالله المتعب لم يكن له إخوة، ورجحت أن يكون المقصود هو صالح بن عبدالرحمن الجبر آل رشيد الذي كان يحضر مجالس الملك عبدالعزيز. ويبدو أن كونهما من الأسرة جعل المؤلف يعتقدهما إخوة . وبالنسبة لقول المؤلف : أنهما أخذا من قبل قوات الملك عبدالعزيز عند الاستيلاء على حائل فغير صحيح ذلك أنه ثبت أن عبدالله المتعب على الأقل سلم نفسه قبل ذلك . (المترجمان)

(٢) هو محمد بن طلال بن نائف بن طلال بن عبدالله بن علي آل رشيد . كان آخر حكام حائل وتولى حكمها بعد استسلام عبدالله بن متعب آل رشيد للملك عبدالعزيز . ورغم قدراته الشخصية فقد تولى الحكم في وقت دبت فيه عناصر الانحلال والتفكك في الإمارة ، وقد سلم نفسه وأعيان أسرته للملك عبدالعزيز نزولاً عند شروطه، وذلك في ٢٩ صفر ١٣٤٠ (آخر أكتوبر ١٩٢١) . انظر : الزركلي ، شبه الجزيرة ، جـ١ ، ص ص ٢٥٤ـ٢٥٥ . أما قول المؤلف أن محمد بن طلال قتل أثناء محاولته الهرب من الرياض فغير صحيح ، فقد أكد أمين الريحاني ـ الذي كان موجودًا في الرياض في ذلك الوقت ـ قصة محاولة الهرب، لكنه ذكر أنه ألقى القبض على محمد وأوقف في قصر الملك عبدالعزيز ثم أطلق سراحه . انظر : أمين الريحاني ، تاريخ نجد الحديث، بيروت : دار الجيل ، ص ص ٢٩٤ـ٢٩٥ . عاش محمد بن طلال طويلاً ، مكرمًا ومعززًا وشهد وفاة الملك عبدالعزيز وتوفى غيلة أوائل عهد الملك سعود على يد مملوكه فارس، وذلك صباح يوم ٧ جمادى الآخرة ١٣٧٣ . انظر : سعود بن هذلول ، تاريخ ملوك آل سعود ، ط ٢، ١٤٠٢ـ١٩٨٢ ، جـ ٢ ، ص ٢١٦ . (المترجمان)

(٣) هو عبدالله بن علي بن رشيد مؤسس إمارة آل رشيد في حائل . انظر : الزركلي . الأعلام ، جـ ٤ ، ص ١٠٧ . لمزيد من المعلومات عن عبدالله بن رشيد وتأسيسه لإمارة آل رشيد انظر : عبدالله العثيمين ، نشأة إمارة آل رشيد ، الطبعة الثانية ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م . (المترجمان)

سعود [١]، الذي يحكم الآن حائل، لا أقل من ثمانية حكام جلسوا على العرش، وجميعهم ماتوا موتًا عنيفًا باستثناء واحد» . (قلب جزيرة العرب "Heart of Arabia" ، المجلد ١ الصفحة ٣٨١) . وأكثر من ذلك ففي سنة ١٩٢٠ اغتيل سعود في سن الحادية والعشرين من قبل ابن عم له في سن المراهقة[٢] . هذا هو تقليد العائلة الذي نشأ فيه هذان الأميران العربيان الشابان، وسيبقى في علم الغيب معرفة ما إذا كانا قانعين بالراحة والأمن التي هي في متناولهم في بلاط السلطان طالما امتنعا عن العمل لاستعادة استقلالهم كحكام لحائل . يدار جبل شمر الآن من قبل أمير معين من قبل سلطان نجد ويتخذ من حائل مقرًا لإقامته[٣] .

وصل أميران صغيران آخران كلاهما طفل صغير ، هما : خالد ومحمد . لم يكونا في حفل الاستقبال ، لكنني رأيتهما يؤخذان في جولة حول معالم البلدة /p.170/ فيما بعد مع مجموعة من المرافقين والمماليك . خالد هو ابن سعد بن سعود شقيق السلطان الحالي الذي قتلته قبيلة العجمان . أما محمد بن سعود فهو ابن عمه المباشر وهو أحد أبناء السلطان، ولكونهما بنفس السن تقريبًا ـ اثني عشر عامًا ـ فقد كانا دائمًا معًا مع أن لهما منازل منفصلة ومنشآت خاصة بكل منهما[٤] .

(١) هو سعود بن عبدالعزيز بن متعب بن عبدالله آل رشيد . حكم حائل وهو طفل بوصاية من أخواله آل سبهان، وقتل غيلة عام ١٣٣٨هـ (١٩١٩م) على يد ابن عمه عبدالله بن طلال بن نائف بن طلال ابن عبدالله آل رشيد الذي قتل في الحال على يد مماليك المقتول . انظر : الزركلي ، شبه الجزيرة ، جـ١ ، ص ٢٥٤ ؛ فؤاد حمزة ، «قلب جزيرة العرب» ، الطبعة الثانية ، الرياض ، مكتبة النصر الحديثة ، ص ص ٣٥٤ـ٣٥٦ . (المترجمان)

(٢) أنظر الهامش السابق . (المترجمان)

(٣) كان إبراهيم بن سبهان هو أول أمير عينه الملك عبدالعزيز لإدارة شؤون حائل بعد ضمها وهو من أسرة آل سبهان المعروفة التي ترتبط برباط نسب مع أسرة آل رشيد وقد لعب العديد من أفراد أسرة آل سبهان أدوارًا سياسية مهمة من خلال عملهم وزراء ومستشارين للأسرة الحاكمة السابقة في حائل . انظر : الزركلي ، شبه الجزيرة ، جـ١ ، ص ٢٥٦ . (المترجمان)

(٤) يبدو أن الأمر قد اختلط هنا على المؤلف إذ لم يكن للأمير سعد بن سعود (سعد بن عبدالرحمن) ابن اسمه خالد ، ولعل المقصود هنا هو الأمير (الملك) خالد بن عبدالعزيز يرحمه الله، والآخر هو بالطبع شقيقه الأكبر صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن عبدالعزيز يرحمه الله، ويرجح الأستاذ عبدالرحمن بن سليمان الرويشد هذا الرأي خاصة وأن فارق السن بين الشقيقين كان سنة واحدة ، كما أنه عرف عنهما أنهما كانا متلازمين في فترة الطفولة ولا يفترقان . (المترجمان)

[١٧ يناير] لأنه كان يوم الخميس فقد بدا ألاّ شئ يمكن عمله أفضل من الذهاب لمشاهدة السوق ، وأن أكون قريبًا في حال وصول رسالة تبلغني أن فيصلاً مستعد لاستقبالي . لم نكن قد بقينا عند النافذة طويلاً عندما هتف محمد حسن : «ها قد أتى الشيخ عبدالعزيز » . هذا هو اللقب العامي الذي يعطى عادة للسلطان، خاصة من قبل البدو، ويتغير أحيانًا إلى « الإمام » وبندرة أكثر إلى «السلطان» . كان يمشي عبر السوق الواسع المزدحم باتجاه مكتب القصيبي مع مجموعة من حوالي خمسين من رجال البلاط (اللوحة ٢٤) ، كان واضحًا أن الأمر مبادرة ذاتية منه للقيام بزيارة مفاجئة لآل القصيبي لأن أحدًا لم يكن مستعدًا ، رأيناه يختفي أسفل عند المدخل، ومن ثم سمعنا الجمع غير المنتظم يصعد السلالم ، بدا محمد حسن ـ الذي ظن أنهم كانوا قادمين إلى الشرفة حيث كنا نجلس ـ وكأنه يتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعه ، قطع خط تراجعنا تمامًا أو لظننت أنه كان سيهرب من محض الهلع ، دخلوا لحسن الحظ إلى إحدى غرف الاستقبال الكبيرة ، وبُعيد قليل امتلأ رواقنا بفيض من المرافقين والمماليك بعضهم في عباءات حمراء فاتحة، وآخرون في عباءات زرقاء قاتمة، والجميع يحمل سيوفًا فضية أو ذهبية حسب المرتبة ، أتى عبدالله القصيبي إليّ في هذه الأثناء ظاهر القلق جدًا وقال: «لقد سمع الإمام أنك هنا وسيكون سعيدًا لو انضممت إليه إن أردت » .

كانت الغرفة الطويلة تموج بالناس عند دخولي، وكان السلطان يجلس على الكرسي قرب النافذة ويتصفح بشكل سريع كتابًا كان موضوعًا على طاولة صغيرة قارئًا مقطعًا هنا وآخر هناك /p.171/ ثم يناقشه مع الجالسين بقربه ، صافحني ثم أشار إلى المقعد بعد الذي يليه، وجلس بيننا عربي، بدا وكأنه حجة في كل شأن تحت الشمس . سأل السلطان إن كانت لدي أية أخبار عن الانتخابات الإنجليزية لكن لم يكن لديّ شيء مطلقًا ، شرحت له أن الانتخابات كانت قائمة على قضية

واحدة هي حرية التجارة في مقابل الحماية، بدأ هذا نقاشًا حول مقدار التعرفة الجمركية المقررة في إنجلترا وحسم جاري السؤال بالقول : إنها كانت الخمس . كان السؤال التالي عن الشهر واليوم في إنجلترا الآن ، ومرة أخرى أجاب جاري بأن الشهر هو يناير وأن اليوم هو السابع عشر منه ، لكنه نظر إلي لتأكيد هذا . تحول الحديث بعدها إلى الكويت حيث ينعقد مؤتمر هناك يحضره ممثلون لدول عربية مختلفة إضافة إلى الحكومة البريطانية لمناقشة قضايا ذات أهمية سياسية ، وفيما بدا لي أنه إجراء احترازي ، فقد كنت حريصًا على ألاّ أجر إلى أي محادثة تناقش فيها قضايا السياسة المحلية . لم يكن هناك داع للخوف على أية حال ؛ لأن كل الحديث كان الآن عن البراغيث . وحسبما أعلم فالبراغيث كثيرة على الساحل ونادرة إن لم تكن غير معروفة في الداخل. لم أجد شيئًا بالتأكيد كما لم أسمع عنها ماعدا هذه المناسبة، ولأن السلطان كان راغبًا ، فقد أعطى جاري ـ وثيق الاطلاع ـ الحاضرين خطبة طويلة عن تاريخ حياة البرغوث استمرت حتى قدمت وجبة طعام خفيفة مكونة من علبة من بسكويت إنجليزي قرنفلي اللون ، وزبدية من المربى المحلى، وبعض الحلوى، وهي عبارة عن نوع لزج من الحلوى التركية . سأل السلطان عن نوع المربى ولما لم يعرف أحد فقد دعى مضيفنا عبدالله القصيبي الذي بين أنه مربى الخوخ ، اعتذر عبدالله عن صغر حجم المأدبة قائلاً: إن يوم السوق كان مشغلاً لهم، وأنهم لم يحضروا كثيرًا من الطعام إلى المكتب . سأله أحد أفراد الحاشية لماذا قدم لهم المربى بدون خبز يأكلونه معه، وعندما استدار ليسرع بإحضاره أمسكوا بعباءته وشرحوا له أنهم كانوا يمزحون فقط . تناول السلطان قطعة واحدة من الأناناس المعلب ، /p.172/ بينما مددت يدي نحو قطعة من الحلوى كانت الأقرب لي ، كانت كالدابوق فلا أنا استطعت أن أنتزع قطعة من الصحن، ولم يكن بإمكاني أن أصرف النظر عنها فلقد لزقت بأصابعي، وجاءت يدي بخيط مطاط

طويل كان من الصعب الفكاك منه ، نهض السلطان عندها ومرافقوه لزيارة تاجر كبير له مكتب مجاور.

تلقيت رسالة بعد الظهر تبلغني أن فيصل (بن عبدالعزيز) بن سعود كان مستعداً لاستقبالي . مضيت إلى منزله مرتديًا ملابس عربية، وحاملاً معي سكين الصيد الكبيرة متعددة الآلات ذات المقبض العاجي، والتي أحضرتها من لندن هدية . كان يقيم في سكن صغير ، لكنه مريح، وكانت غرفة استقباله مليئة بالناس على الجانبين . كان صدر الغرفة مفروشًا بسجاد من جلد الخروف بالإضافة إلى شداد جمل كان متكئًا عليه . نهض الجميع عندما دخلت، لكنني صافحته وحده فقط ثم أشار بي إلى الجانب الآخر من شداد الجمل . كان ذا طبع جاد وربما كان خجلاً قليلاً حتى حصلت على ابتسامة منه، بسؤاله إن كان هذا هو فندق الكارلتون(١) .

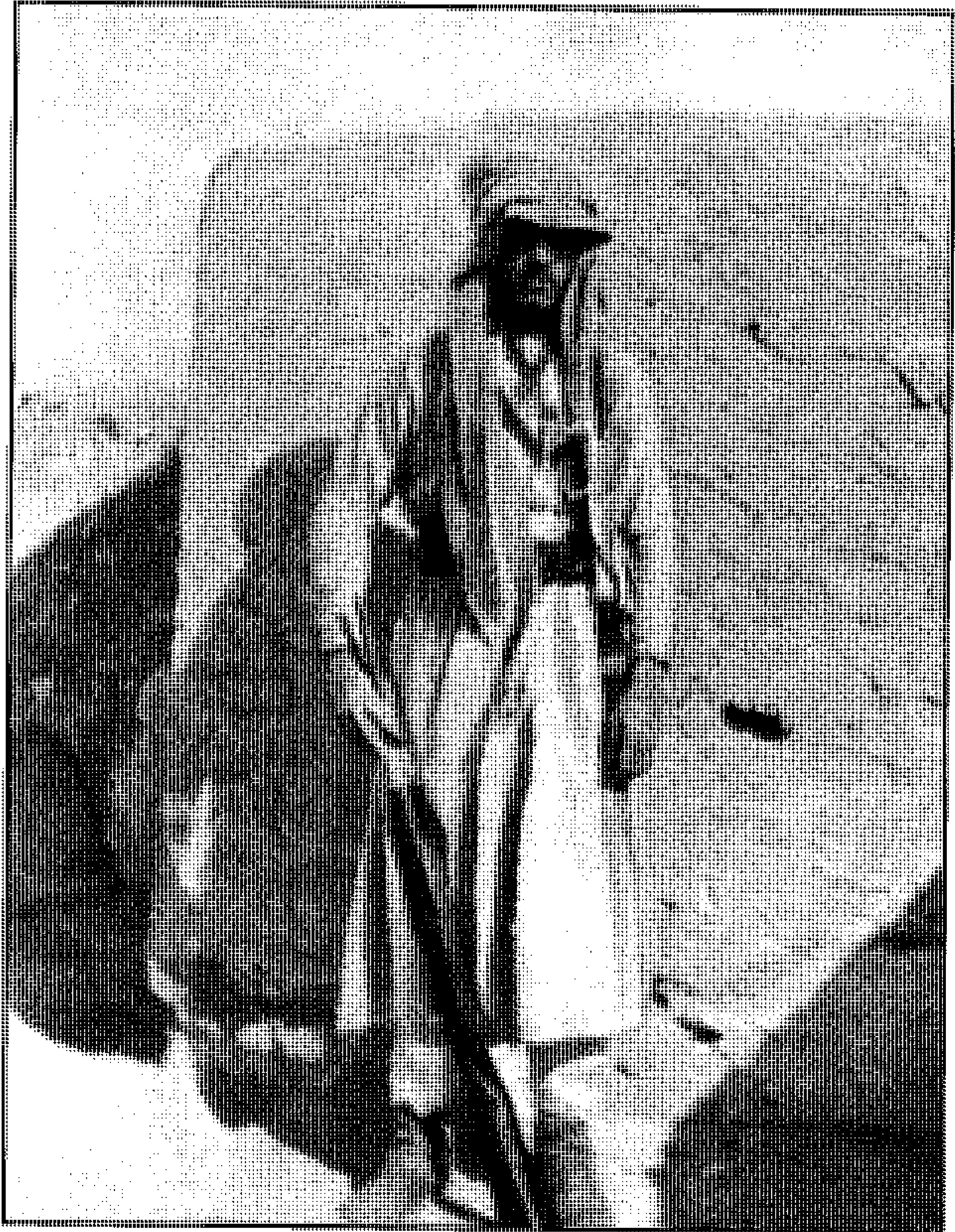
لقد نسي بعض تجاربه في لندن ، لكن أخريات لايزال يتذكرهن جيداً وقد سأل عن أسود البحر في حديقة الحيوان . قال: إنه يعتقد أنه كان سيستمتع بزيارته لإنجلترا بشكل أفضل لو أنها تمت في فصل الصيف بدل الشتاء ، لأنه وجد برودة الجو قارسة بالإضافة إلى أنه لم يكن بصحة جيدة في ذلك الوقت . دخل معي في نفس الوقت رجل وسيم أنيق اللباس أجلس نفسه قريبًا منا بدون أي مظهر احتفالي . علمت عندما سألت عنه فيما بعد أنه عضو موثوق من بلاط السلطان أرسل بلا شك ليبلغ القيادة العليا عن جوهر محادثتنا . إن تجربة السلطان عن النزاعات القاتلة التي تحدث بين الإخوة الحريصين على تأمين خلافة الحكم لأنفسهم عن طريق إزالة إخوتهم الآخرين بادعاء مسبق قد جعلته حذراً . وبينما يرسخ موقع ابنه الأكبر سعود وليا للعهد عن طريق السماح له تدريجيًا بتولي شؤون

(١) فندق الكارلتون هو الفندق الذي أقام فيه الأمير (الملك) فيصل بن عبدالعزيز يرحمه الله في لندن أثناء زيارته في رحلته الأولى لأوربا عام ١٣٣٧هـ (١٩١٨م) . (المترجمان)



اللوحة (٢٤)

السلطان مع حاشيته يجتازون سوق الخميس . الهفوف . مكتب القصيبي الجديد إلى اليسار



اللوحة (٢٥)

زي الإخوان

الحكومة ، فإن عبد العزيز في حالة يقظة دائمة ليتحسس أي طموح /p.173/ في هذا الاتجاه من جانب أبنائه الأصغرين سنًا . ولهذا السبب فإنهم يرافقونه حيثما ذهب، وهم دائمًا تحت ناظريه . قررت منذ أن أدركت هذا أن استخدم أقصى درجات الحذر في تعاملي مع عائلة السلطان حتى لا أثير مشاعر غيرة أو شك، وأن أتصل بهم من خلال السلطان نفسه فقط(١) .

بدا الأمير الشاب مسروراً بالسكين، وسأل عن وظائف الشفرات المختلفة . كنت قد شرحت له وظيفة المنشار والأشياء الأخرى عندما ظهرت فجأة نازعة سدادات فلينية لم ألحظها من قبل . قلت له : إنني لا أعلم وظيفتها لكنني أعتقد أنها ستكون مفيدة لنزع السطام من طلقات البندقية . كان فيصل قد وصل لتوه للسّن الذي يتولع عنده شاب بعبارات كتلك التي يستخدمها الطالب الجامعي المبتديء ليؤكد لزملائه القدامى ولنفسه بأنه في الجامعة فعلاً كمثل : « أليس ذلك مدهشًا ! » . للغرابة الكافية فقد كان هذا بالضبط ما تبناه فيصل ، ولقد كان مسليًا جدًا أن تسمع هذه التعابير مكررة باللغة العربية بعد معظم جُمَلة . استعددت للمغادرة بعد الدورة الثانية لدلة القهوة، لكنه أبقاني حتى أديرت المبخرة . رفع السحاب الذي تجمَّع جهة الجنوب أثناء العودة من آمالي بأن المطر ربما يسقط هناك .

هناك قنطرة ضخمة تمر فوق الطريق، وتربط القصر الجديد بالمسجد الوهابي ، أو مسجد الإخوان (اللوحة ١٩) ، وهذا يمكن السلطان من الانضمام إلى المجتمعين للصلاة بدون المرور بين الحشود ، وهو يصلي وحده من شرفة بينما ينضم الأمير

(١) هذه نظرة وآراء شخصية للمؤلف ليست صحيحة، وهي تلاحظ لدى العديد من الرحالة الغربيين، ومن المعلوم أن الهدف من مرافقة أبناء الملك عبدالعزيز له في رحلاته هو تدريبهم وإعدادهم لمهامهم المستقبلية . (المترجمان)

إلى بقية المصلين في الطابق الأرضي من المسجد . عندما تنتهي المباني الجديدة كما هو مخطط فسيكون للأمير قاعة استقبال صغيرة مجاورة لتلك الخاصة بالسلطان، ولكنها منفصلة عنها، وسيكون للسلطان أربعة مساكن مستقلة ولكنها جميعًا مجاورة للقصر، على افتراض مسكن لكل واحدة من زوجاته الاربع .

[١٨ يناير] لم يسلم مزارعو البرسيم /p.174/ من الحشرة المؤذية التي تصيب زروعهم رغم أن المحصول حتى هذا الوقت قد بدا في قمة نموه الجيد . كان العدو هو اليرقة الخضراء للذبابة المنشارية التي جردت مناطق كاملة من الأوراق خلال أسبوع، وبالتالي تسببت في موت النباتات . لم يكن لديّ مجهر لفحص هذه الحشرات المدمرة إلا أنني وجدت في عدسة المزواة بديلاً معقولاً .

كان مرض الإبل (الجرب)، وهو نوع من الحكّة، منتشراً جداً هذا الشهر، وفقدت بعض إبل البدو كل صوفها تقريبًا . تُشَغَّل الإبل المستخدمة في تجارة القوافل حتى عندما تكون مصابة بشكل سيئ، ويضع ملاكها ثقتهم في مادة زيتية قاتمة تكسى بها البقع الجرداء من الشعر[١] . بقي قطيع الأمير حتى الآن سليمًا إلا أنه هو وبعض القبائل يعزلون الحيوانات المصابة في مراحات منفصلة إضافة إلى استخدامهم لأسلوب المعالجة نفسه . لم يكن يسمح لإبل الحكومة بالتوالد ؛ لأنها غالبًا ما تكون مطلوبة لرحلات سريعة يقوم بها الجنود، ومن ناحية ثانية، فإن الأخريات، كن يلدن وقد مررنا بالعديد من أولادهن اللائي لم تكن تتجاوز أعمارهن عدة أيام .

[١٩ يناير] أمضينا فترة ما بعد الظهر في مطاردة سحالي الصخور أو الأبراص التي تعيش في شقوق تلال الحجر الرملي . لدى هذه السحالي فصوص مدورة على طرف كل أصبع تعمل كممصات، وقد كان مستحيلاً حتى الآن أن نجمع منها

(١) هذه المادة هي القطران . (المترجمان)

شيئًا؛ لأنها كانت تنجح في الاختفاء في التجاويف . أخرجت اليوم الرأس من الطلقات عيار ٤١٠ر وملأتها بالرمل ، وتسببت مفاجأة الانفجار وعصفة الرمل في جعل السحالي تسقط على الارض ، وقد أمسكنا بالعديد منها بهذه الطريقة وعيبها الرئيس هو أن فوهة البندقية لابد أن تكون قريبة جدًا بحيث لو ضربت اللبادة الحيوان فسيبقى القليل جدًا منه كعينة . وجدنا عند عودتنا إلى البلدة أن بوابات حي الكوت مغلقة أمامنا ؛ لأن الوقت قد حان تقريبًا لصلاة المغرب ، وبينما كانت هذه عادة مألوفة في الرياض المحافظة ، فإنها لم تكن ممارسة حتى الآن في الهفوف ، ومن الجلي أن ذلك عمل احترامًا لوجود السلطان ، وربما بأوامر منه /p.175/ . من الواضح أن الفكرة الجديدة لم تكن شعبية ، لا بل كانت مرفوضة نوعًا ما حتى من قبل الجنود الذين كانوا معي ، وقبل أن يكون لدي وقت لأدرك حقيقة الوضع طرق أحدهم الباب بقوة وطلب أن يفتح . كنت أعلم أنه لو أثير أي تساؤل حول الأمر من قبل السلطات العليا ، فإن الجندي كان سيتجاوز العاصفة من خلال تحميلي المسئولية ليحمي نفسه . أصبح الأمر الآن متأخرًا للتراجع وانتظار نهاية الصلاة في المسجد؛ لأن ألسنة الأقفال قد سحبت بسرعة ولذلك دخلنا وانتهز الفرصة حشد من الناس كانوا قد منعوا مثلنا لينسلوا إلى البلدة مع مجموعتنا . خططت بعدها دائمًا أن أتجنب الوصول في ذلك الوقت خلال ما بقي من مدة إقامتي ، ولم أسمع أي مزيد عن الحادثة كما حرصت على ألاّ أستعلم عنها .

[٢٠ يناير] يوم مشرق بلاريح . كان الليل بالتأكيد أكثر برودة من ذي قبل لكن الموقد الزيتي الذي هو أساسي للدفء في بيوت بغداد لم يكن متطلبًا هنا . نمت في حقيبة النوم المغلقة مع أربع بطانيات وملاءة فوقي ، وملاءة ومطرحة محلية محشوة بالقطن تحتي ، وكنت دافئًا طوال الليل ، وكان هناك سجادة صوفية وضعت احتياطًا إذا دعت الحاجة إليها . اعتدت في العراق ـ بالإضافة إلى كل هذا ـ أن

أضع معطفًا فوق الكومة جميعها ومع ذلك فقد كنت أشعر بالبرد أواخر الليل . كان الجو في الهفوف باردًا قبل شروق الشمس ، لكن هذه الأخيرة تجلب الدفء بسرعة كبيرة ، ولقد كانت تشرق كل يوم منذ أن قدمت حتى في الأيام الغائمة كانت تظهر على فترات .

دخل عليّ محمد حسن فجأة ليقول بأن السلطان مستعد لفحص مجموعة العينات . كان هناك حوالي أربعين طيراً صغيراً ، كل واحد منها مغلف وحده بالقطن الطبي بجانب البومتين النساريتين والثدييات ، ولأنني لابد أن أرتدي ملابسي ، فلم يكن هناك مفر من جعل سموه ينتظر . جاءت رسل متتابعة من المماليك والمرافقين على فترات لتحثني على الإسراع ، وأصبح محمد حسن قلقًا أكثر فأكثر ، ذلك أنني لم أسمح لأي شخص آخر بلمس الجلود . أخيراً وبعد ربع ساعة تحركنا ومعنا عدة صوانٍ /p.176/ يحمل كل واحدة منها موظف رسمي مكونين مسيرة جيدة .

أسرعت لأعتذر وأشرح أسباب تأخري لكن السلطان تجاوز ذلك بكياسة ، بل قال : إنه لم يكن لدية شيء ليفعله رغم أننا مررنا بطابور طويل من الناس ينتظرون رؤيته . أظهر السلطان معرفة أكثر بالأنواع المختلفة من أي مثقف عربي قابلته حتى الآن . يقتصر التصنيف المحلي المعتاد للحياة الحيوانية هنا على قسمين هما : المأكول وغير المأكول . وحتى الطلاب المتقدمون أكثر في معرفتهم ـ وبخاصة الصيادين ـ يستطيعون فقط أن يميزوا الحبارى والقطا والباز ، وماعدا ذلك فقليل جدًا . كان أكثر شيء اهتم به السلطان هو البومة النسارية ، ولم يكن مقتنعًا بالاسم العربي «البومة» لأنه ينطبق ـ كما قال ـ على كل أنواع البوم بما في ذلك بومة المخزن التي سماها أم الصخر ، لكن مع كل محاولاته لم يستطع تذكر الاسم

الصحيح للبومة النسارية، لذا لجأ إلى المجتمعين الذين بدأوا يقدحون زناد فكرهم بشكل لم يحدث مطلقًا من قبل . لا أحد من الحاضرين كان يعرف أو دفعه فضوله على الاطلاق أن يعرف اسم بومة، لكن كل واحد كان مستعداً في تلك اللحظة أن يدفع أي شيء ليعرف الإجابة على السؤال . بعد فترة من الصمت المطبق خطر الاسم المفقود على بال السلطان الذي قال « فيوم ». ردد الجميع الاسم « فيوم » شاعرين أنهم ازاحوا عن صدورهم حملاً ثقيلاً. « فيوم » هذا هو الإسم بالطبع . أخبرته عندها عن مدى سعادتي أن وجدت قنبرة الصحراء (*Ammomanes*) التي سبق أن حصلت على عينة واحدة منها عندما كنت في الطريق إلى سلوى منذ ثلاث سنوات . العينات الأخرى المطلوبة لنا هي الآن معروضة أمامه . « إنها الحُمَّرة إحدى أكثر طيورنا شيوعًا » ، قالها السلطان معلقًا عندما أبنت بأن هذا قد يكون طيراً جديداً بالنسبة لعلماء الطيور ، وقد أطلق عليه منذ ذلك الحين (عزيزي) نسبة إلى اسم السلطان. أسفر وجه السلطان عن ابتسامة تعرف كما لو كانت لصديق قديم عندما رأى قنبرة الصحراء الكبيرة أو القنبرة ثنائية التخطيط (*Aloemon*) وقال: إنها « أم سالم » «ألا تجدونها في إنجلترا» ؟ . أعجب بالخفافيش والجرذان، لكنه لم يلمسها. بدا محيراً له كيف أن طيوراً صغيرة مثل الصعو المغرد /p.177/ يمكن أن يصطاد مع قدر قليل جداً من الضرر حتى ولو كان ذلك ببندقية جمع عينات ثم دخل في حالة من الجذل والنشوة بسبب اللون الأزرق الفاتح لطائر الرفراف، وقال: إنه لم يكن يعلم أن طائراً جميلاً كهذا يعيش في بلاده إذ لم ير واحداً منها من قبل أبداً.

تحول الحديث عندما أديرت القهوة إلى السيارات وهو موضوع له أهمية بالغة في هذا الوقت ، وكما قال فإنه كان ينتظر سيارة ستروين كاتر بلر . تسير السيارات العادية بشكل جيد على أرض الحجر الرملي الصلب في الرياض

والهفوف ، هذا عندما تصل إلى هناك ، لكن حزام الدهناء الرملي كان عقبة أمام سهولة الاتصالات . كان يأمل بسيارة الستروين ، ليس فقط ليربط هاتين البلدتين بل ليعبر أيضًا الحزام الرملي إلى الساحل عند العقير . كان قلقًا لمعرفة ما إذا كان بإمكان سيارات الكاتربلر السير على الأراضي الصلبة بعد عبورها الرمال ، وقد ارتاح عندما سمع أنه طبقًا للتقارير فإن هذه السيارات تسير بشكل جيد على نوعي الأرض . أدرك السلطان أنه إذا أمكنه السفر بشكل مباشر من الرياض إلى العقير ، فإن ذلك سيشكل ثورة في كل نظام المواصلات في بلاده . هذا يعني أن الرحلة من عاصمته إلى الساحل ، التي لا يمكن القيام بها إلا بصعوبة خلال أقل من أسبوع على ظهور الإبل ، يمكن أن تتم براحة خلال يومين أو ثلاثة . أوضحت أنه لكي يتجنب خيبة الأمل فإنه يجب بادئ ذي بدء أن يكون لديه ميكانيكي ذو معرفة خاصة بسيارات الكاتربلر ، إذ لا يتوقع من السائقين الهنود أو العرب المدربين في البحرين والذين هم مسؤولون في الوقت الحاضر عن مواصلاته الآلية سوى تدمير ما بأيديهم من آليات خاصة لا يفهمونها . مضى السلطان قائلاً : إن لديه سيارة واحدة كبيرة إضافة إلى عدد من سيارات الفورد في الرياض . كنت قد سمعت أن تلك السيارة الكبيرة كانت من نوع كروسلي ، وأنها تطلبت أربعين جملاً لجرها فوق الكثبان الرملية . لم يكن السلطان راضيًا تمامًا عن سيارات الفورد لقابليتها للانقلاب . إنها لأعجوبة أن تلزم السيارة الجانب الأيمن عندما يتعلق الأمر بالسائقين العرب الذين لديهم ملكة جيدة على الفرس ، لكنهم لايملكون شيئًا من ذلك على عجلة القيادة ، ولم يتمكنوا أبدًا من اكتساب مهارة كافية ليصبحوا ـ إن أمكن القول ـ جزءًا من سياراتهم . ولا يكبح سرعتهم غير المحدودة /p.178/ إلا ارتطام سيارة أحدهم بحفرة لم ينتبه لها أو منحنى حاد ، وهذا يؤدي إلى انقلاب السيارة المحتم .

سألني عندها بتوق كئيب إن كنت تلقيت أية أخبار . بدا حريصًا أن يسمع شيئًا ما لكنني أخبرته بأمانة ألاّ شيء لديّ . كان بالغ الحرص في ألاّ يتطرق للأسئلة السياسية ، ولم يقد الحديث حتى إلى المواطن الخطرة وهي تكتيكات كان سياسي غرّ سيحاولها بالتأكيد ، وبينما كان رجل قزم سيخلق لي العديد من اللحظات الصعبة ، فإن السلطان وباختصار لاحظ أن الجوهر الكلي للترتيبات مع السير برسي كوكس كانت على أساس أن زيارتي غير رسمية . تطرقنا أخيراً بشكل عابر إلى احتمالات رحلتي القادمة . كان رأيه أن مشروع رحلة يبرين يواجه صعوبات كبيرة بسبب القحط في الجنوب ، بل بدا يعتقد أنه سيكون أسهل لي أن أسافر عبر البلاد ثم أسير عبر اليمن عن طريق ساحل البحر الأحمر ، إذ إنه يعتقد أن هذا الطريق آمن بما فيه الكفاية ، وعلى كل حال فلابد له أن يستشير الأمير الشيخ عبدالله ، وسيعلمني بقراره خلال بضعة أيام . لما كنت قد حزمت أمري على التوغل في الصحراء الكبرى ورؤية يبرين ، فإنني لم أعتبر هذه المحادثة مشجعة على الإطلاق وعدت إلى الدار محبط الروح . ومع أن الرحلة الطويلة ستقدم قدراً معينًا من التعويض ، فإن جزءاً قليلاً منها سيقود إلى بلاد جديدة كلية ، وهي واعدة أن تقدم حلاً لمشاكل جغرافية ذات أهمية أقل بكثير من تلك المتعلقة بوادي السهباء(١) وواحة يبرين الغامضة ، ولما كان الطريق سيطوف حول حافة الصحراء من جانبين ، فلابد أننا سنكون جاهلين بالحياة الحيوانية التي تعيش في الداخل .

---

(١) يطلق اسم السهباء الآن على روضة واسعة تقع شرق الخرج ؛ وينتهي إليها أكثر سيول أودية العارض ، كوادي حنيفة ، وكانت المياه قديمًا تخرج من روضة السهباء ، فتكون مجرى يسمى وادي السهباء ، يجتاز الدهناء من طرفها الجنوبي ، ويختفي في الجافورة ، ثم يبرز مجراه شرقها متجهًا صوب الشمال الشرقي إلى ساحل الخليج العربي . انظر : حمد الجاسر : معجم المنطقة الشرقية ، جـ٢ ، ص ص ٨٨٦ ـ ٨٨٧ . (المترجمان)

[٢١يناير] يوم زاخر بالأحداث مصحوبٌ بسقوط مطر قدّر تقريبًا بحوالي ١ - ١٦ من البوصة، وهو ما رفع مقياس حرارة آمالي في الذهاب إلى يبرين عدة درجات إلى الأعلى . ظهرت السحب في الليلة الماضية من الاتجاه الغربي كغشاوة رقيقة أولاً وأعطت القمر استدارة بيضاء واسعة رغم أنني تجرأت حينها بصعوبة في أن آمل بأنها علامة المطر، كما يمكن لها أن تعتبر في إنجلترا . سمعت القطرات الأولى تضرب على السقف عند /p.179/ الساعة الرابعة صباحًا واستمرت تمطر على فترات فيما بعد وكانت الريح ساكنة . خمد الغبار وكانت الطرق لزقة . أدت الموجة الباردة القصيرة المفاجئة خلال الأيام القليلة الماضية والمطر الذي تبعها إلى تقليص جحافل الذباب في المنزل، لكن طيور الخطاف لا تزال كما يبدو تصطاد بعضًا منها في السوق . ظهرت في فترة ما بعد الظهر عاصفة رعدية قادمة من الغرب ومع أن مركز السحابة مر كالعادة إلى الشمال منا ،إلا أننا حصلنا على رذاذ إضافي من أطرافها ، ولكن عند الغسق مرت عاصفة أثقل إلى الجنوب تمامًا عندما كانت الدعوة إلى صلاة المغرب تصدح من على أسطح العديد من المنازل، وكانت نبرات الأذان تختلط مع جلبات الرعد ، وأحيانًا كانت تختفي كلية في قصف الرعد الأقوى. ارتفع مقياس الحرارية المعدني الخاص بي درجة واحدة قبل العاصفة ثم عاد وهبط بعد أن ابتعد المنخفض الجوي .

[٢٢يناير] أمضيت الصباح في تعبئة صندوقين آخرين من الجلود لترسل إلى إنجلترا . أحضر محمد حسن إلى المنزل زبدية حليب خشبية مؤطرة بالنحاس . يقال للمرء في البحرين إنها تصنع في الهفوف ،وفي الهفوف يفترض أنها تأتي من الرياض، وأنه ليس من السهل الحصول عليها ،وهي تنحت بشكل غير مهذب من خشب الأثل وتكون مزينة جداً عندما تصنع في نماذج مزخرفة مع مسامير صغيرة من الفضة أو النحاس الأصفر . لدى هذه الزبديات قابلية للانشطار مع الزمن،

ولذلك يوضع شريط من الجلد حول موضع الانشطار بطريقة متقنة جداً تجعل الزبدية تحفظ الماء بشكل محكم.

أقلقت البلدة الهادئة خلال النهار بطلقات بندقية أطلقت قريبًا من منزلي، وعندما أصبح إطلاق النار أكثر قربًا، نظرت خارج النافذة، ورأيت جملين يركضان مروراً بنا باتجاه القصر يحمل كل واحد منهما بدويين، أحدهما على الشداد والآخر على مؤخرة ظهر الجمل. كان الأول يحشو بندقيته ويطلق النار في الهواء بأسرع ما يمكنه صارخًا «الله اكبر» ومردداً جُملاً أخر. قيل لي عندما استفسرت عن الأمر: إن هذه هي عادة الإخوان (أي الجنود) عندما يحملون أخباراً مهمة للسلطان فإنهم يطلقون نار بندقية بتلك الطريقة لينبهوا إلى اقترابهم. سألت إن كانوا /p.180/ قد قتلوا أي أحد من قبل وعما إذا كانت البندقية محشوة برصاصة؟ كان الجواب «نعم فالإخوان لا يحملون ذخيرة فارغة، ولكنهم حذرون ويطلقون النار في الهواء فتصبح الرصاصة باردة ولا تؤذي أحداً لو أصابته. إذا أطلقوا النار في موازاة الأرض، فإن الرصاصة تكون حارة وتقتل الناس». لم يُعقد علم الفيزياء الوهابي بمشاكل الجاذبية، وهذا الحل اليسير مقبول من الجميع. افترض لو أن أحداً تلقى رصاصة طائشة في رأسه، فإنه سيقول: إنها مشيئة الله وسيتعهد جرحه قدر استطاعته بدون أن يحاول أبداً معرفة من أين جاءت. انطلقت هيئة مساعدي العسكريين المكونة من اثنين بسرعة كبيرة خارج المنزل وانضما إلى جموع سكان البلدة المبتهجين والمندفعين نحو القصر لسماع أي أطراف أخبار تسقط من أفواه الرسل، وعلمت أن الإخوان قد استولوا على بلدة نجران، وهي واحة تقع إلى الجنوب خلف الصحراء العظيمة. كانت تلك المرة الأولى التي سمعت فيها أن الإخوان يحاصرون البلدة، ولما كان هناك إلزام متساو عليّ وعلى السلطان أن نحافظ على موقف غير رسمي، فإنني لم أسأل أية أسئلة أخرى. يمر الطريق

المباشر من نجران إلى الهفوف عبر صحراء الجنوب العظيمة ، لكنني وجدت أن هؤلاء الرسل السريعين قد فضلوا الطريق الأطول، وهو الذي يمر على أطراف الجانب الغربي من الصحراء عابرين واحة الدواسر والأفلاج إلى الرياض ، ومن ثم في موازاة الحافة الشمالية إلى الهفوف. من المؤكد أنه مهما كانت الرسالة ملحة، فسير تحل حتى العربي عبر هذين الجانبين من المثلث ، ذلك أن الخطر في عبور الصحراء حتى بميلان كهذا، يعتبر كبيراً جداً . من المحتمل في هذه الحالة بالذات أن هؤلاء الرجال لم يعلموا عندما غادورا نجران أن السلطان كان في الهفوف، وفي تلك الحال فإنهم سيذهبون إلى الرياض ليستعملوا عن مكان إقامته. حقيقة أن رحلتهم استغرقت من خمسة أسابيع إلى ستة أسابيع تقديراً، تعطي فكرة عن بطء الاتصالات بين رئيس الدولة والمراكز الأمامية للامبراطورية ، وكذلك الوضع الاستقلالي الذي لابد بالنتيجة أن يعطى لقائده الميداني /p.181/.

سُمع بعيد خفوت الإثارة بقليل مرور كوكبة من الخيل ، وكنت في الوقت المناسب تمامًا لأرى مرور السلطان راكبًا أمام المنزل، ومحروسًا من قبل تشكيلة غير منظمة من رجال الحاشية الراكبين، في طريقه لحضور وليمة يقيمها أحد كبار تجار الهفوف في بستانه . كانت أغلبية الخيل تحت السيطرة بصعوبة ،وبدا وكأن ملابس الفرسان والخيول وجلل أسراجها قد تذهب في اتجاهات مختلفة في أي لحظة.

[٢٣ يناير] صباح كئيب كانت السحب فيه منخفضة والضباب معلق فوق البلدة مع رشات خفيفة من المطر . هذه السنة ـ حسب الرأي المحلي ـ تعد أكثر مطراً منذ ثلاث سنوات، لكن كمية المطر الساقطة حتى الآن يمكن أن تكون حوالي ربع بوصة فقط.

قدّم القسم الصحي من الإدارة الحكومية عرضًا عمليًا اليوم، فقد جذبتني ضجة كبيرة إلى النافذة حيث أمكن مشاهدة أربعين رجلاً يسحبون حبلاً خارجًا من

المنزل المجاور ، والذي يستخدم كدار ضيافة لمن يكون في البلدة من شيوخ الإخوان. ظهر أخيراً جمل ضخم ميت في نهاية الحبل تمكنوا بمهارة من زحزحته عبر الشارع الضيق. إنه لأمر مريح أن يوجد بعض التنظيم للتعامل مع هذه الامور.

لابد أن إطعام كل الزوار الرسميين مع مرافقيهم بالإضافة إلى الجنود يشكل إنفاقًا ضخمًا، ولابد أنه يتطلب ترتيبات مؤن بدرجة ضخمة. يطعم الجنود في الواقع كجزء من حاشية الأمير، ولا وجود لشيء اسمه صحن للضابط وآخر للجندي، وطعام هذا الأخير ليس مقننًا. الامتياز الوحيد للأمير هو أنه وعائلته يتناولون الطعام أولاً، ولهم الاختيار الأول على المائدة وعندما ينهضون فإن مرؤسيهم يهجمون على الصينية الضخمة حتى يفرغوها تمامًا من الطعام. يقدم للأمير في كل وجبة خروف كامل وتستهلك ـ بالطبع ـ كميات كبيرة من الأرز المسلوق.

[٢٤ يناير] جلبت ريح جنوبية غربية عاصفة رعدية بدت ثقيلة إلى الجنوب، وأخمدت الغبار في الهفوف. قدمت عاصفة أخرى عندما كان سوق الخميس في قمة نشاطه مفرقة الناس شذر مذر /p.182/ نحو السوق المغطى والمنازل، بجانب أنها تسببت في لفت الانتباه إلى ظهور ثلاث مظلات بدا أصحابها الفخورون بها متباهين بأنفسهم بشكل مضحك وهم يختالون في مشيتهم هنا وهناك مستمتعين بهذه المنزلة في هذه الفترة القصيرة.

ظهر محمد حسن ـ الذي كان قد أرسل بالأمس ليعتقل ويحضر بدويًا خرق النظام وكان متوقعًا أن يغيب مدة خمسة أيام ـ في المنزل عند الظهر مشتكيًا بمرارة من التصلب والتورم من جراء ركوب جمل غير مريح ذي ركض قاس. ركب هو ورفيق له طوال الليل وفاجأ البدوي ـ الذي لم يبد أية مقاومة ـ نائمًا في خيمته.

قدم البدو لهم الطعام والمستراح، لكنهم أوثقوا يد الرجل ورجله وربطوه خلف شداد أحد الجمال، ومن ثم بدأوا رحلة العودة بدون تأخير حتى أودعوا الرجل السجن بسلام. إذا كان الرجل الراكب على الشداد متوجعًا، فإنه يمكن تصور أن رحلة المعتقل كانت أقل إمتاعًا . يعود السبب في سرعة محمد حسن في إنجاز المهمة جزئيًا إلى الخوف من أن يحل جندي آخر محله في خدمتي، على الرغم من احتجاجاته وتأكيده على عكس ذلك، فلقد كان سعيداً بموقعه معي فالعمل كان سهلاً وكان الطعام جيداً أيضًا إلى جانب أنه كان يتطلع من خلال مشاهد وردية إلى هدية ثمينة يعتقد أنه أهل لها عند رحيلي . كان يسر إليّ أحيانًا أن الناس في السوق يزدرونه ويقولون: «ها قد جاء صديق الرجل الإنجليزي !». كل ما أحتاجه بالطبع ـ يضيف قائلاً ـ أن أقول كلمة واحدة للأمير ، وعندها سيحضر هؤلاء الناس ويجلدون، لكن تجاهلهم أكثر شرفًا ،وهذا ما وافقته عليه ،مادحًا تعامله الدبلوماسي مع وضع في منتهى الصعوبة.

كان الجنود يتحدثون كيف أن الشيخ عبدالله انضباطي، وأكثر صرامة بالمقارنة مع السلطان. لقد كان الرجل القوي في الإمبراطورية التي بناها السلطان وأحد أعمدتها الرئيسة . وقد لاحظت في حادثة معينة الفارق بين الاثنين . كان السلطان عند زيارتي الثانية له قد أبلغ /p.183/ المسؤول عن تقديم الشاي ألا يضاف إليه السكر، وذلك لأن الإنجليز يحبذون أن يضعوا لأنفسهم السكر والحليب . جاء الشاي في المناسبة التالية كالسابق مضافًا إليه السكر والحليب مسبقًا، وما كان لي أن ألحظ ذلك لولا أن السلطان وبخ خادمه على نسيانه ، بينما لو كان الأمير هو الذي أمر بفصل السكر والحليب لكانت تعليماته قد اتبعت بشكل تام.

كنت قد أصبحت ضجراً من جولاتي في البساتين، وشعرت أنني أعرف كل طير بمفرده، كما وجدت أن انتباهي ينزع دومًا نحو السحب واحتمال إسقاطها المطر

في الجنوب من عدمه . لكي أبقى هادئًا، فقد نبه الجند ليقللوا من شأن أي مطر يسقط، وحتى وابل المطر الغزير كان يوصف بأنه غير مهم ولا كاف لتبدأ الشجيرات في النمو. تبنيت، بعد أحد تساقطات المطر التي من المحتمل أنها كانت غزيرة جدًا على تلك البلاد، تكتيكات جديدة إذ طلبت من محمد حسن عندما قام بزيارته القصيرة المعتادة لتلقي الأوامر أن يطلب من الشيخ عبدالله بعض الخيول لنذهب فورًا إلى منطقة العيون للصيد. سقط محمد في الفخ مباشرة وقال: إن الأرض ستكون زلقة جدًا وإننا سنسقط مرات عديدة . أجبته أن المطر قد سقط حول البلدة فقط وليس خارجها . رد علي قائلاً: « نعم » سقط الكثير من المطر في كل الأنحاء ليلة البارحة». قلت له: « حسنًا لا أريد الذهاب ولم أنو ذلك مطلقًا، أردت فقط أن اعرف حقيقة رأيك في المطر ، والآن وحيث إنني لا أريد الذهاب خارج البلدة فبإمكانك أن تذهب إلى الشيخ عبدالله وتخبره أن مطرًا غزيرًا قد سقط في كل الأنحاء» . يقدر العربي المزحة حتى ولو كانت ضده وقد غادرني خافت الضحكة وبلا شك فقد أعاد المحادثة حرفيًا على أسماع سيده.

[٢٥ يناير] رافقني الجندي الآخر أبو سعود إلى الركن الجنوبي الغربي من البلدة، ثم خارجها إلى طريق الرياض، وهي المنطقة التي لم نأت إليها من قبل. يتجه الطريق أولاً إلى الجنوب من سور الكوت، ثم يتجه غربًا مارًا بحي النعاثل. بدا هذا الجزء من البلدة أكثر قذارة ووساخة من بقية الأجزاء، وبه منازل صغيرة /p.184/ ولا شئ آخر يثير الاهتمام باستثناء مسجد متواضع البناء اعتقدت بسبب خلوه من الزخرفة أنه بني طبقا للأفكار الوهابية . مررنا بمتسولتين جالستين القرفصاء بجانب الطريق، وقد سألنني باسم الله بعض الصدقة ،وقد يبدو هذا للوهلة الأولى أمرًا غير مهم، لكنها كانت المرة الأولى والأخيرة التي أرى فيها تسولاً خلال إقامتي. إن ندرة المعوزين والمتسولين في البلدة هو مظهر رائع للمجتمعات العربية القحة . تجبر كبرياء العائلة الناس على إعانة أقاربهم المعوزين

إلى حد كبير ، وذلك بدرجة تفوق معظم الأمم الأخرى ، كما يمنعهم المزاج العرقي ـ ولو أنه مضياف إلى درجة ما ـ من العطاء القليل لأي شخص يكون لديه التهور بسؤالهم ، ولذلك فإن حالة الإملاق لا تشجع . لا يزدهر الفقراء والمتسولون الدينيون الآخرون في جو وهابي كما هو الحال في فارس والهند ، وبالتالي فلا وجود لهم . الحالة الوحيدة التي لفتت انتباهي كانت على أساس مختلف . كان مقر سكن السلطان مجاورا لمنزلي الذي كانت شرفته تطل على أحد أبواب القصر . اعتاد بعض الأطفال الصغار أن يأتوا بشكل منتظم بعد وجبة العشاء إلى الباب الضخم المزين بالحديد مشكلين ما يشبه مغنى الكارول(١) وينشدون المدائح للسلطان ممزوجة بأدعية مثل : «بارك الله عبدالعزيز» « الله هو الرحمن » وهكذا . تسحب المزاليج بعيد ذلك ، ويقدم لهم صحن من الأرز مكافأة على جهدهم .

البوابة الجنوبية الغربية هي أحد المخارج الرئيسة إلى نجد ، ولذلك فإن الطريق يستخدم كثيراً . هناك بساتين نخل قريبة من البلدةعلى كلا جانبي الطريق إلا أنها تسقى برافعات للماء من آبار لا تجرى كالعيون . توجد قلعة على بعد ثلاثة أرباع الميل تسمى خزام(٢) . تعنى هذه الكلمة الأخيرة خاتم أنف الجمل ، وقد سميت القلعة بهذا الاسم ؛ لأن من يستولي عليها يفترض أن تكون له السيطرة على الهفوف . لقد أعاد بلغريف الذي يبدو أنه تذكر القصة ونسي الاسم ، تسميتها بختيم أو حديدة لجام الفرس ، وذلك عندما كتب كتابه «وسط وشرقي الجزيرة العربية » "Central and Eastern Arabia" . كان يوجد إلى اليسار منا /p.185/ المخيم البدوي الكبير حيث يضرب رجال القبائل الذين لديهم أعمال في البلدة أو المرتبطون بعمل القوافل بين العقير أو الرياض ـ خيامهم قرب الآبار . توجد في الأفق ، على بعد حوالي عشرين ميلاً ، الجبال البعيدة المسماة جبل غوار التي تقع

(١) هم مغنون يؤدون أغاني دينية في الكنائس والبيوت لجمع التبرعات للأعمال الخيرية . (المترجمان)
(٢) خزام هو قصر في مدينة الهفوف ، له ذكر في غزو الإمام عبد الرحمن بن فيصل للأحساء في رمضان عام ١٢٩١هـ . انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، جـ٢ ، ص ٦٠٨ . (المترجمان)

إلى الشمال من طريق الرياض مشكلة خلفية معتمة للشمس الغاربة. مشينا حول الطرف الأقصى لحزام النخيل غرب الهفوف الواقع في منخفض لا يبعد أكثر من ميل عن أسوار البلدة الذي يسير في خط مستمر حتى يتصل بالبساتين إلى الشمال. لا تتقاطع النخيل في الجنوب مع طريق الرياض وهي تسقى من عين البحيرية[١]، وهي أقصى العيون الجارية غربًا. سلك بنا الطريق عبر السهل الواقع خارج منطقة النخيل فيما كان جبل أبو غنيمة في الأفق إلى الشمال منا. حصلت ضمن محيط من أربعة أو خمسة أميال على الكثير من المعلومات المفصلة لخريطتي عن الهفوف. كنا ـ حتى غطسنا مرة أخرى في أشجار النخيل في طريق عودتنا إلى المنزل ـ نسير في الأغلب عبر رمال ناعمة تزحف تدريجيًا على البساتين من الشمال، وقد عملت جهود لإيقاف تقدمها عن طريق غرس صفوف من أشجار الأثل، أو إقامة سياجات من جريد النخل. الجزء الخالي من الرمال المفككة هو الأرض الملحية أو السبخة، وقد كان السير عليها أكثر سهولة. ولما كانت هذه الأرض أكثر انخفاضًا من مستوى البساتين فإن الماء الفائض من الري يذهب تحت الرمل، ويتبخر تاركًا على السطح ترسبًا من الملح يبدو فعالاً جدًا في تأخير زحف الرمال.

قام مهدي ببحث ناجح للثقافة في السوق وأبرز عدة أعداد من صحيفة «أخبار لندن الأدبية والمصورة» "Sketch and Illustrated London News" يتراوح عمرها من ثلاثة إلى خمسة أعوام وبثمن يبلغ ثمانية بنسات لكل منها.

[٢٦ يناير] وصل هذا الصباح عدد جريدة التايمز ليوم ١٣ ديسمبر حاملاً معه نتائج الانتخابات بينما أخفق العددان السابقان في الوصول فيما يبدو. لم يصل أيضًا بعض الشوكولاته والبودنج[١] التي أرسلتها بلطف منها السيدة دالى من

(١) ورد اسم هذه العين في النص الأصلي المترجم عنه هكذا (Pariya)، وقد رجح الأستاذ الدكتور عبدالله أحمد الطاهر من قسم الجغرافيا بكلية الآداب في جامعة الملك سعود وأحد أبناء المنطقة المهتمين بالزراعة فيها أن يكون المقصود هو عين البحيرية. (المترجمان)

البحرين. أخشى أنها وقعت في أيدي لصوص إلا أن هذه كانت المرة الوحيدة التي ظلت فيها رسائلي أو طرودي طريقها، ولحسن الحظ فقد جنبت الكثير من الألم عندما لم أعلم عن فقد الشوكولاتة والبودنج إلا بعد مغادرتي الجزيرة العربية ./p.186/

أشبعت غروري بعد ظهر هذا اليوم، عندما تلقيت دعوة السلطان، بأنني سأكون أخيراً قادراً على أن أقدم له بعض الأخبار، إلا أنه كان قد قرأها كلها في صحيفة من دمشق، وصلت بالبريد البري عبر بغداد. رداً على سؤالي إياه إن كان يحمل أية أخبار طيبة لي، قال السلطان: إن لديه بعض المقترحات. قال: إن رحلة يبرين ممكنة، وسيرتب لذهابي إلى هناك حالما تصله تقارير عن وجود مراع كافية، أما المنطقة التي تقع جنوب يبرين فهي خارج النقاش، وسيكون لزاماً عليّ أن أعود إلى الهفوف. الوضع السياسي حول عسير واليمن جعل من المستحيل عليه أن يرسلني عن طريق ساحل البحر الأحمر. كل شيء منقلب رأساً على عقب كما قال، مشدداً على ذلك بتكوير إحدى قبضتيه فوق الأخرى. بيَّن أن علاقاته مع الحجاز ليست جيدة، وكان يخشى أن تكون الأوضاع على حدود عسير غير آمنة لمسافر؛ ولذا فهو لا يستطيع أن يضمن لي مروراً آمناً إلى بلاد الإدريسي(٢). على الرغم من أنه هو ويحيى إمام اليمن(٣) كانا كالأخوين (مبرهناً على احترام بعضهما بعضاً عن طريق وضع الأصابع الأولى من كل يد معاً، كما يفعل كل العرب عندما يتحدثون عن الأصدقاء)، إلا أن حكومة يحيى لم تكن قوية بدرجة كافية لتسيطر على قبائل الجبال النائية التي لابد لي من المرور بأراضيها.

---

(١) البودنج هو نوع من الحلوى الغربية. (المترجمان)

(٢) هو السيد محمد بن علي الإدريسي أمير الإمارة الإدريسية في تهامة عسير ويبدو أن الاضطراب الذي يشير إليه الملك عبدالعزيز هنا هو الذي تلى وفاة السيد محمد عام ١٣٤١هـ(١٩٢٣م). انظر: الزركلي، شبه الجزيرة، جـ٢، ص ٥٣٥. (المترجمان)

(٣) هو الإمام يحيى بن محمد بن يحيى حميد الدين ملك اليمن. ولد بصنعاء عام ١٢٨٦هـ وتولى الإمامة بعد وفاة والده عام ١٣٢٢هـ، وفي عهده خرج الترك من اليمن)عام ١٣٣٦هـ) واستقل بحكمها ومات مقتولاً عام ١٣٦٧هـ. انظر: الزركلي، الأعلام، جـ٨، ص ص ١٧٠-١٧١. (المترجمان)

سألته عن الذهاب إلى الرياض فرد مستعلمًا : « إلى أين تريد الذهاب بعد ذلك؟» . أجبت بأن اهتمامي الرئيس في المنطقة الداخلية هو في الجبال الكثيرة العلو حيث يمكن للفرد أن يتوقع وجود أنواع مختلفة من الطيور . قال السلطان : إنه لايعتقد وجود العديد من الطيور في أي مكان ، إلا أن جبال طويق عالية ، وهي على مسيرة ساعتين أو ثلاث فقط للراكب من الرياض ، ولذا فقد عقدنا اتفاقًا مشروطًا بأن أذهب إلى الرياض ، عند عودتي من يبرين ، وأن أعود مع نفس الطريق ، الذي أسلكه إلى تلك الأخيرة .

لابد أنني خلال هذه المقابلة قد حيرت السلطان بسؤالي إياه عندما أخبرني أن بإمكاني الذهاب إلى يبرين إن كنت أستطيع الذهاب إلى الجافورة تلك الصحراء الواسعة التي لابد من اجتيازها في الطريق إلى يبرين . كنت قد بينت آنفًا أن خريطة ڤيلبي ـ التي تضع الجافورة إلى الجنوب من /p.187/ يبرين ـ قد ضللتني ، وقد تسبب الخطأ في العديد من التعقيدات المسلية مع دليلي المري خلال الرحلة الفعلية .

للسطان أخوان لازالا حيين هما : (محمد(١) وعبدالله(٢)) بالإضافة إلى والده عبدالرحمن بن فيصل الذي يعيش حياة عابد متدين في الرياض تاركًا شؤون الحكومة للأيدي القادرة للسلطان الحالي عبدالعزيز وولي عهده سعود .

---

(١) هو صاحب السمو الأمير محمد بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود ـ يرحمه الله . ولد في الرياض بعد ولادة أخيه الملك عبدالعزيز بنحو ستة أشهر وترعرع معه ورافقه في تنقلاته أيام النكبة ، كما شاركه الكفاح من أجل توحيد البلاد . كان ساعد أخيه الأيمن وكثيراً ما كان يتولى قيادة المعارك نيابة عنه ولما دخل الملك عبدالعزيز الحجاز عينه محافظاً لمكة إلى أن تم الاستيلاء على جدة . اختار حياة العزلة بعد توحيد البلاد . توفي بالرياض في ٢٣ رجب ١٣٦٢هـ (٢٦ يوليو ١٩٤٣م) . انظر : الزركلي ، شبه الجزيرة ، جـ ٤ ، ص ١٤٠١ .

(٢) هو صاحب السمو الأمير عبدالله بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود يرحمه الله . ساهم في الأعمال الحربية لأخيه الملك عبدالعزيز وكان كبير مستشاريه ، لقبه الملك عبدالعزيز بفقيه آل سعود وعالمهم ، وله معرفة بتاريخ العرب وأنساب القبائل ، كانت له مكتبة عامرة أهداها أبناؤه إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض وتوفي يوم ١٣ ذي الحجة عام ١٣٩٦هـ . انظر : الزركلي ، شبه الجزيرة ، جـ ٣ ، ص ١٢٣٣ ؛ سعود بن هذلول ، تاريخ ملوك آل سعود ، جـ ٢ ، ص ٣٥٦ .

[٢٨] أمضيت اليوم في دغل القصب الكبير لعين أم سبعة التي يبلغ طولها حوالي ميلين، وعرضها نصف ميل تقريبًا. لما كنت قد أجفلت طائر الحجل الأسود الوحيد الذي قدر لي أن أراه في الواحة من بين أشجار الأسل أوالسمار، فقد كان لدي أمل ضعيف في أن أحصل على بعض العينات لو أمكن استكشاف دغل القصب من أوله إلى آخره بشكل شامل، وهو أمل عقيم كما أثبتت الأحداث فيما بعد. قرر الجنديان المرافقان عند النظرة الأولى لأشجار الأسل العالية ـ التي كنت أنا ومهدي نغطس ونتراشق فيها ـ أن من الأفضل أن يبقيا في الحراسة خارجًا. كانت أجزاء من النمو المتشابك للنبات كثيفة جدًا إلى درجة أننا كنا لا نستطيع أن نهتدي إلى طريقنا إلا بملازمة آثار أبناء آوى التي ثبت أنها وحدها هي التي تقطن هناك تقريبًا. كان هناك أسطح مكشوفة من الماء خالية تمامًا من النبات، وهي محاطة بأشجار الأسل. لم يكن عمق الماء يتجاوز القدمين في أي مكان، ولذا فقد كنا نخوضها كلها. يمكن في مساحات الماء الصافية رؤية أشجار الأسل وجذورها مكسوة بطبقة ملحية كثيفة لدرجة أن القاع يبدو كبحر مرجان. لم تكن هناك حياة حشرية متحركة، كما لم يكن هناك أسماك أوضفادع. يبدو أن وجود الملح هو التفسير لحالة العقم أو انعدام الحياة الحيوانية التي تعيشها. البحيرة عبارة عن تصريف كبير من البساتين، إذ إن المياه تتصرف من السقاية مشبعة بالملح بشكل عال، كما أن التبخر في البحيرة الضحلة سريع. تكون كمية المياه في البحيرة في هذا الوقت من العام أكثر منها في فصل الصيف؛ لأن حقول الأرز ليست في حاجة لها، وبالتالي فإن فائض الماء يحول مباشرة إلى البحيرة. لم تكن هناك آثار أقدام للحجل الأسود على الأطراف الرملية أو الجزر الصغيرة، وقد كان واضحًا أن الطير منقرض تقريبًا في الواحة، /p.188/ وهو وضع من المحتمل أن الصيادين المحليين الذين شوهد واحد منهم يجوس في الأنحاء ـ مسئولون عنه.

كان هناك زوج من طائر دخلة البردي ذي الشارب يصدح الذكر منهما مغرداً ، وكانا بوضوح المالكين الوحيدين لهذه البحيرة الواسعة ، كان التغريد عذبًا وعاليًا وهو عبارة عن خليط من تغريد الطائر الأبيض الحنجرة ودخلة البردي لكنه يفوق كليهما ، تتوقف التغاريد عندما كنت أقترب محركًا الماء عبر القصب على مسافة عشرين خطوة ثم ينطلق في تغريد ساخر عندما يسمع وقع خطواتي المتراجعة . عندما أمكنني مشاهدة الطائر بعد ساعة من المحاولة ، كان يقف بانحراف على ساق قصبة ، ولم يكن في موقعة يزيد عن نصف طول القصب ، ولذلك فقد كان مخفيًا على بعد عشر خطوات .

حصلنا على مفاجأة باكتشاف عدة عينات من نبات السحلب الأرجواني الشاحب *(Orchis palustris)* نامية بين أشجار الأسل على طول الحافة السبخية القريبة من مدخل الماء العذب ، وهي تشبه من عدة أوجه نبات السحلب الأرجواني في إنجلترا ، وهي موجودة في القارة الأوربية ، ولكن لم يسجل وجودها من قبل في الجزيرة العربية .

كان (فيصل) ابن السلطان والصبيان الصغيران خالد ومحمد يقومون برحلة استحمام إلى عين أم سبعة الحارة على بعد حوالي نصف ميل منا ، وكان الجنديان المرافقان لي يتوقان للانضمام إلى الحفلة خاصة عندما جلسنا على مائدة مقتصدة من التمر ، ونحن على مَرْآى النظر تقريبًا من دجاج مشوي وأشياء مبهجة أخرى وكمية غير محدودة من القهوة . بقيت رافضًا بإصرار مؤملاً أن يكافئ تعبي بعد الظهر باصطياد طائر حجل أسود على الأقل . لو أمكن استشراف الفراغ الكئيب الذي كان ينتظرنا لكنت قد استسلمت لرغبات الجنود . كان بالإمكان سماع المتنزهين يمضون فترة ما بعد الظهر في مباريات إطلاق النار على هدف ، هو عبارة

عن علامة صغيرة غرست على تل رملي متغيرة إلى سباقات خيل وأعمال فروسية تسعد قلب العربي، وبالنظر إلى الصرخات والضحكات فلابد أن الهزل كان سريعًا وصاخبًا.

ركبنا اليوم للمرة الأولى على ظهور الحمير، وقد كانت مريحة أكثر بكثير من الخيل. أنت تجلس بشكل جانبي على البردعة بينما يمشي الحمار بسرعة ثابتة تبلغ ستة /p.189/ أميال في الساعة بدون أن يتعبك، كما أن النزول والركوب مرة أخرى على ظهر الحمار عندما تصطاد طيراً أو تقطف زهرة يكون أسرع بكثير من ذلك لدى الخيل. وقد سبق لي أن اقترحت الحمير وسائل للتنقل لكن الأمر كان حساسًا؛ لأنه قد يؤخذ بوصفه نقدًا لإسطبل الأمير. أما وقد أصبح الإسطبل الآن مضغوطًا بالطلبات على الخيول لأخذ أفراد عائلة السلطان في نزهاتهم، فإن ذلك كان عذرًا جيدًا لأن أطلب ركوب هذا الحيوان الرباعي الأكثر تواضعًا. الخَبَر عن أن فرسًا سقطت وقذفت ابن السلطان الصغير على الأرض في رحلة العودة من النزهة لم يكن مفاجئًا. لحسن الحظ لم يصب الصبي بأذى، لكن إصابة الحيوان كانت بالغة. كانت فرسًا جميلة سبق أن ركبتها شخصيًا إلا أن حوافرها غير المقلمة والمفرطة في النمو جعلتها في كل الأحوال غير مأمونة.

[٢٩] استلمت رسائل من لندن مؤرخة في ٢٠ ديسمبر حاملة معها أيضًا تذكيرًا آخر من سلطات ضرائب الدخل بأن نموذجًا معينًا سبق لي أن ملأته وأرسلته لم يصل إليهم. تعتبر المراسلات مع هؤلاء السادة في مكان مثل الهفوف إجراءً مكلفًا إذ يتوقع كل رسول يحضر واحدة من هذه الرسائل الخطية الرسمية بقشيشًا. كان هناك أيضًا تقويم من المتحف البريطاني (التاريخ الطبيعي) يحمل صورة لفراشة زرقاء اجتذبت إعجاب الكثيرين إذ زينت جدران بيت الضيافة (بل إن أحد الزوار سأل كيف يمكن أن تجدد في نهاية العام؟). وصلت أيضًا بطاقة

تسأل إن كنت أود حضور عشاء نادي علماء الطيور بتاريخ ١٢ ديسمبر في لندن.

هطل المطر لمدة عشرين دقيقة في فترة ما بعد الظهر، وهي أطول فترة تساقط مررنا بها، وقد ساعد ذلك كله الإسراع في رحيل الضيف إلى يبرين.

[٣٠ يناير] حدثت عدة تساقطات للمطر خلال الليل، وبلغت كمية المطر منذ الأمس حوالي ربع بوصة. كانت الشوارع طينية للمرة الأولى وزلقة جداً لحركة مرور الحيوانات، ولذلك فإن وقع خطو الحمير أثناء مرورها بجانب المنزل قد صمت بشكل غريب.

[٣١ يناير] صباح ممل رتيب حمل معه ضباباً آخر استقر فوق البلدة. للضباب أهمية /p.190/ كبيرة جداً في اقتصاد كل أنواع الحياة في الصحارى الجافة إذ تعتمد كل من النباتات والحيوانات بشكل كلي - في السنوات عديمة الأمطار - على الضباب والندى للحصول على الرطوبة القليلة والضرورية لتبقيها حية لموسم آخر.

يفترض أن يكون المطر الذي نحصل عليه هذه الأيام هو المعدل الطبيعي لسنة عادية، وبينما لم تسقط قطرة مطر واحدة العام الماضي، فإن عاصفة واحدة منذ ثلاث سنوات حولت شوارع الهفوف إلى ما يشبه الجداول المائية الجارية، وبقيت بريكات الماء لمدة شهر أو شهرين قبل أن يجف الطين.

كان سوق الخميس مزدحماً أكثر من العادة وبسبب وجود جمع مترقب على كلا جانبي بوابات الكوت، فقد اعتقدت أنهم كانوا ينتظرون رؤية السلطان، لكن بيّن لي الجندي أبو سعود أن الحشد كان ينتظر رؤية رجل أدين بالسرقة من دكان في السوق، وصدر الحكم من قبل السلطان بقطع يده، ومن ثم عرضه في السوق كرادع لمن ينوي السرقة من الآخرين[1]. ذكرني الحشد الذي تزايدت أعداده بسرعة

بعملية إعدام في تاورهل[٢] . كانت أفضل أماكن المشاهدة ونقاطها ذات الرؤية الجيدة مزدحمة ثلاثة أضعاف أو أربعة ، وبين الحين والآخر كان المسئول عن الباب يخرج حاملاً عصاه وبكامل هيئته الرسمية ليطرد أولئك الذين كانوا أصغر منه في المكانة أو الموقع تاركًا بتعقل الآخرين لشأنهم ، ولكن كان مقدراً للحاضرين على أية حال أن يصابوا بخيبة أمل إذ أشيع أن السجين كان يقذف بنفسه بعنف على جدران السجن، وأن السلطان تبعًا لذلك قد أجل تنفيذ الحكم حتى يتمكن الرجل من تقديم شهود يثبتون أنه قد ظهرت عليه علامات جنون في أي مناسبة سابقة . أمكن تقديم الإثبات المرضي وغيّر الحكم إلى النفي ولذلك فسيؤخذ الرجل الآن على ظهر حمار تحت حراسة جندي إلى العقير ثم يوضع في مركب متجه إلى بلاد أخرى . كانت هذه محاكمة وحكمًا نموذجيًا من قبل رجل قدم على أنه قاسٍ ، ووحشي ومتعصب . لقد بدا لي الحكم على أنه قرار عدالة جيد التوازن /p.191/ وملطف بالرحمة . قد يبدو لنا أن قطع اليد عقوبة بدائية اليوم لكنه مقبول بشكل عام في النظام القضائي العربي إضافة إلى قبوله من معظم الحكام الشرقيين ، ولابد لي هنا من القول أن مصطلح السجن مجرداً لا ينظر إليه من قبل رجال القبائل الغلاظ بنفس درجة الخزي في الحضارات الحديثة الأكثر تقدمًا ، ولذلك يصبح من الضروري البحث عن وسائل أكثر شدة إذا أريد للردع أن يكون فعالاً[٣] .

يعتبر القتل العمد الجريمة الأكثر شناعة طبقًا للقانون الوهابي

---

(١) لم يكن الملك عبدالعزيز ولا الملوك من بعده يصدرون أحكامًا في القضايا سواءً كانت مدنية أو جنائية فذلك من اختصاص قاضي الشرع وإنما كان هو ومن خلفه في حكم البلاد يأمرون بتنفيذ الأحكام بعد صدورها . (المترجمان)

(٢) هي منطقة برج لندن أحد المعالم المميزة الشهيرة في تاريخ العاصمة البريطانية ، وهو حصن قديم ومقر ملكي . كان لعدة قرون سجنًا لكثير من المعتقلين المشهورين ، له عدة أبراج منها البرج الدموي الذي أعدم فيه الكثيرون . انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، إشراف محمد شفيق غربال ، القاهرة : دار الجيل ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م ، جـ٢ ، ص ٣٤٤ . (المترجمان)

(٣) لم يكن الملك عبدالعزيز يتبع نظامًا قضائيًا عربيًا بل كان نظامه هو الشرع الإسلامي ، أما قول المؤلف أن رجال القبائل لا ينظرون إلى السجن بنفس درجة الخزي في الحضارات الحديثة فهو رأي شخصي خاص به وقد يكون حتى عنصريًا . (المترجمان)

(الإسلامي)، ويتبع الإدانة الإعدام العلني بالسيف . يستطيع المذنب ـ بموافقة الحكومة ـ أن يتجنب حكم القتل عن طريق دفع الدية[١] . يتعامل مع القضايا غير الأخلاقية من قبل أي من الجنسين بشدة متناهية أيضًا . يجلد المدانون علنًا بجريد النخل ويطردون من البلاد وأقصى حد للعقوبة هو مائة جلدة[٢] . بعض أولئك الذين يعاقبون بالجلد يبقون على قيد الحياة لينفوا بينما يموت آخرون . إن نفي غير المرغوب فيهم إلى أراضي جار صديق ليس عملاً أحادي الجانب كما يبدو ذلك أن شيخ البحرين أيضًا يجد في المراكب المتجهة إلى العقير وسائل جاهزة لإعطاء أي من رعاياه العنيدين فرصة تغيير الهواء وبذلك تتم المحافظة على ما يمكن أن يسمى تبادل السجناء . يبت في معظم الجرائم الأخرى عن طريق الغرامات التي يحددها وينظمها السلطان أو أمراؤه.

قال لي محمد حسن ـ الذي حاولت أن أعرف منه شيئًا عن يبرين ـ بأنه لم يذهب إلى هناك مطلقًا، وأن كل ما يمكن أن يقوله لي هو ما سمعه من آخرين . عدد قليل جدًا من الجنود شاهدوا المكان ، وقد يرسل جنديان بين الفينة والأخرى ، إما لحمل رسالة أو لجمع الضرائب (الزكاة) . هناك بئر واحدة فقط على الطريق إلا أنه لم يكن يعرف اسمها. (تلك هي زرنوقة)[٣] . يكون المناخ في الأجواء الحارة غير صحي ويصيب الناس بالصفراء، ويجعلهم يكحون وهم يسمون هذا المرض

(١) نسي المؤلف أن يذكر هنا شرطًا شرعيًا أساسيًا لا يستطيع المذنب تجنب حكم الاعدام بدونه ألا وهو قبول أولياء الدم للدية . (المترجمان)

(٢) من الواضح أن المؤلف يشير هنا إلى عقوبة الزاني غير المحصن ، ويدل على ذلك قول الله سبحانه وتعالى في الآية الثانية من سورة النور ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ وفي حديث رواه عبادة بن الصامت وأخرجه مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (. . . البكر بالبكر جلد مئة ونفي سنة . . .) . انظر : أحمد بن حجر العسقلاني ، بلوغ المرام من أدلة الأحكام ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م ، ص ٤٠٩ . أما قول المؤلف إن بعض المعاقبين يموتون تحت الجلد فغير صحيح ذلك أن الهدف من العقوبة ليس القتل وإلا لنص عليه الشارع ، لكن الهدف هو الإيلام والتشهير . (المترجمان)

(٣) زرنوقة هي بئر ماء في سفح جبل الخرماء من الشرق ، غرب ماء المضباعة في الجنوب الشرقي في الهفوف . أنظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، جـ٢ ، ص ٨١٩ . (المترجمان)

بالحمى . إن وصف كل من محمد حسن ومحمد أفندي ليبرين يتطابق تمامًا مع وصف ڤيلبي للجافوره ويستبدل هذا الأخير يبرين /p.192/ نفسها بالجافورة مدينته المهجورة ، والآن أسمع من محمد حسن عن الإبل التي تشرب من آبار يبرين ثم تندفع نحو الرمال لتعود من تلقاء ذاتها إلى مكان الماء بعد ثلاثة أو أربعة أيام .

كانت قبيلة آل مرة في هذا الوقت ترعى قطعانها إلى الشمال من طريق الهفوف ـ الرياض . تكبدوا خسائر كبيرة خلال القحط الذي أصاب الجنوب في العام الماضي ، وهم يدفعون رسمًا إلى الأمير مقابل السماح لهم بالقدوم إلى الأحساء . إن ضعف الرعي في الجنوب يجعل القبيلة تعتمد بشكل كامل على الجزء الشمالي من منطقتها ، وهذا يجعلها أكثر من أي وقت مضى في أيدي الشيخ عبدالله الذي لابد من أخذ الإذن منه ، وبالتالي فإن السلوك الجيد لأفراد القبيلة يصبح مضمونًا . كان المزارعون يعدون ويبذرون مساكب البطيخ في الأجزاء المعرضة للشمس من البساتين غير المظللة بأشجار النخيل . تبدو هذه العلمية باكرة جدًا بالمقارنة مع العراق . رأيت أيضًا بعض البساتين حيث كان نبات الباذنجان مزهرًا في أوج نموه خلال فصل الشتاء كله ، وكان أغلبها يسقى بالماء الحار من عين أم سبعة ـ والذي لابد أن له تأثيرًا قويًا ـ على العكس من العراق حيث تتسبب الرياح الباردة والصقيع الليلي في قطع أوراق هذه النبتة وزهورها وبالتالي تجعل المحصول الشتوي مستحيلاً .

[١ فبراير] أيقظني اليوم أحد الجنود باكرًا ، وقال : إن موظفًا من القصر قد أحضر واحدًا من مماليك السلطان كان يشكو من « حرارة » تحت الذراع ، ومعه طلب من السلطان أن أفحصه وأعمل أي شيء أستطيعه . كان المريض صبيًا زنجيًا شديد الغباء . يشكل الغباء الفج لمعظم زنوج وسط أفريقيا تناقضًا صارخًا لذكاء العرب السريع . كنت في أحد المرات ألتقط صورة في الشارع عندما جاء أحدهم

وأمسك بآلة التصوير لمجرد أن يرضي فضوله بمعرفة ما في داخلها دون قصد منه أن يكون وقحًا، ولم تكن لديه بالطبع أي فكرة أنني لم أكن عربيًا /p.193/ . أبعده الجنود الغاضبون فوراً قائلين: «حيوانات» ثم أضافوا «ليسوا إلا حيوانات» .

وجدت عند فحص المريض ورمًا كبيراً تحت الذراع، قال عنه: إنه مؤلم ويتفاقم منذ أسبوعين وعندها لمعت في ذهني أطياف الطاعون. على أية حال كان يمكنني علاجه باليود فقط والذي إن لم ينفع فلن يضر موصيًا في الوقت نفسه بأنه يجب أن يرى طبيبًا. كان هناك القليل من الأمل في هذا، إذ إن الطبيب الوحيد في البلاد كان صعب المنال، فقد غادر الرياض في زيارة لبلدة بريدة. اكتشفت الأعراض بسرعة حالما غادر المريض في كتاب «إرشادات للمسافرين» "Hints to Travellers"، وحصلت منه على القليل من الراحة في ذلك، إذ تبين حقًا أن الورم تحت الذراع هو علامة للطاعون، لكنني استمديت شيئًا من الارتياح من حقيقة أن الحجم المعطى في الكتاب يعادل بيضة دجاجة وحجم ورم هذا الصبي كان يعادل بيضة أوزة وأكثر من ذلك فإنه ـ أي الورم ـ لا يمكن أن يوصف بأنه تحت الإبط بل هو بعيد عنه. فكرت مليًا وبرضى في غياب البراغيث أيضًا، وشعرت بالارتياح عندما علمت أن المريض قد أخذ إلى الحلاق الذي هو الطبيب المحلي لمزيد من النصيحة والعلاج.

السمة الرئيسة للباس الإخوان هي العمامة البيضاء المدارة حول الرأس بدون العقال المعتاد أو العصابة المصنوعة من الصوف الأبيض أو الأسود. كلما علت مكانة اللابس كان حجم العمة أكبر. الزينة للفرد غير مرغوبة. القميص الأبيض لجموع الإخوان العاديين هو بشكل عام عبارة عن ثوب قديم متسخ. يلبس الشيخ من الإخوان ثوبًا أكثر نظافة. يتكون السلاح من السيف والبندقية وحزام الطلقات وكذلك خنجر يلبس في الوضع الرأسي أمام البطن، أما الغمد فهو مثبت بحزام منفصل (اللوحة ٢٥). يستخدم الإخوان بنادقهم وقت الحرب مرة واحدة فقط

حينما يقتربون من العدو ثم يقذفون بها فوق أكتافهم ، ويسحبون سيوفهم ويقاتلون بقية الوقت بها . ربما كان هذا تنظيمًا حكيمًا من أجل حماية أصدقائهم .

مرت اليوم ثلاثة من طيور السنونو المعتادة قادمة من الجنوب إلى الشمال . وهنا ـ كما في إنجلترا ـ فإن قدوم هذه الطيور هو علامة على اقتراب /p.194/ فصل الصيف ، وهي تغيب في شهور الشتاء فقط ولمدة تقدر بحوالي ثمانية أسابيع . كان هناك شميسة في السماء وهي مساحة صغيرة فحسب من ألوان قوس قزح بدون القوس ، ويقال إن هذا علامة على المطر في معظم المناخات .

تشرفت اليوم بزيارة من إبراهيم مسئول الاحتفالات في القصر ، وهو كذلك موظف رسمي رائع[١] . جلس في غرفتي ودخل في موضوع زيارته بلا تأخير . يهديك « الإمام (السلطان) السلام ويعتذر عن دعوتك لرؤيته إذ إنه صائم اليوم كمقدمة لشهر رمضان » ، وهو شهر الصيام الذي يتقيد فيه الصالحون من أتباع محمد بعدم الأكل أو الشرب بين الفجر وشفق المساء . سألت بعد ذلك لماذا يصوم السلطان أيامًا إضافية ؟وكان الجواب مسليًا وربما صحيحًا جزئيًا فقط . واقع الأمر هو أنه يسافر كثيرًا خلال شهر الصوم ، ولذا فإنه أحيانًا يتناول الطعام أثناء النهار خلال رحلته فمثلاً ـ يقول مخبري ـ قد يصادفون بعضًا من كمأ الصحراء . لذلك يحسب السلطان مقدمًا هذه الأيام التي أفطرها خلال رحلاته ويصومها[٢] .

« لقد أرسلت لأقول » ـ استمر إبراهيم في الحديث ـ « بأن أخبارًا وردت تفيد

---

(١) هو إبراهيم بن جميعة الذي كان المسئول عن الوفود والضيافة لدى الملك عبدالعزيز . انظر : فؤاد حمزة، البلاد العربية السعودية ، الطبعة الثانية ، الرياض : مكتبة النصر الحديثة ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، ص ٤٠ . (المترجمان)

(٢) ليس الجواب مسليًا ولا صحيحًا جزئيًا بل هو صحيح كلية إذ يقول الله سبحانه وتعالى في الآية ١٨٥ من سورة البقرة ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾ . (المترجمان)

بأن الشجيرات قد بدأت تنمو في الجنوب، وأنه قد أرسل في طلب الإبل من الشمال حيث ترعى. خلال أيام معدودة ستكون هنا وعندها يمكنك أن تبدأ». كانت هذه في الحقيقة أخباراً جيدة إذ كنت غير متأكد من وجهتنا، ولو أنني كنت شبه واثق من أنها ستكون يبرين. مضى إبراهيم في القول إن الوقت لا يحسب بشكل دقيق في الصحراء حيث لا يعني اليومان والثلاثة شيئًا، وأنني يجب أن أكون صبوراً. استمر في الحديث قائلاً: «إنها تختلف عن قواربكم البخارية التي توقّت للانطلاق في يوم محدد وساعة محددة». لعلني لاحظت بأن البريد البطئ يتأخر أسبوعًا أحيانًا من بومباي إلى البصرة، لكننا لم نكن نقسم شَعراً. كان إبراهيم هذا هو نفس الرجل الذي حصل لفيلبي معه العديد من الشجارات خلال رحلته إلى وادي الدواسر، وقد كنت أقرأ /p.195/ عنه (في كتاب فيلبي عن الرحلة) منذ وقت قصير. كنت قد أخذت الحيطة بسرعة بدفع الكتاب تحت المخدة عندما أعلن دخوله. كان سؤاله التالي عما إذا كنت أعرف فيلبي؟ وكان الجواب: نعم، وعندها سأل إن كنت قد قرأت كتابه. إن إنسانًا ذا نفس صافية طاهرة سيقول «أنت تجلس عليه» لكنني أجبت «بنعم» ليس غير. «حسنًا» قال وبكبرياء «أنا مذكور في ذلك الكتاب». لقد مررت خلال الاستجواب حتى اللحظة بدون أكاذيب لكنني أعددت نفسي للسؤال التالي مصممًا على أن أقول كذبة متعمدة. لحسن الحظ فالمحادثة لم تمض أكثر من ذلك. كنت قد توقعته أن يسأل إن كان الكتاب معي[١].

تسربت الأخبار عن مغادرتي المقتربة بسرعة وتسببت في اهتياج فعلي بين أسرة منزلي، ولم يلبث محمد حسن أن صعد الدرج قائلاً بحزن بأنني سأرحل بينما سيترك هو في الهفوف. اقترحت عليه أن يخبر الأمير بأنني أرغب في أن

(١) الكتاب المقصود هنا هو كتاب «قلب جزيرة العرب» لفيلبي.
H. St. J. B. PHILBY "THE HEART OF ARABIA", 2 vol. LONDON: CONSTABLE AND COMPANY LTD, 1922. (المترجمان)

بينما سيترك هو في الهفوف . اقترحت عليه أن يخبر الأمير بأنني أرغب في أن يرافقني . أظهر فزعه لمجرد فكرة أن يكون قادراً على جرأة كهذه إلا أنه بدا بعد ذلك منشغلاً جداً وغادر ـ كما أعتقد ـ مصمماً على ترتيبها بطريقة ما . كان من بين الزائرين الآخرين رجل عجوز مسل سبق أن رافقني إلى سلوى منذ ثلاث سنوات وكان واضحًا أنه الآن في مهمة خاصة به ليرى إن كان هناك أي نقود توزع . قال لي : «حصل محمد حسن على سلام معك » وتفسير هذا هو « أنك أعطيته مالاً ، لماذا لا تعطني أنا ؟ » . تحدثنا عن رحلة سلوى وكرر المحاولة ثانية . « لم يكن السفر سهلاً مع أنه كان ممتعًا ، ولكن لم يكن هناك قروش (نقود) » قال هذا ، ماداً يده في الوقت نفسه ودالكًا إبهامه بطرف أصبعه . كانت التلميحة واضحة جداً لدرجة أنني فضلت ألاّ أراها وغادر الرجل كما جاء خلواً من أي شيء ما عدا الشكر الجزيل على تكليفه نفسه عناء القدوم لرؤيتي مع أنني نويت في البداية أن أعطيه مبلغًا ماليًا صغيراً هدية .

[٢ فبراير] أرسل إليّ القصيبي حوالي خمسمائة روبية فضية ، وكنت قد كتبت له شيكًا منذ حوالي ثلاثة أسابيع أرسله إلى بنك البحرين لصرفه . كان /p.196/ الأمر في الواقع عملاً مطولاً . كان قد عرض أن يصرف لي الشيك في الحال لكنني فضلت تجريب عمل الطريق الآخر . إن ترتيب الأمور المالية مقدمًا في مكان كالرياض ليس أمراً سهلاً لكنني كنت واثقًا بأنني لن أواجه صعوبة في صرف شيكي مع واحد من التجار الكبار فيما لو نفذت نقودي الفضية .

استغرقت العينات النباتية وقتًا طويلاً لتجف . لدى العديد من الأنواع الصحراوية ، مثل : الشجيرات الملحية والجعفيل أوراق وسيقان لحمية ، كما أن سيقان اليتوع مليئة بعصير حليبي عندما تجرح أو تكسر . تستمر لعدة أسابيع بعد

يجعل العينات تتعفن خلال يومين أو ثلاثة. كانت طريقتي أن أضع العينات بين أظرف قديمة في دفتر ملاحظاتي عندما أكون مسافرًا، وعندما أعود إلى المنزل أو المخيم تصنف العينات وتنقل إلى صفحات مفككة من ورق النشاف مفتوحة الجوانب ومثبتة على قاعدة. كانت عينات النباتات السحلبية التي جمعت منذ خمسة أيام لاتزال غير جاهزة، مع أنها وضعت خارجًا عرضة للشمس والهواء في محاولة لتعجيل عملية التجفيف. تزايدت أعداد البعوض بشكل طفيف مؤخرًا، لكنها كانت جميعًا من نوع واحد *Culex fatigans*، ولم أتعرض لعضها أبدًا. تبدو أجسامها قشدية ـ بيضاء ـ وناعمة وتشع أجنحتها، مثل قوس قزح حتى للعين المجردة بينما يكون كل النصف الأدنى أو الخلفي من الجناح تحت العدسات متقزحًا بالألوان الحمراء والزرقاء والخضراء، أما الطرف الخلفي فهو مزين بهداب من اللون الأصفر الذهبي.

[٣ فبراير] هبت ريح جنوبية بسرعة حوالي عشرة أميال في الساعة، وهي ريح قوية فعلاً بالنسبة للهفوف. وجدت بين صناديقي عبوة منسية من تمور البصرة من النوع المسمى الحلوي، وهذا أتاح لي الفرصة لأقوم بالمقارنة بينهما وبين تمر الخلاص من الأحساء. كانت فاكهة البصرة ـ بالطبع ـ معبأة بشكل أفضل في كراتين من الورق المقوى، تحوي كل منها عشر أو نصات أو حوالي أربعين حبة من التمر بينما يأتي الخلاص في عيبة كبيرة [١]، ولم يكن من السهولة الحصول على حبة تمر منفصلة. تمرة الحلوي أكثر سوادًا وأصغر حجمًا وأشد تماسكًا وأكثر جفافًا بينما القشرة أكثر سماكة وخشونة /p.197/ والنكهة ليست تقريبًا بتلك الجودة. قشرة الخلاص لا تلاحظ تقريبًا ولحمة التمرة ألين وأحلى. ترش بذور اليانسون بشكل

(١) العيبة هي وعاء يصنع من جلد حيوان كالجمل ويعبأ بالتمر. (المترجمان)

الخلاص لا تلاحظ تقريبًا ولحمة التمرة ألين وأحلى . ترش بذور اليانسون بشكل دائم فوق تمور الخلاص هنا وفي رأيي فإن هذا يفسد نكهتها . تمرة الرزيز الإحسائية هي بنفس حجم حلوي البصرة تقريبًا ، وهذا يعني أن كلتيهما أصغر حجمًا من الخلاص . قشرة تمرة الرزيز أكثر رقة وأفضل نكهة من الحلوي ولونها كهرماني أكثر غنى ودكانة ، وعلى سطحها غبار يشبه ذاك الذي يوجد على الخوخ حتى عندما تكون جافة كما أن نواتها قصيرة وسميكة .

يرفع الأذان أو النداء للصلاة الآن عند الساعة الثانية عشرة والنصف صباحًا لصلاة الفجر ، وعند الساعة السابعة والنصف ظهرًا لصلاة الظهر ، وعند الساعة التاسعة والنصف بعد الظهر لصلاة العصر ، وعند الساعة الثانية عشرة عند الغروب لصلاة المغرب ، وعند الساعة الواحدة والنصف مساءً لصلاة العشاء . كل هذه مواقيت محلية عربية بمعنى أنها مأخوذة عن طريق ضبط الساعات على الساعة الثانية عشرة عندما تغرب الشمس خلف الأفق . إن جدول المواعيد لمؤمن ملتزم سيكون غير ذي سلاسة في النرويج ، أو أي أرض أخرى ذات شمس منتصف الليل ، لكن التغييرات الفصلية لحركة الشمس في الجزيرة العربية ليست كافية لإحداث فرق كبير . لا يواجه المصلون في الهفوف أي صعوبة في الاتجاه نحو مكة إذ إن القبلة معروفة تمامًا ، لكنني مرة شهدت حادثة ممتعة على نهر دجلة عندما كنا مسافرين على أحد قوارب النهر البخارية مع شيخ قبلي ذي سمعة بالتقوى والحماس الديني . كنا منحدرين على فيضان عال ، وكنا نصارع المنحنيات العديدة للمجرى الأفعواني بسرعة كبيرة عند ما حل وقت الصلاة . دار نقاش طويل بين الشيخ وخادمه حول اتجاه القبلة إلى مكة المكرمة ، وبعد أن حُلت المسألة تقدم الخادم بتمهل ليضع سجادة صلاة سيده في الاتجاه المطلوب وفي الوقت الذي تم فيه ذلك ، كان القارب البخاري قد دار حول الزاوية وأصبح يسير في الاتجاه المعاكس تقريبًا .

استدعي الخادم وأعاد ترتيب السجادة بحركة أسرع قليلاً هذه المرة ، لكن حركة التيار كانت أسرع ، وقبل أن يكون لدى المصلي الوقت للبدء وجد أن القارب قد تغير اتجاهه ثانية . مرة أخرى وبصبر - جدير بالثناء - جُددت المحاولة ولكن بلا فائدة ، وفي /p.198/ جو من الاستسلام للواقع استمر الشيخ في صلاته معطيًا ظهره لمكة .

يسمح بقدر من الحرية في الممارسة الدينية في الهفوف إذ يصلي الجنود والإخوان - الذين تكون أسماؤهم مرادفة للوهابيين في الحديث الرسمي عمومًا - في المسجد الوهابي الكبير مع السلطان والأمير لكن بقية الناس يذهبون إلى مساجد تتبع مذاهب إسلامية أخرى ، والتي يتوزع العديد منها حول البلدة .

بلغت سرعة الريح اليوم حوالي عشرين ميلاً في الساعة ، وكانت عاصفة ، وغير ممتعة إذ أثارت الغبار وضربت الأبواب والنوافذ بقوة .

[٤ فبراير] ذهبت اليوم إلى الجزء الجنوبي من البلدة لأطلع على التقدم الحاصل للرقع المزروعة بالقمح . وجدناها قد ظهرت للتو على سطح الأرض وجمعنا منها نوعين مميزين . بدأنا عبر البوابة الشمالية الشرقية وسرنا بمحاذاة الأسوار الشمالية والغربية المحاطة كلها من الخارج بسهل الحجر الرملي المقطع بمقالع حجارة ومقابر كبيرة . لم نمر بقمح أو زراعة حتى وصلنا إلى الحقول القليلة الواقعة إلى الجنوب من السور الجنوبي والتي سبق لي أن رأيتها عندما كان المحصول في مرحلة ثنائية الورق في ٢٢ ديسمبر . أخبرني رجل حسن الاطلاع ولو لم يكن مزارعًا بأن غرس شتلات الأرز الصغيرة لم يكن ممارسًا ، ولذلك فعملية البذر يجب أن تتم في مجموعات صفوف ، وقد كانت في هذا الشكل عندما رأيتها وقت الحصاد . لا أعلم عن بلد آخر حيث تسمح الفصول وإمدادات المياه بتناوب محصولي القمح والأرز على نفس الأرض وفي عام واحد . وما يجعل ذلك ممكنًا هو أن حصاد

القمح في الهفوف يعد أبكر منه في العراق بستة أسابيع إلى شهرين . تظهر أزهار شجر نخيل التمر مبكرة هنا أيضًا وبشكل مثير للدهشة، ولقد رأيت خلال الأيام القليلة الأخيرة رجلين يحملان زهور ذكر النخيل (اللقاح) . تباع سيقان (جذور) نبات الطرثوث السمينة والعصارية المخفية تحت سطح الأرض في السوق كل يوم، حيث تحضرها النساء البدويات إلى السوق ويبتاعها من يرغب من أهل البلدة ويأكلونها نيئة .

[٥ فبراير] خرج فهد بن جلوي الابن الأكبر /p.199/ للأمير في رحلة صيد بالصقور إلى منطقة أم رُبيّعة(١) في موقع ما، في الاتجاه الشمالي، وذلك لأن الرعي وافر هناك للإبل ولتوقعهم أن يجدوا الحبارى والغزلان .

اعتبرت أن من المرغوب فيه الحصول على قائمة بالعيون الجارية الأكثر أهمية في واحة الأحساء . فالعديد منها صغيرة للغاية لدرجة أنها تسقي بستانًا أو بستانين . ستصل قائمة تشملها جميعًا في الإجمال إلى عدة مئات، ومن المشكوك فيه أن يعرف شخص واحد أسماءها جميعًا ، ولكن لابد أن هناك سجلاً لدى موظفي الدخل الرسميين . طبقًا لمصدر معلوماتي فإن كل ترتيبات السقيا من العيون المختلفة هي في يد الشيخ عبدالله أي في يد الحكومة . عندما يشترى شخص بستانًا فإنه يحصل على ورقة يُحدد فيها أوقات سقياه، وتحفظ هذه الورقة لدى الأمير ، وإذا تجاوز شخص وقت السقيا المخصص له مسببًا الضرر لجيرانه فإنه يُحْضَر أمام الأمير ، وإذا ثبتت إدانته فإنه يجلد . نتيجة لذلك فإن نزاعات المياه

(١) ورد اسم هذه المنطقة في النص الأصلي المترجم عنه هكذا (Rubia) وهو اسم لم تذكره المصادر الجغرافية، وقد رجح الأستاذ عبدالمحسن بن مديرس المديرس - أحد أبناء المنطقة ومن المهتمين بالصيد فيها منذ فترة طويلة - أن يكون المقصود هو منطقة أم رُبيّعة الواقعة على بعد ١٢٠ كيلاً شمال الهفوف واشتهرت بصيد الحبارى والغزلان . عن أم رُبيّعة انظر : عبدالرحمن بن عبدالكريم العبيد، الموسوعة الجغرافية لشرقي البلاد العربية السعودية ، الطبعة الأولى ، الدمام: نادي المنطقة الشرقية الأدبي ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م ، جـ١ ، ص ١٦٤ . (المترجمان)

الآن إلى آلية رائعة من الكفاءة والتعقيد . القائمة التالية هي للعيون المهمة ومواقعها :

١- الخدود : هي أكبر العيون في الواحة على الأرجح . دافئة الماء وليست حارة جداً مثل عين أم سبعة ، وتسقي منطقة البساتين الواقعة على بعد ميل ونصف إلى الشرق من الهفوف حيث تنبع عند قاعدة جبل قاره على بعد حوالي ثمانية أميال إلى الشرق من منبع العين . تنبثق العين من فتحة أنبوبية كبيرة في الصخر إلى بركة يقصدها سكان الأحساء كثيراً من أجل الاستحمام وغسيل الملابس ، وقد رأيتها بنفسي .

٢- أم سبعة : هي تقريباً بحجم الخدود نفسها ، وتقع على بعد ستة أميال إلى الشمال من الهفوف وثلاثة أميال إلى الشمال من المبرز . تسقي مناطق منخفضة في كل الاتجاهات لكن بساتينها لا تجاور تلك التي تسقى من العيون الأقرب إلى الهفوف . تنبع من صدع دائري في صخرة حجر رملي جيري وتجري إلى حوض تتشعب منه سبعة جداول منفصلة /p.200/ كل واحد منها يمكن أن يسمى نهراً صغيراً في إنجلترا .

هذه هي أكثر العيون حرارة في الواحة وقد قست درجة الحرارة عند طرف البركة فكانت ١٠١ درجة فهرنهايت ، ولأن الهواء كان بارداً فلابد أنها كانت ١٠٣ درجة فهرنهايت عند المركز وقد رأيتها بنفسي .

٣- الحارة : عين قوية الجريان وأصغر من سابقتيها . ماؤها فاتر ، وتنبع على بعد نصف ميل إلى الشمال من بلدة المبرز . تسقي حزاماً من البساتين على بعد ميلين أو ثلاثة أميال وتجرى باتجاه الشرق . يستخدم حوضها بكثرة رجال المبرز ونساؤها من أجل الغسيل والاستحمام ، وقد رأيتها بنفسي .

٤ - أم خريسان : عين أصغر من عين الحارة ، وكانت درجة حرارة الماء عند طرف

البركة ٨٨ درجة فهرنهايت في ٢١ ديسمبر . تنبع على مسافة نصف ميل إلى الشمال من الهفوف ،وهي محاطة ببساتين تعتمد عليها . يستخدمها بكثرة رجال الهفوف ونساؤها من أجل الغسيل والاستحمام ، وهناك سياج مسور يحجب النساء عن الرؤية (اللوحة ١٨) وقد رأيتها بنفسي .

٥ ـ برابر : عين سريعة الجريان ، وتنبع من شمال شرق الهفوف ، وتجاور بساتينها تلك التي تسقى من عيني الخدود والحقل . ماؤها مشهور بعذوبته ودائمًا ما توفر إمدادات السلطان منها عندما يكون في الهفوف ، وقد رأيتها بنفسي .

٦ ـ الحقل : عين تنبع إلى الشرق من الهفوف قرب عين الخدود ، وتسقي منطقة مجاورة لها . لم أرها شخصيًا .

هذه العيون الست هي الأكبر والأكثر شهرة .

٧ـ عين نجم : عين صغيرة بل إنها لا تجرى ، لكنها واحدة من أكثر العيون شهرة بسبب مياهها الكبريتية التي يفترض أنها تشفي من الحميات والأمراض الأخرى . تقع على بعد ثلاثة أميال إلى الشمال الغربي من الهفوف في سهل أجرد من الحجر الرملي الجيري . يقال إن الماء يغلي عند انبثاقه لكنه كان فاترًا فقط عندما اختبرته . البركة مغطاة تمامًا بمبنى حمام عمومى يحوي غرفتي تغيير ملابس ، وهو الآن يمر بمرحلة خراب (اللوحة ٢٢) . هناك أيضًا رافعة للماء كانت تسقي فيما مضى حوالي أربعة آلاف متر مربع مزروعة بالذرة وقد رأيتها بنفسي /p.201/ .

٨ـ عين أم جمل : عين جارية صغيرة ضمن مسافة مائة ياردة من عين الخدود ، ومن المحتمل أنها فرع منها ، وقد رأيتها بنفسي .

٩ـ البحيرية : عين جارية على بعد نصف ميل إلى الغرب من الهفوف . وهي أقصى العيون من الغرب في الواحة ، ولم أرها شخصيًا .

١٠ـ عين ابن نسيم[1] : عين على بعد حوالي نصف ميل شمال غرب الهفوف .

تساعد في سقاية نفس حزام النخيل الذي تسقيه عين البحيرية، ولم أرها شخصيًا.

١١ـ مرجان : عين تنبع على بعد نصف ميل إلى الجنوب من المبرز، وتسقي رقعة مستطيلة من النخيل عرضها حوالي ثلاثة أرباع الميل، وطولها نصف ميل، ولم أرها شخصيًا.

١٢ـ الزواوي : عين صغيرة قرب عين الحارة، ولم أرها شخصيًا.

١٣ـ الجوهرية : عين تنبع من ناحية أم سبعة، ولم أرها شخصيًا.

١٤ـ جليجله : عين يقال إن ماءها دافيء، وتنبع في منطقة إلى الشمال من أم سبعة، ولم أرها شخصيًا.

١٥ـ الوجاج(٢) : عين قرب طريق العقير بمعنى أنها إلى الشرق من الهفوف ولم أرها شخصيًا.

سليسل(٣) : عبارة عن نهر سريع الجريان وسط حزام النخيل الشرقي، ومن المحتمل أنها قناة تحمل الماء من عيون أخرى، لأنني لم أسمع عن عين بذات الاسم، ولم أرها شخصيًا.

المطيرفي(٤) : وتنطق النطيفي، وطبقًا لمصدر معلوماتي، فهي عبارة عن قرية بساتينها من الحقّيقة(٥)، وهي عين صغيرة قرب عين أم سبعة، وهذا يعني أنها إلى الشمال من الهفوف، ولم أرها شخصيًا.

---

(١) ورد اسم هذه العين في النص الأصلي المترجم عنه هكذا (Benisim) . (المترجمان)

(٢) ليست الوجاج عينًا بل هي واحدة من أكثر قنوات الري أهمية في شرق واحة الأحساء. انظر : ف. ش. فيدال، واحة الأحساء، ترجمة الدكتور عبدالله بن ناصر السبيعي، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص ١٦٥ . (المترجمان)

(٣) سليسل هو أعظم قنوات تصريف مياه العيون الجنوبية في الأحساء وتتفرع منه فروع تسقى العديد من القرى وقد نضبت مياهه بعد إقامة مشروع الري والصرف في الأحساء. انظر : حمد الجاسر، معجم المنطقة الشرقية، جـ٢، ص ص٨٦٤ـ ٨٦٥ . (المترجمان)

(٤) ورد الاسم في النص الأصلي المترجم عنه هكذا (Mutaifi) . (المترجمان)

(٥) ورد اسم هذه العين في النص الأصلي المترجم عنه هكذا (Hugaiji) . (المترجمان)

البطالية : قرية تشرب من عين الجوهرية ، وتقع على بعد ستة أميال شمال الهفوف ، ولم أرها شخصيًا .

[٦ فبراير] صباح مشرق وضاء مع ريح شمالية غربية باردة كافية لتحريك أطراف سعف النخيل فحسب .

سعر البيضة في السوق هو ثلاث طويلات ، أما الدجاجة فتكلف مائة طويلة ، بينما تكلف علبة الكبريت طويلة واحدة ، ويكلف خروف طيب سمين بين عشرة إلى أحد عشر ريالاً ، ويهبط السعر إلى أربعة ريالات لخروف هزيل . سعر عقُبة البرسيم هو ثلاث إلى أربع طويلات /p.202/ ويقاس حجم العقُبة حالما تقطع وتوضع على أرضية البستان ، وهي تمثل المقدار المجموع بين المرفق ورؤوس الأصابع وهذا يعادل حرفيًا مقدار حمل ذراع ، وهذا مقياس غامض مثل بقية مقاييسهم . يأكل الجمل بين ثلاثين إلى أربعين عقُبة ، والحمار خمس عشرة عقُبة في اليوم . تحزم العقُبة جيدًا من أجل إحضارها للسوق ، وفي وضعها هذا يمكنني أن أحيط تمامًا بالحزمة بإبهامي وسبابتي الاثنتين . تتطلب الحمير التمر إضافة إلى حصة البرسيم المذكورة آنفًا .

يشبه نداء الصقار لصقوره تمامًا نداء الرجل الإنجليزي لكلابه ، ويمكن سماع النداء من مسافة طويلة . النداء صوت مألوف جدًا في الهفوف حيث يدرب الرجال دائمًا الصقور وكثيرًا ما يهرب أحدها منطلقًا بحبل طويل مربوط بالقيود أو السيور الجلدية الصغيرة المربوطة بالأقدام ، عندها تسمع الصرخات في كل الاتجاهات ، ويكون هناك انتشار جماعي لمعرفة الاتجاه الذي انطلق إليه الصقر الهارب وتلويح محموم للطعم الذي هو عبارة عن أجنحة وريش طير مربوطة بخيط لإغراء الصقر بالهبوط ذلك أنه معتاد أن يجد قطعة لحم بين الريش .

[٢٧ فبراير] استيقظت هذا الصباح وأنا أشعر أنني لست على مايرام مع ميل للإحساس بالدوار ، ولذا فقد أخذت ما يعادل ملعقة شاي كبيرة من ملح الفاكهة إينو في ماء دافئ مؤملاً أن يكون السبب ألماً في الكبد، كما أنني وللمرة الأولى أعدت وجبة الغداء بدون لمسها . بدا هذا الصباح وكأنه الأبرد حتى الآن . كان يكفيني للدفء داخل المنزل وضع عباءة فقط فوق سترة نور فولك، وكان لابد لي في فترة ما بعد الظهر أن أجلس في الشمس تحت الجدار الجنوبي لأحمي نفسي من هبة شمالية واضحة البرودة، وكانت أربع بطانيات والحقيبة مربوطة كلها فوقي رجاء أن تكون كافية لتبقيني دافئًا . لم أحتج إلى نار تدفئة طوال الشتاء، ولكن قدم لي كانون فحم خلال واحد من أكثر الصباحات برودة .

ذهبنا إلى نافذة مكتب القصيبي في السوق ووصل السلطان بشكل غير متوقع إذ إنه كان صائمًا ، ولم يكن هناك احتمال أن يظهر علنًا . بدلاً من أن يذهب مع والده /p.203/ والجمع المرافق إلى الغرفة الكبيرة ، اختار فيصل أن يأتي ويجلس عند النافذة في الطرف الأقصى من الشرفة حيث كنت أجلس . تبادلنا الابتسامات عن بعد، ومن ثم استقر في جلسته لينظر خارج النافذة مع واحد أو اثنين من حاشية والده، ولم يُظهر أي علامة للرغبة في الحديث معي . وضعت في موقف حرج بدون أن أعرف حقًا ما المطلوب مني . كان محمد حسن عديم النفع تمامًا في هذه المناسبات . قال أولاً : «اذهب وتحدث إليه» ثم عاد ليقول : «ربما كان من الأفضل ألا تفعل » . أخيراً تقدمت إلى المختلى حيث يجلس لأقول: « كيف حالك ؟ » وأرى ما سيحدث. نهض الشاب وصافحني وأشار إليّ لكرسي بجانبه، لكنّ رجلاً كبير السن ذا لحية كستنائية (محناة) قال: « إن الشيوخ (السلطان) هنا»[١]

(١) وردت العبارة في النص الأصلي المترجم عنه هكذا (The Shaikh of Shaikhs) . (المترجمان)

قاصداً كما افترضت أنه في الغرفة المجاورة ، وليس من اللائق في هذا الحالة أن أشاهد جالسًا أتحدث مع ابنه ولذلك ـ ومعتذراً برغبتي في التقاط صورة ـ فقد عدت إلى ركني . طرأ عند ذلك السؤال ، هل عليّ أن أطلب الذهاب لرؤية السلطان أم أنتظر حتى يرسل في طلبي؟ من المحتمل أن يكون لدى السلطان عملٌ خاصٌ مع آل القصيبي ولا يريد أن يعاق عن ذلك . كان محمد حسن قد فقد عقله تمامًا الآن ، وبعد نقاش طويل وقرارات عديدة حول الذهاب من عدمه أرسلته أخيراً ليسأل . عاد سريعًا يحمل الترحيب معه .

استقبلني السلطان بابتسامته المعهودة وأجلسني بجانبه . من الواضح أنه كان ينشد التغيير من دورة الواجبات المملة في القصر ، وكان يقلب كما في السابق بعض الكتب الموضوعة على الطاولة . قال بأنه يأمل أن تصل الإبل قريبًا ، وأعلمني أن حزب العمال قد تسلم السلطة من حزب المحافظين في لندن . كان في انتظاري مع ذلك لحظة عصيبة أخرى . قدمت القهوة وأخذت فنجانًا في الوقت الذي كنت فيه لا أزال أفكر في الوضع السياسي في إنجلترا ، وكنت على وشك أن أشرب عندما أدركت فجأة أنني ليس فقط أخذت الفنجان قبل السلطان ، بل وعلى وشك أن أشرب قبله أيضًا . لاحظ هو الوضع في الحال وما كان يجول بخاطري ، وأراحني من الارتباك بقوله مع /p.204/ مسحة من ابتسامة : « لا بأس . أنا صائم» . حالما انتهت دورة المبخرة ، قدمت عذراً وعدت إلى منزلي .

كان القلق الذي يبديه المرافقون لي الآن بعد أن علموا أنني لست في صحة جيدة مؤثراً جداً . كل أنواع التعاطف ظهر عبر تصرفات صغيرة وأسئلة دائمة . أقنعتهم إعادتي للوجبة الأخيرة غير مأكولة ، أن انهياراً صحيًا على وشك الحدوث لي . الموت وحده فقط يمنع العربي من تناول وجبته . ذهبت للنوم باكراً هذا المساء /p.205/ .

الفصل الثالث عشر:

الاستعدادات للرحلة إلى الجنوب

[٨ فبراير] شعرت اليوم بتحسن كان مبعث راحة لي، بينما بدأت الاستعدادات للحملة. وصلتني رسالة تسأل عن نوع الطعام المطلوب للرحلة وأجبت بأننا سنأكل فقط ما يأكله البدو. سيقومون على الأرجح بترتيبات أفضل إذا لم يُضايقوا بمتطلبات خاصة، ثم إن الآلات والعدة ستشغل حيزاً كبيراً من طاقة الإبل المهيأة للنقل. كان مشجعًا للغاية أن أسمع أن كلا الجنديين محمد حسن وأبو سعود تلقيا أوامر لمرافقتي فقد كنا معتادين بعضنا على بعض وإدخال جندي آخر جديد كان سيضيع وقتًا ثمينًا على الطريق. كان رفيقاي يعدان لغيبة تمتد لحوالي شهر. إنه من الصعب في رحلة من هذا النوع تقدير عدد الطلقات التي من المحتمل أن يحتاجها الفرد. لم نكن نريد أن نحمل معنا مقدار أونصة واحدة أكثر من اللازم، وفي الوقت نفسه فإنها ستكون كارثة لو حصل لدينا نقص، ولم يكن لدينا ما يدل على عدد الطيور التي قد ترى في المناطق خلال مسيرات عديمة الماء، ثم إن واحة يبرين قد تكون مائجة بالطيور. أخذنا للبندقية عيار ١٢ ملم لجمع العينات فقط خمسًا وسبعين طلقة ذات الرقم ٧، وخمسًا وسبعين طلقة بارود ناعم مما يسمح بخمس طلقات في اليوم لمدة شهر، بجانب خمسين طلقة ذات الرقم٤ والتي يمكن اسخدامها لصيد الطرائد إن كان هناك أي شئ يصطاد ـ إضافة للجمع ـ

وسبعين طلقة للبندقية عيار ٤١٠ر، ومع أن القليل من الاستعمال كان متوقعًا لهذا السلاح الصغير ، فقد استخدم ست طلقات من عيار ٤١٠ر عند عودتنا . في بلد صحراوي قاحل لا تعطي حتى الطيور الصغيرة الفرصة لإطلاق النار عليها من مسافة قريبة ، ولذلك فلابد من استخدام الطلقات الصغيرة عيار ١٢ ملم . وجدنا أيضًا أن الطيور نادرة جدًا لدرجة أن خمس /p.206/ طلقات كانت أكثر من كافية ، وقد أعدنا الكثير منها .

بالنسبة لآلة التصوير الفوتوغرافي فقد كان للفات الأفلام ذوات الاثنتى عشرة صورة الأفضلية فوق تلك ذات الست صور بالنظر إلى أن الأولى تقلص عدد المرات التى يكون من الضروري تغيير الفيلم فيها . يدخل الرمل إلى آلة التصوير في كل مرة تفتح فيها هذه الأخيرة ويكون لزامًا إيقاف الجمل والنزول ، إذ لا يمكن القيام بعملية التنظيف بشكل مرض بينما الجمل يتحرك . كانت الأفضلية كلها لصالح لفات فيلم الاثنتى عشرة صورة لكنني وجدتها فكرة جيدة أن آخذ بعض لفات الأفلام ذوات الست صور إذ يمكن ـ عندما تسنح فرصة لإرسال صندوق عينات إلى إنجلترا ـ أن أنهي التقاط الصور الست للفة الفيلم بشكل أسرع وأبعثها مع العينات . سؤال آخر يجب على المسافر أن يجيب عليه ، وهو : هل يخاطر بإرسال الأفلام إلى بلاده لتحمض بأسرع وقت ممكن أم يبقيها ويأخذها معه؟ بالنسبة لي فقد بعثت أفلامي بأسرع ما يمكن وكنت محظوظًا إذ لم أفقد أيًا منها . والأفلام التي عدت بها معي والتي بقيت بلا تحميض مدة أطول بدا عليها علامات التلف رغم أنه لم يمض أكثر من أربعة أشهر بين وقت التقاط الصورة وتحميضها .

عندما انتهينا من استعداداتنا كان مجموع العدة قد بلغ تسعة صناديق . كان صندوق المزواة ـ والذي كان يحوي أيضًا أدوات أخرى ـ طويلاً وغير طيع إذ لابد له أن يأخذ قوائم المزواة والتي عندما تثنى فإنها تجعل ربط الصندوق إلى ظهر الجمل

صعبًا ، ونتيجة لذلك ورغم الحاجة إلى التعامل معه بأقصى الحذر أكثر من أي شيء آخر ، فإنه اضطلع بوظائف الكبش النطاح[1] حالما تحركت القافلة . كان لابد من وضع المصباح الإعصاري أيضًا في صندوق ؛ لأنه لو ربط إلى ظهر الجمل وترك يتأرجح فإنه سينكسر عند أول تصادم بين جملين . احتوى صندوق آخر على مصائد وجرة خزفية بفم واسع للزواحف وصفيحة بترول سعة جالونين ذات سدادة لولبية تحوي جالونًا من الكحول الميثل الصافي . كانت الطريقة التي اتبعناها والتي عملت بشكل جيد هو أن نضع السحالي في الكحول الموضوع في صفيحة لمدة ساعتين أثناء مخيمنا الليلي ثم تصنف عندها بقلم رصاص عادي ، لا ينحل لونه أو /p.207/ يبهت في الكحول ثم تربط داخل لفافة من القطن الطبي مغموسة في الكحول الميثل وتوضع في الجرة بينما يرشح الفائض من الكحول إلى صفيحة البترول مرة أخرى ثم تغلق . بهذه الطريقة لم يفقد شيء من الكحول عن طريق التسرب ووصلت كل عيناتي بوضع ممتاز من الدرجة الأولى . صندوق آخر لا يقدر بثمن كان صندوق ڤينستا مبطن بالقصدير ذا رفوف قيعانها من خيش لوضع الطيور الكبيرة والصغيرة . لما كانت مغلفة في لفافات من القطن الطبي وبحكم أن الأجزاء الفارغة من الرفوف محشوة بالصوف ، فإن العينات يمكن أن تحفظ جافة جزئيًا وتحتفظ بشكلها جيدًا على الرغم من الارتجاج والتأرجح الأبدي للإبل . كانت الحيوانات الثديية تثبت على لوح خشبي ، ومن ثم تحفظ في الرفوف لكن هذه الطريقة يمكن أن تحسن من خلال استخدام رف ذي قاع خشبي مبطن بالفلين تثبت عليه الثدييات لتجف دون الحاجة للمسها ثانية ، بينما يمكن استخراج الرف ووضعه في الهواء الطلق عندما تسنح فرصة توقف ليومين أو أكثر . كان هناك صندوق عمل قصديري يحتوي على دفاتر يوميات وأقلام رصاص . . إلخ ،

---

(١) الكبش النطاح هو آلة حربية كان القدماء يستعملونها لدك أسوار المدن المحاصرة . (المترجمان)

إضافة إلى حقيبة من جلد حيوان الياك[١] لحفظ الملابس وحقيبتي من نوع وولسلي، بينما أخذ مهدى مطرحة نوم وصندوقًا صغيرًا.

قدرنا أن كل هذا يحتاج حمل جملين، وإضافة إلى ماذكر كان هناك وعاء (قدر) لطهي الطعام وكيس من الدقيق وسلتا تمر مغلفتان بسعف النخيل (قلتان) تزن كل منهما حوالي ثمانين رطلاً وأربع قرب ماء كلها من جلد الماعز وكيس من الأرز يزن حوالي ثمانين رطلاً وصفيحة من الدهن الذي يستخدم في الطهي ويذاب في أرز مسلوق قليل التوابل لوجبة العشاء، وهناك خيمة لي مصنوعة من قماش القنب الإنجليزي، ولكن على نمط عربي، بمعنى أنها مفتوحة من جانب واحد. ثم كان هناك أيضًا صناديق الأغراض الشخصية الصغيرة للجنود. لا تُعرَّض الذلول أو ناقة الركوب للإهانة عن طريق تحميلها بأمتعة باستثناء مزودتين واسعتين تحملان بنادق ومخازن ذخيرة وأشياء صغيرة أخرى لا تفسد محيط شكل الحيوان بينما يبدو جمل الأمتعة المحمل (الرحول) وكأنه مستودع متحرك. تقرر أن نأخذ أربعًا من إبل الركوب وثلاثًا من إبل الأمتعة إذ بلغت سبعًا في مجموعها، وتكونت مجموعة الرجال بالإضافة إليّ ومهدي من جنديين /p.208/ ودليل واحد أو رفيق من قبيلة آل مرة اسمه صالح (اللوحتان ٢٧ و ٤٨) والذي كان يعرف الطريق وهو في الوقت نفسه ابن عم للشيخ حمد بن مرضف[٢] الزعيم القبلي الأعلى لفرع جابر من آل مرة الذي عينه السلطان مؤخرًا أميرًا على يبرين، وهو مضيفي المتوقع هناك. ضُم إلينا رجل آخر قحطاني أو من قبيلة قحطان اسمه خالد ليساعد على الأحمال والإبل. وكان العدد في مجموعه ستة أفراد، وجُعل

(١) الياك هو ثور التبت الضخم الطويل الصوف. (المترجمان)

(٢) انظر: حمد الجاسر، معجم المنطقة الشرقية، جـ٤، ص ١٨٧٣. وقد ورد الاسم الأخير للشيخ حمد في النص الأصلي المترجم عنه هكذا (Maradvath). (المترجمان)

محمد حسن مسئولاً عنهم (اللوحات ٤٢ و٤٨). على الرغم من أنه كان شابًا لم يتجاوز العشرين من العمر بكثير إلا أن ثقتي فيه كانت عظيمة، ومن الواضح أن الأمير شاركني هذه النظرة. روى لي محمد محادثة تناهت إلى سمعه عندما قدم أمام السلطان ليتلقى تعليماته. التفت السلطان إلى الأمير وقال: «أنت لن ترسل أبدًا هذا الشاب غير المجرب في هذه المهمة؟» وأجاب الأمير: «أرسل أحدًا من رجالك إن أردت، لكنني أعرف رجالي وأنت لا تعرفهم». كان الجندي الآخر أبو سعود هو الطاهي ومعد القهوة ومضحك الحملة. كان كل المواطنين الأربعة يحملون البنادق فيما لم نكن أنا ومهدي مسلحين ما عدا البندقيتين الرياضيتين. كما سيُرى فيما بعد، فلم نكن قد ذهبنا بعيدًا قبل أن نرسل في طلب أربع إبل إضافية، وهذا ما جعل عدد الحيوانات أحد عشر، كما أن البدويين الذين رافقوها أكملا عدد أفراد المجموعة إلى ثمانية أتموا الرحلة إلى يبرين.

[٩ فبراير] يوم مليء بالحوادث. بدأ الرجال العمل باكرًا على القرب الجلدية الملقاة في ساحة المنزل مليئة بالماء، وتبدو كصف من الماعز المذبوح عديم الشعر. وجد أن العديد منها يسرب الماء وكان لابد من تغييرها حتى حصلنا على العدد المطلوب وهو أربع. لدهشتي أعلن عن وصول الدكتور عبدالله أو عبدالله أفندي ـ ممثل السلطان إلى مؤتمر الكويت ـ إلى المنزل. كان قد غادرني في ٣ ديسمبر كما أذكر في طريقه لحضور المؤتمر، وفي الوقت نفسه فإنه رحل أيضًا إلى بغداد ومن هناك إلى البحرين حيث /p.209/ أو شك أن يفقد حياته على يد صديق أخذه في جولة في سيارته التي انقلبت، وكان لايزال يعرج بوضوح من آثار الحادث. كان قد وصل إلى الهفوف الليلة الماضية، وقد علمت فيما بعد أن إبلي التي كانت قد وصلت من مراعيها منذ حوالي سبعة أيام مضت قد أرسلت لتقابله وأن هذا السبب بالإضافة إلى التأخير الذي حصل بسبب تعرضه للحادث، هو التفسير لانتظاري الطويل

لوسائل النقل . جاء هذا الصباح وتعابير وجهه جادة جداً ، ونقل رسالة من السلطان فحواها بأن كل شئ كان جاهزاً لرحيلي ، عندما وصلت رسالة في اليوم نفسه من يبرين تفيد أن قبيلة العوامر والتي كانت تغزو في تلك الناحية ، قد هاجمت جماعة من آل مرة وقتلت عشر عائلات وأخذت إبلهم . قال : إنه يعتقد أن من الأفضل إلغاء الرحلة حتى في هذه المرحلة . من الصعوبة بمكان وصف حجم الإحباط الذي أحسست به في هذه اللحظة . إن كان السلطان قد حزم أمره فإن ذلك نهاية الأمر وأكون قد انتظرت وخططت عبثًا .

مضى عبدالله ليشرح أن العوامر والصيعر[١] هي قبائل تجوب الصحراء خلف الجبل الأخضر في عمان ، وهم يدينون بولاء غامض لسلطان مسقط ، ولكن بسبب تعذر الوصول إليهم فإنه لا سيطرة له عليهم . رسم عندها مسودة خريطة على دفتر ملاحظاتي والتي رغم أنها أولية إلا أنها موضحة للواقع ، وأعطت فكرة جيدة عن مناطق تينك القبيلتين وعلاقتها بتلك الخاصة بآل مرة . نسب إلى العوامر الصحراء التي يحدها في الشمال الغربي صحراء يبرين الخاصة بآل مرة ، وإلى الشمال هناك الباطن وهي مقاطعة تقع في المنطقة الداخلية بين عمان المتصالحة وسواحل عمان ، وهي منطقة أستطيع أن أعرفها فقط بالباطنة على الخرائط الحالية . عين أراضي الصيعر إلى الجنوب من العوامر ، وإلى الجنوب منهم تقع الأحقاف وهو اسم يعطى للصحراء الرملية المحاذية لحضرموت ، ويقصد بها غالبًا كل القسم الجنوبي من صحراء الجنوب العظيمة . لم تشر خريطة عبد الله إلى حد بين /p.210/ بلاد آل مرة وتلك الخاصة بالعوامر ، لكن المنطقة الواقعة بينهما زينت بسهمين كل واحد منهما قادم من جهة اسم أحدهما ، ويشير رأس السهم إلى الآخر . هذه طريقة ملائمة جداً لتوضيح الحدود القبلية بين قبائل الحدود العربية في صحراء عديمة المعالم ولا

(١) الصيعر هي قبيلة من قبائل جنوب الجزيرة العربية التي ترتاد الربع الخالي . (المترجمان)



اللوحة (٢٦) جهد، بدوي من وادي الدواسر



اللوحة (٢٧) صالح الدليل المري

يخطر ببالي أي تحسين يضاف إليها . والوضع في يبرين في هذا الوقت هو أن غالبية القبائل كانت بعيدة في مناطق رعيها الشمالية قرب جودة[١] على بعد حوالي ٢٠٠ ميل من الواحة المركزية . تغتنم فرق غزو من أعدائهم الطبيعيين الفرصة لتجوب المنطقة حول يبرين وتهاجم أي جماعات صغيرة يفوقونهم عدداً ويستولون على إبلهم . تعود جموع آل مرة أوائل الصيف عندما تكون مناطق الرعي في يبرين كافية لهم وينتشرون في الصحراء إلى الجنوب، ويكونون عندها أقوياء بما فيه الكفاية ليردوا لجيرانهم زيارات الشتاء عن طريق غزو مناطق العوامر ، ولو أن هذا الجانب من المراسم ترك بتعقل ولم يشر إليه . العداوة بين الطرفين شديدة والانتقام يتم عن طريق ذبح الأسرى من طرف كل جانب .

بعد أن شرح كل هذا ، مضى عبدالله أفندي إلى الجزء الثاني من الرسالة ، وأعطاني رواية لموت النقيب شيكسبير[٢] عام ١٩١٥ والذي كما قال يشكل حتى اليوم ذكرى حزينة ومؤلمة للسلطان . كانت القصة عبارة عن تقدُمة احترام عظيم لشجاعة شيكسبير ؛ لأنها حكت كيف أنه ـ عندما استولى الذعر المؤقت على

(١) اسمها القديم يجودة ولكن العامة يحذفون الياء إذا كانت في أول الاسم فيقال جودة وهي من أشهر موارد المياه في الطف ـ المنطقة المرتفعة الواقعة غرب وادي المياه . وتقع جودة شرقي جبل يدعى حمراء جودة ويدعى الجودي أيضاً وأشتهرت جودة في التاريخ الحديث بوقوع معركة عنيفة عليها بين الأخوين محمد وسعود ابني الإمام فيصل بن تركي . انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، جـ١ ، ص ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧ . (المترجمان)

(٢) هو وليم ايرفن شيكسبير ولد عام ١٨٧٨ في البنجاب لأسرة عملت للإدارة الإنجليزية في الهند . درس في كليةساندهرستي وتخرج منها برتبة ملازم ثان . عين مساعداً للمقيم السياسي في مسقط عام ١٩٠٤ وفي عام ١٩٠٩ عين وكيلاً سياسياً في الكويت خلفاً للعميد نوكس . كان يجيد العديد من اللغات بما فيها اللغة العربية التي اتقن بعض لهجاتها البدوية اتقاناً غريباً . قابل العديد من زعماء الجزيرة العربية بمن فيهم الملك عبدالعزيز كما قام بست رحلات داخل الجزيرة العربية . قتل في معركة جراب بين الملك عبدالعزيز والأمير سعود بن عبدالعزيز بن متعب آل رشيد التي وقعت في ٨ ربيع الأول ١٣٣٣هـ(٢٣ يناير ١٩١٥م) وعمره ست وثلاثون سنة . انظر : أحمد العناني ، رحلات الكابتن وليم ايرفن شيكسبير في شبه الجزيرة العربية . من الأبحاث المقدمة للندوة العالمية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ، ١٩٧٧ ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول ، الجزء الثاني ، ص ص ٤٦٥ ـ ٤٨٤ . لمزيد من المعلومات عن النقيب شيكسبير انظر :
H.V.F. Winstone, Captain Shakespear, 1st ed. London: Jonathan Cape,1979. (المترجمان)

جيوش ابن سعود ـ رفض أن يهرب معهم أمام هجوم راكبي الإبل المنتصرين من جيش أمير حائل قائلاً ببساطة « الإنجليز لا يهربون » وواجه الهجمة حيث جرح فيها وهجر وترك وحيداً بينما اختفى رفاقه السابقون في السلاح خلف الأفق. أشار عبدالله إلى أن شجاعة الرجل الإنجليزي كانت مصدر إحراج[١] ، وأنه لهذا السبب تمامًا يتمنى لو ألغيت الرحلة. الهرب هو جزء من اللعبة في الحرب البدوية إلا إذا كانت الأرجحية في الموقع والعدد في صالح أحدهما . وعدت عبدالله بأن أهرب كأرنب بري[٢] /p.211/ عند الرؤية الأولى لقوم أو فرقة غزو وشرحت له بأن وضعي مختلف عن وضع النقيب شيكسبير أو أي من الضباط السياسيين إذ إنني لست هنا بصفتي الرسمية ولن يُحمّل السلطان بأي حال المسئولية. سألته بعد ذلك إن كان هذا التفسير سيرضي السلطان ؟ فأجاب إنه لا يعتقد ذلك. ومع ذلك فعندما اقترحت كتابة مذكرة يمكن أن تبرز في حال قتلي وتحل السلطان من كامل المسئولية رد قائلاً إنه سيأخذها إلى القصر ، وسيستخدم قدراته الإقناعية نيابة عني. قمنا عندها بإعداد الوثيقة التالية :

« الهفوف ، ٨ فبراير ـ أريد السفر إلى يبرين ، وقد حذرني سمو سلطان نجد لطفًا منه من الخطر المحتمل في مقابلة فرق غزو من «الجنوب». فيما لو حصل أي حادث فأنا أتحمل كامل المسئولية» .

كتبت الوثيقة باللغة الإنجليزية لكنني ترجمتها، وبعد أن وقعت النسخة الخالية من الأخطاء ، أمضيت نصف ساعة قلقًا حتى عاد عبدالله وقال : « كل شئ على مايرام . احزم أشياءك وانطلق»

---

(١) ليس في الأمر هنا شجاعة بل انتحار ربما كان الدافع له صغر سن شكسبير وقلة تجربته ، ولعل عبدالله أفندي أراد أن يشير إلى أن مقتل الضيف الرسمي الإنجليزي وليس شجاعته ، كان مصدر إحراج . (المترجمان)

(٢) ورد في النص الأصلي ما ترجمته (وعدت عبدالله أن أهرب كأرنبين بريين)، وهو تعبير إنجليزي معروف لا يستخدم في اللغة العربية ويعني أنني سأهرب بسرعة قصوى تعادل سرعة أرنبين مجتمعين . (المترجمان)

لم نضع وقتًا وهكذا كان استعجالي لمغادرة البلدة كبيرًا خوفًا من أن يغير السلطان رأيه لدرجة أنني لم أتذكر واجب الوداع للسلطان إلا عندما ركبت على ظهر جملي عند منتصف النهار . رغم أن محمد حسن لا يعتمد عليه في شؤون التشريفات إلا أنني استشرته، فقال لي : إن ذلك يعني تأخيرًا لمدة ساعتين، إذ لن تكون هناك فرصة مقابلة إلا بعد صلاة الظهر . وأضاف قائلاً « هذا بجانب أنك سوف تراه عند عودتك، وقد أشيع بأنك سترافقه إلى الرياض عندما نعود » . جعلني هذا أقرر الرحيل بدون المخاطرة بتأخير إضافي على أن أقدم اعتذاري فيما بعد . كان هناك انتظار آخر في السوق بينما ندبر صفيحة بارافين سعة أربعة جوالين من أجل مصباحي . كنت أحمل معي في صندوق المصباح زجاجتين مليئتين بالبارافين سعة كل منهما ثمن جالون لكن قرر الرجال وبعد نقاش طويل أن نشترى الصفيحة أثناء مرورنا بالسوق /p.212/. علقت الصفيحة متأرجحة على الأحمال المنتفخة مسبقًا، وكانت الشوارع الضيقة تضج مع طرق الصفيحة لجدران البيوت بمصاحبة مايشبه رشق المدافع من صناديقي الأخرى . ليس هناك شيء أكثر تعكيرًا للمزاج من هذا، وقد شعرت بالارتياح عندما عبرنا بعد طول عناء بوابة الجنوب .

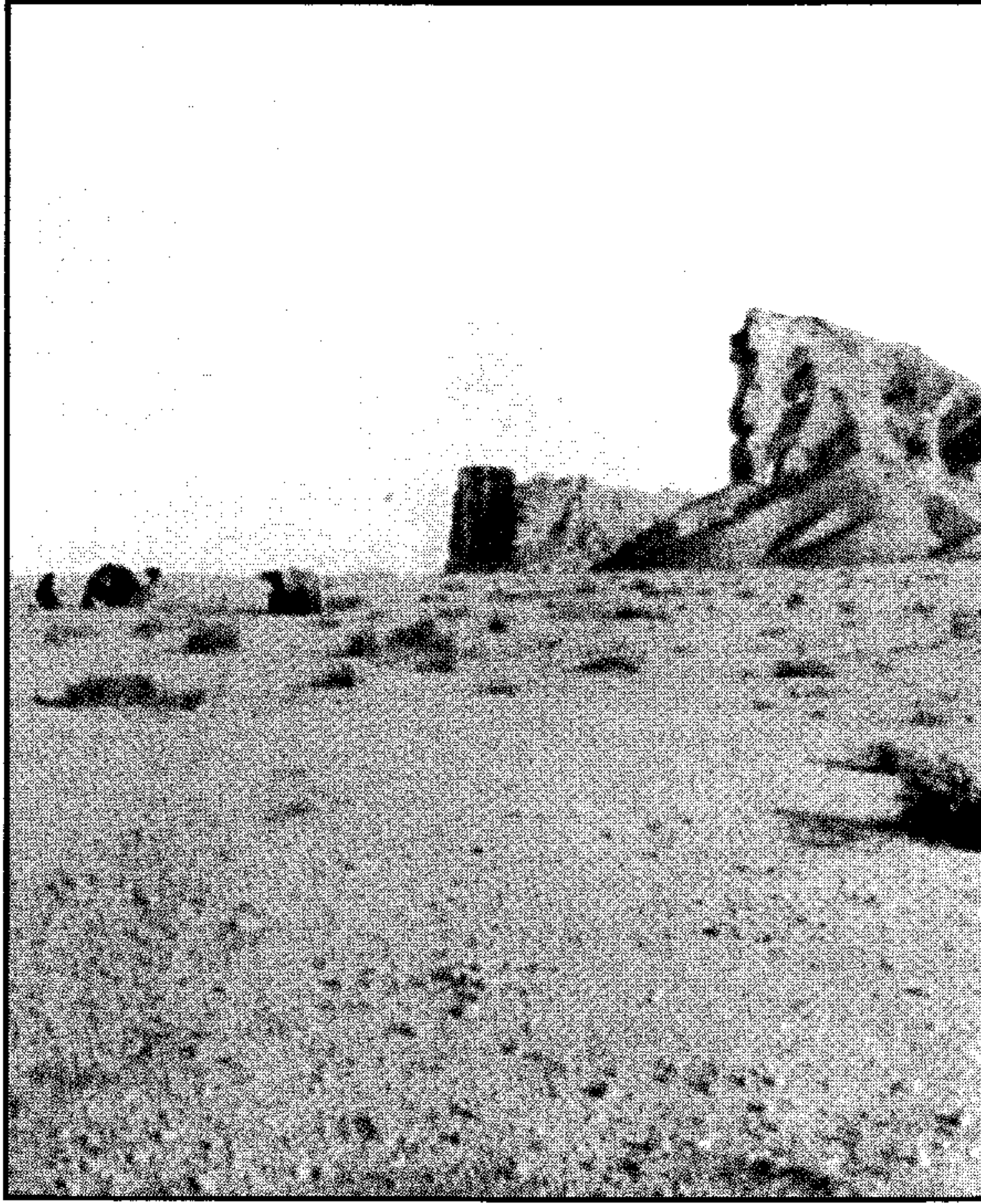
ليس من السهل السيطرة على الجمل في الصحراء ماعدا تلك المناسبات النادرة عندما ترغب أنت ومطيتك الذهاب في الطريق نفسه تمامًا . الضرب بالعصا على رقبة الجمل داخل بلدة له تأثير بسيط عليه، وقد أمضى جملي معظم وقته - بينما نحن ننتظر في السوق - في سلب حزم برسيم من السلال المحمولة على رؤوس الناس ومضغها بقوة ليجعلها صعبة الاسترجاع قدر الإمكان قبل أن يقوم المالك الساخط بانتزاعها منه /p.213/.

الفصل الرابع عشر:

إلى صحراء الجنوب العظيمة

كانت صفيحة البارافين ترشح بشكل سيئ مخلفة خطاً أسود غير مستقيم يمكن رؤيته على الرمل . بدت محاولة إيقاف التسرب مهمة مستحيلة لكن موارد الصحراء متنوعة كما هي غير متوقعة . أخذ الرجال عجوة صغيرة من التمر وألصقوها فوق الفتحة مجففين السطح الرطب برمل ناعم . أصبحت هذه لبادة لا يمكن اختراقها وخدمت الغرض منها جيداً حتى نهاية الرحلة . كان هناك ريح كافية لإثارة عاصفة رملية ، ومع أنني كنت أعلم أننا نتجه نحو نقطة تسمى الذليقية قرب جبل الأربع ، فإنه لا وجود لمعالم يمكن رؤيتها ، وبالتالي فإن مشكلة أخذ زاويا الانحراف المغناطيسي لتحديد الاتجاه قد بسطت إذ لم يكن هناك شيء يشاهد . كان الاتجاه العام للطريق يؤخذ بالبوصلة كل ربع ساعة تقريبًا . ينبسط حولنا سهل شجيري ظهرت خلفه المنحدرات القائمة الشبيهة بالقلعة لجبل الأربع من خلال السديم عندما أصبحنا على بعد ثلاثة أميال منها . الذليقية عبارة عن منزل أو قصر محصن ووحيد ذي جدران طينية وبئر ماء عذب على عمق عشرين قدمًا(١) . كان ساكن المكان زنجيًا مع زوجته وأولاده ، ومن المحتمل أنه مملوك متقاعد من مماليك

(١) الذليقية هي اليوم قرية في الجنوب الشرقي من الرقيقة جنوب جبل دخنة في طرف سبخة طويلة تمتد جنوبًا إلى جبل الخرماء وشمالاً إلى قرية الجشة وهي ذات نخل . انظر: حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، جـ ٢ ، ص ص ٧٢٣ ـ ٧٢٤ . (المترجمان)



اللوحة (٢٨)
جبل الأربع ، الهفوف ، المنحدرات العالية مواجهة الغرب



اللوحة (٢٩)
منحدرات الحجر الرملي الجيري ، جبل أبو غنيمة ،الهفوف

السلطان . كان لديه بستان صغير يحوي حوالي عشرين نخلة صغيرة ، وباذنجان وبرسيمًا ، كما كان هناك رقعة مزدهرة من القمح خارج سور البستان تبلغ مساحتها حوالي أربعة فدادين وتسقى برافعة ماء . خيمنا خارج سور البستان رغم أننا على بعد اثني عشر ميلاً من الهفوف إلا أن هذا يعتبر كافيًا لليوم الأول . توقفت العاصفة الرملية قرب المساء ، ولذا فقد تمكنت من إعادة أخذ زوايا الانحراف المغناطيسي لتحديد الاتجاه إلى الجبال المألوفة شمال الهفوف . حددت أيضًا زوايا الانحراف المغناطيسي لتحديد الاتجاه لجبال على الأفق الجنوبي يفترض أن نمر قربها في الغد ، كما وضعت /p.214/ الأساس للخريطة الجديدة بدقة كانت ستصبح مستحيلة لو أن العاصفة الرملية استمرت . جبل الأربع أكثر إرتفاعًا من جبال واحة الهفوف الأخرى ، ويبدو أنه مكون من حجر رملي جيري لين ، ولذا فإن التحلل كان أكثر سرعة تاركًا العديد من الأجزاء المركزية الصلبة لتشكل جدرانًا شديدة الانحدار وأعمدة ضخمة (اللوحة ٢٨) . إلى الجنوب كان هناك أربع أكمات مستديرة في خط على مسافة من الأرض مكونة صفاء رائعًا ومسببة ظهور الاسم العربي جبل الأربع (الجبال الأربعة) .

تمكنت في المساء من التعرف بشكل أفضل على دليلنا صالح (اللوحات ٢٧ و ٤٨) . دعا نفسه مريًا بمعنى أنه ينتمي إلى قبيلة آل مرة ، وكان يملك بستان نخل في يبرين . بعد أن برهن أنه على صلة قوية عن طريق القرابة لأمير يبرين ، فإنه رغب بعدها أن يبين أنه على الرغم من قريبه الثري ، فإنه - أي صالح - ليس فوق تلقي بعض الاعتراف القليل بخدماته ، وانطلق في قصة طويلة كان مضمونها أن ملابسه مكونة من قميص واحد كان يرتديه وعباءة خفيفة . كان أيضًا مضطرب الذهن بسبب أنه عند حساب عدد الإبل المطلوبة للرحلة ، حذفت ذلول خاصة لركوبه ، وكان لابد له أن يقفز على أشدة إبلنا ليحصل على ركوب بين الحين والآخر .

أصبحت عينا مهدي ملتهبتين ومؤلمتين من الريح والرمال، وكانت شكوى صعبة العلاج خلال الرحلة، وجعلت سلخ العينات صعبًا في الأمسيات. ما كان بيدي عمله فقط هو غسل العينين بماء دافئ، والأمل في أن تتحسنا. برزت بعد حلول الظلام قافلة أخرى من الإبل من عتمة الليل إلى وهج نار المخيم، وكانت لمحمد بن ثاني أحد شيوخ قطر وخادميه في طريقه من الهفوف إلى قطر بعد لقاء مع السلطان، وقد اشترى بعض البرسيم من البستان لإبلهم وخيم قريبًا منا. رحلوا في الصباح نحو سلوى مباشرة وسيعبرون رأس قطر في الطريق إلى الدوحة(١) /p.215/

ظهرت كوكبة صليب الجنوب بعد منتصف الليل، واختفت ثانية قبل الفجر. كانت كل النجوم الأربع مرئية بوضوح ولم يكن الأدنى منها مرتفعًا فوق الأفق بكثير. كان الجو شديد الصفاء لدرجة أن النجوم ترى في اللحظة التي تظهر فيها. كان العقرب أيضًا كوكب رائع هنا، كما كانت كامل سلسلة النجوم عالية بشكل جيد في السماء.

[١٠ فبراير] كنا جميعًا جاهزين بعد ساعة من شروق الشمس، وغادرنا الذليقية قاصدين عين زرنوقة، وهي بئر ماء في الكثبان الرملية إلى الجنوب الشرقي من جبل خرما زرنوقة، وهو سلسلة من الجبال يمكننا رؤيتها إلى الجنوب منا. كان طريقنا حتى الآن عبارة عن سهل حجر رملي جيري صلب يمكن حتى للسيارات الثقيلة السير عليه، ولكن خلال ساعة من بدء مسيرنا مررنا بعدة أحزمة من الكثبان الرملية العالية المغطاة بالشجيرات التي يبلغ ارتفاعها ثلاثين قدمًا، ولا يمكن لوسيلة نقل ذات عجلات أن تحرز أي تقدم عليها مع أن سطحًا أصلب قد يمكن اكتشافه عن

(١) بسبب خطأ غير مقصود، فإن هذا الطريق معين من بئر زرنوقة في الخريطة المنشورة في المجلة الجغرافية.

طريق الذهاب شرقًا أو غربًا من الطريق المباشر . تركت الإبل ترعى وهي تسير ، وذلك أن بعض الشجيرات التي تبدو ميتة أسفل مثل القش ، قد أخرجت مجموعة كبيرة من الأغصان الخضراء الصغيرة . بدا أن الحيوانات تجد متعة بالغة في هذه الأغصان، وكانت تمد رقابها لتقضم لقمًا كبيرة منها أثناء مسيرها . إحدى الشجيرات المفضلة لديها كانت شجيرة الأرطى أو العبل *(Calligonum comosum)* (اللوحة ٣٥) . تتفاوت ألوان النورة الهرية المستديرة الصغيرة من الأحمر أو القرنفلي الوردي إلى الأصفر وهي بحجم العنب . تنمو الأزهار الأنثوية الصغيرة عادة على سيقان منفصلة . كان هناك مجموعات من اليرقانات البنية الكبيرة والمكسوة بالشعر تتغذى على الأغصان الطرية .

توقفنا بعد مسيرة ثلاث ساعات لمدة نصف ساعة بينما كانت القهوة تغلي ، وأخذت قراءة سريعة لزوايا الانحراف المغناطيسي لتحديد الاتجاه على قمم جبال كنت تعرفت عليها ، إذ سبق لي المرور بها وعلى قمم أخرى كانت قد بدأت تظهر في الأفق وهي التي أملت أن تكون واضحة بما فيه الكفاية للتعرف عليها لاحقًا من بعد آخر . إنه لأمر عاديّ أن يأخذ الفرد قراءات عدة لقمم تبدو مظاهر مهيمنة في المنظر الطبيعي من الشمال ، ثم يجد أنها اختفت فيما حولها /p.216/ ويستحيل التعرف عليها ثانية عندما تصبح على بعد ساعة أو ساعتين إلى الجنوب منها .

تركنا سلسلة خرما زرنوقة على بعد ميل إلى الغرب منا ، ووجدنا السير جيدًا على امتدادات حصوية مستوية تتعاقب مع رمل منبسط حتى وصلنا الأجراف الجنوبية للجبال ثم استدرنا باتجاه الشرق عبر بعض الكثبان العالية من الرمل الناعم لنجد بئر زرنوقة الوحيدة ، أقصى مورد ماء جنوبي في منطقة الأحساء مستكنة في تجويف محاط بكثبان يتراوح ارتفاعها مابين ستين إلى ثمانين قدمًا . هذا هو جزء من بقعة الكثبان الرملية الواسعة التي تمتد باتجاه الشمال الغربى إلى الأربعين ميلاً من

الكثبان التي اجتزناها بين العقير والهفوف ، وهي متصلة مع صحراء الجافورة العظيمة الواقعة إلى الجنوب منا . كانت هذه الحقائق تتكشف تدريجيًا مع تقدمنا . كانت خرائط هذا الإقليم خاليةً تقريبًا من أي معلومات عنه ، والتفصيل القليل هناك مستمد من المعلومات المحلية والتي كانت في الغالب مضللة . كان أي شئ معلم على الخرائط إما بعيدًا عن موقعة الصحيح أو لا وجود له على الاطلاق . كانت مهمة مطابقة فكرتي المسبقة عن البلاد مع وصف صالح عما يقع أمامنا مثل أحجية صينية . كان يتحدث دائمًا عن يبرين ، وليس أبدًا جبرين ، وكان في نيتي أن أستخدم تلك الصيغة حتى تبين أنه حتى المثقف العربي ينطق الكلمة يبرين لكنه يكتبها دائمًا بحرف الجيم . بدا يقينًا في هذه المرحلة أن الآبار التي ذكر ڤيلبي أنها واقعة في مجرى وادي السهباء في الطريق بين الهفوف ويبرين هي أساطير . وكان يجب أن نكون قد مررنا بها ، لكن صالحًا قال : إننا لن نرى أية آبار بعد مغادرتنا زرنوقة حتى ندخل يبرين ، وقد اعتبر أن ستة أيام من السير الجاد سيغطي المسافة .

كان سيرنا فوق الأرض الجافة وفق النظام نفسه طوال الرحلة . كنا نرحل بعد الفجر ما أمكننا وعادة عند شروق الشمس ، وبعد ساعتين من السير نتوقف لمدة نصف ساعة لشرب القهوة ، يتبع ذلك ست ساعات من السير هي بالأحرى جهد متعب إذ إنها تشمل أشد ساعات /p.217/ النهار حرارة . كنا نمضي فترة نصف ساعة أخرى في إعداد القهوة وشربها ونتوقف لقضاء الليلة قبل الغروب بحوالي ساعة . كانت الخيمة تنصب ، ويسلق الأرز لوجبة العشاء بعد دورة مبدئية من الشاي والقهوة تنعش أرواحنا . يقود أحد الرجال الإبل لترعى ساعتين أو ثلاثًا . حرصت على أن أجعل ترتيباتي لجمع العينات ثانويًا لتلك الخاصة بالسفر ، لأنني كنت أعلم أن الرجال كانوا قلقين حتى نصبح مرة أخرى على مسافة معقولة من الماء ، وكان هذا التنازل يسحب عند ما نصل الآبار .

لم يمض وقت طويل قبل أن نسمع من صالح عن روعة يبرين . قال : إن فيها عيونًا جارية مثل الهفوف بل ونصحني ألا أضيع طلقات على عدد ضئيل من الأبالق والقنابر التي رآني أصطادها ، لأننا سنحتاج كل ما لدينا من طلقات في يبرين . استمرت هذه الروايات الوردية بشكل يومي حتى وصلنا فعلاً إلى المكان وخاب أملنا تمامًا . ذلك هو فخر البدوي بالبلد البائس الذي يسميه وطنه (ديرته) ، فهو يغني أمجاده بكل تفصيل المبالغات والمعلومات الكاذبة مع أنه يعلم جيدًا أن أكاذيبه ستفضح خلال يوم أو حتى ساعة .

مررنا خلال مسيرنا اليوم بمجموعة غير عادية من ذباب اليعسوب متجهة من الجنوب إلى الشمال . لابد أنها تطير مسافات طويلة خلال هجرتها إذ إنها كانت قادمة من الداخل الجاف ، وحتى إذا كان بعضها قد تكاثر في مياه يبرين فقد قطعت مائة وخمسين ميلاً في الصحراء . لما كنا نقابلها في معظم الأيام فيبدو أن بعضها لابد وأن يكون قد انطلق من أقصى الجنوب أو من ساحل البحر الأحمر في الجزيرة العربية .

كان هناك عربي بائس مع جمله يملأ قربه بالماء من بئر زرنوقة عندما وصلناها . قال : إن هناك مخيمًا لعزل الإبل المصابة بالجرب في مكان ما في الصحراء وأنه قد جاء ليحمل الماء للرجال . لاحظت أنه لم يُسمح لحيواناتنا بالاقتراب من البئر حتى أصبح الرجل /p.218/ وحيوانه المصاب خلف الأفق تمامًا . لم تكن الإبل عطشى مع أنها لم تشرب منذ يومين ، وبدا أن جالونين من الماء لكل منها كان كافيًا . كان الماء على عمق عشرين قدمًا أسفل البئر ويرفع بدلو وحبل ثم يفرغ في حوض من عظام جمل قديمة تمد كل جماعة على هيكلها جلد الماعز الخاص بها لحفظ الماء وتوفر أيضًا الدلو والحبل الخاص بها . كان تجويف البئر دائريًا نافذًا في صخرة حجر رملي تبرز أجزاء منها في منخفض الكثبان هنا وهناك . كان فم البئر غير مغطى لكنه محمي

بأغصان شجيرات صحراوية قوية تجعل القليل فقط من الرمل المتطاير يجد طريقه إلى البئر . هناك ـ على أية حال ـ كثبان متحركة عالية تحيط بالبئر ، وفي الحقيقة أن الأمر كان مسألة وقت فقط قبل أن يتحرك أحدها ويدفنها . سألت عندها عمن تكون مسئوليته صيانة البئر ؟ . كما هو الحال في كل شأن آخر ، فإنها مسئولية الأمير الذي يقوم الشيخ الحالي لإحدى القبائل بناءً على أوامره بتوفير الرجال الذين يحضرون معولاً حديديًا ويحفرون بئرًا أخرى أمام الكثيب أو خلفه ، أي في المنخفض التالي . كان الماء عذبًا ذا لون أصفر خفيف بلا ريب . غلبت مع غروب الشمس على النسيم الرقيق ـ الذي كان يهب من الجنوب ـ عاصفة هوجاء من الشمال بلغت سرعتها عشرين ميلاً في الساعة أثارت الرمال بقوة وهددت باقتلاع الخيمة . كان بإمكاننا سماع الريح المقتربه تنهد عبر الكثبان قبل وقت طويل من وصولها .

[١١ فبراير] تلاشت الريح خلال الليل ، وكان هناك ندى كثيف جدًا في الصباح . لم ينقع الندى صناديقنا داخل وخارج الخيمة فقط بل شبَّع الرمل بعمق نصف بوصة لدرجة أن مهدى خدع بالظن أنها كانت قد أمطرت . لم يكن هناك سحابة في السماء ولا سديم وما كان من نسيم خفيف جاء من الشمال . تلعب حالات الندى هذه دورًا مهمًا جدًا في حياة الصحاري عديمة المطر أو قليلته ، وقد دونت ملاحظات دقيقة كلما حدثت هذه الحالات . تعتمد النباتات والحيوانات /p.219/ والحشرات عليها بشكل كلي لبقائها ، وتتمكن فقط تلك التي تأقلمت بشكل خاص لندرة إمدادات الرطوبة هذه من البقاء كمستوطنات (انظر الفصل ١٩) .

كانت الإبل محملة ، وكنت قد ركبت عندما أعلن الدليل صالح بأنه يرى أن الإبل أكثر تعبًا من أن تحتمل مسيرة ستة أيام بلا ماء وهي مثقلة كما هو حالها ، ثم أنه لا وجود لإبل احتياطية في حال نفق أحدها . تم التشاور بينه وبين محمد حسن

وتقرر أن يعود صالح إلى الهفوف بأسرع ما يمكن ليحضر ثلاث إبل أخرى . من المحتمل أن ذلك لم يكن ذريعة من أي نوع ، وكما قالوا فالملامة تقع على عاتق السلطات التي لم تعطنا الإبل فور قدومها من المراعي الشمالية مفعمة بالنشاط ، بل أسرعت بإرسالها إلى العقير لإحضار عبدالله أفندي ، لأنها كانت ببساطة في متناول اليد . لم يكن هناك مناطق رعي على طريق العقير أو في العقير نفسها عند ما كانت الإبل تنتظر ، وكلا الرحلتين تمتا عبر الكثبان دون شك بأقصى سرعة . نتيجة لذلك فقد سُلمنا ماشية متعبة وواهنة قبل أن تبدأ ، واعتقد الرجال أن السلطان سيدرك هذا . قرأنا عن تلك القصص الرائعة لقدرة الجمل على الاحتمال ؛ لكن من المهم أن ندرك ـ كما في هذا المثل ـ أن ذلك ليس بلاحدود ، وأن العربي أبعد من أن يعامل الحيوانات كآلات ذات حركة دائمة . يبذل البدوي ـ غالبًا ما لديه من بعد نظر قليل ـ في خدمة مصالح جمله أكثر من مصالحه ، ولو أن طريقنا من يبرين كان منقطًا بجيف الإبل ، فإن قائدنا كان سيحصل على علامة سيئة بوصفه قائدًا للإبل مهما كان قيامه بعمله رائعًا . ينظر بالطبع إلى القضايا العاجلة مثل : معركة أو هروب أو إرسالية من وجهة نظر مختلفة .

شاهدنا ـ خلال عملية ركوبنا الإبل ـ عرضًا لواحد من أندر الأمثلة التي رأيتها لغيظ الجمل من سيده . لم يكن مهدي قد استوى في ركوبه حتى بدأ حيوانه يركض ويهدر بصوت عال /p.220/ وأدار رأسه وفتح فكيه بشكل متكرر باتجاه أقدام راكبه بطريقة مُهددة جعلت مهدي مشغولاً بمحاولة وضع أقدامه بعيدًا عن متناوله ، وهو أمر لم يكن سهل التحقيق . اختُصرت الكوميديا عندما برك الجمل بشكل مفاجيء جدًا لدرجة أنه لو لم يكن الشاب ممسكًا بمقدمة الشداد لكان قُذف إلى الرمال . قفز بعيدًا وبرشاقة كبيرة وأسرع رجلان برفع الشداد من على ظهر الجمل موضحين أن تصرفه كان مجرد تذمر ضد طية خاطئة في قماش الشداد عندما وضع على ظهره ،

وهي إما قرصت أو حكت قرحًا جلديًا ، ولم يبدُ حتى في هذه الحالة أن هناك نية في العض ؛ لأنه كان بإمكان الجمل فعل ذلك بسهولة لو أراد ، وقد تحرك الجمل بلا تذمر بعد إعادة ترتيب وسادة الشداد .

كان لابد أن نترجل وننتظر عودة صالح الذي أخذ جملي ، لأنه الأسرع وانطلق في مهمته . أعيد نصب الخيمة واستفدت شخصيًا من الفرصة للحصول على دائرة العرض وخط الطول (إحداثيات) للبئر عن طريق ارتفاع الشمس إلى الشرق من خط الطول الأساسي ، على خط الطول الأساسي ، وأيضًا إلى الغرب من خط الطول الأساسي ، والذي ستثبت قيمته في تصحيح عمل بوصلتي من أجل الخريطة . أمكن عن طريق الوقوف على أعلى كثيب رملي التعرف على الشكل الباهت لجبل الأربع في الشمال ، والحصول على زاوية الانحراف المغناطيسي لتحديد الاتجاه عليه ، وكذلك على القمم الشمالية والجنوبية لجبل خرما زرنوقة . هذه سلسلة من الحجر الرملي وهي عبارة عن منظومة واسعة من الجبال بعرض حوالي أربعة أميال في الشمال والجنوب لم توضع خريطة في السابق للشكل العام له بالطبع .

تكونت وجبة الغداء من الحنيني وهو خليط من دقيق القمح المغلي ، ويقدم مع السكر والدهن . كنت قد نويت أن آكل مع المجموعة أثناء المسير لكن الرجال لم يقبلوا ذلك ، وكانت وجبتي تحضر إلى الخيمة . كان محمد حسن التزامًا منه بالعرف بوصفه مضيفًا ، يأتي بين الحين والآخر إلى الخيمة ويأكل معي قليلاً بأدب ، لكنه ينضم إلى الآخرين لتناول الطعام . أخبرني أبو سعود مرة ثانية أنه ذهب مع مجموعة من الجنود أرسلهم /p.221/ الأمير إلى أراضي عمان الداخلية وأنهم عادوا عبر يبرين لسقاية إبلهم . لما كانت رحلتهم ـ احتمالاً ـ غارة أو غارة مضادة على العوامر ، فإنه لم يكن ذرب الحديث جداً عن الموضوع ، ولكنه قال : إنها استغرقت ستًا وثلاثين يومًا من السير السريع من الهفوف إلى عمان .

أخذت بندقية أحد الجنود وفحصتها فإذا هي نوع قديم هو (٣٠٣ لي إنفيلد) نقش عليها اسم « فيصل» باللغة العربية . لم أسأل عن مصدرها لكنني أظن أنها جزء من الغنيمة لمناوشة على حدود الحجاز . كانت الإبل طليقة ترعى طوال اليوم، وهو ما كانت تحتاجه حقيقة . عند عودة الإبل مع غروب الشمس لتبرك في المخيم، أحضر لي خالد ـ الذي كان يرعاها ـ سقنقوراً كان قد أمسك به في الرمل . كان سحلية قوية ذات أطراف قصيرة بلون قشدي أبيض شاحب، وجلد لامع إضافة إلى خطوط حمراء داكنة على الجوانب بدت كبقع الدم المتخثر . يترك الرأس والأنف ـ المشكلة على هيئة إزميل ، وكذلك الشكل الانسيابي لبقية الجسم القليل من الشك بأنها تطورت لتمضي معظم وقتها في شق طريقها بالقوة في الرمل المفكك . شاهدت صالحًا بعد بضعة أيام يمسك بواحدة منها ، وكان طريق سيرها ظاهراً بوضوح على طوال الجانب الناعم شديد الانحدار والمواجه للريح في كثيب رملي عالٍ رغم أن الرمل غير مستقر تمامًا لدرجة أن آثار الأقدام تكون مكبرة، ويمكن أن تؤخذ خطأً على أنها لحيوان أكبر بكثير . حيثما توقف خط سيرها ، هناك دائرة تشير إلى أن السحلية قد أغطست رأسها في الرمل أولاً . يعرف البدو ذلك وهم يغرزون أيديهم وأذرعتهم لعمق حوالي ثمانية عشر بوصة في الرمل، ونادراً ما يفشلون في إخراج الزاحف المتلوي . تقودني معرفتهم العميقة بأماكن تواجد هذا الحيوان إلى أن هذه هي السحلية التي تصدر إلى الهند من الأحساء بسعر مربح ، وتباع هناك ـ في كراتشي مثلاً ـ لغايات طبية إذ يفترض أن لها مزايا شفائية معينة لكنني لم أتأكد من النوع المحدد الذي تنتمي إليه .

بئر زرنوقة هي قاعدة آل مرة عندما ترعى إبلهم في صحراء الجافورة، وكان هناك /p.222/ دليل على القطعان الكبيرة التي تجمعت حولها خلال السنوات



اللوحة (٣٠)
سهل سراميد الحصوى وشجيرات العرفج



اللوحة (٣١)
مهدي والجنديان مواجهان كثيبًا رمليًا في وسط عاصفة رملية في صحراء الجافوره

الأخيرة، فقد وجدنا العديد من قرادات الإبل[١] . كانت في المرحلة النشطة بمعنى قبل أن تصبح منتفخة بالدم . هي لا تهاجم البشر بالطبع وتوفر بلا شك طاقاتها لهجرة إبل آل مرة في الربيع . كان هناك بعض النمل الأسود الكبير التي ترفع ذيولها عالية جداً وتجري من مكان إلى آخر، كما لوكانت تبحث عن مشكلة . لابد أن حفر الجحر في رمل رخو أمر متعب حتى لنملة على اعتبار أن السقف لابد أن ينهار دائمًا . استطعت أيضًا أن أختبر ذكاء خنفساء جُعل مرت عبر المخيم تدفع أمامها بعرة جمل بحجم كرة جولف وأرادت أن تجد جزءاً متماسكًا من الرمل يتحمل الحفر . كانت بعد أن تحفر نفقًا ، تضع بيضة فيه ثم تدحرج البعرة نحوه لتتغذى عليها اليرقانة الدودية عندما تفقس، لكن الرمل كان رخواً جداً لا يخدم غرضها . كانت تتراجع إلى الخلف دافعة نفسها برجليها الأماميتين ومستخدمة رجليها الخلفيتين لتدفع البعرة معها بينما هي في الحقيقة تقف على رأسها أثناء السير . عندما انحشرت بعرتها تحت صناديقنا أطلقتها ثم ذهبت خلفها ودفعتها خارجًا وبدأت من جديد محافظة ـ على الرغم من العديد من العقبات في المخيم ـ على اتجاه عام ثابت . تظاهرت بالموت لمدة خمس دقائق عندما نثرت بعض الرمل عليها ثم بدأت من جديد . كانت تترك البعرة كل خمس ياردات وتقوم باختبار حفر . كانت في البداية تنبش الرمل تحتها وتقذفه إلى الخلف وعندما كانت الكومة الصغيرة تقف في الطريق فإنها تستدير وتضع رأسها الذي يشبه الجاروف تحتها وتدفعها أمامها بعيداً عن الطريق . يترك هذا قليلاً من الرمل على رأسها يعيق العينين وقرني الاستشعار لكنه يزال بسرعة بواسطة الرجل الأمامية التي تعمل كفرشة . لكن كل الحفر التي حفرتها كانت تنهار في المراحل الأولى ، ومن ثم فإن عملية دفع البعرة تستأنف . قمت بتوقيت معدل التقدم وقست المسافة وخلال نصف ساعة كانت /p.223/ قد

(١) القراد هو حشرة تمتص دم الإبل . (المترجمان)

تقدمت خمسًا وثمانين ياردة. كنت ـ عندما تكون مشغولة بإحدى الحفر ـ أحرك البعرة ياردة واحدة باتجاه الريح . كانت تذهب رأسًا إلى الموقع الذي تركتها فيه ، ثم تجري دائريًا في دوائر متزايدة الحجم حتى تصل مباشرة إلى الجهة التي تهب منها الريح ثم تسير إليها. وضعت البعرة في المرة الثانية على بعد خطوتين باتجاه الريح منها لأختبر قوى الصيد عندها عن طريق الرائحة إذ بدا أن هذا هو دليلها . قامت عند فقدانها لما كانت تملكه بعمل دائرتين صغيرتين ثم قامت وبأقصى فاعلية بعمل دائرة كبيرة جداً ،كانت نصف مكتملة فقط عندما جاءت باتجاه الريح من البعرة واستدارت واتجهت نحوها مباشرة.

زارنا بضع طيور . كان غراب يطير حول المخيم، لكنه لم يعطني الفرصة، وقد أمكنني التعرف على اللون البني للرقبة من خلال منظار الميدان ، وهكذا فقد عرفته كغراب الصحراء أو الغراب بني الرقبة *(Corvus corax ruficollis)* ؛ لكن سيكون من الصعب تمييز هذه الطيور من جيرانها في العراق *(C.c. laurencii)* . ربما يمكن ملاحظة المنقار القوي لهذا الأخير لكن مرة أخرى فإن المنقار الأطول والأدق لغراب الصحراء يمكن أن يؤخذ خطأ لغراب القيظ ، وهناك القليل من الفرق في حجم الطيور.

شاهدنا البارحة مثلاً للجراحة البدائية . كانت شوكة قد انغرست عميقًا في باطن قدم صالح، الذي جلس في ضوء النار ليستخرجها ،ثم أخذ بعد ذلك جمرة حمراء متوهجة من اللهب وشرع يكوي بها الجرح . كان الرجال متمرسين في أساليب العيش في الصحراء أيضًا وقد رأيت أحدهم يغتسل تحت جمل يبول.

[١٢ فبراير] لم تظهر أي علامة لصالح والإبل . كان متوقعًا جدًا أن يعود ليلة البارحة رغم أن التقدير الأكثر تفاؤلاً يجعل من المستحيل عليه أن يفعل ذلك في هذا الوقت.

الفجر مشهد رائع في مخيمات الصحراء هذه . يذهب أول رجل يستيقظ ليشعل النار التي خصص لها أعواد وشجيرات صغيرة جمعت الليلة الماضية . ترسل اللُهب الوامضة التماعات على /p.224/ الخيمة ، وترسم صورة ظلية لدلال القهوة ذات المثاعيب الطويلة وكذلك صف أشدة الإبل التي وضعت لتحجب الجمر عن النسيم . تبدأ أشكال بشرية مغطاة الرؤوس بالعباءات في التجمع حول الموقد لتدفئة أيديها ، يتبع ذلك الأذان ، الذي رفعه القحطاني هذا الصباح بصوته البدوي العريض ثم اصطف الرجال جميعًا وأدوا الصلاة . تبرك الإبل خلف هذه المجموعة معقلة جميعًا وممدودة الأعناق ، وينبعث بين حين وآخر صوت أفكاكها وهي تمضغ الطعام المجتر عبر الهواء . الخلفية هي الشكل المعتم لكثبان الرمال المنقطة بالشجر وعلى كل الامتدادات ترى السماء بسحبها الصغيرة القليلة تتلقى الإشعاعات الأولى من ضوء النهار .

كان المخيم مزوداً بالوقود بشكل جيد ، فإضافة إلى وفرة الشجيرات على الكثبان والتي تحترق بشكل جيد وهي خضراء ، فهناك الكثير من بعر الإبل الذي يفضل بشكل كبير عندما تكون هناك ريح قوية إذ إنها تتوهج بشكل زاه عند وجود تيار هوائي ، بينما يتطاير الشرر من نار الخشب في كل مكان .

تختلف اللهجة البدوية جداً عن اللغة العربية ، وقد واجهت صعوبة جمة في فهمها ولكي أحصل على تفسير لنقطة صعبة كان لابد لي أن أسأل مهدي أن يترجمها إلى العربية العادية . اعتاد أن يعطي دروسًا حول نار المخيم في المساء وكنت أسمع الضحكات العالية على أخطائه الفاضحة . بدا أن المهمة بشكل رئيس هي ترديد لأبيات لاتنتهي من الشعر البدوي تقال بوزن شعر جذاب وصوت رتيب . هذا الشعر متوارث منذ القدم ولم يدوّن قط . من المعتاد أن يردد السامع الكلمة الأخيرة من الأبيات بصوت مُقدِّر ليظهر اهتمامه أو حتى يقظته ذلك أن بعض القصائد طويلة جداً .

وصل صالح حوالي منتصف النهار ومعه التعزيزات، وهي ثلاث من إبل الأمتعة مع بدويين آخرين أحدهما دوسري أو بدوي من وادي الدواسر اسمه جهد (اللوحة ٢٦) وهو صبي وسيم انضم إلى الإخوان مؤخراً وصاحبه وهو زنجي مولد /p.225/ ذو ذكاء محدود. استغل صالح الفرصة ليحصل على جمل له من الأمير أثناء الإثارة التي سببها وصوله إلى الهفوف. يظهر أن السلطان قد استدعاه في الحال وسأله إن كان قد تركني في الصحراء القاحلة، لكنه ارتاح عندما علم أنني مستقر بكامل الراحة بجانب البئر.

انطلقنا جميعًا بروح معنوية عالية بعد أن أعيد ترتيب الأحمال، وقد كان هناك العديد من الوقفات لتعديل تلك التي كانت تنزلق كما هي العادة خلال الساعات القليلة الأولى، بل إنني سمعت صندوق المزواة ينقلب ويصطدم بكثيب رملي، لكن أعصابي كانت أكثر صلابة وروح الإيمان بالقضاء والقدر تستحث قدراً من قسوة الفؤاد.

كانت عاصفة رملية تهب من الشمال عندما تحركنا عند الظهر. لم تكن بنفس درجة السوء على مسارنا الجنوبي، كما قد تكون لأي أحد يقابلها، ومن الواضح أن الريح السائدة كانت شمالية إذ إن الكثبان كانت شديدة الانحدار وناعمة إلى الجنوب ومتماسكة ومنحدرة تدريجيًا إلى الشمال وكانت الكثبان المتحركة في تلك الحالة ستتقدم نحو الجنوب. بدا أن للشجيرات سيطرة قوية على الكثبان في داخل القفر الرملي وتنزع إلى ايقاف تقدمه. بدا محتملاً أن هذه الكثبان كانت النتيجة المباشرة لتآكل الحجر الرملي الجيري لجبال خرما زرنوقة التي يوجد فيها نسبة عالية من الرمل.

خرجنا من الرمال بعد حوالي ثلاثة أميال ودخلنا في سهل حصوي مستو جعل السير أكثر راحة وسرعة. لا يستطيع الجمل مقاومة الرغبة في الركض عندما ينحدر على جانب كل تل رملي، ولقد كان هذا العدو الوئيد المصاحب السبب في معظم

الأعطاب التي حلت بصناديق المعدات . لم يكن هناك شيء على السهل ـ الذي يمتد باتجاه الغرب لأقصى ما يمكن أن تراه العين ـ يمنع سيارة من الانطلاق بسرعة ستين ميلاً في الساعة ، وكان السطح من الصلابة بحيث يتحمل شاحنات ثقيلة . كنا نتجه نحو جبل اسمه جبل بروج المجاريب[١] الذي يرتفع مائة وخمسين /p.226/ قدمًا فوق سطح السهل إلى الجنوب منا وبطول نصف ميل تقريبًا . لما كنت قد أخذت زاوية إنحراف هذا الجبل مسبقًا من بئر زرنوقة فقد جنُبت الكثير من عمل البوصلة المسحي على الطريق، لكن كان واضحًا أن جبال الحجر الرملي هذه كانت تصغر كلما اتجهنا جنوبًا، وأنه عندما نتركها في النهاية خلف ظهورنا فلن يكون هناك أي معالم على الأرض . كانت مثل أن تذهب إلى البحر وتفقد رؤية اليابسة وعندها تكون بوصلتك هي دليلك الوحيد . في هذه الحالة كان دليلنا صالح يتولى قيادتنا إلى يبرين ، وليس هناك من شك في قدرته على فعل ذلك، وكنت مصممًا على أن يضع هو خط السير كما يشاء دون تدخل أو اقتراح من أحد . أردت ـ مع ذلك ـ ليس فقط أن أصل إلى يبرين وأعود منها سالمًا ولكن أيضًا أن أحدد المكان بشكل صحيح على الخريطة ، وقد نبهني ارتجاج صندوق المزواة إلى احتمالية أن أجد الآلة معطوبة عندما يحين الوقت لاستخدامها وسيلة للحصول على ذلك الموقع من النجوم . سيتركني الانقطاع في استمرارية الجبال بدون أي فرصة لربط يبرين بالهفوف باستثناء تقدير عام لزاوية الانحراف لخط مسيرتنا ، والتي رغم أنها أخذت تكرارًا فقد تكون خاطئة بعدة أميال في مسافة قدرها مائة وخمسون ميلاً . كان جبل الحويذية[٢] هو السلسلة التالية على خطنا، وهو عبارة عن مجموعة أخرى صغيرة حادة القمة متحدرة الجوانب ، وتكمن أهميته في أنه مرئي من جبل بروج المجاريب .

(١) لم يرد اسم جبل بروج المجاريب في المعاجم الجغرافية إلا أن المؤلف حدد موقعه على خريطة رحلته إلى الجنوب الشرقي من جبل خرماء زرنوقة . (المترجمان)

(٢) جبل الحويذية هو عبارة عن أكمتين مرتفعتين تقعان جنوب الخرما شرق برقاء الضمران وفي الجنوب من المستنة المتصلة بالجافورة . انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، جـ٢ ، ص ٥٦٩ . وورد اسم هذا الجبل في النص الأصلي المترجم عنه هكذا (Jabal Huwaitiya) . (المترجمان)

سار صالح بجانبي وشجعته على الحديث عن بلاده (ديرته). شعر بالحرج قليلاً عندما رآني أدون ما كان يقوله أثناء سيرنا، لكنه اعتاد على هذا بعد يوم أو يومين. لما كانت كل أسماء الأماكن جميعًا جديدة، وبما أن العديد منها لا يشبه أسماء الأماكن في أي جزء آخر من الجزيرة العربية أو العراق، فقد كان ضروريًا أن تدون في الحال. متى ما بعد الجنود عن السماع، كان صالح يستغل الفرصة ليفوز بالحظوة لديّ بأفضل طريقة معروفة له، لكنه حقق نجاحًا أكثر بكثير في هذا الاتجاه عندما بدأ يريني أساليب الكائنات الصحراوية، ويساعد في جمع العينات /p.227/.

سار الحديث الآن على هذا النحو. روى لي كيف أنه عندما عاد إلى الهفوف سأله أصدقاؤه عن رأيه فيّ وأنه أجابهم « الصاحب شخص طيب جداً. هو مثل شيخ ويأكل وحده »، عندها وظنًا منه أن مهدي ربما يكون الوكيل لتوزيع الهدايا، فقد أضاف وهذا الأخير يسمع « ومهدي شخص طيب أيضًا ويأكل معنا ». كان كل هذا الكلام بسيطًا وصريحًا بشكل مسل، لكنني قاطعت مديحه لكي أحصل على فكرته عن وادي السهباء، الذي سنعبره خلال بضعة أيام، والذي سأكون أول أوروبي يراه. قال: إنه يتصل بالبحر إلى الجنوب من سلوى، وقال أيضًا: إن هناك طريقًا مباشرًا للوصول إلى الرياض من يبرين عبر الصمان[1] إلى الدهناء، ومن هذه الاخيرة إلى وادي السهباء، ومن هناك إلى الخرج. الأرض بين الخرج ويبرين عديمة الماء، وقدر الرحلة بين الرياض ويبرين بثمانية أيام. نستطيع، عند ربط هذه المعلومات مع تلك التي تم الحصول عليها عن المنطقة الواقعة أكثر إلى الشمال على طريق الهفوف ـ الرياض المباشر، تكوين شيء من الفكرة عن الإقليم المجهول خاصة

(١) الصمان هي منطقة واسعة تقع شرق الدهناء مجاورة لها وتتميز أرضها بالخشونة وهي من المناطق التي ترتادها البادية حين تسقط الأمطار فتصبح من أجود المراعي. من أشهر موارد المياه فيها اللصافة واللهابة والقرعاء. للمزيد من المعلومات انظر: حمد الجاسر، معجم المنطقة الشرقية، جـ٣، ص ٩٩٢-١٠٠٦. (المترجمان)

بقعة كثبان الدهناء الرملية وسهل الصمان الحصوي ، وعن خاصية السابق (الدهناء) وهي الرمل المتواصل الذي يربط صحراء النفود بين جوف العامر[١] وحائل في الشمال بصحراء الجنوب[٢] العظيمة أو الرمال (أو الربع الخالي لدى الكتاب القدماء) قد تم أخيراً إثباته . أشار صالح تاليًا في دفق من الثقة إلى قلعة خربة في يبرين ذكر أنها تحتوي على كنز مخفي ووعد أن يريني المكان . سأله مهدي بتشكك لماذا لم يبحث جماعته عن الكنز ماداموا يعلمون عنه؟ وهنا كان لابد له من الاعتراف بأنهم قاموا بالعديد من محاولات البحث الفاشلة .

اصطدمنا مرة أخرى على بعد ميل جنوب جبل بروج المجاريب بكثبان الجافورة الرملية ، وبعد الصعود والنزول لمسافة ميل تقريبًا ، نصبنا مخيمنا في منخفض . هناك ثلاثة أسباب لاختيار منخفض بين كثيبين /p.228/ لقضاء الليل . تكون نار المساء مرئية من حوالي مسافة مائة ياردة فقط بينما ستجتذب في السهل انتباه فريق غزو جواس من مسافة بعيدة ، وتغري بهجوم ليلي ، وفوق ذلك فهناك دائمًا رعي أكثر وأفضل بين الرمال . التباين في الحياة النباتية هناك وعلى السهول الحصوية واضحة . كانت النباتات في مناطق الكثبان أكبر حجمًا وبنوعيات عديدة جداً ، وكان معظمها وقت زيارتي قد حقق نمواً نظراً قويًا كما كان مزهراً ، بينما بدت تلك التي على السهول الحصوية ميتة ، وكانت قاصرة بشكل خاص على نوع واحد وهو العرفج *(Rhanterium eppaposum)* (اللوحة ٣٠) . كنا أحيانًا نجد العرفج بأغصانه الخضراء

(١) هي منطقة الجوف المعروفة في شمال المملكة وسميت بجوف آل عمرو نسبة إلى ذلك الفرع من قبيلة طيء القحطانية وكان آل عمرو قد استولوا على المنطقة من قبيلة بني كلب في القرن السادس الهجري واستمر اسمهم يطلق عليها حتى القرن الثالث عشر الهجري عندما حل محلهم قبيلة الرولة من عنزة. انظر : حمد الجاسر ، في شمال غرب الجزيرة ، الطبعة الثانية ، الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٤٠١هـ-١٩٨١م ، ص ٤٤ . (المترجمان)

(٢) يطلق أهل الأحساء على الجزء الشمالي من الصحراء الجنوبية العظيمة اسم الرمال ، وعلى الجزء الجنوبي اسم الأحقاف اما اسم الربع الخالي فهو ليس حتى مفهوم لديهم .



اللوحة (٣٢)
المخيم في كثبان جناح الجافورة الرملية



اللوحة (٣٣)
على حد الأحساء ـ الجافورة.

وزهرته الصفراء الصغيرة في التجاويف البسيطة على السهول الحصوية حيث يكون الرمل قد تجمع . يعود السبب في هذا إلى أن لدى الرمل القدرة على امتصاص الندى والاحتفاظ به ، وكذلك المطر إن سقط بالطبع ، بينما لا يفعل الحصى ذلك . نباتات الجمل المفضلة هي العرفج والعبل والحلم ويعود السبب في ذلك بشكل أساسي إلى أن هذه الثلاثة مزهرة في هذا الفصل . تحدد الإبل مكانها من على مسافة بعيدة مقدمًا ثم يكون هناك سباق بين اثنين أو ثلاثة للوصول إلى هناك أولاً . تجرد الشجيرة من أوراقها الجديدة في حوالي ثلاث لقم . الحلم هي شجيرة عشبية صغيرة ذات زهرة بنفسجية وتختفي النبتة كاملة في الأفكاك الواسعة . أدركت الآن أن مناطق الرمال هي أفضل أراضي الرعي للبدوي ، وأنها ليست قفاراً عديمة الحياة كما تصورت ، كما أنه حتى لو لم يسقط المطر فإن ندى الشتاء يكون كافيًا لبدء نمو النباتات خلال الربيع وأوائل الصيف حتى تحرقها وتجففها حرارة الصيف مرة أخرى . تنتج السنين المطيرة بالطبع نمواً أكثر وفرة . إن ندرة الآبار في صحراء الكثبان الرملية ، وضرورة سقاية الإبل كل خمسة أيام أو ستة هي حقائق تقيد تحركات كل القبائل الجوالة . السبب الثالث لاختيار منخفض بين كثيبين له أهمية ثانوية ويتعلق بالحماية من الريح .

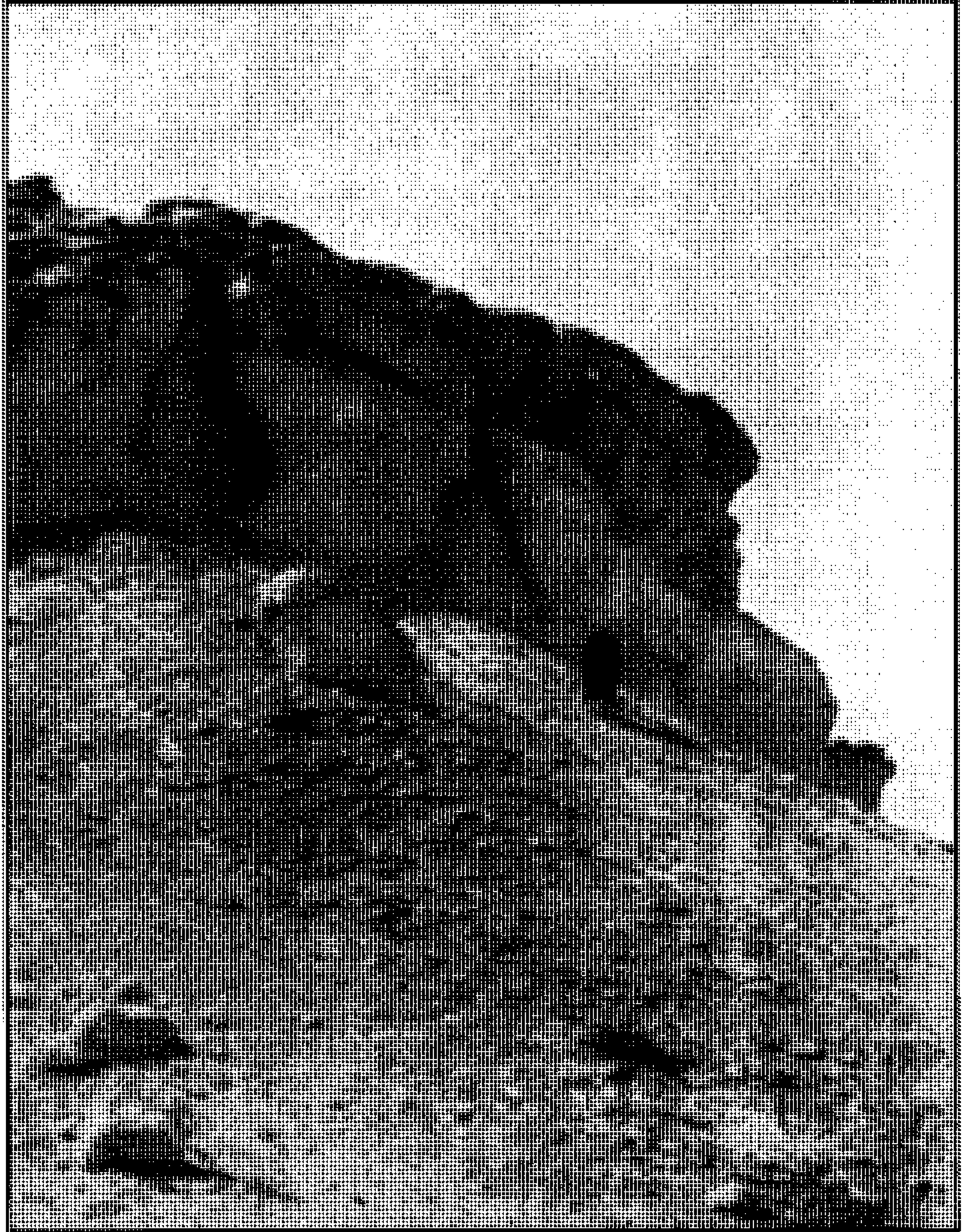
كان مخيمنا في ليلة الثاني عشر من فبراير في جناح الجافورة(١) (اللوحة ٣٢ /p.229/ .

[١٣ فبراير] نسيم شمالي رقيق لكنه قارس البرودة . كان الجميع يتحرك بأصابع أياد وأقدام خادرة . كنت أمسك قلم الرصاص بصعوبة لأكتب ملاحظات في دفتر جيبي . انطلقنا بعد نصف ساعة من شروق الشمس ، واندفعنا عبر كثبان

(١) لم يرد اسم جناح الجافورة في المعاجم الجغرافية إلا أن المؤلف حدد موقعه على خريطة رحلته في شمال غرب الجافورة ، شرق جبل الحويذية ، جنوب جبل بروج المجاريب وإلى الجنوب الغربي من جبل الخرماء . (المترجمان)

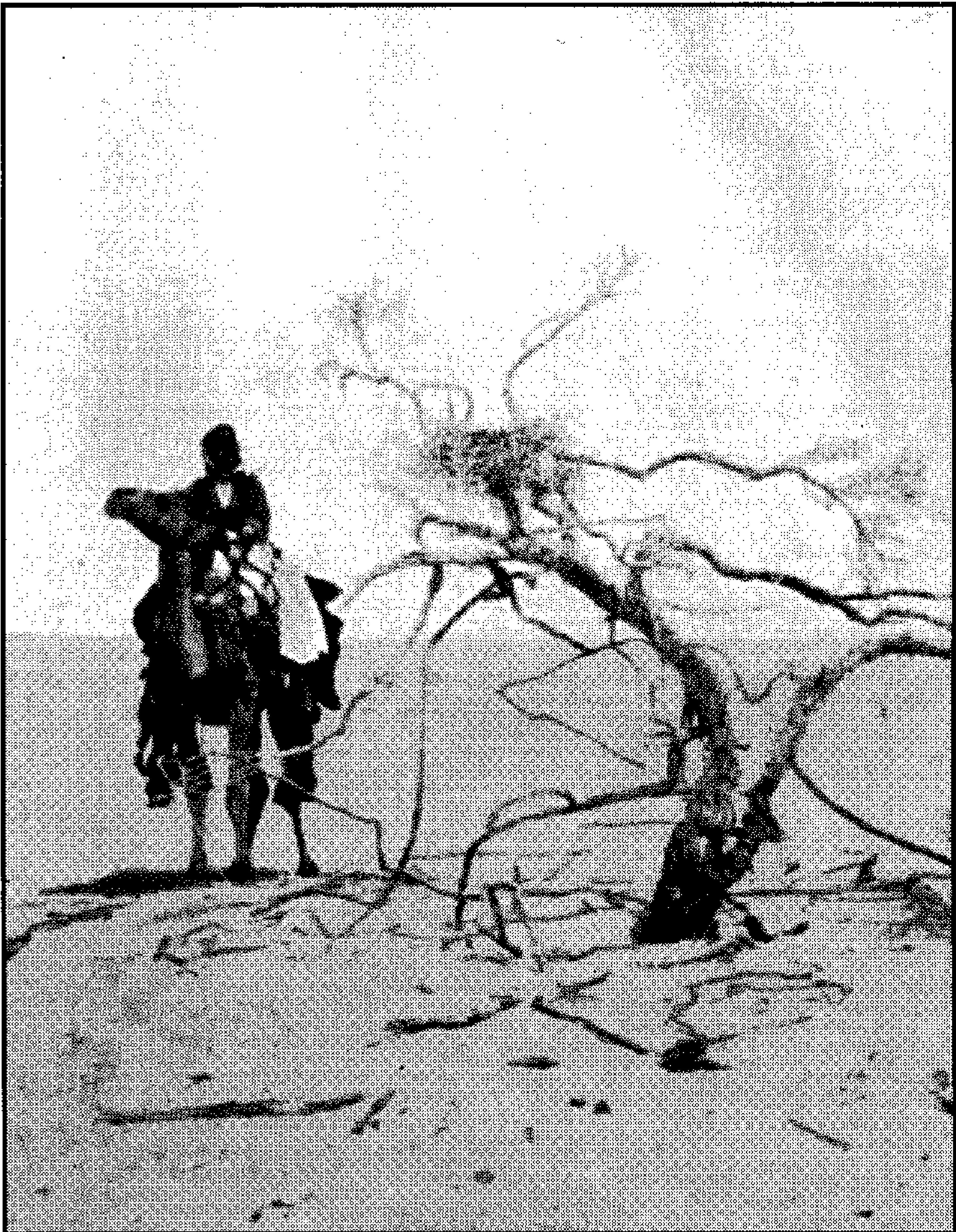
رملية ناعمة ترتفع لأربعين قدمًا من القاع إلى القمة . أصبحت لحيتي وكوفيتي بيضاء بالصقيع الذي جعل وجهي باردا ورطبًا . عبرنا الحد الجنوبي للأحساء بين كثبان كانت كلها متشابهة (اللوحة ٣٣) . أشار بذلك صالح الذي لديه على الأرجح فكرة لا بأس بها عن خط الحدود . عثرنا في منخفض كثيب كبير على عش كبير في شجيرة عبل ارتفاعها ثمانية أقدام فقط (اللوحة ٣٥) . طار غراب بني الرقبة مع اقترابنا واستقر على حافة رابية قصية . لما كنت لم أر قط من قبل بيض هذا النوع ، فقد كانت سعادتي بالغة أن وجدت ستًا منها في العش . اعتاد المرء أن يعتقد أن عش الغراب يكون بشكل ثابت على منحدر صخري شاهق صعب المنال ، وبدا منافيًا للعقل أن نجده حيث كان في أسهل مكان يوصل إليه ويؤخذ منه من أعشاش أي طيور أخرى سبق لي أن رأيتها غير مستثن من ذلك الطير الأسود لأوائل الربيع من أيام طفولتي . كان ذلك يجعل الفرد يعي أنه أصبح أخيراً في الصحراء الحقيقية حيث تسود ظروف مختلفة تمامًا . لم يكن العش في الواقع مرئيًا من أي مسافة حتى يصعد المرء فوق الكثبان المجاورة مباشرة ولأن القبائل لن تأتي إلى هنا إلا بعد حوالي ثلاثة أشهر أو أربعة لاحقة ، فطبيعي ألاّ يكون هناك شئ يحتمل أن يضايقه ، وقد يعتبر زوج الغراب هذا نفسه سيئ الحظ جدًا بسبب مصادفة مروري بهذا الطريق . كنا غير مهيئين تمامًا لخزن البيض إلا أنها وضعت في صفيحة مليئة بالرمال ، وسرنا بها بشكل جيد حتى الليل رغم الارتجاج . فرغت من محتوياتها بعد ذلك ووضعت بأمان في لباد من القطن الطبي .

سرنا باتجاه الجنوب مع ميل قليل إلى الغرب تاركين جبل الحويذية على يميننا ، وبعد فترة أدركنا أننا نقترب من نهاية الكثبان . ظهر على الأفق خط أسود طويل مستو بدا وكأنه /p.230/ البحر ، لكنه كان في الواقع السهل الحصوي الواسع الواقع إلى الغرب منا والذي تتناثر عليه بكثافة شجيرات العرفج القوية . تخطو أخيراً فجأة من الكثبان إلى الحصى ويتحسن السير كثيراً ويصبح أسرع .



اللوحة (٣٤)

جبل خرما زرونوقه ، الأحساء ، الصخور الشمالية الشرقية شديدة الانحدار ، موقع عش الصقر الجارح ذي الأرجل الطويلة .



اللوحة (٣٥)

عش غراب بني الرقبة في شجيرة عبل ، صحراء الجافورة

كان لا يزال هناك عدد قليل من الجبال الصغيرة في طريقنا مثل : بروج الحسن[1] وجبل الحرملية[2] ، وهي مخروطيات حجر رملي جيري لايزيد ارتفاعها عن مائة قدم فوق سطح السهل لكنها ذات فائدة عظمى من حيث إنه يمكن ربطها بزوايا مع تلك التي تركناها خلفنا . يقع كل طريقنا المباشر تقريبًا من زرنوقة إلى يبرين عبر الكثبان لكن صالحًا بأخذه إيانا باتجاه الغرب قليلاً أعطانا ميزة السير فوق هذا السهل وكنا الآن نتجه نحو الجنوب تقريبًا . أمكن رؤية القمم البيضاء للكثبان العالية على بعد بضعة أميال إلى الشرق منا ، وقد تبعنا خطها طوال الطريق تقريبًا إلى يبرين . كان يوجد إلى الغرب منا وحتى الأفق السهل الأسود المنبسط . اتجهنا في المساء نحو الرمال لنخيم في أمواجها الواقية . كانت الطيور نادرة جداً وقد أجفلنا أبلقين صحراويين (*Œnanthe deserti*) كما ظهر طيرا سنونو اصطادا ذبابًا من على إبلنا بصفقات قوية من مناقيرها . كان هناك أيضًا ثلاث قنابر ثنائية التخطيط (*Alæmon alaudipes*) بدت متغلبة على مشكلة العيش بدون شرب الماء ، وهي تستطيع بالتأكيد الحصول على قطرات الندى من الشجيرات في بعض الصباحات هذا الوقت فقط ، لكن من المحتمل أنها تبقى هنا في الصيف ، وفي تلك الحالة فإنها تعيش بدون رطوبة خلال أشد الشهور حرارة . كانت آثار أقدامها جارية من شجيرة إلى أخرى في الكثبان الرملية واحداً من المظاهر المعتادة لمسيرة اليوم ، ومن الظاهر أن قلة من الطيور غطت منطقة ذات مساحة شاسعة . كان هناك أيضاً قنبرة صحراء واحدة (*Ammomanes*) وأعتقد أن هذه غير قادرة على العيش بدون شرب الماء ، إذ

---

(١) لم يرد اسم جبل بروج الحسن - الذي قد يكون اسمه أيضًا بروج الحصن - في المعاجم الجغرافية ، إلا أن المؤلف حدد موقعه على خريطة رحلته إلى الغرب من الجافورة وإلى الشمال من جبل ظرابين . (المترجمان)

(٢) جبل الحرملية هو جبل يقع غرب الجافورة ، وإلى الشرق من مشاش الخليلين ، يَمر قطار السكة الحديد بينهما وهناك بئر ماء جنوب الجبل تدعى الحرملية أيضًا . انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، جـ٢ ، ص ٤٨٤ . (المترجمان)

إنها كثيراً ما تشاهد وهي تشرب الماء بحرية عند الآبار، لكن من المحتمل أنها في هذا الوقت من العام تكون قادرة على زيارة أراضٍ جديدة في رحلات تمتد لعدة أيام بحثًا عن الطعام، ولذلك فقد وجدناها بعيداً عن الماء. رأينا حشرات اليعسوب كثيراً طوال اليوم /p.231/ متجهة جميعها شمالاً في ذروة ريح شمالية قوية.

وجدنا تجويفًا للمخيم على بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من جبل ظرابين(١) (اللوحة ٣٦) ولم نر أنه من الضروري اللجوء إلى كثبان الجافورة إذ إن التلال الرملية الصغيرة أمدتنا بكل ضروريات الرعي والنار. كان الحجر الرملي لهذه الرابية لامعًا، وبدا أكثر صلابة من تلك الواقعة أكثر شمالاً. وأمكنني أن أربط هذا الجبل مع شبكتي العنكبوتية من الزوايا التي تصل إلى الهفوف ووجدت رابية أخرى هي جبل الحرملية إلى الجنوب لليوم التالي.

[١٤ فبراير] أبرد صباح سجلته لكنه عديم الريح. أحضر لي محمد حسن فخاراً عينة من حيوان صحراوي صغير مبهج، هو واحد من الأعضال الحقيقية *(Gerbillus)* وهو بحجم حيوان الزغبة تقريبًا بظلال هي الأكثر رقة للون شاحب ودود، وأجزاء سفلية خالصة البياض، وعيون سوداء ضخمة. أمسك به وهو يحدق في النار عند بداية إشعالها. يبدو أن الفضول يغلب على الأعضال، ذلك أنني وجدت عند تفتيش المخيم آثار الأقدام الصغيرة تجري في كل مكان، وقد فتشت الأعضال كل أمتعتنا بل إن أحدها دخل خيمتي وفتشني وأنا نائم.

مررنا بعد قليل بجبل الحرملية الذي لا يعدو أن يكون سلسلة من رواب صغيرة ثبت بعدها أنه آخر معلم أستطعت ربطه بتلك التي سبق أن مررنا بها. كان هناك إلى

(١) لم يرد اسم جبل ظرابين في المعاجم الجغرافية في المنطقة التي ذكرها المؤلف، لكنه حدد موقعه على خريطة رحلته إلى الغرب من الجافورة وإلى الجنوب من بروج الحسن أو الحصن. (المترجمان)

الجنوب أبعد خط غير منقطع من اللاشيء، مجرد أرض وسماء. كان لنا وقفة قهوة قصيرة في الروابي، وبينما نحن على وشك الانطلاق مجدداً، شاهد خالد أرنبًا برية تربض في شجيرة واستعار بندقية محمد. استمرينا جميعنا في السير، لأنها كانت قريبة من طريقنا، ووقوفنا كان سيجعلها تقفز وتهرب. انتظرت بعيداً عن الطريق قليلاً لأرى المطاردة المتربصة. عاد الرجلان واقتربا منها وكانا يمشيان ببطء في دوائر متلاشية حتى أصبحا في الأخير يتبعان بعضهما بعضًا في دائرة لا يتجاوز قطرها عشرين ياردة. خطر لي فجأة أنني قد أكون في خط /p.232/ إطلاق النار، ولكن لما كنت لا أعرف موقع الأرنب بدقة احترت ولم أقرر أين أذهب لأتقي الإصابة. انحرف الجمل لحسن الحظ باتجاه اليمين. توقف الرجلان وأطلقا النار على الشجيرة، وأزت الطلقة المرتدة بالمكان الذي كنت أقف فيه بعد أن مزقت أولاً أحشاء الأرنب. نظام المشي التقليدي في دائرة معروف طبعًا لكل صياد إنجليزي، وكان غريبًا أن أجده مرة أخرى هنا. كانت أرنبًا برية صغيرة وليست بكبر حجم الأرنب الوحشية الإنجليزية مع أنها كاملة النمو. عوضت عن ذلك بآذان ضخمة. كان الفرو تظليلات جميلة للون الأصفر البرتقالي والقشدي المعروف عمومًا بلون الصحراء ووجدت أنها تنتمي لنفس النوع الذي تنتمي له تلك التي اصطدناها في سلوى. ورغم أن الرصاصة مزقت أحشاءها بشكل كامل إلا أن العرب نحروها وقد تلفت تمامًا كعينة. شويت في الجمر وكانت إضافة شهية لوجبة العشاء إذ إن الأرز المسلوق والتمر بدأت تصبح رتيبة قليلاً كقائمة طعام يومية غير متغيرة.

كان السهل مريحًا جداً للسير، وكان خط سيرنا يتجه نحو الجنوب طوال اليوم. كان الأفق مستويًا كالبحر وبدا وكأننا نسير في قاع حوض يشكل الأفق حافته والذي لا يبدو مع كل المظاهر أننا نقترب منه؛ لذلك كان الانطباع هو أننا نصعد بشكل مستمر لكن السطح في الحقيقة كان مستويًا تمامًا على الأرجح. تحتمل

الأرض سيارات من أي وزن وتستطيع السير بأي سرعة . كانت الأرض منثورة بحصيات بلور صخري رائعة جدًا من كل الأحجام والأشكال والألوان، وكانت الألوان البيضاء والسوداء والحمراء والخضراء والصفراء هي الغالبة، كما كان هناك بضع قطع من المرجان المتحجر . يصقل الرمل المتناثر أسطحها حتى ليسهل تصور أن ذلك كان من عمل جواهري . نوع آخر من الحصى له سطح متموج ويعود ذلك إلى قوة مختلفة . كانت الأشكال بالغة التنوع لدرجة أنها تبدو مثل قطع من تماثيل مكسرة ، ومن هنا ظهرت بين البدو القصة التي تقول: إن هذه بقايا مدينة قديمة /p.233/ . يمكن بقليل من التخيل العثور على أي شيء تقريبًا فمن حافر أو رجل فرس إلى عظام صدر طير وعدد لا محدود من السهام الصخرية ورؤوس الفؤوس وجميعها مصقولة بشكل جميل .

تقاطع أفقنا عند حلول المساء مع خط من الكثبان الرملية الناعمة المتجهة شرقًا وغربًا ، وهو عبارة عن لسان ضيق من الرمال لا يزيد عرضه عن ميل أو ميلين ويسمى برقاء الظمران(١) ، ووفقًا لصالح فإنه يربط كثبان الجافورة بكثبان الدهناء ، وهو بذلك يشكل عازلاً رمليًا يفصل الامتدادين الفسيحين للسهل الحصوي . تجاوزناه عن طريق الذهاب إلى كثبان الجافورة ، ولذا فقد سرنا حول قاعدته حيث المنحدرات أكثر رقة ، وقال صالح : إنه على الرغم من أن الشريط ضيق إلا أن الكثبان شديدة الانحدار وناعمة في برقاء الظمران .

كان الغسق يقترب الآن وكنا قد سرنا من شروق الشمس إلى غروبها، ولذا فقد خيمت جماعة الرجال والإبل المتعبين في الرمال بعد سير بلغ ـ كما اكتشفت فيما بعد ـ تسعة وعشرين ميلاً خلال اليوم . سمَّى صالح المكان زيدا الجافورة(٢) . توقعنا

(١) تقع برقا الظمران في الجنوب الغربي من منطقة الأحساء وبالقرب من «خشم برقاء الظمران». انظر: عبدالرحمن العبيد ، الموسوعة الجغرافية ، جـ١ ، ص ١٩١ . (المترجمان)

(٢) لم يرد اسم زيدا الجافورة في المعاجم الجغرافية، إلا أن المؤلف حدد موقعه على خريطة رحلته في أقصى غرب الجافورة وإلى الشرق من برقاء الظمران . (المترجمان)

أن نعبر وادي السهباء حوالي ظهر اليوم التالي ، وهو ما كان محبطًا ، لأنني أردت أن أقضي الليل هناك وأرصد النجوم من أجل الحصول على دائرة العرض . وإن لم يكن ذلك فإن الطريقة الوحيدة للحصول على هذه المعلومة سيكون بتقدير المسافة التي قطعت منذ مغادرة زرنوقة مضروبة بعدد الساعات التي سرناها . سُجل هذا الرقم بشكل دقيق لكن عدد الأميال التي قطعت بالساعة كان متغيراً ، ولذا فإن أي تقدير سيكون بالضرورة تقريبي ولا يمكن الاعتماد عليه ، وقد كان من المهم جداً الحصول على الموقع الصحيح لتلك القناة المجهولة . بدا محمد حسن متوتراً من الغزاة ، خاصة عندما أبقيت المصباح مشتعلاً بينما كنت أحاول إبقاء ملاحظاتي محدثة أو عندما كان مهدي يسلخ الحيوانات . لأننا كنا نسير كل ساعات النهار لم يكن هناك وقت نضيعه في التوقف ونصب المخيم . كان هذا يعني عملاً صعبًا متواصلاً عندما تحل ساعة الراحة التي نحن في أمس الحاجة إليها ، ولم نكن نستطيع التأخر يومًا ، لأن محمد كان قلقًا خشية /p.234/ أن ينفذ الماء من قربنا قبل أن نصل يبرين . لم يكن يحبذ ركوبي بعيداً أمامهم ، لأنه كان واضعًا نصب عينيه احتمال أن نقابل عربًا معادين . قال : إن السلطان لم يكن متأكداً إلى أي درجة سيكون حمد - وهو شيخ من الإخوان انضم حديثًا - مستعداً لاستقبالي أنا الكافر ، كما أن قبيلته متعصبة جداً . كان من المستحيل الاتصال به مقدمًا ، وكان عليّ الانتظار خارج يبرين بينما يركب محمد حسن وصالح إلى البلدة برسالة السلطان التي تطلب منه أن يستقبلني ضيفًا محترمًا . سبب آخر للقلق كان احتمال أن نلتقي مع جماعة من آل مرة أثناء الليل ، قد يبدؤون معنا معركة ظنًا منهم خطأً أننا غزاة من العوامر ، ليكتشفوا لاحقًا أننا في الواقع أصدقاء لا أكثر ، بعد أن تكون قد وقعت إصابات لدى أحد الطرفين أو كلاهما ، إذ إننا لسنا في وضع أفضل لنعرف من كانوا .

شاهدنا آثار مطر حديث في الكثبان هنا . تصل - بعد أن تحفر ثماني بوصات في الرمل الجاف - إلى الرمل الرطب . كانت هذه المقدرة للطبقات السفلى في الاحتفاظ

بالرطوبة حول جذور الشجيرات مفاجأة عظيمة لي، ولن يخامر أحد أدنى شعور بوجود الرطوبة فيما لو اكتفى بفحص السطح الجاف. أما وقد أصبح الآن معروف أنه يمكن الاحتفاظ بها عند هذا العمق، فلا حاجة لأن نفاجأ بأنها قد تبقى لعدة أشهر طالما أن التبخر بالريح والشمس ذو تأثير قليل.

[١٥ فبراير] تغلفت الكثبان حول مخيمنا هذا الصباح بضباب أبيض كثيف. لم نكن نستطيع أن نرى لأكثر من مائة ياردة، وكان لابد للرجال أن يكونوا حذرين لئلا تضل الإبل أثناء الرعي ـ كما هي في العادة تفعل ـ لأن كل واحد منها محمل. كان هناك أيضًا ندى كثيف، وقطرات ماء تتدلى من غصون كل الشجيرات وتتساقط على الأرض في كل مكان حولها. مع شروق الشمس كان هناك قوس قزح أبيض طيفي بدون أي لون على الإطلاق رأيته عندما أدرت ظهري للشمس وكان معلقًا على الضباب عند مسافة عشرين ياردة. لم أر شبيهًا لذلك من قبل مطلقًا. كانت كوفيتي وشاربي أبيضان من الندى أثناء سيرنا، وهذا جعل /p.235/ وجهي رطبًا ومقشعراً من البرودة. اخترقنا كثبانًا بارتفاع ما بين خمسين إلى ستين قدمًا من القاع إلى القمة، وكانت مليئة بالشجيرات وجيدة المرعى. تركنا الإبل تقضم من الشجيرات الخضراء شريطة ألاّ تتوقف. لا يعلم أحد في رحلات ـ كهذه ـ متى تحين الفرصة التالية، ونظراً لأن الاعتبار الأول مع ذلك هو للتخييم في أفضل مناطق الشجيرات إلا أنه من الممكن جداً أن ليلة قد تقضى حيث لا يكون بالخصوص هناك شيء يؤكل. كان واضحًا جداً الآن أن الرحلة ستكون مستحيلة لو أنها تمت قبل شهر بدون خسائر جدية بين الحيوانات إذ لا يوجد سوى شجيرات جافة يومًا بعد يوم. مررنا بين الكثبان بآثار حديثة لحبارى وغزال، وهو ما رفع آمالنا في مقابلة الطرائد.

كنا بعد قليل في السهل الحصوي مرة أخرى، وسرنا طوال اليوم بين الأحجار الغريبة الشكل التي كان بعضها مستديراً وأملس وكبيراً ككرات الكروكي(١). أخبرني صالح أنه هنا حيث وجدت الأحجار تمشى أحيانًا تحت قواها الذاتية. يفترض البدو أن هذه الظاهرة هي نتيجة عمل الأرواح، ويُعتقد عمومًا أنها تحدث. قال صالح: إنه شاهد أحجاراً تمشي في صحاري الجافورة والسهباء والتي يتوقع أن نمر بها خلال اليومين القادمين، وليس لديه شك في أننا لو أمعنا النظر فيجب افتراضًا أن نرى العديد منها. قال: إنها قد تتلبس أي لون لكنها مستديرة وبحجم بيضة الدجاجة وتقوم بعمل خط متعرج في الرمل، وقد استخدم أصبعه لعمل رسم تخطيطي على الرمل، قمت بنسخه لأنه صعب الوصف. يقوم الحجر بتقاطعه مع طريقه بعمل سلسلة من العقد غير المألوفة ولا يتبع مجرد طريق ملتو أو مستقيم. سرنا إلى الأمام وعيوننا محدقة على الرمل. لم يكن هناك شئ مثير للاهتمام فيما عدا الأحجار الملساء المميزة وقطع المرجان العرضية. بقي الأفق على بعد حوالي ميلين عنا في أي اتجاه ولم يكن هناك شيء أكثر ليخفف رتابة المنظر الطبيعي/p.236/ مما هو موجود في المحيط الهادئ الذي يشبهه كثيراً. سجل دفتر يومياتي اليوم ثلاث كلمات عن حيوانات المنطقة: «لم تُر طيور». في حقيقة الأمر أن تعبير «لم ير شيء حي» سيكون أكثر دقة. ليس هناك حتى عقاب يحوم في السماء البعيدة، بل ولا حتى حشرة بين الأحجار في كل منطقة الاثنين والعشرين ميلاً التي قطعناها ذلك اليوم ـ حقًا إنها أرض تخلى الله عنها(٢)!

كنا في الحقيقة نسير في موازاة حافة صحراء الجافورة إلى الشرق منا المعلّمة بحافة الكثبان. حيث تلتقي هذه بالسهل الحصوي، هناك على العموم بضع روابي

(١) الكروكي هي لعبة يستخدم فيها عصا وكرات خشبية. (المترجمان)
(٢) يقصد المؤلف بهذه الأرض ذلك السهل الحصوي الذي كان يسير عليه طوال اليوم. (المترجمان)

معزولة من الرمل المتحرك الناعم ترتفع إلى نحو ثلاثين قدمًا بدون شجيرات (اللوحة ٣٧) . يأتي بعدها الحد الخارجي لمنطقة الكثبان ـ عادة أكوام أصغر ـ وأيضًا عديمة الشجيرات متصلة بعضها ببعض لكن السهل الحصوي يظهر في المنخفض من خلال الرمل الخفيف . تأتي الكثبان العالية المتحركة من الرمل الناعم على مسافة أبعد في المنطقة الداخلية . و الجانب المواجه للريح هو عبارة عن منحدر رقيق حيث تثير الريح الرمل في أعلاه على شكل طبقة رقيقة تسقط فوق الحافة التي تهب نحوها الريح ، مشكلة زاوية تعتمد درجة حدتها على مقدرة الرمل الرخو على دعمها . يتعاقب هذا مع مناطق حصلت فيها الشجيرات على موطىء قدم ، ويكون الرمل نتيجة لذلك أكثر استقرارًا ، والمنحدرات أقل حدة .

يسمى السهل الحصوي الواقع إلى الشمال من وادي السهباء سراميد (اللوحة ٣٠) ، ولأنه يسير باتجاه الشمال ـ طبقًا لصالح ـ فلابد أنه متصل بالصمان التي هي أيضًا سهل حصوي ذو خصائص مشابهة . ولما كنا نتوقع الوصول إلى وادي السهباء عند الظهر فقد واصلنا المسير دون القيام بالوقفة المعتادة من أجل القهوة لكن ساعات بعد الظهر كانت تمر دون أي علامة على اجتيازنا الأفق . قال أبو سعود أخيرًا ـ ولارتياح الجميع ـ إنه لا يستطيع الاستمرار أكثر ، وترجل قرب رقعة شجيرات ذابلة وبدأ في إشعال النار وصنع القهوة . لقد كان مبعث راحة عظيم أن يمشي المرء حوله ويمدد أطرافه وعضلاته المعقلة ويجمع بعضًا من أفضل الصخور الملساء . ليس من السهل شرح تصنيف هذه الحصيات بالنظر إلى حقيقة أنها لا يمكن أن تكون نتيجة الريح . يوجد في مكان واحد /p.237/ وفرة من كل الألوان بحجم رأسك ، وعلى مسافة أبعد فإنها تكون بحجم بيض الدجاج بينما إن أردت حصيات بحجم البازلاء فما عليك سوى أن تمشي لمسافة أكثر بعدًا حيث لن ترى إلا الأنواع الأصغر . يكون التصنيف أكثر وضوحًا في الأحجام الأصغر .

لأنني أعلم الأهمية القصوى لقضاء الليل في الوادي ، فقد كنت غير منزعج بحال من الأحول من الطريقة التي تطورت بها الأحداث إذ أن الاحتمال الأكبر هو أن نصل الوادي قبل الغروب بحوالي ساعة ، ونخيم هناك كالمعتاد . كان الرجال في الحقيقة يتحدثون عن ذلك الآن بدون أي حث مني ، لكن الأمر كان يعتمد على ما إذا كان هناك شجيرات كافية ترضي الإبل . كان خط القناة الشهير الذي حير عقول الجغرافيين منذ أقدم العصور للتو مرئيًا كسلسلة من الجبال المنخفضة على بعد حوالي ثلاثة أميال قاطعة عبر طريقنا عند زوايا صحيحة ـ بمعنى ـ وكما توقعت ، أنه كان يجري من اتجاه الغرب إلى اتجاه الشرق . وصلنا إلى الضفة الشمالية ونظرنا أسفل إلى المنحدر الرقيق التحدر إلى بطن الوادي وعبره إلى الارتفاع على الضفة الجنوبية على بعد حوالي ميل ، والذي يوجد عليه صف من الروابي كانت أول ما جذب انتباهنا . قطع مجرى الوادي بوضوح في كل من الشرق والغرب عبر السهل العظيم لأ قصى ما يمكن أن تراه العين . كان الانطباع الأول هو أنه كان هنا يومًا ما نهر جار عظيم ، وقد تبع هذا مباشرة التساؤل العقلي ، ماذا حل بالسيول التي حفرت فيما مضى هذا الأخدود العظيم ؟ ولما كنا قد وصلنا إلى الضفة فجأة ، لذا فمن الواضح أن الأرض تهبط فقط في الجوار المباشر للمجرى واتجاه الأرض المجاورة لايوحي بأن منطقة تصريفها ساهمت أبدًا بشيء من حجم المجرى . التفسير الوحيد الذي يمكن تقديمه ، هو أن المياه جاءت كلية من جبال طويق والسلاسل الأخرى في نجد ، التي لابد أنها تمتعت فيما مضى بتساقط للمطر أكثر بكثير مما تلقاه في الوقت الحاضر ، وهي نظرية بالطبع مقبولة بشكل عام .

كان الوقت الآن هو الوقت المعتاد تقريبًا للتخييم /p.238/ وأظهرت نظرتي الأولى قدرًا لا بأس به من الأشجار في الوادي الرملي أكثر بكثير مما شاهدناه في الإقليم القاحل الذي مررنا به . أسرعت على الفور لأعبر عن خوفي بأننا قد نواجه

صقعًا جافًا مماثلاً آخر على الضفة الأخرى ، وحثثت على أنه من أجل الإبل ، فإننا يجب أن نبقى ونستفيد لأقصى حد مما يوفره لنا الوادي . لارتياحي البالغ وافق محمد حسن سريعًا على وجهة نظري ، وبرّك الإبل وبدأ في إنزال الأحمال . حصلت في اليوم التالي على سمعة لبعد النظر غير مستحقة عندما تبين أن تنبؤي كان صحيحًا .

لم يكن هناك وقت لنضيعه ذلك أنني كنت آمل الحصول على ارتفاع الضفتين فوق بطن الوادي قبل حلول الظلام ، ولذا فقد نصبت المزواة ، وكانت العملية الأولى هي أن نأخذ زاوية الانحراف المغناطيسي الصحيحة لأعلى وأسفل مجرى النهر (الوادي) بواسطة البوصلة ونقرأ البارومتر المعدني . أخذت أيضًا درجة حرارة ماء يغلي بجهاز الهيبسومتر لأعرف الارتفاع فوق سطح البحر . قدرت أن ارتفاع الضفتين يبلغ خمسين قدمًا فوق بطن الوادي . حل الظلام قبل أن ننتهي من كل شيء ، ولذا فقد رصدت النجم القطبي (الجدي) لمعرفة دائرة العرض حالما أمكن تمييزه على تلسكوب المزواة ، وبعدها اخترت نجمة شرق لقياس خط الطول وبدأت على الشعرى اليمانية (المرزم) التي كانت على ارتفاع جيد . وضعنا دفتر تسجيل الزوايا على صندوق المصباح وبجواره قلم الرصاص وألقى المصباح الإعصاري ضوءًا على الصفحة . أمسك مهدي الشعلة الكهربائية قرب التلسكوب ، ليظهر الأسلاك المتقاطعة ، بينما أمسكت بيدي اليسرى ساعة آلة قياس الزمن (الكرونوميتر) في وضع يمكن الوميض المتقطع من مشكاة المصباح في أن يسقط على قرص الساعة ، بينما كانت يدي اليمنى تتجول حول الآلة في الظلام ، لتجد وتقلب اللوالب ، لأضع النجمة على السلك المركزي . كنت ألقي نظرة عجلى على الساعة لحظة الاتصال ، وأقرأ الدقيقة والثانية ، وكان هذا مشروطًا بالطبع أن يكون قرص الساعة لا يزال مضاءً بالشعاع المتقطع ، كان من السهل جدًا أن يتغير موضعي قليلاً ، وعندها كنت أجد قرص الساعة في العتمة ولا يمكن قراءته ، وفي تلك الحالة /p.239/ كان لابد لنا

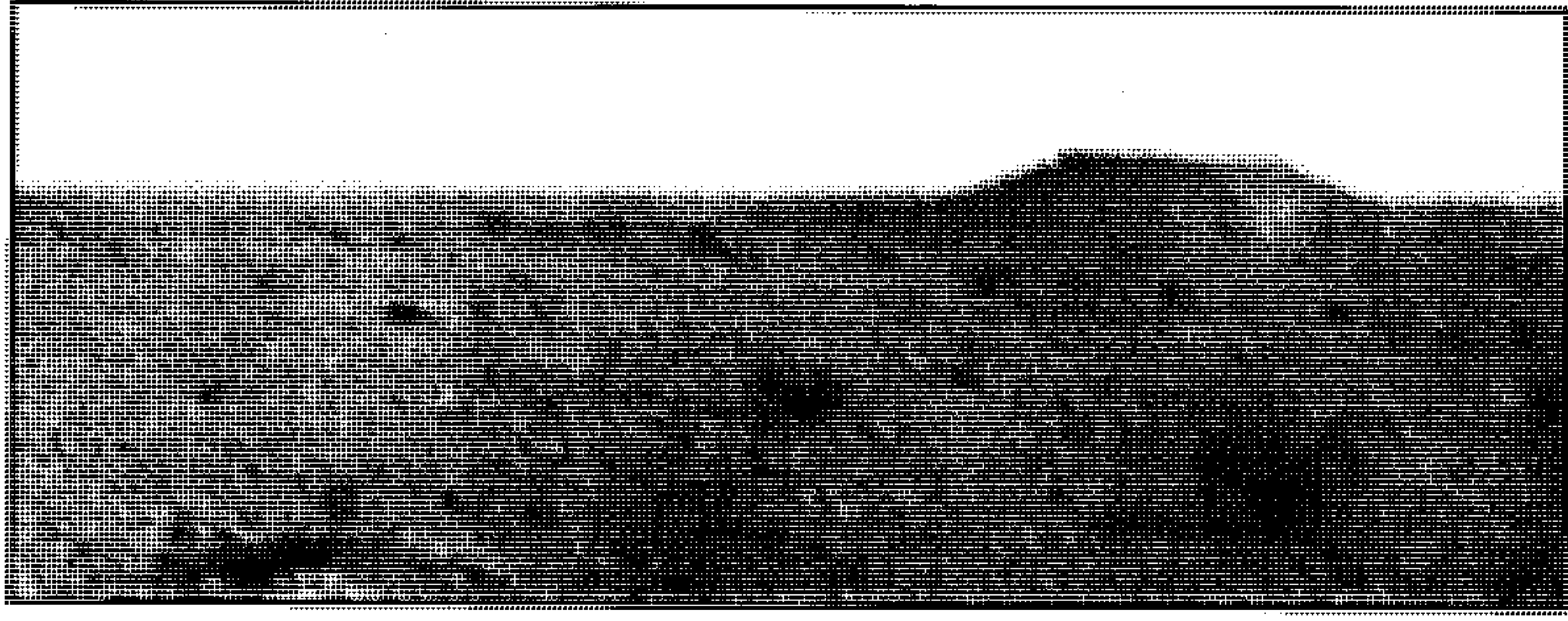
أن نبدأ من جديد. عندما يتم التحقق من الوقت كان يكتب بسرعة في الدفتر ، وأخذ مهدى الساعة مني في مبادلة للشعلة الكهربائية ، وهو تمرير نفذ بحذاقة المشعوذين، وبعد أن أدرت الضوء على مستوى الكحول شرعت في قراءة التقسيمات الصغيرة، وكان هذا مشروطًا بالطبع بكون الفقاعة مرئية . لم يكن الأمر كذلك دائمًا، وعندها كان لابد لنا من تسوية الآلة مرة أخرى، ثم نبدأ العملية من جديد . لا يشكل الرمل قاعدة صلبة جداً لأرجل الآلة ، باشتراط أن كل شيء صحيحًا كان لابد من تسجيل المستوى في الدفتر، ولابد أن تكون الشعلة المسلطة نحو الميزان في الوضع الصحيح من أجل قراءة الزوايا عبر عدستي جهاز المصغر (الميكروميتر) في درجات ودقائق وثوان، وهذه جميعًا كان لابد أن تسجل بطريقة متماثلة. كنا عندها في وضع يمكننا من أخذ نفس طويل قبل أن نركز مرة أخرى على النجمة التي تتنقل عبر مدى التلسكوب الصغير في بضع دقائق ونعود مكررين العمل السابق. لما كانت أربع عمليات رصد على كل نجمة هي الحد الأدنى المطلوب لنتائج جيدة ، فيمكن تخيل أن رصد النجوم تحت الظروف المذكورة أعلاه لم يكن عملاً سهلاً .

لقد أعطيت تقريراً مفصلاً يساعد على تقدير الوضع عندما أقول إنه في ذات اللحظة التي كنت فيها أقرأ المستويات ، وعندما كان التركيز الذهني على العمل أمامي جوهريًا ، انتبهت لشكل بشري يتقدم في سكون من الظلام، وينسل نحوي بشكل يوحي أن من الأفضل أن أطفئ الأضواء لئلا تجتذب عصابة جواسة من العوامر. اختفت من ذهني بالطبع كل الأرقام التي كنت أحاول تذكرها تاركة إياي حرًا لأخبر محمد حسن أنني أعمل بأسرع ما يمكن ، ولأوضح له ـ بشيء من الحدة ـ بأنه كلما كان بعيداً أمكنني العمل بشكل أسرع ، بل كان الأمر على الأصح مربكًا ، إذ إن جهودي للتركيز ثانية كانت فاشلة إلا أنني أنهيت الشعرى اليمانية (المرزم)، واتجهت إلى نجمة الغرب مختاراً نجمة ذنب الدجاجة . كنا قد وصلنا منتصف

عمليات الرصد الأربع عندما تقدم محمد حسن ، /p.240/ إلى مهدي متجنبًا إياي ، وبدأ حديثًا هامسًا ، لو أنه صرخ في أذني لما كان التأثير أكثر إماتة ، ومع ذلك فقد كنت أعلم أنه يبذل قصارى جهده ، ودون أن يدرك ذلك أنهينا العمل وأطفأنا الإضاءة وأعدنا الآلات إلى صناديقها في الظلام . لم يكن مفاجئًا على أية حال عند استنباط النتائج الخاصة بالشعرى اليمانية (المرزم)، وذنب الدجاجة عند الوصول إلى إنجلترا أن أكتشف بأنه كان هناك خطأ ما في الأرقام جعلت العملية كلها بلا فائدة، إذ إن خطي الطول الناتجين كانا متباعدين جدًا لدرجة تجعل من غير المشكوك فيه أن أحد الرقمين على الأقل قد سجل خطأ، وبالتالي فإن خط الطول الدقيق لم يتم الحصول عليه لحسن الحظ ، فقد أثبت خطا العرض أحدهما الآخر ، لما كان هذا هو الرقم الأكثر أهمية في تحديد موقع واد يجري شرقًا وغربًا فإنني لم أكف أبدًا عن تهنئة نفسي على الحصول عليه. لم يكن لدي ما أعمله بعد إطفاء المصباح سوى الذهاب إلى فراشي على أن أدون ملاحظاتي في ضوء النهار صباح اليوم التالي.

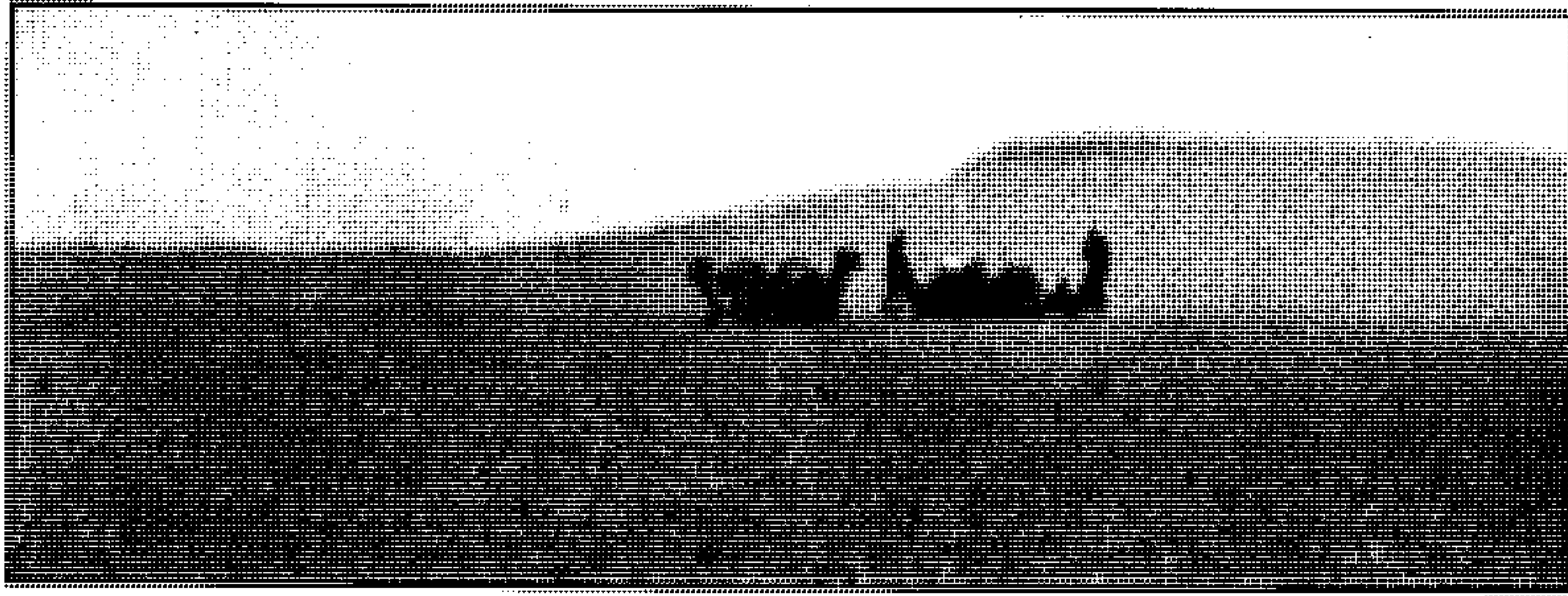
أخبرني صالح أن رمال الجافورة أغلقت بطن الوادي على بعد بضعة أميال من حيث كنا ، لكن مع ذلك كان يمكن بوضوح تتبع المجرى عبر الكثبان بناءً على أن ارتفاعاتها أقل ، يغطي بطن الوادي في الجانب الشمالي وفي الوسط ـ حيث خيمنا ـ رمل قذفته الريح من السهل المجاور ، لكن وجدنا رملاً بعد الحفر بعمق ست بوصات بنفس صلابة مدملك[1] تقريبًا وهذا ـ كما اعتقدت ـ لابد أنه البطن الأصلي للنهر (الوادي)، ترسب عندما كان مجرىً مائيًا . فحص السيد دبليو كامبل سميث من المتحف البريطاني (التاريخ الطبيعي) هذا الرمل وقرر أنه مصقول بفعل الماء. استطعت صباح اليوم التالي أن أجد بعضًا من بطن النهر القديم مكشوفًا باتجاه الضفة

(١) المدملك هو حصى مستدير في مادة لاحمة طبيعية مثل السليكا أو الجير تضمها بعضها مع بعض . (المترجمان)



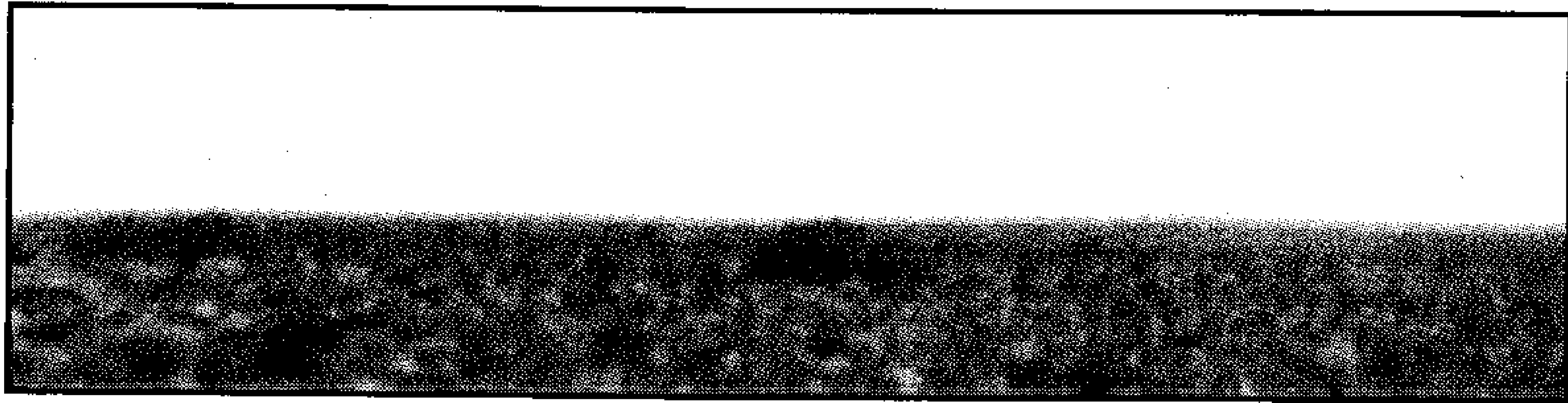
اللوحة (٣٦)

جبل ظرابين ، واحد من جبال الحجر الرملي الصغيرة النادرة خلف حد الأحساء ـ الجافورة



اللوحة (٣٧)

مكان التقاء سهل سراميد الحصوي (صدر الصورة) مع كثبان الجافورة الرملية



اللوحة (٣٨)

حصيات مصقولة بفعل الماء في بطن وادي السهباء



اللوحة (٣٩)

في بطن وادي السهباء ، ضفة الوادي ظاهرة بشكل باهت في خلفية الصورة

الجنوبية . كان طمي أبيض قد استقر حول الحصيات رابطًا بعضها ببعض لتشكل مدملكًا صلبًا ، ولما كان السيد كامبل قد وجد عند الفحص أن الحصيات مصقولة بالماء ، فإن ذلك لايدع مجالاً للشك بأن هذا البطن تكون عندما كان الوادي نهراً متدفقًا (اللوحة ٣٨) . تميز وسط بطن الوادي /p.241/ بشجيرات السلم (*Acacia flava*) (اللوحة ٣٩) . كانت فترة ما بعد الظهر حارة على غير العادة ، وقد شعرت بالعطش للمرة الأولى خلال المسيرة ، واستخدمت زجاجة الماء الخاصة بي ، والتي لم تكن لها حاجة من قبل منذ مغادرتنا للهفوف .

[١٦ فبراير] دوت طلقة بندقية قريبًا جداً منا عند منتصف الليل ، فوضعت الرجال في حالة من الاضطراب ، نهضت شخوص بشرية حيث كانت نائمة بين الامتعة ، والتقطت البنادق وزحفت خلف الصناديق الواقية أكثر من الرصاص ، وفي أقل من الوقت اللازم للاستعداد للكتابة كان المخيم في حالة دفاع . وبينما كنت أنتظر الطلقة التالية ، عاد ذهني إلى حادثة المصباح والشعلة وتساءلت كم من اللوم سينسب إلى عملياتي . ساد صمت طويل تلاه بعض الأصوات ، وأخيراً جاء محمد حسن إلى خيمتي ليقول إن زائرنا كان ذئبًا ، وأن أحد رجالنا استيقظ في الوقت المناسب ليراه يهرب بقربة ماء كانت شبه فارغة منذ الليلة الماضية ، وأنه قد أطلق النار عليه . أخطأ الذئب لكنه جعله يسقط القربة . « تصور » قال هو « أخافنا جميعًا بذلك الشكل من أجل السلام مع ذئب فحسب » ! . وجدنا في الصباح أن قربتنا الوحيدة المليئة بالماء قد سلمت بالكاد من أن تمزق وتفرغ من الماء . أوتي الحَذر محمد حسن بعد النظر ليحضر القربة إلى الخيمة من أجل سلامتها ووضعها بالقرب منه ومني . أمكننا تتبع آثار أقدام النهاب العطش قادمة إلى حيث كنا ننام ، ولكن ليس بالقرب الكافي تمامًا ليسمح له بالتقاط القربة . خانته شجاعته في اللحظة الأخيرة فقط ، وتراجع ليستفيد ما أمكنه من الماء القليل الباقي في القربة الأخرى ، ولم يسمح

له بالتمتع بذلك . تتفوق الذئاب كثيراً على الحيوانات الأخرى في الذكاء والجرأة، ويروي العرب قصصًا خرافية عن حصافتها . لابد أن هذا البهيم كان يراقب لفترة طويلة مدركاً أن فرصته ستأتي عندما يكون الجميع نائمين . إن القدرة على شم الماء عن /p.242/ بعد هي حاسة لا نستطيع إدراكها، ولابد أنها مطورة إلى درجة عالية. عثرنا في مكان ليس بالبعيد على جمل ميت ربما نتيجة أحد غارات العوامر ، وربما كان الذئب يتغذى عليه ، كان ميتًا منذ حوالي شهر ولكن بقي هناك الكثير من اللحم ، وقد تكون حالته مسببة للعطش.

كان تعيين مستجمع الأمطار على الضفة الجنوبية بنفس صعوبة تعيين المستجمع على الضفة الأخرى . بدا أن الواحد منها يرتفع إلى خمسين قدمًا على الضفة رقيقة الانحدار ، وتكسب مستوى آخر هو سهل حصوي ممتد بعيداً باتجاه الجنوب . كانت كثبان الجافورة إلى الشرق منا تظهر مرة أخرى بين الحين والآخر على الأفق . قال صالح : إنها تتجه جنوبًا إلى مجموعة من الآبار هي بئر عزيز[1] التي تقع وسط الرمال ، وتعتبر الحد بين صحاري الجافورة والرمال . تستخدم الآبار أيضًا من قبل القبائل العمانية المغيرة باتجاه يبرين، وبالطبع من قبل المغيرين من يبرين عندما يردون الزيارة.

أمضينا معظم اليوم تقريبًا على السهل الكبير . هناك بين الفينة والأخرى منخفضات بسيطة جمعت كمية من الرمل كافية لتجد فيها شجيرات العرفج موطيء قدم، وبعض هذه الشجيرات قد تخفى أرنبًا برية . فحصت شكل المكان الذي كانت تختبئ فيه واحدة اصطادها الرجال ، كانت في شجيرة بلا أوراق، وقد اختارت واحدة ذات أغصان قوية حتى لا يمكن لطير جارح منقض من أعلى من الوصول إليها عبر الأغصان، لكنها متفرقة إلى حد يجعل الحيوان مرئيًا بوضوح لو

---

(١) تقع بئر عزيز على بعد ٥٠ ميلاً شرق يبرين . انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، جـ١ ، ص ٣٥٩ . (المترجمان)

أنه تحرك. تبقى الأرانب مع ذلك قابعة في مكانها، بينما تبدو الصقور والنسور غير قادرة على تمييز فريستها إلا عندما تتحرك. الحماية التي يوفرها التلون الصحراوي خاصة في حالة حيوانات لا وسائل دفاع لديها، كالأرانب البرية والحبارى هو وسيلتها الرئيسة للبقاء في معركة الحياة الدائمة والتي لا تكون في أي مكان أكثر يأسًا منها في هذه البلاد الجافة.

يطلق على الأرض المجاورة للسهباء مباشرة اسم جو السهباء[١]، أو منخفض السهباء، ومن المحتمل أن السطح ينخفض قليلاً باتجاه الوادي لبضعة أميال مع أنني فشلت في أن ألاحظ ذلك. كان التغير التالي /p.243/ في المنظر الطبيعي هو صف من الروابي المنخفضة يضع حداً للخط المساوي للأفق الجنوبي، وتتجه شرقًا وغربًا؛ لأنها تقع في أقصى الشمال من الواحة فقد بشرت هذه الروابي باقترابنا من يبرين. مررنا أولاً عبر الصخور المتكسرة لروابي الحجر الرملي المرتفعة إلى ما بين عشرين وثلاثين قدمًا لمدة حوالي ثلاث ساعات، وأعطى صالح اسم جبل العاقولة[٢] لكل السلسلة العريضة والمنطقة. وصلنا أخيرًا إلى طرف النجد أو السهل الواسع المرتفع، وألقينا نظرة محدقة على حوض واسع ضحل ترتفع منه جبال الحجر الرملي المقوسة بنفس الطريقة تقريبًا لتلك الواقعة في الأحساء، ويظهر الأقصى منها على بعد حوالي ثمانية عشر ميلاً. كان مبعث ارتياح عظيم أن نرى أخيرًا منظرًا بين هذه الارتفاعات، وكان الهروب من الأفق الدائم ذي الميلين مثل الاستيقاظ من كابوس. أشار صالح إلى واحدة من السلاسل على بعد حوالي اثني

(١) الجو لغةً هو الأرض المتسعة الخالية من الآكام والجبال وتحيط بها مرتفعات. انظر: حمد الجاسر، معجم المنطقة الشرقية، جـ١، ص ٤١٥. لم يرد اسم جو السهباء في المعاجم الجغرافية إلا أن المؤلف حدد موقعه في خريطة رحلته إلى الجنوب من وادي السهباء عند التقائه مع الجافورة. (المترجمان)

(٢) العاقولة - كما يذكر الشيخ حمد الجاسر - هو واد يقع شمال يبرين، ويفضي سيله إلى الخن وبه بئر ماء تحمل نفس الاسم ويبدو أن جبل العاقولة هو تل في نفس المنطقة. انظر: حمد الجاسر، معجم المنطقة الشرقية، جـ٣، ص ١١٢٣. (المترجمان)

عشر ميلاً يقع خلفها ـ وخارج مدى الرؤية ـ نخيل الواحة الذي سرنا إلى هذا الحد لنراه . كانت جوانب الجبال حادة نوعًا ما ، وكان لابد لنا أن نسلك طريقًا جنوبيًا لنعطي الإبل درجة ميل أفضل ، رغم أن الطريق الجنوبي الغربي كان أكثر مباشرة . قادنا هذا مسافة ميلين أو ثلاثة ونحن لازلنا منحدرين إلى منخفض مغطى بالشجيرات . كان صالح ناشطًا خلال اليوم في جمع السحالي ، وكان قد بدأ للتو يفهم ما أردت وقد نما تفاهم بيننا ، أدركنا بشكل مشترك في الواقع أننا أرواح شقيقة . اقتصرت معظم المجموعة من السهل الحصوى على السحالي ، لأنه لم يكن هناك شيء آخر ، وهذه كلها كانت من فصيلة العظاءة *(Agama)* وهي رشيقة الأقدام وذات وجوه تشبه الكراغل[١] . تعتمد هذه السحالي في سلامتها على السرعة ، بمعني : أنه لا جحور لها وهى تبقى بلا حركة بين الأحجار التي تشبهها بشكل كبير وتتحرك إحداها فقط عندما يوشك جمل أن يطأها وتجري بعيدًا بسرعة تعادل سرعة جرى الإنسان . نادرًا ما فشل صالح ـ الذي نزل عن ظهر جمله بلمح البصر ، وبدأ يقوده عبر السهل ـ في العودة منتصرًا ، وبعد أن يسلم الغنيمة ، فإنه يعود مرة أخرى ركضًا للإمساك بجمله الذي يكون في هذا الوقت يرعى على مسافة بعيدة خلفنا ، أو أنه يمشي في الاتجاه المعاكس /p.244/ .

جرى صالح أثناء انحدارنا من جبل العاقولة متقدمًا حتى غاب عن مجال الرؤية ، والبندقية في يده وتركنا بعيدًا خلفه . سألت ما الأمر؟ فأجاب محمد حسن بانتقاص : «إنه مجرد بدوي ، ويعتقد أنه ربما يكون هناك بعض الغزلان على ذلك السهل الشجيري ، ويريد أن يطلق النار على أحدها قبل أن تظهر القافلة ، وتخيفها جميعًا ، لا يمكن أبدًا أن تتنبأ بما سيفعله البدوي » ، أضاف ذلك بحس فيه تعال عظيم . وجدنا صالح ينتظر بجانب قلعة قديمة خربة تدعى مشاش العاقولة ، ومن الجلي أنها كانت مخفرًا أماميًا وقت أن كانت يبرين مأهولة (اللوحة ٤١) . لا شيء

---

(١) الكرغل هو تمثال أو شخص بشع الوجه . (المترجمان)

مدون عن سكان المكان القدماء ، ويقول الرسميون في الهفوف أن مبانيها هجرت منذ ستمائة سنة ، ولما كان هذا هو الرأي الوحيد الذي قدر لي سماعة فليبق قائمًا حتى تردنا معلومة أكثر تحديداً[1] . كان هناك بئر جافة في الجوار ، بنيت جدران القلعة من لبن كبير ومربع ، جفف تحت الشمس ، ومصنوع من الطين المخلوط بالقش ، ومقياس اللبنة ٥×١٠×٤ بوصات ، لاتزال اللبنات حتى الآن صلبة جداً . كان ارتفاع الجزء الذي لا يزال قائمًا من الجدار عشرة أقدام ، لكن المبنى الضخم كان قد تهاوى كثيراً إلى خراب ليعطي فكرة كبيرة عن شكله الأصلي .

كان هناك عش آخر لنفس النوع من الغراب إلا أنه هذه المرة على شجرة أكثر علواً ووضوحًا ، ومحمي من السرقة بالأشواك الكبيرة والحادة جداً لشجرة السنط ـ هذا على أية حال من وجهة نظر البدوي حافي القدمين . طار الغراب عند وصولنا ، واستقر طوال الليل على قمة جبل على مسافة آمنة . الغربان طيور حذرة جداً ومع أنها تُرى كثيراً إلا أنها لا تترك إطلاقًا أي شيء للصدف فيما لوكان لديك بندقية . كنت أحتاج بشكل ملح لعينة واحدة منها على الأقل ؛ لأتمكن من تعيين نوعها . كانت عظامي موجعة جداً ، إذ كنت قد تبادلت الإبل مع محمد حسن الذي كانت مركوبته حرة الحركة لكنها أتعبتني أكثر في مسيرة العشرة ساعات لذلك اليوم ، مما أتعبني جملي في كل الأيام الأخرى مجتمعة ، ويعود السبب في ذلك إلى أن مركوبة محمد أمضت كل فصل الشتاء في المراعي الشمالية ، وكانت سمينة وقوية ، وتتحرك إلى الأمام /p.245/ بنشاط بينما كانت مركوبتي قد أمضت وقتًا قصيراً فقط في المرعى وكانت نحيفة تتطلب ضربًا متواصلاً بالعصى لتساير الأخريات ، وكانت تتخلف يوميًا أكثر فأكثر ، لكن سرعة سيرها كانت مريحة أكثر بكثير لدرجة أنني عدت إليها

(١) كانت يبرين مأهولة في فترة أقدم من تلك التي ذكرها المؤلف وكان يسكنها بنو سعد بن زيد مناة من قبيلة تميم وهم أهل نخل وحصون وعيون جارية وغير جارية حتى غلبتهم عليه القرامطة في القرن الرابع الهجري فهجروها ولعل ما شاهده المؤلف يعود إلى تلك الفترة . للنقاش حول الموضوع وعن يبرين نفسها انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، جـ٤ ، ص ١٨٦٩ ـ ١٨٨٠ . (المترجمان)

في اليوم التالي بتقدير أعظم مما سبق . يجدر ـ بشكل جوهري ـ قبل القيام برحلة صحراوية طويلة معرفة شيء عن الإبل ، وشراء تلك التي سبق أن أمضت عدة أشهر في التغذية الجيدة وحصلت على وافر من القوة المختزنة وإلا فحتى الحيوانات من الدرجة الأولى ستبدأ في التوقف في الأسبوع الأول .

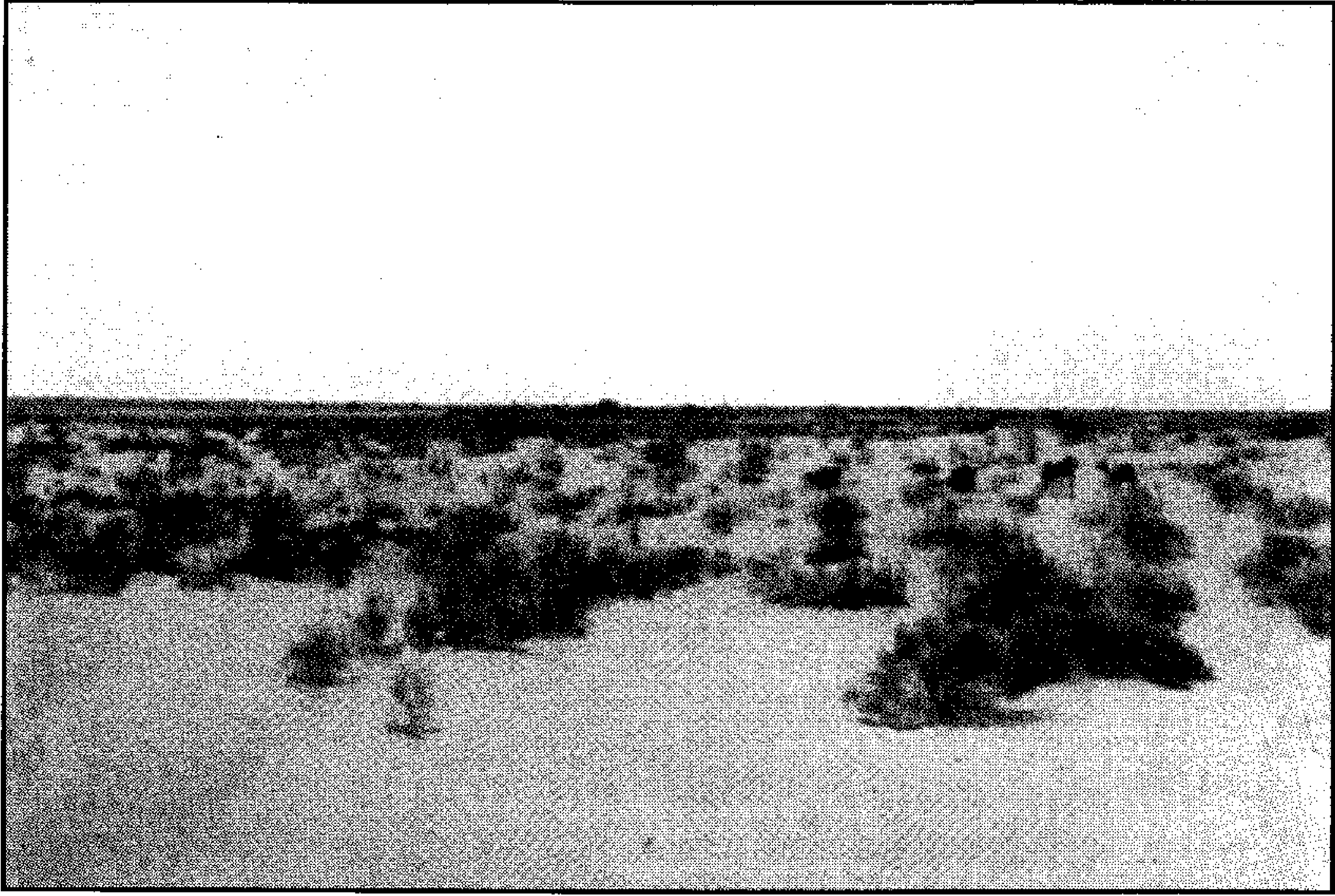
توقعنا أن نصل إلى يبرين بدون جهد يذكر في الغد بعد مسيرة أربع إلى خمس ساعات . كان المأمول أن يوافق الأمير على استقبالي ، إذ كنا بحاجة إلى ملء قربنا بالماء الذي بقي معنا منه القليل جداً . بدأت فترات ما بعد الظهر تصبح حارة ، فقد كانت درجة الحرارة بين الساعة الثانية والثالثة بعد الظهر بالتوقيت المحلي أربعًا وثمانين درجة في الظل ، ووفر غطاء الرأس العربي حماية كافية من الشمس بصعوبة . جربت قبعتي الإنجليزية الناعمة تحت الكوفية وكانت نجاحًا لا مثيل له ، لم يلاحظ الفرق أي شخص قابلناه وقد أعطتني حماية كافية وأبقت الحافة قماش الكوفية بعيداً عن الرقبة ، وهي التي كانت تسبب لي شعوراً بالضيق في اليوم الحار .

[١٧ فبراير] كان لابد لي من أن أدع المجموعة تنطلق ، بينما أنتظرت حتى ترتفع الشمس بما يكفي لأتمكن من التقاط صورة للمبنى الخرب ، واكتشفت في الوقت نفسه بأن هناك بقايا لثلاثة مبان منفصلة . كنا لا نزال ننحدر عندما بدأنا بدرجة ميل سهلة باتجاه الجنوب ، وفي الحقيقة أن الأرض تنحدر بشكل أو بآخر طوال المسافة من سلسلة جبل العاقولة إلى نخيل يبرين . لما كان ارتفاع السلسلة لم يؤخذ بالبارومتر المعدني ، فقد كان ممكنًا تقديره من ارتفاعات بئر يبرين ووادي السهباء التي كانت قد أخذت بدقة . يقع صف من الجبال يسمى جبل طوال العاقولة قرب طريقنا ، وهي أكثر بروزاً من البقية ، وتتكون /p.246/ من حجر رملي متكسر إلى قطع حجرية ، ويرتفع الجبل إلى حوالي مائة قدم فوق مستوى السهل ، وبطول

نصف ميل(١) . كان الطريق الذي سلكناه من وادي السهباء خاليًا من كثبان الرمال، وكانت السيارات ستجد القليل من الصعوبة في اجتيازه، وربما كانت جوانب جبل العاقولة قرب قمة السلسلة ناعمة وشديدة الانحدار ـ وقد تتطلب القليل من المناورة. كنا الآن مرة أخرى بين التلال الرملية ـ ليس بشكل واسع جدًا ـ ولكن خطوطًا من الكثبان الناعمة المتوسطة الحجم تتناوب مع امتدادات من الأرض الصلبة المستوية. كانت إحدى مناطق الكثبان الرملية مغطاة جيدًا بشجيرات الغضا *(Arthrocnemon fruticosum)* (اللوحة ٥٧)، وهي واحدة من أفضل النباتات لتثبيت الكثبان. كانت جوانب الروابي مثقبة بجحور الجرذان التي تعيش بين الجذور، وكان ساكنوها يعدون هنا وهناك تحت أشعة الشمس. ظهر لي عبر النظرات الخاطفة التي ألقيتها أن اللون الرملي الشاحب لأصوافها كان غير مألوف، وخامرني شعور أكيد بأنها ستكون نوعًا جديدًا. كان من المستحيل أن نتوقف فحتى لو تمكنا من استخراج بعض منها، فقد كان ذلك يعني حفرًا كبيرًا جدًا، وكنا سنتأخر بأميال عديدة قبل أن نخيم لقضاء الليلة. أمكنني فقط أن أكون ملاحظة ذهنية عن المكان، وأصررت أن نمضي ليلة هناك في رحلة العودة، وهو ما تم في النهاية فعلاً وبنجاح كبير. ظهر من بين أقدام جملي ـ على رقعة الأرض التالية والتي كانت عبارة عن سهل ذي حصيات صغيرة ـ جربوع انطلق مسرعًا بقفزات فوق الأرض مثل كنجارو صغير. كانت المرة الأولى التي رأينا فيه جربوعًا، وكنت متلهفًا جدًا للحصول على أحدها لكن في الوقت الذي أمكننا من ضرب إبلنا لتركض كان الجربوع قد اختفى. ناقشنا الخطط المستقبلية أثناء توقفنا لشرب القهوة، كما أخذت بسرعة زوايا الانحراف المغناطيسي بالبوصلة، لتحديد الاتجاه على كل الهضاب التي أمكنني رؤيتها مؤملاً أن يكون بعضها مفيدًا. كان مقررًا أن يركب محمد حسن وصالح أمامنا من هنا، لمقابلة الأمير حمد بن مرضف، وتسليمه رسالة السلطان التي تطلب

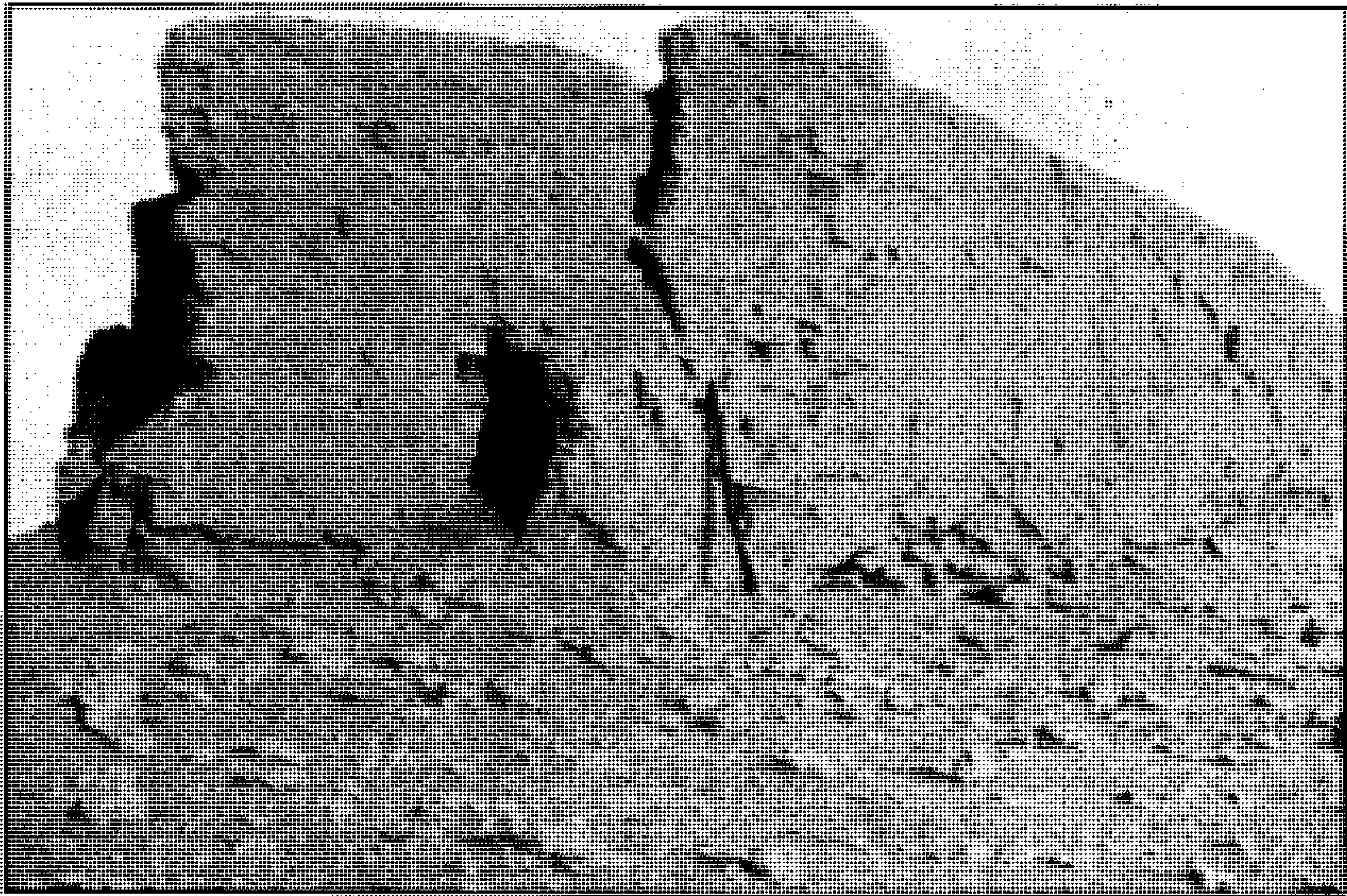
---

(١) حدد المؤلف موقع جبل طوال العاقولة على خريطة رحلته إلى الجنوب من جبل العاقولة. (المترجمان)



اللوحة (٤٠)

المنظر الأول ليبرين من الشمال . أشجار النخيل على الأفق



اللوحة (٤١)

قصر مشاش العاقولة . البندقية عيار ١٢ملم تقف مستندة إلى الجدار لإيضاح الأبعاد

أن يوفر لي استقبالاً ودوداً، وأن يتأكد من عدم تعرضي للأذى بينما أنا في منطقته. لم يكن من المتوقع أن يكون الأمير عدائيًا، ومع ذلك فإن السلطان /p.247/ لم يكن واثقًا، كما لم يكن متأكداً كيف سيتمكن الأمير من تدبر أمر رجال القبائل من الإخوان المتعصبين جداً. بجانب أنهم اعتنقوا مبادئ الإخوان قريبًا جداً، فلم يزرهم من قبل أوروبي قط، وبما أنهم لم ينذروا باقترابي، فإنهم قد يظهرون امتعاضاً لقدومي. كان على بقية الرجال الانتظار معي لهذه الأسباب على ألاّ نكون ظاهرين للعيان حتى يرسل في طلبنا، ونعطى التأكيدات بأن مقياس حرارة الإخوان قد عاد إلى وضعه الطبيعي.

أمضينا الوقت في مطاردة الأرانب البرية في خط الكثبان الأخير المجاور، والزاحف في الحقيقة على الرقعة الأولى لنخيل التمر. كان هناك وفرة في الشجيرات، وبعد قليل تحركت أرنب وكان الرجال في عز مطاردتهم عندما ظهر عقاب أسود رائع في السماء وانقضّ على الأرنب مخطئًا إياها بعدة أقدام، حيث أخذت لها غطاء في إحدى الشجيرات. جاء غراب خلف العقاب مقلداً المهرج في استداراته وحركاته باستثناء أنه كان أكثر بطأ، وبالتالي فقد أصبح بعيداً في الخلف. تذكر الرجال الأرنب عندما استفاقوا من المفاجأة، ولاعتقادهم أنها صيدة مضمونة لهم، فقد استعاروا بندقيتي واتجهوا نحو الشجيرة بينما بقي العقاب محلقًا فوق رؤوسهم يراقب الأحداث أو بلغة الصيد بالطيور «يقف منتظراً». كانت الأرنب أحذق من أن تبقى في مكانها وانطلقت غير ملاحظة إلى بعض الشجيرات على بعد عشرين ياردة إلى الأمام، ومنها اندفعت بسرعة عبر بعض الأرض المكشوفة. أنقضّ عليها العقاب مرة أخرى متبوعًا بالغراب في المركز الثاني، وعلى مسافة كبيرة لكن العقاب أخطأها مرة أخرى بسبب قرب الرجال، فيما حصلت الأرنب على غطاء كثيف. تتبعها الرجال عندما وصلوا هناك لبعض المسافة حتى دخلت إلى جحر أكثر عمقًا من أن يحفر وهناك تركناها. الجمل حيوان عديم الفائدة عندما يتعلق الأمر

بإطلاق النار من على الشداد . أنت ملزم أن تخفض عصا التوجيه لتمسك بالبندقية ويختار البهيم دائمًا اللحظة النفسية التي تستعد فيها لإطلاق النار من أجل أن يدير ظهره وظهرك عن الطريدة .

كان الانطباع الأول عن واحة يبرين على الأصح محبطًا . كانت أشجار النخيل ـ التي جمعت هنا /p.248/ وهناك حول المساحات الرملية ـ شبه برية ومهملة تمامًا . بدل المسافات المتساوية والصفوف المعتادة للجذوع جيدة العناية المألوفة في الهفوف ، كان هناك عادة اثنتان أو ثلاث من أشجار النخيل الطويلة مع عدد كبير من صغار النخيل والأفراخ حولها تصارع جميعًا من أجل البقاء . على أية حال فالحقيقة أنه على الرغم من هذا الإهمال ، فإن كمية كبيرة من التمور تنتج هنا كل عام . بدت منطقة النخيل ممتدة لحوالي خمسة أميال شمالاً وجنوبًا ، وميلين شرقًا وغربًا من حيث ألقينا نظرتنا الأولى فوق أعلى جبل يبرين شمالاً . كان صالح قد واصل أوصافه الوردية حتى ليلة البارحة حول نار المخيم ، والآن اختفت الجداول الجارية ، والسهول التي تعج بالحبارى والغزلان . مجردة من كل أمجادها الخيالية ، كانت يبرين تمثل فقط بقايا حضارة قديمة حاملة معها صراعًا غير متكافيء ضد تجفيف الرمل الذي كان يطوقها من جميع الجوانب /p.249/ .

الفصل الخامس عشر :

يبريــــن

ظهر صالح أخيراً وكله ابتسامات ، وقال : إن الشيخ مستعد للترحيب بي . كنا الآن نسير غربًا وآخذين إلى الشمال من النخيل ، كانت بعض الزراعة قائمة دليلاً على أن تأثير حركة الإخوان لم يكن بالكامل عسكريًا . يقوم السلطان بجهود عظيمة ليغري قبائله البدوية بهجر عاداتهم ، وتبني مهن الزراعة والحياة المستقرة الأكثر سلمية . والجهود الأولى لآل مرة في هذا المجال هي الآن أمامنا . كان هناك رقع صغيرة مزروعة حديثًا بالقمح ، وكان ماء السقي يوفر برافعات صغيرة تعمل بواسطة الحمير التي تجرى على طول الأرض لسحب الحبل ، هذا هو النظام البدوي لتشغيل الآبار ، بينما يحفر الفلاحون في الواحات الدائمة مجاري مائلة لحيواناتهم . كان الماء على عمق حوالي اثنتي عشر قدمًا فقط تحت سطح الأرض . لم تكن المستوطنة ـ التي شرفها صالح باسم ديرة (بلده) ـ شيئًا سوى مخيم مبني من خيام محاكة من الصوف الأسود والأبيض (اللوحة ٤٢) ، كانت واحدة على الأصح أكبر من البقية ، هي مقر الحكومة وسكن الأمير وعائلته . كان هناك أيضًا مبنى مستطيل الشكل مقام من كتل خشنة من الحجر الرملي بأكثر أنواع البناء بدائية كذاك الذي يمكن توقع بنائه من قبيلة لم تعط أبدًا لحظة تفكير في مثل هذه الأمور ، ولم يكن المبنى يشبه شيئًا أكثر من صندوق قمامة ، ومع ذلك فقد كان الحديث عنه مصحوبًا بفخر عظيم . أعطى الحديث الانطباع بأن الأمير قد تلقى أمرًا ببناء بلدة إذا أراد الحفاظ



اللوحة (٤٢)
محمد حسن يملأ قرب الماء عند بئر يبرين . تقع خلفه قرية آل مرة



اللوحة (٤٣)
ماعز في وسط عاصفة رملية ، يبرين

على منصبه تحت حكم السلطان ،لكنه لم يطور حتى الآن روح الاستقرار كأن يترك خيمته ويسكن في المبنى . من /p.250/ السهولة تخيل أنه في الوقت الذي تكون فيه التقارير قد وصلت إلى الهفوف على شفاه البدو ، فإن هذا الكوخ الصغير ذا الغرفة الواحدة يكون قد تحول إلى حجم قصر رائع يحتل موقعًا مركزيًا في بلدة يبرين .

نصبنا مخيمنا على سهل حجر رملي جيري صغير ليس بعيداً عن البئر ، ولكن على الجانب المعاكس، وبعيداً بعض الشيء من خيام البدو المتناثرة في منخفض التلال الرملية . كان قد مضى على نصب خيمتي نصف ساعة، ولما كان محمد حسن سبق وقال: إن الأمير لن يأت للترحيب بي سريعًا ، فقد أشعلت غليونًا عندما اندفع إلى داخل الخيمة صارخًا «وصلنا الأمير» .

أخفيت الغليون وعلبة التبغ وأدلة الجريمة الأخرى تحت الحقيبة ، وخرجت لمقابلته بينما حاول محمد حسن أن يبعد الدخان بمنفضة، وفرش سجادة لاستقباله، أدخلته الخيمة وجلس على الارض فوق السجادة ، بينما جلست عن يساره على فراشي وعلى الأرض أيضًا . كان رجلاً دقيق القوام نحيلاً يبلغ من العمر حوالي خمسة وأربعين عامًا ذا بشرة ليست أكثر سمرة من بشرة أوروبي لوحته الشمس وله لحية سوداء قصيرة غير مهذبة (في الحقيقة أن هؤلاء البدو ذوو شوارب ولحى وعوارض صغيرة جدًا) . كانت العيون سوداء وبالأحرى متقاربة بعضها مع بعض ، والأنف أقنى والقسمات عادية والشفاه دقيقة . كان الوجة وسيمًا لكن من النوع المرتبط عادة بالوحشية . كان يرتدي زي شيخ من الإخوان الذي يتميز بشكل رئيسي بالعمة الكبيرة خالصة البياض والملتفة حول الرأس . كانت تحيته مهذبة ، مبجلة وباردة، ولم أره يبتسم مطلقًا . جعل واضحًا لي تمامًا أنه لما كانت رغبة السلطان ـ عبد العزيز كما أسماه ـ أن آتي إلى هنا ، فإنه سيفعل كل ما في وسعه لتأمين سلامتي، وكان بترديده أنه يستقبلني لهذا السبب فقط ، يوحي بأنه في ظروف

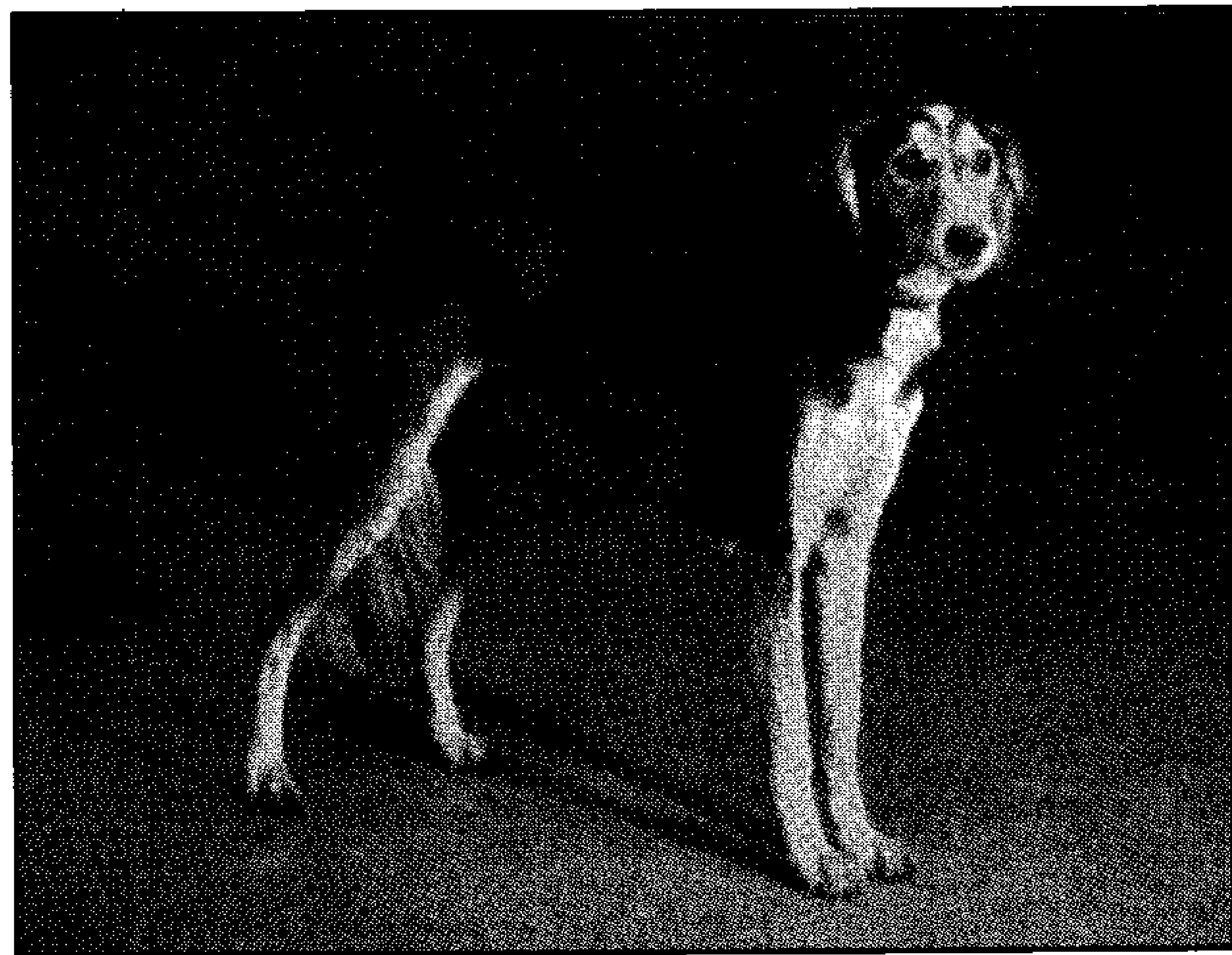
أخرى، فإن استقبالي كان سيصبح من نوع آخر . أظهر القليل من الحيوية عند الإشارة إلى الغارات التي شنها العوامر مؤخراً ، قال: إن أراضيهم تقع على مسافة ثلاثة أو أربعة أيام من يبرين فقط ، ولأنهم يعلمون أن قبيلته ضعيفة بسبب أن قوتها البشرية /p.251/ في معظمها في الأراضي الشمالية، فإنهم كانوا دائمًا يختارون هذا الوقت من العام للإغارة عليهم. خلال بضع شهور ستتخذ الإبل الخاصة به من يبرين قاعدة لها ، وعندها لن يكون هناك خوف من اقتراب العوامر منهم . لم يسقط المطر على القسم الجنوبي من بلاده منذ سنتين، وقد مضت ست سنين، منذ آخر هطول جيد للمطر . طلب مني أن أعلمه مسبقًا عن الأماكن التي أود الذهاب إليها، وأبلغني أنه سيرسل رجلين مسلحين على فرسين تعدوان في دائرة واسعة خارج المنطقة التي أكون فيها بحثًا عن أي آثار، ومن أجل تجنب خطر تعرضي لكمين من قبل العدو، قال وبفخر: إنه يكون منظراً جميلاً عندما تنضج التمور ويتجمع كل رجاله في الجوار لجمعها. شرب الأمير الشاي والقهوة ثم ـ ولدهشتي ـ قدم محمد حسن مبخرة وعوداً وهما الترف القليل والوحيد المسموح به من هذا الدين شديد الحساسية . في الحقيقة أن ضيافتنا أنجزت على أفضل ما يكون.

حالما غادر ضيفنا هنأت محمد حسن على تدبره ، وسألته عمن يملك المبخرة، قال بحياء: إنها تعود له وأنه اشتراها مقابل ريال واحد. كانت مصنوعة من نوع ما من الخزف الصيني الأسود، وبدت كشكل الرقم ثمانية باللغة الإنجليزية . لم يرض فضولي أكثر لكنه بين لي أن هذا النوع ذو ميزة عظمية فوق الأنواع الخشبية العادية، إذ إن هذه الأخيرة قابلة أن تعلق بلحية الضيف وتنزع الشعر، بينما مبخرته ملساء ولا يمكن أن تسبب الأذى . أمدني مهدي ـ على أية حال ـ بمعلومات إضافية وعندها تعرفت عليها (أي المبخرة) كعازل انتزع من عمود تلغراف، وهكذا ظهرت قصة أصلها . ربط الأتراك خلال احتلالهم للأحساء مسافة الأربعين ميلاً بين الهفوف والعقير بسلك تلغراف ، وتركوا المعدات خلفهم عندما أخرجهم السلطان عام



اللوحة (٤٤)

« ظبي » الكلب السلوقي المفضل لابن جلوي (من النوع قصير الشعر)



اللوحة (٤٥)

الكلب السلوقي « نجمان من يبرين » (الحاصل على الجائزة الثانية في بطولة حديقة هولندا العامة لعرض الكلاب ، لندن ، إبريل ١٩٢٥)

١٩١٤[١]. حصل بعض أهالي الهفوف المغامرين تجاريًا على العوازل وكونوا ثروات صغيرة عن طريق بيعها كمباخر بسعر ريال للواحدة.

كان هناك القليل جداً من المواشي عدا الإبل. كان لدى الأمير رعية صغيرة من الماعز السود، وقد وعد أن يرسل /p.252/ لي شيئًا من الحليب الطازج كل صباح، وهو ما تقبلته بسرور، ذلك أن الطعام الضئيل خلال الأيام القليلة الماضية كان قد ترك أثرًا أكبر مما كنت توقعته. كان هناك أيضًا عدد قليل من الحمير مملوكة للفلاحين، وقد رأيت بضع نساء محجبات يركبن الحمير في طريقهن إلى منطقة النخيل لجمع حطب الوقود. زارنا جرو سلوقي نحيل جدًا، وكان ممتنًا لنوى التمر الذي ألقيناه خارج الخيمة. لم يكن على علاقة جيدة مع قطيع من كلاب الطريق سمعتها، وهي تطارده إلى خارج مخيم البدو، وبينما كان الكلب السلوقي يعدو وكأنه يسير بتمهل غير مبال بالقطيع، كان هذا الأخير يرهق كل عضلة في محاولة اللحاق به بكل مالديه من سرعة. لم يكن هذا الكلب السلوقي ناعم الصوف ككلاب الصيد في الهفوف (اللوحة ٤٤)، لكن أذنيه وأرجله مكسوة بالشعر، كما أن طرف ذيله ذو شعر طويل. كان اللون استثنائيًا فهو أسود شاحب جدًا وأسمر ضارب إلى الصفرة (اللوحة ٤٥).

أبلغنا الأمير بعد ساعة من استقبالنا له عن نيته في القدوم ثانية، وقد تبع رسالته سريعًا ومعه زعيم قبلي آخر هو الشيخ راشد بن داله، وهو رجل أصغر منه سنًا بكثير، ويميل قليلاً إلى الترف في لباسه، فقد كان يتمنطق بخناجر فضية مرصعة بالفيروز. كان بلا جدال طويلاً أيضًا منتصب القامة ووسيمًا، بين أنه مسؤول عن النصف الجنوبي من الواحة وأميرًا عليه وتابعًا لحمد إداريًا، كما أنه ينوي بناء منزل هناك كمثل الذي سبق لي وصفه، وذلك في فصل الصيف عندما يمكنه الحصول

(١) كان اخراج الملك عبدالعزيز للأتراك من الأحساء عام ١٣٣١هـ-١٩١٣م وليس عام ١٩١٤ كما ذكر المؤلف. (المترجمان)

على عمالة أكثر . قمنا بنفس إجراءات الضيافة، وقدمت خلالها عرضًا للمصائد والبنادق بدا أنه أثار اهتمامهم . غمرني شعور بالرضا عند مغادرتهم بسبب أن استضافتي الأولى لشيخ من الإخوان كانت ناجحة، ذلك أنني كنت تحت قدر معين من الترقب منذ عدة أيام مضت . كان إستحمامي الأول منذ سبعة أيام ممتعًا فالماء الساخن والصابون كانا ترفًا لم اشعر بأكثر منه قبلاً . كان وجهي أسود من الشمس، وبدأ الجلد ينسلخ من أنفي ووجنتي ، وكانت شفتاي تتكسران بشكل سيئ ، كان كل هذا بسبب الريح الجافة القوية الباردة منها والحارة /p.253/ ، إضافة إلى شمس ما بعد الظهيرة . حال الاستعمال الكثيف للفازلين دون تقرح وجهي بشدة لكن الجلد انسلخ كاملاً ، وقد قدر لي أن أخسره كله ثانية في رحلة العودة إلى الهفوف .

قال محمد حسن : أن راشد يود أن يهديني الجرو السلوقي إن كنت سأقبله، واقترح أن أترك له في المقابل كهدية بعض الأرز في الهفوف، لكنه اعتقد أن من الأفضل لي أن أنتظر قليلاً لأرى إن كان الكلب ماهراً في صيد الأرانب قبل أن أقرر قبول الهدية . أخبرني قصة طريفة عن اليرقات التي تعيش في رأس الجمل، وكنت قد لاحظت بين الفينة والأخرى أحد الجمال يعطس وتسقط على الأرض يرقة بيضاء كبيرة ـ من المحتمل أن مصدرها ذبابة طفيلية ـ ثم تقوم اليرقة بطريقة غاية في الاحتراف بدفن نفسها في الرمل(١) . حاول الآن أن يعطي الرواية البدوية لذلك، وقال : إن الله وضعها هناك ورأس كل جمل مليء بها، وبسبب ذلك فقط تذعن لخدمة الإنسان ، أخرجهن وعندها يكون الجمل غير قابل للسيطرة أبدًا . قدم أيضًا أسماء أربع قبائل تغير أحيانًا على آل مرة وهي : العوامر والصيعر والحراسيس(٢)، والدروع(٣) . نحن نعلم أن القبيلتين الأوليين تأتيان من الصحراء الواقعة في

(١) تسمى هذه اليرقة بالعنقر أو العنقرة في وسط الجزيرة العربية . (المترجمان)
(٢) الحراسيس هي قبيلة عربية عمانية امتدت في عمان من حضرموت وهي فرع من قبيلة مهرة الكبيرة . انظر : س . ب . مايلز ، الخليج بلدانه وقبائله ، ترجمة محمد أمين عبدالله ، مسقط : وزارة التراث القومي والثقافة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ، ص ٢٥٨ . (المترجمان)
(٣) الدروع هي قبيلة عربية عمانية وتشكل أكبر رعاة الإبل في عمان . انظر : س . ب . مايلز ، المصدر السابق، ص ٢٥٤ . (المترجمان)

الأراضي الداخلية لمسقط، أو كما يقول هؤلاء الرجال قرب الجبل الأخضر، لكن ليس من السهل تحديد مناطق القبيلتين الأخريين إلا أنها لابد أن تكون أبعد جنوبًا باتجاه الأراضي الداخلية لحضرموت وهي منطقة غير معروفة تمامًا، وفي هذه الحالة فلابد أنهم يمرون عبر منطقة العوامر لشن غزواتهم، قال: إن العوامر يتحدثون في سلسلة متوالية من النخير لا يفهمها أحد سواهم وبينما يفهم آل مرة ويتحدثون القليل من العربية، لا يستطيع العوامر ذلك.

كانت تنتظرني مفاجأة أخرى على وجبة العشاء، إذ أرسل الأمير صينية أرز ضخمة يعلوها جدي كامل بالإضافة إلى ملعقة خشبية ووعاء غريب الشكل يحوي مرقة اللحم. كان الأرز متبل بالفلفل بشكل مرضي. كنت في داخلي بالغ الابتهاج للحصول على وجبة مشبعة، لكنني أخبرت محمد حسن أنه كان عليه ألاّ يدع الأمير يكلف نفسه /p.254/ هذا العناء، هذا العربي المستعد دائمًا بعذر مقبول، كان لديه عذرًا جاهزًا أسكت أي احتجاج إضافي لدي. قال: إن الأمير أراد أن يتبع العرف البدوي ويطبخ جملاً صغيرًا على شرفي بينما هو ـ محمد حسن ـ الذي يعرف رغبتي في تجنب المراسم والضيافات، بذل جهده لثنيه عن ذلك وتوصل أخيرًا إلى تسوية تقضي بذبح جدي، وقال: إنه يعتقد أنه يستحق الإشادة بدل اللوم. كان الجدي سمينًا، وقد كان لغزًا بالنسبة لي، كيف استطاع أن يجد أكثر مما يبقية حيًا، ومع ذلك فقد كان الواقع واعدًا بشكل جيد لإبلنا، وأملت أن يتحسن حالها خلال أيام إقامتنا القليلة.

[١٨ فبراير] كان هناك بضع غربان تحوم حول مخيمنا، وكان لخالد شرف أن يكون الوحيد الذي حصل لي على عينة. دخل إلى الخيمة واستعار البندقية عيار ١٢ ملم، وأطلق النار عبر فتحة في الشراع. ركبنا الإبل وأمضينا ساعة أو ساعتين بين نخيل التمر فيما يسمى البساتين، كان المشهد مقفرًا ومحبطًا بسبب الإهمال الكامل

وقد هجرته حتى الطيور ، لم تكن هناك بلابل تغني كما في الهفوف . تحولت ينابيع صالح الجارية بفعل ساحر إلى برك راكدة من الماء بعمق ثلاثة أقدام من السطح وبضع ياردات عرضًا ، وكانت مجرد أحواض دائرية تحوي على الأصح ماءً قذر المنظر في القاع ، وعلى الجوانب المنحدرة مكونة بلا شك برك شرب ممتازة للإبل ، كما لم يكن هناك أي علامة على أن الآبار كانت أبدًا جداول جارية ، لم يكلف الملاك الكسالى أنفسهم حتى عناء تنظيف البرك ، والعدد الأكبر منها كان مختنقًا بأعواد القصب .

كان آل مرة سيقومون بتلقيح النخيل للمرة الأولى تحت ضغط السلطان بلاشك ، كان اللقاح قد تشقق للتو من رؤوس فحول النخيل على شكل عناقيد بيضاء ، وكانت الأغصان الميتة من العام الماضي لا تزال ناتئة بين النمو المتشابك للنخيل . أخذنا صالح بفخر لنرى « القلعة » و « البستان » الخاصة به ، وقد وبخت مهدى لقيامه /p.255/ بنوبة تهكم حادة عندما أصبحنا على مرأى منها . لم تكن أكثر من واحدة من تلك القلاع الخربة ذات الجدران الطينية ، والتي لم تسكن منذ ستمائة سنة ، كان البستان ببساطة منطقة نخيل تمر مقفرة . كان يملك أيضًا بعضًا من حفر المياه والتي ـ وهذا يحسب له ـ كانت خالية من أعواد القصب ، وكان سروره عظيمًا أن يقف بجانب إحدى الحفر لنلتقط له صورة (اللوحة ٤٦) . لم يكن هناك من كائنات حية يمكن رؤيتها حول البركة سوى ثلاثة أنواع من اليعسوب ، أحدها كان من النوع الكبير ذي اللون الأصفر الضارب للخضرة ، وقد سبق أن رأيناه بعيدًا في الصحراء ، ونوع آخر ذو لون نحاسي وحجم أصغر مألوف في الهفوف ، أما النوع الثالث : فكان اليعسوب الأخضر . كنت سعيدًا أن تتاح لي الفرصة لفحص الخرائب ، إذ إنها معروفة أكثر بكثير من العديد من المباني ذات الشهرة الأعظم وفوق ذلك فإن هذه الخرائب هي مقر الأرواح المشهورة في كل أنحاء الجزيرة العربية التي تنوح حول الجدران في الليل ، وتظهر لأي بدوي لا يكون في صحة جسمية أو عقلية

جيدة . استخدم في بناء القلعة الحجر الرملي الجيري والطين والجبس ، وأحيانًا كتل من الصخر ، وقد بقي القليل منها باستثناء الجدران الأربعة المتهالكة التي يبلغ ارتفاعها حوالي ثماني عشر قدمًا . لم تكن تحمل اسمًا ، ولذا فقد أسميتها قلعة صالح لتمييزها عن الأخريات . سمى صالح المبنى الخرب الآخر ، والذي لم يكن بعيدًا بقصر الخربة وهو يعني « القلعة الخربة » ، وهذا ليس اسمًا بالغ التميز (اللوحة ٤٧) . لهذا المبنى بعض الأهمية ، فهو يستخدم مسجدًا للإخوان ، حيث يجتمع المنضمون حديثًا للحركة لأداء الصلاة عندما تكون القبائل مستقرة هنا . تم القيام بمحاولة لتظليل المصلين في الساحة الداخلية رباعية الزوايا بسقف من الجريد المدعم بأعمدة من جذوع النخيل .

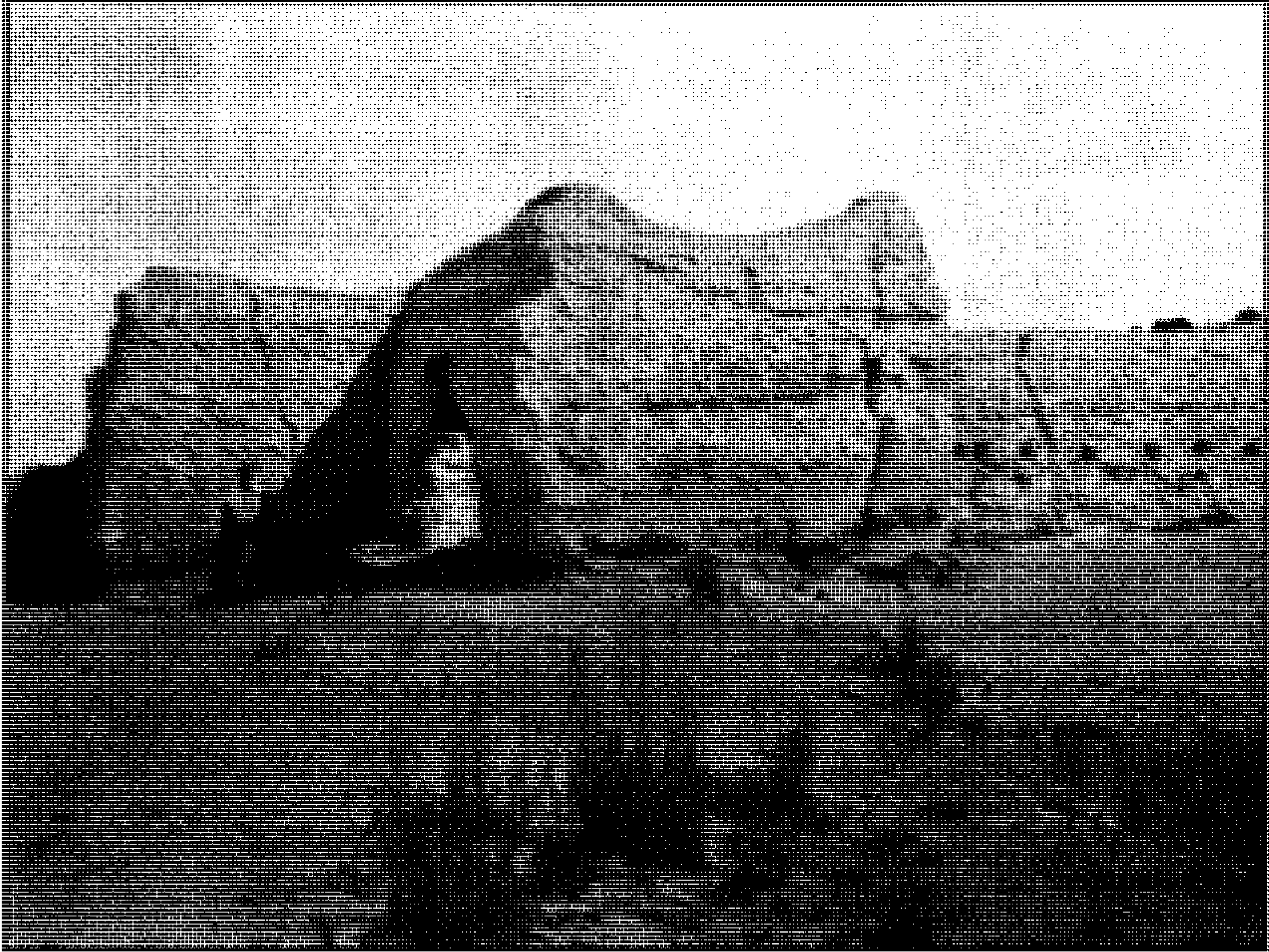
لم يكن بناة هذه الدور الغامضة قبيلة بدوية بسيطة ، إذ يوجد صف من الفتحات في الساحة الداخلية لا تزال ظاهرة ، والتي كانت تحمل الروافد لطابق ثان ، وساحة أصغر لحراسة المدخل حيث كان يوجد الباب . كان يوجد أيضًا بقايا جدار محيط بفناء واسع مفتوح يحوي حفرة ماء جافة تقريبًا شبيهة بالأخريات . بدا أن مستوى الماء في كل الطرف الشمالي من منطقة النخيل /p.256/ واحد ـ حوالي ثلاثة أقدام تحت سطح الأرض ـ ومن المحتمل أن يتم بنجاح حفر بئر في أي مكان ، هذه الحقيقة هي السبب خلف بقاء أشجار النخيل حية . كان هناك على الجانب الآخر أيضًا شكل كفافي لسياج أكثر سعة معلم بدعامات لم يبق منها إلا الأساسات فقط ، هذا النمط من البناء هو أبعد من أن يكون فكرة أو تنفيذًا لأي بدو[1] . أمكننا أن نجد بضع قطع من الفخار المحروق وقشرة بيضة نعامة لم تساعد على تقدير العمر ، ولم يكن هناك أي نقوش . كان هناك بضع روابي من الحجر الرملي الجيري في حالة مفككة جدًا ، وأثارت الريح الشمالية الناهضة الغبار وأطلقته في سحابة بيضاء بين

(١) انظر هامش الصفحة ٣٢٣ .



اللوحة (٤٦)

يبرين . بئر نموذجية في الواحة مع أشجار العاقول . صالح يقف على ملكه الخاص



اللوحة (٤٧)

قصر الخربة ، يبرين

مجموعات النخيل والفضاءات الخالية بينها . لم نشاهد طيوراً تستحق الاهتمام باستثناء طائر قليعي مطوق، وفي حالة من اليأس أطلقت عليه النار وأخطأته ولذا فقد عدنا إلى المخيم بكيس فارغ.

لما كنت على غير ما يرام ، ولما كانت المنطقة غير بهيجة، فقد عدنا باكراً لنرتاح في فترة ما بعد الظهر . الحقيقة أننا كنا جائعين جداً في اليوم السابق، والآن نعاني من التخمة بسبب الجدي، ولذا فقد أعطيت الرجال جميعًا جرعات من زيت الخروع وأخذت بعضًا منه شخصيًا . في هذا الوقت طلب صالح ـ الذي كان يمضي معظم وقت فراغه مع قبيلته ـ الإذن ليحضر صديقًا له كان مريضًا ، أدخله صالح إلى الخيمة، وأجلسه على الأرض، وبدا من روايته أنه يعاني من الدوسنتاريا، ولذا فقد أخذ جرعة من زيت الخروع هو الآخر . كان شابًا شاخ قبل الأوان لكنه كان أكثر وسامة حتى من الذين رأيتهم من القبيلة. يلزمني القول إن آل مرة سلالة بهية الطلعة، وهم ليسوا بالغي الطول ولكنهم ذوو أجسام متناسقة ، ذكرني شكل الوجه بالقسمات التي ترى على التماثيل السومرية المبكرة. ليس مبالغة إذا افترضنا أنهم الممثلون لهذه الحضارة الأقدم، ذلك أن الفتوحات ومرور الأمم على طرق التجارة، كان سيتركهم غير متأثرين ولا متغيرين في معقلهم الصحراوي المنعزل ، النساء القليلات اللاتي رأيتهن كن صغيرات الأجسام ومحجبات بشكل كامل، أما الرجال فكانوا وثنيين حتى فترة قريبة جداً [1] /p.257/ لكنهم يملكون الخصال الطبيعية الجيدة المرتبطة بالسلالات القديمة عمومًا ، والخصال البدوية الأصيلة غير المهذبة بشكل خاص.

(١) ليس صحيحًا القول أن آل مرة كانوا وثنيين ، فالوثنية تعني عبادة غير الله ، وربما كان لدى آل مرة بعض الممارسات الشركية أو عدم الإلتزام ببعض شعائر العبادات بسبب الجهل بأمور الدين، لكن هذا لا يبرر وصفهم بالوثنية . (المترجمان)

كان الظلام قد حل عندما غادر مريضي ، وانتشرت شهرتي سريعًا كطبيب ، ورغم أنني أوضحت أنني لست بذلك وإنما صاحب صيد ، فإن مريضًا آخر وصل . كان القادم الجديد يحمل طفلاً لم يسبق له المشي منذ ولادته وكان يريد أن يعرف إن كنت سأراه . كان من العبث التعامل مع هذه الحالة ، ولذا فقد أحلتها إلى مهدى الذي سمعته يقول إن تلك هي إرادة الله وأنه لا حق لنا في التدخل . جاء سيء حظ آخر يطلب علاجًا لصممه وكان على مهدي أن يخبره أننا لا نملك دواءً لذلك . كنت آسفًا ألاّ أملك علاجًا إضافيًا لأخفف بعضًا من معاناة هؤلاء القوم البسطاء . كان إيمانهم بالمهارة الطبية للرجل الإنجليزي مؤثرة .

[١٩ فبراير] بدا من المستحسن أن أمضي يومًا هادئًا ، فهناك مسيرة عودة طويلة أمامي ، وكان من الضروري أن أكون لائقًا صحيًا عندما نبدأ ، ولم يكن من السهل تشخيص حالتي . كنت أسقط على الارض عندما أنحني وهو عرض محير في تفسيره . كان لدي بعضٌ من مكعبات الأوكسجين التي غلاها مهدى في الماء حتى انحلت ، وكانت بضعف القوة الموصى بها على العلبة . صنعت هذه المكعبات شرابًا جيدًا ، وكانت تستحق تمامًا الحيز الذي شغلته في صندوق الأدوية . نصبت المزواة وأخذت ملاحظات على الشمس إلى الشرق من خط الطول الأساسي ، على خط الطول الأساسي ، وإلى الغرب من خط الطول الأساسي ، والتي حددت دائرة العرض وخط الطول ليبرين . أخذت أثناء ذلك الوقت صوراً للمخيم ولخيام آل مرة الأقرب للمبنى الصغير (اللوحة ٤٢) ومنظراً بعيداً لإمرأة تسير راكبة على حمار . كان هناك عدة تلال بارزة إلى الشمال أقربها جبل جوامر [١] على بعد حوالي ثلاثة أميال . كانت هذه مرتبطة معًا بزوايا انحراف أخذت بواسطة بوصلة موشورية ، وتم الحصول على ارتفاع مخيمنا بميزان حرارة نقطة الغليان . دخل صالح إلى الخيمة

(١) لم يرد اسم جبل جوامر في المعاجم الجغرافية ، إلا أن المؤلف حدد موقعه على خريطة رحلته إلى الشمال الغربي من يبرين . (المترجمان) .

وأجاب عن عدة أسئلة حول البلاد المجهولة /p.258/ إلى الجنوب، والتي كنت متلهفًا للسماع عنها . بدأنا بالأسماء التي ذكرها لفيلبي أحد أفراد قبيلة آل مرة والتي وردت في كتابه (قلب جزيرة العرب) "Heart of Arabia" . تقع الخيران في الرمال بمعنى أنها إلى الجنوب من بئر عزيز، وعلى بعد عشرة أيام من الهفوف، وهي في مجملها كثبان رملية مثل الجافورة . لم يسبق لأحد مطلقًا ـ على حد علمه ـ أن وصلها مباشرة من يبرين، والقسم الذي يرعى إبله هناك من آل مرة يرحل مباشرة من الأحساء إلى الشرق من طريقنا في نفس الوقت الذي تأتي فيه قبيلته هو جنوبًا إلى يبرين سالكة نفس الطريق الذي أخذته مجموعتنا .

يقع هريسان(١) وهو جبل كما أسماه إلى الشرق من موقعنا، على الجانب الآخر من رمال الدهناء، وإلى الجنوب من الرياض . الخن(٢) هي بئر قريبة من يبرين على مسيرة نصف يوم على ظهر الجمل إلى الشرق من بقعة النخيل، وتوجد بضع نخلات هناك، تمكنت من رؤية الخن لاحقًا وتأكدت من صحة روايته . مضى ليخبرني بأن رمال صحراء الرمال تبدأ إلى الجنوب من يبرين، ويمكنك أن تسير لمدة شهر فيها . سألته أين ستكون في نهاية ذلك الشهر ؟ أجاب : « نجران»، لكنه لم يذهب إلى هناك مطلقًا .

بدأ صالح يشعر أن سمعة بلاده قد تشوهت مع بدء الآخرين في الضحك عليه وتذكيره بالأوصاف المتوهجة ليبرين التي كان يذكرها عنها في طريق القدوم . كان قد نصب اثنتي عشرة مصيدة واستعار بندقيتي عيار ١٢ ملم وبعض الطلقات،

---

(١) هريسان هي منطقة خصبة مرغوبة للماشية من بلاد (الدواسر)، هي (البياض) الشمالي يحدها شرقًا (الدهناء) ويحدها من الغرب حزون منقادة تلب بطريق الجنوب شرقية تسمى عندهم (الريش) ويحدها شمالاً (السهباء) في الخرج ويحدها جنوبًا (الجدول) . انظر : عبدالله بن خميس، معجم اليمامة، جـ٢، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص ٤٥٩ . (المترجمان)

(٢) يطلق اسم الخن على منخفض واسع من الأرض ـ سبخة ـ تحيط به الرمال من كل الجهات وطبيعة الأرض في الخن ويبرين متشابهة وفي الخن آبار يعبر عن الواحد منها باسم (البدع) وماؤها مالح ويسكنها أناس من آل مرة . انظر : حمد الجاسر، معجم المنطقة الشرقية، جـ٢، ص ٦٢٨ . (المترجمان)

وانطلق على الأقدام إلى بقعة النخيل أثناء عاصفة رملية كريهة ، لم يكن قد رأى قط من قبل بندقية ذات تلقيم خلفي لكنه فهم الآلية تمامًا ، وكان كطفل عندما يسمح له بحمل لعبة جديدة معه . كانت عينا مهدي في وضع سيئ فقد هيجهما عاصفة الأمس الرملية لكن غسلهما بماء دافئ مالح بدا وقد أراحهما إلى حد ما .

عاد صالح بعد ست ساعات حاملاً معه ستة من الطيور استهلك مقابلهن ست من الطلقات ، وقال : إنه كان يمشي طوال الوقت ، ولما كانت درجة الحرارة في الشمس ١١١ْ ، فإن هذا يظهر قدرته الجيدة على التحمل ، قال أيضًا : إنه كان بإمكانه الحصول على المزيد لكن الرؤية بعيدًا إلى الأمام كانت مستحيلة بسبب /p.259/ الرمل المتطاير ، ولأن الطيور جميعًا قد لجأت إلى مخابىء لحماية أنفسها . كانت العينات لسوء الحظ مضروبة بعنف بسبب قلة تجربته في تقدير المسافة وكانت قليلة الأهمية إذ إن خمسًا منها من طيور الأبلق ، ومع ذلك كنت سعيدًا أن أجد أن السادس منها كان الدخلة الصحراوي *(Sylvia nana)* التي رغم أنه شوهد العديد منها إلا أنني أردت واحدًا من أجل تعريفه ، أحضر أيضًا جرذًا من أحد المصائد . كنت أشعر بتحسن وأضفت إلى وجبة العشاء المكونة من الأرز المسلوق والتمر ثُمن جالون من مكعبات الأوكسجين .

[٢٠ فبراير] كانت البئر الدائمة قرب المخيم عبارة عن تجويف دائري نافذ في حجر رملي طباشيري ، وكان الماء على عمق حوالي أربعين قدمًا ، وبدأ في غاية العذوبة . انطلقنا لنرى الحدود الجنوبية لرقعة النخيل التي شكلت دورة واسعة لرجلي الإخوان اللذين كان عليهما أن يستكشفا الأرض أولاً ، وقد رتبنا أن نلقاهما ونسمع تقريرهما عند بستان الأمير ، وذلك توفيرًا للوقت . كان ملك الأمير أيضًا مجرد حصة من منطقة النخيل تحتوي على بعض أفضل الأشجار ، وتقع في وسط

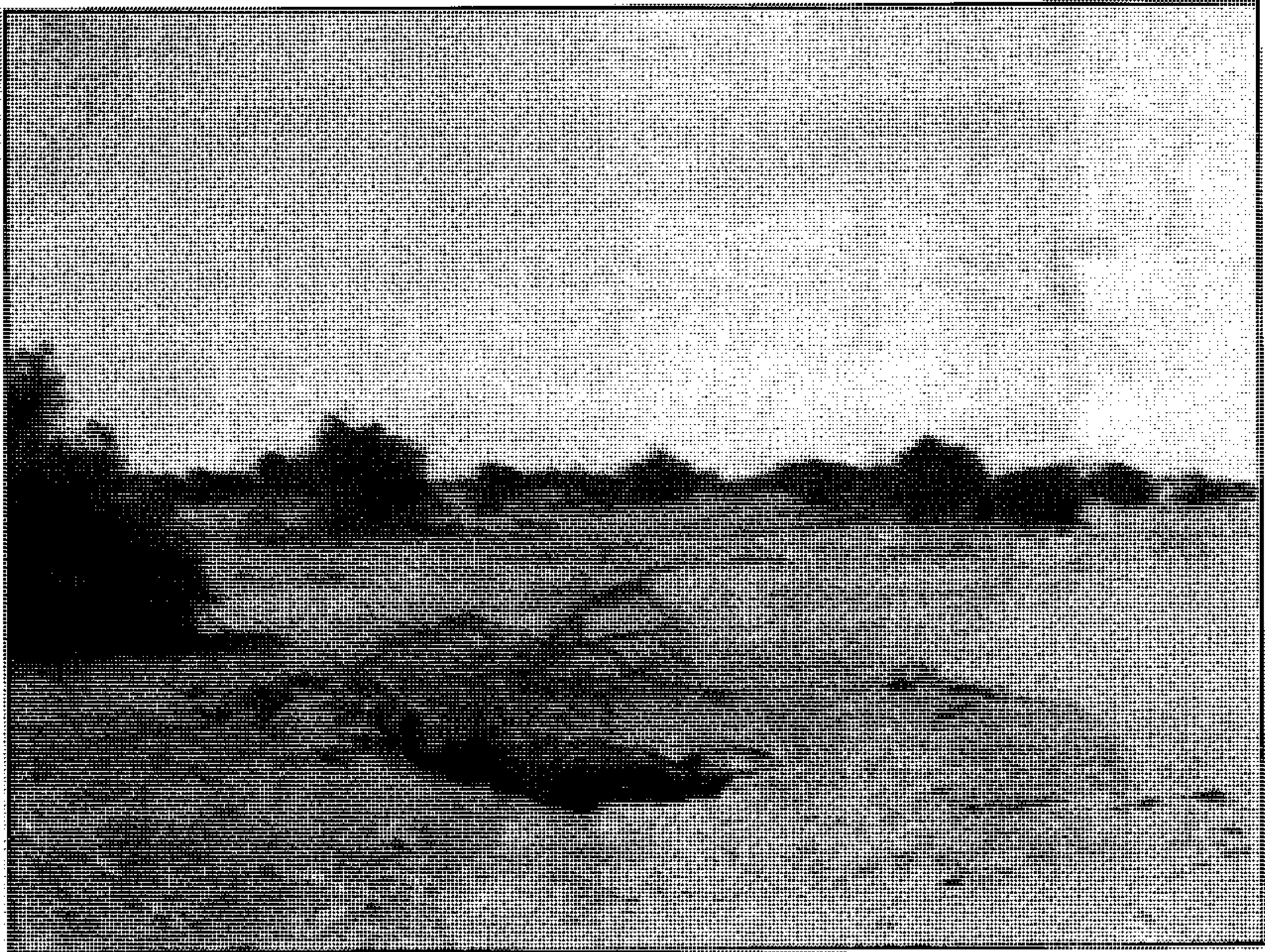
بقعة النخيل تقريبًا . سبق أن استشرت محمد حسن حول التقاط صورة فوتوغرافية لبعض رجال القبيلة، وقد اقترح أنه طالما أن هناك احتمالاً لرفضهم ، فإن أفضل فرصة هي أن التقط صورة هذين الرجلين عندما نلتقي، إذ لن يكون هناك شخص آخر ليراهما . كانا ـ قبل أن يدركا ما كنت أنويه ـ واقفين من أجل الصورة لكن كان عليّ أن أتسبب في بعض التأخير ، لأجعلهما يقفان أمام شجرة نخيل داكنة كخلفية للصورة التي كانت ستفسدها الأرض البيضاء . بدأ الشك يداخلهما في هذا الوقت حتى تدخل محمد حسن الذي كان غارقًا في المؤامرة وأعطاهما الثقة بالوقوف بجانبهما، وجعل صالح يقف أيضًا . لم يكونا حتى مع ذلك سعيدين جدًا، وسمعت أحدهما يقول: « هل سبق أن أخذت صورة الإمام (السلطان) من قبل » ؟ وأجاب محمد حسن فورًا أكثر منه صدقا « نعم، كثيرًا ما تؤخذ صورته» وهذا ما جعل الأمور تسير بما يكفي من الوقت لإنهاء العملية (اللوحة ٤٨) . كانا مختلفين جدًا عن الحضر أو حتى البدو الذين /p.260/ لهم اتصالات مع البلدات إذ إن هؤلاء يحبون الوقوف أمام آلة التصوير . بعد أن عرضت على محمد حسن رغبتي في التقاط صورة للأمير ، تجنبني هذا الأخير خلال ساعات النهار حتى حلت لحظة ركوبي للمغادرة عندما قدم ليودعني .

القسم الجنوبي من الواحة مهجور أكثر حتى من الشمال . وإذا كان القسم الشمالي يمكن أن يسمّى الأرض التي « تخلى عنها الله » فإن البقية يمكن أن توصف بأنها الأرض التي « لعنها الله » فهناك العديد من الجذوع الميتة تقف منتصبة مثل الصواري والتي كانت يومًا ما أشجار نخيل تمر (اللوحة ٥١) وحتى الشجيرات الصحراوية بينها هي في الغالب ميتة أكثر منها حية . بدا أن الماء قد جف وأصبحت أغلب الأرض مغطاة بطبقة ملحية ، لم نمر على آبار أو حفر مياه وقتها لكن انخفاضًا غريبًا في طبقة الأرض تحت التربة مباشرة تركت حفرًا دائرية قطرها تسعة أقدام ويسمونها زواريط (اللوحة ٤٩) ، يقال إن هذه خطيرة على الإبل ؛ لأنه إذا أدخلت



اللوحة (٤٨)

صالح . محمد حسن . اثنان من الإخوان من آل مرة . الكلب السلوقي



اللوحة (٤٩)

الانخسافات الخطرة المسماة « زواريط» جنوب يبرين . شجيرات « الشنان»

هذه الحيوانات الخرقاء ولو رجلاً واحدة فإنها تعجز عن إخراجها ، وتموت قبل أن يكتشف أمرها . يقال إن هذه الحفر تكون لينة وتمتلئ بالمياه المصرفة بعد الأمطار ، لكن القاع كان صلبًا عندما رأيتها ، ولم يكن أيٌّ منها له عمق يزيد عن أربع إلى ست أقدام .

وصلنا إلى نهاية رقعة النخيل الكبيرة على بعد حوالي ستة أميال إلى الجنوب من الحافة الشمالية . يلي هذا مجرد رقع جرداء وبضع بقع معزولة ، يفصلها ميل أو ميلان بعضها عن بعض ، وكان الخن المذكور سابقًا أحدها . كان يوجد إلى الجنوب من هذا سهل حجر رملي أجرد عليه بضع تلال ترتفع لمائة أو مائتي قدم فوق السهل ، ويلي ذلك رمال صحراء الرمال التي تمتد إلى مسافة ٨٠٠ ميل . أردت أن أصعد على تل مشرف على ما حوله لألقي نظرة وآخذ زوايا الانحراف المغناطيسي ، ولذا فقد انحرفنا باتجاه الشرق ، وصعدنا على قمة جبل يبرين الوسطى(الأوسط)[١] ، والذي بدا وكأنه سيخدم الغرض (اللوحة ٥٢) ، سماه صالح جبل يبرين عندما سألته عنه ، وعندما بينت له أن هذا كان ثالث جبل مختلف أعطاه الاسم نفسه ، كانت إجابته أنه يعرف ذلك لكن هذه هي طريقتهم في تسميتها . قلت له بيأس « انظر هنا » « لنفترض أنك وجدت جملاً عاجزًا عن الحركة عند هذا الجبل وأردت أن تبلغ الأمير فكيف ستشرح له أين كان الجمل ؟ » إن قلت « جبل /p.261/ يبرين» فقد يرسل رجاله إلى جبل يبرين الأول الذي أريتني إياه على بعد عشرة أميال من هنا وسيموت الجمل» . قال بابتهاج « اوه لا » « يجب أن أقول جبل يبرين الوسطى (الأوسط) » . « حسنًا » قلت له «هذا ما كنت أسألك عنه فحسب ، وتذكر في المستقبل دائمًا الجمل الذي يموت عندما أسألك عن اسم جبل» .

(١) لم يرد اسم جبل يبرين الوسطي (الأوسط) في المعاجم الجغرافية ، إلا أن المؤلف حدد موقعه على خريطة رحلته إلى الجنوب الشرقي من يبرين . (المترجمان)

حصلت على زوايا الانحراف المغناطيسي لتحديد الاتجاه على جبل جوامر، والذي أصبحت أعرفه جيدًا الآن لوقوعة إلى الشمال من مخيمنا، كما حصلت في الوقت نفسه أيضًا على زوايا الانحراف المغناطيسي لتحديد الاتجاه على كل الجبال الأكثر بروزًا إلى الجنوب منا، لكن أملي خاب في اليوم التالي ـ عندما ارتقيت جبل جوامر، وأردت أخذ زاوية الانحراف المغناطيسي الخلفية ـ إذ وجدت أن جبل يبرين الوسطى (الأوسط) غير مميز بين عدة جبال أخرى في الضباب.

كان هناك القليل جدًا من الحياة الحيوانية البرية يمكن رؤيته، وطائر الدخلة كان الأكثر شيوعًا، وعمومًا فهو يعطي مطاردة طويلة من شجيرة إلى أخرى قبل أن يمكن اصطياده. كان في مجموعات أزواج، ولما كانت الذكور تستعرض غالبًا وتنطلق أحيانًا في الغناء، فمن المحتمل جدًا أنها تنوي التكاثر هناك، ومن ناحية أخرى فمن الممكن أنها هنا لفصل الشتاء فقط. كان زوج من طائر الصرد الرمادي العظيم يستعد للتزاوج بالتأكيد. وقعنا بشكل غير متوقع على مجموعة صغيرة من طائر القطا المنقط *(Pterocles senegallus)*، كانت تبدو كمجموعة من الحصى. وكان لخالد ـ وهو أول من رآها ـ الحق في إطلاق النار، ولذا فقد أخذ بندقيتي. تقدمنا بسهولة ونحن على ظهور الإبل حتى أصبحنا في مدى الرمي بدون أن تنتبه الطيور. وانسلح عندها خالد إلى الأرض وأطلق النار لكنه أخطأها، وكان عليه أن يخضع لنار مشتعلة من السخرية من الرجال الآخرين بقية اليوم. كان الأمر مخيبًا للأمل، لأن هذه كانت طيور القطا الوحيدة في المتناول، وبدا من غير المحتمل أن نحصل على فرصة في التعرف عليها.

كان التقويم البحري الخاص بي قد تنبأ بخسوف كامل للقمر في تلك الليلة، ولأنني لم أكن واثقًا من كيفية تأثير هذه الظاهرة على الإخوان، فقد كنت مترددًا بين

أن أعلن هذه الحقيقة أو أبقيها سراً، وتساءلت في داخلي إن كان هناك أي احتمال في أن تعزى الظاهرة إلى تواجدي . بعد تقليب الأمر من مختلف أوجهه اعتقدت /p.262/أن من الأفضل ألاّ أقول شيئًا . عدنا لنجد سعوداً قد أعد الشاي ولكن بعد أن أديرت الفناجين سمعت ضجة رهيبة، وعندما ركضت خارج الخيمة، وجدته يتقلب على الأرض شاكيًا من آلام في البطن مطلقًا تنهدات وأنينًا احتضاريًا جعلني أرى مشاهد موت وجنازة . أسقيته جرعة من زيت الخروع ولففناه في سجادة قرب النار . توقف الأنين عندما انسدل الظل الأول للخسوف فوق القمر ووجدت المخيم مهجوراً من الرجال باستثناء مهدي الذي قال : إن المريض قد ذهب مع الآخرين إلى الأمير الذي كان يقوم بصلاة خاصة (صلاة الخسوف) داعيًا الله أن يخرج القمر من الظلام . لابد أن هذا كان ضريبة على موارد أمير الإخوان حديث التعيين ، لأنه كان للتو فقط قد أنهى صلاة العشاء المعتادة واستدعي الآن وبشكل غير متوقع ليؤم الصلاة لساعة إضافية أو أكثر . أمكنني على أية حال أن أعلم عن طريق سماع أجوبة المصلين والتي كانت تنساب عبر النسيم أن الأمير قد حافظ على موقعه بطمأنينة ونجاح مطلق ؛ لأن القمر ظهر بعد ساعة من الخسوف الكامل . جلست على صندوق وشاهدت الخسوف كاملاً، ويعود الفضل في ذلك إلى السماء الصافية والجو الأكثر صفاءً، وفي الغالب لم يستمتع أحد أبدًا بمنظر أكثر روعة للمشهد غير العادي . بقي هناك حوالي نصف قمر عندما بزغ الكوكب، وكان يشبه كثيراً ظهوره خلال الربع الأخير . عندما أصبح كامل القرص معتمًا تحول إلى كرة حمراء حارة بحوالي نصف حجمها المعتاد ، بدا أنها تحولت إلى حرارة بيضاء مع ملامسة إشعاعات الشمس للطرف الأدنى . لا يظهر أن عادة إطلاق النار والضرب على صفائح القصدير السائدة في البلدات العربية خلال الخسوف (مكسوف بالعربية)[١]

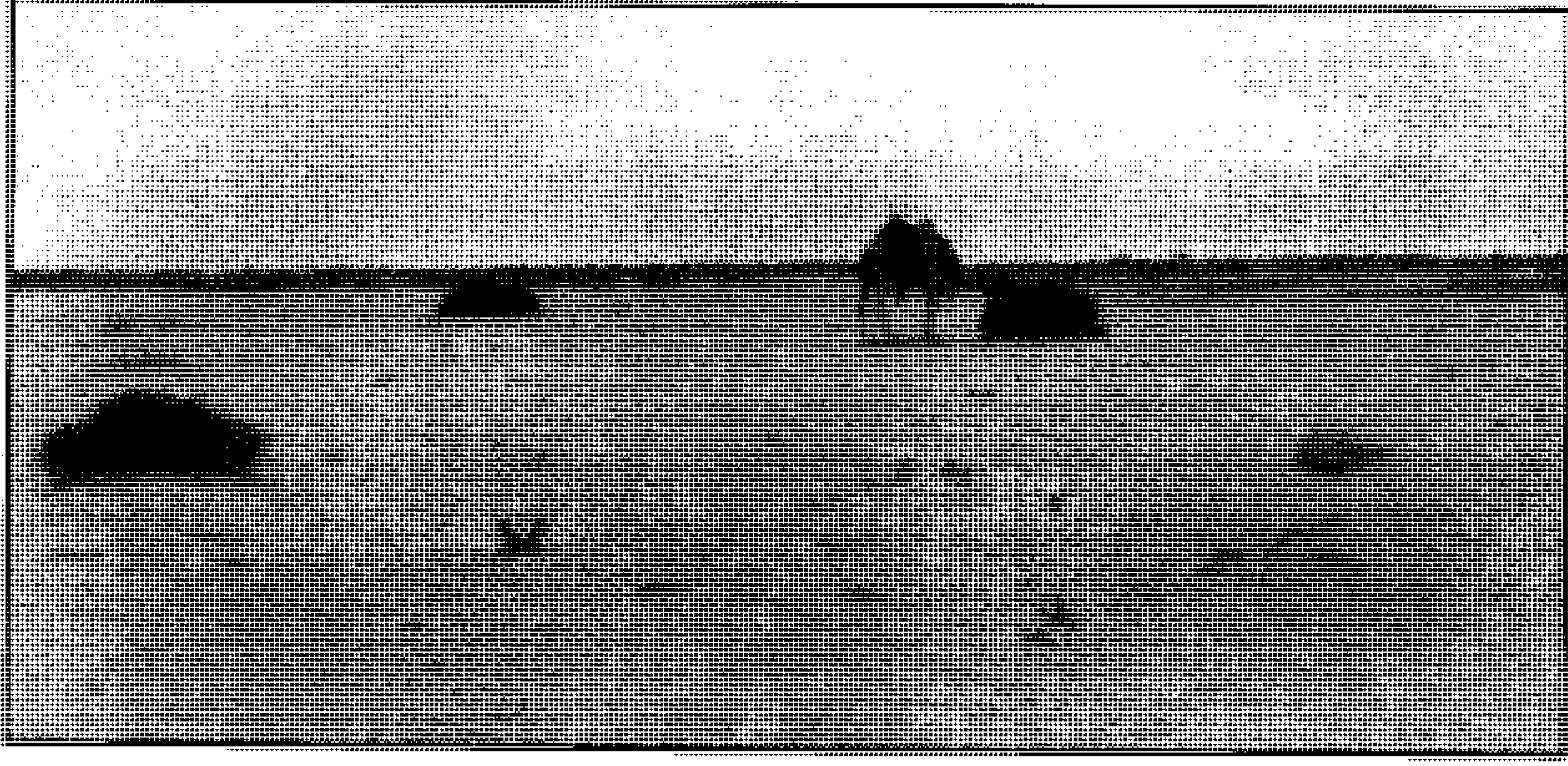
---

(١) من المعروف أن الخسوف للقمر والكسوف للشمس . (المترجمان)

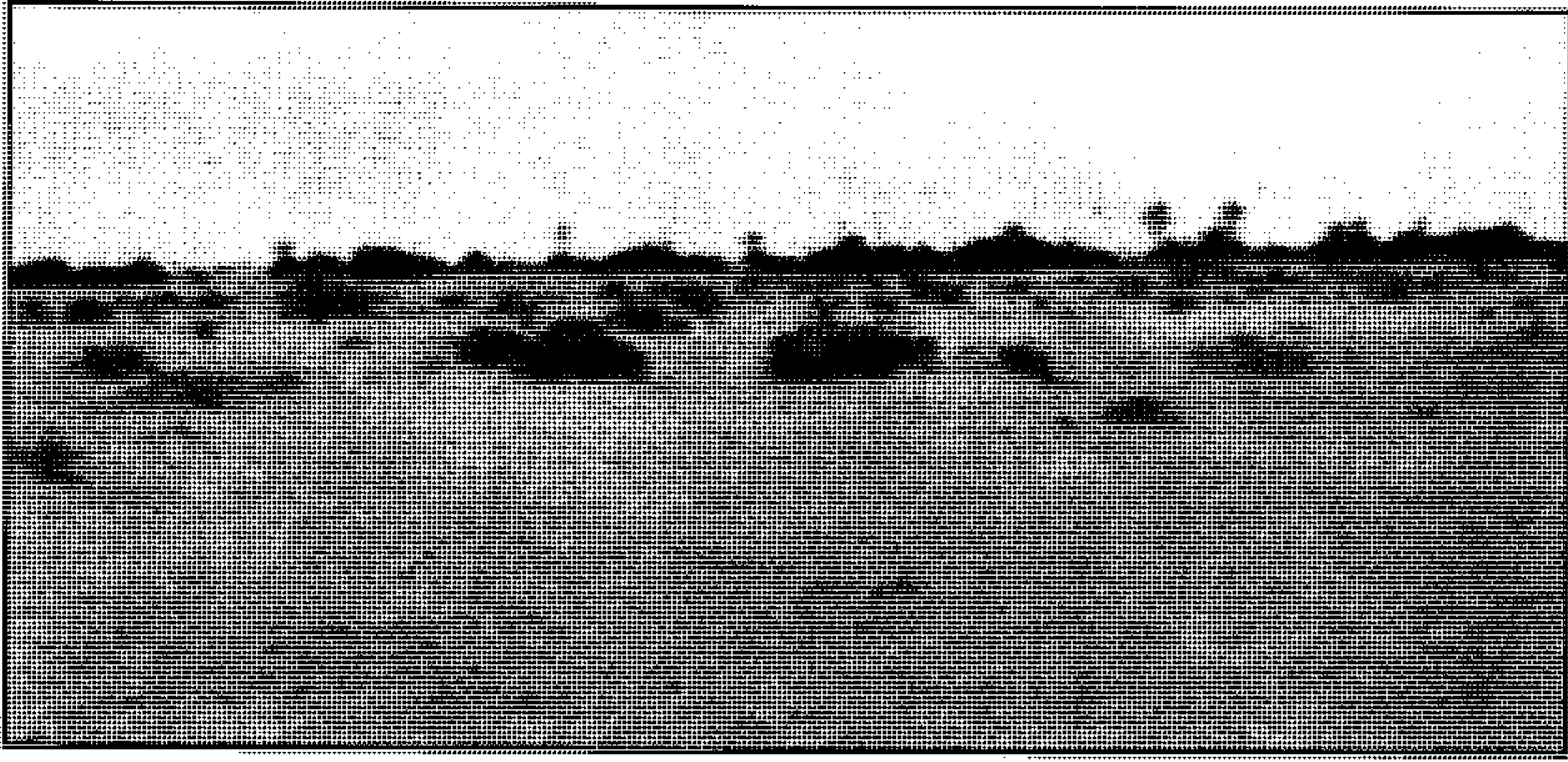
متبعة في الصحراء، وعند الأخذ في الاعتبار أن البدو ليست لديهم الوسائل لمعرفة أن الظاهرة ليست خارقة للعادة، فإن طريقتهم في إمضاء الوقت أثناء خطر مُفترض تبدو مناسبة وجليلة جداً. تسبب الخسوف بالمناسبة في علاج دائم لشكوى سعود، فقد عاد إلى فناجين القهوة بعد الصلاة ولم نسمع عن شكواه مرة أخرى /p.263/.

افتقدت عواء بنات آوى في يبرين إذ لم توجد هناك أبداً، ويبدو أننا تركناها خلفنا في الهفوف، وهو ما يوحي أنه حتى ابن آوي له حدوده فيما يتعلق بالمشقة والعيش في أراضٍ جرداء.

[٢١ فبراير] كان هدفنا هذا اليوم سلسلة الحجر الرملي الواقعة على بعد ثلاثة أميال إلى الشمال منا، والمسماة جبل جوامر (اللوحات ٥٣ و ٥٤)، كنت آمل أن أجد حياة حيوانية مشابهة لتلك الموجودة في الجبال المعزولة الجرداء حول الهفوف، واعتقدت أننا قد نرى بومة الصحراء النسارية، وقنبرة الصحراء، وخطاف الصخور الشاحب مرة أخرى، لكن كان قدري أن أصاب بخيبة أمل. أخذنا ثلاثًا من إبل الأمتعة لكي نعطي إبل الركوب أكبر قدر ممكن من الراحة، ولكن قبل أن نعود كان كل من محمد حسن وصالح قد فقد أعصابه معها. كان هذا أمرٌ نادر الحدوث ولذا فقد كنت سعيداً لأتعرف أخيراً على مقدار صبر العربي مع البهيم الأكثر إثارة بين المخلوقات. لم تكن طريقتي في التنقل مناسبة لأفكار الجمل، ولوكنا ركبنا عند المخيم ونزلنا عند الجبل لكان كل شئ على مايرام، لكن الإبل أصبحت ساخطة أكثر فأكثر بسبب وقفاتي المتكررة للإمساك بسحلية، أو إطلاق النار على طير، أو التقاط عينة نباتية حتى أظهرت في النهاية استياءها من خلال الوقوف عندما يراد منها أن تبرك، وبالبروك بمناسبة أو غير مناسبة، أو بانتهاز أي فرصة للانطلاق نحو المخيم. جر أحدها صالح الذي كان متعلقًا بالطرف الآخر من حبل الرأس لمسافة خمسمائة ياردة بأقصى سرعته، لكن صالح صمد في مكانه وأرغمه في النهاية على التوقف.



اللوحة (٥٠)
شجيرات السواد . جنوب يبرين



اللوحة (٥١)
أشجار نخيل التمر آيلة للموت في الطرف الجنوبي من الواحة ، يبرين



اللوحة (٥٢)
جنوب يبرين . منظر من جبل يبرين الوسطى (الأوسط) يطل على صحراء الجنوب العظيمة

كان الشداد في هذا الوقت على وشك الانزلاق وصارع الحيوان بهياج شديد حتى أمسك محمد حسن أخيراً أنف الجمل بقوة أسنانه ، وهو انتزاع حي بدأ بنفس فاعلية النوع الآخر المستخدم مع فرس جامح ، لكن هذا يتطلب طقمًا قويًا من الأسنان . لكيلا يبز ، فإن جمل صالح برك عدة مرات وحاول أن يتدحرج معه ، قفز صالح عن ظهره برشاقة ، ووقف مستعداً ثم قفز على الشداد مع نهوض الجمل . لم تكن هناك محاولة للعض خلال كل هذه العروض للمزاج السيئ رغم أن الرغاء /p.264/ كان متواصلاً من الأفواه المفتوحة تمامًا ، وكان بإمكان الحيوانات أن تعض لو شاءت .

وصلنا أخيراً إلى قاعدة الجبل وعقلنا الإبل بشكل خفيف ثم تسلقنا الصخور بصعوبة إلى القمة . بدا أن كامل المكان مستأجر فقط من قبل جلم أو صقر صغير طار من منحدر صخري ، وإن كان هناك آثار أقدام ضباع في بعض الكهوف . رغم أنه لم يكن هناك الكثير الذي يمكن عمله من ناحية الجمع ، فقد كان هناك وفرة في العمل الجغرافي تنتظرني إذ يقع أمامنا بانوراما ، أو منظر عريض شامل جيد لكامل حوض يبرين يمتد من الجبال البعيدة إلى الشمال قرب جبل عاقولة لتلك البعيدة جنوبًا ، والتي حصلت من على قممها على زوايا الانحراف المغناطيسي لتحديد الاتجاه في اليوم السابق ، يتوسط ذلك الرقعة السوداء التي تشكل منطقة النخيل . لأن موقع المخيم الصحيح كان محدداً سلفًا لدي ، فقد كنت قادراً على ربط هذه النقاط به ، وحصلت على ما يشبه بيت العنكبوت من الزوايا المرضية جداً لخريطة المنطقة بكاملها . قرأت بالإضافة إلى ذلك ميزان الحرارة المعدني عند قمة الجبل وقاعه للتأكد من ارتفاعه . كونت سلسلة طويلة من الجبال تسمى جبل أم هدية[١] كامل الأفق الغربي على مسافة حوالي ثمانية أميال ، قال صالح : إن سلسلة ثانية تلي هذه السلسلة ، ثم ثالثة أيضًا يليها رمال صحراء الرمال التي تتجه شمالاً حتى تتصل

(١) لم يرد اسم جبل أم هدية في المعاجم الجغرافية ، إلا أن المؤلف حدد موقعه على خريطة رحلته إلى الغرب من يبرين . (المترجمان)

برمال الدهناء . عين الاتجاه الذي سيأخذه للذهاب إلى نجران ، وأخذت زاوية الانحراف على ذراعه . قال : إنهم كانوا يقومون بالرحلة في السنوات ذات المطر الشتوي الاستثنائي فقط . تقع المواطن الشتوية لآل مرة حول جودة إلى الشمال من طريق الهفوف ـ الرياض وتمتد حتى أم ربيّعة .

جمعنا عينات جيولوجية من كسارة الحجر الرملي الجيري ، وقطعنا بعضًا من المنحدر الصخري عند القمة ، إضافة إلى قطع من طبقة حجر رملي قرنفلي ساطع من الأسفل . أضفنا في طريق العودة عينة من مادة زرقاء رمادية حصلنا عليها من حفرية قديمة قرب بئر جافة . عثرنا هنا أيضًا على قطعة الجرانيت الوحيدة في مجموعتنا . بدا غريبًا أن نجدها في هذا الموضع إذ إن كل المنطقة عبارة عن حجر رملي وعندما درست /p.265/ الأمر في إنجلترا بدا لعيني غير المجربة أن أقرب مثيل لها هو جرانيت أسوان الأحمر ، الذي استخدم للتماثيل المصرية القديمة . رجوت أن أكون قادرًا على تفسير وجود هذه القطعة حيث وجدتها باقتراح أن لها صلة ما بطرق القوافل القديمة بين الجرهاء ومصر ، ومن المحتمل أنها كانت رقاقة أو كسرة سقطت من كتلة أكبر كانت في طريقها إلى سومر أو بابل ، لكن السيد كامبل سميث لم يوافق على هذا كما سيتبين في الملحق السابع . أخبرني صالح عن موضع يسمى مقينمة(١) على مسيرة ستة أيام إلى الجنوب من يبرين في وسط صحراء الرمال . يذهب فرع جابر من آل مرة هناك في السنوات ذات المطر الاستثنائي حيث يمكنهم في هذه المناسبات أن يجدوا الماء في بعض الآبار العميقة جدًا . هناك ماء عذب على عمق خمس وثلاثين باعًا (١٥٠ ـ ٢٠٠ قدم) ؛ الباع هو المسافة بين أطراف الأصابع لكلا الذراعين الممدودين . لابد للقبائل أن تأخذ معها حبالاً طويلة ، وتقوم الإبل بسحب

(١) مقينمة هي بئر ماء تقع جنوب يبرين على بعد ١٢٥ كيلا وهي إلى الشرق من طريق يبرين ـ السليل غير بعيد عنه . انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، جـ٤ ، ص ١٦٨ . (المترجمان)

الماء من الآبار . وفقًا لصالح فإن بني هلال ـ وهم قوم أسطوريون من الأزمنة القديمة ـ حفروا هذه الآبار ، تستطيع إبل آل مرة رعي الأرض الواقعة في وسط صحراء الجنوب العظيمة عندما تكون هناك مياه في الآبار . سألته بعدها أن يريني الاتجاه الذي تقع فيه؟ فأجاب بأن الطريق يمر قريبًا من جبل مضبر جنوب(١) وهو أحد الجبال الجنوبية الذي يمكننا رؤيته، والذي أعطى زاوية انحراف مغناطيسي قدرها ١٧٠° . لم يسمع الرحالة الأوربيون قط من قبل باسم مقينمة، ويبدو أنه قليل الشبه بأي كلمة عربية . يوحي الاسم مع ذلك بماجان الوارد في النقوش السومرية حيث كان الملوك القدماء لسومر وأكد يحصلون على الديورايت، وهو جرانيت أسود كان مرغوبًا جدًا في تلك الأيام من أجل التماثيل .

نعلم من إل . دبليو . كنج (٢) أن نارام ـ سن ـ ملك أكد ـ سجل على قاعدة تمثال له من الديورايت أنه فتح ماجان وقتل أميرها ؛ ويقول أيضًا : « إن الموقع الدقيق لبلاد ماجان غير محسوم بعد ، فالبعض يضعه في شبه جزيرة سيناء وآخرون /p.266/ يعتبرونه كجزء من شرق الجزيرة العربية . لدعم وجهة النظر الأخيرة ربما يمكن ملاحظة سهولة الوصول من جنوب بابل عبر الخليج العربي ، ونقل كتل ضخمة من الديورايت ، والتي أحضرها ، نارام ـ سن ، وجوديا في فترة لاحقة على الأحرى من ماجان ، إذ إن إنجازها سيكون أكثر سهولة بالبحر من البر ، في تلك الحالة فإن غزو نارام ـ سن لماجان كان استمرارية مباشرة لسياسة سلفه شار ـ جاني ـ شاري في توسيع امبراطوريته باتجاه الجنوب لتشمل شواطئ الخليج الفارسي (العربي)» . هذا التمثال ، يسجل نارام ـ سن « نحت من ديورايت أحضر إلى أكد لتلك الغاية من

(١) لم يرد اسم جبل مضبر جنوب في المعاجم الجغرافية، إلا أن المؤلف حدد موقعه على خريطة رحلته إلى الجنوب من الخن . (المترجمان)

(٢) تاريخ سومر وأكد لمؤلفه إل . دبليو . كنج .

جبال ماجان » . وفي المجلد نفسه : « يقرر جوديا[١] بوضوح أنه أحضر الديورايت لأجل سلسلته من التماثيل الضخمة من ماجان » . ترجم جورج سميث من المتحف البريطاني الاسم السومري كما جانّا وهنا يكون الشبه للنطق العربي لكلمة مقينمة حتى أكثر روعة . هو يقول : « خلف سرجون في الحكم ابنه نارام ـ سن[٢] الذي فتح مملكة ابيراك ، وفيما بعد أرض ماجانّا أو «إقليم السفن» . يطلق هذا الاسم ماجانّا أيضًا على مصر في أزمنة لاحقة لكن الاحتمال الأكبر أن ماجانّا الخاصة بنارام ـ سن كانت إقليمًا على الخليج الفارسي (العربي)» .[٣]

عندما أشرت إلى التشابه بين الاسمين ماجانا ومقينمة ، قال الدكتور إتش . آر . هول ، من المتحف البريطاني بأن نقطة ضد أي رابط بينهما تكمن في أن أكثر التفاسير حداثة لماجان هو أنها «الموضع الذي تذهب له المراكب» . هذا لا يقترح بالتأكيد مقينمة في وسط الصحراء لكن القدماء كثيرًا ما أعطوا اسم العاصمة للميناء . يخلق السؤال موضوعًا جذابًا للبحث وبهذه الصفة أقدمه . ليس هناك دليل كاف في القضية يتيح للمرء أن يقدم شيئًا أكثر من اقتراح النظرية[٤] /p.267/ .

---

(١) كان جوديا باتيسي أو الملك ـ الراهب في لقش المسماة الآن تيلو قرب شاطرا ، العراق

(٢) لم يكن نارام ـ سن ابنًا للملك الاكادي سرجون بل هو حفيده فهو ابن مانشتوسو بن سرجون ثالث الملوك الأكاديين وقد تولى نارام ـ سن الحكم بعد والده ودام حكمه ٣٧ عامًا تميزت بالقوة والازدهار باستثناء السنوات الأخيرة . انظر : طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، الجزء الأول ، الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين ، بغداد : منشورات دار البيان ، ١٣٩٣ ـ ١٩٧٣ ، ص . ص ٣٦٧ ـ ٣٧٠ . (المترجمان)

(٣) تاريخ بابل لمؤلفه الراحل جورج سميث ، في« **التاريخ القديم من المعالم**» ، ص ٨٠ أشرف على التحرير القس آي . إتش . سايس .

(٤) ما قدمه المؤلف هنا في نقاشه هو اقتراح فرضية اعتمد فيها على التشابه اللفظي كما يراه بين كلمتي ماجانا ومقينمة وهو أمر لا يكفي دليل إثبات تاريخي كما يقر هو بذلك . من ناحية أخرى فإن موقع إقليم ماجان ظل موضع خلاف بين الدارسين منذ بداية القرن وحتى الآن ولو أن معظم الآراء ترجح كون الإقليم امتداد للمنطقة بين شمال سلطنة عمان المعاصرة وجنوب دولة الإمارات العربية المتحدة وذلك اعتمادًا على وفرة المعثورات التي تدل على وجود استيطاني منظم في فترة تداول الاسم في المصادر الرافدية . انظر : Casper, E and Others: "Locations of Meluhha, Dilmun and Makkan" J.E.S.H.O, Vol.xxi, Part II, pp. 11, 115-136. (المترجمان)

مضى صالح في وصف تحركات آل مرة . يتجهون في نهاية شهر مايو جنوبًا إلى يبرين، وتغطي إقامتهم فترة نضج التمور، حيث يتعاونون جميعًا في جداد التمر، ويبقون خلال شهور يونيو ويوليو وأغسطس، إما في يبرين أو أبعد جنوبًا حول مقينمة، وبعدها يعودون مرة أخرى إلى الشمال من الأحساء لقضاء فصل الشتاء .

كان هناك منخفض بسيط على قمة جبل جوامر كثيف الشجيرات دلالة على أن المنخفض يجمع بوسيلة ما قدرًا من الماء أكبر من الأرض المستوية حول القاعدة، في حين قد يتوقع أن يكون المنخفض بحكم موقعه جافًا كجفاف الكلاسة(١) . كان هناك العديد من شجر سلم السنط التي تشاهد أغلب الأحيان في قيعان وتجاويف الأودية الجافة ،ولم يكن ظهورها في وضع جيد على قمة جبل مفاجأة صغيرة (اللوحة ٥٣).

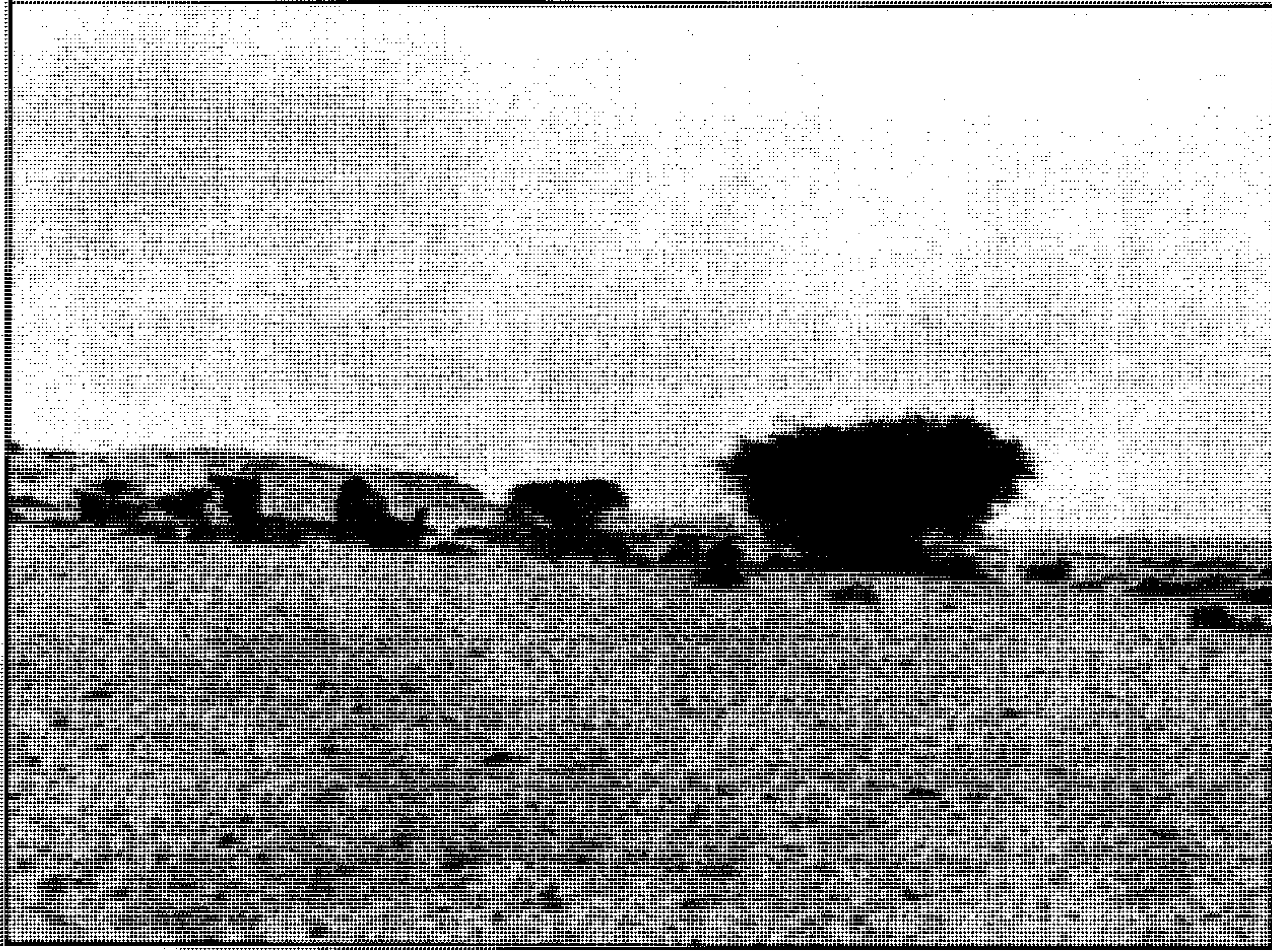
عندما وجد محمد حسن أنني وصالح نمضي وقتًا طويلاً ، فإنه سبقنا في النزول لرعاية الإبل، وعندما وصلنا أسفل الجبل لم نر الرجل أو الحيوانات. أنتج الصراخ بصوت عال صدى فقط، وقد بدأنا في تقصي الأسباب بعد نصف ساعة من الانتظار على صخرة . كان بإمكاننا رؤية كامل السهل تقريبًا حتى المخيم، ولم تكن هنا علامة على وجود الإبل هناك . كنت قد أهملت حيطتي المعتادة وتركت زجاجة الماء على الشداد ،والآن سقطت الشمس بلا رحمة على سفح الجبل الأجرد مسببة عطشًا جعلني أدرك بألم عدم مبالاتي . وجد صالح للتو آثار الإبل في طريقها بشكل أو بآخر إلى المخيم وأصبح متهيجًا ككلب دموم (٢) ، يتعقب أثرًا حديثًا طالبًا مني أن آتي معه لنتبعهم . كنت عطشًا وتعبًا ولم أكن سعيدًا على الإطلاق باحتمال أن أمشي

(١) الكلاسة هي المنطقة التي يتواجد فيها الكلس أو الجبس في الطبيعة، وهي عادة تكون في غاية الجفاف. (المترجمان)

(٢) كلب الدموم هو كلب ضخم لتعقب طريدي العدالة . (المترجمان)

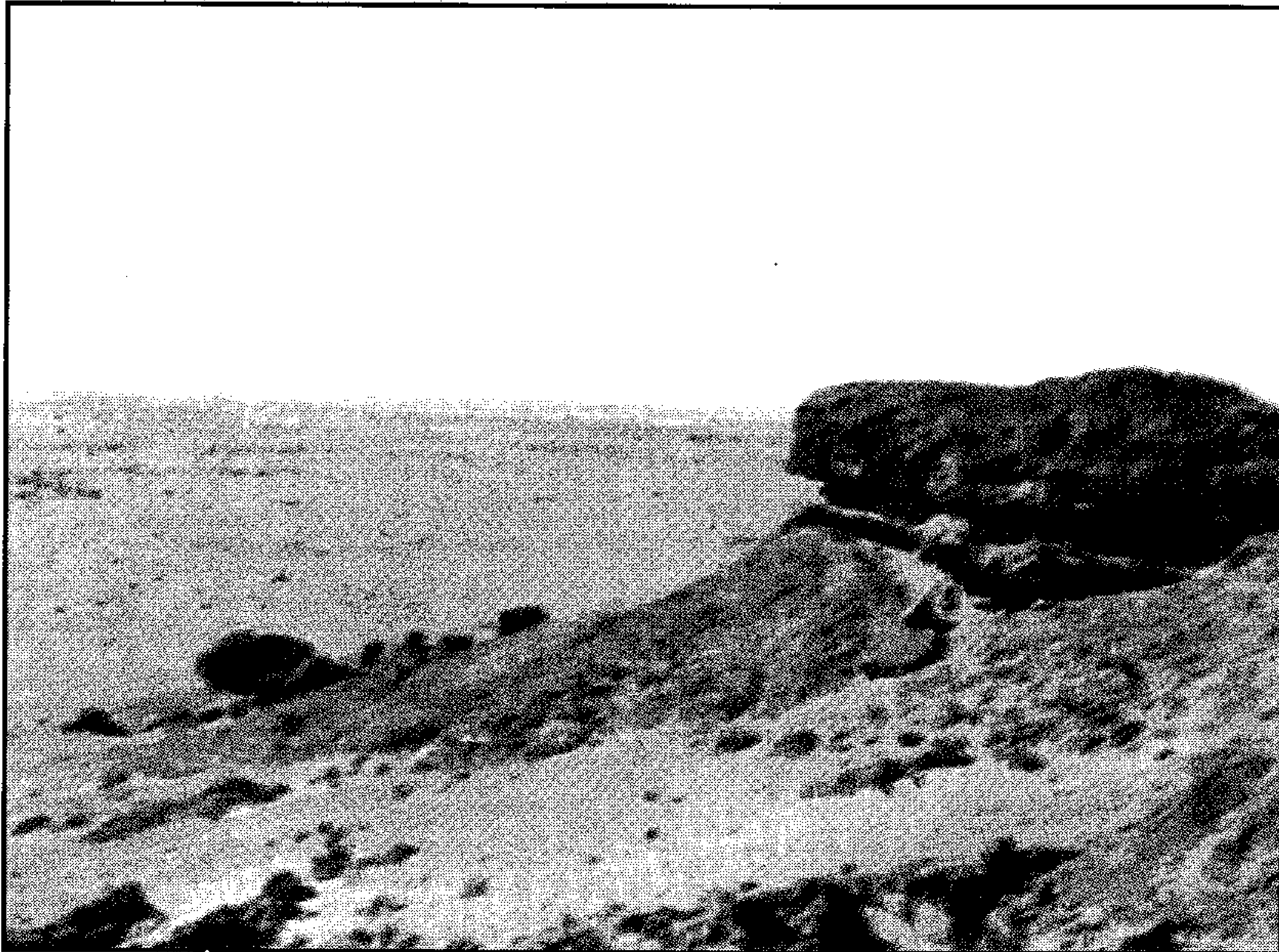
ثلاثة أميال عائداً إلى المخيم، ثم إن فكرة تتبع آثار جمل قد يقودنا إلى أي مكان، كانت جذابة لي بدرجة أقل. أوقفته بحدة وهو مازال قادراً على سماع صوتي بالقول لتذهب الإبل إلى جهنم فسأتبع خطًا مباشراً إلى المخيم، وسيأتي هو معي. كان يستشعر في عروقه كل ملكته الطبيعية في اقتفاء الأثر، وكان كمثل من /p.268/ أصيب بمس، لكن نبرة صوتي وتعابير وجهي جعلته يتوقف ويعود ثم جلسنا مرة أخرى لنستكشف السهل بمنظار الميدان، لم ننتظر طويلاً حين جاءت صرخة بعيدة من حول الصخور شديدة الانحدار، ويظهر أنها من قمة الجبل. أطلقت طلقة وصرخ صالح ولكن لم نتلق سوى أصداء في البداية لكن سمعنا فيما بعد جوابًا واهنًا، أعاد هذا الطمأنينة إلى نفوسنا، إذ علمنا عندها أن محمداً كان في مكان ما في الجبال، ظهر أخيراً وعلمنا منه أنه وجد الإبل تهيم بعيداً إلى الشمال على الجانب الآخر من الجبال، وقد أحضرها وقيدها إلى صخرة هناك. لم ير أويسمع شيئًا عند عودته للبحث عنا، وبعد وقت عصيب دلته طلقتي على مكان تواجدنا. شعرنا بالارتياح البالغ للمسار الذي سلكته الأحداث ثم ذهبنا حول الجرف الشرقي للجبال وامتطينا ثانية حيواناتنا صعبة المراس. كانت الحادثة مسؤولة عن إضافة طير آخر إلى قائمتي، إذ جاء سرب من سبع من حمام الصخور، وهبط على قمة جرف عال لكنه كان بالغ التوحش لدرجة أننا لم نتمكن حتى من أن نكون في مدى إطلاق النار عليها، وبالتالي لم نحصل على عينة.

كتبت هذه الكلمات في دفتر يومياتي بعد ساعة من غروب الشمس: «إنه لأمر صعب أن أدرك أنني حال الكتابة هذه أكون في وسط الجزيرة العربية، الكرسي الذي أجلس عليه خارج خيمتي مباشرة هو عبارة عن مزودة شداد، ووجبة العشاء التي قدمت بعد صلاة المغرب مباشرة انتهت، وكانت عبارة عن طعام بسيط مكون من أرز حار مسلوق وتمر من عيبة أحضرت من الأحساء. جاء خلف سعود الذي كان يحمل الأرز ـ الكلب السلوقي نجمان (نجمتان هو الاسم الأكثر مناسبة) بكرامة



اللوحة (٥٣)

جبل جوامر ، يبرين ، وشجر «السلم»



اللوحة (٥٤)

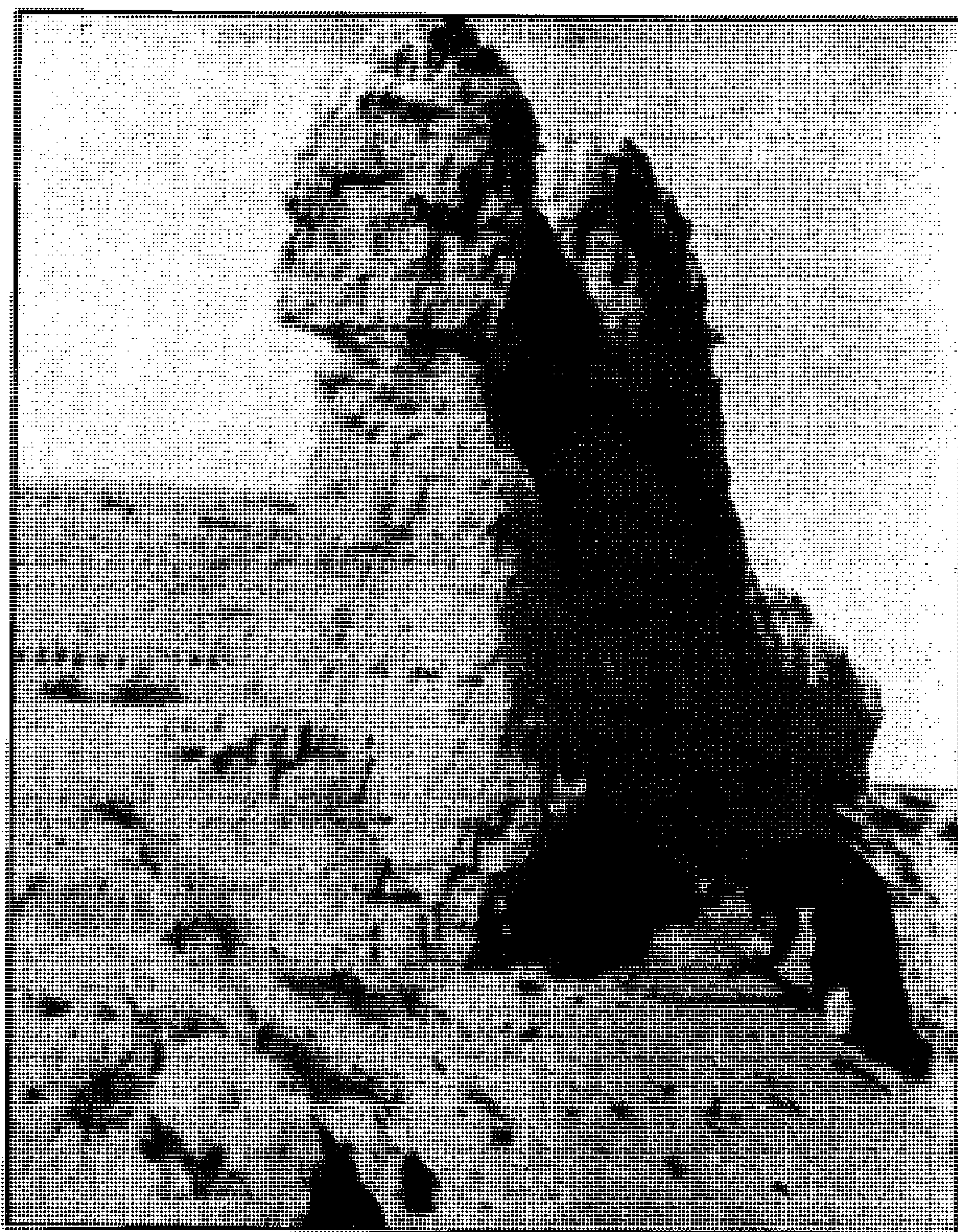
المنحدر الجنوبي لجبل جوامر ، يبرين ؛ صخور الحجر الرملي الجيري شديدة الانحدار

هادئة ، مشى بشموخ إلى داخل الخيمة وجلس على مسافة دالة على الاحترام ولا وجود للحميمية الدارجة التي يظهرها الكلب عندما يتسول وجبة ، تبقى الأرجل الخلفية واقفة عادة، بينما تكون الأرجل الأمامية الطويلة منثنية إلى الخلف في وضع جثو، لم أره أبداً متبعًا من قبل أي كلب آخر ، كان جو التضرع كاملاً والمناشدة لاتقاوم، كان يغادر الخيمة بهدوء عندما لا أطعمه تابعًا الصينية بنفس الجو الجليل الذي دخل به ، تبناه الرجال وقرروا أن يصحبوه معنا إلى الهفوف . القمر الذي كان كاملاً /p.269/ ، وفي حالة خسوف بالأمس فقط ، هو الآن يشرق كمثل بيضة ذهبية عظيمة تسبب انكسار الضوء في شكلها البيضاوي . كانت كوكبة الجبار (الميزان أو الجوزاء) والشعرى اليمانية (المرزم) فوق الرأس تمامًا، وكان سهيل مرتفعًا حوالي ٢٥° في السماء الجنوبية . والرجال مجتمعون حول نار المخيم ويتحدثون بشكل متواصل، ولم يكن غير هذا يكسر السكون إذ يهيمن الصمت المطلق . أمسكت بسرعوف مصلى ذي لون قشدي شاحب مع غطاء صوفي رائع من ألوان الصحراء، وضعته في مغلف واجتاح المصباح عند ذلك حشد من البشارات الصغيرة ترقص كلعبة المدومة في محاولتها المستمرة للتضحية بأنفسها ، لماذا يفعلون ذلك ؟ . البعض منها يزحف عبر فتحات الهواء ويموت منتصراً . وضعت بعضًا منها في مغلف وآمل أن تخبرني السلطات في جنوب كينسنجتون يومًا ما عم تكون؟ ولماذا هي انتحارية بهذا الشكل؟» . تعرف عليها منذ ذلك الحين السيد تامز من المتحف البريطاني (التاريخ الطبيعي) على أنها *Hetenographis ulvimarginella* والموطن الطبيعي لهذا النوع هو ديسا في شمال بارودا في الهند.

اندفعت البشارات ، بعد قليل من كتابة ما سبق في دفتر اليوميات ، عبر ثقوب الهواء الصغيرة للمصباح ووصلت إلى الشعلة بأعداد كبيرة أدت إلى إطفائها .

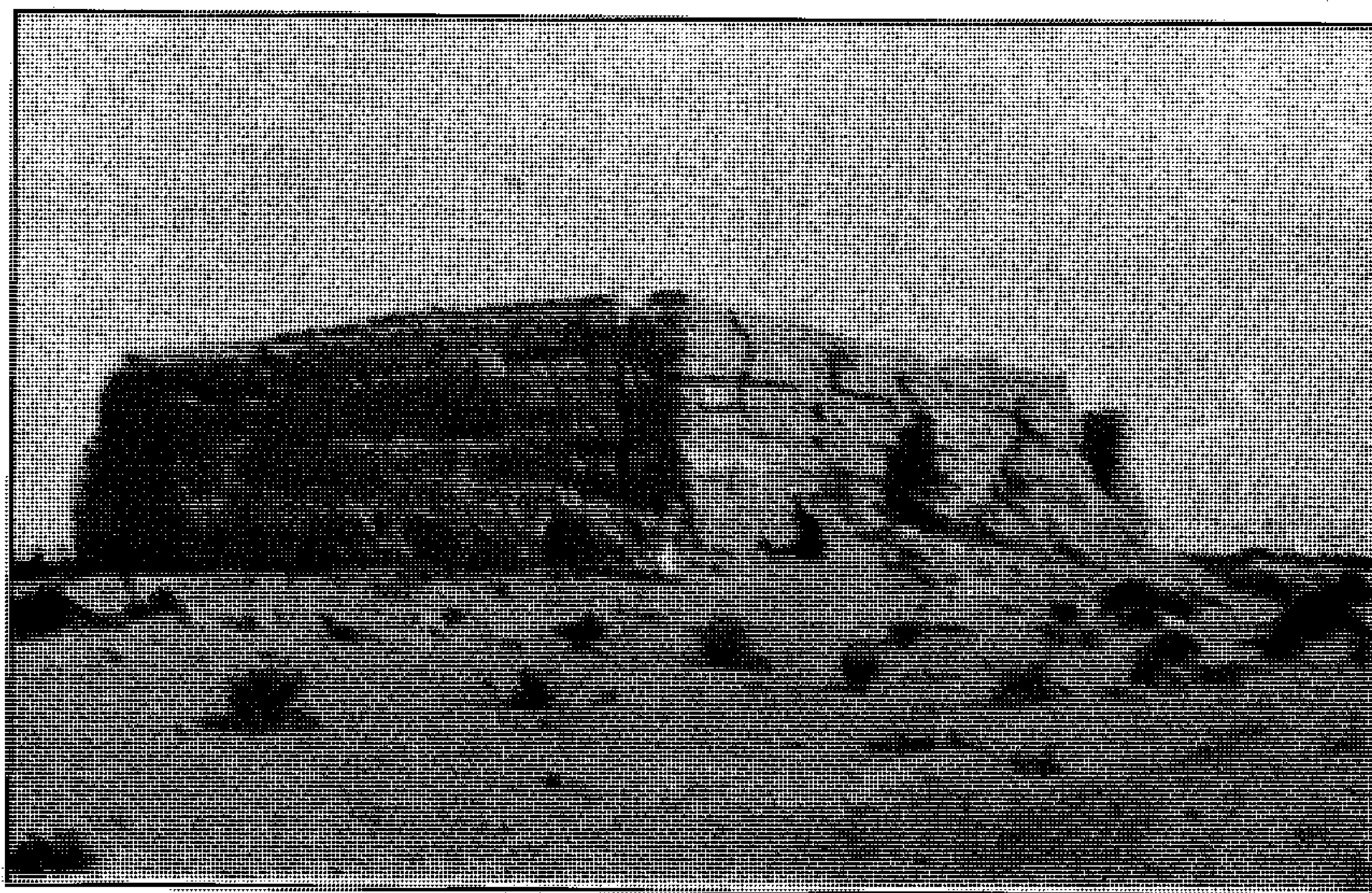
[٢٢ فبراير] كانت درجة حرارة الظل عند شروق الشمس ٥٥ْ ، وفي داخل الخيمة عند الظهر بالتوقيت المحلي ٩٠ْ بفارق ٣٥ْ خلال ست ساعات في الظل ، كانت ستسجل ٢٠ْ إضافية في الشمس عند الظهر ، ولذا فلابد للحياة الحيوانية والنباتية والجنس البشري أن يقاوم فرقًا لا يقل عن ٥٥ْ خلال اليوم . كنت أرتدي سروالاً صوفيًا شتويًا وصدرة وقميصًا صوفيًا خفيفًا ، كان الجو حارًا عند منتصف النهار إلا أنه لم يكن حتى الآن مزعجًا وكان يفترض أن أجد الملابس الداخلية القطنية باردة أكثر مما ينبغي في الصباح والمساء لو أن التغيير تم ، ارتديت بالإضافة إلى كل هذا سترة خفيفة من صناعة نورفولك بهدف استخدام جيوبها بشكل أساسي ، كما ارتديت بنطالاً صوفيًا ناعمًا خفيفًا . غطت العباءة العربية ولباس الرأس كل شيء لكن كان ضروريًا خلع العباءة عند الحاجة لعمل سريع بين الصخور شديدة الانحدار . كان هناك ريح جنوبية وعاصفة غبار بيضاء يمكن رؤيتها /p.270/ تعصف بين النخيل . يقع عملي هذا اليوم لحسن الحظ في هذا الجانب منها إذ اعتزمنا زيارة قلعة خربة تسمى قصر طويرف على بعد حوالي عشرين دقيقة مشيًا على الأقدام من البئر ، لنبحث عن كنز مدفون ونتحرى عن إخبارية تتحدث عن بومة تعيش هناك (اللوحات ٥٥و ٥٦) . لم نجد شيئًا يساعد على معرفة تاريخ البناية . كان هناك قطعة فخارية صغيرة متكسرة مصنوعة من الطين الأحمر بلا خاصية معينة . حفر مهدي عدة خنادق على عمق قدمين أو ثلاثة حول الأساسات بدون أن يجد شيئًا . كانت القلعة ضخمة البناء وقد قاومت الدمار أكثر من الأخريات . كان مساحة البناء الداخلي خمسًا وعشرين ياردة مربعة وارتفاع الجدران الآن ثمانية عشر قدمًا وسمك القواعد ثمانية أقدام . كانت مادة البناء عبارة عن كتل مربعة كبيرة من الطين المجفف تحت الشمس . دلَّ صف من الحفر على خط المفاصل لأرضية خشبية .

رغم أن البومة لم تكن في عشها إلا أن حجم المطروح من الأجزاء عسرة الهضم من الحشرات والحيوانات ، تركت القليل من الشك في أنها كانت بومة المخزن



اللوحة (٥٥)

قصر طويرف ، شمال يبرين ، وتظهر لبنات الطين المربعة الكبيرة . مهدي يحفر بحثًا عن «الكنز»



اللوحة (٥٦)

قصر طويرف ، شمال يبرين

المألوفة، ويبدو أنها تشعر أنها هنا في مواطنها في هذه القفار بنفس القدر الذي تشعر به في برج كنيسة إنجليزية . أحرز صالح بعض النجاح مع المصائد وأحضر جرذين (*Meriones arimalius*) جميلين ذوا لون قشدي شاحب ، بديا بالتأكيد جديدين ؛ لما كان قد أمسك بهما في ضوء النهار فقد أثبتنا حقيقة أنهما من المتغذيات نهاراً . يظهر أن بعض الأنواع من جنس (*Meriones*) نهارية بشكل تام وأخرى ليلية، رغم أنها جميعًا كانت في السابق تعتبر حيوانات ليلية . هذا الموضوع مدروس بشكل أكبر في الملحق رقم ١ .

قمنا بوضع الاستعدادات للمغادرة في اليوم التالي . لأننا مدركين أن كمية الماء كانت بالكاد كافية في السابق أثناء رحلة القدوم ، فقد استعار محمد حسن قربة إضافية . سمعنا أن الأمير فقد الكثير من الإبل ، وردت كالعادة لتشرب يوم وصولنا ولم تر منذ ذلك الوقت، وقد أرسلت فرق بحث في كل الاتجاهات ، وكان هناك الكثير من اللغط في المخيم . يمضي البدوي الكثير من وقته في البحث عن إبل مفقودة دون مبالاة بحقيقة أنه بالقليل من الاحتياطات يمكن تحاشي كل هذا الإشكال. لزيادة مصاعب الأمير فقد أخرجت كل أشجار نخيل التمر كوافيرها /p.271/ في وقت واحد، وتتطلب تلقيحًا يدويًا ، ولم يحزم أمره حول ما إذا كان عليه أن يفرق رجاله بحثًا عن الإبل ويصرف النظر عن التمور ، أويركز جهوده على التمور ويدع الله يقود إبله إلى المخيم .

قال محمد حسن : إن عنصر الإخوان كان صعبًا إلى حد ما ، وأنهم قد سألوا الأمير لماذا يسمح لكافر بالقدوم إلى منطقتهم ؟ . أضاف قائلاً إنهم كانوا منذ سنتين وثنيين[1] لا يمارسون أي دين أو إجراءات زواج . اعتاد بعضهم أن يصلي أو يقوم بحركات الصلاة على الأقل لكن لو وقفت بجانبهم لأدركت أنهم يتمتمون فقط دون

(١) انظر هامش الصفحة ٣٤٠ . (المترجمان)

معرفة الكلمات الصحيحة . لقد جعل السلطان العلماء الوهابيين يعلمونهم أمور دينهم ويتولى الأمير الآن القيام بإجراءات الزواج .

سألت إن كان عليّ أن أرد زيارة الأمير وأودعه ، لكن محمد حسن قال : إن ذلك ليس ضروريًا ؛ لأنه سيأتي ويراني ، ناسبني هذا كثيراً ، وكان من المحتمل أن يكون صعبًا عليّ أن أذهب إلى خيمة مليئة بأفراد نكدي المزاج من جماعته . سلمت محمد حسن عشر روبيات (١٣ شلنًا ، ٤ بنسات) لكل واحد من الرجال الذين عملوا كشافة وقد كنت محتاراً قليلاً حول ما هو متوقع مني ، وفي الوقت نفسه كنت ناويًا ألاّ أبالغ في ذلك ، أخبرته في ذات الوقت نيتي ترك هدية من الأرز للأمير مع عائلة القصيبي عند عودتي للهفوف ، وكذلك لراشد بن داله مقابل الكلب السلوقي ، وهي فكرة جيدة جداً للتغلب على مشكلة تقديم الهدايا والتي هي دائمًا متعبة وغير مريحة .

تناول الأمير طعام العشاء أولاً مع رفاقي ثم انضم إليّ من أجل الشاي والقهوة والبخور . أتممنا الأسئلة المتنوعة حول صحة كل منا في الوقت المناسب له ، ليحقق الهدف من زيارته قبل أن يغادر . شكرته على كل الترتيبات التي قام بها من أجل سلامتي ، وقال : إن صحته قد تحسنت إثر الأخبار بأنني قمت بصيد جيد /p.272/ (افترض أن ذلك كان بناء على رواية صالح لنزهاتنا القصيرة) ، كان ذلك كله مبعث سعادة عظيمة له وكان آسفًا لعدم تمكنه من أن يرسل لي بعضًا من تمور يبرين لتذوقها ؛ لأن حيواناته أكلت كل التمور بسبب ندرة العلف نتيجة القحط . أخبرته بأنني قد تركت عشر روبيات لكل واحد من رجاله مع محمد حسن لأ تأكد إلى حد ما أن هذا السيد الأخير لن ينسى أن يعطي كل واحد نصيبه . أطلق الأمير شهقة عند سماعه المبلغ وإلى هذا اليوم لا أعلم ما إذا كان الامير قد اختنق لسخاء المبلغ أو أنه كان يعبر عن سخطه لتفاهته أم حصل عنده مجرد فواق (شهقة) . قدم محمد حسن

تفسيره الخاص وذلك بقوله إنني مجرد «صاحب القنص» (صياد) ولذلك فليس لدي الكثير من المال لأفرقه . شعر الأمير أن واجبه يحتم عليه أن يجعل محادثتنا الأخيرة هذه ناجحة وكانت ملامحه قلقة جداً خلال عباراتنا الوداعية . بعد أن قلنا أنا والأمير «أنا ممنون» عدة مرات كما هي العادة (حرفيًا ، « أنا ممتن جداً » ، « وأنا ممتن جداً » تردد غالبًا من الجانبين . قال حسن بهمس مبحوح : الآن قل « وأنا ممنون»، ولذا فقد كررتها مرة أخرى . كنت حقيقة ممتن للشيخ حمد؛ لأن كل شيء قد انتهى بسلاسة وأدركت بشكل كامل صعوبة موقف رجل مسئول عن كافر في هجرة للإخوان . لو حدث لي شيء لكان مستقبله قد تأثر بشكل جدي .

أكد كل الرجال بما فيهم الأمير قصة السمعة السيئة للواحة كموطن للحمى ، ولذلك فقد كان غريبًا إن لم أنجح هنا ، كما كان الحال في الهفوف في رؤية بعوضة *anopheles* ، سمعت واحدة فقط دخلت إلى خيمتي في ليلتي الأخيرة في يبرين ، وقد حاولت عبثًا أن أحصل عليها ، كانت صغيرة من خلال النظرة الخاطفة التي أمكنتها منها، وكانت تطن بدوي مثل النوع الموجود في الهفوف، ولديّ القليل من الشك في أنها كانت فقط من نوع *Culex fatigans* ، وهو نوع غير حامل للملاريا[١] ./p.273/

(١) واحة يبرين هي أرض سبخة محاطة بآكام مرتفعة وتكثر فيها المستنقعات لكثرة مياهها، ولذا تنتشر فيها حمى الملاريا ولهذا السبب فقد ترك الشيخ حمد بن مرضف وجماعته آل جابر من آل مره فيما بعد هجرتهم التي استقبلوا فيها المؤلف . انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، جـ٤ ، ص ١٨٧٣ . (المترجمان)

الفصل السادس عشر :

من يبرين إلى الهفوف

[٢٣ فبراير] لسعادة الجميع رحلنا من يبرين ، كنت قد أصررت على مسيرة قصيرة من أجل أن نخيم في التلال الرملية في جبل العاقولة ، وننصب مصائد للجرذان . كانت قد تمت التضحية بجمع العينات أثناء رحلة القدوم من أجل وضع الخرائط ، والآن وقد غطيت منطقة تبلغ مساحتها مائة وخمسين ميلاً بشكل جيد خرائطيًا ، فإن جهودنا يمكن أن تتركز على الحيوانات الثديية . جاء الأمير ليرانا لحظة الرحيل وذهبت قبل أن أركب مباشرة لمصافحته . ودعني ببرود في العلن أكثر منه في داخل الخيمة ربما مراعاة لجمهور الإخوان الذي كان ينظر الينا ، سلكنا عند مغادرتنا المخيم طريقًا أفضل إلى حد ما من ذاك الذي تبعناه عند قدومنا ، ولازمنا الطريق الذي تسلكه القبيلة العظيمة في هجرتها الجماعية ، والذي تشهد عليه آثار وطيء الإبل أثناء سيرها . كانت الأرض في مجملها سهلاً حصويًا صلباً بما فيه الكفاية لسير أي سيارة لكن أحزمة الكثبان الرملية الناعمة ستوقف بين الحين والآخر عجلات أي سيارة إلا إذا أمكن إيجاد طريق حولها ، كانت تلك هي الكثبان الرملية المغطاة بشجيرات الغضا والتي كنا نتجه إليها (اللوحة ٥٧) .

خيمنا هناك وأمامنا كل فترة ما بعد الظهر . كان هناك الكثير من الجحور تحت كل شجرة وقد نصبنا اثنتي عشرة مصيدة . كان الرجال تواقين إلى أن يجدوا أرنبًا

برية لاختبار الكلب السلوقي، أما أنا فقد تجولت حاملاً بندقيتي في اتجاه آخر لأعرف بعض الشيء عن عادات الجرذان عن طريق المراقبة الهادئة لها من خلف بعض الكثبان كثيفة الشجيرات، سرعان ما ظهرت من جحورها، وبدأت تعدوا هنا وهناك في الشمس، جعلت أصوافها الرملية الشاحبة من الصعب تمييزها من الرمل حولها إلا إذا تحركت وكانت أقل جلبة مني تجعلها تعدو إلى جحورها، وأصبحت واعيًا /p.274/ لصوت تكة تصدرها كإشارة خطر، كما لو أن إنسانًا يعد الثواني بضرب عصوين ببعضهما. طالما كان الصوت مستمرًا فلن يُظهر جرذ واحد نفسه. صممت أن أصطاد واحدًا أو اثنين إن لم تؤمن لي المصائد شيئًا. أمكن سماع أصوات صيادي الأرانب من بعد، ومن الواضح أنهم وجدوا واحدة، وكانوا يقتربون منها وبدأت أندم على تعجلي بعدم إخبارهم أين سأكون وتوقعت في كل لحظة أن تنطلق رصاصة طائشة باتجاهي. كانت بندقيتي محشوة بطلقات بارود ناعم معدة للإطلاق عن قرب عندما جرت أرنب برية بجانبي، رميتها بطلقتي البندقية حماية للنفس معتقدًا أنني بإنهاء المطاردة قد أوفر على نفسي عناء استخراج الرصاصة من ساقي، لكن الطريدة استمرت كما لو لم تمس، ونشدت السلامة قدر الإمكان في منخفض الكثبان. اقتربت الأصوات المهتاجة أكثر، ثم ظهر الرجال أخيرًا يتقدمهم صالح وهم يقتفون الأثر بحماس كلب البيجل[١]. احتجز الرجال الكلب حتى ظهرت الفريسة ثم عاد واستأنف المطاردة حتى وجدت الأرنب غطاء لها أو اختفت خلف كثيب، وعندها أصبح الكلب ـ الذي لم تكن لديه فكرة عن الرائحة ـ عديم النفع لكن عيني صالح التي لا تخطئ تمكنت من اقتفاء أثر خط سيرها مرة أخرى. انتظرت حتى مرت أفواه البنادق من أمامي بأمان، وعندها جعلت مكان وجودي معلومًا لهم وأخبرتهم أنني رأيت الأرنب التي وجدوها بعد هنيهة ملقاة في المكان الذي رميتها فيه بدون أن يدركوا أنني من فعل ذلك.

---

(١) كلب البيجل هو كلب صيد صغير القوائم ناعم الوبر. (المترجمان)



اللوحة (٥٧)
شجيرات الغضا في الكثبان الرملية ، يبرين ، مع جحور الجرذان الجديدة



اللوحة (٥٨)
الكلب السلوقي مع أرنب برية اصطيدت في . صحراء الجافورة

تسبب صيد الأرنب في كثير من الابتهاج، ولكن لما كانت عينة جيدة فإن مهدي احتجزها لمجموعة العينات قبل أن يقطع حلقها ويفسد جلدها، وقد أشرت ضاحكًا إلى أنني أستطيع أكلها بينما سيحرمون ـ كمسلمين أتقياء ـ من الوليمة . حلوا المعضلة باقتباس آية ـ خياليه أوغير ذلك ـ من القرآن تقول بأن الحيوانات التي تقتل أثناء مطاردة لا تحتاج أن تحلل بمعنى أن تذكى باسم الله الرحمن الرحيم(١) . بدا صالح محبطًا بسبب انتهاء المطاردة المبكر ، وقام ببعض من اقتفاء الأثر عن طريق تتبع آثار الأقدام إلى الخلف ليتبين إن كنت قد قمت برماية جيدة أم لا . هناك كانت القصة جميعها /p.275/ مطبوعة على الرمل ، ولما كانت كلا الطلقتين قد صنعتا دائرة مرت عبر مركزها آثار أقدام الأرنب فإن انطباعه كان مرضيًا جدًا زاد منه كون البندقية وطريقة عملها جديدًا عليه . لم أشر إلى أن القصة المكتوبة على الرمال لا تحتاج أن تكون شاهدًا موثوقًا به، لأنني قد أكون رميت خلف الأرنب وأخطأتها تمامًا، ومع ذلك صنعت نفس الشكل على جانبي طريقها . وجدنا عند عودتنا إلى المخيم عدة جرذان وبقي مهدي مشغولاً بسلخ جلود ما اصطدناه . كان قد تم الانتهاء من واحد منها وعولج جيدًا بصابون الزرنيخ ثم دونت النقاط المهمة والقياسات على رقعة المعلومات التي ربطت على الجرذ عند ذلك وبنفس الجو الجليل الذي ميز كل حركة له ، ابتلع الكلب السلوقي الجرذ كاملاً ، ومن الغريب القول إنه لا الزرنيخ ولا رقعة المعلومات أو السلك لم تؤذه رغم أننا أيقنا بفقدانه . لما كان هناك وفرة من العينات الأخرى فإن فقدان واحد لم يكن أمرًا خطيرًا، وقد قمنا بحفظ اثنين منها في الكحول .

(١) ليست الآية خيالية بل إن الله سبحانه وتعالى يقول في الآية الرابعة من سورة المائدة ﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب﴾ . (المترجمان)

[٢٤ فبراير] رحلنا اليوم باكرًا ، لأن محمد حسن بدأ يستشعر خطرًا ، وكان متلهفًا لمغادرة منطقة يبرين بأسرع ما يمكن ، كان يعتقد أننا يجب أن نصل إلى وادي السهباء قبل حلول الظلام وأن نخيم هناك إذ إن الوادي سيحجبنا بشكل أفضل من السهل . كان صالح يخبرني كيف أن النعامة العربية اعتادت أن تزور صحراء يبرين أيام جده الذي كان آخر من اصطاد واحدة منها من آل مرة . انتهت القصة بشكل غير متوقع إذ إنه انسلح فجأة من على ظهر جمله ، وبدأ يرقص في دائرة واسعة وينخس الأرض بأصبع قدمه الكبير ، كنت مرتبكًا تمامًا ثم توقف الرقص وبدأ يحفر الأرض بيديه مثل كلب الترير[1] عند جحر جرذ بينما بدأ محمد حسن ـ الذي نزل عن ظهر جمله أيضًا ـ يفعل الشيء نفسه بالقرب مني ، لم أفهم كلمة « جربوع » التي غمغم بها لكنني اكتشفت بعيد ذلك أننا كدنا أن نطأ على جحر جربوع كان مأهولاً بساكنه الذي كان قد سد المدخل من الداخل /p.276/ بحصى ورمل ناعم . تختار الجرابيع عمومًا هذه الأرض المستوية والمكونه من الحصى والرمل الناعم لحفر جحورها ، تقوم بعد أن تغلق المدخل الأمامي بحفر حفرة طولها حوالي عشرين ياردة وبينما تصعب رؤية المدخل الأمامي (٥٩ و٦١) فإنه لا يمكن اكتشاف المدخل الخلفي ؛ لأنه يترك غير مفتوح تحت السطح مباشرة . حالما يبدأ ثعلب أو إنسان في الحفر عند المدخل الأمامي ، فإن الجربوع يفتح المخرج الآخر ويهرب ، إما بانطلاقة مبكرة أو بشكل غير ملاحظ تمامًا ممن يبحث عنه ، وفي هذه الحالة فسيترك المنقّب ينهي المهمة وحده وبلا نتيجة . لذلك كان هدف صالح الأول وهو أن يجد النهاية الأخرى للحفرة وكان كلا الرجلين الآن يحفر باتجاه الآخر ، واثقين بأنهما قد حجرا الحيوان الصغير في مكان بينهما ، كانت تعابيرهما هزلية حقًا عندما التقيا في المنتصف ولم يجدا شيئًا ، بدأ كلاهما بعد مشاورة قصيرة في تمرير يديهما على طول جانب الجحر حيث دلت بقعة

(١) كلب الترير هو كلب صغير نشيط وذكي من كلاب الصيد . (المترجمان)

أكثر طراوة على أن الجربوع ـ الذي توقف فجأة عن نيته الأصلية في الفرار ـ قد دفن نفسه في جانب الجحر قاذفًا الرمل خلفه ليخفي تراجعه . من المحتمل أن هذه الخدعة كانت ستنطلي على ثعلب ، والذي كان سيتبع الحفرة المستقيمة إلى النهاية ، ويترك الساكن مدفونًا بشكل جيد خلفه في الركام . ما حدث حقيقة بعد قليل هو أن الجربوع أصبح في أيدي الرجال ، كان أكثر شحوبًا من أي عينة رأيتها من قبل ، وكان لدي آمالٌ عظيمة أن يكون من نوع جديد ، وهو ما ثبت في النهاية ، كان لونه الشاحب عند مقارنته بالجلود الأخرى في مجموعة المتحف البريطاني بنفس الروعة التي ظهر بها في الصحراء ، وكان الشبيه الأقرب له من ناحية اللون هو جربوع من أير في الصحراء الغربية .

كان ارتقاء مستمرًا وطويلاً إلى قمة جبل العاقولة ، وقبل أن نجتاز أعلى المنحدر إلى السهل الحصوي ، ويختفي منظر حوض يبرين عنا إلى الأبد ، جلست على رابية لآخذ مجموعة أخرى من زوايا الانحراف المغناطيسي بالبوصلة ، لتحديد الاتجاه على كل الجبال المرئية ، والتي أصبح غالبية البارز منها مألوفًا لي الآن . كنا قد استأنفنا المسيرة ولم نكن اجتزنا أعلى المنحدر بعد ، عندما وجدنا مصادفة آثار أربعة وعشرين /p.277/ جملاً تقطع طريقنا بزوايا قائمة بمعنى أنها كانت تسير من الشرق إلى الغرب على طول سلسلة الجبال التي يكون منها لدى الراكبين رؤية جيدة لكامل منخفض يبرين . كان صالح على الأرض بسرعة يفحص آثار الأقدام ، ومن تعبيرات وجهه الجادة كان لدي القليل من الشك لمن تكون له تلك الآثار . كانت في الحقيقة آثار فرقة قوية من غزاة العوامر المخيفين ، وخلال ربع ساعة كشف لنا كل تاريخهم . مررنا على آثار مجموعتنا نحن ذاهبة إلى يبرين ، ودلت آثار العوامر التي مرت فوق آثارنا أنهم مروا هناك بعدنا بيوم . كما بين محمد حسن فلوكنا قد تأخرنا يومًا واحدًا لكانوا رأوا مخيمنا الليلي (تجنب بأدب الإشارة إلى مصباحي) تحت التل مباشرة ، ولقاموا بهجوم ليلي في محاولة للحصول على إبلنا . أربعة وعشرون

جملاً قد تعني أي عدد حتى ثمانية وأربعين رجلاً ، إذ يركب كل رجلين على جمل لكنهم يعتقدون أن أربعة وعشرين رجلاً هو العدد الكلي الأكثر احتمالاً في غارة بعيدة عديمة الماء . من المحتمل أن العوامر بعد أن رأوا آثارنا ودرسوها قد تصوروا مجموعة مسلحة قادمة من الأحساء ومكونة من أحد عشر جملاً وربما اثنين وعشرين رجلاً ، وقدروا أن المعركة ستكون على الأرجح ندية ولن تكون مربحة فقرروا العودة بسرعة إلى ديارهم . بحثنا بحذر عن أية علامة تدل على عودتهم ولكن بلا جدوى في الوقت الذي أسرعنا فيه للحاق ببقية مجموعتنا التي كانت الآن متقدمة على بعد عدة أميال فوق الأفق . يمكن تمييز آثار فريق غزو أو قوم كما يسمى من خلال الوطء الأخف لأقدام الإبل ، تغوص أقدام الإبل المحملة بشكل أعمق في الرمل ، كما أن أقدام الذُّلل (جمع ذلول) أو الإبل الأصيلة المستعملة في الأعمال السريعة والمحظورة من هذا النوع تكون أصغر من الأخفاف الضخمة للإبل القبلية المسالمة . عرف صالح أيضًا نواياهم من خلال تشكيلة مسيرتهم بمعنى أنهم كانوا في ثلاثة صفوف أو خطوط متوالية يحوي كل واحد منها على ثمانية حيوانات ، وعرف من خلال آثار الأقدام أنهم كانوا يسيرون بسرعة . اندفع عندها في سيل من التظاهر بالشجاعة ، كانت فكرته الرئيسة أن كل واحدة من بنادقنا الأربع تساوي خمسًا من بنادقهم لكن محمد حسن لم يكن /p.278/ في مزاج يسمح له بسماع ذلك وأسكته ، ثم سرنا في صمت مستغرقين في التفكير حتى لحقنا ببقية القافلة شربنا القهوة في بقعة من شجيرات العرفج ، وأمضينا بقية اليوم على الحصى عديم المعالم .

بدا وكأن الكلب السلوقي قد أصبح متعبًا بعد حوالي خمسة عشر ميلاً من السير تحت شمس لا ترحم ، وأراد مهدي أن يحمله ويركبه معه لكن صالحًا روى قصة طويلة فحواها أن الكلاب السلوقية لا تحتاج الراحة أو الماء أبدًا إذ إن كرامتها تدعوها إلى أن تشرب وترتاح عندما تصل إلى المخيم في المساء فقط ، كنت على وشك أن أقترح أن يُعطى الكلب قليلاً من الماء ليشرب ، لكن هذا الكلام أسكتني أنا ومهدي

فعليًا، تعود الحيوان المسكين أن يهرول أمامنا ثم يجد ظل شجيرة (لم يزد ارتفاع أي شجيرة عن ثمانية عشر بوصة)، وبعد أن ينبش الطبقة العلوية الحارة فإنه يقعي على الرمل البارد تحته وينتظر حتى نكون على بعد نصف ميل أمامه، وعندها يهرول للحاق بنا، لم يبدُ مستمتعًا بذاته بنفس القدر الذي كان مفترضًا أن يكون به، ولكنني لم أقل شيئًا. أجلس نفسه أخيرًا أمامنا، ومد أنفه الطويل ورقبته في الهواء، ونفس عن كربه أمام صالح تمامًا بعواء هو الأعظم إثارة للشفقة، كان هذا أكثر من أن يحتمل بالنسبة لصالح الذي برك جمله وأخذ قربة الماء التي عهد بها إليه وبدأ يصب السائل في قاع قطعة من الجلد وضعت على الأرض راشًا في الوقت نفسه الرمل الظامئ بمائنا الثمين، شرب الكلب كثيراً وطويلاً، ثم التقطه صالح دون أن يقول كلمة واحدة، وعهد برعايته إلى واحد من الرجال الراكبين على إبل الأمتعة. كان الكلب بعد ذلك يركب دائمًا جزءاً من اليوم، وعلى أية حال فأنا متأكد أن صالح لو سئل إن كان الكلب السلوقي يشرب خلال السير فسيجيب « أوه لا، فكرامته تحتم ألاّ يشرب أو يرتاح حتى يصل المخيم في المساء ». مارس الكلب حيلة أخرى للاحتفاظ بالبرودة خلال وقفات النصف ساعة تمثلت مرة ثانية في أن يختار ظل أكثف شجيرة وينبش الطبقة العليا ثم يجثم بعدها بشكل يشبه تمامًا وضع الإنسان ماداً ساقيه الخلفيتين إلى الأمام ويقذف الرمل على جسمه حتى يصبح نصف مدفون في الرمال الباردة /p.279/.

لم تكن هناك طيور ترى، لكننا مررنا بالعديد من الجحور الكبيرة للضب أو السحلية شوكية الذيل، ووجدنا في نهاية الأمر واحداً منها بعيداً عن جحره. نزل كل البدو عن إبلهم في غمضة عين وركضوا خلفه بأقصى ما يستطيعون بينما بقيت السحلية الضخمة تسبقهم لفترة طويلة، وكانت منتصبة الذيل متهادية المشية تشبه كثيراً في شكلها تمساحًا صغيراً. تمكنوا بشق الأنفس من الإمساك به وصعقوه بضربة عصا وقطعوا حلقه مرددين الهتاف التقي « الله أكبر ».

وصلنا وادي السهباء قبل الغروب بساعة، وخيمنا في نفس الموقع الذي خيمنا فيه من قبل تقريبًا . كنت قد استعديت مع اقترابنا للمنطقة لملاحظة الانحدار الأول للأرض باتجاه الوادي لكي أحاول أن أحدد مستجمع الأمطار ، أخيراً كان هناك درجة انحدار لا شك فيها ، وبينما أخرجت دفتر ملاحظاتي ودونت الوقت ، وجدت أن سعود الذي سبق وتقدمنا ، كان يشعل النار وأدركت أنني كنت على نقطة الانحدار لضفاف الوادي نفسه .

كانت أعصاب محمد حسن في غاية التوتر ولم يكن يريدني أن أضيء مصباحي أبدًا ، ولما كان هناك بعض الحيوانات لنسلخها ، ومدة ساعة على الأقل لكتابة بعض اليوميات والملاحظات ، فقد توصلنا إلى مساومة تقضي بأن نتأخر ساعة صباح اليوم التالي لنكمل العمل في ضوء النهار .

[٢٥ فبراير] أمضى الرجال ليلة قلقة جداً وبالكاد ناموا على الإطلاق . كان كل اثنين منهم يقومان بدورية في المنطقة حولنا على فترات حتى ظهر النهار ، لما كنا لم نر أي شيء يدل على عودتهم فقد كان محتملاً أن تقع علينا العصابة الغازية مصادفة ، لحسن الحظ فإن كل العمل الضروري المتعلق بالنجوم قد تم إنجازه خلال رحلة القدوم باتجاه الجنوب وإلا فإن الأمر كان سيصبح مستحيلاً عند عودتنا . نمت شجيرات العرفج في الوادي كثيراً مقارنة بما كانت عليه عندما كنا هنا من قبل ، كما كان الرعي جيداً . حصلت الإبل على ساعتين من الرعي خلال المساء كان أغلبها بعد حلول الظلام مع ساعة إضافية في الصباح ، لم يكن هذا الوقت كافيًا لإشباعها حتى ولو كان العشب وافراً /p.280/ لكنه يطفئ على الأقل وخزات الجوع ، تستطيع الإبل بسهولة ابتلاع أغصان شجر سلم السنط على الرغم من أشواكها البالغة القسوة والضخامة وتسترجع الأشواك فيما بعد للقيام بعملية الاجترار .

استغل الرجال الساعة الإضافية في خبز سريع لأقراص دفنت في الرمل تحت النار[١] . صنعت العجينة من دقيق قمح رديء مخلوط مع الدهن ، وبدت الأقراص عسرة الهضم قليلاً لكننا أكلناها بمتعة وبدون عواقب سيئة . لم تكن شهيتي الآن ومع مرور الوقت من النوع المتخم ، الذي يتطلب مساعدة ستائر متناسقة وموسيقى هادئة . لم يحدث شيء خاطىء حتى الآن باستثناء السحلية شوكية الذيل (الضب) التي شويت واعتبرها الرجال طعامًا ترفًا عظيمًا . أعطاني الرجال أفضل قطع اللحم منها لكن طعمها كان مشابهًا تمامًا لما يتوقع أن يكون عليه طعم سحلية ، ولابد أن أتضور جوعًا قبل أن ألتهم مزيدًا منها . مشيت باتجاه الضفة الجنوبية حيث بدا النهر القديم خاليًا من الرمل المفكك . حذرنا صالح من الصخور المتحركة إذ إننا قادمون إلى المنطقة التي يتوقع أن تكون فيها .

أعيدت الحياة لمسيرتنا المتعبة فوق السهل الحصوي بأفضل مطاردة للأرانب بواسطة الكلاب ، كان قدري أن أراها . كانت كلها عبارة عن أرنب برية في مواجهة كلب سلوقي فرغم أن الرجال كانوا يضربون إبلهم باستثارة ، فإنهم كانوا بعيدًا في الخلف وبلا أمل في اللحاق وكان لابد لهم أن يكتفوا بالمنظر الرائع جدًا للمطاردة . بدأت الأرنب الأولى بالقرب منا ، وعندما أدار الجميع ظهورهم لها بحثًا عن الكلب السلوقي جثت بعد عدو لمسافة مائتي يارده ، ولم يكن لدي أدنى فكرة عن أين كانت ، تمسك البعض بأنها دخلت جحرًا بينما أصر آخرون على أنها اختفت خلف الأفق . في الوقت الذي انتشرنا فيه للبحث عنها ، قفزت قريبًا من الكلب وسبقته بمسافة خمسمائة ياردة . أمكن وسط الجلد المجهد على أجناب الإبل سماع كل واحد يتهم كل واحد آخر بأنه كان يعطي الكلب طعامًا أكثر من اللازم ليأكل . كان

(١) يسمى هذا بخبز أو قرص الملة . (المترجمان)

هناك هتافات متوحشة عندما تمكن الكلب من تقليص المسافة تدريجيًا بينهما وفي النهاية انقض عليها /p.281/ وهنا بدأ نوع من المراوغة بالغ المهارة كسبت فيه الأرنب البرية كل مرة . كان هناك أجزاء حصوية جرداء وبعض بقع يتفرق فوقها شجيرات عرفج بارتفاع حوالي ثماني عشر بوصة ، صحيح أنه ليس غطاءً نباتيًا كافيًا لكن الأرنب كانت تعلم أن ذلك لمصلحتها أيًا كان . كانت الأرنب قد أجبرت خلال الاندفاع الأول إلى الخروج إلى الفضاء المكشوف لكنها الآن عادت مناورة عبر سلسلة من الانعطافات السريعة، والتي كان الكلب عند كل واحدة منها يندفع ياردات عديدة إلى الأمام قبل أن يتمكن من التوقف . اقتربت الأرنب من هدفها تدريجيًا، ووصلت الشجيرات لكن الكلب كان قريبًا منها نسبيًا، ثم إن الشجيرات لم تخفها وضغط عليها لدرجة جعلتها تخطيء تقدير عرض الشجيرة ووجدت نفسها على الأرض المكشوفة في الجانب الآخر فيما الكلب لا يزال خلفها . بدا أنها تسير ببطء متعمد؛ لأنه لحق بها في ثلاث أو أربع قفزات كبيرة، وكان مستعدًا بلا شك للإمساك بها سواء راوغت إلى اليمين أو إلى اليسار، لم تفعل أيًا من ذلك بل توقفت تمامًا ولأنها جثمت متمددة على الأرض فإن ذلك جعل الكلب يقفز فوقها، وبينما اندفع هو إلى الأمام مسببًا سحابة من الغبار فإنها انطلقت عائدة إلى الغطاء النباتي، وعندها تذكرت عرض الشجيرة واستدارت إلى اليمين، وانطلقت حتى منتصف الشريط الرملي . استدار الكلب الذي احتجب في عاصفته الغبارية ولم يتمكن من رؤية شئ، وذهب إلى ما اعتقد أنه الاتجاه الأكثر احتمالاً ، كان الاتجاه خاطئًا ولم يرها مطلقًا مرة ثانية ، كانت أرنبًا برية ذكية واستحقت أن تعيش ، كنا على مسافة نصف ميل تقريبًا في الخلف، وكانت الأرنب بالكاد مرئية ثم ما لبثت أن اختفت عن الأنظار . كان الكلب عندما وصلنا إلى مسرح الحدث شبه مرهق تمامًا، لكن صالح الذي كان غاضبًا جدًا نزل من على شداد جمله ، وتتبع آثار الأرنب حتى

اختفى خلف الأفق، بينما تسكع جمله ماشيًا مع البقية ، لحق بنا في النهاية راكضًا وماشيًا بعد أن فقد الأرنب التي انطلقت نحو منطقة حصوات صلبة تاركة إياه بلا آثار يتبعها. أعطى الكلب السلوقي كمية وافرة من الماء ليشرب، ومن ثم حمل على ظهر جمل ليستريح. أعتقد أن أرنبًا إنجليزية كانت ستهرب من الكلب لكن حجمها الكبير سيجعلها غير مناسبة /p.282/ للبقاء تحت ظروف الصحراء حتى ولو كانت تحمل اللون الصحراوي.

بعد ذلك بساعة كانت أرنب برية تتحرك على البعد أمامنا، وفي الوقت الذي دُفع فيه الكلب السلوقي من على ظهر الجمل، كانت الأرنب تسبقه بمسافة أربعمائة ياردة. كان رائعًا أن نراه يتطاول ويلحقها بخطوات طويلة على السهل الواسع. كانت الأرنب خارج مجال الرؤية تمامًا عندما انقضّ عليها المرة الأولى وأمكننا متابعة المطاردة عبر تحركات الكلب فقط الذي بدا تعبًا من الجهد الأول الذي بذله، وتصورنا أن الأرنب سوف تفوقه في سرعة العدو على الأرض المكشوفة. كان الاثنان أكثر قربًا لنا عند الاستدارة الثانية لهما ورأيناه يستدير ويحاول الإمساك بها، وتمكن من ذلك في المرة الثالثة. نظر حوله بعد أن قتلها ووجد أننا لا نزال أبعد من أن يكون لنا تأثير فيما يحدث، وبالتالي فقد التقط غنيمته وحملها إلى شجيرة مناسبة محاطة بالرمل حيث بدأ يحفر حفرة ويعطيها دفنًا لائقًا. عندما تمكنا أخيرًا من إيصال الإبل المتثاقلة الحركة إلى مسرح الحدث، كانت الأرنب مخفية كلية في الرمل بينما الكلب يلتقط أنفاسه في ركن آخر تمامًا.

لم ننجح في أن نجد صخرة سيارة لكن صالح أحضر لي حصية بيضاء مستديرة، قال عنها: إنها واحدة من تلك التي تمشي فعلاً مع أن تلك الحصيات السيارة قد تكون بأي لون. كنت قد استقريت بجانب النار خلال توقفنا لشرب القهوة عندما بدأ صالح ـ الذي كان يتجول عند الشجيرات ـ في المناداة فجأة،

«صاحب ! صاحب» وبدأ يرقص بشكل دائري في نشوة طرب عالية ، لأنني ظننت أنه قد وجد شيئًا جديدًا ، فقد كنت على وشك الانضمام إليه لكن محمد حسن الذي أوقفني قال بغموض : « لا تذهب ؛ إنه لا شيء » ارتفعت الصرخات ثانية ثم توقفت فجأة . قوبل الصمت المفاجئ بقهقهة ضحك من الرجال ، وقد علمت أنهم ـ بعد أن رأوا الحصاة المرجح أنها تمشي وسمعوا وصف أثرها ، ولأنهم يعلمون عادة صالحًا بعدم الجلوس إن أمكنه المشي ـ قد رتبوا مثيلاً مطابقًا لطريق متعرج إضافة إلى حصاة مناسبة في نهايته . كانت الخدعة /p.283/ جيدة الفكرة ، وقد خدع بها تمامًا حتى اكتشف متأخرًا جدًا آثار أقدامهم وقرأ القصة كاملة على الرمل ـ ومن هنا كانت النهاية المفاجئة لابتهاجة . أجبرت على الانضمام إلى الضحك العام الذي حيا عودته الخجلة إلى الدائرة مع أنه أصبح واضحًا أن تقديري لبراعة صالح الصحراوية بدأت تحدث غيرة خفية في قلوب الجنود ، وكنت تواقًا على ألاّ أقويها أو أعطيها أي تشجيع يؤكدها في أي تصرف معاد نحوه من جانبهم . نحن نعتمد كلية في هذا الوقت على قيادته لنا إلى البئر التالية بلا تأخير ، ولو حدث له شئ فسأشعر بالأسف في الاعتماد على أي واحد من الآخرين في قيادتنا مباشرة إلى الماء . الآن ورحلة الذهاب لاتزال حيةً في ذاكرتي فإنني سأتمكن ، بلا شك كدليل غير خبير من الوصول إلى الهفوف في النهاية ، بينما لو فقدنا صالحًا ونحن في طريقنا إلى يبرين ، فلربما كان من السهل أن نخطئها ونهيم في الصحراء العظيمة خلفها .

قال صالح : إن السهل الحصوي العظيم المسمى الصمان يقع إلى الشمال الغربي منا . قادني هذا لربطها مع السهل الذي نسير عليه فهو يستمر بعيدًا إلى الشمال محاذيًا للدهناء وإلى الشرق منها وقد سجلت المواقع النسبية للصمان والدهناء من قبل المسافرين الذين عبروهن في طريقهم إلى الداخل من الهفوف والكويت ، أوضح أيضًا الحد بين السهباء وسراميد الذي يقع عبر سهل حصوي عديم المعالم ، وليس

هناك شيء على الإطلاق يبين الخط عدا أنه يفترض أنه يسير باتجاه الشرق والغرب، ومن المحتمل أنه يتوازى مع مجرى الوادي . دخلنا كثبان الجافورة وخيمنا عند زيدا الجافورة في جوار لسان الكثبان الخارج المسمى برقا الظمران، والذي يمتد عبر السهل الحصوي ويسير فوق الأفق الغربي لينضم إلى كثبان الدهناء، لقد كان من الصعب التأكد أين يلتقي الحد الجنوبي للدهناء مع الحد الشمالي للرمال ، طبقا لرواية صالح /p.284/ فإن الرمال تسير إلى الغرب من يبرين ثم تتجه شمالاً لتتصل بالدهناء . إنها عبارة عن حزام كثيب رملي واحد مستمر يقاطع منخفض وادي السهباء إلى الغرب من طريقي، وهو مواز لكثبان الجافورة إلى الشرق مني .

[٢٦ فبراير] اندفعنا على السهل الحصوي لكن لم نذهب بعيداً عن طرف الكثبان ، وفي فترة مابعد الظهر ،وبعد أن انحرفنا قليلاً إلى الشرق ، عدنا إلى الكثبان مرة أخرى ، كان الرعي جيداً وكانت الإبل التعبة والجائعة سعيدة بالجمع بين العمل والمتعة ، فكانت ترعى بينما هي تسير ، رغم أن الوقت الذي مضى منذ أن مررنا هنا من قبل لم يؤد إلى تغيير ملحوظ في الحشائش الجافة على السهل الحصوي إلا أن تلك التي على الرمال تحسنت كثيراً، وبعض الشجيرات خاصة العرفج والحلم والعبل أصبحت خضراء ، وعلى أية حال فإن أعداداً كبيرة من الإبل كقطعان القبائل مثلاً ستجد قدراً ضئيلاً من الغذاء .

كان هناك نقص آخر في الماء، وفي الواقع أننا لسنا أفضل حالاً الآن منا في رحلتنا الأخيرة ،ذلك أن خالداً ضرب حبل فم القربة الإضافية التي كانت مربوطة على جمله خطأ خلال مطاردة أرنب برية، واستمرت القربة تنثر الماء وترشه فوق الرمل مثل عربة ماء ، رآها الجميع وسمعها ماعداه وفي الوقت الذي تمكن فيه الرجال من جعله يدرك أنهم يصرخون نحوه وليس نحو الأرنب ، وعندما أدرك ما حدث ، كان قد بقي القليل جداً من الماء .

أثناء صعودنا قمة كثيب رملي ، فوجئ بنا راتل يسمى ظربيان[١] ـ وهو حيوان رمادي وأسود يشبه كثيراً حيوان الغرير في الحجم والمظهر ـ من مسافة قصيرة في تجويف ومضى يتدحرج في مشية خرقاء يتبعه صالح ـ الذي نزل عن ظهر جمله والبندقية في يده ـ في مطاردة ساخنة . قال فيما بعد : إنه كان أكثر اهتياجًا من أن يفكر في أخذ بندقيتي عيار ١٢ ملم ، تمكن من ملاحقته بسهولة كبيرة ، وفي لحظة تفجر للنشاط سدد عن قرب وأطلق النار ، وهو يجري لكنه أخطأه واختفى الحيوان خلال إعادة تعمير البندقية ، وعندما حاول تتبع آثاره غطت العاصفة الرملية ـ التي كانت تحرك قدراً كبيراً من الرمل ـ آثاره تمامًا ولذا لم يستطع التقدم أكثر /p.285/ .

إن طمس آثار الأقدام هو أمر محتمل يجب أن يؤخذ في الحسبان عند السفر في الصحراء ، وسيكون المرء حكيمًا إذا أبقى دليله في مدى الرؤية عندما تكون الرمال متحركة أو أنه قد يفقده تمامًا .

الأمتعة الوحيدة المحصنة ضد التمزق عند النقل على ظهر الجمل هي صناديق حديد الزهر . قدمت حقيبتي من نوع وولسلي مثلاً للمظهر المحزن ، إذ تسببت حركة التأرجح للحبال في قطع قماش القنب وكشفت باطن الحقيبة ، انخلع جانب حقيبة رسائلي ويعود السبب في ذلك إلى حماقة الإنسان أكثر من خطأ الجمل ، كانت موضوعة طوال الوقت في مزودة الشداد حتى قام واحد من رفاقي العرب ـ الذي خشي أن يتسبب الارتجاج في سقوطها في قاع المزودة ـ بربط مقبضها بحبل على جانب الصندوق وقيدها بالشداد ، ولذا فقد كان كل الثقل والصرير على ذلك الجانب حتى تمزقت .

خيمنا في المنطقة المجاورة لجبل ظرابين (اللوحة ٣٦) قرب المكان الذي سبق أن أمسكنا فيه العضل الصغير (*Gerbillus*) . لما كنت تواقًا للحصول على المزيد ، فقد

(١) ظربيان هو حيوان خبيث الرائحة يعرف عند العامة باسم ظرنبول أو ظربّان . (المترجمان)

أقمنا مصائد حول كل المخيم في المساء . تلاشت الريح الجنوبية التي كانت تهب طوال اليوم ، وبعد فترة فاصلة قصيرة أمكن سماع الريح الشمالية تقترب فوق الكثيب قبل وقت من وصولها إلينا ، كانت ريحًا حارة بلغت ٨٣° بعد حلول الظلام وجلبت معها وباءً من البشارات الصغيرة التي شكلت ما يشبه الضباب حول مصباحي وغطتني بكثافة ، بينما أنا أجلس بالقرب منها محاولاً أن أكتب على شعلة خافتة ، لما كان من شبه المستحيل الاستمرار في الكتابة والبشارات في عيني وأنفي وفمي ، فقد تخليت عنها وجمعت عينات من البشارات ووضعتها في مغلفات ، ثبت أن العديد منها ينتمي إلى أنواع جديدة من ساكني الصحراء .

[٢٧ فبراير] استمرت الريح الشمالية ، وكانت تزداد سرعة . كانت مصائدنا الاثنتا عشرة والمطعمة بجوز الهند والتمر خالية جميعًا ، أحدها في الحقيقة اصطاد واحدة من الخنافس السوداء القاتمة التي كانت تسرق التمر بطاقة كبيرة إلى درجة جعلت المصيدة ترتد ، وخلال الليل جاء جهد /p.286/ ، الذي أطبق أحد المصائد الأكبر حجمًا على أصبع قدمه الكبير إلى مهدي وبطريقة غير مبالية يسأله أن يفكه عنه ، قال : إنه لا يفهم كيف تعمل المصيدة ، أقدام البدوي من الصلابة بمكان بحيث لا تتأثر من قرصة مصيدة فأر كاسرة للظهر ، وكان همه الوحيد هو ألاّ تتلف المصيدة أثناء فكها ، أصبح فشل المصائد في صيد أي شيء مزعجًا أكثر باكتشاف أن آثار أقدام حيوان العضل تملأ المكان حول المخيم ، تبعت الآثار بينما كانت الخيمة تفك ووجدت أنها تقود إلى جانب التل الرملي على بعد حوالي مائتي ياردة ، ومن ثم إلى جحر حفر حديثًا . كنت بالكاد قد جلست على ركبتي لأستخرجه بيدي من الجحر عندما وصل صالح وتولى أمر العملية ، ترك بغريزة كلب التريير تحميل الإبل إلى جو صيد الفئران الأكثر مناسبة لطبعه ، استخرج عضلاً صغيراً من على عمق قدم

واحد من نهاية الجحر الذي كان بطول قدمين . متى ما كانت عادات النوع معروفة ، تصبح طريقة إمساكها أكثر بساطة وسرعة من صيدها بالمصائد .

لم نكن قد سرنا أميالاً عديدة على الطريق عندما أحضر خالد ـ الذي كان يتولى شأن مؤخرة القافلة ـ جربوعًا صغيرًا استخرجه من جحره . شوهدت بعد ذلك بقليل ثلاثة من طيور زقزاق نورفولك (*Ædicnemus* ويعني بالعربية «كروان») تطير بين تلال الرمل . خلع خالد قميصه وبعد أن وضعه على طرف عصا جمله ، رفعه بارتفاع ذراع ولوح به في الهواء ، جعلت الخدعة الطيور تسرع نحو شجيرة حيث جثون عندها ، التفسير الوحيد لهذا الأمر يتمثل في أن القميص كان يحمل بعض الشبه لصقر ، لكن لابد لي أن اعترف أنني رأيت القليل من التشابه . طلب الرجال بعد ذلك بندقيتي ، لكنني وجدت أنها لا تنغلق إذ إن مؤخرتها ومفصلاتها كانت جميعًا مليئة بالرمل ، وهذا أمر وارد الحدوث كثيرًا خلال عاصفة رملية ، لكن الوضع تفاقم في هذه الحالة ؛ لأن مهدي لم يتحقق من أن الحديد خال من الزيت تمامًا عند تنظيفه للبندقية ، ولذا فقد لزقت حبيبات الرمل عليها . كان لابد من تفكيك البندقية إلى قطع مفردة وتنظيفها بواسطة الحك بالسكين بينما استمر خالد في التلويح بقميصه عاليًا . نجح أخيرًا /p.287/ في اصطياد طيرين من الثلاثة . أردت أن أصور المشهد لكن الجمل كالعادة استدار يمينًا وشمالاً ، والتصوير من على ظهر جمل هو أسوأ من إطلاق النار ، إذ يمكنك مع البندقية أن تضرب البهيمة بشدة على جانب الرأس بالماسورة . لم تكن الريح التي تعصف في وجوهنا سارة على الإطلاق ، فقد قذفت الرمل في عيوننا ، وعكرت أمزجتنا ، وكانت باستمرار تفتح عباءتي على اتساعها بينما يداي مشغولتان بكتابة الملاحظات ، لكن مع ذلك كان لها ميزة جعلت النهار أكثر لطافة . قررنا أن نقوم بجهد إضافي ونصل إلى بئر زرنوقة قبل أن نخيم .

وصلنا البئر بعد حلول الظلام في نهاية إحدى عشرة ساعة ونصف من السير الجاد مع وقفتين فقط خلال اليوم، مدة كل منها عشرون دقيقة وذلك لشرب القهوة . كانت كل الإبل متعبة ، وتتطلب الحث لكنها جميعًا كانت تجاري بعضها باستثناء واحد، وكان لابد لأحد الرجال أن يبقى في الخلف ليقود المتخلف ببطء . فكان يصل إلى مخيم المساء عادة بعد الآخرين بساعة أو ساعتين . يعطى الماء للإبل عند الوصول. مضى مهدي وسعود لإشعال النار، وأسقيا جمليهما اللذين استهلكا معًا خمسة وعشرين دلواً من دلاء المخيم المصنوعة من القنب مليئة بالماء ، يحمل كل دلو حوالي جالونًا من الماء ، ولذا فيمكننا أن نقدر أن كل حيوان استهلك ما بين تسعة إلى اثني عشر جالوناً من الماء تقريبًا .

[٢٨ فبراير] الجو أكثر برودة مما كان عليه منذ يومين ، سكنت الريح الشمالية خلال الليل لكنها تحولت إلى نسيم رقيق خلال الصباح، هناك القليل من الشك في أن الريح السائدة هي شمالية ويظهر أنها ريح أرضية، لأن السحاب ساكن بينما الرمل يتحرك أمام عصفة الريح . توصلنا إلى صفقة يمكن بموجبها لمحمد حسن أن يدفعنا إلى الأمام فوق المنطقة عديمة الماء كما يشاء، لكن حالما نصل إلى البئر فإن تحركاتنا تقرر من قبلي. نتيجة لذلك فقد أمضينا اليوم في الراحة وسلخ الجلود وكتابة الملاحظات . اليوميات التي لا تدون بشكل يومي تصبح قليلة الفائدة، لأن الأيام تختلط في رحلات كهذه، ويصبح من السهل أن يختلط ترتيب الأحداث /p.288/ . صحونا بعد وقت طويل من شروق الشمس، وكان الحدث الأول هذا اليوم هو حمام ساخن أو شيء قريب من ذلك كمثل أن يتمكن المرء من الاغتسال في مغسلة للأيدي . لم يسمح للإبل بالشرب حتى أدفأت الشمس الجو ، والسبب المحتمل في هذا هو أن الإبل كانت ستشرب كمية كبيرة من الماء ، وقد تصاب بالقشعريرة بسهولة . رفعت

الأشدة عن ظهور الإبل وعولجت القروح بضمادات من التمر بينما كان المرضى يحاولون إزالة كمادات التمر وأكلها. يبدو أن التمر هو العلاج الرئيس لكل المشاكل في الجزيرة العربية الصحراوية، وقد سبق أن رأيناه يستعمل لسد صفيحة بترول قصديرية، وهو الآن يستعمل لعلاج ظهر جمل متقرح.

كانت عيناي مليئتين بالرمل من مسيرة اليوم السابق، بينما عينا مهدي في حال أسوأ، رغم أنني قدمت له نظارتي الواقية معتقداً أنها تساعد. كان الرجال الذين لم يسبق لهم أن رأوا أحدًا يضع تلك النظارات، بالغي التعجب من شكله بها.

أكلنا طائري زقزاق نور فولك بعد أن أزلنا جلودها وبدت طعامًا شهيًا رائعًا جعل الأرز المسلوق أكثر إمتاعًا. قلي طيري في الدهن مع بعض قطع البصل لكن الآخرين فضلوا طيرهم مشويًا في الرماد. كان الرمل مع الظهر يعصف بنفس السوء الذي كان عليه بالأمس، وكانت السحب مرتفعة ذات تشكيلة خفيفة متفرقة كتلك التي تنبئ بقدوم الريح في إنجلترا.

[٢٩ فبراير] كانت خطتنا لهذا اليوم أن نرسل إبل الأمتعة مباشرة إلى بئر الذليقية حيث سنمضي الليلة بينما ستقوم البقية بالتفاف بسيط باتجاه الغرب إذ إنني أردت أن أسير في موازاة المنحدرات الشرقية لجبل خرما زرنوقة، أصررت أيضًا على أن يرافقني كل من خالد وصالح، وهما أفضل خبيرين بالطبيعة. وجد محمد حسن جحر جربوع سريعًا، ولما كنت أريد أن أصور المدخل، فقد وقفوا جميعًا جانبًا حتى تم ذلك، لكن التأخر والاهتزاز الأرضي الذي أحدثه وصول الإبل نبه القارض الصغير، وقبل أن يُكتشف المخرج الخلفي كان قد فتحه وهرب. نتج عن ذلك مطاردة مسلية قام بها كلب وثلاثة رجال، كان الرجال بدون الكلب سيبقون

بعيدًا في الخلف /p.289/ ، ورغم أن الكلب تمكن من اللحاق بالطريدة، إلا أن وثبات الجربوع الشبيهة بتلك التي للكنغارو كانت سريعة للغاية بالنسبة له . جعل الجربوع من المراوغة فنًا جميلاً، وفي الحقيقة إن الكلاب ذات التجربة مع الجرابيع لن تطاردها بل ستتظاهر أنها لا تراها . كان اللهو سريعًا وصاخبًا، إذ إن المطاردة جرت ولعدة مرات بين صفوف الرجال وكل واحد أخذ وجهة مختلفة وحصل فقط على قبضة من الرمل. تخلص الجربوع من كل مطارديه واختفى في الجحر الكبير لسحلية شوكية الذيل (ضب) . جاءت الصورة التي تظهر المدخل الخلفي المخفي بمهارة جيدة وكان في ذلك شيء من العزاء (اللوحة ٥٩ ، ٦١).

كان الرجال تواقين للاستمرار في الرحلة إلى الهفوف إذ إننا قابلنا حطابًا على حماره ، انقض عليه الرجال للحصول على آخر الأخبار من البلدة . أخبرهم عن مغادرة السلطان السريعة إلى الرياض مصطحبًا معه الأمير . كان التغيير غير المتوقع لخطط السلطان سيثير الكثير من التخمين حول السبب الحقيقي حوله ثم إن الأمير لم يذهب إلى نجد منذ أن تولى مهامه في الهفوف منذ حوالي عشر سنوات مضت، لم يكن السبب المعلن ، وهو أنه كان يود السلام على عبدالرحمن ـ والد السلطان المسن ـ مقنعًا ولم يصدقه أحد لكنني لاحظت أن الرجال جميعًا كانوا يرددونه بشكل متواصل عند مناقشة الأمر[1] . من الواضح أن أمورًا مهمة كانت تجرى بينما نحن

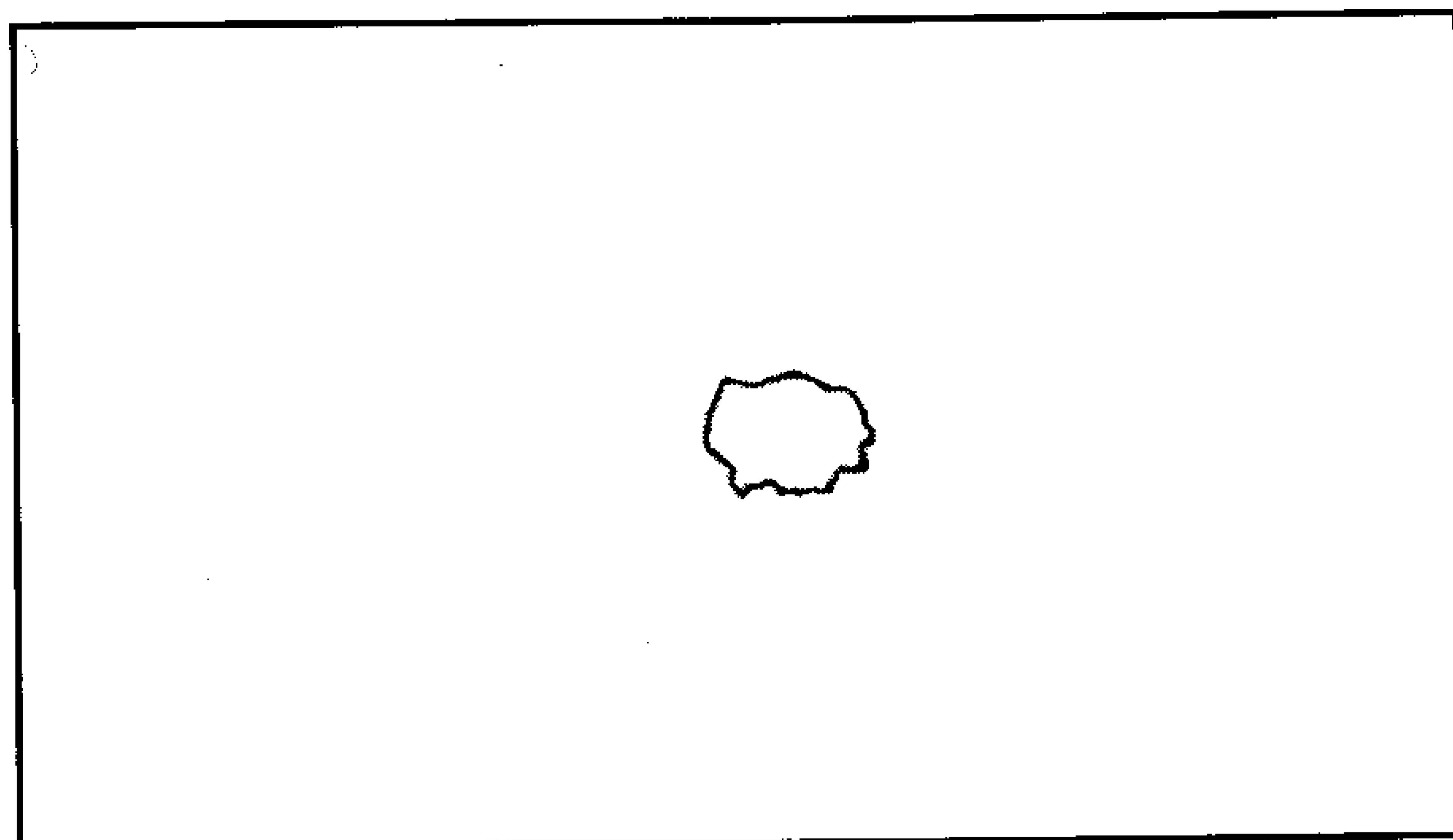
(١) يبدو أن الرحيل المفاجيء للسلطان عبدالعزيز ـ كما يقول المؤلف ـ كان مرتبطًا بفشل مؤتمر الكويت الذي عقد عام ١٣٤٢هـ (١٩٢٣م) وحضرته وفود من نجد والعراق وشرق الأردن للنظر في أمور الحدود وشؤون القبائل ، ويذكر الزركلي أن السلطان كان يراقب سير المفاوضات في الأحساء ثم عاد إلى الرياض أما الريحاني فيعطي تفصيلاً أكثر ، ويذكر أنه تلقى رسالة من السلطان عبدالعزيز من القصيم مؤرخة في ١٤ رمضان من نفس العام يذكر فيها أن قدومه لتلك المنطقة كان استعدادًا للطواريء (ربما نتيجة لفشل المؤتمر) وأنه عين عبدالعزيز بن مساعد بن جلوي أميرًا في حائل على أن تتبعه المنطقة الشمالية بما فيها القصيم والجوف وخيبر . انظر: الزركلي ، شبه الجزيرة ، جـ١ ، ص ٣٢٦ ؛ أمين الريحاني ، تاريخ نجد الحديث ، ص ٣٢٣ . (المترجمان)



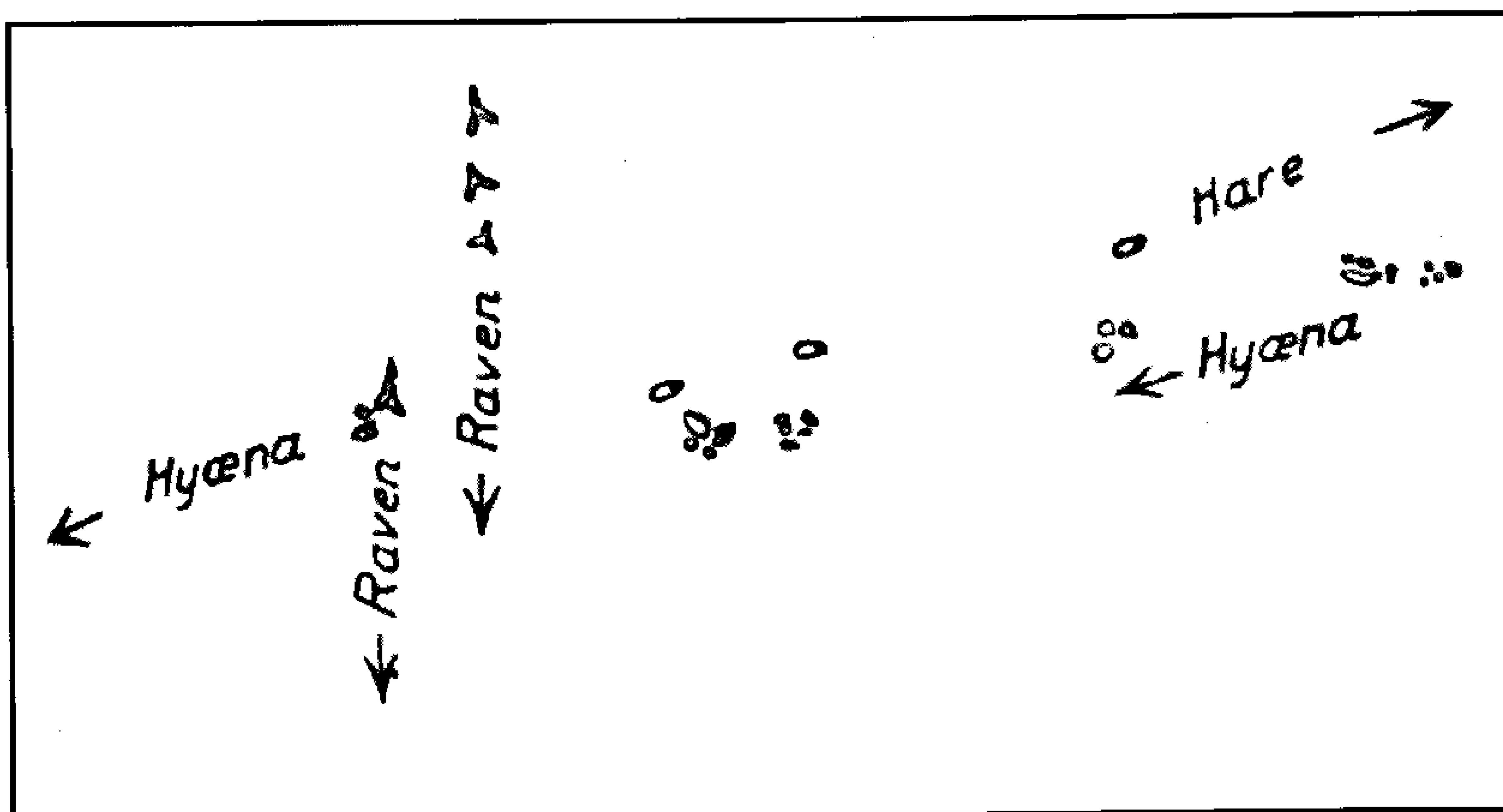
اللوحة (٥٩)
جحر مخفي لجربوع (المفتاح الصفحة التالية)



اللوحة (٦٠)
آثار ضبع وأرنب برية وغراب ، يبرين (المفتاح على الصفحة التالية)



اللوحة (٦١)
المفتاح للجحر المخفى لجربوع (النصف الأسفل من الصورة)



اللوحة (٦٢)
المفتاح لآثار ضبع وغراب وأرنب برية

بعيدون، وكان طبيعيًا أن يتوق الرجال لسماع المزيد عنها . اتفق الجميع على ألاّ تواجد للطيور في هذه الجبال بالذات، وقد تركتهم جالسين في الظل مع الإبل، وانطلقت في جولة تفتيش لأعلى المنحدرات الصخرية عند الركن الشمالي الشرقي (اللوحة ٣٤) . اصطدت بعد قليل زوجًا من بومة الصحراء النسارية، وهي إضافة ثمينة جدًا لمجموعتي التي تشمل الآن سلسلة عملية من أربعة جلود.

كانت التجربة الأكثر إثارة هذا اليوم في انتظاري على أي حال . كنت للتو أستدير حول صخرة شديدة الانحدار عندما طار صقر كبير /p.290/ مارًا فوق رأسي واختفى خلف حافة القمة . كان لدي من الوقت ما يكفي لطلقة واحدة، وشعرت أنني أصبت الطير يقينًا، لكن الأمر كله انتهى في لحظة ، وبحثت في الأرض التي قد يكون سقط فيها على الجانب الآخر من الجبل دون أن أجد له أثرًا . اكتشفت وأنا أواصل البحث عشًا على واجهة منحدر صخري شاهق وأمكنني سماع الصقور الصغيرة فيه /p.291/ . كانت هنا مشكلة ، من الجائز أن والدهم قتل ولم أقو على ترك الصغار لاحتمال الموت جوعًا . كان من المستحيل صعود واجهة المنحدر الصخري لكن الجانب الآخر من الجبل لم يكن شديد الانحدار ويمكن تسلقه . نظرت من القمة أسفل نحو العش ورأيت أنه يمكن الوصول إليه عبر نتوء ضيق بني العش في طرفه البعيد، وكان فيه ثلاثة صغار بيض ذوو زغب . كان هناك بالكاد سعة كافية لي لأزحف على بطني على طريقة يرقانة الفراشة ، وهكذا تم أخذ الصغار لكن العودة بنفس الطريقة كانت صعبة . بدا أن الأقدام غير قادرة على أن تقود نفسها بشكل مستقيم إلى الخلف ، وفضلت أن تتدلى فوق الحافة حيث إن سقوطًا لمسافة مائة قدم على الصخور في الأسفل عرض احتمالاً غير مرغوب . الرجال الذين كانوا أبعد من أن يسمعوني لن يقدموا ـ احتمالاً ـ الكثير من المساعدة لكن كان بإمكانهم أن يوجهوا أقدامي عندما أكون قد تراجعت إلى مسافة في متناولهم . سقط اثنان من

الطيور الصغيرة خلال نضالي للعودة وقتلا في الحال، وأمكن فقط الإمساك بالناجي في الوقت المناسب تماماً ، كان لابد من اجتياز مسافة العشر ياردات نصف بوصة في المرة الواحدة ، وقد تنفست الصعداء عندما وقفت مرة أخرى على الأرض الصلبة لقمة الجبل . بدا الرجال خجلي الوجوه جداً عندما أريتهم غنيمتي، وسألتهم إن كانوا لا يزالون يعتقدون ألاّ طيور توجد في جبل خرما زرنوقة . قمنا بدورة إلى واجهة المنحدر الصخري لأنني أردت تصوير العش، ذهل الرجال عندما أصبحوا تحت المنحدر وتعجبوا كيف وصلت إلى العش ، لايزالون يعتقدون انني تسلقت الواجهة العمودية الحادة للجحر الرملي لأنني لم أخبرهم أن هناك طريقًا أسهل كثيراً على الجانب الآخر . انضم الصقر الصغير إلى القافلة وركب في دلو قديم من قماش القنب على جمل مهدي، ونما متغذيًا على الطيور والحيوانات حديثة القتل بعد سلخها. وصلنا الذليقية في وقت مناسب وأمضيت أنا ومهدي ثلاث ساعات في السلخ.

[١ مارس] انطلق محمد حسن وحده إلى الهفوف باكرًا بحجة أنه أراد أن يرى إن كانت كل الترتيبات قد تمت من أجل راحتي عند دخولنا البلدة /p.292/ لكنني كنت أعلم أنه عاجز عن كبح فضوله، فقد سمع أن فهد بن جلوي قد عهد إليه أن يكون نائب الأمير خلال غياب والده.

نصب صالح بعض المصائد في الليلة الماضية واصطاد ديبوديلوس، وهو واحد من أصغر قوارض الصحراء بل أصغر حجمًا من فأر المنزل وذو لون صحراوي شاحب، وقد وقع في طعم من التمر.

توجهت إبل الأمتعة مباشرة إلى البلدة، وقدت صالح وسعود إلى جبل الأربع، حيث أردت أخذ زوايا الانحراف المغناطيسي، لتحديد الاتجاه إلى الجبال حول الواحة الممتدة الآن في منظر بانورامي إلى الشمال منا ، يمكن الحصول من تلك

النقطة على فكرة جيدة للحد الجنوبي لنخيل التمر ، ولعدد من البحيرات الكبيرة لمياه الصرف الواقعة خلفها . كان هناك عش لنسر مصري على المنحدرات الصخرية العالية ، وكانت العلامات الأولى لعودة الطيور المهاجرة في الربيع واضحة ، مر بنا طائرا هدهد متجهين نحو الشمال، ويطيران بسرعة على ارتفاع منخفض فوق الرمال، يبين اتجاههما أنهما قد مرا عبر صحراء الجنوب العظيمة . تشير كل الدلائل على أن أغلب الهجرة تتم قرب الأرض وليس على ارتفاعات عالية كما كان يفترض سابقًا . طيور الدخلة التي تهاجر إلى مناطق بعيدة مثل بقية الطيور، تقطع بالتأكيد رحلتها الطويلة عبر سلسلة من الرحلات القصيرة ـ من شجيرة إلى أخرى تقريبًا ـ إلا عندما تجبر على عبور البحار .

طارد صالح خلسة على الطريق قطاتين منقطتين واصطادهما . سيبدو ألاّ شيء بالغ الروعة في هذا لكنهما كانتا الطرائد الأولى والوحيدة التي حصلنا عليها خلال رحلة نظمت بشكل خصوصي كحملة صيد، ومن هذه الزاوية فهما يستحقان الإشارة .

سأل صالح إن كان بإمكانه أن يأتي ويراني في الهفوف عندما لا يكون البقية متواجدين، ومن الواضح أنه كان يخشى أن تؤخذ منه الهدية التي أعطيته إياها، وأعتقد أنه سيكون محظوظًا لو تمكن من الاحتفاظ بها كاملة . يتصرف هؤلاء الناس عند استلام الهدايا كنسور تتغذى على جثة حيوان . يجلس الضعاف منهم ويراقبون حتى يشبع الأقوياء . قد يكون مماثلاً تقريبًا أن يعطي المرء كل الهدايا إلى الرجل القوي ويخبره /p.293/ أن يقسم بين الآخرين مالا يريده لنفسه . بدا صالح على أية حال يتبنى وجهة النظر القائلة أنه لو حصل هو بنفسه أولاً على الجزء الخاص به ، أو هديته فلربما تمكن من الإبقاء على بعضها .

لم يكن وصولي عند باب بيت الضيافة مؤثراً . المرحلة الثانية من بروك الجمل هو حركة باتجاه الخلف ، بمعنى أن ثني السيقان الخلفية يقذفك بسرعة باتجاه الخلف بنفس العنف الذي تميل الحركة الأولى إلى قذف الراكب غير المحترس فوق مقدمة الشداد . لم يكن حزام الشداد مربوطًا بشكل جيد، ومع وصولنا الأرض انزلق كل الشداد فوق ذيل الجمل وأنا مدفون تحته بين الحطام من الملابس والبنادق وآلات التصوير والعديد من الأشياء الأخرى الضخمة . وقفت الجموع في الشارع مشدوهة وصرخت « الله » ومن ثم هرع الجميع لاستخراجي إذ كنت غير قادر تمامًا على الحركة، ومع ذلك كان هناك ارتياح عام عندما خرجت زاحفًا /p.294/ .

الفصل السابع عشر:

الهفوف مرة أخرى

تأثرت عندما وجدت حمامًا مصممًا بشكل صحيح قد بني على الشرفة أثناء غيابي، وذلك من أجل استخدامي الخاص ومن المرجح أن السلطات استشارت عبدالله أفندي الذي سبق له أن شاهد حمامات في بغداد. زرت فهد نائب الأمير لأقدم احترامي، ومن أجل أن أعرف أيضًا أين نقف فيما يتعلق بالخطط المستقبلية. كان في حوالي الخامسة والعشرين من العمر ونسخة شابة من أبيه بنفس البنية القصيرة الثخينة والتصرف الصارم.

بعد حديثي عن الترتيبات لرحلتي إلى يبرين، وكيف كانت ممتازة، وبعد أن وصفت الحوادث الرئيسة على الطريق ومعالم الواحة نفسها، والتي أقر أنه لم يذهب إليها مطلقًا، طرقت موضوع ذهابي إلى الرياض. شرح لي أن السلطان لم يذهب إلى الرياض لكنه أجبر على التوجه إلى القصيم - وهي منطقة بعيدة إلى الشمال - حيث كان بعض رعاياه المشاغبين يثيرون المشاكل[1]. كان رحيله بشكل غير متوقع أبدًا لدرجة ألا شيء قيل عني وبالتالي فلا شئ يمكن عمله لحين عودته خلال شهرين، إذ يستغرق إرسال رسالة له واستلام إجابته عليها مثل ذلك الوقت. سألته

(١) انظر هامش الصفحة ٣٨٤. (المترجمان)

عما يظن أنه يجب عليّ أن أفعل ، وكان رأيه أن السلطان سيتوقع وجودي هناك عندما يعود ، ولي أن أبقى في الهفوف على الرحب والسعة . شرحت له أن وقتي قد انقضى ومن المستحيل أن أبقى مدة شهرين في الانتظار ، فهو أمر خارج النقاش ، لكنني أبلغته بأنني سأفكر بالأمر ، وأعلمه بقراري خلال يوم أونحوه . أكد على دعوته الأولى بقوله : أنت على الرحب والسعة في أن تبقى سنتين ، ولكن إذا كان لابد لك أن تغادر فلربما يدعوك السلطان ثانية لزيارة الرياض عندما لا يكون مشغولاً كما هو الآن /p.295/ .

بدا محمد حسن قلقًا للغاية من الأخبار ، وكان على غير العادة صامتًا ، ومن الواضح أنه اعتقد أن شيئًا خطيرًا قد حدث . كان صالح قلقًا أيضًا ولكن لسبب آخر ، ذلك أن الأمير وعده أن يعيره جملاً يعيده إلى قبيلته في جودة ، ويعتقد أن هناك فرصة ضئيلة في الحصول عليه من الابن فهد .

كان السلطان قد ترك كل زوجاته في الهفوف لكن أبناءه صحبوه ، وبالطبع رجال أسرة ابن رشيد أيضًا . كنت جاهلاً بما جرى تمامًا ولم أستطع التفكير في أي تفسير للرحيل المفاجئ إلا بعد بعض الوقت لاحقًا ، فعند وصولي للساحل سمعت التقارير الكاذبة عن وفاته والتي كان مصدرها فلسطين ، ونقلتها الصحافة الإنجليزية . لما كان رحيله السريع متزامنًا مع الوقت الذي سيتلقى فيه الأخبار عن وفاته ، فإن من المحتمل جدًا أنه كان ملزمًا بالذهاب وإظهار نفسه شخصيًا ليحبط مسبقًا الاضطرابات المحتمل إندلاعها لدى عنصر غير مستقر ، مثلما يحدث في المجتمعات العربية عند موت سلطان (حاكم)(١) .

---

(١) انظر هامش الصفحة ٣٨٤ . (المترجمان)

[٢ مارس] كان الأمر مثل أن يكون الإنسان في بيته ثانية، بعد إجهاد العمل الدائم وإرهاق السفر. كان الحليب الساخن والبيض المسلوق مع الخبز التي وصلت لوجبة الإفطار ترفًا.

جاء الرجال آحادًا إلى غرفتي، وشكرتهم فردًا فردًا على مساهمتهم في الرحلة، وكافأتهم تبعًا لجهودهم. تلقى محمد حسن الجائزة الكبرى بوصفه قائدًا، فقد عمل بشكل استثنائي بوصفه شابًا، وقام بكل جهد ممكن للمساعدة في جمع العينات. قام سعود ـ الجندي الآخر والذي عمل طباخًا ـ بدوره بشكل جيد، وحل ثانيًا، أما صالح وخالد والرجلان الآخران فقد حلوا على حسب ترتيب أسمائهم. أعطي صالح بشكل إضافي واحدة من سكاكين الصيد ذات مقابض قرن الوعل، وقد كان أكثر من سعيد بها لكنها تسببت في مأساة، فقد استثار بها المسخ ذا العيون الخضراء في صدري الجنديين(١)، إذ عرضها بغباء أمام عيونهم عندما نزل إلى الطابق الأرضي بدل أن يخفيها ويلزم الصمت /p.296/. لما كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أتوقع أن أرى فيها صالحًا فقد جعلته يخبرني المزيد عن صحراء الرمال، فعدد في البداية الحيوانات التي سبق له أن رآها حول مقينمة، ووصف المكان على أنه في الأغلب عبارة عن كثبان رملية مع أشرطة من السهل الحصوي مثل الجافورة التي سبق أن مررنا بها. هناك الجرابيع لكن ليس الكثير من العضل الكبير (*Meriones*)، وقط متوحش أكبر من القطط الأليفة: بينما المها والغزال والذئب نادرة، فإن الثعالب والأرانب البرية وافرة، والعضل الصغير (*Gerbillus*) وافر مثله مثل القنفذ. أما ما يتعلق بالطيور فقد أشار إلى القطاة المنقطه (تشاهد أحيانًا فقط) والقليل من النسور والغربان والحبارى. النباتات هي زهر وعنذب وسباط وجمين

(١) يقصد المؤلف أن سكين الصيد استثارت الحسد لدى الجنديين. (المترجمان)

وحاذ وعلقى وحلب وبركان، ولأنني لا أملك عينات منها فقد كان من المستحيل عليّ أن أعرفها باستثناء واحدة أو اثنتين أشير إليهما في الملحق رقم ٦ .

تحدث أيضًا عن مجموعة آبار بئر عزيز . لما كان أكد معلوماته عن طريق الحديث مرتين أو أكثر، وفي أيام مختلفة غالبًا وكلا الروايتين متفقتان معًا ، فيمكن للمرء أن يأخذ المعلومات على أنها صحيحة تقريبًا . تقع بئر عزيز على بعد خمسة أو ستة أيام من يبرين بين كثبان رملية ، وهناك أيضًا مجموعة من ثلاثة أو أربعة آبار عميقة جدًا لكن الماء عذب ، وتقع بئر أخرى هي هدبة[١] على مسافة رحلة نصف يوم إلى الجنوب من بئر عزيز . أما علوا فهي بئر جعلها على مسافة ثلاث ساعات إلى الغرب من بئر عزيز ،وتقع بالقرب منها بئر عطسا[٢] . ليست أيٌّ من هاتين البئرين عميقة والماء متوسط العذوبة ، سبق أن عينت بئر عزيز على الخريطة، ولكن قريبًا جدًا من يبرين ، الآبار الأخرى هي أسماء حديثة لكنني اعتبرتها موثقة بما فيه الكفاية ،لكي تضاف مع علامة استفهام بعدها لتدل على أن مواقعها لم يتم التأكد منها بعد .

الآن تأتي الحكاية المحزنة التي تلت توزيع « الغنيمة » كما سماها محمد حسن وهي بالتأكيد أجمل من كلمة « بخشيش» . كان المؤشر الأول هو وصول سعود وهو يبدو كشخص ذي شأن، قادم في مهمة كان يعتقد أنه سيستمتع بها، لكنه /p.297/ يتمنى في اللحظة نفسها لو لم يبدأها ، بدأ قائلاً « الشيخ فهد يسلم عليك» وأجبته ، «إجلس وأهلاً وسهلاً» ، وتوقفت عن ترتيب أمتعتي . أخرج عندها سكين صيد

(١) في مخالفة للمؤلف ، يذكر الشيخ حمد الجاسر أن بئر هدبة تقع على بعد ٢٥ إلى ٣٠ ميلاً شمال شرق يبرين . انظر : حمد الجاسر ، معجم المنطقة الشرقية ، جـ١ ، ص ٣٦٠ . (المترجمان)

(٢) لم ترد أسماء بئري الماء هاتين في المعاجم الجغرافية إلا أن المؤلف حدد موقعيهما على خريطة رحلته كالتالي : تقع بئر علوا إلى الجنوب الغربي من بئر عزيز أما بئر عطسا فتقع جنوب بئر علوا وغرب بئر هدبة وكلا البئرين تقعان إلى الجنوب الشرقي من يبرين . (المترجمان)

ذات تصميم مألوف وقال : « يقول فهد إن أشياء كهذه يجب ألاّ تعطى للبدو ، وقد وضع صالح في السجن وأخذ السكين منه ويعيدها إليك » أنا متأكد أن الجملة التالية كانت إضافة منه إذ قال : « أشياء كهذه يجب أن تعطى للجنود فقط». تحدث بغيظ شديد كتم بفظاظة عندما قال: «أشياء كهذه يجب ألاّ تعطى للبدو»، ونطق كلمة «البدو» بازدراء شديد لدرجة شعرت معها أن المسكين صالحًا كان بالتأكيد ضحية غيرة هذين الجنديين ، كانت إجابتي له: « حسنًا » ليس إلا ، وعدت إلى ترتيب أمتعتي كما لو أن شيئًا لم يحدث ، جلس هناك للحظة ترك بعدها السكين وخرج .

توقفت عن ترتيب الأمتعة عندما غادر ، لا يمكن أن تكون هدية غير مناسبة لبدوي، ذلك أن العديد منهم يحمل خنجراً وبندقية ، ولذلك فلا يمكن أن يكون هناك اعتراض بدعوى تسليح رجال القبائل . جاءتني الأخبار التالية عن الحادثة من مهدي الذي يحمل معه آخر الأقاويل من موقد القهوة ، كان فيما مضى مستعداً لمضايقة صالح لكنه الآن ساخط لسبب الظلم الذي تعرض له ، كانت روايته أن محمد حسن قد أخبر فهداً أن سلوك صالح أثناء الرحلة كان سيئًا وأنه طلب ثيابًا ، وأجبرني أن أعطيه مالاً وكذلك السكين ، أمر فهد بجلده خمسين جلدة وأن يوضع في السجن وأخذ منه المال والسكين ، أرادني مهدي أن أذهب إلى فهد وأتدخل لإطلاق سراحه؛ لأنني أعلم أن ما سأقوله سوف يردد عند موقد القهوة ويصل إلى الجهات العليا ، لذا كان لزامًا عليّ أن أعطي جوابًا مناسبًا لذلك الغرض وقلت : «لدى الشيخ فهد معرفة أكثر بحكم البدو مني أو حتى منك ولا أعزم أن أحاول تعليمه مالا أفهمه» .

وبينما كنت أقول هذا ـ كان قلبي يعتصره الألم للبائس المسكين، فقد كانت فرحته قصيرة العمر . ربما يكون هناك بالطبع /p.298/ جانب آخر للمسألة لكنني لم أرغب في أن أسأل أية أسئلة أخرى، وأدنى تدخل مني كان سيجعل الأمر فقط أسوأ

بالنسبة له . الحال الآن هو أنه في مقابل قيادة القافلة بلا خطأ عبر ثلاثمائة ميل من المسيرة عديمة الماء في رحلتي الذهاب والعودة والصيد بلا تعب لفائدتي ، فقد كوفئ بالجلد والسجن . من المحتمل أن فهداً كشاب وغير مجرب في خدع الغيرة ، قد قادته رواية محمد إلى إصدار حكم عاجل، بينما كان والده سيستمع إلى رواية الطرفين ويزن الأدلة قبل أن يصل إلى نتيجة قريبة جداً من الحقيقة . كنت قد أعطيت كلاً من محمد حسن وسعود سكينًا لكل منهما منذ شهر والآن علمت أنهما ثمنتا فوق كل شيء آخر وأعلمني مهدي أن الأمير أعجب بالسكينتين الفولاذيتين أيما إعجاب لدرجة أنهما قدماهما له ، وقد قبلهما ، ويعتزم أن يستبدل مقابض ذهبية بتلك الموجودة عليها من قرون الوعل ويقدمهما هدايا لأبنائه، ولذلك فقد كان مريراً عليهما أن يريا صالحًا يمتلك كنزاً حرما منه نفسيهما ، إن حسبا أنني سآخذ تلميحة سعود وأعطيهما السكين فقد ارتكبا خطأ كبيراً . أخبرت مهدي بأنني سأقدم السكين له فقال بواقعية ساخرة إنه يود جداً الحصول عليها لكنه يفضل أن يتم ذلك بعد خروجنا من الهفوف خشية أن يرغب أحد آخر في الحصول عليها .

[٣مارس] لا وجود للرياح لكن هناك سحب ثقيلة تنذر بالمطر خاصة في الغرب. ظهر مهاجر آخر ذي ريش قادم من أفريقيا هو طائر السمنة المعتاد ، وكان يستريح على جدار قرب المنزل . سبق ولسنين عديدة أن سجلت تواريخ وصول هذه الطيور إلى العراق ، وتظهر بعض الملاحظات عن هجرات الربيع لهذا النوع والأنواع الأخرى في الملحق رقم ٢ .

كنت لا أزال متألمًا جداً لما حدث لصالح، وقد تغير موقفي من محمد حسن بشكل مقصود . كنت قد أرسلت رسالة إلى فهد تقول إنني /p.299/ لا أستطيع انتظار عودة السلطان، وإنني مشغول بالترتيبات النهائية للمغادرة إلى البحرين، ولأن النقود قد نفذت فقد كان ضروريًا أن أسأل القصيبي أن يصرف شيكًا على بنك

البحرين وهو مافعل ، لم يُستشر محمد حسن في الأمر وهو الذي أراد أن يكون له تأثير أبوي في هذا الإجراء لكنه علم على أية حال بأنني سأسحب مبلغ مائة روبية وهو ما جعله يتنبأ بأنه لن يكون له حصة كبيرة عندما يقسم المبلغ . كانت نيتي ألاّ أقدم أية هدايا عند مغادرتي كاحتجاج صامت على معاملة صالح وبدون كثير من الكلمات لئلا يقع المزيد من الانتقام على أكتافه سيئة الحظ . كان يناسبني أكثر أن أرتب أمر الهدايا مع بيت القصيبي في البحرين عندما يمكن تقييم جدارة كل متلقٍ بشكل أفضل وبدون إشراف هذا الأخير نفسه .

زارني محمد أفندي في فترة ما بعد الظهر ، وكان لدي فكرة بأنه قدم ليعلن استحالة الحصول على إبل في الوقت الحاضر لكن تخوفي لم يكن له أساس ، وقد جاء من أجل الوداع فحسب ، سأل أسئلة عديدة حول ظروف الحياة والزراعة في يبرين بعين ولا شك على الدخل لكنني أخشى أن إجاباتي قد فعلت القليل لتدعم أية آمال قد تكون لديه في ذلك الاتجاه . /p.300/

كان محمد حسن منزعجًا جدًا لكونه استثني من تقديم المشورة لي ، وقد بدأ يدرك أنه أخطأ التقدير من عدة نواح عندما قدم دليلاً كاذبًا ضد صالح ، حاول مرات عديدة أن يقحم اسم صالح في المحادثة ، ويقدم روايته لما حدث ، لكنني رفضت أن ألمح للموضوع ، كان منزعجًا أيضًا من ناحية الهدية التي كنت سأقدمها للشيخ راشد مقابل الكلب السلوقي ، ومن الواضح أنه حدد في ذهنه الجزء الذي كان سيحصل عليه من الصفقة ، وأدرك الآن أن الأمر سيفصل فيه في البحرين حيث لن تكون له يد في التسوية ، كان تفكيره واضحًا مثل كتاب مفتوح ، وكان ما يترتب عليه مسليًا جدًا . جاء ليقول إن مالك الكلب السلوقي سأله عن التعويض ؛ فماذا عليه أن يقول؟ أنا أعلم أن المالك على بعد مائة وخمسين ميلاً ، وأنه لم يقل شيئًا كهذا ، ولذا فقد أجبته بأن المالك يستطيع استعادة الكلب ، فهو جاهز في المنزل ، وأنا لم أرده

وهو من اقترح إعطائي الكلب، وأنه إذا لم تعجبه شروطي فلا يزال بإمكانه استعادته. أسرع ليشرح لي بأنه هو - أي حسن - يفهم ذلك لكن المالك « بدوي »، بلا فهم ولا قلب.

اشتريت عيبتين من تمور الخلاص والرزيز، تزن كل واحدة منها ثلاثين رطلاً، ودفعت خمس روبيات للاثنتين، وقد فهمت أن سعر السوق سيكون أقل من ذلك بروبية واحدة.

[٤ مارس] رياح غربية وبضع تساقطات للمطر ليست مرغوبة الآن، لأن الطريق بين البساتين قد يصبح زلقًا، ولابد للإبل من الانتظار يومًا أو يومين. كانت خطتنا أن نصل الجشة ونمضي الليلة هناك، ثم نقطع الطريق من الجشة إلى صحراء العقير في اليوم التالي. كان وصول الحمير لتحمل الصناديق العلامة الأولى على الرحيل المقترب، بدت ساحة المنزل مليئة بالحمير مع قوادها الذين كان صراخهم يجيب عليه /p.301/ نهيق الحيوانات المحملة والمنتفخة بصناديقي النفيسة والتي يتبع أحدها الآخر، وهي تحاول التخلخل عبر المداخل الضيقة. شعرت بالارتياح عندما تم الانتهاء من آخر واحد منها، واقتيد خارجًا إلى الشارع حيث مالت معظم الأحمال وبدت على وشك السقوط لكن التصادمات كانت لا تسمع عندما تستدير الحيوانات عند الزاوية.

كان مسليًا أن يرى المرء الخدع التي استخدمتها مجموعة العاملين معي كلما ازداد الوقت ضيقًا. تم ذلك كله بطريقة لطيفة جداً لكن شديدة الوضوح - تذكيرات رقيقة فقط بأن « الغنيمة » لازالت في يدي. فكرت في صالح وجعلت قلبي قاسيًا وتمسكت بنيتي الأصلية في أن أرسل الغنيمة من البحرين مؤمنًا أن الرعب لن يسبب لهم أي أذى، كان أدنى عذر كافيًا لأن يجعل الواحد منهم أو الآخر يصعد السلالم

ليقدم أي خدمة تافهة . قدم المسئول عن القهوة قهوة إضافية ليعلن أن الإبل قد وصلت، وأن عليّ بعد ذلك أن أودع الشيخ « وعندها ترحل»، قال هذا وهو ينظر إليّ بإمعان في الوقت نفسه.

كان الكلب السلوقي قد تقدم مع الحمير مربوطًا بحبل ، وكمثل بدوي حقيقي كان يشمئز من المساحات الضيقة لمنزل ويهرب في أي وقت كان الباب يترك فيه مفتوحـًا، وقد أُنقذ أيضًا من المواقف الخطيرة على رؤوس الجدران، ذلك أنه كان يجري عليها برشاقة القط.

وصل محمد حسن ليقول إن فهدًا مستعد لاستقبالي من أجل الوداع ، كان هذا الأخير أكثر لطفًا من مقابلتنا الأولى، ذلك أن الحياء المرتبط بظهوره الأول في منصب مهم قد تلاشى ، قابلته بابتسامة رد عليّ بمثلها وبدا مسرورًا بالخطبة الجيدة التي كنت قد أعددتها بحذر ، جرى الحديث الذي كان في الغالب بمبادرة مني ، حول إطلاق النار والصيد والصقارة ، أومأ إلى أحد الجنود وهمس في أذنه، هذا في العادة مقدمه بل في الحقيقة أمر بتقديم هدية لضيف مغادر ، تركت رسائل امتنان لوالده ، الشيخ عبدالله الذي قال عنه: إنه يتوقع أن يعود خلال عشرة أيام ، وبعد ذلك استأذنت في المغادرة.

كانت الإبل تقف مستعدة /p.302/ عند باب بيت الضيافة، وكل العاملين معي هناك في أفضل ملابسهم لوداعي ، صافحت كل واحد منهم وشكرتهم جميعًا، وكنت أستعد للركوب عندما استوقفني محمد حسن، وقال بصوت مرتبك: « انتظر قليلاً ـ ابن الشيخ (يعني به فهدًا) أرسل شيئًا ما » . يظهر أن فهدًا لم يمنح لقبًا رسميًا لأنه كان يعمل بالنيابة فقط ، وصل مملوك بعد ذلك بدقيقة يقود حصانًا عربيًا رائعًا ذا لون كستنائي غامق مع نقاط سوداء من السلالة السويطية أو

النجدية المشهورة (اللوحة ٦٤) . كان هدية ثمينة لم أكن مستعداً لها تماماً، وقد قفزت في الحال إلى عقلي العملي مشكلة ماذا سأفعل به ، وتمثلت لي رؤى نقله على القارب المتمايل في العقير ، وإنزاله من قارب متمايل ثم إركابه في الباخرة في البحرين إضافة إلى تعقيدات أخرى لاداعي لذكرها، وقد وجدت أنني أعطي الانطباع الخاطئ لرجل تلقى للتو هدية هي عبارة عن مثل رائع للحصان العربي ، وكان لزاماً أن يتغير هذا التعبير بسرعة، لم يكن هناك وقت لأمنح السائس هدية كما هي العادة، وقد سمعت المتفائل محمد حسن يخبره بأن من المحتمل أن أعطيه هو الهدية في العقير ليعطيها السائس فيما بعد ، كما لم يكن هناك أيضاً وقت لاستعارة سرج، ولأن الحصان رفض أن يقاد بحبل مربوط بالجمل ؛ فقد كان لزاماً على محمد حسن أن يمتطي ظهره عارياً . كان جمع الناس والإبل قد استثاره، ولذا توجب على محمد حسن أن يقوده إلى خارج البلدة ثم امتطاه بدون أي مشاكل أخرى . كان معظم الطريق تحت أشجار النخيل زلقاً بعد الأمطار، وكان لابد لنا من السير ببطء شديد، وبالتالي فقد وصلنا الجشة حول الغروب، ومن ثم ذهبنا إلى بيت الأمير كما فعلنا عند قدومنا من البحرين.

كان لديه بعض الأرانب البيضاء الأليفة وبضع قطط في ساحة المنزل ، وبعد سماعنا لضجة كما لو كان السقف سيسقط ، وجدنا كلبي السلوقي وقد تسبب في حالة فرار عام ، وكان يتابع نجاحه على الأسطح . تلقى تعليمه الأول في تصنيف الحيوانات والتي أعتقد أنها جميعاً أرانب برية . تقدم كالأسد نحو قطة كان حجرها في ركن /p.303/ ليكتشف فقط فارق مخالب الأقدام ومن ثم انحدر على السلالم يعوي وانتهى مقيداً في الاسطبل.

قام محمد حسن بمحاولة أخرى ليحصل على شيء من صفقة الكلب، ولأنه

كان خائفًا من التطرق للموضوع بنفسه ، فقد كان يأمل في فتح باب المفاوضات من خلال توسط مهدي الذي أخبرني أن محمد حسن قد وضع في موقف صعب ذلك أنه سبق وأعطى المالك خمسين روبية نيابة عني . أخبرت مهدى ألاّ مشكلة هناك فإذا كان محمد حسن قد دفع خمسين روبية فإن الكلب له وإنني أعتبر أنه قد اشتراه بثمن معقول جدًا .

[٥ مارس] رحلنا مع شروق الشمس . وضعت الأمير العجوز اللطيف على القائمة للحصول على كيس من الأرز عندما أصل البحرين مع أنني لم أذكر ذلك له . لم تكن مغادرتنا خالية من الحوادث ، كان الصقر الصغير راكبًا في دلو القنب الخاص به يسقسق بمرح وكان الكلب السلوقي ـ الذي حرر للتو من الاسطبل يعدو بجنون في شوارع البلدة الضيقة ، يقلق هدوء الحصان الذي أراد أن يفعل الشئ نفسه . عندما وصلت إلى الساحة كان هناك قلة من المستيقظين من النوم باكرًا يشاهدون المنظر ، كان الكلب يعبر الساحة كالبرق كل بضع ثوان منطلقًا من شارع ومختفيًا في آخر ، وفي كل مرة يعاود فيها الظهور كان الحصان يصارع ، لتحرير نفسه من اللجام الذي كان محمد حسن يمسك بطرفه الآخر . وقف مهدى مستعدًا بإحساس بطل خشبة المسرح ، وقدرت أن اقتراحه بأن يمتطي هو ظهر الحصان نابع من التبجح بالشجاعة . أمرته أن يركب جمله وتركنا محمد حسن يتولى أمر الحصان قدر ما يستطيع ، لم نكن قد وصلنا أسوار البلدة عندما أرغمتنا ضوضاء على الالتفاف ، ورأينا الكلب السلوقي قادم نحونا يتبعه الحصان متأرجح اللجام في مطاردة ساخنة وبلا راكب على ظهره . تمكنا من سد الطريق بالإبل وأوقفنا الحصان وأمسكناه حتى ظهر من كان يفترض أنه راكبه . بعد أن قدناه خارج البوابة . استمر بدون مشاكل وسار بهدوء كاف حتى العقير /p.304/ .

تعرضنا لعصفة كاملة من ريح شمالية قوية طوال اليوم ، وأفسد الرمل المتطاير

أي متعة، وآذى عيوننا وملأ بالرمل فناجين القهوة . تراءت لنا قلعة العقير قبل نصف ساعة من غروب الشمس . كان الكلب السلوقي يتقدمنا مع مهدي عند اقترابنا ، وجاء الحشد المعتاد من كلاب الطرقات ينبح من البلدة لمهاجمة الكلب المتطفل ، كنا بعيدين كثيراً في الخلف لنتمكن من تقديم المساعدة، وبدا حتمًا أن كلبي سيكون بعد قليل في وسط المعمعة وأنه سيصاب بضرر كبير ،لكن مهدي الذي قفز من على جمله، أمسك بمحبوبه نجمان بإحكام مما أبقى الكلاب الهجينة عند حدها، مع أن العديد منها اختلست عضات لأجناب الكلب بينما هو ينقل إلى الأمان في القلعة .

كان الأمير غائبًا ورحب بنا نائبه، وبعد قليل جاء خالد أفندي ـ مسئول الدخل ـ ليدعوني إلى وجبة في منزله . لم يدع محمد حسن لكنه قدم بعد ذلك للقهوة، وظهر محزونًا لعدم دعوته، ذلك أنه شخص له أهميته حيثما حللنا، لكن كان لابد له في العقير أن يتناول طعامه في منزل الأمير مع مسئولي الحكومة الآخرين والجنود.

نصبت المزواة وأخذت ملاحظات على نجوم المليك، والمرأة المسلسلة والقطب لمراجعة أرقامي السابقة ، كانت الآلة مغطاة بالرمل لكن يمكنني أن أحكم أنها لم تتضرر بشكل كبير خلال مغامراتها المختلفة.

[٦مارس] أعاقت الريح الشمالية القوية عدة مراكب كانت مستعدة للإبحار إلى البحرين ، لكن يتوقع أن تنطلق بعد وقت قصير ؛ لأن سرعة الريح قد هبطت بشكل كبير (اللوحة ٦٣) . أبقيت واحداً من المراكب ؛ لأنني أردت أن أقوم بفحص ثان لموقع أبو زهمول الخرب ،وكنت آمل أيضًا أن آخذ زاوية انحراف أخرى من هناك إلى جبل دخان على جزيرة البحرين ، يمكن رؤية الجبل من التلال الرملية لطريق الهفوف تحت ظروف مناخ خاصة فقط ،وأعتقد أن الصباح الباكر أساسي لرؤية

جيدة . كنت محظوظًا في الحصول على المنظر في صباح يوم مغادرتي إلى الهفوف في نوفمبر ، وكنت غير حكيم لعدم استفادتي من الفرصة بالنزول عن /p.305/ ظهر الجمل لأخذ القراءة ، كان الجبل غير مرئي تمامًا في المناسبة الثانية . كان انطباعي عن الحقل الخرب هو أنه كان أكبر مما توقعت أولاً ، ووجدت أنه يمتد أبعد إلى الشمال ولكن لم يكن هناك وقت للبقاء من أجل القيام ببحث عن الأساسات عن طريق الحفر ، ذلك أن المركب قد تأخر أساسًا بسببي . كان واضحًا أن هناك القليل من المودة بين الإدارتين العسكرية والدخل ، ووضع كل منهما كان قضية خلافية نتيجة غياب الأمير الرسمي ، وقد دعيت عند عودتي لتناول الطعام مع الأمير (نائب الأمير) وخليل أفندي في نفس الوقت . تغلبنا على المشكلة بقبولي وتناولي كلا الوجبتين .

جاء الرسميون الأربعة جميعًا إلى رصيف الميناء لوداعي وحلت الخلافات بينهم بتناولي وجبتي إفطار وأخذت صورة لهم . كان إركاب الحصان إلى المركب عملية سهلة (اللوحة ٦٤) . أقتيد إلى الرصيف ووضع رجلان يقفان على المركب حبلاً حول جسمه وبدون أي إجراء آخر سحباه بشكل جانبي ومدداه في قاع المركب حيث ثبت بعارضة كبيرة من الخشب .

أبحرنا خارج فم الميناء الذي كنا دخلناه في ١٧ نوفمبر ، ورسونا هناك ننتظر ريحًا جنوبية ممضين كل اليوم التالي إما متوقفين أو نبحر ببطء باتجاه الشمال مع ريح كافية بالكاد لملء الشراع ووصلنا ميناء البحرين في صباح اليوم التالي .

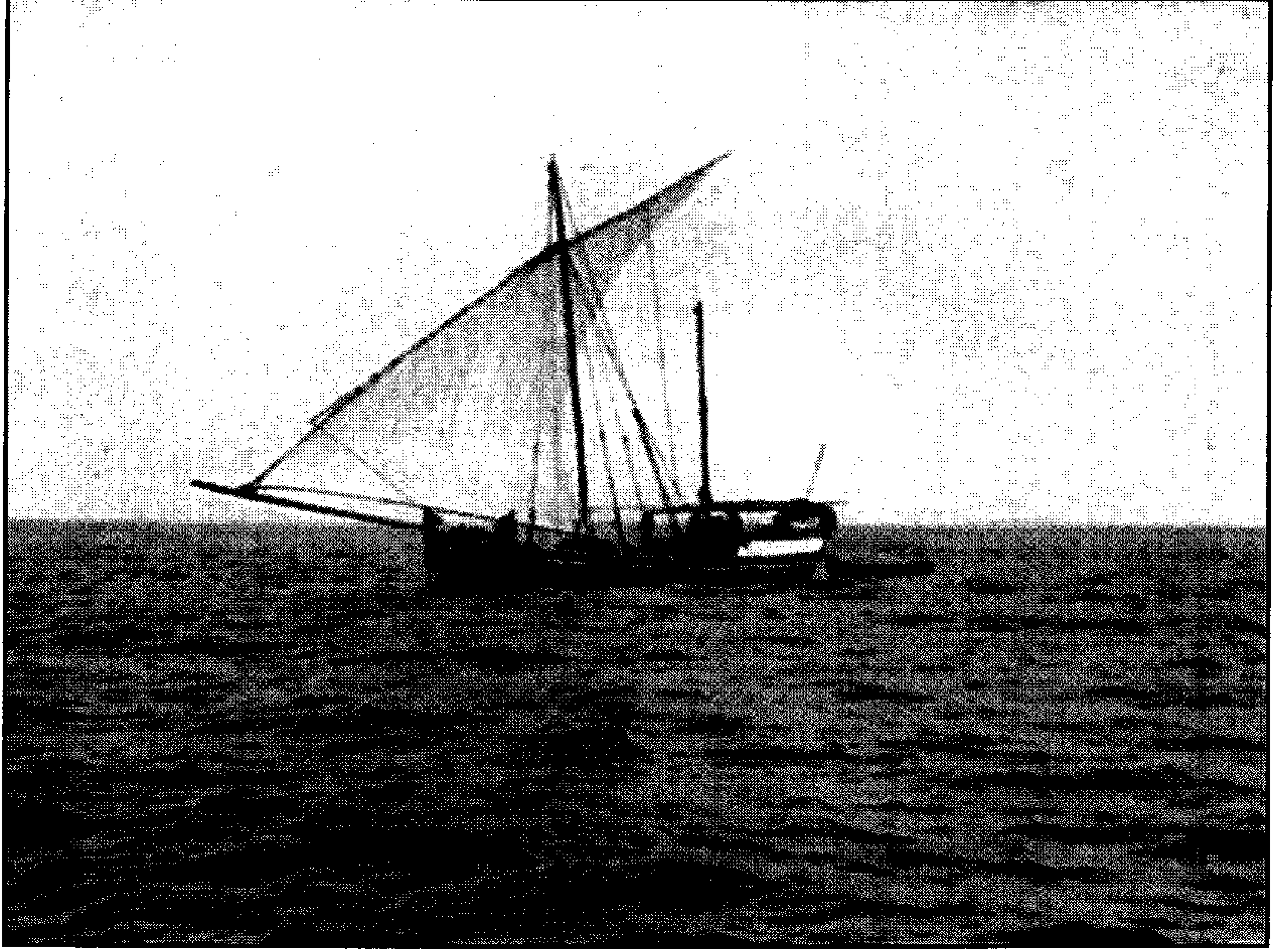
توجهت إلى منزل القصيبي حاملاً معي كيسًا من الروبيات وأعطيته قائمة بالغنيمة (الهدايا) التي رغبت أن يوزعها أخوه في الهفوف وما جاورها ، وسلمت له المبلغ المقابل نقدًا . كان سعر الأرز أربعًا وعشرين روبية واثنتي عشرة آنة (ثلاثة

وثلاثين شلنًا) مقابل كيس زنته مائة وثمانية وستون رطلاً في الهفوف .

كانت الرحلة إلى البصرة خالية من الأحداث ، وكانت الباخرة التي عدت فيها إلى إنجلترا راسية في شط العرب تحمل شحنة في وسط المجرى ، واستطعت أن أصعد /p.306/ مع كل طرودي . كان على مهدي أن يخدمني حتى تغادر السفينة ، ومن ثم يعود إلى بيته في بغداد . لم يحضر في اليوم الذي تحدد أن نبحر فيه ، وفي النهاية جاء قارب تجديف ومعه رسالة استغاثة فحواها أن مهدي قد أودع السجن ورجاني أن آتي وأخرجه . علمت بينما نحن نجدف نحو الشاطئ أن مشاجرة كلامية حدثت بين الصبي وسائق تاكسي حول ما إذا كانت أجرة الركوب ستة أو تسعة بنسات ، وأن الشرطة قد اعتقلت المتنازعين ، اتفقا بعد قضاء ليلة في السجن على اقتسام الفرق لكن سائق التاكسي تنازل بكرم عن الأجرة كلها عند حضوري . ودعت مهدي بعد أن نصحته ببضع كلمات وأسرعت عائداً إلى السفينة .

وجدت عند عودتي إلى إنجلترا أن كل عينة جمعت خلال الحملة قد وصلت مكانها المقصود ، سُلمت الصناديق التي سبقتني من الهفوف إلى المتحف البريطاني بلا أي حادث . الشكر للتعاون اللطيف من الشيخ عبدالله أولاً ، ثم من الرائد دالي ، وأخيراً من السير ارنولد ويلسون (الذي كان قد أرسلها على مركب اتجه مباشرة من المحمرة إلى لندن) .

قد يكون من المفيد أن ألخص هنا نتائج رحلتي . تمت زيارة قبيلة آل مرة وواحتهم الغامضة يبرين وتصويرها . تم أخيراً اختراق صحراء الجنوب العظيمة ، ووضعت خريطة للطريق الممتد لمسافة مائة وخمسين ميلاً في منطقة لم تكتشف من قبل . تمت وللمرة الأولى رؤية وادي السهباء بعيون أوروبية ، وتم التأكد من ارتباطه بوادي حنيفه في نجد . بنفس الدرجة من الأهمية من وجهة نظر علم وصف المياه



اللوحة (٦٣)
بغلة تغادر العقير إلى البحرين



اللوحة (٦٤)
إركاب الحصان الذي أهداه السلطان ابن سعود للمؤلف ـ العقير

العربية كان الدليل على عدم وجود نهرين ، أو قناتي تصريف ضخمتين، والتي أبرزت بشكل كبير في الخرائط العربية من أقدم الأزمان تحت أسماء وادي يبرين ووادي عفطان (أو عفتان)(١) . كان لابد لطريقنا أن يقطعهما لو كانا موجودين ، ولابد أن ينظر إليهما على أنهما أسطورتان . المعلومات التي أفصح عنها صالح فيما يتعلق بظروف قلب صحراء الجنوب العظيمة هي ثمينة /p.307/ ، خاصة فيما يتعلق بوجود جريان ماء متقطع في آبار مقينمة وهو موضع لم يسمع به من قبل، وقد أضاف إلى معرفتنا عن شكل ومدى بقع الكثبان الرملية العظيمة ، واكتشاف الحقل الخرب في أبي زهمول قوى الادعاءات التي قالها المؤرخون السابقون بأن العقير هو موقع الجرهاء الميناء الفينيقي القديم .

حددت فلكيًا دائرة العرض وخط الطول للعقير والهفوف ويبرين، وكذلك دائرة العرض لوادي السهباء ، لقد سبق أن وُضعت كل هذه الأماكن مؤقتًا على الخرائط لكن مواقعها لم تحدد بشكل دقيق في السابق ، حصل ڤيلبي على أية حال على خط العرض للهفوف .

بالنسبة لمجموعات العينات فإن هناك ثمانيًا وأربعين عينة لحيوانات ثديية تمثل ثمانية عشر نوعًا منها خمسة أنواع وأربعة تحت نوع (جديدة) على العلم . تحوى المائة والسبع والعشرين عينة للطيور على أربعة وثلاثين نوعًا، منها ثلاثة تحت نوع جديدة. تمثل الاثنان والعشرون عينة للزواحف أحد عشر نوعًا، منها ثلاثة لم تسجل من الجزيرة العربية سابقًا . العينات العشرون البالغة، والسبع عشرة غير البالغة للأسماك تمثل جميعها نوعًا واحدًا ، تمثل الثلاث والسبعون عينة من الحشرات

(١) لم تذكر المعاجم الجغرافية العربية القديمة منها والحديثة اسم واد بهذا الاسم في وسط جزيرة العرب إلا أن الإدريسي أورد وادي أفنان وهو الاسم القديم لوادي حنيفة . انظر : محمد بن عبدالله الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، بورسعيد : مكتبة الثقافة الدينية ، المجلد الأول ، ص ١٦١ . (المترجمان)

خمسة وثلاثين نوعًا، منها أربعة أنواع وتحت نوع واحد (جديدة) . تمثل الست والثلاثون عينة من النباتات ثلاثة وعشرين نوعًا فطريًا، وثلاثة عشر نوعًا مزروعًا، واثنان من الأنواع الفطرية عُدت جديدة على القائمة العربية ، تم الحصول على العينات الجيولوجية من الهفوف والجافورة ووادي السهباء ويبرين /p.308/ .

الفصل الثامن عشر :

لون الصحراء ولون الحماية

الطيور

سيكون واضحًا من هذا الفصل أنني مؤمن بفرضية انتحال حيوانات الصحراء للون الصحراوي، والذي يعود كلية إلى الحماية التي يقدمها هذا الانتحال لها، بالاختفاء في بيئآتها الطبيعية إما لأغراض دفاعية أو هجومية . وسيكون أسلوبي مفهومًا بشكل أفضل إذا قرنت قراءة هذا القسم مع دراسة ممتازة عن هذا الموضوع كتبها الدكتور پي. آي. بكستون بعنوان (حياة الحيوان في الصحاري). لقد ساعدتني المادة العلمية التي جمعها في ترتيب آرائي، والتي ـ على أية حال ـ كانت مخالفة لآرائه في أغلب الأحوال . سأذهب إلى أبعد من ذلك وأقول: إن استنتاجاته لا تبدو متفقة مع ثقل الدليل الذي قدمه، فهو يغري القارئ في بعض النقاط بسلسلة من الحقائق جيدة التنظيم، لكنه يتركه في النهاية ليكون استنتاجاته الخاصة ، وفي نقاط أخرى فإن رأي المؤلف نفسه يكون غاية في الغموض ، ولذلك فإنه لهذا السبب ولأسباب أخرى سبق ذكرها يكون من الصعب تصديقه عندما يخبرنا في جملته الختامية أن وجهة نظره هي: «أنه لا تقدم ممكن حتى نخلص أنفسنا من إيماننا بالتلون من أجل الحماية».

يتمرن العقل طبيعيًا في رحلة صحراوية كتلك إلى يبرين في محاولة أن يجد سببًا خلف حقيقة أن كل عينة تقريبًا من الطير والبهائم والزواحف والحشرات مكسوة بدرجات جميلة من الألوان القشدية الشاحبة . إن رفًا من عينات الطيور والحيوانات المختلفة من الصحراء الحقيقية، سيثير إعجاب أي شخص ويجتذب اهتمامه حتى ولو لم يكن عالمًا طبيعيًا بكونها رائعة من هذه الناحية /p.309/.

الخطوة الأولى في محاولة وضع استنتاجات في أي موضوع هي أن نختصر قدر ما نستطيع، ولهذا السبب فلابد لي أن أتعامل أساسًا مع طيور الصحراء الحقيقية وحيواناتها مقدمًا الأخريات كأمثلة فقط، وذلك بسبب معرفتنا الضئيلة جدًا عن عادات وظروف حياة الحيوانات في الصحراء الحقيقية . ولغرض إيضاح هذا الفصل، سوف أقسم المنطقة الصحراوية إلى قسمين : يشمل الأول البقاع الكبرى عديمة الماء من الصحاري خاصة أير في آسبن وصحراء الجنوب العظيمة من الجزيرة العربية المشار إليها غالبًا على الخرائط بالربع الخالي، أو بطريقة أكثر صحة يسمى النصف الجنوبي منها «الأحقاف» والنصف الشمالي «الرمال» . سيشمل هذا الصنف أيضًا النفود في جنوب سوريا، واحتمالاً صحراء السند الوسطى وهكذا.

معالم هذا القسم هي مناطق الكثبان الرملية والسهول الحصوية وسلاسل الجبال الصغيرة التي ترتفع من مائتين إلى ثلاثمائة قدم فوق سطح السهل . يقتصر الماء في هذا القسم على الآبار التي يفصلها عن بعضها مسافات كبيرة، وهي في معظمها موارد غير طبيعية، وهي متاحة للحيوانات البرية بشكل متقطع فقط عن طريق الماء المراق نتيجة سقاية البدو لإبلهم ، ولذا فلنا أن نعتبر أن المسطحات المائية المكشوفة عديمة الوجود في هذا القسم ، وتتكون غدران المياه بين فترات متباعدة وغالبًا من سنتين فأكثر ، ولذلك فإن هذه الغدران لاحساب لها في اقتصاد الحياة البرية ولا توجد هنا أنهار ، ويكسو الأرض غطاء نباتي متفرق من الأنواع المقاومة للجفاف ،

ولذلك فإن الندى هو غالبًا مصدر الماء السنوي الوحيد للمجموعة الحيوانية في القسم الأول .

القسم الثاني : هو المنطقة المحيطة بالقسم الأول ، وهي تباهي بحياة نباتية أكثر ، وتشمل صحاري السهوب ، التي ينمو فيها العشب والنباتات المشابهة لفترة قصيرة بعد الهطول السنوي للأمطار ، وتشمل كذلك المنطقة الصحراوية التي يخترقها نهر دائم الجريان ، مثل شمال أفريقيا باتجاه البحر المتوسط والصحراء الفلسطينية والسورية وأجزاء من وادي النيل والعراق وغيرها .

لا يمكن أن يطلق اسم صحراء على أي قسم آخر ، رغم أن الأشكال الموجودة هناك أكثر شحوبًا من الألوان البنية القاتمة والبنية الحمراء في الأقاليم كثيفة الأشجار . من الممكن أن يطلق عليها اسم منطقة متوسطة ، وعلى الرغم من /p.310/ كونها مشمولة إرصاديًا وجغرافيًا في الحزام الصحراوي لآسيا وأفريقيا ، فإن فيها نباتات أكثر من تلك الموجودة في القسمين الأول والثاني ، كما أن من الصعب أن يسمى لون الحيوانات هنا بلون الصحراء .

لكي أجعل وجهة نظري واضحة فإنني أنوي أن أقدم القليل من الأمثلة من القسم الثاني ، وسآخذ فقط أمثلة من خارج القسم الأول . نستطيع أيضًا أن نحذف الطيور المهاجرة [١] ، ونقصر أنفسنا على تلك المقيمة ، إذ لا يتوقع من طير مهاجر أن يتواءم في اللون مع البيئة في كل البلدان التي يمر عبرها ، والتي تتنوع من الغابات الاستوائية في وسط أفريقيا إلى سهول حجر الكلس الأبيض والسهول الحصوية الداكنة إلى القفار الرملية للصحاري . يحدث التغير المكاني أثناء هجرة الطائر خلال بضع أسابيع ، أو حتى خلال أيام وساعات ، ثم إنه لا حاجة لتغير اللون بالنسبة لطائر

(١) لابد لدراسة أكثر شمولاً حول الموضوع أن تشمل دراسة الطيور المهاجرة في مناطق تكاثرها .

مهاجر طالما أن الاعتماد هو على العيون والآذان وقوى الطيران . في العقير ـ حيث المنطقة مكشوفة ولا مكان للاختفاء ، شاهدت هدهداً مهاجراً ذا لون واضح يتعرض لهجوم من قبل باز جوال وهار[1] شاحب في وقت واحد، وهو ائتلاف غير عادي وبالغ القوة . وقد تجنب الهدهد ضربات الباز من أعلى والهار من أسفل بواسطة انحرافات ماهرة في الهواء وقد استمرت المعركة دقيقتين أو ثلاث حتى أنهك الصقران وتركا الهدهد في سلام، لا أقصد من هذه الواقعة الإيحاء أن الهداهد لا تقع مطلقًا فرائس للصقور ، لكنها حالة لم تكن فيها حاجة لاكتساب لون البيئة من أجل الحماية .

الطيور التي اكتسبت لون الصحراء إلى درجة رائعة هي تلك التي تعشش على الأرض ، وهي بالتأكيد تحتفظ بذلك اللون خلال أشهر الشتاء، لكنها مثل الهدهد تفضل استخدام عيونها وأجنحتها عند اقتراب الصقر خلال فصل الشتاء على استعمال أي شبه لديها للون الأرض . قلة من الطيور تجثم على الأرض وتنجو بكونها غير ملاحظة مثل: الحبارى وزقزاق نور فولك في بعض الأحيان ، لكن حتى هذه غالبًا ما تفضل الهروب عن طريق الطيران /p.311/، تختبئ أغلب الطيور حيثما كان هناك صخور ونباتات . من الجدير بالملاحظة أن باز الصحراء ليس لديه قوة الاندفاع الموجودة لدى الباز الإنجليزي ، ولذا فإن الطير ذا الأجنحة القوية في مأمن منه إلى حد لا بأس به . اشتهر الباز الجوال الشرقي *Falco peregrinus calidus* باكتسابه عادات سيئة حول البلدات العراقية، حيث تنتظر طيور الباز هذه حتى المساء لتفترس الخفافيش التي تبكر في الخروج، وتحصل بذلك على وجبة سهلة مفضلة هذه الطريقة على محاولة القيام بانقضاض جوي على الحمام الذي يوجد بأعداد

(١) الهار هو نوع من الصقور . (المترجمان)

وافرة . من ناحية ثانية فإن الصقر والباز عربي التدريب يصطادان كل الطرائد وهي على الأرض ، وأشك في أن يحاول صقر بري غير مدرب مهاجمة حبارى في فصل الشتاء ، إذ إنها تقابل الصقر دائمًا بعرض كامل للريش ، فالأجنحة متدلية والذيل منحن إلى أعلى فوق الظهر ، وهي تقفز إلى أعلى وتضرب بأقدامها أثناء هبوط الصقر . سبق لي أن رأيت ضربة جيدة التوقيت تصعق صقرًا ، بينما هربت الحبارى طائرة . كثيرًا ما تخرج الحبارى إفرازًا زيتيًا تلقيه فوق أجنحة الصقر وتتسبب في إعاقته عن الطيران بقية اليوم . لا تعني أيٌّ من هذه الحوادث الكثير لباز مدرب إذ إنه سيُحمل ويُعتنى به لكنها ستؤثر بشكل جدى على باز بري ، يبدو أن الطيور تلجأ أو تحتاج قليلاً لاكتساب لون البيئة من أجل الحماية في فصل الشتاء ، وأن الطيور الجارحة تعتمد في الغالب على الطيور المريضة أو الجريحة من أجل الغذاء ، وهي سريعة في ملاحظة واحد من هؤلاء .

تعتبر الحبارى بالتأكيد واحدة من أفضل الأمثلة على التلون بلون البيئة بقصد الحماية ، تبدو عندما تمشيء على السهل المنبسط الذي ترتاده كمثل ديك رومي صغير ، وتكون واضحة جداً لكن عندما تجثم على الأرض فإن ظلال لونها القشدي الشاحب الجميل المتقاطع مع تمعجات وخطوط اللون البني الصافي تتحدى عين الصقر والإنسان على السواء أن تكتشفها على الرغم من كبر حجمها من مسافة عشر ياردات طالما بقيت بلا حركة ، لو كان لونها أسود أو أسود وأبيض فإنها ستجذب الانتباه من مسافة ستمائة ياردة . إن قدرتها على الاختفاء في بيئتها المناسبة لا تصدق تقريبًا . ذهبنا ذات يوم بالسيارة إلى موقع خرب قرب بغداد في صحراء قاحلة لنصطاد حمام الصخور الأزرق ، فهبط أربعة رجال من السيارة أمضوا نصف ساعة في إثارة الطرائد من مكانها ، وبعدها /p.312/ ولدهشتنا طارت حبارى من الأرض الجرداء قرب إحدى عجلات السيارة عندما أوشك أحد أفراد المجموعة أن

يطأها . سبق للعديد من علماء الطبيعة أن لاحظوا أن هذه الألوان تجعل الطائر خفي طالما بقي ساكنًا فقط . نحن نعلم أن الغذاء يتطلب من الطيور أن تتحرك أغلب اليوم، كما نعلم أن شبهها بما يحيط بها ليس ضرورة طالما أنها قادرة على حماية أنفسها بطرق أخرى عديدة ، مع أنه لابد لنا من الاعتراف أنها تستفيد من مثل هذا التشابه أحيانًا .

نفترض مع ذلك أن نكون مبررين في حذف فترة الحركة عند اعتبارنا لمشكلة اللون وفي رأيي فإننا يجب أن نقصر أنفسنا على المناسبات التي يكون فيها الطير ساكنًا، وعلى الوقت الذي هو الأكثر أهمية لبقاء السلالة ، والذي هو أيضًا الوقت الذي يكون فيه الطير أكثر عرضة للخطر ، وذلك هو فترة التكاثر . يمضي كل طائر فترة تكاثر تمتد ما بين أسبوعين إلى شهر كل عام، يجب عليه خلالها أن يجلس بلا حركة فوق بيضه ، ويمضي بعد ذلك ـ خاصة بين الطيور التي تعشش على سطح الأرض في المناطق المكشوفة ـ فترة أخرى لحضانة الصغار . أعتقد أننا نستطيع أن نجد دليلاً على أن التلون البيئي من أجل الحماية يحدث فعلاً ، وأن الغاية منه هو تخفي الطائر وصغاره خلال هذه الفترة القلقة التي تنعدم فيها وسائل الدفاع عن النفس . كنت تواقًا لتصوير عش الحبارى ، واعتقدت أن المرء بإطلاقه طيور باز مدربة في الجو قد يدفع الطيور الرابضة لتهب للدفاع وبالتالي تكشف موقع العش . غطينا مساحة كبيرة من الأرض وكنا نعلم أننا قد مررنا بالعديد من إناث الحبارى الرابضة ؛ لأن ذكورها شوهدت كثيراً مجتمعة مع بعضها ، ومع ذلك فقد فشلت الصقور في أن تكتشف عشًا واحدًا كما أننا ـ وقد مسحنا الأرض بدقة ـ لم نكن أحسن حظًا .

يقوي الحجة أكثر حقيقة أن ألوان البيئة المتمثلة من قبل الطيور هي في الواقع مطورة في الإناث ـ خاصة الصغيرات الناشطات من الأنواع التي تتكاثر على سطح

الأرض ـ مقارنة بالأنواع الأخرى. في تغاير واضح لكل الطيور الأخرى فإن زقزاق السرطان الشاب ـ وهو /p.313/ الطائر الخواض الوحيد الذي رأيته يعشش في جحر ولا يكتسب لون البيئة من أجل الحماية.

سوف نبحث الآن في عادات وألوان طيور الطرائد الإنجليزية، لأنها معروفة بشكل أفضل من العديد غيرها، بينما تكون أنثى طائر التدرج محمية بلونها بشكل جميل، فإن الذكر ـ الذي لا يبدي أي اهتمام بالعش أو الصغار عندما تفقس ـ يحتفظ بريش رائع الجمال، يشبه ذكر طائر الحجل أنثاه في شكل الظهر أو السطح المرئي، وكلاهما يأخذ دوره على العش ورعاية الصغار. بطة البركة مثلٌ آخر، فالعلجوم أو ذكر بطة البركة مكسو بريش مبهرج، ولا يساعد أبدًا في الحضانة أو رعاية الصغار، بينما البطة ـ التي تقوم بكامل عملية الحضانة ـ مكسوة بلون بني داكن وغير مرئية تمامًا بين القصب. كون البطة واضحة تمامًا في الشتاء مثل العلجوم ليس سببًا للجدل بأن لونها ليس مصممًا من أجل الحماية. للبط طور آخر يكتسب فيه لون حماية ربما نشير إليه ويسمى ريش الكسوف. يكون العلجوم المبهرج غير قادر على الطيران خلال المرحلة التي يطرح فيها ريشه، ويطور خلال الفترة القصيرة التي يكون فيها ساكنًا على الأرض ريشًا وسيطًا ذا لون بني داكن يشبه لون ريش البطة كثيراً، ويتوارى بين أشجار الأسل، لا يحتاج ذكر طائر التدرج ريش كسوف باهت، ذلك أنه يطرح ريش طيرانه تدريجيًا ولا يبقى عاجزاً عن الطيران، وهو دائمًا متألق. إناث طيور الشهرمان العادي والأحمر مكسوة بريش زاه مثل ذكورها لكنها تعشش في جحور.

يبدو أن قوة الدليل تثبت أن طيور التدرج، البط والحجل، قد طورت ألوانها المتخصصة وذلك لغاية محددة، وأن تلك الغاية هي الحماية التي توفرها تلك الألوان

بجعلها غير مرئية في بيئتها بينما هي على العش، أو غير قادرة على الطيران . إن الذين يحملون وجهات نظر مختلفة حول الموضوع يمكن أن يعرضوا بضع أمثلة لطير ذي لون زاه يتكاثر على سطح الأرض ويساعد أيضًا في عملية الحضانة ، لكن /p314/ إذا فعلوا ذلك فلن يكون عامًا بما يكفي ليناقض النظرية المدعومة فعلاً بطيور عرفت عاداتها بشكل جيد، وبالعديد من طيور أخرى لو أمكن مراقبتها من قبل علماء طبيعة ميدانيين أكفاء . النكات وصائد المحار مثلاً هما طائران يتكاثران بوضوح على سطح الأرض، لكن بينما يخطر مثل كهذا على البال فإنه يمكن الاستشهاد بمائة نوع من الطيور التي تتوافق مع القاعدة.

طبقًا لنظريتي حول الارتباط بين اللون وفترة التعشيش[١] فإن ريش الذكر الذي يتولى القيام بكامل واجب الحضانة يجب أن يكون أكثر دكانة من الأنثى، وهذا هو الحال في ثلاثة أنواع من الطيور أعرفها والتي تبنت هذا الإجراء غير العادي تمامًا، وهي : الفلروب الرمادي ، والفلروب أحمر الرقبة، والشنقب الملون . في كل واحدة من هذه الحالات فإن الأنثى هي الأفتح لونًا، وتُظن في الوضع الطبيعي خطأً أنها الذكر . لما كان هناك استثناءات للقاعدة فسيكون أكثر أمنًا القول إن الأنواع القليلة من الطيور التي تكون فيها الإناث أفتح ألوانًا من الذكور هي أيضًا شاذة في ترك الحضانة ورعاية الصغار إلى الذكور . إن مما يستحق الإشارة إليه على عجل هو حالة أخرى لتلون مميز عند الأنثى لنوع يتكاثر في جحور. تكتسي ذكور عصافير المنطقة تحت القطب الشمالي والعصافير الأخرى (*Passer*) ألوانًا واضحة، بينما الإناث ذات لون بني بسيط . يكون لون الأنثى فاتحًا في حالة عصفور الأشجار (*P. montanus*) وتشبه الذكر، ويختلف هذا النوع أيضـًا في موقع تعشيشه عن الآخرين

(١) سبق أن أشار مؤلفون آخرون إلى أهمية الحماية للألوان المتمثلة الموجودة لدى بعض إناث الطيور لكن لايبدو أن هؤلاء الذين قرأت أعمالهم قد علقوا أية أهمية لهذا أو اقترحوا بأن هذه الفترة قد أثرت على اللون.

إذ إنه يفضل فجوة في شجرة عندما يتوفر ذلك ، بينما تفضل أنواع أخرى رأيتها معششة موضعًا مكشوفًا على الأغصان عندما تستطيع الحصول على واحد منها . يحمل عصفور الأشجار شبهًا للشهرمان الذي سبق ذكره .

لابد أن نعود الآن إلى القسم الأول من الصحراء وطيورها ونقترح أسبابًا لظهور لون آخر . لفت بكستون الانتباه إلى غلبة /p.315/ اللون الأسود والأبيض كبديل عند تلك الأنواع من الطيور التي لا تكتسب ألوان الصحراء المعتادة . لايحتاج الغراب إلى الحماية ولا يرغب مطلقًا في التخفي ، فهو لا يطارد فرائس حية مفضلاً عليها الجيف ، وهو نفسه لا يُفترس ، ولذا فلديه خيار واسع من الألوان . أما لماذا اختار أسلاف الغراب اللون الأسود فأمر ليس من السهل تفسيره ، إذ إنه يرتبط كلية بظروف متعلقة بفترة نائية جدًا من تاريخ العالم ، ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن طيور الأبالق ذات اللونين الأبيض والأسود ، إذ لا سبب لديها يجعلها تفضل الألوان المعتمة ذلك أنها تكون خلال فترة الحضانة مخفية وآمنة في جحر أو صدع في الصخور ، كما تعتمد في أوقات أخرى على عيونها وأجنحتها . لما كانت لا تعشش على سطح الأرض المكشوف مثل القنابر التي هي مجموعة متلائمة لونيًا بشكل جيد مع بيئتها ، فلا حاجة لنا للبحث عن سبب تبني الأبالق لهذه الألوان .

لعلنا نذكرهنا أن الطيور ذات الألوان الأكثر إشراقًا والتي تعشش على أية حال في القسم الثاني من الصحراء هي تلك التي تتكاثر في الجحور ، ومن أمثالها الوروار (*Merops apiaster and M.persicus*) والشقراق (*Coracias garrula and C. benghalensis*) والرفراف بنوعيه العادي (*Alcedo ispida*) وأبيض الصدر (*Halcyon smyrnensis*) . لدى كل هذه الطيور ريش ذو ألوان زرقاء وخضراء زاهية جدًا تنافس الطيور في الغابات الاستوائية الذكور منها والإناث على حد سواء ، لهذه الطيور أيضًا خاصية مشتركة مع الهداهد وناقرات الخشب التي هي أيضًا تتكاثر في الجحور ،

وهي أن البيض يكون أبيض ولامعًا . كان بيض كل الطيور التي تتكاثر على سطح الأرض التي رأيتها ذا ألوان متناغمة مع المحيط حولها في حال كان البيض مكشوفًا . جمعنا سلسلة من البيض لعدد من أنواع الطائر الخواض في العراق والخليج العربي ، وكان النوع الوحيد لطائر الخواض الذي يضع بيضًا أبيض اللون هو الوحيد أيضًا الذي يعشش في جحر وهو زقزاق السرطان (*Dromas ardeola*) . لا أريد أن أحمل هذه الفرضية أبعد من هذا لأن ذلك سيقود إلى متاهة في مجموعات مشتبكة في عاداتها وأسلافها ، وليست معروفة لي جيداً /p.316/ بشكل يسمح لي بإثبات أي شيء . يبدو أن هناك مايكفي من الدليل حتى هنا يسمح بالقول أن لون البيض (فضلاً عن لون الريش) للطيور التي تتكاثر على سطح الأرض ليس عرضيًا ، لكنه تطور عبر قوة تمتلكها الطيور لتغيير الألوان من اللون الأبيض الأصلي بقصد جعل أنفسها غير واضحة [1] ، ليس بالضرورة لعين الإنسان الذي لم يكن عدواً جديًا للطيور مدة كافية للتأثير على تنظيمها من ناحية الريش أو لون البيض ، لكن للأعداء الموروثين الذين تتبارى معهم منذ وقت ظهورها على الأرض كطيور .

قمنا الآن بمسحة خفيفة على التلون الدفاعي ، ولابد لنا أن نأخذ تاليًا قضية الطيور التي رغم أنها لا تُفترس لكنها تَفترس غيرها ، ومع ذلك تكون متأثرة بمحيطها الصحراوي ، بمعنى أنها أجناس أكثر شحوبًا من حلفائها في الأقاليم الحرجية ، تلك هي البوم والباز واليويو ، لابد لي من القول إنها فائدة مميزة لأي من هذه الطيور أن تكون مندمجة في المنظر الطبيعي ، لديها جميعًا نفس العادة في الجثوم على رابية في

(١) من المحتمل أن يدعم مزيد من العمل الميداني على بيض طائر الوقواق هذا ، فمن المعروف أنه حيثما كانت أنثى طائر الوقواق العادي قادرة على وضع بيضها لعدد كاف من الأجيال بين البيض البني لطيور مثل الجشنة والذعرة وغيرها ، فإن بيض أنثى الوقواق طابق بيض هاتين الأخيرتين من حيث اللون . طور طائر آخر من نفس النوع يقتل عادة الطير التي تضع بيضًا أزرق فقط . لا تحتاج هذه النظرية أن تفسد لأن أنثى الوقواق التي تضع بيضًا بنيًا تضع أحيانًا بيضها البني هذا بين حضنة البيض الزرقاء لعصفور وشيع وذلك عندما لا تكون أعشاش طيور ذات بيض بني ممكنة .

الصحراء على ارتفاع قدم أو قدمين غالبًا، ولما كانت ملوّنة كما هي بلون البيئة حولها، فإنه سيكون من الصعب جداً تمييزها، ولذا سيكون احتمال تحرك الطيور والحيوانات التي تراقبها أكبر، وسيكون لدى الصقر فكرة أفضل لمعرفة من أين ستأتي وجبته التالية مما لو كان ذا شكل أسود صارخ. من المحتمل أيضًا أن الطيور المفترسة هذه ستشعر أنها واضحة خلال فترة المراقبة تلك، وأيضًا خلال فترة الحضانة، لأنها وعلى الرغم من كونها قادرة جيداً على حماية أنفسها بالمناقير والمخالب إلا أنها لا ترغب في أن تُزعج وهي فوق بيضها من قبل طيور مفترسة أخرى، وتفضل أكثر أن تمر تلك الفترة وهي غير مرئية. لقد لاحظت أن طيور الباز المدربة تظهر توتراً كبيراً /p.317/ إذا طار فوقها مباشرة حتى صقر أصغر منها بكثير مثل الهوبى، وعدم الارتياح هذا يكون أكثر حدة خلال الشهر الذي تكون فيه على العش. أعطت البوم النسارية الكاتب في عدة مناسبات الدليل على عادتها الفعلية في الجثوم بسكون تام لتجنب الخطر.

والآن سنقترح الوسائل التي بموجبها تم اكتساب التلون الصحراوي. يعتقد بعض المختصين أن الفوارق في رطوبة الجو تشكل الواسطة التي يتكون من خلالها فوارق اللون الشاحب والأسود. هذا صحيح إلى مدى أن الألوان القاتمة تسود في المناطق ذات الرطوبة الأكثف، لكن قد يكون أكثر عدلاً أن يعزى السبب في ذلك إلى أن النباتات في تلك المنطقة تكون أكثر وفرة بسبب رطوبة الجو تلك، وتصبح البيئة أقل شحوبًا وبالتالي فلابد للحيوانات أن تتبع ذلك لكي تتناغم معها.

لدينا دليل قوي لهذه الحالة يتمثل في قنبرة الصحراء (*Ammomanes*) وهي سلالة تكيفت أعراقها منفردة بشكل جيد مع لون الأراضي التي تعيش عليها. عثر العميد مينرزهاجن مصادفة أثناء عبوره الصحراء بين عمان وبغداد على قنبرة *ammomanes* شبه سوداء (*A.deserti annæ*)، تعيش في حزام ضيق نسبيًا من

الأرض مغطى بصخرة حديدية سوداء مستديرة يعرف محليًا بحزام الحمم وذلك بسبب الشبه الكبير في الشكل للصخور البركانية . طابق لون الطير تمامًا الصخور السوداء التي يعيش - وبلا شك يعشش - بينها . وقد حلت القنبرة *ammomanes* شاحبة اللون (*A. deserti coxi*) ، التي يتطابق لونها تمامًا مع لون البيئة الصحراوية محل القنبرة السوداء على السهل الرملي خلف حزام الحمم السوداء ، لا يمكن المجادلة في أن السبب في وجود هذين الشكلين يعود إلى الرطوبة ، وذلك لتشابه المناخ في كلا البيئتين . إن هاتين السلالتين المميزتين من نفس النوع هما أكثر الأمثلة - التي لوحظت حتى الآن - روعة لتكيف نوع مع لون البيئة . اكتشفت شخصيًا قنبرة من تحت نوع آخر أكثر شحوبًا من الجنس *A.deserti azizi* في جبال الحجر الرملي الجيري البيضاء في الهفوف ، ومرة أخرى هنا /p.318/ فإن التناغم رائع بين الطائر وكسر الحجارة البيضاء القرنفلية التي تعيش فيها . أحضر كلانا أنا والعميد مينرزهاجن عينات من الصخور وعرضناها بجانب الطيور السوداء والشاحبة في اجتماع للجمعية الجغرافية الملكية (المجلة الجغرافية ، فبراير ١٩٢٥) ، يقول اللورد روتتشايلد في صفحة ١٣٨ من نفس المجلة الجغرافية بأن في رأيه أن للصحراء تأثيرًا مباشرًا على لون الحيوانات ويعطي بعض الأمثلة الممتعة والرائعة لدعم ذلك .

من المحتمل أن قنابر الصحراء هي أكثر المضطهدين من بين كل طيور الصحراء ، وقد وجدت بقاياها في مخلفات طعام البوم النسارية ، وبلا شك فإن اليويو يأخذ نصيبه منها . لهذا السبب فإن هذه القنابر قد تصبح قلقة بشكل أكبر ودائم لأجل سلامتها من أي طيور أخرى خاصة خلال فترة التعشيش . ولما كانت لا تميل إلى التجوال بعيدًا عن الأرض التي تكاثرت فيها ، لذلك فهي تقضي كل وقتها في منطقة ذات درجة لون واحدة . أعتقد أن تطور لون ما ، كما هو بين بوضوح كامل في تحت

النوع ، هو نتيجة تأثير سأدعوه رغبة خاصة تعمل عبر أجيال من تحت النوع لذلك اللون المعين، الذي سيتناغم مع محيطه ويجعل مكتسيه غير واضح . يجب أن يكون كل من الحاجة والرغبة ثابتين ، وسيكون هذا الثبات مضموناً بشكل رئيسي عندما يكون تحت النوع، راقداً على البيض، وعندها يفترض أن يكون لدينا التفسير حول لماذا يكون لدى تحت النوع، الذي يعشش على أرض شاحبة الميل إلى أن يكون أكثر شحوباً من تلك التي تعشش على أرض داكنة . لن تكون الرغبة الخاصة ثابتة في كل السلالة خلال الوقت الذي يكون فيه أفراده متفرقين أثناء فصل الشتاء في كل أنواع البلاد، وكما قد سعيت لأوضح ، فإن الطيور في مثل هذه الأوقات لا تحتاج لأن تشعر بالرغبة لأي نمط معين للون أو درجة لون، ونادراً ما تجشم لتستخدمه . من المحتمل أن تشعر الأنواع المفترسة بتجربة الرغبة عندما تطارد فرائسها .

في الأسماك والزواحف يوجد تأثير مماثل /p.319/ للرغبة الخاصة ولكنه مطور بصورة أكثر ويعمل بسرعة أكبر، والغرض منه هو الحماية.

إن سمكة السلمون المأخوذة من جدول ذي قاع أبيض ذات لون شاحب مائل إلى البياض ولكن إذا وضعت في جدول أو نقلت إلى جزء مختلف من نفس الجدول ذي قاع قاتم، فستكون ذات لون بني داكن خلال بضع دقائق . تغير الحيوانات عديمة الشعر (الحيتان) لونها أيضاً، ومثله التورد عند الإنسان ، تغير بعض الزواحف أيضاً لونها بسرعة كبيرة [1] . لابد لي من القول إن ظاهرة مشابهة إلى حد ما ـ وهي مألوفة جداً إلى درجة أننا نتوقف عن التساؤل عنها في الحيوانات الأخرى ـ ممثلة أيضاً في الطيور عن طريق قدرتها على تغيير درجات لون ريشها، رغم أنها مختلفة هنا في

(١) يحدث تغير اللون السريع في الحيوانات الثديية ، الزواحف والأسماك الذي أشرت إليه نتيجة لعمل الدم في الجلد بينما يعود السبب في تلك الألوان التي تهمنا بشكل رئيسي إلى تغير في ريش الطيور وشعر الحيوانات وهنا يكمن واحد من الفوارق الأساسية بين الظاهرتين.

الخاصية وأكثر بطأ في عملها . سبق أن سميت التأثير الذي يسيطر على التغيير بالرغبة الخاصة .

ربما أمكن لعالم الأحياء أن يشرح الوسائل التي ينتج من خلالها هذه الألوان المتناغمة ، وذلك بعد أن يكون عالم الطبيعة الميداني قد قام بما عليه وقدم دليلاً كافيًا لإثبات أن وجودها منتظم . على الرغم من خطورة تقديم حالات تغير حدثت بشكل مصطنع عند أخذ التطور عبر وسائل طبيعية بالاعتبار ، فإنه يبدو مقبولاً أن نلاحظ هنا بأن الريش الأحمر لطائر الكناري ينتج عن تغذي الطائر الأصفر على الفلفل الأحمر .

إذا كنا مصيبين في افتراض أن الطيور قد تطورت من سلف من الزواحف ، فسيكون من السهل عندها على أي شخص شاهد العظاءة *Agama* الرملية تكتسي ـ عندما تكون مثارة ـ بالألوان الحمراء والزرقاء لطائر المقو ، قبول احتمال وجود قوة شبيهة إلى حد ما في الطيور لتغيير اللون تدريجيًا بسبب الإحساس الذي ينتجه الخوف . إن الطائر الذي يعشش على سطح الأرض ، ويرقد على بيضه لمدة شهر في موضع مكشوف /p.320/ ، وريشه غير متناغم مع الألوان المحيطة به ، سيتولد لديه مشاعر قلق ، كتلك التي تكون لدى امرأة تجد نفسها جالسة بجانب أخرى ذات لباس يتنافر لونه مع ذلك الخاص بها . باشتراط أن كل زوج من الطيور في تلك المنطقة يتأثر بنفس الطريقة ، فإنني أؤمن أنه يكون لمثل هذا الشعور تأثير مؤكد في غضون أجيال ، وهكذا نصل عند الفارق في ظلال اللون الذي يجعل عالم الطبيعة قادراً على تمييز الطيور التي تعشش في الصحراء الشاحبة من أقرانها الساكنة في منطقة أكثر دكانة بمعنى أنه يكون قادراً على أن يعطيها رتبة ثانوية .

من المعروف مسبقًا أنه لا يمكن أن يكون لديك نويعين (تحتي نوع) من نفس النوع تتكاثر في نفس المنطقة . ليس هذا لأنها لن تتكاثر ، ولكن بسبب أن النويعين

يتكاثران معًا وستجمع ذرياتهما خصائص اللون الذي يمكن المرء من التمييز بين والديها وهذا يعني أن تحتي النوع يصبح متماثلاً . ومن ناحية أخرى فإن الأنواع من نفس الجنس تستطيع فعلاً أن تتكاثر في نفس المنطقة لأنها لا تتزاوج في العادة معًا ذلك أن نوع أحدها لن يكون جذابًا للنوع الطبيعي والصحي للآخر .

لو تم التزاوج بين النوعين بشكل مصطنع أو تم مصادفة، كما يحدث نادرًا في الطبيعة، فإن الذرية ستكون عقيمة في الجيل الأول أوالثاني، أو ستكون معوقة بقوى إنتاج مختلفة ولن تبقى حية لفترة طويلة في الصراع من أجل البقاء بجانب النوعين الذكوريين اللذين نشأ منهما الهجائن . تمكن الولعون بطيور الأقفاص من إنسال هجائن بوفرة، وقيل إن بعضها مخصبًا، لكنهم لم ينجحوا حتى الآن في إنتاج نوع جديد من طيور الأقفاص الولودة عن طريق تهجين نوعين من الطيور .

أعتقد أن معظم الفوارق في اللون الملاحظة اليوم هي نتيجة فترة طويلة من الزمن وأن التغير كان تدريجيًا بنفس قدر التغير الجيولوجي والطبيعي للكرة الأرضية نفسها . كثيرًا /p.321/ ما نفكر في مئات السنين ، بينما يجب أن نفكر في مئات الآلاف منها .

يبدو لي أن هناك دليلاً قويًا على أن لون كل الحيوانات كان في الأصل أبيض ، بمعنى أنها كانت بلا لون وأن التلون قد حدث مع انتشار الأنواع المختلفة فوق سطح الأرض . حيثما كانت الرغبة سواء أكانت غير محسوسة أم شبه محسوسة للتناغم مع البيئة ثابتة في كل نوع لأجيال لا تحصى ، فإنه يكون لدينا دليل وافر على أن اللون قد أُكتسب ، يقارب طور اللون الأبيض لطائري الترمجان (*Lagopus mutus mutus*) وطيهوج الصفصاف (*Lagopus lagopus lagopus*) لحالة اللون الأصلية، عند نزولها إلى سفح الجبل الرمادي للتعشيش بعيدًا عن الثلوج، فإن ريشها الأبيض يجعلها تشعر أنها واضحة خلال هذه الفترة الحرجة، ولذا فإن رغبتها في الإبهام

أنتج وينتج ريش الصيف الرمادى ، ويسهل النظر إلى تطورها بهذه الطريقة بدلاً من الحالة العكسية، وهي أنها كانت أولاً ذات ريش رمادي ثم تخلت عن الريش الملون ؛ لأنها كانت تمضي الشتاء في الثلوج . حتى في الوقت الحاضر فإن الريش الصيفي لهذه الطيور ليس رماديًا كلية إذ يبقى الصدر وريش الطيران أبيض، وعندما يكون الطير راقدًا على العش فإن كلاً من الصدر والجزء الأبيض من الأجنحة تكون غير مرئية بالطبع ، وهذا يوحي بأن الرغبة في لون تناغمي قد مورس بشكل رئيسي على الريش الأساسي أو المكشوف .

لعلماء التشريح تميز عظيم في دراسة التطور على أولئك الذين يدرسون تغيرات اللون ، ذلك أن التطور عبر العصور كثيراً ما برهن بشكل رائع باكتشاف عظام متحجرة، لكن لا نملك نحن وسائل لمقارنة الفوارق في ألوان ريش الطيور خلال الفترات المختلفة من تاريخ الأرض.

نستطيع أن نؤكد بثقة أن حيوانات قطبية تجولت أثناء العصر الجليدي فوق بلاد هي الآن معتدلة المناخ ، ومن المحتمل أنها إستوائية . إن التشابه بين الحياة النباتية في جبال الألب والهملايا هو أمر ذو مغزى مهم ذلك أنه بينما لم يكن نوعا طير طيهوج الصفصاف (*Lagopus lagopus*) وطير البومة الثلجية (*Nyctea. nyctea*) /p.322/ معروفين في فرنسا أثناء العصور التاريخية ، وتنتمي الآن إلى حيوانات منطقة تقع إلى الشمال أكثر ، فقد اكتشفت عظامها مع ذلك في الكهوف الفرنسية الكبيرة مع عظام حيوان الرنة (راجع مجلة Ibis، ١٨٦٦ ، صفحة ٤١٤).

يبدو معقولاً أن نفترض أن الطيور التي استقرت في الأراضي المكشوفة نتيجة لتراجع الثلوج قد اكتسبت تدريجيًا ريشًا بنيًا ، في حين احتفظت تلك التي بقيت تحت ظروف قطبية باللون الأبيض الأصلي . إذا كان هذا هو الحال ، فإن طائر الطيهوج الأصلي، وهو نوع منقرض الآن كان أبيض في الشتاء والصيف ، والنوع

الموجود الأكثر قربًا لهذا هو طائر طيهوج الصفصاف الذي هو في المرحلة المتوسطة، وهناك أيضًا طائر آخر طرح الريش الأبيض كلية وهو طائر الطيهوج الاسكتلندي (*Lagopus scoticus scoticus*) .

يميل التناسل الداخلي لأي نوع إلى إنتاج أفراد ذوي لون أبيض، لا تحتاج ظروفها أن تجعلها عديمة اللون حقيقة بقدر ما أنها لا تكون مصحوبة بعيون قرنفلية. لابد لي من اعتبار أن كل هذه الحيوانات الشاذة البيضاء تشكل عودة إلى السلف الأصلي الأبيض. يسود انعدام اللون أو انعدام اللون الجزئي في طيور تتوالد على الأرجح داخليـًا ـ كتلك التي تربى منزليًا مثل طيور التدرج والشحرور والعصفور والسنونو. انظر شخصيًا إلى انعدام اللون الحقيقي على أنه ارتداد إلى النمط الأصلي (على الرغم من فارق طفيف في الخضاب)، بنفس النظرة لظهور فرس كميت ذي شريط لوني قاتم أسفل الظهر من أسلاف ذوي ألوان أخرى على أنه عودة أقل نائية عبر أجيال عديدة للحصان الوحشي.

يقرأ المرء في كتب العديد من المؤلفين ـ الذين ناقشوا مسألة الحماية التي يوفرها اللون بكل ثقل التجربة الميدانية لدعم فلسفتهم ـ هجومًا على حالات الطيور والحيوانات الموجودة في قاعة متحف التاريخ الطبيعي، حيث يعرض إهاب وريش أنواع مختلفة بهدف إظهار الحالات الأكثر روعة لتكيف الحيوانات اللوني مع محيطها . يبدو أن الانتقاد الرئيس ضد هذه المجموعات هو أنها مضللة، ففي الوقت الذي ترى فيه العينات ساكنة في المتحف /p.323/ فإنها عندما ترى حية في الحقل فهي تتجول وتفقد الاستفادة من أي حماية قد تستمدها من تلونها . لما كنت قد رأيت شخصيًا هذه الأنواع (الصحراوية منها) في مواطنها الأصلية ، فلابد لي من الاعتراف أن اهتمامي بمجموعات المتحف قد ازدادت، وقلما أمر بها دون الحصول على بعض المعلومات والاقتراحات من دراستها . ما أن ندرك أن الحماية التي يوفرها اللون تتوقف عن العمل عندما يكون الطير أو الحيوان متحركًا، وأن الطبيعة لم تقصد

له مطلقًا أن يعمل ، فإننا نبدأ بنظرية أكثر قابلية للعمل بكثير وربما نواصل دراستنا بعد أن نترك الحالات السابقة عبر السير في الرواق الطويل حيث ستمدنا مجموعات تظهر أعشاش الأنواع التي تتكاثر على سطح الأرض مثل طيور الطرائد والبط والطيور الخواضة وطيور السبد . . . إلخ بمزيد من الغذاء للفكر .

كون أن الطيور تدرك تمامًا أن تخفيها يتوقف عندما تتحرك هو أمر مبرهن في أحيان كثيرة . « تجمد» الصغار النشطة لأنواع الطيور التي تتكاثر على سطح الأرض حالما تعطى الأم إشارة الإنذار بالخطر ، وهي لا تنتقل من مكان إلى آخر معتمدة على شبهها للأرض من أجل أن تحمي نفسها ، كما أنها تدرك أيضًا أن سكونها قبل أن تتركز عين العدو على الأرض حيث هي ، هو أمر ذو قيمة أكبر من محاولة أن تختفي بعد أن يكون قد شاهدها .

لقد لاحظت أن طيور البوم والسبد الجاثمة تغلق جفونها تقريبًا عندما يُقترب منها ، ويظهر هذا فيما يبدو أن الطيور تدرك أن العين ـ وهي العلامة الأكثر وضوحًا منها ـ هي التي ستجذب الانتباه على الأرجح إلا إذا أخفيت ، وقد يشير هذا أيضًا إلى أن الجثوم هو إجراء سببي جزئيًا وليس مجرد استجابة غير واعية لعادة متوارثة .

سيلقي المصور الذي يتبع الطيور إلى مناطق تكاثرها ضوءاً أكثر على نظريات اللون ـ شريطة أن يلاحظ أيضًا درجات لون بيئتها ـ مقارنة بالصياد الذي يتعقبها في مواطنها الشتوية ببندقية /p.324/ .

الحيوانات

نحصل من الحيوانات الثديية على تأكيد أكبر عند الأخذ في الاعتبار سؤال تغير اللون، واحتمال أن أصول المجموعة الحيوانية الحيوانية كان أبيض. يكون الدب القطبي بالطبع أبيض في الصيف والشتاء، ويبدو أن هناك القليل من الشك أن أسلافه كانوا بيضًا ، ولما كانت السلالة قد فضلت عدم التغيير فقد أبقت ذلك اللون، ومن ناحية ثانية فقد رتب حيوان القاقم الأوروبي طوراً بنيًا لفصل الصيف عندما يذوب الثلج، ويدل هذا على رغبة في الإبهام لغايات هجومية فقط . يبقى الصوف البني ذا وصف غير مستقر لدرجة أنه ليس منظراً غريبًا أن نرى قاقمًا أوروبيًا أبيض في فصل الشتاء في جنوب إنجلترا حيث نادراً ما يستمر الثلج أكثر من بضعة أيام، وحيث يكون الصوف الأبيض عائقًا أكثر منه نفعًا على الأرض البنية . من الواضح أن لدينا في القاقم الأوروبي مثلاً ممتعًا في تغير اللون في الحيوانات المقيمة على الأراضي التي تركها الثلج المتراجع ، من المهم أن ندرك أن الصوف الأبيض لا ينتج بواسطة تغير اللون في الشعر البني ، كما كان مقبولاً فيما مضى بل ـ وكما قد يكون متوقعًا ـ بطرح وتغيير الصوف كما هو الحال عند الطيور[1] . كان الحيوان الأصلي أبيض مثل الدب خلال فصلي الشتاء والصيف ، فتطور الصوف البني في الصيف بسبب رغبة الحيوان ألاّ يكون واضحًا وفي الشمال يتغير اللون البني إلى الأبيض بشكل منتظم في الشتاء حيث يمكن الاعتماد على الثلج لمدة من الوقت لجعل الصوف الأبيض مرغوبًا . لدينا نفس الحيوان ـ في الجنوب حيث يتناقص الثلج ـ يصارع لخلع الصوف الأبيض والإبقاء على البني صيفًا وشتاءً وقد نجحت الغالبية مسبقًا في عمل ذلك إلى حد بعيد . إذا كان الصوف الأصلي بنيًا فليس هناك سبب واضح يوجب حدوث

(١) الأعمال المورفولوجية ، دي. جي . شوالب ، المجلد الثاني ، الصفحة ٤٨٣ ، يينا، ١٨٩٣م.

صوف الشتاء الأبيض الوقتي في جنوب إنجلترا من والدين ذوي أصواف بنية راسخة. ربما يكون حيوان ابن مقرض ذو العيون القرنفلية ارتداداً إلى حيوان ابن عرس المنتن الأصلي الناتج /p.325/ عن تناسل داخلي. تعتبر القواقم الأوروبية والثعالب والأرانب البرية من بين المخلوقات ذات المرحلة الشتوية البيضاء، وجميعها تجثم عندما تطارد أو تكون مطاردة. نستطيع من خلال نظريات السلف الأبيض والرغبة الخاصة أن نفسر الأجزاء التحتية البيضاء لكل حيوانات الصحراء تقريبًا وحيوانات أخرى عديدة، وخاصة تلك التي تتحرك قريبًا من الأرض. غيرت القوارض الصغيرة والأرانب البرية في يبرين ألوان ظهورها إلى أرق ظلال التلون الصحراوي، وهناك القليل من الشك في أن هذا حدث ـ كما هو الحال في الطيور ـ نتيجة لرغبة خاصة في التخفي طوال الوقت الذي تكون فيه ساكنة إلا أن هذه الرغبة لم يشعر بها أو أنها مورست فيما يتعلق بالأجزاء التحتية والتي بقيت بيضاء. لماذا كان لابد أن تختلف الأرنب الإنجليزية عن العربية في لون الظهر؟ ولماذا كان لابد لكل منهما ـ باستقلال ـ أن تشبه درجات لون بيئتها، ومع ذلك يكون لون الأجزاء التحتية لكليهما متطابقًا بمعنى: أبيض؟. تبقى الأجزاء التحتية للقواقم ذات الإهاب البني في الصيف بيضاء وذلك هو الحال مع جرابيع وعضلان الجزيرة بالعربية. تنتشر هذه الخصوصية عبر العديد من مجموعات الحيوانات المختلفة جداً بل وشوهدت حتى في الأسماك المفلطحة، حيث يتطابق لون السطح الأعلى مع الرمل من أجل الحماية بينما يكون السطح الأسفل أبيض تمامًا.

بالإضافة إلى اللونين الصحراوي الشاحب والقطبي الأبيض، فإن هناك لونًا آخر تم تبنيه من قبل عدد من الأجناس المختلفة جداً من القوارض الصغيرة في مناطق محددة في بلاد متفرقة جداً، وهذا هو لون رمادي أزرق جميل. لا مكان لمناقشة هذا هنا ذلك أن هذا اللون لا يظهر في الصحاري ولا يوجد حتى الآن دليل ميداني

كاف يوحي بسببه أو أصله ، لكن أي بحث عام عن اللون بين الحيوانات لابد أن يشمل مجموعة اللون المهمة هذه .

لما كانت الألوان التي توفر الحماية ليست معدلة فيما يتعلق بعيوننا الإنسانية ، فإننا نستطيع أن نخمن فقط التأثير المحدث على عيون الحيوانات المقصودة به . إن حقيقة أن كلاً من العضلان النهارية والليلية قد أثرت على ألوان الصحراء يدل ضمنًا على أن عيون البوم والثعالب /p.326/ تتحير بهذا في الليل بشكل متساو ، مثلما نعرف حيرة الصقور والنسور في النهار ، أو على الأصح أن الخوف متبوعًا بالرغبة يكون جليًا بنفس القدر لدى القوارض الليلية . لابد أن هناك حالات عديدة من التناغم العرضي مع البيئة بين العدد اللامحدود من الأشكال والألوان المأهولة بها الكرة الأرضية . سيكون من الخطأ محاولة تطبيق نظرية اللون الموفر للحماية على كل المخلوقات بناءً على هذا .

لن أضيف الظباء والغزلان بين المجموعات المحمية باللون ، لأنها أولاً تجوب بلاداً ذات ظلال لون مختلفة ، وسيكون مستحيلاً الحصول على ثبات في الرغبة للتناغم مع بيئات عديدة مختلفة ، قارن ظروف عيش هذه مع تلك الخاصة بنوع من حيوانات العضل الذي تمضي فصيلته وجودها في مجموعة واحدة من التلال الرملية . وهي ثانيًا لا تجثم أو تسكن أو تحاول تجنب أعدائها بالتخفي ، ولذلك فإنني أستخلص أن تلونها ـ كما هو الحال أيضًا مع حمير الوحش والزراف ، والتي هي طبقًا لملاحظات علماء الطبيعة تعيش حالة قلق دائم ـ هو نتيجة انتخاب طبيعي ، وأن الرغبة في أي لون معين تكون قد مورست قليلاً . لابد أن الأسد يشعر كثيراً بالرغبة في التخفي عندما يطارد فريسته خلسة في المرج المكشوف ، وأميل إلى الاعتقاد أن لونه قد تطور بواسطة رغبة خاصة . يفترض أن يكون الأسد ظاهراً بوضوح إذا كان الاختيار الطبيعي هو المؤثر الوحيد الفاعل . نحن نرى بقعًا على صغار الأسود . إذا

كانت الرغبة في لون غير واضح ـ وهي التي هيمنت ـ قد أزيلت بسبب الحياة في الغابة الكثيفة ـ كما هو الحال في النمر ـ فإن التفضيل الطبيعي لهذه الفصيلة بالنسبة لهذه البقع سيكون قد أنتج ـ كما اعتقد ـ جلداً قاتماً مبقعاً . النمر هو أيضاً حالة أخرى لتكييفة اللون . يكون نمر الغابات الإفريقية والهندية مبقعاً بكثافة على خلفية لون جلد رملي محمر . يكون تحت نوع آسيا الصغرى وفارس في الأراضي قليلة الغابات *Felis pardus tulliana* أكثر تبقعاً قليلاً على خلفية جلد أبيض تقريباً (مع شعر أطول) أما النمر الأبيض أو الثلجي /p.327/ (*F. uncia*) فإنه يكون أبيض تماماً بلون الأرض ولم يطور بقعاً تشبه بأي حال نفس العدد أو القتامة كما طورها النوع الهندي .

خاتمة

في رأيي فإن أي نوع يكون قد تشكل عبر التطور من جنس ، وأن فرعًا منه أو أكثر قد طور تبدلات تشريحية أو تركيبية بسبب الاختلاف في الطعام أو نمط الحياة أو سببًا مشابهًا . يعمل كل من الرغبة الخاصة والاختيار الطبيعي في نفس الوقت، وكل واحد منهما يؤثر على لون الأنواع المختلفة ،ولذا فقد تختلف بشكل كبير بعضها عن بعض وعن السلف الأصلي من هذه الناحية بالإضافة إلى التركيب .

يتناسل نوعان في نفس المنطقة لكنهما لا يتناسلان في الطبيعة مع بعضهما ، ويعود السبب جزئيًا من ناحية إلى أن الجنسين المتقابلين من الأنواع المختلفة تكون غير جذابة بعضها لبعض، وجزئيًا من ناحية أخرى بسبب العقم أو العقم الجزئي في النسل حيث تحدث الحالات الشاذة .

إن تحت النوع أو السلالة تحدث نتيجة لرغبة خاصة والاختيار الطبيعي وحده يكون فاعلاً على اللون لنوع ما ومشكلاً سلالة جغرافية واحدة أو أكثر لذلك النوع مع انتشاره وتناسله في بلد ذي ظلال لون مختلفة. يتناسل تحت نوع بحرية في الطبيعة مع تحت نوع آخر من نفس النوع وتكون الذرية بنفس درجة إخصاب الأصل الأبوي.

حيثما لا توجد حاجة أو رغبة في عائلة للتناغم مع البيئة لغرض دفاعي أو هجومي وبشكل خاص في الطيور خلال فترة الحضانة، فإن الاختيار الطبيعي سيكون المؤثر الأكبر الفاعل هنا (كما هو الأمر في حالة الأنواع التي تتناسل في الجحور) وستكون الألوان الفاتحة والتساوي في اللون لدى الأجناس مهيمنة . لكن حيثما يتسبب اللون الواضح في تعريض نجاح الفصيلة للخطر ـ كما هو الحال في معظم المتناسلين على سطح الأرض ـ فإن الرغبة الخاصة تكون هي الأكثر

فـاعلية. ومن نـاحية أخرى نرى /p.328/ ذكوراً وإناثًا أكثر دكانة في اللون حيث كل منها يأخذ دوره في عملية الحضانة كما نرى إناثًا داكنة وذكوراً فاتحة اللون عندما لا يأخذ الذكر دوراً في الحضانة، ونرى إناثًا فاتحة اللون وذكوراً داكنة عندما يكون الذكر فقط هو من يرقد على البيض ويعتني بالصغار.

لقد حصرت الأنواع المعروفة عن طريق الاختلافات التركيبية، سواء كان هناك فارق في اللون أم لا . أما تحت النوع فيميز عن طريق الاختلاف في اللون فقط؛ لذلك فإنني أومن بأن الفصل المعتمد على القياسات يجب أن يؤخذ بالاعتبار دائمًا لمرتبة محددة قبل أن يتم تحديدها . حيثما كان الفارق في الحجم طفيفًا جداً لدرجة أنه يستحق فقط إحداث تحت نوع ، فإن الطائر يجب أن يترك مع الشكل النموذجي ، إلا إذا كان هناك أيضًا فارق كاف في اللون يجعله يستحق اسمًا مميزاً كسلالة جغرافية.

كثيراً ما يتم التعرف على الفارق في الصوت والطيران والشكل بين الأنواع في الحقل، لكن ذلك لا يحدث أبداً بين تحت الأنواع حسب تجربتي. تحت النوع هو إبداع عالم الطبيعة الميداني، ويجب أن يعتمد عالم الطبيعة المكتبي على رقع المعلومات في المقام الأول عند تمييز سلالة جغرافية رغم أنه متى ما تم تحديد ذلك ، فإن الأفراد من سلالة جيدة يمكن عادة أن تصنف جغرافيًا من خلال اللون فقط.

سيصحح تعريفي للنوع، وتحت النوع أسماء عديدة أقف مختلفًا معها . فمثلاً سيصبح غراب القسيس في العراق (*Corvus cornix capellanus*) نوعًا وليس سلالة من الغراب ذي الغطاء أو غراب رويستون (*Corvus cornix cornix*) ، كما هو الحال في الوقت الحاضر . غراب القسيس أكبر حجمًا وأكثر شحوبًا من الآخر، وهو مقيم في سهول العراق ، وأعني بذلك أنه نادراً ما يتجول طوال فصلي الشتاء والصيف

بعيداً عن منطقة نخيل التمر لواديي دجلة والفرات . ينضم إليه في فصل الشتاء قريبه الغراب ذو الغطاء الأكثر دكانة في اللون ، والذي يرحل دائمًا في فصل الربيع ليتكاثر على الهضبة الفارسية المرتفعة على بعد مئات الأميال ـ حيث لا يرى غـراب القسيس أبدًا ـ وسيكون مأمونًا القول أن هذين النوعين لا يتكاثران فيما بينهما أبدًا . أشعر أن /p.329/ الفارق في الحجم والتفاوت العظيم في القوام ـ التي لابد أنها تميز المقيم من المهاجر ـ يجب أن تستحق فصلاً أوسع من الرغبةالخاصة (١) .

يستحق نوع آخر بالتأكيد من فصيلة الغراب كثيراً ما قابلته في الجزيرة العربية ، وهو الغراب الصحراوي أو الغراب بني الرقبة المسمى الآن *Corvus corax ruficollis* أن يكون نوعًا منفصلاً *Corvus ruficollis* ، يبدو أكثر شبهًا بغراب القيظ في حجمه وبنيته ومنقاره الطويل فاتح اللون ، ومع ذلك فإن الاسم كما هو قائم الآن يدل ضمنًا أنه تطور من الغراب الإنجليزي *Corvus corax corax* ، ويبدو بنفس درجة الاحتمال أنه أكثر ما يكون شبهًا بالغراب *corvus* الأصلي أو حتى أن الغراب الإنجليزي *Corvus corax corox* قد تطور منه . حدث من باب المصادفة على أية حال أن الغراب الإنجليزي *Corvus corax corax* كان الأول الذي اكتشف وسُمّي من قبل إنسان العصر الحديث ، ولذلك فقد أصبح النوع النموذجي تحت النظام الحالي مع أنه قد يكون الفرع الأحدث في شجرة التطور . ينطبق الشيء نفسه على بومة الصحراء النسارية *Bubo bubo desertorum* التي يوحي اسمها أنها تطورت من بومة أوروبا النسارية الكبيرة الداكنة *Bubo bubo bubo* وأنها سلالة جغرافية منها ، مع أن الأولى *desertorum* أصغر حجمًا وأكثر شحوبًا . لو أن طائر الصحراء الشاحب قد أحضر

(١) ليس هناك من دليل حتى الآن في الحالات حيث ـ كما وجد سيبوهم في سيبريا ـ تناسل الغراب ذو الغطاء وغراب الجيف ، بأن ذريتهم تذهب أكثر بعداً من نتائج التهجين الأول . يبدو أن ندرة الأمثلة أو الهجين المتوسط يبين أنها لا تفعل ذلك .

أولاً إلى لينيوس[١] فإن الطائر الأوروبي سيصبح تحت نوع لبومة *Bubo desertorum desertorum* ، بغض النظر عن تركيبها التشريحي ، أو أي إدعاء آخر لقدمها كفصيلة مستقلة .

هناك طائر آخر أعتبره نوعًا مستقلاً هو طائر الذعرة الشرقي الأصفر *Motacilla flava campestris* والذي يصنف الآن كسلالة من طائر الذعرة زرقاء الرأس *M. flava flava* مع أن أحدهما ذو رأس أصفر والآخر ذو رأس أزرق رمادي بجانب فوارق أخرى . ربما يكون طائر الذعرة الشرقي الأصفر سلالة من طائر الذعرة الغربي الأصفر ، (*M. raye*) ، لكنه على طرف نقيض من طائر الذعرة زرقاء الرأس *M.flava flava* ، التي لديها سلالاتها زرقاء الرأس الخاصة بها .

يبدو أن المهمة التي ستقع على عالم /p.330/ المستقبل ستكون إعادة ترتيب التصنيف الحالي للتوفيق بين التقسيمات الحقيقية للأنواع ومجموعة مصطلحاتها الحالية واضعًا النوع السلفي باعتباره النوع النموذجي تبعًا للدليل الذي يقدمه عالم التشريح ، كما هو الحال في الدلائل التي تقدمها بقايا المتحجرات وهلم جرا . لحسن الحظ فإن النظام الحالي هو النظام الوحيد الذي يكون معه التقدم ممكنًا لسنوات عديدة قادمة .

لم تلق الزواحف والحشرات أي إشارة في هذا الفصل لأنه لم يكن لدي سوى فرصة ضئيلة لدراستها ومع ذلك فإن التناغم في التنكر البيئي واللون لكليهما قد بلغ مرحلة عالية من التطور . تماثل العظاءة *Agama* بجلدها القاسي كثير العقد ،

(١) هو كارلوس لينيوس باللاتينية أو كارل فون ليني عالم نبات سويدي وأحد مؤسسي التصنيف الحديث للنباتات كما أنه صاحب التسمية الثنائية للنباتات والحيوانات ، توفى عام ١٧٧٨م ، انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، إشراف محمد شفيق غربال ، جـ٢ ، ص ١٦٠١ . (المترجمان)

الصخور تماماً كما هو الحال مع حشرة السرعوف وكلاهما يجثم ليستفيد لأقصى حد من التشبه.

لا يظهر أن الحشرات قد قامت بأي محاولة للتخفي اللوني أثناء الطيران أو الحركة، كثيراً ما تكون الأسطح العليا لأجنحة الفراشات مبهرجة وواضحة، وهذه الألوان تظهر فقط عندما تكون الفراشات إما ناشطة أو قادرة على الحصول على الأمان أثناء الطيران، وتكون الأجنحة مغلقة عندما تحط الفراشات للنوم وخلال فترات السبات وعندها تبدأ في العمل أمثلة صارخة لألوان الحماية أو الامتصاص على الأسطح التحتية للأجنحة، وهذا بالتأكيد يعطي الحشرة ميزة التخفي في بيئتها. تنام البشّارات بدون أن تقفل أجنحتها، وفي تغاير صارخ للفراشات فإن العديد منها قد طور ألوان امتصاص على الأسطح العليا للأجنحة. يوجد نوع معين من الجراد بكثرة في الصحاري، وله أجنحة قرمزية رائعة تجذب الانتباه خلال طيرانه القصير لكن اختفاء الحشرة الواضح عندما تحط على الأرض، هو فجائي وفعال في الوقت نفسه.

إنه لأمر ذو مغزى أن الحيوانات والطيور، التي تربض أو تجثم للهجوم أو الدفاع في الأرض المكشوفة، هي تلك التي حققت أعلى درجة من التطور للألوان التي توفر الحماية. إن طيور السبد هي من بين أفضل الأمثلة في ذلك فهي ليست فقط تكون /p.331/ مكشوفة خلال فترة الحضانة لكنها تجثم معظم العام على الأرض المكشوفة خلال النهار، ولديها فوق ذلك حاسة بصر ناقصة وهي إعاقة تواجهها القليل من مجموعات الطيور الأخرى، ومن المعقول أن نعتقد هنا أن هناك نوعًا من الارتباط بين ظروف حياتها غير العادية ولونها الرائع.

لعلي أقول في الختام أن فكرة «الرغبة الخاصة» خطرت لي في الصحراء عندما كنت أتفحص وأفكر في المشاكل التي تحدث هناك يوميًا ولما لم أكن قد قرأت في ذلك الوقت آراء أي تلامذة آخرين، فإنني لم أكن منحازاً بأفكار مسبقة. قرأت منذ

ذلك الحين أعمال أفضل المعروفين من علماء الطبيعة، ومن بينها كتاب «ذكريات ومذكرات الطبيعة الأفريقية» (African Nature Notes and Reminiscence) لمؤلفه سيلوس، وأجد أنني أتفق مع الاستنتاج الذي توصل إليه بالنسبة للبيئة مع فارق واحد، وهو أنه اعتبر أن البيئة أثرت بطريقة ما على لون الحيوانات، بينما ذهبت أنا إلى أبعد من ذلك وأصبحت مقتنعًا أن تغيير اللون ينتج من قبل الحيوانات أنفسها بسبب قدرة شعورية أو لا شعورية تمتلكها لتطوير درجات اللون عبر عملية غاية في التدرج خلال فترة طويلة من الزمن، وأن هذه القدرة موجهة باتجاه التناغم مع البيئة، وتكون الرغبة التي تؤثر على القدرة أعظم حدة خلال فترة الحضانة لدى أنواع الطيور التي تتكاثر على سطح الأرض، والتي سبق أن قدمنا بعضًا من أكثر الأمثلة روعة منها. تعمل هذه القدرة أيضًا بدرجة أقل في كل الأوقات مثل خلال مطاردة الفرائس خلسة أو الجثوم من أجل التخفي، وهي تعطي النتيجة المطلوبة إذا كانت الرغبة منتظمة وثابتة في الفصيلة كلها.

يجب ألاّ نخلط لون الصحراء مع التبييض أو البياض الذي يعود إلى إشعاعات الشمس المحرقة والمختلفة تمامًا والتي تؤثر تكرارًا على الريش والصوف القديم لطيور وحيوانات الصحراء. يتحول اللون الأسود تحت تأثير الشمس إلى اللون الخمري كما في الريش القديم للغراب والشعر الأسود للراتل بينما تبهت معظم الألوان الأخرى فحسب /p.332/.

على الرغم من أن القيام بمقارنات مغر إلا أنني أعتقد أن المتغيرات المسماة «السلالات» في الحيوانات الأليفة مثل: الماشية والكلاب والطيور والحمام يجب ألاّ يشار إليها ـ في ضوء النمط الاصطناعي لأصلها ـ عند الوصول إلى استنتاجات تتعلق بالتطور الطبيعي. لا ينشأ نوع طبيعي من متغير عرضي من النوع في أفراد

قليلين، لكنه نتيجة تأثير خارجي يعمل على كل فرد من الفصيلة مثل طريقة جديدة في الانتقال، واستخدام أكثر أو عدم استخدام للأطراف أو تغيير في الغذاء مضافًا إلى الاختيار الطبيعي . لن يبقى التغير العرضي في فرد أو فردين في ذرية الحيوان في الطبيعة عبر أكثر من الجيل الأول أو الثاني، وذلك بسبب التهجين مع الأنواع النموذجية . والفارق بين هذه والسلالات الأليفة هو أن أفراد هذه الأخيرة عندما تظهر المتغيرات العرضية التي ترضي ولع الإنسان تكون قادرة على أن تديم هذه الخصائص بسبب انعزالها الحذر ، بجانب الإنسان الذي يسمح لها أن تتناسل معًا ويمنعها من التناسل مع أمثلة نموذجية من الطبقة الأصلية . رغم أن هذا قد يستمر عبر أجيال عديدة إلا أنه لا يبدو أن هناك دليلاً على أنه سيكون هناك الفارق الذي يوجد بين نوعين فحسب ، وستبقى السلالتان في الحقيقة واحدة . لا تبدو لي السلالات المختلفة متباينة على وجه التحديد أكثر من الفرق بين رجل أسود ضخم وأخيه الأصغر أحمر الشعر . يمكن إنتاج قبيلة إنسان أحمر الشعر خلال أجيال قليلة إذا سُمح فقط لأناس ذوي شعر أحمر بالتناسل، وأبعد الأطفال ذوو الشعر الأسود من الجماعة واستبدلوا بأطفال ذوي شعر أحمر . لن يكون هؤلاء الناس مع ذلك نوعًا مختلفًا كما أنهم لن يكونوا في الطريق لتشكيل نوع مختلف . يثبت الفارق في رأيي بين السلالات من ناحية والأجناس والأنواع من ناحية أخرى عن طريق العقم الجزئي أو الكامل . لقد كان الكلب السلوقي أو كلب صيد الغزلان سلالة صافية لعدة آلاف من السنين ـ كما هو ثابت من التماثيل القديمة ـ ومع ذلك فإنه إذا هجن مع كلب البلدغ[1] فإن الذرية ستكون مخصبة بنفس قدر أي من /p.333/ السلالتين الأصليتين، أو حتى أكثر ، وفي رأيي أنها ستكون خصبة وبنفس القدر ولودة بعد مائة ألف سنة .

(١) كلب البلدغ هو كلب قوي جريء ضخم الرأس قصير الشعر . (المترجمان)

تصور معي ـ إن كان ذلك ممكنًا ـ أن كلب البلدغ والكلب السلوقي كانا ناتجين بواسطة التطور الطبيعي من الذئب بسبب الاحتياجات الخاصة للفرعين للحصول على الطعام . إحدى النقاط هي أنه كان سيستغرقهما مئات الآلاف من السنين ليكتسبا مثل هذه الفوارق بدلاً من أجيال قليلة من الاختيار الصناعي ، والنقطة الأخرى هي أنهما مختلفان جداً في الجمجمة وكل نسب الأجزاء لدرجة تجعلها تستحق الاعتبار كنوع إن لم يكن جنساً منفصلاً . إذا هجنت حيوانات مختلفة تمامًا فإنها ستنتج ـ طبقًا لقوانين الطبيعة كما نعرفها ـ صغاراً تكون إما عقيمة أو ذات قوى توالد ناقصة .

صحيح أن داروين استخدم السلالات الأليفة لتوضيح نظريته حول أصل الأنواع ، لكن كان لابد له أولاً أن يقنع عالمًا شكاكًا بأنه يوجد هناك شيء اسمه المتغير الوراثي ، وهنا يوجد مثل يسهل على أي شخص فهمه ، ما كان له أن يعتبر هذا القياس مثاليًا /p.334/ .

الفصل التاسع عشر :

مشاكل الشرب والماء

هناك أوقات تكون عندها الحيوانات الصحراوية مجبرة على العيش مع قدر قليل جداً من الماء ، ويبدو أن بعض الأشكال قد حلت مشكلة الحياة بدون شرب فعلي ، وتستطيع الحصول على رطوبة كافية بطرق أخرى . تصورت في وقت ما أن كل أشكال الحياة في الصحاري عديمة الماء متخصصة ولابد بطريقة ما لتكون مستغنية عن الحاجة إلى الشرب ، لكنني عدلت آرائي بشكل كبير منذ رحلتي إلى يبرين . إن الظروف التي تعيش تحتها الكائنات في هذه الأقاليم هي موضوع تلقى القليل من الدراسة المنهجية على أرض الواقع ، وذلك لأسباب واضحة وبالتالي فلا يستطيع أحد حتى مقارنة صحراء بأخرى لأن العوامل الإرصادية لأحدهما أو كليهما غير معروفة . هطول المطر في صحاري الجافورة ويبرين هو أمر غير مؤكد ، وكان قد مر وقت زيارتي ست سنوات على آخر هطول جيد للمطر . يقصد البدو بـ « المطر الجيد » وابل أو وبول من المطر تترك غدرانًا من الماء متجمعة في تجاويف حيث التربة التحتية المانعة للتسرب تجعل ذلك شيئًا ممكنًا . لم يسقط مطر على الإطلاق في فصل الشتاء الذي سبق وصولي وخلال السنوات السابقة كان هناك سقوط مطر قليل جداً ، وهذا في منطقة لا تسقط فيها أمطار صيفية وحيث يعتبر نصف بوصة في العام كافيًا . يمكن القول أن أشكال الحياة التي نجحت في العيش على هذه القفار هي فقط تلك المستغنية عن المطر لفترات طويلة .

وجد أن الكثبان الرملية مهيأة بشكل يثير الدهشة، لتستفيد إلى أقصى حد من هذه الإمدادات البسيطة ، وهذا يعني أنها ليست تمتص الماء في الحال فحسب، بل تحتفظ به على مسافة قصيرة تحت السطح، وتقاوم عملية التبخر بسبب الشمس والريح ، تقع الطبقة الرطبة بهذه الطريقة بشكل إيجابي حول جذور /p.335/ النباتات التي تندفع إلى أعلى على صورة أوراق وزهور، وتجعل الرطوبة في متناول الحيوانات من خلال البراعم الصغيرة والأوراق اللحمية . يبدو أن التبخر على السهول الحصوية أكثر سرعة، وتبعًا لذلك فإن النباتات أكثر ندرة . تبدو نبتة واحدة فقط هي العرفج قادرة على أن تستوطن في هذه الأرض بقدر من النجاح، وهي تنمو بشكل رئيس في تجاويف يكون تجمع قدر أكبر من الرمل فيها واضحًا .

الأوراق العصارية هي ميزة أساسية لعدة عائلات من النباتات الصحراوية وتحمل تلك التي تعود لعائلة *Zygophyllum album* وعائلة *Suæda vermiculata* شبهًا قويًا لعناقيد العنب الأخضر الصغير ، ولما كان سقوط المطر غير كاف ، فلا بد أن نتجه إلى المصدر الآخر الوحيد لإمدادات الرطوبة، وذلك هو الندى الذي يقرن الضباب معه، ولو أنهما في فحص أكثر شمولاً يتطلبان دراسة مستقلة لكل منهما، ذلك أن هناك أيامًا يكون الصباح فيها ذا ندى كثيف دون أن يكون مصحوبًا بالضباب .

كانت المرة الأولى التي أدركت فيها مدى اعتماد الحياة النباتية في بلاد صحراوية على السديم في ١٦ مارس ١٩٢١ . كنا قد لجأنا خلال عواصف بحرية إلى خليج صغير في الخليج العربي يسمى خور خوي[١] وسط جبال رأس مسندم

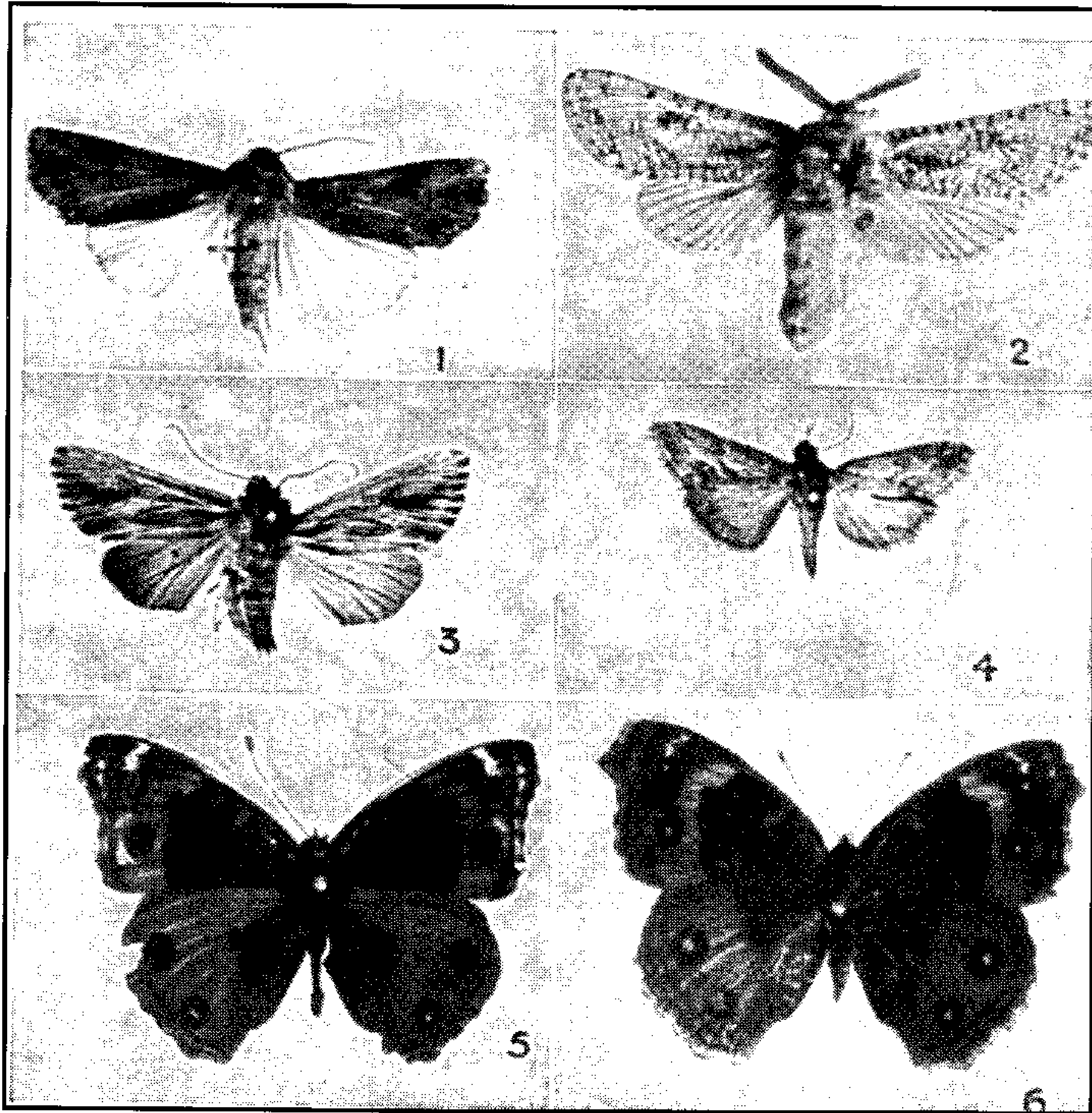
(١) خور خوي هو خور يقع بين جزيرة الغنم وساحل منطقة رؤوس الجبال في سلطنة عمان ويبلغ طوله ميلين وعرضه ٦٠٠ ياردة في مدخليه الشمالي والجنوبي . انظر: لوريمر ، دليل الخليج، القسم الجغرافي ، جـ٥ ، ص ١٩١٥ . (المترجمان)

البركانية الشاهقة من كل الجهات حولنا ، كانت منطقة عديمة الماء تماماً غير مأهوله بل وغير قابلة للسكن ،ومع ذلك فقد كان المنظر حولنا ذا سحر غامض . هناك في عمق مياه الخليج العربي الصافية والزرقاء يمكن رؤية حديقة ذات درجات لون رقيقة مع شعب ريشية من المرجان تغطي القاع ، بينما سبحت فوقها أسماك ذات ألوان أكثر روعة أيضًا . جدفنا زورقًا أنزلناه من سفينتنا إلى خليج صغير ، وفوجئنا أن وجدنا سفوح الجبل مكسوة بالشجيرات بشكل كثيف . تتلقى هذه المناطق الساحلية بالتأكيد قدراً من الأمطار أكبر من الصحاري الداخلية ، لكن معدل الأمطار السنوي قليل جداً . كانت الحياة النباتية كلها من الرتب المميزة المقاومة للجفاف ، وعند كسر غصين ظاهر الجفاف من شجيرة *Euphorbia larica* ، وجدنا /p.336/ دفقًا من سائل حليبي يجري بحرية من الساق . عرفت السبب فجر اليوم التالي عندما حُجبنا بغطاء كثيف من الضباب وانتقع كل شئ على ظهر السفينة ، وعند ارتفاع الشمس وانقشاع الضباب أمكن رؤية الأعمدة الأخيرة من السديم تتحرك بين المسايل مثل بالات ضخمة من القطن الطبي الأبيض (اللوحة ٦٥) . ترك ذلك القليل من الشك في ذهني بأن الحياة النباتية كانت تعتمد أساسًا على الماء الممتص بهذا الشكل ، وأمكن رؤية الماعز على قمم الجبال بواسطة مناظير الميدان ، ومن المستحيل القول ما إذا كانت متوحشة « ثار » أو في حالة شبه أليفة . كانت الشجيرات التي ترعاها قريبة جداً منها غالبًا ، وما كان لهذه الحيوانات أن تعيش على سفوح الجبل الصخرية لولا وجود النباتات التي تروى بالسديم .

حالات السديم التالية مختلفة إذ إنها حدثت في الداخل بعيداً عن التأثير المباشر لضباب البحر . تكونت سحابة من الضباب بتاريخ ٩ ديسمبر ١٩٢٣ على الهفوف على بعد أربعين ميلاً من الساحل . كانت الأشياء غير مرئية على بعد ثلاثمائة ياردة عند شروق الشمس ، وعندما ارتفعت هذه الأخيرة وبددت الضباب ، بلغت



اللوحة (٦٥) السديم عند الفجر في خور خوي - رأس مسندم



اللوحة (٦٦) نماذج من الفراشات

1. *Agrotis saracenica* Tams. — نوع ذكر جديد
2. *Cossus cbeesmani* Tams . — نوع ذكر جديد
3. *Tricocblea avempaacei* Tams . — نوع ذكر جديد ومكبر
4. *Noctuelia avicennæ* Tams . — نوع ذكر جديد ومكبر
5. *Precis oritbya cbeesmani* Riley. — تحت نوع ذكر جديد
6. Ditto. — تحت النوع السابق ولكن أنثى

[للإيضاح انظر الملحق الخامس]

درجة حرارة الظل ٥٩° فهرنهايت . وبلغت درجة حرارة الظل في ٢٨ ديسمبر في البلدة نفسها ٥٠° ، وتبدد ضباب بارد كان معلقًا فوق البلدة خلال ساعة واحدة . وبينما بلغت درجة الحرارة ٦٣° عند شروق الشمس يوم ٢٣ يناير وكانت السحب منخفضة ، لف البلدة ضباب مصحوب برشات من المطر أحيانًا . ولاحظت في ٣١ يناير أن درجة الحرارة عند شروق الشمس كانت ٦٦° يصاحبها ضباب خفيف في البلدة .لم يكن ممكنًا ملاحظة حدوث الندى لأن هذه الملاحظات كانت تتم في منزل، لكن سيكون مأمونًا أن نفترض أن معظم الأيام عديمة الريح تكون مصحوبة عند الفجر بتكثف للندى فى الصحراء خارج البلدة.

تلاشت الريح خلال الليل يوم ١١ فبراير في الكثبان الرملية لصحراء الجافورة على بعد ثمانين ميلاً من البحر ، وحل علينا ندى كثيف جدًا لم ينقع صناديقنا داخل وخارج الخيمة فحسب ،ولكن تشبع به الرمل إلى عمق نصف بوصة . كانت درجة حرارة الظل عند الفجر ٤٨° ، وتكون الندى بدون /p.337/ أن يكون هناك سحابة في السماء أو سديم . كانت الريح شمالية وفي ذلك الاتجاه يكون البحر على بعد حوالي مائة ميل .

كان هناك ضباب كثيف أبيض يوم ١٥ فبراير يغطي التلال الرملية في زيدا الجافورة على بعد ثمانين ميلاً أخرى من الموقع السابق في نفس الصحراء، وأمكننا الرؤية لمسافة مائة ياردة فقط ،كما كان هناك ندى كثيف أيضًا . بينما كنت أقف موليًا ظهري للشمس الشارقة ، أمكن رؤية قوس قزح أبيض ينعكس على الضباب القريب مني . كان هناك أيضًا قطرات ندى على كل الشجيرات تتدلى من الأغصان وتتساقط على الرمل المنقر بعلامات التساقط .

هذه هي حالات الندى الوحيدة المذكورة في دفتر اليوميات ، لكن لو كان هناك فرصة أكبر للملاحظة دقيقة فمن المؤكد أن هناك أيامًا عديدة أكثر شوهد فيها ندى أقل

كثافة على الشجيرات في الصباح الباكر . بعد أن تكون شمس النهار الحارة والريح قد جففت سطح الرمل ، فإنه يمكن اكتشاف الندى بواسطة الحفر لعمق ست بوصات من السطح حيث تقع طبقة داكنة تحتية مشبعة بالرطوبة .

شوهد مظهر آخر مرتبط بالكثبان والحفاظ على الماء في بعض جذور العشب ، الذي يشبه نبات السمار التي تعرى أحيانًا بواسطة الريح ، التي تزيح الرمل بعيداً . هذه الجذور نحيلة وسلكية لكنها تكون عند فواصل من بوصة أو نحوها منتفخة بشكل نتوء مستدير مثل حبة بطاطس صغيرة . تكون الجذور والسيقان تحت الأرض للنبتتين الطفيليتين « الطرثوث» *Cynomorium coccineum* و« الذانون» *Phelipæa lutea* أكثر تضخمًا وعصارة بكثير من ساق الزهرة فوق الأرض .

كان بإمكان أي عدد من الحيوانات والطيور أن تشرب حتى الرواء من قطرات الندى على الشجيرات صباح الخامس عشر من فبراير ، وهذه الحقيقة وحدها تجعل من الصعب علي أن أقدم أي نظرية حول ما إذا كانت الأنواع المختلفة المشاهدة قادرة على العيش بشكل كلي بدون ماء أم لا . يبدو أن أنواعًا عديدة تستخدم هذا الجزء من العام للقيام « بجولة » غذاء في أجزاء من البلاد تكون محرومة منها خلال /p.338/ بقية العام بسبب انعدام الماء . هذه عادة معروفة جيداً ليس فقط للعرب الرحل أنفسهم بل للقطا . يلاحظ هذا بوضوح على ضفاف نهر دجلة خلال فصل الصيف حيث يعيش القطا ذو الريشات الطويلة وسط الذيل (*Pterocles alchata caudata*) والقطا المنقط (*ptercles senegallus*) على بقعة أرض محددة طوال الصيف ، ويشرب مرتين في اليوم من النهر بشكل منتظم . لابد أن الطعام يكون قليلاً على هذه الأراضي المزدحمة مع نهاية الموسم ، ويؤذن أول تساقط غزير للمطر كاف لتكوين غدران في التجاويف برحيل الطيور إلى مراع جديدة تستغني فيه عن النهر ، وتكون حرة في التجوال بعيداً عن ضفافه . يقود هذا إلى حد معين تحركات

الطيور في أي صحراء ، وأشعر بالتأكيد أن المجموعات الصغيرة من قنابر الصحراء *Ammomanes* التي قابلتها في الصحراء عديمة الماء كانت «تتجول» فقط خلال فترة الندى . ليس ممكنًا حتى تخمين عدد الأشهر من السنة التي يتساقط فيها الندى بسبب عدم وجود المعلومات .

كنت قد كونت سابقًا الرأي بأن قنابر الصحراء *Ammomanes* تكون دائمًا قريبة من الماء، رغم أنها تحب الجبال الجرداء عديمة الماء . قامت هذه النظرية على ثلاث حالات قوية جدًا ، وكانت الأولى خلال رحلة سابقة إلى جبال بشتي كوة[١] في فارس أواخر فصل الصيف . كان كل شيء عند تلال السفوح محروقًا وجافًا ، وعندما أتينا إلى الآبار حيث يسقي الرعاة قطعانهم ، كانت كل قنبرة صحراء *Ammomanes* من مسافة أميال حول المنطقة محتشدة حول هذه المواقع كما اصطفت قنابر الصحراء حول أحواض الماء لتشرب حالما غادرت الأغنام ، وقد شوهد نفس المنظر عند كل الآبار هناك ، وكانت الحالة الثانية خلال رحلة من العقير إلى سلوى ، وهي مسيرة على أرض عديمة الماء لمسافة ستين ميلاً ، نزلنا أثناءها عند أبو مهرة[٢] على بئر ماء لم يكن الرجال يعلمون عنها . اصطدت ذلك المساء قنبرة صحراء *Amomamones* كانت الوحيدة التي شوهدت خلال تلك الرحلة . كانت الحالة الثالثة في الهفوف . كنت قد شاهدت المبنى الصغير ذا القبة أو الحمام العمومي المقام على عين نجم خارج البلدة في الصحراء ، وعلى بعد حوالي نصف ميل من /p.339/ جبل أبو غنيمة الأجرد عديم الماء ، ولما كنت قد كونت هذا الرأي عن قنبرة الصحراء *Ammomanes* ولأنني كنت آمل أن أجد هذا الجنس في الأحساء ، فقد

(١) تقع جبال بشتي كوه في غرب إيران ، وهي جزء من جبال زاجروس على امتداد حدود إيران مع وسط العراق . (المترجمان)

(٢) لم يرد ذكر لموقع أبو مهرة في المعاجم الجغرافية . (المترجمان)

جعلت هذه البئر هدفي، وأخبرت الرجال عما كنت أبحث عنه . لم يكونوا قد ربطوا أعنة خيولنا عندما سمعت تغريد الطير، ورأيت واحداً منها يجلس على أعلى البناية . نبهت الرجال بسرعة عن نواياي وأطلقت النار فوق رؤوسهم ،وقد تساوى ذهو لهم مع سعادتي عندما التقطوا قنبرة صحراء قشدية اللون تسمى الآن العزيزي الصحراوي *A. deserti azizi* ، كانت مطابقة تماماً في النوع والمكان لما سبق أن أخبرتهم عنه . سأتطلب الآن الكثير من الإقناع لأثبت أن قنبرة الصحراء *Ammomanes* لاتحتاج للشرب .

كان الماء في هذه العين مغطى تماماً وكان بإمكان الطيور أن تشرب عن طريق الدخول إلى الحمام عبر الفتحات في الجدران الخربة فقط . بدا أن قنابر الصحراء Ammomanes قد اكتسبت عادات خاصة لإرواء عطشها بمعنى أنه في حالة الآبار العميقة فإنها تنتظر حتى يسقى البدو إبلهم، وهي تعلم أن قدراً معيناً من الماء سوف ينثر أو يترك لها . لا بد من اعتبار أن قدرتها على معرفة طريقها إلى داخل بناية للشرب عادة مكتسبة وتنم عن حس قوي لشم الماء .

يبلغ عمق الغالبية العظمى من الآبار المعزولة في الصحاري حوالي عشرين قدماً ، وفم البئر عادة صغير لمنع الرمل من دخولها ودفنها ، ولذا سيكون من الصعب على طير دخول هذه الآبار والشرب ثم الخروج بدون أن يغرق، ولذلك فإن مياه هذه الآبار تكون متاحة فقط بمساعدة الإنسان . كان طير زقزاق نورفولك (*Burhinus œdicnemus*) يأتي بشكل روتيني إلى البئر في سلوى ليشرب في المساء، بدت العادة معروفة جداً للبدوي الذي أخبرني عنها، واستعار بندقيتي ثم كمن لها واصطاد واحداً منها . لا يمكن أن تكون هذه زيارة مصادفة، إذ إن البئر مختلفة عن النوع المألوف فعمقها لايزيد عن حوالي خمسة أو ستة أقدام، وكان الوصول إلى الماء سهلاً على الطيور . نعم رأيت بالتأكيد آثار أقدام هذا الزقزاق

على بعد ثمانين إلى مائة ميل من الماء لكن هذه المسافة لا تستغرق أكثر من ساعة طيران /p.340/ وكما أشرت مسبقًا فقد كان هناك ندى صباحي في ذلك الوقت .

مع ذلك لا يبدو أن القنبرة ثنائية التقليم *Alæmon alaudipes* قد ضبطت حتى الآن أبدًا تبدي رغبة في الماء . رأيت واحدة منها عند بئر زرنوقة ـ حيث كانت إبلنا قد شربت وتركت بعض بريكات الماء ـ تجري باتجاه البئر وراقبتها ظانًا أنها قادمة لتشرب ، لكنها جرت قريبًا جدًا من الماء ومرت به وتركته خلفها ، وكان اهتمامها الوحيد مركزًا على نوع من الحشرات كانت تحفر في الرمل بجلد من أجله .

إنه لأمر رائع كم من صحاري الكثبان الرملية الفسيحة مسكونة بها يوميًا ، آثارها مستقيمة من شجيرة إلى أخرى وأثر كل قدم أمام الآخر تمامًا ، ويبدو كما لو تمت زيارة كل شجيرة تقريبًا . بصرف النظر عن الشرب المحتمل من الندى ، فإن لدي فكرة قوامها أن هذه الطيور لا تشرب الماء ، لكن هذه الفكرة قائمة على قدر ضئيل من الإثبات يعتمد على أنها لا تشرب عندما يكون الماء متاحًا ، وهي ليست نزاعة إلى الرحيل بعيدًا عن بيئتها المعينة ، ولأنني رأيتها في أيام الصيف الحارة في العراق بعيدًا عن الماء . القنابر قصيرة الأصابع مختلفة تمامًا إذ يمكن رؤيتها بعد ظهر أي يوم في الهفوف تطير في أسراب إلى واحدة من بحيرات الصرف لتشرب وتعود بنظامية جدية .

ليس لدى النعام فرصة كبيرة للشرب في سهول وصحاري الجزيرة العربية عديمة الماء التي تعيش فيها ، فهناك الندى فقط ، ومع ذلك فقد اعتادت النعامتان اللتان أرسلهما سلطان نجد حيتين إلى السير برسي كوكس أن تشربا بشكل منتظم من صفيحة قصدير ، حيث إعتادت الواحدة منهما أن تملأ فمها ومن ثم ترفع رأسها إلى أعلى ليجري الماء أسفل حلقها كما لو كان بنفس الأسلوب الذي ولد معها .

لدى هذه الطيور عادة غريبة تتمثل في النقر على أي شئ صلب ولامع ، ومن ثم تمر بحركة البلع مع أنه ليس هناك شيء يبلع بالطبع . يمكن رؤية نفس العادة لدى النعامة الأفريقية وهي تسلية لا يتعبون منها أبداً . يبدو /p.341/ محتملاً جداً أن لهذه الخدعة الغريبة بعض الصلة بطريقة جمعها للندى من الشجيرات ، ومن الصعب تفسيرها بطريق آخر .

لقد لاحظ العميد مينرزهاجن أن حمام الورشان أو الحمام المطوق يشرب من العشب المحمل بالندى في حدائق لندن العامة ، كما وجد أن حواصل الطيور المصطادة في الصباح الباكر في الصحراء السورية تكون مليئة بالماء [١] .

تقصر الحيوانات أنفسها على مناطق إقامتها أكثر من الطيور ، ونكون نحن على أرض صلبة عندما نقول إن غالبية الحيوانات المذكورة في ورقة الحيوانات الثديية في الملحق الأول من هذا الكتاب تعتمد كلية على الندى والماء الموجود في النباتات ، التي تعيش عليها من أجل الرطوبة التي تتطلبها . تدين المها بوجودها المستمر في الجزيرة العربية لقدرتها على العيش في أماكن ليست في متناول البدوي بسبب طبيعتها عديمة الماء ولابد لصائدي المها العربية في الحقيقة من الاعتماد على حليب الإبل ، كما أن مدى رحلاتهم محكوم بالوقت الذي تستطيع فيه إبلهم العيش بدون ماء ، ومع ذلك فإن السيد سث سميث يعلمني أن المها العربية في حدائق الحيوان في لندن تشرب الماء أحيانًا ولكن نادراً جداً .

دعني هنا أحذر المسافرين الذي يفكرون في القيام برحلات طويلة عديمة المياه بأن الإحصاءات عن قدرة الجمل على التحمل هي في معظمها مستقاة من بدوي واسع الخيال بواسطة مسافرين بالغي السذاجة . إن مما يتفق مع العقل أنه إذا كان

(١) «رحلة عبر الصحراء السورية الجنوبية» . مجلة Ibis ، يناير ١٩٢٤ .

في مقدور الإبل التي ترعى البقاء شهرين بدون ماء ، فسيُنتفع من كل منطقة الرعي في صحراء الجنوب العظيمة وستقطعها طرق التجارة في اتجاهات مختلفة ولكن هذه ليست القضية في كلتا الحالتين . حتى آل مرة ـ الذين ليس هناك المزيد الذي يتعلمونه عن العيش القاحل أو مهنة العيش في الصحراء ـ يعترفون بأنهم يستطيعون فقط الانتفاع من النباتات حول مقينمة ـ التي تبعد خمسة أيام جنوب يبرين ـ وذلك في السنوات التي تشهد كميات مطر استثنائية ، لأنهم في تلك الحالة فقط يجدون ماءً في آبار مقينمة . يجعلون مقرهم في أوقات أخرى عند آبار يبرين ، وهذا يعني ثلاثة أو أربعة أيام خروجًا للمرعى ومثلها عودة منه ، أي ستة إلى ثمانية أيام /p.342/ بدون شرب كحد أقصى هم مستعدون للسماح لإبلهم بقضائها بدون أن يسببوا لها أذى ، وقد يكونون أثناء الغارات مستعدين للمخاطرة بضعفي المدة. حول نار المخيم وعندما لا يكون هناك احتمال فوري لوضع أقوالهم على محك إثبات فعلي ، فلابد لي أن أتوقع سماع أكثر القصص غير القابلة للتصديق عن قدرات الجمل للامتناع عن شرب الماء ، لكن لا يجب أن أكون وقحًا بحيث أناقضهم ، ولا متهوراً بحيث أصدقهم ، وأشعر واثقًا أنه لو طلب جديًا من الراوية أن يقوم برحلة كهذه التي وصفها فإنه سيجد سببًا وجيهًا يقدمه من أجل تأجيل لا محدود .

تحكى كثيراً روايات بنفس الطريقة تقريبًا عن سرعة الجمل في قطع مسافات طويلة لكن ما يحدث حقيقة في رحلة العربي هو أن يقطع في اليوم الأول مسافة معقولة ، ويبحث في اليوم الثاني عن جمله المفقود وهو وقت على أية حال يؤخذ في الحساب بحيث لا يؤثر على معدل المسافة المقطوعة في اليوم . كانت أطول رحلاتي مسيرتين مدة كل منهما ستة أيام لم تشرب الإبل خلالها . كان الوقت من العام أوائل الربيع ، وكانت الإبل في معظم الأمسيات تتمكن من الرعي لمدة ساعتين على

البراعم والأوراق الجديدة الغضة من أشجار الصحراء الخفيضة، كما لوحظ ندى كثيف وقت الصباح في عديد من الأيام . رغم أنه من المحتمل أن المراعي ستكون مورقة أكثر بعد شهر إلا أن الحالة لا يمكن أن تسمى سيئة بالنسبة لهذه الصحاري الجافة، ومع ذلك فقرب نهاية الرحلة أُعتبرت الإبل تعبة، لأنها كانت عطشى ، وقد تمكنا من قياس ذلك العطش لدى أول جملين وصلا إلى البئر بحساب عدد الدلاء وقدرنا أن كل واحد منهما استهلك ما بين تسعة إلى اثني عشر جالونا ، كان بعضها قلما يبتلع الماء عندما تكون قرب الآبار وتشرب يوميًا فيما يكتفي البعض الآخر بجالونين أو ثلاثة . قال محمد حسن ـ ونحن في يبرين ـ : إنه يأمل ألا تأكل الإبل كثيراً من النبتة المسماة سواد لأنها « حارة » كما قال، وتجعلها تريد الشرب كثيراً. نبتة السواد للغرابة التامة هي واحدة من الشجيرات ذات الأوراق كثيرة العصارة والتي يفترض /p.343/ طبقًا لبعض النظريات ـ أن تكون بديلاً للشرب بين حيوانات الصحراء. لا يبدو محتملاً أن يكون مالك إبل قلقًا على الإطلاق حول ما أكلت حيواناته قبل مسيرة ستة أيام عديمة الماء ، إذا كانت تستطيع السير لمدة شهرين بدون ماء.

كان رأيي عند نهاية رحلتنا للأيام الستة هو أن الإبل رغم عطشها إلا أنها ليست في وضع حرج، وكان بإمكانها إمضاء ضعف ذلك الوقت بدون عواقب وخيمة ، لكن ما يصعب تصديقه هو أن تتمكن الإبل ـ سواء كانت سائرة، أوترعى ـ من البقاء حية عشرة أو حتى خمسة أضعاف المسافة بدون ماء .

يقول حسنين بيه في وصفه لواحدة من المراحل الأولى لرحلته الطويلة في الصحراء الليبية : إنه بدأ في ١٥ مارس من جالو[١] إلى بئر زيغن ، وهي مسافة تبلغ حوالي مائتين وخمسين ميلاً ووصل إلى هدفه في ٢٦ مارس، ويصفها بأنها

(١) جالو هي إحدى الواحات في شرق ليبيا . (المترجمان)

كانت رحلة طويلة عديمة الماء ، حدث خلالها « أن مات أحد الجمال وكان اثنان آخران منهكان جداً لدرجة أننا فقدناهما بعد ذلك بقليل »[1] .

هذه رحلة كانت مدتها اثنى عشر يوماً فقط ، وكانت الماشية نشطة . استغرقت المسافة الكلية عديمة الماء لرحلتي هذه اثني عشر يوماً مع توقف وراحة وشرب للإبل في يبرين في منتصف المدة ، ومع ذلك فقد بدأت إبلنا تتعب قرب نهاية الرحلة بل إن واحداً منها تخلف عن القافلة ، واضطررنا لترك أحد الرجال في الخلف معه حتى يستطيع السير على راحته .

درس الرجال بترو الرحلة إلى سلوى عام ١٩٢١ من زاوية احتمال أن تظمأ الإبل على الرغم من أنه قُدر أن نصل الآبار خلال حوالي أربعة أيام فقط مع أنه صحيح أن انعدام الغذاء اعتبر محتملاً في هذه الحالة أيضاً . مشى جملي نحو بركة على الشاطيء عندما كنا قرب ساحل البحر ، ولأنني سبق أن قرأت في مكان ما أن الإبل تشرب الماء المالح فإنني لم أوقفه إلا عندما أعلمتني صرخات الرجال المتهيجة أن الماء سيكون ضاراً به .

أسقى الرجال الإبل من قربنا عند حوالي منتصف الطريق في تلك الرحلة وهو ما يوافق اليوم الثالث من بدئها . تميل كل هذه الحالات إلى إظهار أن القصص عن قدرة الإبل /p.344/ على البقاء فترات طويلة بدون ماء يجب أن تفحص بحذر شديد من قبل أي شخص يفكر جديًا في القيام برحلة طويلة في صحراء عديمة الماء لاخرائط لها .

قال دليلي المري : إن هناك رجالاً من قبيلته عبروا ركن الرمال أو صحراء الجنوب العظيمة إلى نجران وهي رحلة استغرقت شهراً لكن هذا لايعني بالضرورة

(١) حسنين بيه : عبر الكفرة إلى دارفور ، المجلة الجغرافية اكتوبر / ١٩٢٤ .

شهراً من السير الجاد بلا ماء . نحن نعلم أنهم في سنوات معينة يجدون ماءً في آبار مقينمه (وبالتأكيد فهناك آبار لا خرائط لها ولكنها معروفة للبدوي) قبل الوصول إلى واحة نجران ، ولذلك فإن الجزء الأطول عديم الماء سيزيد احتمالاً عن ثلاثمائة ميل قليلاً ، وهو ما يستغرق أربعة عشر أو خمسة عشر يومًا هذا بالطبع شريطة أن تكون السنة التي اختيرت للرحلة سنة مطيرة .

أعطاني الذئب دليلاً يجعل من الصعوبة القول أن الذئاب تستغني عن الماء ، إذ إن واحداً منها خاطر بحياته في وادي السهباء ليدخل مخيمنا ويسرق قربة ماء وأعتقد أنه يمكننا القول أنه رغم أن الذئاب تغطي مناطق واسعة قاحلة في بحثها عن الطعام إلا أنها تعود دوريًا للشرب . تشير هذه القضية إلى تطور عال لحاسة شم الماء ، فقد كان هناك عيبات تمر لو أراد الطعام ، لكن اهتمامه تركز على قرب الماء كما ثبت من آثار أقدامه . الراتل مخلوق حيواني مقوس الأقدام بطيء الحركة وبجانب حقيقة أنه يفضل أكثر الفيافي جفافًا فإن القليل معروف عن عاداته ، ويوحي وجوده في كثبان الجافورة الرملية إلى انضمامه إلى مجموعة عديمي الشرب ، ولابد أنه يعتمد على الندى ، وما يمكن أن يحصل عليه من رطوبة نتيجة أكله للجيف ، ومع ذلك فإن السؤال حول إمدادات الطعام لهذه الحيوان في مكان مثل الجافورة يقدم مشكلة أكبر من تلك التي يقدمها الماء ، يقول البدو : إنه يعيش على جثث البشر لكنه كان بعيداً في موقعه هذا من أقرب مقبرة .

لا ترى القوارض التي هي العضلان والجرذان و الجرابيع الماء أبداً في برك في الأماكن التي تعيش فيها وهي تعتمد بالتأكيد على الندى . اعتادت الجرابيع التي أبقيتها في قفص في البصرة أن تشرب بغمس أقدامها الأمامية في الماء /p.345/ ولحسها . تضطجع خلال أشد ساعات الصيف حرارة ـ ربما ١١٠° في الظل ممددة وساكنة في حالة سبات كامل مثل حيوان زغبة إنجليزي في جو بارد .

تمضي قوارض الجزيرة العربية النهار في الطبقة التحتية للرمل التي تحوي أكثر الرطوبة ، تمدها الطبيعة خلال الشتاء بماء وافر على شكل ندى عند أبواب جحورها، وهناك الأوراق اللحمية التي تتغذى عليها . نستطيع فقط أن نحدس أنها تعيش خلال الصيف على قدر من الرطوبة أقل وربما تنام خلال أشد ساعات النهار حرارة وتتجنب التبخر المفرط . تفحصت معدات العديد من هذه المخلوقات وكان طعامها مطحونًا جدًا لدرجة لا يمكن التعرف عليه لكنه بدا في كل الأحوال من أوراق شجر الصحراء وكان بشكل ثابت في حالة عجينة رطبة .

الأرنب الإنجليزي هو حالة مألوفة لحيوان عديم الشرب ولم أشاهد أو أسمع أبدًا عن أرنب إنجليزي يذهب إلى بركة ليشرب إلا أن طعامها يحتوى على نسبة أعلى من الرطوبة من تلك التي تحصل عليها حيوانات الصحراء الثديية . وصحيح أن المطر والندى أكثر وفرة في إنجلترا ، لكن يبدو أن المبدأ الأساسي واحد /p.346/ .

الملاحق

ملحق رقم (١)

الثدييات

لابد من ذكر الحيتان في قائمة ثدييات شرق الجزيرة العربية مع أنه لم يدون حولها إلا القليل جداً من المعلومات . يقوم على الأقل أحد أنواع الحيتان الكبيرة بزيارات سنوية لبحر ساحل حضرموت والخليج العربي، وقد عرفه بلانفورد (Blanford) في كتابه شرق فارس (*Eastern Persia*) باسم (*Balaenoptera Indica*) .

يمكن افتراض أن هذه الحيتان جاءت من مناطق القطب الجنوبي لتتوالد في البحار الدافئة . من ناحية أخرى فعندما رأيتها في نوفمبر كان يجب أن تكون في الجنوب حيث صيف القطب الجنوبي ، وإن كانت من الشمال فليس من السهل تفسير رحلتها السنوية إلى بحر تحيط به الأرض من الشمال . كان السير أرنولد ويلسون قد نبهني إلى إشارات قديمة للحيتان في الخليج العربي عند كل من أريان وسترابو حيث ذكر أريان بأن بحارة نيرشو قاسوا أحدها وكان طوله ٥٠ ذراعاً . كما أنه قد سمع منذ فترة قريبة في أكتوبر ١٩٢١م بجنوح ستة حيتان على جزيرة قشم . كما استخرجت من يومياتي ثلاث إشارات لها : في يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٢٣م كانت الحيتان كثيرة على بعد ثلاثة أميال من ساحل حضرموت بين المكلا ورأس فرتك . في اليوم التالي رأينا المزيد منها على بعد حوالي ٢٠٠ ميل قرب عمان . وفي اليوم الأول من نوفمبر ١٩٢٣م لاحظنا وجود ثلاثة حيتان في ميناء بندر عباس .

إن جمع معلومات منظمة حول وصول هذه الحيتان ومغادرتها لهذه المياه والتعرف على أنواعها وبعض التوثيق لأعدادها إذا لوحظ أكثر من واحد ، كل هذا سيؤدي إلى نتائج قيمة .

خنازير البحر كثيرة كذلك وتمتد على طول الخليج العربي . يكاد يكون حدثًا يوميًا أن تمر ببقعة كبيرة من الماء العكر بسبب مرور مئات من خنازير البحر السود الصغيرة ، وهي إما صغيرة أو من أنواع صغيرة جداً وكلها تقريبًا بنفس الحجم . تقفز من الماء في مجموعات ، ولكنها لا تلعب أمام مقدمات السفن مثلما تفعل الكبار منها . خنازير البحر مرادفة للدلافين مع أن اسم الدلفين/p.347/ يضم عمومًا إلى الأصناف ذات الخرطوم الطويل ، وهذه صفة تندرج في كل العائلة . يمكن تمييز خنازير البحر والحيتان عن الأسماك الكبيرة عن طريق أذيالها الأفقية والأسماك ذات الزعانف العمودية هي التي يمكن أن تشتبه معها .

عند رحالة المحيط الهندي القدماء يعتبر الأطوم «حورية الماء» هو الأكثر شهرة من بين الثدييات البحرية وقد حُصل على عينات منها في عدن وأماكن أخرى في البحر الأحمر . إنها تتبع لنوع الخيلانيات[(١)] ، أو الحيتان آكلة النباتات ولا تكبر في حجمها ، وتفضل التردد على السواحل والخلجان أكثر من التردد على البحار . إن عادة رفع رؤسها المدورة من الماء وإرضاع صغارها وحملها تحت الذراع الأمامية مما يزيد من أسطورة كونها نصف آدمي ونصف سمكة . ينتشر الأطوم من البحر الأحمر إلى شمال أستراليا . مقابل مبلغ زهيد مازال بعض سخفاء المسافرين يُفرجون على هذه المخلوقات المحفوظة في صناديق زجاجية في بعض موانيء البحر الأحمر وما بها من نقص في تشابه نصفها الآدمي يعوض جيداً عن طريق أدوات التحنيط التجميلية .

---

(١) الخيلاني حيوان ثديي وهو من الحيوانات المائية آكلة العشب . (المترجمان)

لقد رأيت أنه من المفيد أن أضيف قائمة بأسماء الحيوانات المذكورة في المقالات القليلة الموجودة والتي تتعلق بثدييات جنوب وجنوب شرق الجزيرة العربية[١] .

" on Five New mammals from Arabia and persia" by O. Thomas, *Annals and Magazine of Natural History*, Ser. 7, Vol. X, December 1902.

Genetta grantii, Grant's Genet and Meriones buryi (both from S. Arabia); *Vulpes Vulpes arabica* (Arabian fox from Muscat).

"On some Specimens of Mammals from Oman, S.E. Arabia" by O. Thomas, *proceedings of the zoological Society of London,* May 1, 1894.

Xantharpyia amplexicaudata, Fruit Bat.	خفاش الفاكهة
Taphozous nudiventris, Sheath-tailed Bat.	الخفاش مغمد الذيل
Rhinopoma microphyllum, Long Wire-tailed Bat.	الخفاش طويل الذيل
Erinaceus niger, Black Hedgehog.	القنفذ الأسود
Crocidura murina, Shrew (Musk Rat).	الزبابة (فأر المسك)
Herpestes albicauda, white-tailed ichneumon.	النمس أبيض الذيل
Canis pallipes, Indian Wolf.	الذئب الهندي
Vulpes Leucopus (now arabica), Arabian Fox.	الثعلب العربي
Gerbillus (Dipodillus) dasyurus, Naked-Soled Gerbil.	العضل ذو الأقدام المجردة من الشعر /p.348/
Mus (now Rattus)rattus, Black Rat.	فأر أسود
Lepus omanensis, Oman Hare.	أرنب عمان البرية
Gazella muscatenis, Muscat Gazelle.	غزال مسقط
Oryx beatrix, Arabian Oryx.	المها العربي

(١) لقد رأينا أنه من الأفضل إيراد هذه المقالات بعناوينها الأصلية لمن أراد الاطلاع عليها . (المترجمان)

Hemitvagus jayakari, Thar or Wild Goat. ماعز برية

Procavia syriaca jayakari, Rock Dassy. قارض الصخور

Tursiops tursio, Bottle-Nosed Dolphin. الدلفين ذو الأنف زجاجي الشكل

Grampus, SP. Risso's Grampus. دلفين من نوع قرامبس

حول ثدييات عدن انظر :

"On the Mammals of Aden" by Col. J. W. Yerbury and O. Thomas, *proceedings of the zoological society of London,* June 18, 1895.

Papio hamadryas, Aden Baboon. قرد عدن

Xantharpyia straminea, Fruit Bat. خفاش الفاكهة

Xantharpyia egyptica, Fruit Bat. خفاش الفاكهة

Trienops persicus, Bat. خفاش

Hipposiderus tridens (Asellia tridens), Trident.

Leaf-Nosed Bat. الخفاش ذو الأنف ثلاثي الشعب

Nyctevis thebaica, Bat. خفاش

Scotophilus Schlieffeni, Bat. خفاش

Coleuva afra, Bat. خفاش

Taphozous perforatus, sheath-tailed Bat. الخفاش مغمد الذيل

Rhinopoma microphyllum, Long wire-tailed Bat. خفاش طويل الذيل

Crocidura russula, shrew. الزبابة

Crocidura etrusca, pigmy shrew. الزبابة الصغيرة

Erinaceus, SP., Hedgehog. القنفذ

Felis maniculata, Wild cat. الهر البري

Felis caracal, caracal. وشق

Herpestes, SP., Mungoose.	النمس
Hyena hyena, striped Hyena.	الضبع المخطط
Canis aureus, Jackal.	ابن آوى
Vulpes nilotica (now v. *arabica*), Arabian Fox.	الثعلب العربي
Gerbillus dipodillus pecilops, Dipodil.	عضل ديبودل
Gerbillus dipodillus Lixa, Gerbil.	العضل
Gerbillus hendecapleura famulus, Gerbil.	العضل
Meriones rex, Jird.	جرذ
Arvicanthis Variegatus.	
Mus (now Rattus) rattus, Black Rat.	الفأر الأسود
Mus gentilus, House Mouse.	فأر المنزل
Acomys dimidiatus, Spiny Mouse.	الفأر الشوكي
Hystrix Leucura, porcupine.	النيص
Lepus arabicus, Arabian Hare.	الأرنب العربية
Gazella, SP., Gazelle /p.349/	غزال
Capra sinaitica, Ibex.	الوعل
Halicore dugong, Dugong or “Mermaid”.	الأطوم أو «حورية الماء»
Balenoptera, SP., Rorqual.	الهركول (حوت ضخم)

R.E.C.

المقالة التالية نشرت أولاً في مجلة *Annals and Magazine of Natural History* عدد (ser. 9, Vol. XIV. p. 548 Nov. 1924) وبإذن منهم أعيد نشرها هنا .

On the Mammals collected in the Desert of Central Arabia by Major R.E. Cheesman between November 1923 and March 1924. By R.E. Cheesman and Martin A.C. Hinton .

الثدييات التي تتحدث عنها هذه المقالة جمعها الرائد آر. إي. تشيزمان من منطقة الأحساء، وصحراءي الجافورة ويبرين اللتين تشكلان جزءاً من صحراء الجنوب العظيمة في شبه الجزيرة العربية. كما هو متوقع من منطقة تختلف كثيراً عن المناطق المجاورة، فإن كثيراً من الأشكال المجموعة كانت جديدة.

عمومًا فإن تلوين الصحراء وشحوبها الرائع يعتبر السمة البارزة لعينة هذه الثدييات جميعها. ولنجد نظيراً لها بعض الشيء لابد أن تذهب بعيداً إلى الغرب إلى منطقة إير في وسط صحراء الغرب، حيث وجد النقيب أنجوس بيوكانن منذ وقت قريب مجموعة رائعة من الثدييات الشاحبة. ولعله من المفيد أن نلاحظ أن بعض الاستنتاجات حول العادات الخاصة لبعض من أنواع الجرذان وبنات آوى (*Jaculus, Meriones*) وهي كثيرة ومتنافسة، وتعيش في أماكن متقاربة، تُوصل إليها بطريقة مستقلة عن طريق دراسة للجمجمة فأثبتتها، وبالمقابل أثبتت إلى حد كبير الملاحظات الميدانية.

هناك ما يدعو إلى الافتراض بأن القائمة المقدمة بأسماء الحيوانات التي حُصِّلت أو شوهدت بين الهفوف ويبرين تنطبق على صحراء الجنوب العظيمة بكاملها حيث لا يوجد ـ حسب معلوماتنا ـ حواجز طبيعية حتى تصل إلى منطقة الجبال كعدن واليمن في الجنوب، ومسقط إلى الشرق، حيث من المعلوم أن حيوانات الصحراء تتبدل بأشكال داكنة كثيراً. إن الفقدان الكامل للنمس والمتوفر بكثرة في العراق واستبدال البيئة بالأرنب العراقية الكبيرة والداكنة اللون أرنب الصحراء الصغيرة الشاحبة يعطي دليلاً قاطعًا على مدى محدودية انتشار كل هذه الأنواع المعنية.

إن موسم الإنجاب لهذه الأنواع القليلة والمتيسرة حولها المعلومات جدير بالملاحظة مثلما هو في هذه الحالات يتزامن مع ظهور أشجار الصحراء في فصل الربيع. /p.350/.

الثعلب العربي (*Vulpes arabica*) يلد في مارس
جرذ صحراء الرمال (*Meriones arimalius*) أنثى ولدت في يوم ٢٣ فبراير
أرنب تشيزمان (*Lepus Omanensis Cheesmani*) ولدت في يوم ٢٥ فبراير
الخفاش الصغير (*pipstreillus Kuhi*) ولد في شهر مايو .

"الخفاش ذو الأنف ثلاثي الشعب"

باللغة العربية تسمى «سحا» أي خفاش (*Asellia tridens Geoff*) وتسمى كذلك كشاف الليل .

الهفوف . ذكر ٥٠٦١ ، ٥٠٧٧ ، طول الساعد ٥١,٥ ملم . الأنثى٥٠٧٦ ، طول الساعد ٤٩ ملم .

جمعت هذه العينات في شهر ديسمبر وهي في جلد بني شاحب، ومتطابقة في حجمها مع الأنواع المصرية . على أية حال ففي الوقت الراهن لابد أن نسميها *A.T.tridens* .

تحت نوع آخر هو (*A.t. Murraiana*) يتميز بحجمه الكبير قليلاً كان قد وصفه أندرسون في كراتشي وبوشهر . كما أنه قد ألحق أو عُزي إلى هذا الشكل عينات كانت قد جُمعت من لحج في جنوب الجزيرة العربية وشبه جزيرة سيناء . أثناء تحليلي لعينات الهفوف كان أمامنا مجموعة من عينات بغداد وفي ست منها ذكور تراوح طول الساعد فيها بين ٤٩ ـ ٥٦ ملم . بينما في عينتين اثنتين كان طول الساعد ما بين ٥٣ ـ ٥٥ ملم مما يدل على أنه بالنسبة لكبر الحجم يجب أن نسمي عينات بغداد بـ *A.t. murraiana* .

يمكن رؤية هذه الخفافيش في بغداد بعد المغيب مباشرة تعبر نهر دجلة وتطير قرب الأرض في موكب متواصل مغادرة المدينة إلى الصحراء ، وقد لوحظت نفس

عادة الطيران المنخفض في الجزيرة العربية . في الهفوف لا تأتي الخفافيش من البلدة، ولكن يبدو أنها تأتي من الجبال الجيرية المجاورة . كان هناك شواهد على تجمعات كبيرة للخفافيش في كل الصدوع المناسبة من هذه الجبال مع أننا لم نمسك فعلاً بأي منها على الجبال ذاتها . يذكر أندرسون بأن هذه الأنواع مسجلة من السنغال والجزائر وتونس وجنوب سوريا وزنجبار بينما وجدتْ في مصر في مقابر الملوك وغيرها من الآثار . في أحد القبور بالعصاصيف في مصر وجدت بأعداد هائلة حيث طوقت شمعة مشتعلة كان يحملها أندرسون بسحابة من الخفافيش، الرائحة المقززة لهذا الحشد مصحوبة بحرارة القبر الشديدة أجبرته على التراجع سريعًا إلى الهواء الخارجي . تطابق هذا الوصف تمامًا مع وصف/p.351/ محمد أفندي ـ مسئول المالية ـ لخفافيش في كهف عميق في جبل قارة قرب الهفوف .

هذه الأنواع رائعة ـ مثل غيرها من الخفافيش ذوات الأنف الثلاثي ـ فلها مظهر أحمر لامع (يكاد يكون قرمزيًا) . لم يلاحظ مثل هذا اللون في الجزيرة العربية أو العراق ولكن الأميرال لينز جمع الكثير من العينات من دارفور في شهري فبراير ومايو ١٩٢٠م (*Proceedings of the zoological society of London*,1923,p.249)

الخفاش المرعب

(*Otonycteris Jin.* Sp.n.)

الهفوف . ذكر ٥٠٦٦، ٥٠٧٢، ٥٠٧٣، ٥٠٧٤، ٥٠٧٥ .

يتميز عن غيره من الأعضاء المعروفة من نفس الجنس بحجمه الكبير وفروه الطويل والكثيف ولونه الشاحب وأذناه أكثر انتفاخًا .

الحجم كبير (الساعد الأمامي ٦٤ ـ ٦٦ ملم . طول العظم من مفصل الفك إلى منتصف الفم ٤ ,٢٢ ـ ٢٣ . فك السن العلوي ٥ ,٨ ـ ٨ ,٨ . الأطوال المقابلة في الأنواع الأخرى المعروفة : ٥٨ ـ ٦١ ، ٩ ,٢٠ ـ ٢ ,٢٢ ، ٨ ,٧ ـ ٢ ,٨) .

الفرو أطول وأكثف من الأصناف الأخرى ، والشعر الخلفي طوله حوالي ١٠ ملم . اللون العام لأجزاء الظهر العلوية تقرب من «الأرجواني الفاتح» يخففه لون أسافل الشعر الأبيض والمرئية جزئيًا . الأجزاء السفلية بيضاء تمامًا والأغشية والآذان شاحبة جدًا .

تتميز جمجمتها عن جمجمتي خفاش (*Otonycteris hemprichi*) وخفاش (*Otonycteris Petersi*) بحجمها الكبير قليلاً وبنيتها القوية وأذنيها الأكثر انتفاخًا وأسنانها الكبيرة .

أطوال أجزاء الجسد حيًا : الرأس والجسم ٧٣ ملم ، الذيل ٥٧ ، الرجل الخلفية ١١ ، الأذن ٤٠ .

مقاييس الجمجمة : طول عظم الجمجمة ٩ ,٢٢ ، وعرض الوجنة ١ ,١٥ ، وتقلص محجر العين ١ ,٤ ، واتساع محجر العين ١ ,٧ ، وعرض قحف الدماغ ١١ ، وعرض مؤخرة الرأس ٧ ,١١ ، ومتوسط ارتفاع مؤخرة الرأس ٨ ، وفك السن العلوي (C-M3) ٥ ,٨ .

النوع ، ذكر كبير ، الرقم بالمتحف البريطاني 24.8.2.2 والرقم الأصلي ٥٠٧٣ . جمعت من بلدة الهفوف بالأحساء ـ الجزيرة العربية في ١٠ ديسمبر ١٩٢٣م وسُلمت للمتحف البريطاني من قبل الرائد آر . إي . تشيزمان . الارتفاع ٢٠٠ قدم .

الموطن ـ الهفوف ، الأحساء ، الجزيرة العربية .

الخفافيش من هذا الجنس نادرة جدًا والخمسة التي استلمت الآن من الهفوف تكاد تضاعف تمثيلها ضمن المجموعة الوطنية . تجد هذه الخفافيش فقط في بلدة الهفوف ، وهي قليلة جدًا فالخمسة التي جمعناها كانت الأمثلة الوحيدة /p.352/ التي

شاهدناها مع أننا قمنا في مناسبات عديدة برحلات مسائية خاصة لمراقبة هذا النوع .

هذا الخفاش طيرانه بطيء ، ويغير اتجاهه فجأة وبطيء في تقدمه أكثر من الأخريات . إنه يشبه فراشة كبيرة متعبة وعادة ما يسلك خطًا مستقيمًا مع أنك في بعض الأحيان قد ترى أحدها يدور ليلتقط ذبابًا .

الخفافيش المرعبة دقيقة جدًا ، وتغادر البلدة بعد الغروب بثلاثة أرباع الساعة ، وتطير باتجاه مزارع النخيل ، ويمكن الاعتماد على أنها تسلك نفس الطريق ليلة بعد ليلة . إذا كان هناك رياح فإنها لا تأتي على الإطلاق ، وقد شاهدت واحدة تخرج ثم تعود بعد عدة دقائق ؛ لأن الريح فجأة بدأت تهب .

آذان هذا الخفاش وهو حيٌّ تكون بهذا الشكل



ولكن ليس بالإمكان المحافظة عليها في جلد يابس .

طول امتداد الأجنحة ٤٢٠ ـ ٤٥٠ ملم بينما يبرز الذيل بـ ٧ ملم من الخلف .

خفاش الإخوان الصغير

The Ikhwan pipistrelle *pipistrellus kuhli ikhwanius*

بلدة الهفوف . ذكر ٥٠٦٢ ، ٥٠٦٩ ، أنثى ٥٠٦٧ ، ٥٠٦٨ ، ٥٠٧٨ ، ٥١٤٨ .

تتميز من بين تحت أنواع خفاش *p. kuhli* ومن كل أعضاء هذا الجنس ، باستثناء *p. coxi* (الأبيض) ، بلونها الشاحب جداً .

صفاتها الرئيسة تدخل تحت الأنواع العادية ، حجمها صغير نوعًا ما (طول الساعد ٣٣ ـ ٣٤ ملم ، طول الجمجمة ١٢,٣) .

الأجزاء العلوية لونها أصفر برتقالي فاتح تظلله الأجزاء المرئية من أسفل الشعر ذات اللون الرمادي الغامق . الأجزاء السفلية لونها أبيض والأغشية باهتة . الغشاء الداخلي للفخذين كثيف ، وعليه شعر قصير ذو لون أصفر برتقالي فاتح في أعلى ما بين الأفخاذ وقاعدة الذيل . أطراف أغشية الأجنحة لونها أبيض كالعادة .

أطوال أجزاء الجسد حيًا : الرأس والجسم ٤٣ ملم ، والذيل ٣٣ ، والرجل الخلفية ٧ ، والأذن ١٠ .

الجمجمة : طول عظم الجمجمة ١٢,٣ ، وعرض الوجنة ٨,٢، وتقلص محجر العين ٣,٥، واتساع المدمع ٥ ، واتساع قحف الدماغ ٦,٢ ، وعرض عظم الفك ٧,٤، وعمق قحف الدماغ في الوسط ٤,٥ ، وفك السن العلوي (C-M3) ٤ - ٦ .

النوع - ذكر كبير ، الرقم بالمتحف البريطاني 24.8.2.1 الرقم الأصلي ٥٠٦٩ . جمعت من بلدة الهفوف في ٧ ديسمبر ١٩٢٣م وسلمت للمتحف البريطاني من قبل الرائد آر . إي . تشيزمان .

الموطن - الهفوف ، الأحساء ، وسط الجزيرة العربية . /p.353/

من بين المواد المستخدمة للمقارنة عينتان جمعتا من البحرين وثلاث عينات من الفاو والتي تشكل جزءاً من مجموع عينات كوكس - تشيزمان ويشار إليها باسم *pipistrellus Kuhli* . هذا النوع من خفافيش الهفوف (*pipistrelles*) الصغيرة شاحبة بوضوح كبير أكثر ، فيما يخص الفرو والأغشية ، من أي نوع من خفافيش *p. kuhli* .

هذا الخفاش منتشر في بلدة الهفوف ومعظم الخفافيش الصغيرة التي ترى هناك هي من هذه الأنواع وهي نشطة جداً ويصعب الحصول عليها . تبيت مجموعة منها خلف خشب سقف الشرفة المصنوعة من جذوع النخل ، ويبدو أنها تعيش على

شكل أزواج . تبدأ في الخروج على انفراد بعد الغروب بنصف ساعة وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات تبدأ الباقية في البيت تسقسق مما ينبيء بعودة الخارجة . عينات *p. kuhli* التي جمعت من الفاو كان من بينها اثنتين ترضعان في شهر مايو .

« القنفذ »

paraechinus dorsalis ويسمى باللغة العربية القنفذ ويسميه البدو «دعلج»

جنوب الأحساء : جلده سيء ويأكله الثعلب . بناءً على ما بقي من هذه العينة فالجلد يتبع نوع *paraechinus* وربما أنه له صلة بـ *p. dorsalis* من حضرموت . رأى الرائد تشيزمان أثر القنفذ في الكثبان الرملية الكثيفة لصحراء الجافورة، ولكنه لم يجد عينة حية .

الهر البري *Felis* sp.

يذكر بدو آل مرة رؤيتهم للهر البري في مناطقهم باتجاه وسط صحراء الجنوب العظيمة ـ الرمال . وهذا حيوان مهم لو تمكنا من الحصول على عينة منه، ويقال بأنه أكبر من القط الأليف، وذيله أقصر منه بكثير .

"الضبع المخطط"

Hyena hyena linn وتسمى باللغة العربية «الضبعة»

ترى آثار الضباع ـ ربما هذه الأنواع ـ باتجاه الجنوب حتى يبرين، ويبدو أنها تكثر في تلك المناطق مع أننا لم نحصل على عينة منها . إنه من المحير معرفة على ماذا تقتات هذه الضباع بعد أن ترحل القبائل بجمالها . /p.354/

مجال هذه الأنواع يمتد من شمال أفريقيا عبر فلسطين إلى فارس، ومنطقة بحر قزوين وإلى الهند .

"الثعلب"

Vulpes arabica ويسمى باللغة العربية «الحصيني» وبالفصحى «ثعلب» .

بدون عينات .

شوهد عدد من الثعالب في التلال الطباشيرية لجبل أبو غنيمة الذي يبعد عن الهفوف بثلاثة أميال شمالاً . تشبه في حجمها ومظهرها ثعالب الصحراء الصغيرة بالعرق (*Vulpes persica*) وقد رؤي أحدها عن قرب وكان صدره الأسود واضحًا .

أحضرت السيدة إف. هولمز جرو ثعلب وأهدته لحدائق الحيوان بلندن . كانت الثعلبة قد قتلت من قبل بعض العرب خارج الكويت وجيء بثلاثة جراء صغيرة إلى البلدة في مارس ١٩٢٤م . كان أول شعر له منتظم ذا لون رملي باهت وبآذانه الكبيرة بدا وكأنه ثعلب الفنك (ثعلب أفريقي صغير) ولكن عندما سقط أول شعر له، عندما كان عمره أكثر من ستة أشهر بقليل ، برز صدره الأسود وسواد خلف الأذن وبقعة بيضاء في طرف الذيل . كل هذه الأشياء خصائص طبيعية لثعلب أكبر أو مجموعة ثعالب (*Leucopus*) والتي ينتمي إليها ثعلب العراق (*Vulpes persica*) .

" الذئب الهندي "

Canis pallipes sykes ويسمى باللغة العربية «ذيب»

ليس من غير المألوف في الهفوف ويبرين ولكن لم نر إلا أثره .

من بين مجموعة كوكس وتشيزمان يوجد الآن عينة حية في حدائق الحيوان بلندن . له جلد رائع نظراً للونه الرمادي الباهت، وقد أحضره لابرسون وهو صغير من منطقة الخليج العربي .

« ابن آوى »

ويسمى باللغة العربية «الواوي» *Canis aureus* Linn

الهفوف . I أنثى طول الأذن ٧٦ .

يتواجد بكثرة في مزارع واحة الهفوف، ولكن لم نره خارجها أو في يبرين . لها جلود ذات ألوان فاتحة وشعر طويل .

«الراتل» (آكل العسل حيوان شبيه بالغرير)

ويسمى باللغة العربية «ضربان» *Mellivora* sp.

لم نر منها إلا واحداً فقط، وكانت رؤية مفاجئة عن قرب في منخفض من الكثبان الرملية في صحراء الجافورة . /p.355/ لون ظهره رصاصي وأكثر غمقًا من العينات التي رأيناها في العراق، ولكن يبدو أن هذا يتغير مع العمر، فالأصغر لونه الأكثر انفتاحًا .

الجرذان (قوارض صحراوية تشبه الفئران)

يُمثل هذا الجنس بأربعة أشكال واضحة جداً ، وتتميز عن بعضها بخصائص الجمجمة والشعر، والتي يبدو أنها مرتبطة كثيراً في كل حالة بالعادات الخاصة وخصوصية البيئة . لقد أوضح توماس(١) بأنه «يمكن أن تحتوي المنطقة الواحدة على نوعين أو ثلاثة أنواع، وتبدو متشابهة جداً إلى درجة الخلط بينها بسهولة ومع ذلك فبالفحص الدقيق يمكن فعلاً التمييز بينها» . كما أن الاختلافات في التركيب وتطور الأذن تعطينا الوسائل الأولية للتمييز بينها، وتمكننا من توزيع الأنواع إلى أربع مجموعات . إن المجموعة الحالية تثبت آراء توماس بينما ملاحظات الميدان تقدم تفسيراً لذلك .

---

(١) Thomas, *Ann. Mag. Nat. Hist.*, ser.9, Vol.III, 1919, p.263

النوع الأول (من الجرذان) والموصوف لاحقًا باسم (*M. ismahelis*) وهو جزء من مجموعة (a) عند توماس وقريبًا جدًا للنوع (*M. crassus*) في سيناء . عند هذا النوع تكون الأذن متطورة بشكل كبير والشعر كثيف جدًا وطويل واللون باهت جدًا . يقتصر على صحراء الكثبان الرملية، وهو حيوان ليلي تمامًا وفي هذا يتفق مع (*M. crassus*) لأن هدنبورج (Hedenborg) الذي أحضر العينة الأصلية من النوع الأخير من سيناء وصفه بأنه "Nocturnus, praedatur ante Lucem" [١] . يبدو أن أذنه الفائقة التطور تدل ـ إذًا ـ على أنه في الظلام يجب أن يعتمد أساسًا على حاسة السمع ليحمي نفسه من الأعداء . بينما بلاشك أن شعره الثقيل عادة مرتبط بانخفاض درجة حرارة ليل الصحراء .

النوع الثاني (من الجرذان) (*M. arimalius*) والموصوف لاحقًا كذلك قريب من أعضاء المجموعة (a) ومن الواضح أنه أقرب ما يكون إلى (*M. pelerinus*) والموصوف من شمال غرب الجزيرة العربية . هذا النوع يسكن الصحراء الحقيقية، وقارض نهاري يعدو على الرمال الحارة خارج جحوره، ويأكل طول الوقت ماعدا الساعات الحارة حول الظهر . الأذن عند هذا النوع أقل تطورًا مما يشير إلى أنه يعتمد للدفاع عن نفسه على كلا حاستي السمع والبصر . شعره خفيف جدًا وقصير بما يكفي لحمايته من الشمس ،ولكنه ليس متطورًا بوصفه دفاعًا خاصًا ضد برودة الليل . كما يبدو أن لونه الشاحب كثيرًا مرتبط بمعيشته النهارية . /p.356/

النوعان المتبقيان تعالج وكأنها تحت أنواع من (*M. syrius*) وهما أقل ارتباطًا بمنطقة معينة . هذه الجرذان لا تسكن الصحراء الحقيقية ولكن توجد على أطراف الحقول المزروعة بالهفوف حيث يزرع البرسيم الذي تتغذى عليه . يوجد بالهفوف جدولان صغيران أحدهما يغذى من عين أم خريسان، والآخر من عين الخدود وعلى ضفاف هذين الجدولين يزرع البرسيم . يوجد بين هذه الجداول سهل من

---

(١) Sundevall, *Kongl. Vetenskaps-Acad. Handl.*, 1842, p.233

الحجر الرملي الطباشيري مرتفع وأجرد، عرضه حوالي الميل ولا تسكنه هذه الجرذان (*Meriones*) . ومن الجدير بالذكر أن تجد كل جدول له نوع خاص من جرذان (*M. syrius*) ومن الواضح أن ذلك السهل يشكل عقبة مانعة . أحد هذه الأنواع (*M.S. editha*) يأخذ اللون القوي مثل جرذي (*syrius*) الحقيقي بالإضافة إلى جمجمة أكثر قوة وجسم قوي بشكل غير عادي . النوع الآخر (*M.S. evelyna*) ذو جمجمة ورأس مقاربة لما عند جرذ (*syrius*) بالإضافة إلى تلوين الظهر الشاحب .

« جرذ الصحراء الليلي »

Meriones ismahelis sp. n. ويسمى باللغة العربية (جراري مال بر)[1] ويشمل معظم قوارض الصحراء باستثناء الجرابيع .

واحة الهفوف . ذكر ٥١٢٠ ، ٥١٢١ ، أنثى ٥١٠٣ ، ٥١٠٤، ٥١١٦ .

واحة يبرين . ذكر ٥١٧٤ .

هذا الجرذ لونه شاحب جداً وينتمي إلى مجموعة (*Crassus*) ويتميز عن (*M. Crassus*) بحجمه الأصغر وجلده الأنعم ولونه الأشهب .

الحجم متوسط (الرجل الخلفية حوالي ٣١ ملم ، طول قاعدة الجمجمة تصل إلى ٣٦ عند كبار الذكور) . الذيل قصير مثل بقية أعضاء المجموعة يقارب طول الرأس والجسم . الفرو ناعم جداً وكثيف وطويل ، وطول الشعر على الردف حوالي ٢٠ ملم . لون الأجزاء العليا من الظهر تقارب «الأصفر البرتقالي الفاتح»، والأجزاء السفلى مع الأيدي، والأقدام لونها أبيض فاتح . أعلى الذيل لونه أصفر برتقالي فاتح مثل الظهر وليس «لون القرفة الأصفر» مثل معظم أنواع الجرذان

(١) من الواضح أن هذا الكلام باللهجة العامية والمقصود هو الجرذان البرية . (المترجمان)

الأخرى من نوع (*Meriones*). أجزاء باطن القدم المجرده من الشعر لونها فاتح بدلاً من أن تكون سوداء مثلما هي في مجموعة (*Syrias*).

الجمجمة في شكلها العام تشبه جمجمة (*M. Crassus*) ولكنها أصغر بقليل . الأذنان كبيرتان جداً مع تورم كبير في أجزاء عظم الفك وما فوق الأذنين وفتحتيهما كما هو الحال عند الأنواع المشابهة له .

أطوال أجزاء الجسد حيًا : الجسم والرأس ١٢٤ ملم ، والذيل ١٢٤ ، والقدم الخلفية (بدون مخالب) ٣١ ، والأذن ١٧ . /p.357/

النوع : ذكر كبير ، الرقم بالمتحف البريطاني 24.8.2.4 والرقم الأصلي ٥١٢١ . جُمعت من واحة الهفوف في ٧ يناير ١٩٢٤م وسلمت للمتحف البريطاني من قبل الرائد آر . إي . تشيزمان .

أقرب ما يكون إلى هذا النوع هو بلاشك جرذي (*M. Crassus*) من سيناء والذي وصفه صندفال عام ١٨٤١م ويتميز بطول مشابه وأذنين متطورتين جداً وعادات ليلية تمامًا .

في الهفوف يتباين بشدة جرذ (*M. ismahelis*) بهذه العادات عن الجرذان الأخرى التي تتغذى خلال النهار .

توزيع أعضاء مجموعة جرذان (*Crassus*) تستحق الاهتمام أيضًا . فهي تتبع خط صحراء الكثبان الرملية التي تربط مناطق الصحاري العظيمة في أفريقيا مع تلك التي في الجزيرة العربية ، مبتدأة من السودان إلى سيناء، ومن ثم تتجه جنوبًا إلى النفود، ثم إلى الدهناء وتحت اسم آخر إلى الرمال (المكتوبة على الخريطة باسم الربع الخالي) في امتداد متواصل . الممثل الأفريقي لهذه المجموعة هو (Bonhote , *M. pallidus*) وقد وصف من عينات جمعت من السودان . يوجد جرذ (*M. Crassus*) في كل صحراء سيناء بينما يمتد جرذ (*M. ismahelis*) في الجزيرة العربية جنوبًا إلى يبرين .

مع أن الشعر شاحب جداً عند كبار هذه الأنواع الجديدة من الجرذان، فإنه عند العينات الصغيرة يكون أكثر سواداً وحمرةً ولها جلود تشبه جلود جرذان (*M. pelerinus*) والتي وصفها توماس بأنها جرذان نهارية تتواجد في تبوك بشمال غرب الجزيرة العربية . إن شعر جرذ (*M. ismahelis*) أكثف وأطول ولشعره مظهر متميز «متقطع»، أو «متداخل» ويختلف كثيراً عن المظهر الناعم للأنواع الأخرى بمنطقة الهفوف .

هذا النوع لم يوجد أبداً في المزارع ويحفر جحوره في الرمل أو الأرض السهلة في السهول الرملية خارج المنطقة المزروعة . كل جحر له ثلاثة أو أربعة مداخل حيث تحفرها في الأرض المستوية بخلاف مجموعة جرذان (*Syrius*) التي يبدو أنها تفضل حفر جحورها في جدار من الطين أو جرف .

لم يمسك الرائد تشيزمان أكثر من واحد في كل جحر مما يدل على أنها انعزالية . فهي لا تخرج أبداً حتى يختفي آخر وميض للنهار، ولنقل ساعتين بعد الغروب، وتعود إلى جحورها مرة أخرى قبل الفجر .

« **جرذ صحراء الرمال** *Meriones arimalius* sp. n. »

يبرين . ذكر ٥١٩٤ ، أنثى ٥١٩٥ .

جبل عاقولة ، يبرين . ذكر ٥٢٠٥ ، أنثى ٥٢٠١ ، ٥٢٠٦ واثنتان في محلول كحولي .

معظم هذه الجرذان تتشابه في الجمجمة مع جرذ (*M. pelerinus*) في شمال غرب الجزيرة العربية، ولكن من الخارج يتميز بلونه الشاحب وفروه الخفيف القصير وذيله الطويل ذو الخصلة . /p.358/

الحجم كبير (الرجل الخلفية ٣٧ ملم ، متوسط طول الجمجمة ٣٨,٣) . الرجل الخلفية والذيل أطول بكثير من ـ بدلاً من أن تكون مقاربة ـ طول الرأس والجسم .

الفرو قصير ومتلاصق، وطول شعر الأرداف حوالي ١٠ ملم ، وعموماً فإن اللون أكثر شحوباً من أي نوع آخر من هذا الجنس . لون قمة الرأس ومنتصف الظهر من الخلف يقرب من «الأصفر الشاحب إلى الأصفر البرتقالي» يخف إلى «أصفر عاجي» على الوجنتين والجوانب . الأجزاء السفلى مع الفخذين والقدمين لونها أبيض ناصع وشعر أسفل البطن أبيض . الذيل بما فيه الخصلة لونه «أصفر عاجي» في كل مكان ويمكن ملاحظة بعض من الشعيرات الرمادية في الخصلة .

الجمجمة مثل جمجمة جرذ (*M. pelerinus*) ولكن الأذنين أقل تطوراً بعض الشيء . منطقة عظم الفك في كل أذن أقل تورماً وينتهي في الخلف ، ولكن إلى الوراء قليلاً من مستوى عظم الجمجمة . أما تورمات منطقة ما فوق الأذنين وفتحتيهما فهي أقل وضوحاً .

أطوال أجزاء الجسد حياً : الجسم والرأس ١٣٢ ملم ، والذيل ١٦٣ ، اولقدم الخلفية ٣٧ ، والأذن ١٨ .

النوع . ذكر كبير ، الرقم بالمتحف البريطاني 24.8.2.5 والرقم الأصلي ٥١٩٤ . جمعت من يبرين في ٢٢ فبراير ١٩٢٤م وسلمت للمتحف البريطاني من قبل الرائد آر . إي . تشيزمان .

هذا النوع الشائق ، والأكثر بهوتاً في لونه من كل الجرذان المعروفة ، في الأساس يقطن الكثبان الرملية من صحراء الجنوب العظيمة في شبه الجزيرة العربية ولا يتواجد شمال يبرين . إن ذيله الطويل الشاحب ذا اللون الأصفر الفاتح ـ والذي يفتقر إلى أي أثر للون القرفة والحواف السوداء المتواجدة بشكل عام في جرذان (*Meriones*) ـ يميزه بشكل واضح عن كل الأنواع المشابهة . هذا الجرذ يقتصر في غذائه على شجيرة (*Arthrocnemon fruticosum*) ويسميها العرب « الغضا» وتتواجد

جحوره فقط في كثبان الرمل الأبيض الناعم المغطاة بالغضا . إنه نوع نهاري يأكل طوال اليوم باستثناء الساعات الحارة عند الظهر ، وبلاشك فإن التطور الأقل لمسمع الأذن ، بالمقارنة مع جرذان (M. pelerinus) ، مرتبط بالأنشطة النهارية لهذا الحيوان .

هذه الجرذان حذرة وأي حركة تسبب فرارها الجماعي . ثم تبقى في جحورها وطالما أن هناك شكا بوجود خطر تطلق صوتًا تحذيريًا يشبه الطقطقه ، كما لو أن شخصًا يعد الثواني بطرق عصوين إحداهما بالأخرى . مادام الصوت مستمرًا فلن يخرج أي من الجرذان . في يوم ٢٣ فبراير أمسكنا بجرذ صغير بالكاد يستطيع الجري ولكن المصيدة أتلفته . /p.359/

جرذ الخدود

Meriones syrius edithae subsp. n.

عيون الخدود ، الهفوف . ذكر ٥١٢٩ ، ٥١٣٢ ، أنثى ٥١٣١ .

تحت نوع قوي البنية يتميز عن الشكل العادي بذيله الطويل والأكثر احمرارًا وجمجمته القوية .

فروه ناعم ومتوسط الطول وشعر الأرداف طوله حوالي ١٤ ملم . لون الأجزاء السفلى أقوى وأصرخ منه عند جرذ (*M.S. evelynae*) ويقرب من «القرنفلي الأحمر» لمنطقة الظهر وأعلى الرأس . لون الأجزاء السفلى أبيض ناصع وجذور الشعر الأبيض لونها رمادي . لون الأيدي والأقدام أبيض مموه بأصفر برتقالي من الأعلى ، وأجزاء باطن الأقدام المجردة من الشعر لونها أسود . الذيل بلون السلمون المائل للصفرة وينتهي في شكل حزمة من الشعر الأسود الطويل .

الجمجمة بنيتها أضخم بكثير من جمجمة جرذ (*syrius*) وعقد ما فوق حجاج العين أقوى وثقوب سقف الفم أطول . طرف ظهر عظم العضلة الماضغة متقدم إلى الأمام قليلاً ، والأذنان متورمتان بعض الشيء .

أطوال أجزاء الجسد حياً : الرأس والجسم ١٤٣ملم ، والذيل ١٨١ ، والقدم الخلفية ٣٧ ، والأذن ١٨ .

النوع . ـ ذكر كبير ، الرقم بالمتحف البريطاني 924.8.2.6 الرقم الأصلي ٥١٢٩ .

جمعت من قبل الرائد آر . آي . تشيزمان من عين الخدود بالهفوف في ١٠ يناير ١٩٢٤م .

الموطن . ـ كما في الأعلى .

سمي تحت النوع هذا على شرف الآنسة إدث تشيزمان .

من المستغرب أن تجد هذا الجرذ الذي يعيش في مزارع تسقى من عين الخدود بالهفوف لونه أكثر احمراراً وأقوى وأكبر من الأنواع الموجودة في المزارع التي تسقى من عين أم خريسان مع أنها مجاورة لها . بما أن الفروق اتضحت عند فحص مجموعة من الجلود والجماجم فقد تقرر بأن هذا يكفي لتصنيفها مجموعة تختلف عن مجموعة (*syrius*) وبعضها عن بعض .

العيون ليست مجرد آبار ماء بل إنها جداول متدفقة تسقي مناطق كبيرة . المزارع والمحاصيل متشابهة ، ولكنها مفصولة بسهل من الحجر الجيري عرضه ميل ، يبدو أنه يشكل عقبة مانعة . كلا النوعين يعيشان حياة اصطناعية في جحور بأسافل الجدران الطينية المحيطة بحقول البرسيم وتتغذى على الأوراق والبراعم الغضة . تقوم هذه

الجرذان بالكثير من الخراب عندما يكثر عددها فتجد أطراف المحصول على طول جدران المزرعة مقطعة وقصيرة مثلما يحصل عندما تهاجم الأرانب جزءاً من حقل ذرة في إنجلترا .

الجرذان مولعة بالخصومات فتتكرر النزاعات وعض الأذيال الطويلة بعضها لبعض يلعب دوراً بارزاً فيها ونتيجة لذلك لا تجد إلا قليلاً من الأذيال السليمة/p.360/ وبعضها مبتور . تتغذى الجرذان في النهار طوال اليوم وترتبط هذه العادة بآذانها الصغيرة .

الذيل مستقيم ومرتفع بعض الشيء ، ولم تشاهد هذه الجرذان ترفعه فوق ظهورها ولا تستخدمه لمساعدتها كسناد كما في بعض الإيضاحات .

"جرذ أم خريسان"

*Meriones syrius evelyna*e subsp. n.

عيون أم خريسان ، الهفوف . ذكر ٥٠٤٧ ، ٥٠٥٠ ، ٥٠٥٣ ، ٥٠٥٩ ، أنثى ٥٠٥١ ، ٥٠٥٢ .

تحت نوع شاحب على نحو استثنائي ، وله ذيل احمراره أقل بكثير من المعتاد . الفرو ناعم واللون العام للأجزاء العلوية بني مائل للصفرة ، والأجزاء السفلى لونها أبيض ناصع وأسفل الشعر الأبيض لونه رمادي . والأيدي والأقدام لونها أبيض وملطخة من الأعلى بشكل غير واضح بلون بني باهت مائل للصفرة ، وأجزاء باطن الأقدام المجردة من الشعر لونها أسود . والذيل لونه من الأعلى والأسفل بني مائل للصفرة إلى أن يبتدأ خط الظهر الأسود وطرف الذيل .

الجمجمة أصغر من جمجمة جرذ (*M.S. syrius*) ولكن أساسًا مشابهة لها في الشكل العام والبنية . مسمع الأذن أكبر نسبيًا وأكثر انتفاخًا على شكل كروي .

أطوال أجزاء الجسد حيًا : الرأس والجسم ١٤٤ ملم ، والذيل ١٥٦ ، والقدم الخلفية ٣٤ ، والأذن ١٨ .

النوع .- ذكر كبير ، الرقم بالمتحف البريطاني 24.8.2.7 والرقم الأصلي ٥٠٥٠ .

جمعت من عين أم خريسان ، الهفوف ، الأحساء ، شبه الجزيرة العربية في يوم ٢٨ نوفمبر ١٩٢٣م، وسلمت للمتحف البريطاني من قبل الرائد آر. إي . تشيزمان .

سمي تحت النوع هذا على شرف الآنسة إيڤلين تشيزمان .

يتغذى جرذ (*M. syrius evelynae*) بالنهار ، ويبدو أنه يحب الشمس وتظهر الجماجم مسمعًا أقل تطورًا منه عند الجرذان النهارية . يتميز عن جرذ (*M. syrius syrius*) بلونه الباهت كثيرًا وقدميه الأكثر بياضًا وعن جرذ (*M. S. edithae*) بلونه الأكثر بهوتًا وخاصة خفة لون القرفةالبرتقالي الأصفر على الذيل .

العضل

Gerbillus arduus sp. n.

جبل ضرابين ، صحراء الجافورة. ذكر ٥١٦٢ ، ٥٢١٤ .

ززنوقة ، جنوب الأحساء . ذكر ٥٢٢١ .

مقارب جدًا لعضل (*G. cheesmani*) في العراق ولكن نسبيًا قدمه الخلفية أطول ولونه أشحب بعض الشيء وذيله أكثر بياضًا .

اللون العام للأجزاء العليا أصفر رملي قاتم بدون /p.361/ مسحة اللون الأصفر القوية والتي نراها في عضل (*G. cheesmani*) . أما الأجزاء السفلى مع الأيدي والأقدام فلونها أبيض ناصع . والجزء الأعلى من الذيل مخضب بقوة في ثلثي قاعدته باللون الأصفر البرتقالي والباقي لونه أبيض .

الجمجمة والأسنان في الأساس مثلها عند عضل (*Cheesmani*) ، ولكن تجويف العظام الوسطى أقصر وأعرض ، والأذنان (خاصة حول منطقة عظم الفك) أكثر انتفاخًا بعض الشيء .

أطوال أجزاء الجسد حيًا : الجسم والرأس ٨٦ ملم ، والذيل ١٢٤ ، والقدم الخلفية ٢٩ ، والأذن ١٢ .

الجمجمة : أكبر متوسط للطول ٢٨,٥ ملم ، وأقصى اتساع للقطر ٢٩,٢ من مفصل الفك إلى منتصف الفم ٢٤,٨ ، وعرض قوس عظم الوجنتين ١٥ ، واتساع محجر العين ٥,٣ ، وقحف الدماغ ١٣,٥ ، واتساع قناتي الأذن ١٥,٣ ، وعظام الأنف ١٠,٤ ، واتساع فتحتي سقف الفم ٤,١ ، وأقصى اتساع لقطر الأذنين ١٢,١ ، واتساع الأذن بزاوية ٩٠° باستثناء فتحة قناة الأذن ٥,٩ ، والأضراس العلوية ٣,٥ (على تيجان) ، ٣,٨ (مكان الأضراس) .

النوع .ـ ذكر كبير ، الرقم بالمتحف البريطاني 24.8.2.3 والرقم الأصلي ٥١٦٢ . جُمعت من جبل ظرابين ، الجافورة في يوم ١٤ فبراير ١٩٢٤م وسلمت إلى المتحف البريطاني من قبل الرائد آر . إي . تشيزمان . الارتفاع ٢٠٠٠ قدم .

الموطن .ـ صحراء الجافورة ، وسط الجزيرة العربية .

هذا الحيوان الجميل والصغير ليلي تمامًا . قريب جدًا من عضل (*G. Cheesmani*) في العراق ويمكن أن نرى فيما بعد أنه مطابق لهذا الأخير الذي يعيش في مناطق تقع

إلى الشمال الشرقي ولكن اختلافاته هي نتيجة خصوصية عيشه الأكثر تكيفًا مع الصحراء . لهذا فإنه يستحق أن يعامل في الوقت الحاضر بوصفه نوعًا مختلفًا .

لاحظنا بأنه في كل صباح - أثناء مسيرنا في المناطق الرملية - قرب المخيم في الرمل آثارًا صغيرة مدورة ، أصغر من حبة البازلا ، ومر بعض الوقت قبل أن نكتشف بأن زوارنا هم هذا العضل الصغير الجميل . فيما بعد لاحظنا بأن حيوانات العضل هذه تحفر جحورًا مؤقتة قرب المخيم وبلاشك أن هذا لتمكينها لتكون في الموقع الليلة اللاحقة وأخيرًا أمسكنا واحدًا منها في مصيدة مطعمة بالتمر . هذه مخلوقات صغيرة ورقيقة ليلية بحجم الزغبة[١] تتلون بألوان الصحراء الباهتة ولها أعين سود كبيرة مثل أزرة الأحذية الطويلة .

عضل ديبودل أو العضل ذو القدمين المجردة من الشعر

Dipodillus dasyurus Wagner

الدليقية ، الأحساء . أنثى ٥٢٢٨ .

عينة واحدة فقط مكسور رأسها بالمصيدة ولم نستطع التعرف عليها أكثر من ذلك . /p.362/

قال تروسارت إن أماكن توزعها هي الجزيرة العربية والبحر الأحمر وعمان .

أمسكنا بهذه العينة في صحراء مشجرة قرب مزرعة صغيرة وبئر . لم يفرق البدو الذين أحضروا المصيدة بينها وبين فأر المنزل .

(١) حيوان من القوارض شبيه بالسنجاب (المترجمان).

الجرذ الأسود

Rattus rattus Linn. ويسمى باللغة العربية «جريذي»

مزارع الهفوف . ذكر ٥١٢٦ ، ٥١٢٧ .

هذه الجرذان لها ظهور سود وبطون بيض وتمثل الشكل الأساسي للفأر الأسود.

لم ير الرائد تشيزمان أي منها في البلدة . بالهفوف كان هناك مجموعة من الجرذان تعيش في جحور قرب الجداول الجارية متخذة من أغصان وأوراق الأشجار مأوى لها .

فأر المنزل

Mus musculus gentilis Brants. ويسمى باللغة العربية «فأر»

مزارع الهفوف . أنثى ٥١٢٥ .

الفئران ليست كثيرة جداً وتشاهد بالمزارع أكثر منها في البلدة .

جرذ الخلد

Nesokia buxtoni Thos.

العقير ، الأحساء . ذكر ٥٠١٢ .

لون عينة العقير تتطابق مع ذلك النوع من جرذ (*buxtoni*) الموجود في العراق ولكن الجمجمة أصغر . وعلى أية حال فإنها تطابق جمجمة جرذ ذكر (*buxtoni*) من القرنة وبلاشك أنه نفس الحيوان .

أهمية هذه العينة تتركز حول ظهورها في العقير حيث تصل الصحراء الرملية إلى الساحل . يوجد هناك قرب البحر فوق علامة المد تماماً ، بقعة صغيرة من شجر

الأسل بطول عدة مئات من الياردات وعرض ثلاثين ياردة ويتواجد بها مجموعة من جرذان الخلد (*Nesokia*) تحصل على قوتها بصعوبة . ربما أن المجموعة التالية تقع في الهفوف التي تفصلها عنهم أربعون ميلاً من التلال الرملية الجرداء . شاهدنا أكوام جحورها في مزارع الهفوف، ولكن لم نحصل على أي عينة من هناك .

الجربوع العربي

Jaculus florentiae sp. n. ويسمى باللغة العربية «جربوع»

جبل عاقولة ، يبرين . ذكر ٥٢٠٧ .

صحراء الجافورة . أنثى ٥١٢٣ . /p.363/

يتميز عن كل نظرائه في المنطقة بحجمه الكبير وذيله الطويل ولونه الأكثر بهوتًا .

الحجم كبير (القدم الخلفية ٥٥ - ٦٠ ملم) مثل طولها تقريبًا عند جرذ (*J. syrius*) . اللون العام باهت جدًا ، أعلى الرأس والخلف قرب الأمتان لونه «أصفر - قرنفلي باهت» . بعض شعر الأرداف له أطراف سود فيشكل علامات ظل مميزة في الشكل العام لتمتد على الأطراف إلى الجوانب البيض . الأجزاء السفلى مع الأيدي والأقدام لونها أبيض ناصع . الأصابع كالعادة مكسية بشعر أبيض كثيف وصلب . الذيل من الأعلى أصفر - قرنفلي باهت، ومن الأسفل أبيض حتى الخصلة التي هي طويلة وبيضاء . كما يوجد بقعة من اللون «الخمري الأرجواني» عندما يلتقي اللون الأصفر مع الأبيض .

الجمجمة والأسنان مثلها تقريبًا عند جرذي (*J. Syrius*) .

أطوال أجزاء الجسد حيًا : الرأس والجسم ١١٤ ملم ، والذيل ١٧٦ ، والقدم الخلفية ٥٥ ، والأذن ٢٢ .

الجمجمة : أكبر متوسط الطول ٩ , ٣١ ملم ، وأكبر امتداد القطر إلى ما وراء انتفاخ المسمع ٥ , ٣٤ ، وأقصى عرض للوجه ٨ , ٢١ ، واتساع محجر العين ١١ ، واتساع قناتي الأذن ٦ , ٢٢ ، وثقب ما دون العين ، والارتفاع ٧ , ٦ ، والاتساع عبر الثقبين ١٥ ، وسلسلة الأضراس العلوية (تيجان) ٩ , ٤ .

النوع . ـ أنثى كبيرة ، الرقم بالمتحف البريطاني 24.8.2.8 والرقم الأصلي ٥٢٠٧ . جمعت من جبل عاقولة ، يبرين ، في يوم ٢٤ فبراير ١٩٢٤م وسلمت للمتحف البريطاني من قبل الرائد آر . إي . تشيزمان .

الموطن . ـ يبرين ، الرمال ، وصحاري الجافورة ، وسط الجزيرة العربية .

الارتفاع : ٢٠٠ ـ ٤٠٠ قدم .

سمي هذا الجربوع على شرف السيدة إف . إم . تشيزمان .

يتميز جربوع صحراء يبرين بأنه الأكثر شحوبًا من جنسه حتى أنه أشحب من جربوع (*J. airensis*) أي الشكل الذي يسكن منطقة إير بالصحراء الغربية . إن كل من جربوع (*J. Loftusi*) من المحمرة بفارس وتحت أنواعه وجربوع (*J. C. vocator*) من السيب ، التي تبعد ٢٢ ميلاً إلى الشمال ـ الغربي من مسقط ، أصغر وأكثر سوادًا ، بينما جربوع (*F. j. syrius*) من القريتين بالصحراء السورية له جلد يحتوي على الكثير من الشعر البني والرمادي لدرجة تكاد تسمح بأن يوصف أن له لون الصحراء .

دراسة هذه العينة العربية سيؤدي بنا أخيراً إلى القول بأن جربوع (*syrius*) وجربوع (*Vocator*) ، اللذين وصفهما توماس كتحت نوع من جربوع (*J. jaculus*) وجربوع (*J. Loftusi*) على التوالي ، يجب أن ينظر لها بوصفها أنواعًا مستقلةً .

في شمال شرق الجزيرة العربية يصل امتداد جربوع (*J. florentiae*) إلى ساحل الكويت قاطعًا بهذا امتداد مناطق جربوع (*J. Loftusi*) . جربوع الساحل هذا أدكن

بقليل من الشكل العادي /p.364/ في الصحارى بوسط الجزيرة، ولهذا يمكن أن يوصف كتحت نوع كما يلي :

Jaculus florentiae oralis, subsp. n.

الصفات الأساسية والحجم مثلها عند جربوع (*J. florentiae*) . اللون أدكن بشكل واضح مع أنه أخف بشكل واضح من أي من تحت النوعين السابقين من (*Loftusi*) .

أطوال أجزاء الجسد حيًا : الرأس والجسم ١٢٠ ملم ، والذيل ١٩٧ ، والقدم الخلفية ٥٦ ، والأذن ٢٤ .

بلا جمجمة .

النوع .. ذكر كبير ، الرقم بالمتحف البريطاني 7.11.22.27 والرقم الأصلي 8.k.6 . جمعت من الكويت في ٢٢ أبريل ١٩٠٧م وسلمت للمتحف البريطاني من قبل الرائد إس . نوكس .

الموطن ..المنطقة الساحلية من شمال شرق الجزيرة العربية .

العينة (رقم ١٦١٢) الموجودة ضمن مجموعة كوكس ـ تشيزمان والمجلوبة من الزبير تطابق تمامًا النموذجين اللذين أحضرهما الرائد نوكس من الكويت .

تحفر الجرابيع جحرًا مستقيمًا ذا مدخل واحد يغلق من الداخل برمل أو حصباء . نهاية النفق تقرب من السطح ، على بعد حوالي ٣٠ ياردة ، ولكن تبقى مغلقة .

عندما يبدأ الثعلب في الحفر عند المدخل يفتح الجربوع النفق من الطرف البعيد وينطلق مسرعًا قبل أن يراه أحد أو على الأقل ببداية جيدة . يصيد البدو الجرابيع

بالتنقيب بأصابع أرجلهم عن النفق القريب من المخرج الخلفي ثم يبدأ رجلان في الحفر من الطرفين حتى يلتقيا . ولدى الجربوع حيلة أخرى فيقوم بحفر نفق فرعي قصير وما لم يعرف الإنسان ذلك فإنه يتخطاه في أثناء الحفر . عندما ينطلق الجربوع فإنه سريع جداً لا يستطيع الإنسان اللحاق به وينعطف بمهارة فائقة فيصعب على الكلب اللحاق به .

"أرنب تشيزمان"

Lepus omanensis Cheesmani Thos. وتسمى باللغة العربية «أرنب»

جبل عاقولة ، يبرين . ذكر ٥١٦٩ ، ٥٢٠٤ .

صحراء الجافوره . أنثى ٥١٦٣ .

أول أرنب من هذا النوع حصلنا عليها قرب سلوى ، في الأحساء في سنة ١٩٢١م وأرانب يبرين تتطابق معها بشكل جيد في اللون والحجم .

هذه الأرانب رائعة في الميدان نظراً لأحجامها الصغيرة وآذانها الطويلة جداً وألوانها الصحراوية الباهتة .

أرنب (*Lepus omanensis*) عمان تشابهها في حجمها، ولكنها أدكن وبنية وفي الحقيقة أنها تقارب الأرنب الإنجليزية من ناحية لونها . لهذا فإن أرنب تشيزمان (*L. O. Cheesmani*) هي الشكل الصحراوي منها وهي نتاج الصحراء الرملية الحقيقية . /p.365/ بجانب لونها الداكن فإن أرنب (*Lepus Connori*) في العراق حجمها أكبر بكثير كما يتضح من القياسات التالية :

القدم الخلفية لـ (*L. Connori*) ١٢٠ ملم ، من شروبان ، العراق .

القدم الخلفية لـ (*L. arabicus*) ١٠٠ ملم ، من صنعاء ، اليمن .

القدم الخلفية لـ (*L. O. Cheesmani*) ٧٩ ملم ، من صحراء الجافورة .

قياسات الجمجمة : الطول من مؤخرة الجمجمة إلى الحافة الخارجية للأسنان :

أرنب (*L. Connori*) ٩٣ ملم ، من العراق .
أرنب (*L. arabicus*) ٨٠ ملم ، من حسوة ، شرق عدن .
أرنب (*L.O. Cheesmani*) ٧١ ملم ، نوع سلوى
أرنب (*Lepus arabicus*) هي كذلك إحدى الأرانب الداكنة .

تتواجد أرنب تشيزمان (*L.O. Cheesmani*) بكثرة ما بين الأحساء ويبرين في أرض الحصباء الواسعة وصحاري التلال الرملية حيثما يتوفر قليل من الأشجار تتغذى عليها ومخبأ بسيطًا لها . لا يوجد إلا القليل من الأمكنة التي تستطيع أن تتخبأ بها ولهذا فهي تعتمد على لونها ـ الذي يشبه لون الرمل ـ ليحميها من أعدائها . من الواضح أنه طالما بقي الحيوان ساكنًا فإنه لا يُرى من قبل أعدائه الطبيعيين . أخذنا أرنبًا أنثى من الجافورة يوم ٢٥ فبراير ومعها صغيرين .

هذه الأرانب تحفر جحوراً ، ولكن يبدو أنها تستخدمها فقط عندما تشعر بالخطر .

"الغزال"

Gazella sp. ويسميها البدو «ظبي»

لا يوجد عينة .

شوهدت أثر غزال في الكثبان الرملية من صحراء الجافورة .

إن المنطقة التي بين الهفوف ويبرين لم يسقط عليها قطرة مطر لما يقارب العامين ولا يوجد مرعى مما دفع بالغزال إلى مناطق أخرى . يقول البدو إنه عندما تعشب المنطقة تكثر الغزلان في يبرين .

سمي نوعان منها من المنطقة المجاورة وخاصة :

غزال (*Gazella muscatensis*) ـ النوع محلية ، مسقط

وغزال (*Gazella marica*) ـ النوع محلية ، نجد ، وسط الجزيرة العربية ، وقد ذكر ليدكر بأن مجال انتشارها في الأرض الصحراوية الممتدة من نجد إلى غرب عمان .

غزال (*Gazella morica*) هي النمط الصحراوي الباهت من غزال (*G. muscatensis*) التي تشبهها في الحجم وكلهما أصغر من غزال (G. arabica) من عدن . /p.366/

"المها العربي"

Oryx beatrix gray. ويسمى باللغة العربية «الوضيحي»

لا يوجد عينة .

هذا النوع أحضر للمتحف البريطاني من قبل الرائد شبارد سنة ١٨٥٧م الذي يفترض أنه حصل عليها من شواطيء الخليج العربي . إن العينات المتوفرة بمجموعة العينات الوطنية ضئيلة ، وربما أن المانحين حصلوا على الجلود من الأهالي الذين لم يكونوا الجامعين الفعليين لها ، ولهذا فإن مواطنها ليست دقيقة جداً .

اليوم موطن هذا الجنس السريع التناقص هو وسط الصحراء العربية العظمى غير المأهولة وتلاحقها الأسلحة المتزايدة في أيدي القبائل . يذكر رجال آل مرة ، الذين يتجولون إلى قرب وسط تلك الصحراء مثل غيرهم البدو ، بأنه في السابق كانت المها تتواجد بكثرة في الصحارى حول يبرين في مواسم الأمطار التي تتبع فترة نمو النباتات . الآن تتواجد فقط إلى الجنوب بعيداً في الصحراء العظمى وخاصة في المناطق المجاورة لنجران .

خلال الحرب أرسل سلطان نجد عينة جيدة إلى صاحب الجلالة الملك ولاتزال موجودة في حدائق الحيوان بلندن . في هذه الحالة يجب ألا توضع نجد كمكان للمنشأ، لأن حيوانات المها ترسلها القبائل من أماكن بعيدة إلى الحاكم كهدايا . لهذا يمكننا أن نفترض بأن هذه العينة وكل العينات الموجودة في المتحف البريطاني تعود في منشئها إلى صحراء الجنوب باستثناء تلك التي اصطادها د. كاروثرز في تبوك بالنفود الشمالية .

النوع العربي من المها هو أصغر ما في مجموعة المها . ذكر ليدكر بأن ارتفاع الكتف ٣٥ بوصة ، وطول القرون من ٢٢ـ٥٠ , ٢٧ بوصة . /p.367/

ملحق رقم (٢)

الطيور

(مقتبسة من مجلة "*Ibis*" يناير ١٩٢٥ ص ٧ ـ ٣١ مع الشكر الجزيل للمؤلف)

طيور يبرين وجافورة والأحساء في وسط وشرق الجزيرة العربية وطيور جزيرة البحرين بالخليج العربي . بقلم الدكتور . سي . بي تايسهرت (M.A., M.B.O.U.) والرائد آر . إي . تشيزمان (O.B.E., M.B.O.U.)

الغراب (*Corvus corax ruficollis* less)

شوهد الغراب بني الرقبة من وقت إلى آخر في كل مكان من هذه المنطقة التي قطعتها ، وتقريبًا يكون دائمًا على شكل أزواج ، ولكنني لاحظت في إحدى المرات ثلاثة غربان ومرة أخرى أربعة غربان . يبدو أن كل زوج مفرِّخ يتجول في دائرة عشرين ميلاً حول منطقة العش ، أو محيط دائري طوله من جانب إلى آخر ٤٠ ميلاً ولكنها في الأماكن المنعزلة الكبيرة ، مثل واحة يبرين ، تتجمع بعض الشيء نتيجة للحاجة للغذاء . في يوم ١٣ فبراير وجدنا عشًا وبه ست بيضات في شجيرة بلا شوك ولا أوراق تسمى «العبل» (*calligonum comosum*) ارتفاعها ثماني أقدام فقط في غور من الكثبان الرملية العالية . كان الأب والأم قد صدا عن العش ولكنهما بعيدان عن مرمى البندقية . من بينهن خمس بيضات كن طبيعيات والسادسة صغيرة ولونها زيتوني ـ أسمر وقياسها ٣٢ × ٥ , ٢٣ملم ، أما الخمس الأخريات فقياساتهن تتراوح من ٤٣ ـ ٥٠×٣٠ ـ ٣١ملم . بُعد المنطقة وانعزالها تأكد من خلال انعدام الحذر المعهود في هذا الطير عند اختيار موقع عشه . رأينا عشًا آخر يوم ١٦ فبراير في

جبل عاقولة على أعلى شجرة «سلم» (*Acacia flava*) ترتفع عشرين قدمًا عن الأرض. ربما أنه كان بالعش بيض، لأن الطير كان يحوم حولنا ولكن الشوك كان مزعجًا فلم يستطع البدو تسلقها. وجدنا كذلك عشًا فارغًا ومهجوراً على نتوء بمنحدر صخري بجبل ززنوقة.

في أمسيات عدة ليال بالهفوف جاء زوج من الغربان ليبيت على كتلة من العشب في الصحراء وربما أن هذه عادة مكتسبة لأن هذا الموقع آمن لها من أشجار النخيل في الواحة حيث سيكونان تحت رحمة رجال القنص المحليين. من المستغرب أن تجد أن هذا النوع من الغربان هو الممثل الوحيد للغربان/p.368/ في الأحساء حيث يبدو أن مزارع النخيل مناسبة للغراب المبرقع. إن النعيب متشابه ولكنه ليس عاليًا مثله عند الغراب العادي. من الصعب أن تتأكد من الميدان عما إذا كان برقبته لون بني والتعرف عليه عن بعد لن يكون سهلاً حيث يمكن أن يظن بأنه (*Laurencei*) فكنت قد أشرت خطأً إلى هذا الغراب في المجلة الجغرافية (نوفمبر ١٩٢٣) على أنه غراب (*C.c. Laurencii*) (آر. إي. سي).

طائر الزرزور *Sturnus Vulgaris* Linn.

من الواضح أنه لا يصل الأحساء في الشتاء إلا الطيور التائهة ولا يمكن أن ينظر لطائر الزرزور على أنه زائر شتوي منتظم. تلك الطيور التي تغامر بالمجيء إلى هذه المنطقة لا تبقى فيها، وربما أنها تعود حال مجيئها إلى فارس أو العراق. ما يلي هو السجل الوحيد لما لدينا عن هذه الطيور: في يوم ١٩ نوفمبر شوهد ثلاثة طيور بالعقير وآخر في نفس المكان يوم ٧ مارس. في يوم ٨ ديسمبر شوهد عند الفجر قطيعان من حوالي خمسين طيراً تطير جنوبًا ولم تر مرة أخرى.

" العصفور " *passer domesticus hufufae*

(C. B. Ticehurst & Cheesman, *Bull. B.O.C.* xlv. 1924 p.19)

طائر شائع ومتوطن بالهفوف، ولكن لم نره في العقير أو يبرين . عصفور المنزل، ربما أنه نفس الجنس ، كان شائعًا في البحرين . الظهر الرمادي وعدم وجود أي علامة على الجناحين كانت صفات واضحة في الميدان .

حصلت من الهفوف على تسعة عصافير ذكور وخمس إناث ، وقد وصفت حديثًا بأنها جنس جديد . فهي تتبع لمجموعة بيضاء الخدود وصغار المناقير وأقرب إلى عصفور (*Indicus*) ، وتتميز عنه بلونها العام الباهت وبرأسها وظهرها، وريش الذيل الأعلى لونه رمادي أكثر ، ومخفف بعض الشيء بلون بني خفيف أكثر مما هو عند عصفور (*Indicus*) . الأجزاء السفلى لونها أبيض فاتح جدًا والجناحان معلّمان بلون القرفة المخفف .

ذكر الجناح ٧٢ ـ ٧٧ ، والمنقار (القاعدة) ٢٥ , ١٣ ـ ٥ , ١٤ ملم

أنثى الجناح ٥ , ٧٠ ـ ٧٤ ، والمنقار (القاعدة) ٥ , ١٢ ـ ٥ , ١٣ ملم

العصافير الكبيرة الذكور لها مناقير سود حتى في فصل الشتاء . يبدو أن عصفور (*p. d. buryi*) في جنوب الجزيرة العربية (عدن . . . الخ) لا يمكن تمييزها أبدًا من عصفور (*indicus*) . من المؤكد أن عصفور الهفوف عاش في هذه الواحة ما يكفي من الوقت ليصبح جنسًا متميزًا مثلما هو المتوقع .

الدُّرَّسة *Emberiza Calandra* Linn.

في يوم ١٧ نوفمبر رأيت طائر دُرَّسة الذرة بالعقير في بقعة من البرسيم بجانب بئر ، وربما أنها كانت من الطيور التائهة فهي تفرخ في العراق . /p.369/

«أم سالم» *Alaemon alaudips cinerea* (zar.)

هذه القنبرة مستوطنة وواسعة الانتشار بشكل عام : إذا لم تكن «شائعة» بالمعنى الحقيقي فإنها في هذه البرية تستحق اللقب أكثر من غيرها من الأنواع . في الحقيقة أنها الطير الوحيد الذي نراه أثناء سيرنا لأميال عديدة . يبدو أنها واحدة من أنواع الطيور التي استطاعت حل مشكلة العيش بدون ماء حيث تقابلك وأنت على بعد ٧٠ ميلاً من أقرب بئر مع أنه من الممكن أن ندى وضباب الصباح ـ الذي يتكون أحيانًا ولاحظناه في الكثبان الرملية ـ يمكّنها من جمع قطرات الندى من الشجيرات . مع هذا فإنه لابد أن تكون قادرة على البقاء لفترة طويلة من دون شرب ، ولم نرها قط على الآبار أو حفر الماء ، وقد لاحظ أحدنا هذه الظاهرة في صحراء السند .

أربعة ذكور : الجناح ١٣٢ ـ ١٤٠ ، والمنقار (القاعدة) ٥ , ٣٢ ـ ٥ , ٣٦ ، من ريش الجبهة ٢٨ ـ ٣١ ملم .

ثلاث إناث : الجناح ١١٦ ـ ٥ , ١٢٤ ، والمنقار (القاعدة) ٣١ ـ ٣٢ من ريش الجبهة ٢٦ ـ ٥ , ٢٧ ملم .

هذه الطيور لها منقار أطول قليلاً منه عند طيور السند ، ولكن ماعدا ذلك فهي متشابهة بشكل كبير . من ناحية ثانية فإن طول المنقار عند هذه الأنواع متفاوت بشكل كبير . إجمالاً فإن لونها رمادي أكثر منه عند مثيلاتها من الطيور المصرية وحجمها أكبر بشكل كبير مع أنه من ناحية اللون فقط ، فيمكن أن تتطابق بعض هذه الطيور مع بعض مثيلاتها في مصر . لهذا فإنني كما ذكرت من قبل بأن اللون في طيور القنابر صفة يجب التعامل معها بحذر كبير .

"حمرة" *Ammomanes deserti azizi*

(C. B. Ticehurst & Cheesman, *Bull. B.O.C.* xlv. 1924, p.20)

قنبرة الصحراء هذه ـ والتي لابد أنها مستوطنة ـ تتواجد عادة عند كتل الحجارة في سفوح الجبال الطباشيرية على شكل أزواج أو مجموعات صغيرة وغالبًا ما ترتبط مع قنبرة (*Ammonaes c. pallida*) . حصل تشيزمان على طائر القنبرة هذا أولاً في ٣١ مارس ١٩٢١م من (أبو مهرا) قرب سلوى وهو ذكر على وشك أن يفقس . وفي رحلته الحديثة وجده في جبل أبو غنيمة ـ ٥٠٠ قدم) قرب الهفوف وفي جبل زرنوقة بينما رأى مجموعة صغيرة في المناطق العديمة المياه في الطريق إلى يبرين . لكن ربما أن هذه الطيور متجولة بعيداً عن مناطقها العادية لأنك عادة لا تراها إلا قرب مناطق المياه والحقيقة أن أضمن طريقة لتجد طيور القنابر (*Ammomanes*) هو أن تترقب قرب بئر منعزلة قريبًا من سفوح الجبال مثلما لاحظ كلا منا من قبل في البوشتي كوه والسند . إن جلاميد الصخور الرملية ـ والتي تحبها هذه الطيور بشكل خاص ـ لها لون قرنفلي ـ أبيض مشابه تمامًا لألوان الطيور . يبدو أن اختلاف ألوان /p.370/ طيور قنابر (*Ammomanes*) مرتبطًا بشكل وثيق مع لون الأرض التي تعيش عليها وليس له علاقة بكمية المطر .

سمي هذا الجنس على شرف صاحب العظمة عبدالعزيز بن سعود سلطان نجد مضيف الرائد تشيزمان .

ثلاث ذكور ، الجناح ١٠٠ ـ ١٠٥ ، خمس إناث ، الجناح ٩٤ ـ ١٠٠ ملم . المنقار كما هو عند قنبرة (*isabellina*) .

اللون أكثر بهوتًا من لون قنبرة (*Isabellina*) التي هي أقرب ما تكون لها . من الأعلى لونها وردي باهت يميل إلى بني أصفر ويتغير إلى بني أصفر فاتح . من

الأسفل لونها أكثر بياضًا وداكنه كثيراً على الحلق . المنقار أصفر ليموني . رأيت نوعًا من قنبرة (*Ammomanes*) في جزيرة البحرين .

« **حمَّرة**» *Ammomanes cinctura pallida* cabanis (أي طائر بني ؟)

ما قيل حول الأخيرة ينطبق كذلك جيداً على قنبرة الصحراء الصغيرة هذه لأن كلاهما يوجدان بعضهما مع بعض . الحجم الأصغر من هذا الطائر ليس واضحًا جداً في الميدان . وبلاشك أن هذا الطائر مستوطن ، وقد شوهد جنوبًا حتى يبرين .

أربع ذكور ، الجناح ٩٣ ـ ٩٧ ملم . والمنقار داكن مجوف من الأعلى وباهت من أسفل .

بشكل عام فإن لون هذه الطيور رمادي أكثر على الأجزاء العليا ، بينما لون ريش الطيران والخوافي أحمر ـ رملي أخف مما هو عند طير (*arenicolor*) . أما الصدور عند هذه الطيور أكثر بياضًا وجوانبها أقل تلوينًا تشوبها صفرة ـ رملية ، وعلى أية حال فلا يمكن التمييز بين بعضها . وصفت (حمرَّة) قنبرة (*A.C. pallida*) من القنفذة التي تقع على البحر الأحمر (إقليم عسير) وقارنها الدكتور سترسمان ، الذي أرسلت له طيور الأحساء ، بالنوع الموجود في متحف برلين ووجد أنها «متشابهة كثيراً» .

يبدو لي أنه من الواضح أن هذه القنبرة الصحراوية الصغيرة ذات اللون البني المائل للصفار من جنس (*cinctura*) وليس من جنس (*phaenicura*) الداكنة الكبيرة «الزراعية» والتي يبدو أن أكثر ما يمثلها في المناطق الغربية وفي الصحراء هو طائر (*zarudnyi*) . (C.B.T.) .

القبرة *Alauda arvensis intermedia swinh.*

طائر القبرة زائر شتوي بأعداد قليلة ، وقد حصلت على أحدها على بعد سبعة أميال من الهفوف يأكل مع القنابر قصيرة الأصابع من أماكن درس الأرز . هذا وقد شوهد قليل من هذه الطيور في حقل قمح بالهفوف يوم ٢٢ ديسمبر و ٦ يناير .

القنبرة ذات العرف

Galerida cristata magna Hume. وتسمى باللغة العربية «غوبار»[(١)] .

القنبرة ذات العرف ليست بأي حال من الأحوال طائر منتشر في الأحساء ، فقد رأيت ستاً منها في العقير يوم ١٧ نوفمبر . وفي خلال مسيرة الأربعين ميلاً إلى الهفوف/p.371/ لم نر إلا زوجًا واحدًا فقط ، وكان هذا في مكان توقفنا حيث توجد بئر ماء . لم يشاهد طوال فصل الشتاء بالهفوف إلا زوج واحد وسرب مكون من ثمانية طيور . في يبرين (١٩ ـ ٢٢ فبراير) كان يتواجد دائمًا حول المخيم طائر أو طائران ، وفي المسيرات الطوال حيث لا يتوفر الماء لا يقابلك هذا الطير أبدًا . ندرة هذا الطير في واحة كبيرة مثل الهفوف لابد أن تجعل الإنسان يفترض بأنه زائر شتوي ، حيث يبدو من غير المعقول أبدًا أن يكون العدد الإجمالي للقنابر ذات العرف في الأحساء مجرد خمسة أزواج ! من المعروف أنه زائر شتوي إلى السند الأسفل .

ستة ذكور : الجناح ١٠٩,٥ ـ ١١٣ ، والمنقار (القاعدة) ٢٠ ـ ٢٢ ، من ريش الجبهة ١٧ ـ ١٨,٥ ملم .

هذه المجموعة تشبه إلى حد كبير طيوراً من كويتا ويختلف طير قنبرة (*G.C. magna*) في اللون قليلاً فبعضها رمادي أكثر وبعضها رملي أكثر من الآخرين .

---

(١) ربما أن هذا الرحالة أساء سماع اسم هذا الطير الذي ربما سمعه ينطق «قوبعة» (المترجمان) .

طيور الأحساء هذه يمكن تمييزها بسهولة من طائر (*tardinata*) والذي له ظهر بني أكثر ونحو جذور الريش يكون اللون داكن أكثر والبياض أقل في الأجزاء السفلى وحجمه أصغر .

خمسة ذكور ، جنوب شبه الجزيرة العربية : الجناح ١٠٢ ـ ١٠٦,٥ ، والمنقار (القاعدة) ١٩,٥ ـ ٢٠,٥ ملم .

خمس إناث ، جنوب شبه الجزيرة العربية : الجناح ٩٦,٥ ـ ٩٨,٥ ، والمنقار (القاعدة) ١٧,٥ ـ ٢٠ ملم .

في شهر مارس تنتشر القنابر ذوات العرف في جزيرة البحرين، ولكن لسوء الحظ لم نحصل على عينة .

القنبرة ذات الأصابع القصيرة

Calandrella rufesceus minor (cabanis)

تقابلك قرب الهفوف أسراب كثيرة من القنابر قصيرة الأصابع حيثما توجد أماكن درس الأرز . وتأتي بانتظام لتشرب من برك الماء المتسرب من مياه الري . قابلنا سرب منها في الصحراء عديمة الماء بين الهفوف ويبرين، ولكن من الواضح أن هذه الطيور إما مجرد عابرة أو تتجول .

ذكران : الجناح ٩٢ ـ ٩٤ ، والمنقار (القاعدة) ١١ ملم .
أنثيان : الجناح ٩٠,٥ ـ ٩٢ ، والمنقار ١١ ملم .

هذه الطيور الأربعة عينة قريبة من طير (*minor*) حتى أنه يجب علي عدم عزلها كجنس مستقل . هذا مع أنها تبدو أبهت بعض الشيء على الأجزاء العليا وبالتأكيد فإنها ليست (*Seebohmi*) ولا (*heinei*) . ربما أن هذه الطيور زوار شتاء .

القنابر الكبيرة

Calandrella rufescens persica (sharpe.)

كانت أعداد من القنابر الكبيرة تأكل الأرز ومختلطة مع ما ذكرت سابقًا في نفس الأسراب والتي لابد ـ فيما أظن ـ أن تكون قنابر من نوع (*persica*) ، مع أنني لم أر عينات منها بنفس لون الريش . (C.B.T.) /p.372/ .

إنها أحد الطيور المنتشرة بكثرة في واحة الأحساء، وقد صادفتني في العقير يوم ١٨ نوفمبر وفي يبرين يوم ٢٣ فبراير وربما أنها زائر شتوي .

ثلاثة ذكور : الجناح ٩٩ـ١٠٦ ، والمنقار (القاعدة) ٥ ,١٢ـ١٣ ملم .

ثلاث إناث : الجناح ٩٤ـ٩٧ ، والمنقار (القاعدة) ١٢ـ٥ ,١٣ ملم .

المنقار ليموني والسيقان لونها بني بلون القرون .

الذعرة البيضاء *Motacilla alba dukhunensis* sykes

الذعرة البيضاء زائر شتوي لواحة الأحساء وتنتشر على شكل قطعان في كل مكان في حقول البرسيم والقمح . في كل مساء تطير أسراب من هذه الطيور فوق بلدة الأحساء لتبيت في السهول الشمالية . لم نر هذا الطير في يبرين ولكنها كانت متواجدة بكثرة في العقير . يوم ٦ مارس وفي يوم ٢٩ مارس رأيت عددًا منها هناك . من جهة أخرى رأيت عند آبار سلوى يوم ٥ أبريل عددًا منها، وبلاشك أنها كانت متوقفة أثناء هجرتها . في يوم ١ أبريل ١٩٢١م أمسكت بذعرة جائعة عند جبل هويث في سلوى .

الذعرة الرمادية *Motacilla cinerea* Tunstall.

أمضت ذعرة رمادية وحيدة فصل الشتاء في واحة الهفوف، وقد شوهدت تتغذى حول نفس الجدول المائي مرات عديدة ابتداءً من يوم ٤ ديسمبر . كما رأيت واحدة أخرى في العقير ، ربما أنها عابرة ، يوم ٢٩ مارس ١٩٢١م .

الذعرة الصفراء *Motacilla flava* Linn.

الذعرة الصفراء (ذكر) *Motacilla feldegg* Michah.

طيور الذعرة الصفراء تمر مهاجرة عبر الأحساء . ذكر صاحب مزرعة بالهفوف لتشيزمان بأنها «تهاجم الهفوف طيور صفر جميلة وصغيرة كانت في السماء وتنزل في مواسم معينة إلى حقول البرسيم!». شوهدت مقدمات هذا الهجوم يوم ٧ مارس ، وهما ذعرتان صفراوان ذكران (*M. feldegg*) في حقل برسيم بالعقير . في المشرق يمثل وصول طيورالذعرة الصفراء في فصل الربيع مشهداً رائعًا ، رأيناه في العراق والسند . فترى حقول البرسيم يومًا ما من دون طيور، وفي الصباح التالي يتحول لونها إلى أصفر بسبب كثرة الطيور الذكور والذكور فقط . بداية وصول هذه الطيور في العراق هو يوم ١٣ مارس . قابلتنا في سلوى طيور الذعرة زرقاء الرأس عابرة في نهاية شهر مارس ١٩٢١م وفي العقير يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٢٠م .

الجشنة *Anthus pratensis* (Linn.)

شوهدت جشنة ـ المروج في العقير يوم ١١ نوفمبر /p. 373/.

الجشنة حمراء الحلق *Anthus cervinus* (pall.)

الجشنة حمراء الحلق زائر شتوي في أعداد قليلة إلى الحقول المسقية في واحة الهفوف وتجتمع وتطير في أسراب مع طيور الذعرة البيضاء عند ذهابها للمبيت . رأيت بعضًا منها في العقير في شهر نوفمبر وحصلت على واحدة في سلوى في يوم ٢ أبريل ١٩٢١م .

الجشنة السمراء المصفرة *Anthus campestris* (Linn.)

رأيت جشنة ذات سمرة وصفار في العقير يوم ١٧ نوفمبر واثنتين أخريين في سلوى يوم ١ أبريل ١٩٢١م وربما أنها مهاجرة عابرة .

جشنة الماء *Anthus spinoletta coutellii* savigny

جشنة الماء ليست منتشرة جداً كزائر شتوي لواحة الهفوف ، وتتغذى على حقول القمح المروية وتطير مع طيور الذعرة فوق البلدة كل مساء للمبيت . حصلت على اثنتين منها وتطابقت مع مثيلاتها من الطيور المصرية أكثر مما هو مع جشنة (*blakistoni*) . يفرخ هذا الطائر في فارس .

يسمى باللغة العربية الصُّرَد ويسميه البدو «سيراتي» *Lanius excubitor aucheri* Bp.

طائر الصُّرَد الرمادي الكبير ليس شائعًا ، ولكن ربما أنه مستوطن ، وقد رأينا زوجًا من هذه الطيور جنوب يبرين في يوم ٢٠ فبراير وأعضاء الذكر كانت في حالة إنجاب . في يوم ١٣ فبراير رأينا واحداً آخر في صحراء الجافورة . يفرخ (هذا الطائر) في جزيرة طنب في الخليج العربي ، وذكر الصرد الذي حصلنا عليه هو من نوع الصرد (*aucheri*) العادي .

البلبل *pycnonotus leucotis mesopotamiae* Tice

يتواجد البلبل أبيض الأذن بكثرة ، ولكن فقط في منطقة النخيل من واحة الهفوف ، ولا يظهر في يبرين ، ولهذا فربما تكون الهفوف حدوده الجنوبية . كذلك شوهدت البلابل في بساتين النخيل بجزيرة البحرين . هذا الطير بالنسبة للصيادين المحليين يعتبر «طريدة الصيادين» في الهفوف . حصلنا على أربعة منها ، وكلها لها

حافة ـ العين الصفراء التي عند طيور العراق . بالنسبه لبلبل الهند فهي أكبر حجمًا منه ولون الأجزاء السفلى منها رمادي أكثر . من العجيب جداً أن تجد بلبل العراق في هذه الواحة ، فانتشاره شرق الفاو غير معروف ، ولكن إمكانية أنه جُلب للهفوف والبحرين من البصرة يجب ألا تغيب عن بالنا .

دخلة الصحراء يسميها البدو "شويلة" *sylvia nana nana* (H. & E.)

دخلة الصحراء هي أكثر الأنواع شيوعًا في يبرين ، وتتردد على المناطق المكتظة بالأشجار . ظن تشيزمان يوم ٢٠ فبراير أن هذه الطيور تكون على شكل أزواج ومستوطنة هناك . من ناحية ثانية أنا لا أظن أن هذا يجب أن يؤخذ كحقيقة ، لأن الطيور التي حصلنا عليها قد تساقط ريشها ، ولهذا فإن موسم التفريخ /p.374/ لابد أنه كان قبل مدة . بالإضافة إلى ذلك فإن الأعضاء لم تتوسع إلا إلى حد بسيط في أحد الذكور . رأينا قليلاً منها في جبل أربع ، ولكنها ليست كثيرة جداً في يبرين . قال تشيزمان : إن صوت التحذير أو الأغنية لهذا الطير تشبه إلى حد كبير نسخة مصغرة من صوت الحجل الإنجليزي .

حصلنا على خمس دخلات صحراوية وكلها تقريبًا متساقطة الريش والأجزاء العليا منها ، ربما أن لونها أكثر رمادية بقليل من طيور الهند في نفس الوقت من السنة . لكن لا يمكن التمييز بينها ؛ لأن هذه الطيور متساقطة الريش ، ولهذا فهي تظهر حالتان من الريش ، القديم والجديد ، ونظن أنه ليس بالإمكان التأكيد كثيراً على درجة اللون الأكثر رمادية . المقاييس والأطراف الناعمة مثلها عند الطيور الهندية .

دخلة منتريز *sylvia mystacea* (Menet)

شاهدنا بين العقير والجشة في يوم ١٩ نوفمبر دخلة منتريز متأخرة عن الموعد المعتاد للهجرة . يفرخ هذا الطائر في العراق وفارس .

دخلة البردي *Acrocepha schaenobaenus* (Linn.)

في يوم ٢٩ مارس ١٩٢١م حصلنا على دخلة بردي أنثى - بلاشك أنها عابرة - كانت في شجرات أسل قرب البحر في العقير .

دخلة القصب *Acrocephalus arundinaceus zarudnyi* Hart.

حصل السير برسي كوكس في يوم ١ ديسمبر ١٩٢٢م على دخلة قصب كبيرة في العقير .

دخلة البردي *Lusciniola melanopogon mimica* Mad.

تكاد تكون دخلتا بردي ذواتي الشارب هما الساكن الوحيد لدغل من القصب مساحته حوالي ميلين مربعين في أم سبعة على بعد سبعة أميال شمال الهفوف . كان الذكر (حصلنا عليه) يغرد بأعلى صوته ، والآخر كان بلاشك الأنثى ، والأعضاء التناسلية في حجم التفريخ وبلاشك أن هذا الزوج كان بالفعل يفرخ هناك . الأغنية تشبه خليط من أغاني دخلة البردي ، والدخلة بيضاء الحنجرة الشائعتين ، ولكنها أحلى ولها نغمة أطيب من كليهما . نادراً ما يبقى الطير على لحن واحد لأكثر من ثانيتين أو ثلاث ثوان ويغني بتواصل أثناء تعلقه بساق القصب ومن الصعب رؤيته . لم أر شيئًا منها في أي مكان من هذه الواحة .

كنت متعوداً جداً على دخل البردي في السند أثناء الجو البارد ، وبالتأكيد لم أسمعه أبدًا يغني ، ولم تكن أعضاء أي من الطيور التي حصلت عليها هناك متوسعة . أحضر تشيزمان معه إلى بريطانيا جسم هذا الطير في محلول ووجدت /p.375/ أن خصيه حتى في ذلك الوقت بكبر حبات البازلا .

كان النقيب بكستون متأكداً من أن هذا النوع يفرخ في شهر يوليه قرب العمارة في العراق، ووجده بلانفورد يفرخ في شيراز . لهذا فإن حقيقة تفريخه في شمال الجزيرة العربية ليس مما يلفت النظر بشدة، ولكن الشهر يبدو غريباً فلربما أن دغل القصب يصبح فيما بعد جافًا جدًا . بلاشك أن العينة التي أحضرت كانت دخلة (*mimica*) . (C.B.T.)

دخلة الجندب *Locustella naevia straminea* seebh.

حصلت على دخلة جندب (ذكر) في شجر الأسل عند البحر في العقير في ٢٩ مارس ١٩٢١م وبلاشك أنها كانت عابرة مهاجرة .

صعوة ــ الدخل المخططة

(*prinia gracilis hufufae* C.B. Ticehurst & Cheesman, *Bull. B.O.C.* xlv. 1924, p.19)

تعتبر صعوة ـ الدخل المخططة أحد الطيور القلائل الواسعة الانتشار في واحة الهفوف تتردد على بساتين النخيل، ولم تر في أي مكان آخر بالداخل مع أن صعوة ـ الدخل المخططة كانت منتشرة في أماكن أخرى مشابهة في جزيرة البحرين ولكننا لم نحصل على عينة من هناك .

كان عدد من ذكور صعوة ـ الدخل تغرد بأعلى أصواتها في يوم ١١ يناير وتدل أعضاؤها التناسلية على قرب موسم التفريخ ويسكن قليل منها دغل القصب الكبير في أم سبعة قرب الهفوف .

ثمانية ذكور : الجناح ٤٤ ـ ٤٨ ، والذيل ٦٠ ـ ٦٨ ملم .

أربع إناث : الجناح ٤٤ ـ ٤٧ ، والذيل ٦١ ـ ٦٥ ملم .

يمكن التعرف على هذا الجنس بسرعة من بين أجناس *palestinae* و *iraquensis* و *Lepida* و *gracilis* و *Carlo* بشريط نهاية ريش طرف الذيل المقطوع بحده والأكبر حجمًا والأغمق لونًا . من الأعلى لونه أبهت ورمادي أكثر مع لون أحمر باهت على أطراف الأجنحة، ومن الأسفل أنصع بياضًا من صعوة (*yemenensis*) ورمادي أكثر من الأعلى وأكثر بياضًا من الأسفل ، والظهر أنعم تخطيطًا من صعوة (*deltae*) . كما أن لها منقار أقصر من صعوة (*natronesis*) . ويبدو أن ريش الذيل أعرض منه عند كل هذه الأجناس .

الهازجة *phylloscopus collybita abietinus* (Nilss.)

طائر الهازجة زائر شتوي في أعداد قليلة فلم نلحظ أكثر من ثلاثة أو أربعة طيور خلال فصل الشتاء في الهفوف ورأينا ستة منها خلال مسيرة الأربعين ميل من العقير إلى الجشة يوم ١٩ نوفمبر . في يوم ٦ مارس كانت متواجدة بكثرة في العقير أثناء رحلة مرورها كما لوحظت كذلك في سلوى يوم ٥ أبريل ١٩٢١م . حصلنا على اثنتين منها ومن المؤكد أنهما من هذا الجنس .

سمنة ـ الصخور *Monticola saxatilis* (Linn.)

أول البشائر بهجرة الربيع إلى الشمال كان طائر سمنة الصخور ذكر شوهد على جدار بالهفوف في يوم ٣ مارس /p.376/ وهو الوحيد الذي صادفنا وأبكر ظهور له في العراق يوم ٣٠ مارس .

طائر سمنة الصخور الأزرق *Monticola solitarius* (P.L.S. Muller)

شوهد طائر سمنة ـ الصخور الأزرق بالعقير يوم ١٧ نوفمبر وهي الإشارة الوحيدة له . وضعه مشكوك فيه فلربما أنه زائر شتوي .

الحميراء *Phaenicurus ochrurus phaenicuroides* (Moore)

شوهد طائر الحميراء بالهفوف يوم ١١ يناير وآخر في جنوب الأحساء يوم ١ مارس، وهما الإشارتان الوحيدتان لطائر الحميراء[١] الأسود . هذا الطائر زائر شتوي في أعداد قليلة ويفرخ في فارس .

طائر القليعي المطوق *Saxicola troquata* (Linn.)

شوهد طائر القليعي المطوق في الهفوف يوم ٢٨ يناير ومرة أخرى في جنوب يبرين يوم ١٨ فبراير . هذا الطائر زائر شتوي وفي أعداد قليلة وقد لوحظ أثناء مروره بسلوى يوم ٥ أبريل ١٩٢١م .

الأبلق *Oenanthe aenanthe* (Linn.)

شوهد عدد من طيور الأبلق في البحرين يوم ٢٧ مارس وفي العقير يوم ٢٩ مارس سنة ١٩٢١م ومن المؤكد أنها كانت عابرة .

الأبلق الصحراوي *OEnanthe deserti oreophila* (oberh.)

يسميه البدو «داغن» أو «أبو زرة» OEnan the deserti atrogularis (Blyth) .

طائر الأبلق الصحراوي هو الأكثر توافراً من بين مجموعته في الأحساء وفي صحاري يبرين ويزيد عدد الذكور على عدد الإناث بكثير، وهذه الملاحظة كان أحدنا قد لاحظها من قبل في صحراء السند . حصلنا على عينتين من جنس (*oreophila*) والبقية من جنس (*atrogularis*) . هذه المجموعة من الطيور تُظهر بشكل

(١) طائر أوروبي مغرد (المترجمان) .

جميل تغير الفصول الذي يحدث بفقدان اللون الأحمر على الأجزاء العليا والأبيض على الحلق وحتى شهر مارس فإن الأجزاء العليا يكون لونها رمادي والحلق أسود. يفرخ هذا الطائر في التبت وبالمقارنة فإن طائر الأبلق ، من جنس (*oreophila*) ينتشر في منطقة ضيقة في الشتاء - شرق فارس وبلوشستان وشمال شرق الجزيرة العربية وسوقطرى .

الأبلق ذو اللون البني ـ الأصفر *Œnanthe isabellina* (Cretz.)

ظن تشيزمان بأن طائر الأبلق ذا اللون البني - الأصفر كان عابراً مهاجراً لأنه لم ير شيئًا حتى يوم ٢٠ فبراير ، وشاهد عدداً منها فيما بعد وحصل على ثلاثة .

الأعضاء عند أحدها في يوم ٢٨ فبراير تدل على قرب موسم التفريخ . شوهد أحدها بالعقير يوم ١٨ نوفمبر وحالته غير معروفة وربما أنه عابر مهاجر /p.377/ .

الأبلق المرقط *Œnanthe Leucomela Leucomela* (pall.)

من الواضح أن طائر الأبلق المرقط طائر عابر مهاجر ، وأول ما رأيناه كان في يبرين يوم ٢٢ فبراير ثم تكاثر خلال الأسبوع اللاحق . رأينا عدداً منها أثناء عبورها جزيرة البحرين يوم ٢٧ مارس ١٩٢١م وفي سلوى يوم ٥ أبريل ١٩٢١م . كما لاحظنا في العراق بأن أول وصول لها يوم ١ مارس .

طائر الأبلق المبرقع *Œnanthe monacha* (Temm.)

حصلنا على طائر الأبلق المبرقع ، وجنسه أنثى من جبل دخان بجزيرة البحرين يوم ٢٦ مارس ١٩٢١م . حالتها غير معروفة ، ولكن يبدو أنها نادرة في كل مكان ، وبلاشك أنها مستوطنة حيثما وجدت .

طائر الأبلق أحمر الذيل

ويسمى باللغة العربية «أم الحنا» *OEnanthe xanthoprymna chrysopygia* (De Fil.)

طائر الأبلق أحمر الذيل زائر شتوي ونادر نوعًا ما، ووجدت في شهر يناير قليلاً منها . تسكن هذه الطيور سفوح الصخور الرملية لجبل أبو غنيمة (٥٠٠ قدم فوق سطح البحر ، ٣٠٠ قدم فوق السهل)، وكذلك وجدتها في وضع مشابه في يبرين يوم ٢٠ فبراير . حصلنا على ثلاثة طيور من هذا الجنس الذي يفرخ في شمال فارس على ارتفاع من ٥٠٠٠ - ١٢,٠٠٠ قدم .

السنونو *Hirudo rustica* Linn.

لاحظنا طيور السنونو بأعداد قليلة جدًا حتى يوم ٥ ديسمبر وبعد هذا التاريخ لم نر شيئًا حتى الأول من فبراير عندما قابلنا ثلاثة منها عند الهفوف متجهة شمالاً . ظهر بعض من طيور السنونو المنفردة أثناء مسيرنا من الهفوف إلى يبرين عبر الصحراء يوم ١٣ فبراير، ومرة أخرى أثناء رحلة العودة يوم ٢٥ فبراير، وبعد أن تخطف قليلاً من الذبان من على أنوف الجمال تقريبًا تختفي في الجو مرة أخرى . كانت طيور السنونو منتشرة في جزيرة البحرين يوم ٢٧ مارس ١٩٢١م وعلى وشك التفريخ هناك . كما لاحظناها عابرة في سلوى من ١ - ٣ أبريل ١٩٢١م . كذلك فإن طيور السنونو في جنوب العراق تتغيب فقط خلال شهري ديسمبر ويناير .

خطاف ـ المنازل *Delichon urbica* (Linn.)

شوهد اثنين من خطاطيف المنازل في جزيرة البحرين يوم ٢٥ مارس ١٩٢١م وكانا عابرين مهاجرين .

خطاف ـ الصخور *ptyonoprogne rupestris* (Scop.)

شوهد خطاف ـ الصخور وحيداً فوق بلدة الهفوف يوم ١ يناير . كما رأينا عدداً من خطاطيف المنازل وحصلنا على واحد منها خلال عبور واضح لها باتجاه الشمال عند ساحل سلوى يوم ٣١ مارس ١٩٢١م . كما رأينا واحداً في البحرين يوم ٢٧ مارس ١٩٢١م /p.378/ .

يبدو أن الطيور المنفردة تقضي فصل الشتاء ، ولكن الأغلبية كانت عابرة مهاجرة . إن «سقسقة» خطاف ـ الصخور هذه تختلف تماماً عن سقسقة خطاف (*p. obsoleta*) كما أن طيرانه بطيء حيث يرتفع عالياً بتثاقل ويهوي مرةً أخرى مثل طائر سنونو متأخراً عن الهجرة في فصل الخريف وعاجزاً عن القيام بها .

خطاف ـ الصخور الشاحب *ptyonoprogne obsoleta obsoleta* (cab.)

كان خطاف الصخور الشاحب منتشراً في الهفوف ، ولكن لم نره في يبرين . يتردد الكثير من الطيور على البلدة ، محلقة فوق السوق ، التي يتوفر بها حتى في فصل الشتاء أعداد كبيرة من الذباب .

تفرخ هذه الطيور في المنحدرات الشاهقة لجبال الصخور الرملية في المنطقة المجاورة ، ووجدت أعشاشًا قديمة لها تستخدمها من أجل المبيت . إن الأعشاش والتي لا تبنى في مجموعات تكون مفتوحة من الأعلى مثل أعشاش السنونو ، وللحماية توضع تحت رفوف ناتئة . تتكون الأعشاش من كريات الطين العادية ومبطنة بالحشائش وشعر الجربوع ، وربما أنها مأخوذة من كريات قديمة لبومة ـ نسارية صحراوية والتي لها مجثم في الأسفل .

خطاطيف ـ الصخور هذه تخاف كثيراً من المطر فلأول رشات خفيفة من زخات المطر القليلة والنادرة فإنها تسرع إلى جدران القلاع الطينية حيث تلتم مع بعضها في

مجموعات من ثلاثين وأربعين تنتظر توقف المطر . شاهدنا قتالاً عنيفًا بين طائرين (خطافين) في الجو ولعدة مرات يتهاجمان ، وهما متماسكان معًا بشدة فيسقطان من ثلاثين إلى أربعين قدمًا قبل أن يفك أحدهما الآخر . نغمة هذا الطير شبيهة بنغمة الخطاف الطبيعي .

أربعة ذكور ، الجناح ١١٧ ـ ١٢٢ ، أربع إناث ، الجناح ١١٩ ـ ١٢٤ ملم .

هذه مجموعة ممتازة ذات ريش جيد . عندما تقارن مع مجموعة من مصر (تلال المقطم) في نفس الوقت من السنة (نوفمبر إلى ديسمبر) ففي الواقع أن طيور الهفوف ليست أشحب لونًا مع أن الطيور المنفردة منها ، قد تكون كذلك عندما تقارن بعضها ببعض . ولهذا فإنني أجعل هذه الطيور من الجزيرة العربية ضمن الجنس العادي ، ومن المؤكد أن الحال كذلك بالنسبة لجنس (*p.o. reichenowi*) في سيناء والسويس . منذ ذلك الحين لم أر شيئًا منها ، ولكن يبدو أن طيور فلسطين عادية . تختلف خطاطيف ـ الصخور هذه كثيراً وإلى حد بعيد جداً في كل فصل . مجموعات الهفوف ومثيلاتها في مصر أضعف بكثير من طيور السند مع أن طيور السند الشتوية تتشابه كثيراً مع طيور مصر التي حُصلت في شهر مايو . يجب أن يسمى طير السند ـ بلوشستان بطير (*pallida*) بالرغم من كونه أغمق لونًا . (*C.B.T.*) .

أخذ الجنس العادي من الفاو عندما كان متجولاً ومن جنوب غرب فارس /p.379/ .

خطاف ــ الرمل *Riparia riparia (Linn.)*

شوهدت طيور خطاف ـ الرمل المنفردة حتى الأول من ديسمبر ـ عابرة مهاجرة ومتأخرة . لم نر شيئًا بعد ذلك ولكن في عام ١٩٢١م قابلنا ثلاثة أسراب منها في جزيرة البحرين يوم ٢٧ مارس وفي العقير يوم ٢٩ منه وقرب سلوى يوم ٣ أبريل .

كذلك في جنوب العراق (الفاو) فإن هذا النوع يتغيب فقط خلال منتصف أشهر الشتاء .

السمامة *Micropus murinus murinus* (Brehm.)

من الواضح أن بضعة سمامات شاحبة قضت فصل الشتاء في الأحساء فشوهدت ست منها تحلق فوق بلدة الهفوف يوم ١ يناير ، وكانت هذه أول رؤية لها ، وفي يوم ٢٨ منه شوهدت عشر منها في عين أم سبعة قرب الهفوف . بحلول يوم ٨ فبراير تزايدت الأعداد وشوهدت طيور السمامة في أغلب الأمسيات فوق الهفوف . في يوم ١ أبريل ١٩٢١م شوهدت عدة مجموعات منها تطير شمالاً فوق الساحل عند سلوى وحصلنا على واحدة .

السُّبَد *Caprimulgus europaeus sarudnyi* Hart.

طائر السُّبَد هذا لم نحصل عليه في الأحساء ، ولكن من على ظهر سفينة في بحر العرب بين المكلا ورأس فرتك وعلى بعد ثلاثة أميال من الساحل في يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٢٣م . وبصدفة فضولية أمسكنا كذلك بطائر سُّبَد آخر في نفس الموقع على بعد ثلاثين ميلاً من رأس فرتك في يوم ١٢ أبريل ١٩٢٤م . هذا الطير أضعف بقليل من الجنس العادي وبه البقعة البيضاء على الغشاء الخارجي لقادم الجناح الثانوي . إن مما يذكر به أن رأس فرتك يقع على خط الهجرة من الجزيرة العربية إلى أفريقيا ، ومن هذه النقطة جنوبًا فإن الطيور تنفذ إلى أفريقيا من حافتها الشمالية الشرقية عند أرض الصومال .

إن أول ذكر (وصول) لهذا الطير بالعراق (الفاو) هو يوم ٧ أبريل .

الوروار *Merops apiaster* Linn.

شوهد طائر الوروار عابراً عند العقير يوم ٣١ مارس ١٩٢١م . يصل هذا الطائر إلى العراق في نهاية شهر مارس ويفرخ في جنوب ـ غرب فارس .

الوروار الفارسي *Merops persicus persicus* pall.

لوحظ الوروار الفارسي في جزيرة البحرين يوم ١٠ أبريل ١٩٢١م ويصل إلى العراق حوالي منتصف إلى نهاية شهر مارس حيث يفرخ هناك .

الهدهد *Upupa epops epops* Linn.

الهدهد لا يقضي فصل الشتاء في الأحساء، وأول رؤية له كانت يوم ١ مارس في الدليقية يطير باتجاه الشمال مسرعًا على بعد قدم عن أرض الصحراء، ومن المؤكد أنه طليعة هجرة ربيعية) . /p.380/ رأينا ثلاثة هداهد كذلك في العقير يوم ٧ مارس بينما في سنة ١٩٢١م كان بعض منها مازال مواصلاً عبوره يوم ٢٩ مارس . أول وصول لهذه الطيور في العراق كان في الزبير يوم ٢٨ فبراير . يفرخ الهدهد في هضبة فارس .

الرفراف *Alcedo atthis pallasii* Rchb.

طائر الرفراف ينتشر على طول الجداول الجارية في واحة الهفوف ، لأن هذا الطير داجن جدًا . يتوافر بكثرة سمك (*Cyprinodon dispar*) الصغير في هذه الجداول الجارية من العيون وتوفر طعامًا كثيراً لهذه الطيور . بلاشك أنه زائر شتوي وحصلنا على واحد منها يتبع لهذا الجنس الواسع الانتشار .

البومة ـ النسارية *Bubo bubo desertorum* Erl.

يعيش البوم ـ النساري هذا في الصخور والكهوف الكبيرة بالهضاب الحادة القمم المتناثرة في الصحراء حول واحة الهفوف . يوجد حول يبرين الكثير من

الكهوف الشبيهة بما حول واحة الهفوف والمناسبة لها ، ولكن لم نجد بومًا هناك . إن الجبال التي تسكنها الطيور تنتثر بها كرات حجرية في كل الشقوق المناسبة ، وهذه الكرات تحتوي على بقايا جرابيع وخفافيش وطيور حمر وجعول وخنافس وعقارب . إن الأحجار البيض عندما تتعرض للجو تصبح قرنفلية اللون . ويكاد يطابق لون البومة مثلما يطابق لون طيور الحمر . إذا كنا في حالة الأخيرة (طيور الحمر) نفترض بأن هذا للحماية فإنه في حالة البوم من المؤكد أنه للتمويه ؛ لأن البوم يندر أن يكون له أعداء ليحمي نفسه منهم . مع ذلك فإن تشيزمان وجد أنه من الصعب الوصول إليها ، فالبوم تجلس عادة في فوهة الكهف ، ويمكن استكشافها بمنظار ميدان ، وهي نائمة ولكنها يقظة وخصلتا ريش أذنيها منتصبتان . عندما تزعج تترك الجبال التي تشكل غطاء لوصول قريب إليها ثم تنزل بعيدًا في الصحراء المستوية حيث لا يمكن الدنو منها بأقرب من مئة ياردة ، وهذا عن طريق الحبو فقط .

حصلنا على زوجين : ذكر ٣٦٧ ، أنثى ٣٦٨ ، ذكر ٣٤٣ ، أنثى ٤٠٢ كم . من شكل الأعضاء فإن موسم التفريخ لابد أن يكون في شهر فبراير . كمجموعة فإن هذه البومات الأربع متماثلة جدًا ، فبالنسبة للزوج الأول كان لون الذكر أبهت قليلاً ، وفي الزوج الآخر كان لونه أدكن قليلاً من رفيقه .

هذا هو الشكل الأبهت من بين البوم ـ النسارية الصحراوية وتطابق تمامًا تلك التي جمعت أثنا حملة أنجوس بيوكانن إلى الصحراء في منطقة إير (أسبن) جنوب الصحراء . كما أنها تتطابق عمليًا مع طيرين في المتحف البريطاني من شندي (النوبة) ودراغة (السودان) . لهذا فإن لدينا شكلين ، فمن ناحية هناك طير صحراوي صرف باهت جدًا ، يمتد في خط مستقيم عبر صحراء أفريقيا إلى الجزيرة العربية ، وطبقًا للدكتور هارترت فإنه يمتد إلى بالميرا في سوريا . من ناحية أخرى فإن لدينا شكلاً

أدكن في الجزائر وتونس . . . إلخ . لمزيد من النقاش /p.381/ حول هذه الأجناس انظر : (*Novitates zool.* xxxi. 1924, pp.16-17) .

لقد حذوت حذو الدكتور هارترت في إطلاق اسم (*desertorum*) على الجنس الباهت وهو اسم ملائم بما فيه الكفاية ، ولكن لسوء الحظ فإن نوعية طيور إرلانجر جاءت من منطقة متوسطة بعض الشيء من بين المناطق المذكورة .

بومة المخازن ـ أم الصخر *Tyto alba alba* (Scop.)

سُمع نعيب بومة ـ المخازن عدة مرات في الهفوف ، ولكن لم يُر أي منها أبدًا مع أن تشيزمان سمع بأن بومة صيدت لإطعام صقور الأمير . وجدت كرات حجرية في قلعة خربة بواحة يبرين والتي من حجمها تعزى لهذه البومة . كانت عدة أزواج منها تسكن جزيرة البحرين ، وفي يوم ٢٧ مارس وجد عش قديم في قبر وحصلنا على بومة واحدة . هذه العينة ذكر (الجناح ٢٨٧ملم) لونها باهت من الأعلى وأبيض بلا خطوط من الأسفل ويمكن أن تطابق بكثير من مثيلاتها الأوروبيات .

رخمة غريفون *Gyps fulvus* (Habl.)

شوهدت يوم ١٩ نوفمبر رخمتا غريفون حول جثث جمال على الطريق من العقير إلى الهفوف .

الرخمة المصرية *Neophron percnopterus*

الرخمة المصرية مستوطنة في أعداد قليلة : رأينا واحدة يوم ١٩ يناير على جبل أبو غنيمة في الهفوف . كما رأينا في يوم ١ مارس زوجًا في عشه على رف بمنحدر صخري شاهق في جبل أربع بالأحساء .

العقاب *Circus macrourus* (Gm.)

العقاب الشاحب زائر شتوي نادر وقد لاحظت طيوراً منفردة في الهفوف يوم ٢١ نوفمبر ويوم ٢٩ ديسمبر، وفي يبرين يوم ٢٠ فبراير . كما رأيت زوجًا في العقير يوم ٢٩ مارس سنة ١٩٢١م وفي واحة سلوى يوم ٤ أبريل . أمسكنا بعقاب ذكر في البحر على بعد ثلاثين ميلاً من ساحل حضرموت يوم ١١ أبريل سنة ١٩٢٤م .

الصقر *Buteo vulpinus* (Gloger) (= *desertorum* auct.)?

وجدنا يوم ٢٩ فبراير وكرًا لصقر وبه ثلاثة من صغاره على جبل خرما زرنوقه، وقد احتفظنا بأحد الصغار حيًا حتى يوم ٢٣ مارس بغرض التعرف على نوعه . كان الوكر على رف بجرف صخري عال يبعد أربعين قدمًا عن الأرض ومبني من الأعواد، وهذا الرف واسع بما يكفي فقط للزحف إليه . كان الصقر يطعم صغاره حيوانات عضل مقطعة (*meriones* sp.) وكان بالوكر صيدة (عضل) طازجة . رأينا الأبوين ولكنهما كانا على ارتفاع عال فلم نستطع التعرف عليهما .

الصغير المريش كان له قير [١] ، ورجلان صفراوان شاحبتان وحدقه بنية ويمكن أن يعتبر مثل هذا النوع /p.382/ .

النسر *Aquila* sp.?

شوهد نسر ذو ريش ـ يكاد يكون أسود اللون في يبرين يوم ١٧ فبراير ـ وطارد أرنبًا برية كانت قد أجبرت على الخروج في منطقة مكشوفة . قام النسر بعدة انقضاضات عليها ، ولكنه أربك بعض الشيء بقرب الناس حوله فأخطاها في كل مرة وهربت الأرنب البرية إلى جحر .

---

(١) جزء لين منتفخ عند أصل المنقار في الطيور (المترجمان).

الباشق *Accipiter nisus* (Linn.)

شوهد طائر باشق ذكر فوق بلدة الهفوف يوم ٢٦ نوفمبر وفيما بعد . وفي إحدى المرات شوهد ومعه أنثى . كما شاهدت واحداً بالبحرين يوم ١٠ أبريل سنة ١٩٢١م . ومما لاشك فيه أن هذه الطيور زوار شتوية .

الحدأة باللغة العربية (حُديا) *Milvus migrans migrans* (Bodd.)

حصلنا على حدأة سوداء من زرنوقة يوم ٢٨ فبراير عندما حلق زوج فوق المخيم، وفي يوم ٣ مارس شاهدت واحدة في الهفوف . كما أنني قد رأيت واحدة في جزيرة البحرين يوم ٢٧ مارس سنة ١٩٢١م . ومما لاشك فيه أنها جميعًا كانت عابرة إلى أماكن تفريخها في فارس . كما أن البدو أخبروا تشيزمان بأن طيور الحدأة لا تفرخ في الأحساء .

الشاهين *Falco peregrinus* Tunst.

صقر الشاهين البري الوحيد الذي رأيته كان في العقير يوم ٢٩ مارس ١٩٢١م. لدى أمير الهفوف حوالي ثلاثين صقراً مدربًا ما بين باز جوال إلى صقر، وقد اشتريتْ كلها من سماسرة . تاجران من هذا النوع سافرا في نوفمبر على باخرة من البصرة متجهة إلى موانيء الخليج العربي ، وكان معهما خمسين شاهينًا من كلا النوعين . كان معظمها من طيور تلك السنة وتقدر قيمتها من ١٠ ـ ٢٠ جنيهًا للواحد. قيل إن صقور الباز الجوال تأتي من الزبير ، والصقور تأتي من بغداد والكلمة العربية للأخير هي «حر» .

صقر مرلين *Falco aesalon pallidus* (Sushkin)

أمسكنا في يوم ١ فبراير بصقر مرلين عند عين نجم قرب الهفوف، ورأينا آخر يوم ١١ فبراير في زرنوقة . كما رأينا في يوم ٢١ من الشهر نفسه صقراً آخر في يبرين، وربما أن هذا الطير زائر شتوي . الصقر الذي أمسكنا به لونه باهت بشكل

كبير ، أبهت عدة مرات من صقر (*insignis*) ، ومرةً أخرى فهو أبهت بشكل متميز من الشكل العادي .

صقر العوسق *Falco tinnunculus* Linn.

شوهد صقر عوسق يوم ٢١ يناير فوق الهفوف وثان في يبرين يوم ٢٠ فبراير وآخر في سلوى يوم ٥ أبريل سنة ١٩٢١م . ربما أن هذا الصقر هو النوع العادي يقضي فصل الشتاء في هذه المنطقة /p.383/ .

الغاق *Phalacrocorax Carbo sinensis* (Shaw & Nodder)

رأينا العديد من طيور الغاق مع غاقة سوقطرية صغيرة على الصخور البحرية والجزر الصغيرة قرب البحرين .

غاقة سوقطري *Phalacrocorax nigrogularis* O.-Grant & Forbes

كثيراً ما تشاهد غاقة سوقطري تستريح على الصخور البحرية والجزر الصغيرة بين البحرين وسلوى . من السهولة أن تميزها بحجمها الصغير عن الغاقة العادية . مر في يوم ٣٠ مارس سنة ١٩٢١م سرب كبير من آلاف طيور الغاق فوق الساحل عند رأس صغيرة جنوب العقير . كانت طيور المقدمة تغطس لتصيد السمك وعند ظهورها تنضم إلى مؤخرة السرب، وهكذا فإن سيره يكون مستمراً . كانت سحب كثيفة من هذه الطيور في ميناء البحرين يوم ١١ مارس . هذا الطير ـ بالطبع ـ مستوطن ويفرخ في العديد من جزر الخليج .

الشولر *Anas* Sp.?

شوهدت ست بطات بحجم بط الشولر تطير حول البساتين في الهفوف، وهذه هي المعلومة الوحيدة من الواحة في خلال خمسة أشهر من نوفمبر إلى مارس .

إن أدغال القصب والأرض المطمورة بالماء الضحل تبدو مثالية للبط ، ومع هذا فهو غير موجود . ربما أن تفسير ذلك يعود إلى كون المياه مياه تصريف من الري مشبعه بالملح ، الذي يشكل قشرة سميكة على جذور وسيقان القصب ، مما يمنع حياة النباتات المائية الدقيقة والحيوانات . أما جداول الماء العذب الجارية فهي تمر من خلال البساتين المزدحمة بالعمال .

الحذف *Querquedula crecca crecca* (L.)

لاحظنا يوم ٢٨ ديسمبر تسع بطات حذف على مستنقع ماء بالهفوف وعندما أزعجت طارت ولم نرها مرة أخرى .

الفلمنجو *Phaenicopterus ruber antiquorun* Temm.

شوهدت طيور الفلمنجو في العقير يوم ١٧ نوفمبر ويوم ٦ مارس وقرب سلوى يوم ١٠ أبريل سنة ١٩٢١م . الفلمنجو طائر زائر للمنطقة غير مفرخ ولكنه يفرخ في رأس الخليج العربي .

مالك الحزين الأرجواني *Ardea pupurea* Linn.

شوهد مالك الحزين الأرجواني في البحرين يوم ٢٧ مارس ١٩٢١م وربما أنه متجول /p. 384/ .

غراب الليل *Nycticorax nycticorax nycticorax* (Linn.)

في ليلة ١٤ ديسمبر سمع الصوت المألوف «كواك» لغراب الليل عند مرور هذه الطيور . ربما أنها مثل البط وجدت هذه المنطقة غير مناسبة فعادت من حيث أتت . هذه الطيور تفرغ في العراق .

مالك الحزين البحري *Demigretta Sacra asha* (sykes)

شوهد مالك الحزين البحري على الساحل في العقير يوم ١٧ نوفمبر . هذا الطائر يفرخ في الخليج .

الحبارى *Chlamydotis undulata macqueeni* (Gray)

في الواقع أننا لم نشاهد الحبارى ولكن الدلائل تؤكد أنه في السنوات الماطرة ربما تكون كثيرة ، وهي مثل البدوي الحقيقي تتبع العشب . شاهدنا لها آثاراً جديدة في رمال صحراء الجافورة يوم ١٤ فبراير ، ومرة أخرى في يبرين يوم ٢١ من الشهر نفسه . التقطتْ ثلاث بيضات لها يوم ١٤ فبراير بين الهفوف والرياض وأعطيت لتشيزمان . وجد السيد فلبي يوم ١٠ أبريل سنة ١٩١٨م عشاً وبه أربع بيضات قرب الشوكي بين حفر الباطن والرياض .

الزقزاق "برهان" *Burhinus aedicnemus astutus* Hart.

شوهد ثلاثة طيور زقزاق ـ نورفولك في يوم ٢٧ فبراير ، وحصلنا على اثنين منها في صحراء الجافورة ، وقد شوهد أثر هذا الطير يوم ٢٥ فبراير في وادي السهباء . تقترب من هذه الطيور بسهولة عن طريق التلويح بقميص أبيض مربوط على طرف عصا الجمل ، ومن ثم تجثم هذه الطيور مباشرة . هذه طيور زقزاق (*astutus*) عادية وفي نفس الوقت بلاشك أنها مستوطنة . رمينا طير زقزاق ـ نورفولك في سلوى يوم ٤ أبريل سنة ١٩٢١م عندما جاء ليشرب من البئر ، وهذا الطير ضارب للحمرة كثيراً ويتطابق جيداً مع طير (*Saharae*) . هذا الجنس الأخير ليس مرضيًا بأي حال من الأحوال فيوجد في شمال أفريقيا كطير مفرخ بينما زقزاق (*astutus*) لا يوجد هناك . مع هذا يوجد في العراق ووسط الجزيرة العربية

وبلوشستان طيور (السجلات من أغسطس إلى أبريل) لا نستطيع تمييزها من طير (*Saharae*) . هذه الطيور توجد في منطقة تفريخ طير زقزاق (*astutus*) ويصعب القول بأن هذه طيور مهاجرة . (C.B.T.) .

العداء *Cursorius Cursor* (Lath.)

شوهد ثلاثة من طيور العداء يوم ٣١ ديسمبر في الصحراء قرب الهفوف وهي الوحيدة التي قابلناها .

الشنقب *Capella gallinago* (Linn.)

طار طائرا شنقب مجفلين في عين أم سبعة قرب الهفوف يوم ٦ يناير . كان هذان الطائران في دغل القصب الضخم والذي يبلغ طوله ميلين وعرضه ميل /p.385/. كان دغل القصب هذا أكثر تخييبًا للآمال فيما يخص الطيور : فهو مغطى بشجر القصب والأسل الطوال ، وبه مساحات مكشوفة من المياه التي لا يتعدى عمقها في أي مكان قدمين أو ثلاث أقدام، ولكن لم نسمع صوت حياة طيور يكسر هدوء المكان. قضى تشيزمان وخادمه يومًا كاملاً خوضًا في هذا المكان بحثًا عن الطيور. وبخلاف طير شنقب وطير حذف وحجلة سوداء وزوج من دخل - البردي ذي الشارب وصعوة دخل - لم نجد شيئًا هناك. مثل المياه الأخرى ربما أنه مالح جدًا.

الطيطوي الصغير *Erolia minuta* (Leisler.)

لعدة أسابيع خلال فصل الشتاء شوهد سرب من طيور الطيطوي الصغير على حافة منخفض مغمور بالمياه في الهفوف .

الطيطوي الأحمر الساق *Tringa totanus* (Linn.)

شوهد الطيطوي الأحمر الساق يوم ٢٩ ديسمبر في الهفوف وأول ما سمع صوته كان عاليًا في السماء إلى الشمال منا ثم نزل الطير واستقر على حافة مستنقع

مائي ضحل ، ولكنه غادر بعد لحظة مرة أخرى إلى الشمال . كما لوحظ هذا الطير في جزيرة البحرين يوم ٢٧ مارس ١٩٢١م .

زمار الرمل الأخضر *Tringa ochrops* Linn.

شوهد في يوم ٢٨ يناير طائر زمار الرمل الأخضر في أم سبعة .

طائر الليموزية ذو الذيل القائم *Limosa Lapponica Lapponica* (Linn.)

شوهد يوم ١٧ نوفمبر طائر ليموزية قائم الذيل في العقير وحصلنا على واحدة هناك في ريش بلون التفريخ يوم ٢٩ مارس ١٩٢١م .

زقزاق كنت *Charadrius alexandrinus alexandrinus* Linn.

شوهد يوم ١٧ ديسمبر سرب من مائة طير زقزاق - كنت - يستريح قرب منطقة مغمورة بالمياه في الهفوف ، حيث بقوا لعدة أيام فقط . هذا الطير مستوطن على الساحل فوجدنا يوم ٢٩ مارس ١٩٢١م عشًا وبه ثلاث بيضات في العقير . كما أن هذا النوع شوهد يوم ١٠ أبريل في جزيرة البحرين .

زقزاق الرمل *Charadrius Leschenaultii* Less.

شوهد عدد من طيور زقزاق - الرمل على سهل رملي فوق علامة المد في العقير يوم ١٧ نوفمبر .

النورس الرقيق المنقار *Larus genei* Brème (= *gelastes* auct.)

شوهد يوم ١٠ أبريل من سنة ١٩٢١م طيور النورس الرقيق المنقار في خليج سلوى . يفرخ هذا الطير في الخليج العربي /p.386/ .

خرشنة بحر قزوين *Sterna (Hydroprogne) Caspia caspia* (pall.)

شوهدت يوم ٢٧ مارس سنة ١٩٢١ طيور خرشنة بحر قزوين في ميناء البحرين. هذا الطير يفرخ في الخليج العربي .

خرشنة الصندل *Sterna albifrons saundersi* Hume.

شوهد زوج من طيور خرشنة الصندل في جزيرة البحرين، وحصلنا على واحدة يوم ١١ أبريل سنة ١٩٢١م . هذا بالإضافة إلى أننا أمسكنا بواحدة متعبة قبالة ساحل حضرموت في يوم ٨ مايو سنة ١٩٢٣م . من المحتمل جداً أن هذا الجنس يفرخ في الطرف الجنوبي من الخليج العربي بينما خرشنة *(s.a. albifrons)* تفرخ في الطرف الشمالي .

الغطاس المتوج الكبير *podiceps cristatus cristatus* (Linn.)

وجدنا على شاطيء العقير يوم ١ أبريل سنة ١٩٢١م طائر الغطاس المتوج الكبير ميتًا ،وكان في ريش التفريخ . يعرف هذا الطير بوصفه زائراً شتويًا للخليج وسواحل مكران ويفرخ في العراق .

الغرَّة *Fulica atra* Linn.

شوهد يوم ١٥ ديسمبر طائر الغرَّة على مستنقع تصريف مياه في الهفوف . في اليوم التالي لم يكن هناك، ولم نره مرة أخرى .

حمام ــ الصخور *Columba Livia* Gm.

شوهد في يوم ٢١ فبراير سرب من عشرين حمامة-صخور على جبل قرب يبرين، ولكنه لم يسمح بالاقتراب منه أقل من نصف ميل . من الثابت أن هذا الطير

مستوطن في أعداد صغيرة جداً، فقد عثرنا في قلعة خربة بواحة يبرين على عش قد ربي فيه صغار من العام الماضي، وكذلك عثرنا على مأوى طيور في بئر جافة . لم نر أيًا من هذا الحمام في أي مكان آخر، وعلى خلاف معظم البلدان الشرقية فإنه لا يوجد بالهفوف حشد من الحمام شبه الأليف . من المؤسف أننا لم نتمكن من الحصول على عينات .

القطا *Pterocles senegallus* (Linn.)

من وقت إلى آخر نصادف أسرابًا صغيرة من هذا القطا في الصحراء حول الهفوف ويبرين، وفي إحدى المرات شوهدت عدة قطعان تشرب في الهفوف . من الثابت أنها ليست كثيرة جداً ، ومن المحتمل جداً أنها تكثر في سنوات المطر الجيد. يقول العرب بأن الحيوانات والطيور تتبع الأمطار من منطقة إلى منطقة، لأن حياتها تعتمد على العشب، وبلاشك أن هذا عين الحقيقة فيما يخص الحبارى والقطا والغزال.

حصلنا من الهفوف على طيري قطا ذكرين في الأول من مارس /p.387/ . تختلف طيور القطا المنقط بعضها عن بعض فيما بينها بشكل كبير، ويمكن ملاحظة فروق طفيفة بين هذين الاثنين ومجموعة من الهند . لكن مثلما سبق أن ذكرت فإن طيور شمال أفريقيا تختلف كذلك، وبعضها فعلاً لا يميز عن طيور الهند ، ولهذا ففي الوقت الحاضر أفضل عدم الفصل بين هذه الأجناس (C.B.T.) .

الحجل ـ يسميه البدو وراره *Francolinus francolinus* (Linn.)

يوم ٦ يناير طار مجفلاً طائر حجل أسود ذكر من أدغال القصب في أم سبعة قرب الهفوف . كان هذا هو طير الحجل الوحيد الذي رأيناه في واحة الأحساء

بالرغم من البحث المجهد وعدة حملات للبحث عنه . يبدو أن السكان المحليين لا يعرفون إلا القليل عنه، ولكنهم أعطوه الاسم المذكور سابقًا (وراره) . عندما جُفل الطير فعلاً من تحت أقدامهم . ربما أنه على وشك الانقراض بسبب عمال المزارع الذين يطوفون مسلحين ببنادق خفيفة ويرمون أي شيء بدءًا من البلبل . لم نستطع أن نجد أثرًا له في الرمل أو الطين عند دغل القصب ، وهذا يعني أنه لا يوجد الكثير منه .

أظن أنه الآن لا يوجد شك في عدم صحة القول بأن «الحجل الرمادي» الذي رآه السيد فيلبي في وسط الجزيرة العربية *(Bombay Nat. Hist. Soc. Journ.* xxxviii p.205) كان طيور *(F. pondocerianus)* كان من المفهوم في حينه بأن السيد فلبي متأكدًا بأن الطيور لم تكن حجلاً رمليًا، ولكن مزيدًا من التحقيق أظهر بأنها كانت كذلك .

لا يبدو أن طيور الحجل الرملي تتواجد في جبال الأحساء ويبرين (C.B.T.) .

النعامة *Struthio Camelus syriacus* Rothsch.

النعامة كانت في الماضي يمكن رؤيتها في الصحاري حول يبرين . قال دليلي الرجل المري : بأن جده كان آخر من اصطاد نعامة هناك . إن تطور السلاح المستخدم من قبل القبائل في الجيلين الأخيرين ربما كان السبب في اختفاء النعامة من هذه المنطقة . وطبقًا للتقارير المحلية فهي لازالت موجودة في صحراء الجنوب العظيمة قرب نجران . انظر كذلك (*Ibis*, 1923, p. 208) /p.388/ .

ملحق رقم (٣)

الزواحف والبرمائيات

REPTILIA AND BATRACHIA

من الأحساء، الجافوره ويبرين في شرق ووسط الجزيرة العربية

جمعها الرائد آر . إي . تشيزمان في عام ٢٣ ـ ١٩٢٤ وقدمت إلى المتحف البريطاني .

قام السيد إتش . دبليو . پاركر في المتحف البريطاني (التاريخ الطبيعي) شخصياً بتعريف العينات ، وأوضح مناطق توزيعها التقريبي بواسطة أحرف مشار إليها في الفقرة الأولى ، وقد ضمنت تعليقاته في الملاحظات الميدانية .

آر . إي . تشيزمان

تنتمي كل عينات المجموعة إلى أنواع معروفة مسبقًا . تضم المجموعة ثلاثًا وعشرين سحلية ، تمثل عشرة أنواع وضفدعًا واحداً ، ولا يوجد بينها أي نوع من الثعابين . يقتصر وجود بعض هذه الأنواع على الجزيرة العربية ، وهي المشار إليها بالرمز (أ) ، وبعضها يمتد انتشاره باتجاه الشمال فقط إلى فارس وشمال الهند ، وهي المشار إليها بالرمز (ب) ، وبعضها يمتد باتجاه الغرب فقط إلى مصر وشمال أفريقيا ، وهي المشار إليها بالرمز (ج) ، وبعض آخر يمتد انتشاره إلى الشمال والغرب ، وهي المشار إليها بالرمز (د) .

دبليو . إتش . پاركر

السحالي LACERTILIA

عائلة الأبراص GECKONIDAE

العينات :

١ـ برص *Ptyodactylus lobatus* Geoffroy (ج) تم الحصول عليها في ١٩ يناير ٢١٥٠ . عينتان نصف مكتملتي النمو من جبل أبو غنيمة في الهفوف ، وهما في وضع سيء ولكن من الواضح أنهما يتفقان بشكل كبير مع الشكل العربي المعتاد . هاتان عينتان لبرص صحراوي يعيش في شقوق جبال الحجر الرملي . لدى هذا البرص أقراص دائرية كبيرة أو فصوص عند نهاية الأصابع . ويوجد هذا التمدد الأصبعي هنا عند نهاية الأصابع ، ويستخدم لأغراض الالتصاق . كانت الطريقة الوحيدة للحصول على هاتين العينتين هي استخدام البندقية عيار ٤١٠ , ٠ وقد أفرغت الطلقات من البارود ثم أعيد نصف البارود إلى الطلقة ثم وضعت حشوة قطنية فوق البارود وملئت بقية الطلقة بالرمل الناعم بدل رأس الطلقة **(العبرود)** .

٢ـ برص *Hemidactylus persicus* Anderson (ب) تم الحصول عليها في ٢٦ نوفمبر : الهفوف ٥٠٤١ . عينتان إحداهما ذكر والأخرى أنثى من بلدة الهفوف ، وقد سبق أن سجل هذا النوع في الجزيرة العربية إلى الجنوب من /p.389/ بلاد الرافدين . تسمى باللغة العربية «وزغ» أو «برص» أو «ظاطور» وهي عبارة عن برص منزلي يعيش في أخشاب سقوف منازل الهفوف . ليست كثيرة النشاط الآن ، ولكنها تخرج في معظم الأمسيات . ألوان أجسامها بيضاء شفافة تقريبًا ويستخدم التمدد الأصبعي عند قاعدة الأصابع لأغراض الالتصاق كما أن أمشاط الأطراف ليست متمددة .

عائلة العظايا AGAMIDAE

العينات :

٣ـ **عظاءة** *Agama flavimaculata* Rüppel (ج) تم الحصول عليها في ٢ و ٢٤ فبراير

٥١٧٠ عينة أنثى من جبل العاقولة في يبرين

٥٢٠٩ عينتان ذكران من يبرين .

توجد فقط في السهول الحصوية، وهي تبقى بلا حركة معتمدة على التشبه من أجل الحماية، إذ أنها تشبه تمامًا بيئتها من ناحية الألوان والتضليل . تندفع عند إزعاجها إلى الأمام مرفوعة الذيل في الهواء ويمكنها أن تجري بسرعة الإنسان . ويبدو أنه ليس لها جحور تهرب إليها . تعض بشراسة إن تمكنت من وضع أفواهها البشعة التي تشبه الكرغل حول أصبعك . أصابع الأيدي والأرجل ليس لها زوائد لحمية .

٤ـ **عظاءة** *Phrynocephalus maculatus* Anderson (ب) تم الحصول عليها في ١٦ و٢٠ فبراير عينة ذكر من خليج سلوى .

٥١٧١ عينة أنثى من جبل العاقولة في يبرين .

٥١٧٨ عينة أنثى من جنوب يبرين

هذا النوع ليس معروفًا من قبل في الجزيرة العربية، وقد ظننت مخطئًا أن هذه العينات من العظايا، لأنها تشبهها عن بعد وتجري مثلها . ويبدو أنها لا تتجه إلى الجحور عندما تُلاحق . أصابع الأيدي والأرجل ليس لها زوائد لحمية وبيئتها هي السهول الحصوية .

٥- **عظاءة** Phrynocephalus arabicus Anderson (أ) تم الحصول عليها في ٢٦ فبراير، نصف مكتملة النمو من خليج سلوى .

١١ ٥٢ عينة ذكر وعينتان انثيان من الجافورة

ترى فقط على كثبان الرمل المفكك، وليس على السهول الحصوية الصلبة، وتوجد في الملاجيء الضئيلة التي توفرها الشجيرات الصحراوية ، وعندما تزعج فإنها تنطلق إلى الرمال المكشوفة ، وتتوقف بعد عشر ياردات ، وتبدأ بقذف الرمل بأرجلها الخلفية دافنة جسمها في الرمل المفكك ومبقية رأسها ظاهراً ومكشوفًا . وعندما يختفي كل جسمها تخفي رأسها في الرمل، وعندها تكون عملية الاختفاء كاملة . كل عينة قامت بنفس العملية تمامًا . هنا تكون القشور الجانبية للأصابع متضخمة بشكل كبير مشكلة زوائد محدبة على كل جانب . يزيد هذا من سطوح باطن الأقدام والأيدي، وهو يمثل تكيفًا للمشي في بيئتها الرملية /p.390/ .

٦- **عظاءة** *Uromastix microlepis* Blanford (ب) تم الحصول عليها في ٤ يناير .

٥١١٧ عينة مجففة من الهفوف .

يسمى «الضب» باللغة العربية ،وهو سحلية شوكية الذيل . يأكله البدو أو يجلبونه حيًا للبيع في البلدات . وقد تم شراء هذه العينة من سوق الهفوف بسعر ثلاثين طويلة أو ستة بنسات . احتوى تجويف البطن على ما يبدو أنه أمعاءين مميزتين متخمتين ببراعم خضراء من الشجيرات الصحراوية ممضوغة جداً إلى أطوال صغيرة. يعود هذا الشكل إلى الاتساع الكبير للقسم الأول من الأمعاء الغليظة . من المحتمل أن يعود هذا الاتساع إلى التكيف مع الغذاء النباتي . لا يتحلل السليويوز بالخميرة المعدية للفقاريات، وحتى يتم ذلك فإن مكونات الخلايا للغذاء النباتي لا تهضم. التخمر البكتيري أساسي لإزالة السليولوز ، وهذا هو السبب في المعدة

المقسمة للخروف . . . إلخ ، حيث يوفر هذا قسمًا للتخمر البكتيري ، وقسمًا آخر لبداية عملية الهضم .

رأينا العديد من الضبان في الطريق إلى يبرين في فبراير ، وهي تعيش في جحور كبيرة تحفرها بنفسها ، وهي بحجم جحور الأرانب ، ويكون لها أحيانًا مدخلان رغم أن العادة تقتضي أن يكون مدخلاً واحدًا ، وتكون هذه الجحور دائمًا على أرض صلبة صخرية . عندما تفاجأ تجري بعيدًا جدًا من جحورها ـ وذلك حين لا تتمكن من الوصول إليها ـ فإنها تجثم بلا حركة ، وفي أحيان أخرى فإنها تنطلق بأقصى سرعتها نحو الجحور ، وهنا يقفز البدو من ظهور إبلهم ويطاردونها ، وهي عادة تركض أسرع قليلاً من السحلية . تعض الضبان بشراسة ، ويمكن أن تعطي طرقة حادة بذيلها الشوكي القوي .

يقال إن مذاق لحم عظاءة الأجوانا الأميركية الجنوبية يشبه الدجاج ومن ناحيتي فلا أقدم توصية كهذه للحم قريبها العربي .

عائلة السحالي LACERTIDAE

تشمل كل أنواع السحالي وتسمى باللغة العربية «داموس»

٧ـ سحلية Audouin *Acanthodactylus boskianus asper* (ج) تم الحصول عليها في ٢٠ فبراير .

٥١٧٨ عينة ذكر ونصف مكتملة النمو من جنوب يبرين .
٥١٦٧ عينة نصف مكتملة النمو من الجافورة .

تظهر هذه العينة قشورًا تحت العين محاذية الفم كما في عينة *A. boskianus euphraticus* Boulenger لكنها تتفق في كل الخصائص الأخرى مع عينة *asper* . يسميها البدو « خصاوي» . هذه السحالي ذات أذيال طويلة وأقدام رشيقة وتنتمي إلى السحالي الحقيقية ، وهي تعيش في جحور بين جذور الشجيرات الصحراوية

التي تنمو في الرمل المفكك . هذه الشجيرات معزولة ومتفرقة بعضها عن بعض بمسافة حوالي عشرين ياردة ، وقد حدثت مطاردات مثيرة من شجيرة إلى أخرى قبل الحصول على هذه العينات . هذه السحالي ذات أطراف قوية لها زوائد لحمية وتعيش في البيئات الرملية(٣١٩)

٨ـ سحلية *Acanthodactylus cantoris* Gthr (ب) تم الحصول عليها في مارس ١٩٢١ .

٨٨٣ عينتان من سلوى وهي سحالي ذات زوائد لحمية طويلة تمتد لأصابع الأقدام، وقد تم تحديد هاتين العينتين من قبل الآنسة جي . بي بروكتر .

٩ـ سحلية *Acanthodactylus scutellatus* forma typ. Dum. and Bibr (ج) وقد تم الحصول عليها في ٢٣ فبراير بين الكثبان الرملية

٥٢٠٩ عينة أنثى من يبرين . تميل هذه العينة إلى أن تشبه من ناحية القشور الظهرية عينة *A. fraseri* Boulenger من منطقة بلاد الرافدين الدنيا . لم تسجل هذه العينة *A. scutellatus* حتى الآن أبعد شرقًا من البصرة وهي نوع آخر من السحالي الحقيقية، وتشبه كثيراً على البعد سابقاتها، ولها العادات نفسها والأطراف المهدبة القوية .

١٠ـ سحلية *Eremias brevirostris* Blanf. (ب) وقد تم الحصول عليها في مارس ١٩٢١

٨٨٢ و ٨٨٤ في العقير وسلوى وهي سحلية منقطة وموجودة بوفرة، كما أنها تجري سريعًا ، وقد تم تحديدها من قبل الآنسة جي. بي. بروكتر .

عائلة السقنقورات SCINCIDAE

١١ـ سقنقور *Mabuia septemtaeniata* Reuss (د) وقد تم الحصول عليها في ١٦ ديسمبر .

٥٠٨٠ عينة أنثى من الهفوف، وهي موجودة بوفرة في بساتين النخيل في الهفوف، وهو سقنقور معروف جيداً بالخطوط الأفقية . الجلد ناعم ولامع كما أن الذيل قصير وسميك . سرنا في يوم ٤ مارس لعدة أميال في الهفوف بجانب أشجار النخيل النامية على طول الطريق على مسافة مائة ياردة بين الواحدة والأخرى . كان هناك واحد من هذه السقنقورات عند جذع كل نخلة يستدفيء تحت الشمس، ولم تر هذه السقنقورات خارج منطقة البساتين وليس لهذا النوع أطراف مهدبة .

١٢ـ سقنقور *Scincus mitranus* Anderson (أ) وقد تم الحصول عليها في ١١ ـ ١٥ و٢٦ فبراير .

٥١٦٨ عينة بالغة من وادي السهباء

٥١٥٨ عينة بالغة من زرنوقة في الأحساء

٥٢١٢ عينة بالغة من الجافورة

لم أر هذا النوع في الفضاء المكشوف، وهو سقنقور رائع من صحراء الكثبان الرملية فقط . لهذا السقنقور شفة عليا مسطحة تعطي شكلاً وتديًا للرأس، تم تكييفها لتسمح للرأس بالغوص في الرمل أولاً . لون الظهر قرنفلي شاحب بينما البطن أبيض مع حوالي ستة (الرقم ليس ثابتًا دائمًا) خطوط حمراء داكنة عمودية تمتد في غير نظام على الجوانب مثل دم متخثر . تكشف آثار أقدام هذه السقنقورات عن وجودها على الجانب شديد الانحدار من /p.392/ الرمل المنجرف باتجاه الريح من الكثبان المتحركة العالية . يوجد هناك حيث تنتهي الآثار عند علامة مستديرة حيث

دفن السقنقور نفسه . يغطس البدو أيديهم لعمق حوالي قدمين في الرمل الناعم ويخرجونها عادة بسقنقور . شاهدت عرضًا لسرعة السقنقورات الرائعة في دفن أنفسها . كان خادمي في خيمتي التي نصبت على رمل ناعم، وكان ينقل واحدًا من هذه السقنقورات من صفيحة إلى أخرى عندما لوى السقنقور رأسه باتجاه أصابع الخادم الذي أسقطه على الأرض . كنت أشاهد ما يحدث وسقطت فوراً على الأرض مع وصول السقنقور إليها، وقبضت على الرمل محاولاً الإمساك به، لكنه كان قد اختفى قبلاً في الرمل كما لو حدث ذلك بفعل سحر . أخبرت في الهفوف أن هناك سحلية معينة يمسك بها في الصحراء وتباع بسعر جيد في بومباي لأغراض طبية . تسمى هذه السحلية محليًا داموس، وهو المصطلح العام لكل أنواع السحالي . رغم أنني لست متأكدًا إلا أنني أظن أن هذه السحلية هي هذا النوع من السقنقورات. تكون الأطراف في هذا النوع مسطحة وتنمو القشور جانبيًا بشكل كبير جدًا لدرجة تشبه اليد والقدم فيها المجداف. يسمى أحيانًا نوع قريب جدًا منها «سمكة الرمل» بسبب قدرته على الغوص في الرمل، وقد سبق أن وصفها الكتاب القدماء في مؤلفاتهم عن الأسماك .

البرمائيات BATRACHIA

١٣- برمائية *Rana esculenta ridibunda* Pall. (د)

٥٠٤٢ عينة ذكر من الهفوف . موجودة بوفرة في عيون الهفوف وجداولها، وهي ضفدعة تؤكل . كان يمكن سماع نقيق الضفادع في بساتين الهفوف في مساء ٣٠ نوفمبر من منزلي على بعد نصف ميل ، وقد لاحظت في ٢٤ يناير أن ذكور الضفادع قد ارتدت لباس الغزل لإناثها . يصبح لون الجلد أخضر زمردي مع خط شاحب على طول وسط الظهر، وتكون العيون مشعة بلون ذهبي بإشراق غير عادي، أما الإناث فهي بنية اللون وذات نقاط بنية مستديرة، وكانت لاتزال تحدث

ضجة أثناء تزاوجها . هناك أربعمائة ميل من الصحراء بينها وبين الماء العذب التالي في شط العرب .

شاهدت سلاحف مائية بشكل معتاد في جداول الهفوف، وقد بدت لي متطابقة مع تلك السلاحف التي أحضرتها سابقًا إلى إنجلترا من ينابيع البحرين، وهي من نوع سلاحف مياه بحر قزوين (clemmys caspica) . لم أشاهد أي ثعابين لكنني لاحظت عدة جلود طرحتها الثعابين في الأحساء ويبرين . من المحتمل أنها كانت في هذا الوقت في بيات شتوي ، ولابد لي من القول أنها ليست موجودة بوفرة حتى في فصل الصيف /p.393/ .

زواحف الخليج العربي REPTIOLIA OF THE ARABIAN GULF.

بالإضافة إلى زواحف البر الرئيسة من الجزيرة العربية ، فإن القائمة التالية هي لعينات من جزر في الخليج العربي حصل عليها كل من السيد لاپرسون جامع العينات للسير برسي كوكس وأنا شخصيًا ، وهي مذكورة هنا لمن يحب الاطلاع . قامت الآنسة جوان . بي . بروكتر بصدر رحب بفحص العينات عام ١٩٢٢ وكتبت تقريرًا عنها والتعريف بالعينات يعود لها ، وكانت فاضلة بحيث أضافت بضع ملاحظات تعطينا بعض الفكرة عن مناطق توزيع الأنواع المختلفة، وهي الملاحظات التي ضُمت إلى الملاحظات الميدانية .

آر . إي . تشيزمان

السلاحف البحرية CHELONIA

سلحفاة *Clemmys caspica* Gem.

سلحفاة مائية من جزيرة البحرين وهي موجودة بوفرة في ينابيع البحرين الجارية . مناطق التوزيع : من بحر قزوين إلى الخليج العربي .

السحالي LACERTILIA

عائلة الأبراص GECKONIDAE

برص *Alsophylax tuberculatus* Blanf.

من جزيرة طنب وتوجد على الصخور . مناطق التوزيع : بلاد الرافدين وفي جنوب فارس إلى السند .

برص *Hemidactylus turcicus* L.

من جزيرة طنب . مناطق التوزيع : تخوم البحر المتوسط والبحر الأحمر وكذلك السند .

عائلة العظايا AGAMIDAE

عظاءة *Uromastix microlepis* Blanf.

سحلية شوكية الذيل من جبل دخان في البحرين . كانت هذه بالغة الصغر لدرجة أنني اعتقدتها خطأً نوعًا آخر أصغر . كانت قد حفرت جحرًا لنفسها، وهي ذات لون أسود بنقاط حمراء أكثر دكانة في العموم من السحلية البالغة من هذا النوع . مناطق التوزيع : رأس الخليج العربي .

عائلة السحالي LACERTIDAE

سحلية Eremias brevirostris Blanf.

تم الحصول عليها في مارس ١٩٢١ من جزيرة طنب . مناطق التوزيع : الخليج العربي والبنجاب .

الثعابين OPHIDIA

تحت عائلة : الأراقم COLUBRINAE

ثعبان *Zamenis ventrimaculatus* (Gray)

هذا هو ثعبان جراي السوطي من البحرين ، وتم الحصول عليه في مارس ١٩٢١ . ثعبان ليس بسام وحصل الرائد دالي /p.394/ على عينتين من جزيرة حسن قرب البحرين . مناطق التوزيع : من الفرات إلى كشمير وشمال غرب الهند .

تحت عائلة : الثعابين البحرية HYDROPHINAE

ثعبان *Hydrophis ornata* (Gray)

ثعبان بحري مزركش وتم الحصول عليه في أبريل ١٩٢١ على بعد ميل واحد خارج جزيرة طنب ، وهو سام وذو لون أبيض صفراوي ، وحلقات خضراء بحرية والبطن أبيض . كلا نوعي هذه الثعابين مألوفة في الخليج العربي ،وهي تنام ملتفة على بعضها ، وتطفو على سطح البحر في الأيام الهادئة ، ونادراً ما تتحرك عندما تصطدم بها موجة تسببت فيها باخرة . الذيل مسطح بدلاً من أن يكون مستديراً كما أنه دقيق الطرف ، كما هو الحال في الثعابين الأخرى . مناطق التوزيع : فم الخليج العربي وسواحل الهند ومن سريلانكا إلى غينيا الجديدة وشمال استراليا .

ثعبان *Hydrophis Cyanocincta* (Daud)

ثعبان بحري ذي حلقات زرقاء وتم الحصول عليه من خور عبدالله في أعلى الخليج العربي في مايو ١٩٢١ . ثعبان سام ويبلغ طوله أربعة أقدام . ذو حلقات سوداء والبطن أبيض والذيل مسطح، ويشاهد على سطح البحر في الأيام الهادئة كسابقه . مناطق التوزيع : من الخليج العربي إلى سواحل الهند وإلي الصين واليابان وجزر بابوا .

تحت عائلة : الأفاعي VIPERINAE

أفعى *Echis carinatus* (Schneid)

هذه هي أفعى الطفى المنشارية ، تم الحصول عليها في أبريل ١٩٢١ من جزيرة طنب وهي سامة . يقول السيد لاپرسون إن بعضها ذو لون رملي، وبعضها الآخر داكن يشبه الصخور . تعج الجزيرة بهذه الثعابين، وهي تقضي على قدر كبير من المواشي . تخرج في شهور أبريل ومايو الدافئة . مكنت واحداً منها أن يعض طيراً استوائيًا (*Phoeton*) لأختبر درجة سميته وقد مات الطير خلال دقيقة . تشير الطبعات القديمة لدليل الخليج العربي إلى وجود عدد كبير من الثعابين في هذه الجزيرة، لكنني لم أوفق في رؤية ثعبان واحد عندما زرت طنب في ٢٣ مارس ١٩٢٠ ، وكذلك عندما زرتها ثانية في مارس ١٩٢١ . مناطق التوزيع : الصحارى أو المناطق الرملية الأفريقية شمال خط الاستواء وجنوب آسيا من القوقاز والجزيرة العربية إلى الهند .

البرمائيات BATIACHIA ECAUDATA

عائلة الضفادع RANIDAE

ضفدعة *Rana cyanophlyctis* Schneid

من جزيرة البحرين . مناطق التوزيع : الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية ومن بلوشستان إلى الملايو وأيضًا من الهملايا إلى سريلانكا /p.395/ .

ملحق رقم (٤)

الأسماك

« أسماك العيون الحارة » *Cyprinodon dispar*

عرف السيد جي. آر. نورمان من المتحف البريطاني بلطف هذه الأسماك لي. كانت قياسات الذكر الأكبر (تمت في الهفوف) كالتالي: الطول ٧٩ ملمتر (من نهاية الذيل إلى طرف الفك الأسفل). كان أقصى عرض هو ١٤ ملمتر وأقصى سمك من البطن إلى الظهر هو ٢٢ ملمتر.

ذات لون قزحى فضي أبيض وفم ضارب إلى الحمرة التى تمتد باتجاه العينين (مثل ذكر سمك أبو شوكة أثناء فترة التناسل). ذي خيشوم أكثر انخفاضا ولون البطن فضي أبيض، كما أن البطن ذو خطوط عمودية داكنة دقيقة أما الظهر فلونه أخضر زيتوني فاتح مع مربعات من نقاط صغيرة زرقاء سماوية وصفوف أفقية يزداد حجمها باتجاه الجوانب والبطن. الزعنفة الصدرية شفافة صفراء ليمونية، أما الزعنفة الشرجية فهي صفراء ليمونية فاتحة مع مربع أسود وأبيض صغيرة على طول الحافة الأقرب للجسم. زعنفة الظهر (قرب الذيل) شفافة خضراء زيتونية تشكل مربعات مع خطوط عمودية دقيقة. الذيل فضي شفاف مع شريطين أسودين عموديين عريضين من رأس الذيل إلى نهايته، وهما يغطيان معظم الذيل ويتشكل من البقية ثلاثة خطوط فضية دقيقة. الخطوط السوداء هي شكل متغير وهي ملتصقة بعضها ببعض في بعض العينات.

كانت قياسات أكبر أنثى من هذه السمكة هي ٧٥ ملمتر (٣ بوصات) في الطول، وأقصى عرض هو ١٦ ملمتر، أما أقصى سمك فهو ٢٢ ملمتر /p.396/.

اللون زيتوني أخضر باهت. يعوز الزعانف الصغيرة المربعات لدى الذكور كما لا توجد خطوط الذيل السوداء.

كانت الأسماك البالغة نادرة ومن الصعب صيدها، أما الأسماك غير البالغة فتعج بها كل الجداول التي تغذيها العيون في واحة الهفوف. لو أن مستحمًا جلس ساكنًا في الماء، فإن أفواجًا من هذه الأسماك الصغيرة ستقترب منه وتقضم أرجله برفق. هذه الأسماك صغيرة جدًا لا تعض بقوة، لكن يمكن الإحساس بالاحتكاك مع أسنانها. ما كنت لأصدق هذا حتى رأيته بنفسي. يمكن رؤيتها في أوقات أخرى، تمزق شيئًا على الجوانب الطحلبية للجداول، وكثيرًا ما تنقلب رأسًا على عقب بسبب الإجهاد. يظهر الفم على شكل فتحة بارزة، وهناك صف من الأسنان على طول الحافة الخارجية للفك، تبدو هذه الأسنان أصغر نسبيًا لدى الأسماك البالغة من الصغيرة. أسنان الفك الأسفل منبسطة وحادة، وعندما تكبر تحت عدسة مكبرة فإنه يمكن رؤية عرق أحمر يتجه إلى أعلى في كل سن، تعطي أسنان الفك الأسفل البارزة المظهر الخارجي العدواني لكلب البلدغ. يصطاد الصبيان المحليون الأسماك الصغيرة في سلال تصنع من سعف النخيل لكنها لا تؤكل. لو أن تمرة ألقيت في الماء لمزقتها الأسماك إلى قطع وتنضم الآلاف منها في العراك الصاخب.

المعلومات المتوفرة عن سمكة *Cyprinodon dispar* في المتحف البريطاني غير كافية، ذلك أن كل جامعي العينات قد اصطادوا عينات نصف مكتملة النمو. ولأنهم احتمالاً كانوا يعتقدونها بالغة فإنهم لم يحاولوا الحصول على عينات أكبر أو ربما كانوا غير قادرين على اصطيادها. ولذلك فإن عينات الهفوف هي في الحقيقة أول أسماك كاملة النمو من هذا النوع تم الحصول عليها، وأن هناك القليل لمقارنتها

معها. بدا لي من فحص لطبق من سمك *C. dispar* أن الزعانف الظهرية والبطنية النموذجية كانت أكبر بكثير وأطول بالنسبة لحجم السمكة من الزعانف نفسها للسمك من الهفوف، ومن المؤكد أن تطوراً مفرطًا للزعانف سيكون غير مناسب في مياه الأحساء سريعة الجريان. من المحتمل أن تنمو زعانف زينة أكثر في مياه راكدة، بينما يكون الشكل الانسيابي ضرورة، والزعانف أصغر في الجداول. ليس لدينا أي ملاحظات ميدانية لنصل إلى أي قرار. هناك عينات من مسقط والبصرة لكن لا شيء يخبرنا إن كانت العينات من ماء راكد أم لا. يقال: إن هناك نوعين من الأسماك في عيون البحرين، ولكن لا توجد لدينا عينات من هناك، وسيكون من غير المفيد تخمين هويتها. يذكر العميد مايلز[1] ـ الذي كان وكيلاً سياسيًا في مسقط في عام ١٨٧٦ ـ عيونًا حارة زارها في نخل[2] قرب مسقط. وجد أن درجة حرارة الماء كانت ١٠٦° فهرنهايت، ويقول: إنه كان هناك أسماك صغيرة في الجداول الجارية منها /p.397/ حيث لايزال الماء دافئًا. أرسل الدكتور جاياكار عينات من مسقط وعرفت في المتحف البريطاني على أنها أسماك عيون حارة Cyprinodon dispar، ولكننا لا نعلم من أي عين جاءت منه. أشد العيون حرارة في واحة الهفوف هي أم سبعة. رأيت أسماكًا تسبح حيث يجري الماء من الحوض ووجدت أن ميزان الحرارة قد سجل ١٠١° فهرنهايت. تكون درجة حرارة الهواء في الظل في فصل الصيف بالتأكيد فوق ١٠٠° ويميل الهواء إلى رفع حرارة الماء بدلاً من تبريده. ولذلك فإنه أمر ثابت أن هذه الأسماك تستطيع العيش في ماء درجة حرارته ١٠١° وتحتمل بضع درجات أشد حرارة. طبقًا للمفهوم الطبي فإن الحمام الساخن يبدأ عند ٩٦° و١٠١° تكون حارة بقدر ما تستطيع تحملها. يقول المحليون إن الأسماك تموت إذا وضعت

---

(١) العميد إس. بي. مايلز، المجلة الجغرافية، ١٩٠١، ص ٤٧٠.

(٢) نخل هي مدينة صغيرة عند رأس وادي الحمام في منطقة الحجر الغزي لسلطنة عمان، وهي مغلقة من الجهة الجنوبية والشرقية بالجبال، ويوجد إلى الغرب منها منطقة معقدة من تلال منخفضة وأودية شديدة الانحدار، انظر: لوريمر، دليل الخليج، القسم الجغرافي، جـ٥، ص ١٧٢٧. (المترجمان)

في ماء بارد . درجة حرارة أشد الأحواض حرارة في القسم الاستوائي من المربى المائي في حدائق لندن الحيوانية هي ٨٠ْ فهرنهايت .

هناك نقطتان مرتبطتان بهذه الأسماك ستكونان مبعث اهتمام عظيم خاصة لعلماء الأحياء . الأولى هي أن نعرف إن كانت هذه الأسماك قد تخصصت لتحمل درجات حرارة عالية تقتل فوراً معظم الأنواع الأخرى . والانطباع الذي تخرج به عندما تغطس يديك في الماء هو أن هذا الأخير يوشك أن يطبخهما أيضًا . النقطة الثانية هي أن نعلم كيف تمكنت هذه الأسماك من توطين أنفسها في واحة صحراوية معزولة ومنفصلة بمئات الأميال من البلاد القاحلة من السطح المائي العذب التالي . هل هي بقايا الأسماك التي سكنت الأنهار التي ـ مثل وادي السهباء ـ جرت يومًا ما فوق الجزيرة العربية ، وأرغمها جفاف البلاد أقرب فأقرب إلى المصدر أم أنها أحضرت بواسطة قوة ما أخرى؟ إذا كان الأمر كذلك ، فإن النظرية التي تقول : إن الأسماك قد وطنت عن طريق حملها كبيض على صدور وأقدام الطيور البرية يحين دورها للنقاش[1] . نادراً ما تقدم الطبيعة وسيلة نقل مشكوك فيها كهذه لتوزيع أنواعها كما يعطي هذا الانطباع . إن كان البيض قد وضع في قشرات صعبة الهضم وابتلعت من قبل الطائر ، وهو نظام تم تبنيه مسبقًا من قبل الحشرات الطفيلية ، فإن هذا سيكون مقبولاً بسرعة أكبر حلاً للمشكلة .

قدمت جميع العينات إلى المتحف البريطاني .

هناك نوعان لأسماك تعيش في العيون الحارة أو الفاترة قد تثير الاهتمام ، رغم أنه لم يتم التعرف على النوع في أي من الحالتين .

---

(١) لم أستطع أن أجد أي دليل على أن مراقبين أكفاء قد شاهدوا بيض السمك يحمل بهذه الطريقة ، رغم أن دليلا كهذا قد يكون موجوداً .

يتحدث داوتي عن أسماك صغيرة فضية ـ خضراء في العيون الفاترة ذات الطعم الكبريتي في واحة خيبر (الجزيرة العربية الصحراوية *Arabia Deserta,* ، المجلد ٢ ، الصفحة ١٨٨) وأيضًا في البتراء (المجلد ١ ، الصفحة ٢٧) ، هذا وقد لفت السير ارنولد /p.398/ ويلسون انتباهي إلى كتاب الذكريات للبروفسور آي . اتش سايس الذي يقول عند كتابته عن الجزائر (الصفحة ٢٤٩) : «كنا بعد بضعة أيام عند حمام المسخوطين[1] ، حيث تغمر العيون الحارة الهضبة الكلسية ذات البراكين المصغرة المخروطية الشكل . يسقط الماء الحار في أحد الأماكن من فوق منحدر صخري إلى الجدول في الأسفل محولاً وجه المنحدر الصخري إلى ألوان حمراء ، قرنفلية وصفراء مثل «مصاطب» نيوزيلندة الشهيرة . يتدفق الماء وهو لايزال يغلي إلى الجدول ، وعلى الرغم من أنه يحرق اليدين إذا وضعت فيه ، فإن أسماكًا شبحية الشكل بيضاء ، وشبه شفافة تشاهد سابحة فيه ، وقد هاجر أسلافها من الماء البارد في الخلف وتأقلمت تدريجيًا لظروف منطقة حارة» .

رغم أن هذا يدل على أن الأسماك كانت تعيش في الماء المحرق ، فإنني أعتقد أنه لو قيست درجة الحرارة حيث كانت الأسماك فعلاً ، لكان قد وجد أن المياه قد خفت حرارتها بشكل كبير بين ذلك الجزء والحوض المحرق . تجربة ستكون ممتعة لأولئك الذين يملكون الوسائل اللازمة هي التأكد ـ عبر الرفع التدريجي لدرجة حرارة الماء ـ من مقدار الحرارة التي تكون أسماك الينابيع الحارة *Cyprinodon dispar* قادرة على تحملها ، وعما إذا كانت المقاومة الناجحة لدرجات الحرارة العالية مصحوبة بأي تخصص جسدي /p.399/ .

(١) حمام المسخوطين هي مدينة جزائرية تقع على بعد ٣٠٠ كيل شرق العاصمة الجزائرية ، وعرفت منذ القدم بمياهها المعدنية الطبيعية الساخنة التي تستعمل للتداوي من بعض أمراض الجلد والمفاصل . (المترجمان)

ملحق رقم (٥)

الحشرات[١]

تم تسليم الحشرات التي جمعت إلى الرائد إي . إي . أوستن من المتحف البريطاني (متحف التاريخ الطبيعي) ، والذي أخذ على عاتقه بصدر رحب تقسيم المجموعات المختلفة ، أما التعريف فقد تم بواسطة هيئة المتخصصين الآتية أسماؤهم :

رتبة الحشرات حرشفية الأجنحة :

(رتيبة ـ تحت رتبة أبي دقيقات) :

السيد إن . دي . رايلى

(رتيبة ـ تحت رتبة الفراشات) :

السيد دبليو . إتش . تي . تامز

رتبة الحشرات غمدية الأجنحة :

السيد كي . چي . بلير — درجة البكالوريوس في العلوم

رتبة الحشرات غشائية الأجنحة :

الدكتور چي . ووترستون — درجة البكالوريوس في الأديان

رتبة الحشرات ذات الجناحين :

الرائد إي . إي . أوستن — زميل جماعة الخدمة المميزة

والسيد إف . دبليو . إدواردز — درجة البكالوريوس في الآداب

---

(١) قام بترجمة هذا الملحق مشكوراً الأستاذ الدكتور إبراهيم محمد كيلاني من قسم علوم الحيوان بكلية العلوم في جامعة الملك سعود بالرياض . (المترجمان)

رتبة الحشرات نصفية الأجنحة :

السيد دبليو . إى . شاينا درجة البكالوريوس في الآداب

رتبة حشرات الرعاشات :

السيد كي . چي . بلير درجة البكالوريوس في العلوم

رتبة الحشرات مستقيمة الأجنحة :

الدكتور بي . يوڤاروف

بالإضافة إلى ما سبق ، فقد ثبت أن عنكبوتًا ضخمًا ذا شعر كثيف (مشعر) (*Jerrimundalum*) تم الحصول عليه من يبرين هو عنكبوت *Galeodes arab* عنكبوت «عاصفة أو ريح العرب» .

كانت دودة خضراء صغيرة الحجم ذات خط أبيض أسفل الظهر ، والتي يبدو أنها من آفة حشرة الذبابة المنشارية ، قد دمرت مساحات كبيرة من زراعات البرسيم الحجازي في الهفوف في ١٩ يناير عام ١٩٢٤ . وُجدت أعداد من حشرة أبو العيد المفترس ، وكانت تتغذى على هذه الآفة ، ولكن لم يكن لها تأثير يذكر . الإجراء الوحيد الذي اتخذ هو حراثة المساحات المصابة وإعادة زراعتها .

شوهد نمل أبيض على الكثبان الرملية في صحراء الجافورة ، ولوحظ نمل أسود في عدة أماكن ما بين الأحساء ويبرين .

يذكر داوتي في كتابه «شبه الجزيرة العربية الصحراوية » *Arabia Deserta* (المجلد الثاني . الصفحة ١٩٩) ، إن حشرات الرعاشات الكبيرة ذات اللون الأزرق السماوي (اللازوردي) ، وذات اللون المظلم القاتم وذات اللون القرمزي شوهدت في واحة خيبر . هذا الوصف يعبر عن الأنواع الثلاثة التي رأيتها في الأحساء .

آر . إي . تشيزمان

قائمة الحشرات

التي جمعها الرائد آر. إي. تشيزمان في شبه الجزيرة العربية

باستثناء حشرات رتبة حرشفية الأجنحة، فإن القائمة تحتوي على القليل الذي هو جديد أو ذو أهمية خاصة. الخنافس، والجنادب /p.400/، ونطاطات العشب أو نطاطات الحشائش وغيرها، فهي جميعًا من توزيعاتها المعروفة كان من المتوقع أن توجد في المناطق التي تمت زيارتها، بينما الأنواع النادرة وذات الأهمية والتي كان يتوقع سلفًا وجودها والحصول عليها في جزء درس بندرة من شبه الجزيرة العربية، فقد خيبت الآمال لعدم وجودها.

مع هذا فإن الحشرات التابعة لرتبة حرشفية الأجنحة، كانت أكثر أهمية وتشويقًا. اثنان من حشرات أبي دقيقات التي تنتمي إلى المنطقة القطبية (الشمالية) القديمة هما: *Papilio machon* (أبو دقيق مذنب الأجنحة)، و *Colias crocea* (أبو دقيق الفصة الأصفر)، لم يسجلا من قبل في المناطق الجنوبية على هذا البعد، بينما يشير مستوى الاصطياد لأبي دقيق *Papilio demoleus* (أبي دقيق الموالح، يسمى صانعات أنفاق أوراق الموالح، إلى انتشار هذا النوع ناحية الشرق.

أكثر الأشياء جدارة بالملاحظة لأبي دقيقات هو بدون شك أنها سلالة محلية جديدة مسماة الآن باسم مكتشفها *Precis Orithya* L. ست عشرة عينة من الفراشات تتضمن ٩ أنواع، منها أربعة أنواع جديدة من هذه الأنواع. فإن نوعي *Cossus cheesmani*، *Trichoclea avempacei* مختلفان تمامًا عن أي أبي دقيقات عرفت في المنطقة التي تمتد من شمال أفريقيا مرورًا بسوريا وإيران إلى أفغانستان. الأنواع الأخرى كانت مماثلة للأشكال المعروفة من هذه المنطقة.

حشرات رتبة غمدية الأجنحة (الخنافس) COLEOPTERA

عائلة (خنافس الماء الدوّارة) GYRINIDAE (Whirligig Beetles)

خنفساء *Dineutes aereus* Klug

مناطق التوزيع : لحج، ومسقط ، وعدن ، وسوقطرى ، ومن أفريقيا الاستوائية حتى ناتال .

تم الحصول عليها من الهفوف في ١٤ ديسمبر ١٩٢٣ .

خنفساء Dineutes (النوع غير معروف؟) :

تم الحصول عليها من الهفوف في ١٤ ديسمبر ١٩٢٣ .

عائلة أبو العيد COCCINELLIDAE (Lady-bird)

خنفساء أبو العيد ذو السبع نقاط *Coccinella 7-punctata* L.

مناطق التوزيع : أوروبا ، وآسيا ، وجزء من أفريقيا . تم الحصول عليها من الهفوف في ٢٩ نوفمبر ١٩٢٣ .

عائلة خنافس الدقيق (خنافس الظلام - كارهة الضوء)
TENEBRIONIDAE (Darkling beetles)

خنفساء *Tentyria giraffa* All

مناطق التوزيع : الجزيرة العربية ، وسيناء . تم الحصول عليها من الهفوف في ١ ديسمبر ١٩٢٣ .

خنفساء *Adesmia clathrata* Sol

مناطق التوزيع : فارس ، وبلاد الرافدين ، والجزيرة العربية . تم الحصول عليها من الهفوف في ١ ديسمبر ١٩٢٣ .

خنفساء *Akis subtricostata* Redt.

مناطق التوزيع : فارس ، وبلاد الرافدين ، والجزيرة العربية . تم الحصول عليها من الهفوف في ١ ديسمبر ١٩٢٣ .

خنفساء *Pimelia arabica* Klug

مناطق التوزيع : مصر ، والجزيرة العربية ، والحجاز ، وحضرموت ، والأحساء .

عائلة الخنافس الجعالية (الخنافس المقدسة)

SCARABAEIDAE (Sacred Beetles)

خنفساء الجعل *Scarabaeus compressicornis* Klug

مناطق التوزيع : مصر ، وبلاد الحبشة ، والجزيرة العربية ، وفارس ، وكراتشي ، ويبرين .

عائلة الجعال MELOLONTHIDAE (Chafers)

جُعْل (غير محدد النوع) ?*Tanyproctus* Sp

العينة تالفة بشكل كبير . تم الحصول عليها من يبرين في ٢٢ فبراير ١٩٢٤

/p.401/

رتبة الحشرات غشائية الأجنحة HYMENOPTERA

تشتمل حشرات هذه الرتبة على النحل ، والدبابير . . . وغيرها

الدبور القناص - المفترس *Cryptocheilus Flavus* Fabr.

تم الحصول عليه من الهفوف في ٢٩ نوفمبر ١٩٢٣ .

الدبور (أكثر من نوع غير معروف) *Campoplex* (sens. lat.)sp.?

(نوع من الدبابير المتطفلة) تم الحصول عليه من الهفوف في ١٤ ديسمبر ١٩٢٣

رتبة حرشفية الأجنحة (أبي دقيقات)

LEPIDOPTERA RHOPALOCERA (Butterflies)

أبو دقيق «مذنب الأجنحة» *Papilio machaon* L.

تم الحصول عليه من الهفوف في ٢٠ نوفمبر ١٩٢٣ .

أبو دقيق الموالح - صانع أنفاق أوراق الموالح - أبو دقيق الحمضيات *Papilio demoleus* L.

تم الحصول عليه من الهفوف في ٢٠ نوفمبر ١٩٢٣

أبو دقيق الفصة الأصفر *Colias crocea* Fourc. (syn. *C. edusa*)

تم الحصول عليه من الهفوف في ٢٠ نوفمبر ١٩٢٣

أبو دقيق طويل الذيل المزرق *Lampides boeticus* L.

تم الحصول عليه من الهفوف في ٢٠ نوفمبر ١٩٢٣

أبو دقيق *Zizera Lysimon* Hb.

تم الحصول عليه من الهفوف في ٢٠ نوفمبر ١٩٢٣ .

أبو دقيق *Precis orithya* Linn.

(تحت نوع جديد) (Cheesmani, Riley)

تم الحصول عليه من الهفوف في ٢٠ نوفمبر ١٩٢٣ .

رتبة حرشفية الأجنحة (رتيبة الفراشات)

LEPIDOPTERA HETEROCERA (Moths)

عائلة الفراشات الليلية NOCTUIDAE

فراشة (دودة) الشمندر القارضة *Agrotis subspinifera* Hampson

تم الحصول عليها من الهفوف في ١ ديسمبر ١٩٢٣

فراشة (دودة) القارضة العربية *Agrotis saracenica* Tams

نوع جديد تم الحصول عليها من يبرين في ٢١ فبراير ١٩٢٤ .

فراشة *Trichoclea avempacei*

نوع جديد . تم الحصول عليها من الهفوف في ٢٣ يناير ١٩٢٤ .

فراشة *Callistege albifusa* de Joannis

تم الحصول عليها من الهفوف في ٢٩ نوفمبر ١٩٢٣

عائلة الفراشات النجَّارَة (حفارات سوق الأشجار) COSSIDAE

حفار الساق *Cossus cheesmani* tams

نوع جديد . تم الحصول عليها من يبرين في ٢٣ فبراير ١٩٢٤

عائلة فراشات (الخضر والحبوب) PYRALIDAE

فراشة *Heterographis Fulvimarginella* Hampson

تم الحصول عليها من الجافورة في ٢٦ فبراير ١٩٢٤ .

فراشة *Cornifrons ulceratalis* Lederer

تم الحصول عليها من الهفوف في ٢٩ فبراير ١٩٢٤

فراشة *Tegostoma confluentalis* Hampson

تم الحصول عليها من الجافورة ، الكثبان الرملية في ٢٦ فبراير ١٩٢٤

فراشة *Noctuelina avicennae* Tams

نوع جديد . تم الحصول عليها من الجافورة ، والكثبان الرملية في ٢٦ فبراير ١٩٢٤ .

رتبة الحشرات ثنائية الأجنحة (الذباب ذو الجناحين)

DIPTERA (Two-winged Flies)

عائلة البعوض الواخز CULICIDAE

(البعوضة المنزلية العادية أو الشائعة في المناطق الاستوائية) .*Culex Fatigans* W

تم الحصول عليها من الهفوف في ١٢ ديسمبر ١٩٢٣ /p.402/

عائلة الذباب الداجن (المنزلي) MUSCIDAE

ذبابة الاسطبلات الواخزة .*Stomoxys calcitrans* L

تسمى ذبابة الإسطبلات .

مناطق التوزيع : الخليج العربي ، والكويت . تم الحصول عليها في ٣١ مارس ١٩٢٤ (اصطيدت على متن سفينة s.s. Frankenfels) .

رتبة الحشرات نصفية الأجنحة (البق) HEMIPTERA (Bugs)

بق الماء الكبير المخيف الكولومبي .*Hydrocyrius columbie* Spin

(بق كبير ضخم مائي . وجد على ظهر ذكر الحشرة ٩٠ بيضة مثبتة بقوة بواسطة الأنثى) .

مناطق التوزيع : أفريقيا الاستوائية ، ومدغشقر ، . . . وغيرها . تم الحصول عليه من الهفوف في ٢٤ديسمبر ١٩٢٣ .

رتبة الرعاشات (الرعاشات الكبيرة ، ذات الفكوك المسننة)

ODONATA (Dragon-Flies)

حشرة الرعاش *Orthetrum sabina* Drury

مناطق التوزيع : الجزيرة العربية حتى أستراليا وجزر الباسفيك . تم الحصول عليها من الهفوف في ١٥ ديسمبر ١٩٢٣ .

حشرة الرعاش «المحلقة أو الحلقية» *Tritherinia annulala* Beauv.

مناطق التوزيع : أفريقيا . تم الحصول عليها من الهفوف في ١٥ ديسمبر ١٩٢٣.

حشرة الرعاش المضيء (?) *Philonomon Luminans* Karsch

اسم مُسَمِّي الحشرة غير مؤكد (؟) . تم الحصول عليها من الهفوف في ١٥ ديسمبر ١٩٢٣ .

حشرات رتبة مستقيمة الأجنحة ORTHOPTERA

النطاطات ، الجراد ، وغيرها (Grasshoppers, Locusts, etc.)

حشرات عائلة فرس النبي MANTIDAE

حشرة *Hypsicorypha gracilis* Burm

مناطق التوزيع : شمال أفريقيا (جزر الكناري حتى مصر) . تم الحصول عليها من يبرين في ٢١ فبراير ١٩٢٤ .

عائلة الجراد والنطاطات (الجنادب) ACRIDIDAE

نطاط *Acridella nasuta* L.

مناطق التوزيع : المناطق الجنوبية من الإقليم القطبي الشمالي . تم الحصول عليه من يبرين في ١ مارس ١٩٢٤ .

نطاط *Catantops saucius* Burm.

مناطق التوزيع : جزر كاب ڤيردي حتى مصر ، سيشيل (أعداده بوفرة) . تم الحصول عليه من الهفوف في ١٤ ديسمبر ١٩٢٣ .

نطاط البرسيم *Acrotylus insubricus* Scop

مناطق التوزيع : المناطق الجنوبية من الإقليم القطبي الشمالي ، عام جداً في وجوده . تم الحصول عليه من الهفوف في ١٤ ديسمبر ١٩٢٣ .

(بيانات منقولة عن الحوليات والمجلات بمتحف التاريخ الطبيعي ، سلسلة ٩ ، المجلد ١٥ ، صفحة ١٥١ ، يناير ١٩٢٥)

قائمة بأسماء حشرات أبي دقيقات التي جمعها من شبه الجزيرة العربية النقيب[1] آر. إي . تشيزمان ، مع وصف لتحت نوع جديد (نويع) . أنجز هذا العمل إن. دي. رايلى .

(تم النشر بتصريح من القيمين على المتحف البريطاني)

حشرات عائلة NYMPHALIDAE

أبو دقيق *Precis orithya cheesmani*

تحت نوع (نويع) جديد (اللوحة ٦٦ ، الصورتان ٥ ، ٦)

كل من الذكر والأنثى لهذا التحت نوع (نويع) من فراشات أبي دقيقات قريب الشبه لحشرة أبو دقيق من النوع *P. orithya here* Lang[2] ، ولكن الشريط المحيطي القرصي الأبيض مخضب بالكامل بلون أزرق /p.403/ ذلك يعني أن البقعة الشبيهة بالعيينة (العوينة) في الدائرة أو النطاق الثاني من الجناح، تحاط بالكامل بلون أزرق (ولكن ليس بدرجة قوية على الناحية الخارجية) ، ويمتد هذا اللون من هذه المنطقة إلى العرق الضلعي (الأول في أعلى الجناح) ، العرق الضلعي في الجناح الأمامي للحشرة وحواف كل من الجناح الأمامي والخلفي ، وبصفة خاصة في الجناح الخلفي، تكون ذات لون أكثر دكانة في نويع أبو دقيق *Cheesmani* عنه لأبو دقيق

(١) جمع المؤلف هذه الحشرات عندما كان نقيبًا ، ومن المعلون أن رتبته العسكرية وقت صدور الكتاب كانت رائدًا . (المترجمان)

(٢) مجلة علم الحشرات ، العدد ١٧ ، صفحة ٢٠٧ (١٨٨٤) . Entom. xvii, p.207(1884)

النويع *here* . السطح السفلي للنويع *Cheesmani* شبيه بالنويع *here* ولكن أقل كثيراً منه في وجود اللون الأصفر شبيه الغراء، وغالبا يسيطر شحوب اللون الرمادي القاتم لونًا عامًا وبصفة خاصة في المنطقة الناتئة من الجناح .

تم الحصول على حشرة أبو دقيق نويع *cheesmani* من الهفوف في ٢٠ ديسمبر ١٩٢٣م، وكانت العينة هي أنثى واحدة فقط من هذا النويع ، وفي ٢٩ نوفمبر ١٩٢٣م تم الحصول على ٣ ذكور من أبو دقيقات ، وأنثيين من أبو دقيقات هذا النويع سالف الذكر .

يوجد في المتحف البريطاني طراز تحت الرمز آر. إتش بأعداد ٢٤١ ذكر ، ٢٤٢ أنثى من هذا النويع ، بطرز شبيهة بأعداد ٢٤٣ ، ٢٤٤ ذكر ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ أنثى .

كانت الاختلافات المشاهدة أو الظاهرة طفيفة جداً بين الذكور الثلاثة ، أما الثلاث أبو دقيقات الإناث من ناحية أخرى فقد أظهرت اختلافات جديرة بالاهتمام .

الشريط الأبيض على الجناح الأمامي لإحدى العينات مخضب بدرجة كبيرة بلون أزرق ، ويشبه السطح السفلي للعينة هذه، ما هو موجود بالذكور . السطح السفلي في العينتين الأخريين لكلا الحشرتين الأنثيين شبيه بمثيله في العينات المجففة . في واحدة من العينتين يتوزع لون ارجواني ـ رمادي تقريبًا بانتظام، وفي العينة الأخرى كان توزيع هذا اللون بصورة متوسطة .

تم وصف تحت النوع (نويع) *Precis here* أساسًا من عينات في المتحف البريطاني مجموعة من عدن وبلاد الرافدين . وجود هذه السلالة المميزة في مناطق غالبًا تكون بالتحديد في المنتصف ما بين هذين المكانين سابقي الذكر (عدن ـ بلاد الرافدين) ويشير على ما يبدو إلى درجة من الانعزالية للكائنات الحيوانية في الهفوف والذي كان متوقعًا بكل تأكيد .

عائلة الفراشات مذنبة الأجنبة PAPILIONIDAE

أبو دقيق *Papilio machaon* L.

تم الحصول على ذكر واحد في الهفوف في ٢٠ نوفمبر ١٩٢٣ ، وأنثى واحدة في ٢٤ ديسمبر ١٩٢٣ .

حشرة أبو دقيق الموالح - صانعات أنفاق أوراق الموالح *Papilio demoleus* L.

تم الحصول على ذكرين وأنثى واحدة في الهفوف في ٢٠ نوفمبر ١٩٢٣ .

وجود أبو دقيق *Papilio machaon* وهو من الأنواع المعروفة أنها تنتمي أساسًا إلى حشرات العالم القديم، والمعروف جغرافيا باسم الإقليم القطبي الشمالي، وظهوره في هذا المكان قليل لا يتوقع حدوثه . الحشرة ، بالطبع ، معروفة جيدًا في سوريا ، وفلسطين، وبلاد الرافدين ، ولكن الهفوف تعتبر بعيدة جغرافيا بشكل كبير إن لم تكن مفصولة تمامًا فيما يتعلق بوضع الكائنات الحيوانية بها ، بالنسبة لكل البلدان السابق ذكرها . من ناحية أخرى ، فإن وجود حشرة أبي دقيق الموالح *Papilio demoleus* كان محتملاً بشكل أكبر . ووجودها مع ذلك يزيد من مدى انتشارها المعروف إلى حد بعيد ، وأقرب الأماكن التي سجل من قبل وجودها فيه هي إيران ومسقط ، حيث الأخيرة (مسقط) تقع في أقصى الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية[١] .

---

(١) ورد في النص الأصلي المترجم عنه أن مسقط تقع في أقصى الشمال الشرقي من الجزيرة العربية . (المترجمان)

عائلة (فصيلة أبو دقيق الكرنب) PIERIDAE

حشرات أبي دقيقات ذات اللون الأبيض والأصفر الكبريتي

أبو دقيق الفصة الصفراء (أبو دقيق دودة كولياس ـ البرسيم) *Colias crocea* Fourc.

تم الحصول على ذكر واحد في الهفوف في ٢٠ نوفمبر ١٩٢٣ .

الأوصاف التي تم ذكرها بالنسبة لحشرة أبو دقيق *Papilio machaon* تنطبق ذاتها على نفس الحشرة هذه . /p.404/

عائلة LYCAENIDAE

حشرة أبو دقيق حفار السوق الأزرق *Zizera lysimon* Hb.

تم الحصول من الهفوف على حشرتي أبو دقيق ذكر في ٢٠ نوفمبر ١٩٢٣ ، وذكر واحد ، وأنثى واحدة تم الحصول عليهما في ٢٩ نوفمبر ١٩٢٣ .

حشرة أبو دقيق البقوليات الأزرق *Lampides boeticus* L.

تم الحصول في الهفوف على ذكر واحد فقط في ٢٩ نوفمبر ١٩٢٣ .

وجود كل من نوعي أبي «الزرق» كان متوقعًا فلكليهما انتشار واسع جدًا خلال الجزء الجنوبي من القطب الشمالي ومناطق الهند ـ الاسترالية .

بيانات منقولة من الحوليات والمجلات بمتحف التاريخ الطبيعي، سلسلة ٩، المجلد ١٥ ، صفحة ١٤٤ ، يناير ١٩٢٥

قائمة أسماء الفراشات التي جمعها من شبه الجزيرة العربية النقيب آر. إي. تشيزمان ، مع أوصاف ٤ أنواع جديدة . قام بهذا العمل دبليو . إتش. تي . تامز .

(نشرت بتصريح من القيمين على المتحف البريطاني)

كما هو متوقع فإن جميع الأنواع من الحشرات تظهر خصائص الألوان المميزة لألوان الفراش الصحراوي الأفريقي ، وجود ٤ أنواع جديدة في عينات قليلة العدد جمعت من ٣ أماكن معزولة هو شيء ملفت للانتباه، وجدير بالملاحظة بنسبة عالية، ومن المنطق التوقع بأن زيادة عمليات جمع العينات الحشرية في هذه المناطق سوف يقدم الكثير من المعلومات المشوقة ذات الأهمية عن الصحراء . وبالرغم من صغر حجم ما تم جمعه ، إلا أنه اشتمل على أنواع توجد في أو وثيقة الصلة بأنواع من مصر ، وفارس ، وشمال غرب الهند .

عائلة الفراشات الليلية NOCTUIDAE

فراشات الديدان القارضة AGROTINAE

فراشة دودة الشوندر البنية القارضة *Agrotis subspinifera* Hmpsn.

فراشة الشوندر البنية القارضة *Agrotis subspinefera* Hampson

مذكورة في كتالوج حرشفية الأجنحة phal المتحف البريطاني ١٧ ، ٢٠٥ صفحة ، اللوحة ٦١ ، الشكل ١٩ (١٩٠٣)

تم الحصول في الهفوف على ذكر واحد من هذه الحشرة في ١ ديسمبر ١٩٢٣ . تم الحصول على طراز أو نموذج الذكر وذكر آخر من منطقة فيروزپور في البنجاب في أكتوبر ١٨٩٧ بواسطة نورسي (*Nurse*) .

فراشة الدودة القارضة *Agrotis saracenica*

نوع جديد من فراشات الديدان القارضة (لوحة ٦٦ ، الصورة ١) .

لذكر هذه الفراشة سمات فراشة الدودة القارضة *Agrotis hodnae* Oberthür ولكن أدكن لونا . وقرن الاستشعار من النوع المنشاري الريشي (مشطي مضاعف) ، والجذع من أعلى به حراشيف برتقالية مصفرة مختلطة مع بعض الحراشيف الشعرية البنية . الجبهة تشبه في تكوينها جبهة فراشة دودة اللفت القارضة *Agrotis segetum* Schiff ، ولكن بروز قمة الرأس شكله خارجيًا كمثري الشكل ، والجزء الضيق أو النهاية الضيقة متجهة لأعلى . الملمس الشفوي لونه كريمي برتقالي مصفر ، أما القطعة القاعدية والثانية لقرن الاستشعار فتنحجب عن الجانب الخارجي بلون داكن . الرأس والصدر أسمر فاتح ، أبيض /p.405/ مختلط مع بني داكن ، كثير من الحراشيف الداكنة أطرافها بيضاء ، حواف الصدر أكثر بياضا من باقي الصدر . الصدر أصفر لامع مصقول . البطن فوق وبين اللون الأصفر المصقول به أسمر فاتح . أرجل الحشرة لونها أصفر مصقول كريمي . ساق الرجل ذات حراشيف لونها أسمر فاتح قليلا أو بنية مشعرة ، رسغ الرجل والجزء الأكبر من كل قطعة منه ذي لون بني داكن ، النهايات فقط أو قمة الرسغ ذات لون أصفر مصقول كريمي . الجناح الأمامي اللون الأساسي به أسمر فاتح ، العروق ونقوش الجناح أي تخطيطه ذو لون أسود قاتم ، مع تبقعات بيضاء على كلا جانبي العروق وفي داخل وفوق البقعة بالجناح . هناك شكل صولجاني محاط بلون بني داكن يمتد بطول ثنية العرق الشرجي أو الخلفي

بالجناح وحتى نقطة مقابلة لاتصال أو التقاء العرق الزندي ٢ بالجناح Cu2 مع الخلية الضلعية بالجناح . الخلية هذه يملؤها مدارات كاملة الاستطالة وغير مندمجة مع الشكل الكلوي الخلوي محاط بلون أسود قاتم أنيق ، وفي الوسط بقعة ذات حراشيف سمراء فاتحة محاطة بحراشيف مصقولة ذات لون كريمي ، والشكل شبه الكلوي الكبير يملأ نهاية الخلية محاط بلون أسود داكن ثقيل ومعظمه يملأوه لون أسود قاتم ، هناك لون أسود داكن يظلل العرق الضلعي بالجناح أعلى الشكل شبه الكلوي ، حزمة باهتة ذات لون أسود داكن ما بين الشكل شبه الكلوي والحافة الداخلية للجناح ، متقاربة قليلا كلما اتجهنا نحو الخلف أو النهايات . صف من ستة أعصاب بينية كخطوط رؤوس ، أسهمها سوداء مصقولة تقع أسفل العرق الوسطى الأول M1 بالجناح ، الخط فوق العرق الشرجي أو الخلفي بالجناح أقل تحديداً بكثير من الآخرين ، رقعة أو مساحة ذات لون أسود داكن مظلل ، ما بين العرق الأوسط الأول M1 والعرق الأوسط الثاني M2 ممتدة من الأشرطة ذات الرأس السهمي إلى الخلف أو النهايات ، الخط الأخير متغلظ ، أسود ، الحواف داكنة وبه خط كريمي لامع في القاعدة . يتحور اللون الأساسي حيث يتكون من خليط من حراشيف ذات لون كريمي مصقول ، وذلك فوق وفي داخل وخلف نهاية الخلية الضلعية بالجناح .
الجناح الخلفي أبيض ويحده خط دقيق داكن ، الحواف بيضاء . السطح السفلي تقريبا أبيض كلية ، الجناح الأمامي مع العرق الضلعي بالجناح به تشعع بلون داكن وأسود قاتم ، هناك شرطة منحنية داكنة اللون عبر نهاية خلية الجناح ، الشرطة المنحنية الداكنة اللون يندرج فيها اللون الداكن من العرق الضلعي إلى العرق الكعبري الخامس R5 (الأخير) ما بعد المنتصف ، يتدرج اللون الأسمر الفاتح منتشراً ومجاوراً حتى نهاية الجناح ويزداد اتساعه كما يزداد قتامة في منطقة وجود العرق الضلعي ، وكذلك يتوازى مع النهاية خط خلفي رفيع ودقيق أسود داكن يسمك

ويتضخم تحت الظهر ، الجناح الخلفي باهت متشعع وأسمر فاتح فوق العرق الضلعي ، حراشيف بأعداد قليلة منتصف الأقراص الخلوية . المسافة بين طرفي الأجنحة عند كامل الامتداد ٤٠ ملليمتر .

تم الحصول على ذكر حشرة فراشة كاملة للدودة القارضة هذه من يبرين ٢٠٠ ميل إلى الجنوب والجنوب الغربي من الهفوف في ٢١ فبراير ١٩٢٤ .

عائلة HADENINAE

الفراشة *Trichoclea avempacei* Tams

نوع جديد من حشرات حرشفية الأجنحة (لوحة ٦٦ ، الصورة ٣)

الملمس الشقوي في الذكر أصفر نحاسي لامع وذي شعاعات ضئيلة بلون أسود داكن . قرون الاستشعار مشعر ومهدب ، الشعيرات في منتصف قرن الاستشعار أطول قليلاً من قطر جذع القرن ، طول الأهداب حوالي ثلثي /p.406/ طول الشعيرات ، السطح العلوي للجذع أصفر نحاسي لامع . الجبهة بارزة ، ذات استدارة ، بها حزوز عرضية ، مغطاة بحراشيف صفراء نحاسية لامعة ، بالجبهة حزمة مستعرضة ذات لون داكن تمتد إلى المنتصف ، قمة الرأس صفراء نحاسية لامعة ذات شعاعيات سوداء داكنة . الصدر يميل إلى الأبيض ويختلط بالأبيض لون أصفر نحاسي لامع مشعع بلون أسود داكن . الحواف والعلامات الصدرية صفراء نحاسية لامعة . البطن من أعلى وكذلك يتخللها لون أصفر نحاسي لامع ومشععة بلون داكن . الأرجل لونها أصفر نحاسي لامع ومشععة بلون أسود داكن ، بالرسغ الأمامي على منتصف القطعتين الأوليين توجد حزمة ضيقة سوداء قاتمة ، القطع الرسغية الثلاث الأخرى من أعلى سوداء قاتمة ، الرسغ الوسطى بالقطع الثانية مظلل بشدة بلون أسود داكن في الثلثين القريبين ، القطع الثلاث الأخيرة من الرسغ لونها

تقريبًا بالكامل أسود قاتم ، الرسغ الخلفي مع القطعة الثالثة مظلل بلون أسود قاتم على الثلثين القريبين ، الرابع والخامس أسود قاتم . الجناح الأمامي يميل للبياض مشوب بلون أصفر نحاسي مصقول على طول العرق الضلعي ، وفي خلف الخلية الضلعية بالجناح ، على امتداد الحافة السفلى للخلية الضلعية حتى النهاية ، على امتداد منتصف الحافة الداخلية ، هذه المساحات ذات اللون الخفيف الأصفر النحاسي المصقول مشععة بحراشيف طفلية اللون ، حواف الخلية الضلعية متشععة عن طريق حراشيف سوداء وقاتمة ، العروق الخارجة من الخلية الضلعية سوداء ، ماعدا قرب الخلية ، عروق الخلية تحت الضلعية Sc ، العرق الكعبر الأول R1 والعرق الكعبري الثاني R2 تحمل حراشيف سوداء في اتجاه تلاقيها أو تقابلها مع العرق الضلعي ، خلية شبيهة الكلية كبيرة يحيطها خط أسود ماعدا ناحية العرق الضلعي ، حيث تبقى الخلية مفتوحة ، تمتليء هذه الخلية الكبيرة بلطخ كلوية الشكل داخلية ذات ألوان داكنة أسود قاتم ، وحراشيف بيضاء منفصلة عن الخط الخارجي المحيطي الأسود بواسطة حلقة لونها خفيف أصفر نحاسي مصقول ؛ مدار محاط بالأسود ، بيضاوي يلامس الشكل شبه الكلية ، قاعدة المدار منفتحة ، يحتوي على لطخة رمادية وسمراء فاتحة محاطة بلون أبيض ، المحيط الأسود على الجانب السفلي مستمر كخط متموج لمسافة أكبر قليلا من طول المدار ، ومع ، بعد فاصل قصير ، خط داكن يمتد حتى قاعدة الجناح ، خط عريض أسود يمتد من قاعدة الجناح حتى الشكل الصولجاني المستدق الطرف ، والذي يكون طويلاً ومحاطًا بالأسود ويمتليء جزئيًا ببقع مستطيلة ضيقة داكنة اللون مختلطة مع لون مبيض ، خط أسود دقيق يمتد من قمة الشكل الصولجاني وبطول الثنية الشرجية أو الخلفية حتى النهاية . شرطة سوداء قصيرة بطول العرق الشرجي (الخلفي) قرب قاعدة الجناح ، وواحدة أخرى تقع قرب النهاية ، توجد مساحة مساوية لمساحة الشكل شبيه الكلية لونها أسمر فاتح مشععة بلون داكن وهذه المساحة ملاصقة للشكل شبيه الكلية ، وتقع بين فرع العرق الوسطى الثاني M2 والفرع الأول للعرق الزندي Cu1 ، لون رمادي ينتشر بالتدريج

ما بين الفرع الرابع للعرق «الجذع الكعبري» R4 والفرع الخامس لنفس العرق R5 وهذا اللون لا يملأ بالكامل الفراغ بين المسافات هذه ، ستة حزوز أو فواصل سوداء الحافة قاتمة في الخلف تحت ظهريه بين الفرع الخامس للعرق «الجذع الكعبري» R5 والفرع الثاني للعرق الشرجي (A2) ، الحزّين أو الخطين الاثنين الوسطيين يقعان فيما بين الفرعين الثاني والثالث للعرق الخلفي M2 - M3 وبين الفرع الثالث للعرق الخلفي وفرع العرق الزندي الأول أي معا M3 - Cu1 ويكون هذا الخط الأطول ويسير حتى البقعة السمراء الفاتحة المشععة باللون الداكن الملاصقة للشكل شبيه الكلية ، والأهداب الطويلة تتناوب /p.407/ الألوان بها بين الأصفر النحاسي اللامع والأسود القاتم والأخير أوضح في الظهر بالجناح . الجناح الخلفي أصفر نحاسي لامع ويخضبه اللون الداكن الذي يقل عند القاعدة ويزداد قتامة ناحية الأطراف ، في منتصف الخلايا القرصية بالجناح توجد نقطة قاتمة ، وأهداب طويلة صفراء نحاسية مصقولة مشععة بلون أسود قاتم وأسود ، إلى الخلف وأسفل الخلية مخضب بلون أسمر فاتح بني خفيف مشعع بلون مبيض ، علامة أو بقعة كبيرة سوداء قاتمة في نهاية الخلية الضلعية ، الأهداب الطويلة كما في حالة ظهورها على السطح العلوي، ماعدا الخطوط السوداء القاتمة من الناحية العلوية ، حيث يكون النصف القاعدي لها أصفر نحاسي لامع . السطح السفلي للجناح الخلفي أصفر نحاسي لامع مشعع بالأسود ، العروق بالجناح تتجه للأطراف والنهايات ذاتها يبرز بها اللون الأسود ، الأهداب الطويلة صفراء نحاسية مصقولة ذات حراشيف قليلة داكنة .

طول الأجنحة عند كامل انبساطها ٢٩ ملليمتر .

تم الحصول على الحشرة الكاملة الذكر الموصوفة كأساس من الهفوف في ٢٣ يناير ١٩٢٤ .

عائلة CATOCALINAE

الحشرة *Colligtege albifusa* de Joannis

جاء ذكر هذا النوع في مجلد الجمعية المصرية لعلم الحشرات عام ١٩٠٩ صفحة ١٦٥ .

تم الحصول على عينة ذكر واحدة من الحشرة من الهفوف في ٢٩ نوفمبر ١٩٢٣ .

عائلة الفراشات النجارة COSSIDAE

حشرة (فراشة) *Cossus cheesmani* Tams

نوع جديد من الفراشات (لوحة ٦٦ ، الصورة ٢)

الذكر : الملمس الشفوي أصفر نحاسي مصقول ينتشر تدريجيا للخارج مع لون قاتم . عرق وجزء قرن الاستشعار المشطي مغطى قليلاً بحراشيف بيضاء ، بالكاد اللون البني الزيتوني يختفي من خلال لون الكيوتيكل (جلد الحشرة) . الرأس والصدر والبطن من الناحية البطنية والظهرية لونها أصفر نحاسي مصقول . الأرجل ذات لون أصفر نحاسي مصقول ، الفخذ ذو لون أسمر فاتح يتدرج لأعلى ، الساق الأمامي به ثلاث حزم باهتة غير مميزة ذات لون قاتم متشعع ـ اثنان منها على الثلثين القريبين من محور الجسم ، والأخير يكون مميزاً للطرف الثالث البعيد عن محور الجسم ، كل قطعة رسغية أمامية محاطة عند المنتصف بلون بني زيتوني ؛ الأرجل الوسطى والخلفية بها فقط حلقات ذات آثار طفيفة على القطع الرسغية . الجناح الأمامي أبيض مخضب بلون أصفر يشبه لون الذرة الصفراء وذلك ما بين العرق

الضلعي والحافة العلوية للخلية الضلعية ، ما بين نهاية الخلية الضلعية والطرف ، باستثناء وجود خط أبيض بطول العرق الشرجي (الخلفي) الثاني A2 ، وبين الحافة السفلية للخلية الضلعية (وحتى الفرع الثاني العرق الزندي Cu2) ، والحافة الداخلية للجناح توجد فيما سبق خطوط علامات أكثر منها كشكل شبكي ، خطوط بنية قرنفلية بطول العرق الضلعي ، في نهاية الخلية الضلعية وأسفلها في الثلث القاعدي للجناح ، توجد بقية ثلمات أو خطوط بنية زيتونية ، النصف القاعدي من الخلية الضلعية وبقع أو لطخ ما بين الخطوط قبل المنتصف وقرب النهاية ، وأسفل نهاية الخلية الضلعية غير مخططة أو غير محززة جميعها ، سلسلة خلفية ذات بقع /p.408/ لونها بني زيتوني، عند نهايات العروق تزداد في الحجم من قمة الجناح حتى العرق الشرجي أو الخلفي ، شعيرات بيضاء تتميز عند العروق بآثار ضعيفة من لون أسمر فاتح . الجناح الخلفي أبيض ، وعروق الجناح تبدو كخطوط أثرية باهتة في المناطق التي بها العرق الزندي والعرق الشرجي (الخلفي) ، وعروق الجناح الخلفي مغطاة قليلاً بحراشيف ، أطراف الجناح الخلفية وعند العروق توجد بقع بنية زيتونية باهتة وآثار لهذا اللون أيضًا على الأهداب بالجناح . السطح السفلي للجناح لونه نحاسي أصفر مصقول ؛ الجناح الأمامي به خطوط العرق الضلعي وخطوط طرفية واضحة وجلية ، الجناح الخلفي ذو خطوط أثرية على العرق الضلعي وخطوط أثرية في مناطق العرق الزندي والعرق الشرجي (الخلفي) .

المسافة بين أطراف الأجنحة عند كامل الامتداد ٤٨ ملليمتر .

وصف لنموذج فراشة ذكر (أحد حشرات المجموعة الموصوفة كمرجع للوصف ومن العينة نفسها) : العلامات المميزة ذات لون شاحب ، الخطوط على الحشرة ذات لون بني مصقول مصفر إلى لون غرائي لامع ، نظام الخطوط هذا أكثر شبكية وتتوزع بالتساوي بدرجة أكبر على الجناح الأمامي .

ذكر ين : (حشرة توصف بدقة وتعتبر مرجعًا نموذجيًا ممثلاً للمجموعة وتنشر كبحث) (حشرة توصف ولكن ليست بوضوح السابقة وتحفظ أيضًا) تم الحصول عليهما من يبرين ٢٠٠ ميل إلى الجنوب والجنوب الغربي من الهفوف في ٢٣ فبراير ١٩٢٤ .

هذا النوع من الفراشات النجارة *Cossus cheesmani* تماثل نوع آخر يسمى *Cossus aegyptiaca* Hmpsn. (حفار السوق المصري) ولكن يختلف عنه في الخواص الآتية : الجناح الأمامي والجناح الخلفي أطول وأضيق ، نظام وسمات الخطوط أخف وتظهر أقل في نظامها الشبكي ، الأجنحة الخلفية تقريبا خالية من أية علامات مميزة ، والسطح السفلي به قليل من الخطوط .

الوصف الخاص بفراشة «حفار السوق المصري» *Cossus aegyptiacta* Hmpsn. غالبًا خادع حيث إنه تم الوصف من عينة ملوثة بالشحم بشكل رديء . هذه العينة تم تنظيفها لإمكان عمل مقارنة بالنوع الموصوف هنا ، وفيما يتعلق بإعادة وصف الفراشة المصرية فإن الفرصة لم تكن سانحة أو مناسبة . لقد عزمت على تركها حتى أتمكن من الحصول على شيء كاف وجيد يُمكّن المرء من عمل وصف مُرْضٍ .

عائلة فراشات (الفراشات الصغيرة) PYRALIDAE

تحت عائلة PHYCITINAE

فراشة *Heterographis fulvimarginella* Hmpsn.

تم النشر عن هذه الفراشة في مجلة جمعية بومباي للتاريخ الطبيعي ، العدد ١٥ ، صفحة ٢٣ عام (١٩٠٣) .

تم الحصول على هذه الحشرة بعدد ذكر واحد ، ٣ إناث من الكثبان الرملية للجافورة في ٢٦ فبراير ١٩٢٤ .

وجدت هذه الفراشة بأعداد كبيرة جدًا لدرجة أنها أطفأت مصباح النقيب تشيزمان .

تحت عائلة الثاقبات PYRAUSTINAE

فراشة (ثاقبة قرح النجيليات) *Cornifrons ulceratalis* Led.

نشر عن هذه الفراشة في مجلة تسمى ڤيينا الشهرية لعلم الحشرات Wein. ent. Monat. العدد الثاني ، صفحة ١٤٧ ، لوحة ٤ ، الشكل ١ عام ١٨٥٨ .

تم الحصول على ذكر واحد ، وأنثيين من الهفوف في ٢٩ فبراير ١٩٢٤ .

/p.409/

فراشة *Tegostoma confluentalis* Hmpsn

نشر عن هذه الفراشة في حوليات ومجلة التاريخ الطبيعي (٨) xii ، ٢٩٩ صفحة ، عام ١٩١٣ .

تم الحصول على ذكر واحد وأنثى واحدة من الكثبان الرملية للجافورة في ٢٦ فبراير ١٩٢٤ .

فراشة *Noctuelia avicennae* Tams

يمكن أن تنعت هذه الفراشة باسم فراشة ابن سينا الليلية . هذه الفراشة نوع جديد ، اللوحة ٦٦ ، الصورة ٤ .

الفراشة الذكر : الملامس الشفوية في فم الحشرة ، عزق أو جذع قرن الاستشعار الحرشفي ، وأيضًا رأس وصدر الحشرة الذكر جميعًا ذات لون زيتوني ذو صفرة سمراء . البطن في الحشرة الذكر لونها زيتوني لامع . الحواف والسطح السفلي للبطن ذات لون رمادي مسمر فاتح إلى رمادي مسمر باهت ، أو ذو لون يميل للأبيض المتسخ . الأرجل ذات لون زيتوني مسمر أصفر من أعلى يتخلله لون يميل للبياض . الجناح الأمامي أسمر فاتح يختلط به لون مبهج أصفر مصقول برتقالي ، ويعطيان معا مظهرًا زيتونيًا أصفر برتقاليًا عامًا ، يوجد خط وسطي أسود داكن يبدأ برسم زاوية حادة **V** (على جانب الجناح وعلى قمة قاعدة الجناح ـ الإبط ـ) مع الطرف المستدق للذراع العلوي من الشكل في الزاوية العلوية من الخلية الجناحية وقمة ذراعة السفلي في الزاوية السفلية ، ومن حيث إن الخط يأخذ شكلاً ذا انحناءات منحرفة قليلة ، وينحرف بشدة نحو القاعدة ، ومندمجا في الزاوية مكونًا بقعة أو لطخة بيضاء منقطة ، والتي تصبح مندمجة في اللون العام للجناح ، وخط أسود داكن ما بعد خط الوسط يكون نتوءات ثلاثة مسننة (كنقاط منتهية) في أعلى العرق الوسطى الخلفي الأول M1 ، ومن أسفل ينحني نحو القاعدة (كنهاية محدبة) ناحية العرق الزندي الثاني الخلفي Cu2 ، حيث ينعطف متباعدًا قليلا عن الوسط حتى يصل إلى العرق الشرجي الخلفي A2 ، حيث ينحني بشدة في المؤخرة ويسير أو

يتجه إلى الحافة الداخلية للزاوية اليمنى بالجناح ، الخط بالكامل يبرز على السطح السفلي بلون أبيض، وبصورة أوضح ما بين العرق الضلعي والفرع الثاني الخلفي للعرق الزندي Cu2 ، وخط نهائي فرعي أو ثانوي غير محدد يخرج من القمة ويتفرع قليلا من نهايته ،وتضيع معالمه في مساحة تميل للبياض في هذا الخضم المشتت ، فيما بين الخطين وهما خط ما بعد المنتصف وخط النهاية الفرعي ، فيوجد لون أسمر فاتح ذلك الذي يتخلل الحواف الخلفية الداكنة اللون . الجناح الخلفي زيتوني لامع قليلاً يتخلله لون غامق يزداد ناحية أطراف الجناح ، وتظهر ظلاله متميزة قاتمة محددة عند العرق الزندي الثاني الخلفي Cu2 ، يعلوها شرطة بلون أبيض ويليها لطخة ذات لون زيتوني صفراء مسمرة مع لون أبيض ضئيل أمام اللون الداكن الواقع في الحواف الطرفية بالجناح الخلفي ، الشعيرات أو الأهداب بهذا الجناح مثلها كما في الجناح الأمامي، ولكن الحراشيف الداكنة توجد عند العرق الزندي الثاني الخلفي Cu2 . السطح السفلي لونه زيتوني لامع بشحوب ، وذو آثار لنماذج خطوط على السطح العلوي للجناح ، بالجناح الأمامي آثار للون زيتوني أصفر مسمر بامتداد العرق الضلعي ، ما بين الخلية الضلعية بالجناح والحافة الداخلية للجناح يكون اللون أصفر نحاسيًا لامعًا أو مصقولاً وأيضًا ما بين الخطوط المائلة، الخلية الضلعية والمساحة ما حول طرف الجناح يتخللها لون أسمر فاتح، مجموعة منتظمة من الأشرطة التي تميل للبياض توجد على العروق وبين العروق ، ما قبل الحواف فالأهداب تكون كثيرة على السطح العلوي ، الجناح الخلفي والحافة الضلعية له تكون مخضبة بلون كريمي لامع ، هناك آثار من لون أو ذات لون قاتم للخط ما بعد الوسطى أو خلفها ، وللنهايات والشعيرات . /p.410/

المسافة بين طرفي جناح الحشرة عند كامل الامتداد ٢٢ ملليمتر .

حشرة كاملة ذكر (كحشرة مرجعية للوصف) من منطقة الكثبان الرملية للجافورة في ٢٦ فبراير ١٩٢٤ .

هذه الفراشة السابقة *N. avicennae* قريبة الشبه أو الصلة بحشرة *N. albidalis* Hmpsn. ، والتي وصفت من فراشة أنثى بالية نوعًا ما من Fao . كلا الحشرتين متشابهتان في الحجم ، ولكن أنثى حشرة Fao والتي كانت باهتة أو شاحبة اللون ويبدو أنها فقدت كثيراً من سماتها فلربما تكون عينة قد خبت حيويتها . الرسم أو الشكل التخطيطي لنموذج الفراشة «الليل الصحراوية» *N. desertalis* Hübn يكون مع ذلك لفراشة أضخم أو أكثر ضخامة .

لقد قمت بتسمية «الحفارات» *Cossus* بناءً على تشريف لي من النقيب تشيزمان الذي قام بعملية الجمع هذه . سميت الجنس *Trichoclea* «أي القارضات» على اسم ابن باجة "Avempace" وهو فيلسوف مسلم ولد في سرقسطة ومات في فاس في عام ١١٣٨م .

وسميت الجنس *Noctuelia* على اسم ابن سينا "Avicenna" والذي كانت له شهرته بين المسلمين فيلسوفًا وطبيبًا والذي ترجم أعمالاً لأرسطو وأثر في الفكر الأوروبي خلال القرن الحادي عشر الميلادي . /p.411/

ملحق رقم (٦)

ملاحظات نباتية

قام بها كل من آر . دو . قوود وسي . نورمان

تتكون المجموعة النباتية ، التي جمعها الرائد تشيزمان من الأحساء ، والجافورة، ويبرين وشرق ووسط الجزيرة العربية، وقدمها إلى قسم الأعشاب في المتحف البريطاني، من خمسة وثلاثين نوعًا منها ثلاثة عشر هي عبارة عن نباتات مزروعة ، والاثنان والعشرون الباقية طبيعية (فطرية) . من هذه الأخيرة هناك أربع عشرة ثنائية الفلقة وست أحادية الفلقة والاثنتان الباقيتان هما من نبات السرخس . إحدى هاتين هي (*Adiantum capillus-Veneris* L.)[١] المعروفة جيدًا والمنتشرة في معظم أرجاء العالم بينما الأخرى هي[٢] *Ceratopteris thalictroides* Brongn وهي نبتة بالغة الروعة مع تركيب شاذ . هذه النبتة هي الممثلة الوحيدة لعائلتها وهي مثيرة للاهتمام بشكل خاص بسبب أنها تنمو مغمورة تمامًا في الماء الراكد أو بطيء الجريان. مناطق توزيعها هي في كل المناطق الاستوائية وتمتد أيضًا إلى المناطق شبه الاستوائية . وجدت عينات الرائد تشيزمان في عيون الهفوف الحارة، حيث درجة حرارة الماء دائمًا تحت التسعين فهرنهايت مباشرة . لا يوجد أي سجل آخر لهذه النبتة من بيئة كهذه، كما أن قدرتها على البقاء والتكاثر بقوة في مثل هذه الظروف هو أمر

---

(١) الاسم العربي لهذه النبتة هو كزبرة البئر . انظر :
Ahmad M. Migahid, FLORA OF ASUDI ARABIA, 4th ed. Riyadh: King Saud University press, 1996, vol.1, p.24. (المترجمان)

(٢) لم نجد ذكرًا لاسم هذه النبتة في كتب ومعاجم النبات عن المملكة العربية السعودية . (المترجمان)

بالغ الروعة . لا تحمل عينات الهفوف أي بذور لكن العديد من الفطريات أعطت براعم نباتية على طول الحواف .

تقع النباتات الزهرية أو البذرية ضمن مجموعتين، وأعني بذلك الأنواع واسعة الانتشار في الصحراء أو الأنواع المالحة والنباتات المائية التي تنمو بين الحين والآخر في الواحات . بين هذه الأخيرة نبتة *Orchis palustris*(١) وهي واسعة الانتشار في أوروبا وتوجد أيضًا في شمال أفريقيا والشرق الأقصى، لكن لا يبدو أنها سبق أن سجلت من الجزيرة العربية . القصب المعتاد الموجود في كل مكان *Phragmites* هو أيضًا من معالم هذه الأماكن كما أن السلم *Acacia flava* هي واحدة من الأشجار القليلة هنا .

تشكل النباتات الصحراوية المميزة اثني عشر نوعًا جميعها ثنائية الفلقة . العائلة الأكثر وضوحًا هي العائلة السرمقية أو الرمرامية *Chenopodiaceae* وهي ثلاثة أنواع ، ومن ناحية أخرى فإن العائلة المركبة *Compositae* ممثلة بنوع واحد فقط لكنه من الناحية الاقتصادية /p.412/ هو الأكثر أهمية من نباتات الصحاري . هناك أيضًا نبتتان طفيليتان مثيرتان للاهتمام الأولى منها هي *Phelipaea lutea*(٢) (قريبة إلى حد بعيد لنبات الجعفيل الموجود لدينا) وتعيش على العائلة السرمقية *Chenopodiaceae* إلخ . أما النبتة الثانية فهي *Cynomorium coccineum*(٣) من العائلة الطرثوثية فهي تستغل نفس الضيوف أو النباتات وتنمو هاتين النبتتين الطفيليتين غالبًا قريبًا جدًا من بعضهما وتعيشان تحت ظروف متشابهة بشكل دقيق رغم أنه لا قرابة بينهما تمامًا . نبتة *Calotropis procera*(٤) هي نبتة واسعة الانتشار وربما كانت الأكثر نماءً من بين نباتات الصحراء .

---

(١) الاسم العربي لهذه النبتة هو أم الصبا . انظر : Migahid, Op.Cit, vol.3, p.119 (المترجمان)
(٢) الاسم العربي لهذه النبتة هو الذانون . انظر : Migahid, Ibid, vol.2, p.272 (المترجمان)
(٣) الاسم العربي لهذه النبتة هو الطرثوث . انظر : Migahid, Ibid, vol.2, p.270 (المترجمان)
(٤) الاسم العربي لهذه النبتة هو العشار أو العشر . انظر : Migahid, Ibid, vol. 2, p. 270 (المترجمان)

لكل هذه الأنواع الصحراوية الاثني عشر مناطق توزيع في اتجاه خط عرض عبر المسافات المختلفة فوق سلسلة الصحاري الممتدة من شمال غرب أفريقيا إلى غرب الهند . تغطي نبتة العشار *Calotropis procera* كامل المسافة تقريبًا وتنحدر أيضًا إلى أفريقيا الاستوائية . تمتد نبتة [١] *Rhanterium epapposum* أيضا من شمال أفريقيا إلى بلوشستان . لنبتة الذانون *Phelipaea* منطقة توزيع مماثلة تصل إلى أسبانيا في الشمال الغربي . يمكن بشكل عام تقسيم الأنواع المتبقية طبقًا لأجزاء سلسلة الصحراء التي توجد فيها . وجدت ثلاثة أنواع في الجزء الأوسط واثنان في النصف الشرقي، بينما وجدت أربعة في النصف الغربي . قد يكون هذا التوزيع في الاتجاه العرضي ما هو متوقع من وضع الصحارى والأراضي المالحة، وفي الوقت نفسه فهي مهمة من ناحية ارتباطها مع عنصر افريقي - هندي واضح موجود في نباتات أفريقيا الاستوائية ، وهو عنصر لا يشكل قسمًا غير مناسب من الأشكال التي تنمو في الجفاف .

ما يلي هو قائمة بالنباتات المجموعة مع ملاحظات جامعها ـ آر . دو . قوود :

(١) الاسم العربي لهذه النبتة هو العرفج ، انظر : Migahid, Ibid, vol. 2, p. 272. (المترجمان)

النباتات الطبيعية والمزروعة

النباتات الطبيعية

النباتات البذرية أو الزهرية PHANEROGAMS

العائلة البليحاوية RESEDACEAE

١ـ نبتة *Ochradenus baccatus* Del.

اسم النبتة العربي هو « قرضي» وتوجد في صحراء الجافورة وكانت مزهرة في ١٤ فبراير . عطرية الفروع بارتفاع قدمين وتأكلها الإبل بشراهة وهي نادرة . مناطق التوزيع : مصر ، وفارس، والسند .

العائلة القديسية ZYGOPHYLLACEAE

٢ـ نبتة *Zygophyllum album* L.

اسم النبتة العربي هو «الحمض» أو «الرمث» وتوجد في الأحساء ويبرين . شجيرة ذات أوراق سميكة لينة بارتفاع قدمين وتنمو على الروابي المرتفعة للرمال المتحركة . تأكلها الإبل لكنها غير مناسبة /p.413/ للرحلات عديمة المياه ؛ لأنها تجعل الإبل عطشى . مناطق التوزيع : جزر الكناري شمال أفريقيا ، وسوريا، وآسيا الصغرى .

العائلة البقولية LEGUMINOSAE

٣ـ نبتة *Alhagi Maurorum* Desv.

اسم النبتة العربي هو «شوك شبرام» وتوجد في يبرين . نبتة شوكية منتشرة في غير نظام بارتفاع قدم واحد وتسمى «العاقول» في العراق وتأكلها الإبل . مناطق التوزيع : شمال أفريقيا وسوريا .

٤ـ نبتة *Acacia flava* schweinf.

اسم النبتة العربي هو «السلم» وتوجد في الأحساء ويبرين . أشجار سنط بارتفاع عشرين قدمًا (اللوحة ٥٣) . تنمو في المنخفضات وبطون الأودية وتأكلها الإبل على الرغم من أشواكها الطويلة . مناطق التوزيع : الجزيرة العربية وفارس .

العائلة المركبة COMPOSITAE

٥ـ نبتة *Rhanterium epapposum* Oliv.

اسم النبتة العربي هو «العرفج» وتوجد في الأحساء ويبرين . شجيرة بارتفاع قدمين (اللوحة ٣٠) وهي أكثر النباتات شيوعًا على السهول الحصوية . كانت مزهرة بين ١٢ يناير إلى ١ مارس وتأكلها الإبل . مناطق التوزيع : شمال أفريقيا ، والجزيرة العربية، وبلوشستان .

العائلة الرصاصية PLUMBAGINEAE

٦ـ نبتة [١] *Statice axillaris* Forsk

توجد في العقير . تمتد فروعها لست بوصات وتشبه فروع نبتة الخزامى البحرية المزهرة . كانت مزهرة في مارس ١٩٢١ . مناطق التوزيع : مصر ، وأرض الصومال ، والجزيرة العربية .

العائلة الدفليه APOCYNACEAE

٧ـ نبتة *Rhazya stricta* Decn.

اسم النبتة العربي هو (الحرمل)[٢] . توجد في الجافورة وهي شجيرة بارتفاع قدمين . تشبه في أوراقها ونموها شجرة الأزالية عن بعد وزهرتها صغيرة جداً . كانت مزهرة في ١٦ فبراير والإبل لا تقربها أبداً . مناطق التوزيع : الجزيرة العربية ، وأفغانستان ، والسند .

العائلة العشارية ASCLEPIADACEAE

٨ـ نبتة *Calotropis procera* R. Br.

اسم النبتة العربي هو «العشار» ويقال لها أم الذر . توجد في منطقة الكثبان الرملية بين العقير والهفوف وهي شجيرة بارتفاع عشرة أقدام وهي ذات عصارة

---

(١) الاسم العربي لهذه النبتة هو القطف . انظر :
James s. Mandaville, FLORA of EASTERN SAUDI ARABIA, LONDON AND NEW YORK: KEGAN INTERAATIONAL,1990, PP.110-111, 447 . (المترجمان)

(٢) ورد الاسم العربي لهذه النبتة في النص المترجم عنه هكذا (HAMAL) والصحيح أنه الحرمل .
انظر : Mandaville, Ibid, pp.235, 454 (المترجمان)

حليبية غليظة عندما يكسر غصنها (اللوحة ١٢) . تنتج ثمرة خضراء كبيرة على شكل الكلية وهي ذات لحاء فليني سميك .

العائلة المحمودية CONVOLVULACEAE

٩- نبتة *Convolvulus* sp. nr. lanatus[1]

توجد هذه النبتة في سلوى وهي بارتفاع ست بوصات وذات تويجيات أرجوانية كبيرة . كانت مزهرة في مارس ١٩٢١ .

العائلة الجعفيلية OROBANCHACEAE

١٠- نبتة *Phelipaea lutea* Desf.

اسم النبتة العربي هو «الذانون» وتوجد في الأحساء وهي ذات فرع زهري أصفر مثل نبتة الجعفيل . يبلغ ارتفاعها قدمًا ونصفًا (اللوحة ١١) وتزهر /p.414/ بين ٢ يناير إلى ١ مارس . توجد بوفرة وهي ذات ساق تحت الأرض سميك وعصاري . تتطفل على جذور النبات في الرمال الناعمة وتأكلها الإبل . مناطق التوزيع : أسبانيا ، وشمال أفريقيا إلى الهند .

العائلة السرمقية CHENOPODIACEAE

١١- نبتة *Arthrocnemon fruticosum* Moq.

الاسم العربي لهذه النبتة هو «الغضا» وتوجد في يبرين . هي شجيرات بارتفاع أربعة أقدام تنمو على التلال الرملية الناعمة وتنتمي إلى مجموعة الشجيرات الملحية (اللوحة ٥٧) وتأكلها الإبل . مناطق التوزيع : أمريكا ، وأوروبا ، وشمال أفريقيا ، والجزيرة العربية .

---

(١) الاسم العربي لهذه النبتة هو الرخام أوالبياض . انظر : Migahid, op.cit, vol. 2, p.270 (المترجمان)

١٢ـ نبتة Forsk *Suaeda vermiculata*

الاسم العربي لهذه النبتة هو «السواد» وتوجد في يبرين . هي شجيرة بارتفاع ثلاثة أقدام وتنتمي إلى مجموعة الشجيرات الملحية (اللوحة ٥٠). ذات أوراق سميكة لينة تتراوح ألوانها بين الأصفر إلى الأرجواني الداكن وتأكلها الإبل . مناطق التوزيع: جزر الكناري، وشمال أفريقيا ، ومصر ، والجزيرة العربية .

١٣ـ نبتة Bunge *Seidlitzia Rosmarinus*

الاسم العربي لهذه النبتة هو «الشنان» وتوجد في جنوب يبرين وهي شجيرة بارتفاع ثلاثة إلى خمسة أقدام وتنتمي إلى مجموعة الشجيرات الملحية (اللوحة ٤٩). ذات أوراق سميكة لينة أكثر شحوبًا من «السواد» وتأكلها الإبل . مناطق التوزيع : مصر والجزيرة العربية .

العائلة الراوندية POLYGONACEAE

١٤ـ نبتة L'Herit *Calligonum comosum*

الاسم العربي لهذه النبتة هو «العبل» وتوجد في الأحساء ويبرين . هي شجيرات تمتد في غير انتظام إلى ارتفاع ثمانية أقدام . توجد بوفرة في الكثبان الرملية (اللوحة ٣٥) وزهورها المذكرة عبارة عن كرات قرنفلية أو صفراء ذات زغب، أما زهورها الأنثوية فهي صغيرة وتوجد عادة على أغصان منفصلة وتزهر في شهر فبراير وتأكلها الإبل . مناطق التوزيع : شمال أفريقيا ، والجزيرة العربية، وفارس.

العائلة الطرثوثية BALANOPHOREAE

١٥ـ نبتة *Cynomorium coccineum* L.

الاسم العربي لهذه النبتة هو « الطرثوث» وتوجد في صحاري الأحساء . ذات عنقود زهري أحمر داكن ، وهي ترتفع إلى قدم ونصف ، وزهورها صغيرة جداً (اللوحة ١١) . ذات ساق تحت سطح الأرض كبير وعصارى ، ويأكله البدو كما يباع في الأسواق حيث يشاهد سكان البلدة يقضمونه أثناء تجوالهم . يتطفل الطرثوث على جذور النباتات في الرمال الناعمة ، وهو يزهر في فبراير ومارس . مناطق التوزيع : الإقليم الأوسط ووسط آسيا .

العائلة السحلبية ORCHIDACEAE

١٦ـ نبتة *Orchis palustris* Willd

توجد هذه النبتة (أم الصبا) في عين أم سبعة في الهفوف . فرع زهرتها بارتفاع قدم ونصف وتويجيات الزهرة حمراء بنية شاحبة وأوراقها خضراء غير منقطة ، والعديد من العينات كانت تنمو بين أشجار الأسل الكثيفة . كانت مزهرة في ٢٨ يناير وزهورها ذات رائحة طيبة غير قوية . كان اكتشاف وجود نبتة سحلب في واحة صحراوية تشبه في بعض الأوجه نبتة السحلب الأرجوانية الإنجليزية إحدى مفاجآت الحملة. مناطق التوزيع : القارة الأوروبية ، وشمال أفريقيا ، والشرق

. /p.415/

العائلة السمارية JUNCACEAE

١٧- نبتة *Juncus acutus* L.

توجد هذه النبتة في واحة الهفوف وهي بارتفاع أربعة أقدام . للأوراق السلكية لشجرة الأسل هذه أطراف ذات رؤوس حادة وهي مؤلمة جداً عند المشي عليها . مناطق التوزيع : الأقاليم الحارة .

العائلة السعدية CYPERACEAE

١٨- نبتة *Fimbrystilis,* cf. *ferruginea* Vahl

توجد هذه النبتة في واحة الهفوف وهي بارتفاع أربعة أقدام . كانت مزهرة في ٢ يناير ، وتنمو شجرة الأسل هذه مثل سابقتها حول حقول الأرز وعلى حواف الجداول . أوراقها حادة جداً عند أطرافها وتستعمل في صناعة حصير القصب . مناطق التوزيع : نوع واسع الانتشار .

العائلة النجيلية GRAMINEAE

١٩- نبتة [١] *Dactyloctenium aegyptiacum* Wild

توجد هذه النبتة في واحة الهفوف وهي عشب قصير النمو ، يوجد على حواف قنوات المياه ، وفي الأماكن الرطبة قرب المزروعات . يشبه فرعها الزهري قدم الطائر لكن بثلاثة أصابع .

٢٠- نبتة *Phragmites communis* L.

توجد هذه النبتة في واحة الهفوف بارتفاع ما بين ٧ إلى ٨ أقدام ، وكانت تحمل بذوراً في ٢ يناير . هي قصب ينمو في المناطق المغمورة وعلى أراضي الأرز . تقص

(١) الاسم العربي لهذه النبتة هو البهمه أو رجل الحرباء . انظر : Migahid, Ibid, vol.3, p.118 (المترجمان)

وتحصد وتستعمل بكثافة في صناعة حصير القصب للأرضيات . تصنعها النساء وتشاهد في معظم البيوت . تستخدم السيقان الدقيقة بدون شطرها لعمل حصير أنيق محكم النسيج يباع في شرائط طويلة في الأسواق .

النباتات اللازهرية CRYPTOGAMS

٢١- نبتة *Adiantum capillus-Veneris* L.

توجد هذه النبتة (كزبرة البئر) في واحة الهفوف وهي من عائلة السرخسيات التي تنمو على الضفاف الرطبة لقنوات المياه وتستخدم في بناء الجسور .

٢٢-نبتة *Ceratopteris thalictroides* Brongn.

توجد هذه النبتة في عين أم خريسان في واحة الهفوف، وهي نبتة سرخس مائي ذات لون أخضر فاتح، وهي الممثلة الوحيدة المعروفة لعائلتها . كانت النباتات مغمورة تمامًا في الماء الدافيء للعين ، ذات شكلين مميزين من الأوراق أحدها ممزق الأطراف، وتنمو على أطراف الأوراق نباتات صغيرة كاملة .

شوهد نوعان من شجر السنط، أسماؤها العربية هي «السلم» و «العاقول» وكلتاهما أشجار ، وهي تظهر في الصور لكن لم أحضر عينة معي من شجرة العاقول . تختلف شجرة العاقول في يبرين عن الشجرة الشوكية الصغيرة المسماة العاقول في العراق /p.416/.

النباتات المزروعة

العائلة البقولية LEGUMINOSAE

٢٣ـ نبتة *Cajanus indicus* Spreng[(١)]

توجد هذه النبتة في الهفوف وكانت مزهرة في ٢٠ نوفمبر . هي نبتة ذات زهرة صفراء وتشبه نبتة البيقية وهي ليست وافرة في نوفمبر . تزرع في كل المناطق الاستوائية .

العائلة الحنائية LYTHRACEAE

٢٤ـ نبتة *Lawsonia alba* Lam.

الاسم العربي للنبتة هو « الحناء» وتوجد في الهفوف ولم تكن مزهرة في ١١ نوفمبر . يمكن رؤية صف من شجيرات الحناء بارتفاع خمس أقدام تشبه في شكلها نبتة الليفسطروم في معظم البساتين . تطحن السيقان والأوراق المجففة ويعمل منها معجونًا رقيقًا مع مادة حمضية وتكسى بها أظافر أصابع اليد والقدم ويزال المعجون بعد أن يجف تاركًا خلفه صبغًا بنيًا دائمًا . تعتبر الأظافر الملونة هكذا قمة في التزيين . يشوه العديد من الحمير البيضاء بنقوش حمراء تعمل من الحناء بقصد التزيين . يُعتقد أيضًا أن الحناء يقوي الجلد ويمنع القروح الجلدية التي يسببها السرج . ليست العادة الفارسية في صبغ شعر الرأس واللحية بالحناء الأحمر مفضلة في الجزيرة العربية .

(١) الاسم العربي لهذه النبتة هو البزيلاء الهندية . انظر :
E. Platter, Flora Arabica, Calcutta: Botanical Survey of India, 1919 - 1936, p.173. (المترجمان)

العائلة الخيمية UMBELLIFERAE

٢٥ـ نبتة Anethum graveolens L.

الاسم العربي للنبتة هو «الحلوة» وتوجد في الهفوف وتكون مزهرة في نوفمبر. هي بذور اليانسون ذات الزهور الخيمية الصفراء الصغيرة بارتفاع قدمين. تزرع في معظم البساتين، وهي مرغوبة لمذاقها وكثيراً ما ترش بها تمور الأحساء المشهورة المسماة الخلاص ومن ثم تعبأ.

العائلة الآراكية SALVADORACEAE

٢٦ـ نبتة *Salvadora persica* L.

الاسم العربي لهذه النبتة هو (الأراك)[١] وتوجد في أبو زهمول في العقير. هذه عبارة عن مجموعة من الشجيرات السميكة الكبيرة بارتفاع أربعة إلى خمسة أقدام وتنمو في حقل خرب. تقص منها أعواد لتنظيف الأسنان. لما كان هذا هو الموقع الوحيد الذي شوهدت فيه هذه النبتة فقد افترضت أنها زرعت هناك وقتًا ما. يذكر فيلبي أنها موجودة في وادي الدواسر. مناطق التوزيع: شمال أفريقيا الاستوائية، والجزيرة العربية، وفارس، والسند، وسريلانكا.

العائلة الباذنجانية SOLANACEAE

٢٧ـ نبتة *Withania somnifera* Dun [٢]

توجد هذه النبتة في بساتين الهفوف وكانت مزهرة في ٢٨ نوفمبر. ترتفع ثلاثة أقدام ومن المحتمل أنها تستخدم لأغراض طبية. مناطق التوزيع: منطقة البحر المتوسط، وجنوب أفريقيا الاستوائية، والجزيرة العربية، وفارس، والهند /p.417/.

---

(١) ورد الاسم العربي لهذه النبتة في النص المترجم عنه هكذا (Raka) والصحيح هو الأراك: انظر: Migahid, op.cit, vol.1, p.244. (المترجمان)

(٢) الاسم العربي لهذه النبتة هو سم الفار أو سم الفرخ وتسمى أيضًا حمل بلبول. انظر: Migahid, Ibid, vol. 3, p.273 (المترجمان)
وانظر أيضاً: Mandaville, op.cit, pp. 242, 453 (المترجمان)

العائلة الشفوية LABIATAE

٢٨ـ نبتة *Ocimum basilicum* L.(١)

توجد هذه النبتة في بساتين الهفوف بارتفاع قدمين وكانت مزهرة في ٢٥ نوفمبر، تشبه نبتة الزعتر وذات رائحة مماثلة ويقال أنها تزرع لأن النساء تحبذها .

العائلة الشبيه NYCTAGINEAE

٢٩ـ نبتة *Mirabilis Jalapa* L.(٢)

توجد هذه النبتة في بساتين الهفوف وكانت مزهرة في ٢٨ نوفمبر . زهرتها صغيرة قرمزية تشبه شكل البوق .

العائلة النرجسية AMARANTHACEAE

٣٠ـ نبتة *Digera arvensis* Forsk(٣)

توجد في الهفوف وهي نبتة قصيرة غير ذات شأن ومن المحتمل أنها عشبة ضارة تنمو بين المزرعات . مناطق التوزيع : أفريقيا الاستوائية إلى الهند .

---

(١) الاسم العربي لهذه النبتة هو الريحان . انظر : Migahid, op. cit, vol.2, p.272 (المترجمان)
(٢) الاسم العربي لهذه النبتة هو شب الليل . انظر : Migahid, Ibid, vol.1, p.243 (المترجمان)
(٣) الاسم العربي [illegible] النبتة هو [illegible]جر . انظر E.Platter, op.cit, p.397 (المترجمان)

العائلة النجيلية GRAMINEAE

٣١- نبتة *Phalaris minor* Retz.[(١)]

الاسم العربي لهذه النبتة هو (الرشاد أو شعير الفار) وتوجد في حقول الذرة في الهفوف، وكانت مزهرة في ٣ فبراير . تسمى النبتة (حب الطير) ، ومن المحتمل أنها تنمو كعشبة في حقول القمح المروية . كانت تلتقط وتقدم كعلف أخضر للحيوانات . مناطق التوزيع : اليونان ،والشرق، وجنوب أفريقيا .

٣٢- نبتة *Triticum durum* Steud

انظر *T. vulgare*

٣٣- نبتة *Triticum vulgare* Vill.

توجد هذه النبتة (القمح) في الهفوف ، وهي ذات قش قوي جيد أخضر داكن بارتفاع ثلاثة أقدام وست بوصات . يبدأ موسم بذر القمح عمومًا في نهاية نوفمبر، وتبدأ السنابل في الظهور في ٣ فبراير . تمت مشاهدة العديد من حقول القمح ذي الحسك من النوعين السابقين في واحة الأحساء، لكن المنطقة المزروعة بالقمح ليست كبيرة رغم أنه المحصول الشتوي الوحيد . لا يزرع الشعير هنا وقد بحثت عنه في الواحة بلا كلل، ووجدت فقط حالة واحدة لشعير مبذور في أجمات صغيرة حول رقعة برسيم صغيرة . يبذر القمح أحيانًا في حقول الأرز التي تجفف بين فترات محاصيل الأرز .

---

(١) ورد الاسم العربي لهذه النبتة في النص المترجم عنه هكذا (Reshadi) والصحيح أنه الرشاد أو شعير الفار . انظر : Migahid, op.cit, vol.3, p.119 (المترجمان)
ويذكر الأستاذ الدكتور عبدالله أحمد الطاهر من قسم الجغرافيا بجامعة الملك سعود أن الاسم المحلي لهذه النبتة في الأحساء هو الرشيدي . (المترجمان)

عينات تجارية من أنواع القمح المزروع محليًا من سوق الهفوف .

١ـ **قمح** *Triticum vulgare*

الاسم العربي لهذا النوع من القمح هو «السعيدية» وهو مثل جيد جداً لقمح صلب يعتنى بزراعته . يعتبر الأفضل والأعلى ثمنا في السوق .

٢ـ **القمح من الدرجة الثانية** : الاسم العربي لهذا النوع هو «كودلة» وهو عبارة عن خليط من نوعي القمح *Triticum durum* و *Triticum vulgare* ويضاف إليه تسعة بالمائة من شعير رفيع ذي حبة صغيرة . يجلب هذا سعراً أقل من النوع الأول ./p.418/

٣٤ـ **نبتة** *Pennisetumn dichotomum* Del.

هي نبتة دخن ذيل الثعلب الصغيرة . ذات سيقان بارتفاع ثلاثة أقدام وتنمو حول رقع البرسيم .

٣٥ـ **نبتة** *Oryza sativa* L.

هي نبتة الأرز وتوجد في واحة الهفوف . كان الأرز يقص ويحصد في ٢٣ نوفمبر وهو لا يعتبر ذا نوعية جيدة ويأكله الفلاحون . يستورد أفضل أنواع الأرز من الهند . توجد حقول الأرز في مناطق واسعة على الأراضي المنخفضة عند نهاية القنوات المائية بينما تنمو أشجار النخيل حول الضفاف العالية المحيطة .

٣٦ـ **نبتة** *Cordia Myxa* L. Var.[١]

هذه شجرة بارتفاع عشرين قدما .

---

(١) الاسم العربي لهذه الشجرة هو دبك أو قلصاص . انظر : Migahid, Ibid, vol.2, p.270 (المترجمان)

شاهدت في واحة الهفوف أيضًا عينات من أشجار هندية ، مثل اللوز الهندي (*Terminalia Catappa* L.) «الليلك الفارسي» (*Melia Azedarach* L.) ونبتة زيت الخروع (*Ricinus communis* L.) التي تنمو كأشجار زينة في بساتين الأثرياء كما شاهدت بعضًا من أشجار الصفصاف العادي (*Salix*) . تنمو شجرة الأثل (*Tamarix macrocarpa*) الطويلة الرشيقة التي يصل ارتفاعها إلى أربعين قدمًا في كل مكان من واحتي الأحساء ويبرين . تستخدم أخشابها في البناء حيث تقطع إلى ألواح للأبواب ويصنع منها في الرياض زبديات يستخدمها البدو لشرب الحليب .

شاهدت أيضًا شجرة *Zizyphus Spina- Christi* Willd التي تسمى بالعربية «السدرة» أو «النبق» وهي أشجار كبيرة بارتفاع ثلاثين قدمًا . تزرع قرب رافعات الماء ، حيث توفر أغصانها وأوراقها الكثيفة الظل للإنسان والحيوان العاملين على البكرات ، كما تؤكل ثمرتها الجافة التي تشبه البرقوق . سبق أن أشرت إلى الأنواع المختلفة من التمور التي تنمو في الأحساء في فصل سابق .

تزدهر أشجار البرتقال والليمون والأترنج وكذلك شجيرات الرمان وهي جميعًا وافرة ، أما أشجار التوت فهي ليست بنفس الكثرة .

خضروات تمت مشاهدتها :

البصل وتغرس شتلاته في ٢٠ نوفمبر ، السبانخ ويسمى بالعربية «سلْق» وهو في الواقع نوع من شمندر الماشية ، والباذنجان ويكون مزهرًا ومثمرًا طوال فصل الشتاء في البساتين المحمية وهو أمر ليس ممكنًا في العراق بسبب الصقيع ، وأصابع السيدة (البامية بالعربية) وهي تجنى أيضًا في فصل الشتاء ، والفجل وهو صغير مستدير أحمر شوهد يباع لأول مرة في ٢٣ ديسمبر كما كان ذلك الوقت هو موسم الجزر . تزرع حبوب صغيرة تشبه الفاصوليا (اللوبيا بالعربية) في فصل الصيف وتخزن لفصل الشتاء وكثيرًا ما أكلتها مطحونة .

لا يزرع الزعفران محليًا ، ولكنني وجدت كمية في علب قصدير تباع في السوق، وتستورد من أسبانيا عن طريق وكيل في بومباي . يستعمل الزعفران لإعطاء نكهة للقهوة كما أن النساء يصبغن جباههن به . يصنع الزعفران الأوروبي من زهرة صفراء اسمها الفارسي «الزعفران» /p.419/ . يصنع الزعفران غير الأصلي من نبتة صفراء تشبه النباتات الشوكية هي *Carthamus tinctorius* ، والتي يوجد منها عينات في المتحف البريطاني جلبت من مسقط .

كانت نباتات القطن مزهرة وكرات القطن متفتحة في ديسمبر . كان القطن من النوع قصير التيلة وخيوطه رديئة، لكنه ليس الوقت المناسب من العام لنقده إذ إنه قد تكون النوعية أفضل في فصل الصيف . كانت زهور القطن صفراء شاحبة والتويجيات قرنفلية على الأطراف ، كما يتراوح ارتفاع النبتة بين ثلاثة إلى أربعة أقدام. تشاهد هنا وهناك صفوف غير متراصة من النبتات على غير نظام كما أن النمو ليس قويًا . من الممكن احتمالاً إنتاج قطن جيد مع شيء من العناية لكن المنطقة التي يمكن زراعتها بالقطن ستكون غير كافية لإنتاج قطن يفوق احتياجات السوق المحلية . معظم الأرض المزروعة بالقطن مظللة بأشجار النخيل ويحصل المحصول على قدر غير كاف من أشعة الشمس .

كانت حبات الأترنج الضخمة تجمع وتباع في السوق في ٢٣ ديسمبر، بينما كان البرتقال قد جمع وانتهى موسمه عندما وصلت في ٢٠ نوفمبر .

كانت مساكب البطيخ تبذر في ٣١ يناير ويختار لها الأماكن المحمية أكثر حيث تسمح أعداد النخيل القليلة لأشعة الشمس بالوصول إلى الأرض .

قائمة بثمانية نباتات أشار الدليل من قبيلة آل مرة إلى أنها موجودة في منطقة مقينمة في الرمال أو في وسط الصحراء الجنوبية العظيمة .

ثلاثة أسماء تم تعريفها بأسمائها العربية في ملحق كتاب «قلب جزيرة العرب» «*Heart of Arabia*» .

زهر : *Tribulus alatus* Del. من العائلة السرمقية (Zygophyllaceae)

عندب : شوهدت أيضًا في الجافورة وهي نوع من العشب مقاوم للجفاف .

سبط : من العائلة النجيلية .

جمين ؟

حاذ : وهي من العائلة السرمقية (Chenopodiaceae)

علقي : ؟

حلب : ؟

بركان : ؟ /p.420/

ملحق رقم (٧)
ملاحظات جيولوجية

ملاحظات على صخور جمعها الرائد آر . إي . تشيزمان في وسط الجزيرة العربية ، كتبها دبليو . كامبل سميث .

معظم الصخور التي جمعها الرائد تشيزمان هي أحجار جيرية رملية بيضاء ، أو على الأصح أحجار رملية جيرية ، مكونة من حوالي ٥٠٪ من رمل ـ مرو (الكوارتز) ذي حبيبات مزواة ناعمة جدًا في أرضية جيرية داكنة . تتغير النسبة الفعلية للرمل ـ المرو (الكوارتز) من مكان إلى آخر . تحتوي بعض الطبقات على حصيات صغيرة قطرها ربع بوصة تقريبًا .

يظهر هذا الحجر الرملي الجيري الأبيض أولاً في المنطقة المجاورة للهفوف ، وقد جمعت عينات من جبل أبو غنيمة ، ومن جبل قاره على بعد تسعة أميال شمال غرب الهفوف . وجد أنها أبعد جنوبًا تشكل جبل الحرملية وجبل خرما زرنوقة في سهل الجافورة .

يظهر حجر رملي جيري أبيض شبيه تمامًا مرة ثانية مشكلاً قمة جبل يبرين الوسطى (الأوسط)جنوب شرق واحة يبرين ويظهر أنها تشكل معظم جبل جوامر أيضًا . تظهر الصور ـ التي أخذها الرائد تشيزمان للطبقات البارزة من الصخور فوق سطح الأرض ـ أن التطبق أفقي تقريبًا وهو مفصول من الصخور المنكشفة شمالاً بسهول حصوية واسعة . تبدو قرب جبل جوامر مبطنة بطبقات رملية ملحية أحيانًا ،

فمثلاً المادة المقذوفة من بئر تقع على بعد ميل واحد جنوب جبل جوامر هي عبارة عن حجر رملي رمادي سهل التفتت، وهناك في جبل جوامر نفسه يوجد رمل أبيض وقرنفلي ضارب للصفرة يقوم الملح فيه بدور الإسمنت مكونًا حجرًا صلبًا يتفتت في الماء إلى رمل ناعم .

لسوء الحظ لم يحتو الحجر الرملي على أية أحافير باستثناء عينة واحدة من مرجان نجمي من سهل الحرملية والتي حل فيها العقيق الأبيض محل كربونات الكالسيوم، مما أدى إلى إزالة كلية تقريبًا لكل أثر للتركيب وجعل من غير الممكن التعرف على الأحفورة .

إلى حد ما ، فإن الخصائص الصخرية لهذا /p.421/الحجر الرملي الجيري قد تتفق مع وصف جي. إي. بلجرم[1] للأحجار الجيرية البيضاء في جزيرة البحرين والتي تنسب للأيوسين (لوتتين) ويأتي بعض الدعم لهذا الافتراض من وجود كتل ضخمة من العقيق الأبيض على سهل الحرملية والتي قد تكون من الحجر الجيري .

من ناحية أخرى فإنه يمكن القيام بمقارنات دقيقة مع الأحجار الرملية الجيرية التي وجدها دبليو. كي. لوفتوس في مشهد علي أقرب بحر النجف إلي الغرب من نهر الفرات، وضمنها في سلسلته الجبسية وهي التي تقابل سلسلة فارس (ميوسين) في تصنيف بلجرم .

توجد بعض عينات لوفتوس من الأحجار الرملية الجيرية ضمن مجموعات المتحف البريطاني وشبهها بالتأكيد كبير جدًا لصخور الرائد تشيزمان في جبل أبو

---

(١) بلجرم (جي. إي) «جيولوجية الخليج الفارسي (العربي) والأجزاء المتاخمة من فارس والجزيرة العربية»، مذكرات المسح الجيولوجي للهند، المجلد ٣٤، القسم ٤، ١٩٠٨ .

(1) Pilgrim (G.E.), "The Geology of the Persian Gulf and the adjoining portions of persia and Arabia", *Memoirs of the Geological survey of India,* vol. xxx IV. Part 4, 1908 .

غنيمة . لسوء الحظ ليس هناك من عينات في متناول اليد من جزيرة البحرين للقيام بمقارنة، وفي غياب المتحجرات فإن أي محاولة لاقتراح الأفق الذي تمثله هذه الصخور يبقي مجرد تخمين .

سبقت الإشارة سابقًا إلى سهول حصوية واسعة تفصل منطقتي الحجر الجيري للهفوف ويبرين . يمتد الحصى من الحرملية في صحراء الجافورة عبر سهل سراميد و(جنوب وادي السهباء) إلى قمة جبل العاقولة والذي يظهر خلفه ثانية الحجارة الرملية الجيرية البيضاء .

تحوي أية مجموعة من أي مكان على أنواع عديدة مختلفة من الحصيات لكن الأنواع نفسها ممثلة في كل الأماكن .

يمكن تصنيف معظم الحصيات التي جمعها الرائد تشيزمان كما يلي تبعًا للوفرة في مجموعته :

١- أحجار جيرية مدمجة ذات لون بني مصفر مع علامات شجرية دقيقة .
٢- مرو (كوارتز) أبيض وغير شفاف في الجزء الأعظم منه .
٣- رماد بركاني أخضر باهت أبيدوي متسلكن .
٤- ريوليت أسود محزم .
٥- صخر اردوازي أزرق رمادي ومن المحتمل أنه رماد بركاني .
٦- يشب .
٧- كسر صغيرة إلى أقصى حد في (أ) مرو (كوارتز) بوفيري أحمر و(ب) جرانيت ذي حبيبات دقيقة .

يبدو أن المصدر المباشر لهذه الحصيات هو مدملك (كنجلوميرت) تفكك بواسطة التعرية إلى حصيات في أماكن عديدة . وجد الرائد تشيزمان مدملك (كنجلوميرت) رملي وجيري بشكل طفيف مكون من حصيات/p.422/ مرو (كوارتز)

وحجر جير تحت الحصيات المفككة في صحراء الجافورة . وجد مدملك آخر ذا أرضية جيرية بيضاء صلبة وحصيات مسطحة مستديرة كثيرة من حجر كلسي صفراوي مدمج في بطن وادي السهباء . يحتوي هذا على حصيات مصقولة بالماء من الأنواع الثلاثة المذكورة سابقًا على الأقل . إذا كان هناك طبقة كبيرة من مدملك يقع تحت السهول الحصوية فإن تحللها بسهولة سيزودنا بالحصيات ، أما المواد الأكثر رقة فتذروها الرياح والذوبان . لا نعلم المصدر الأصلي للحصيات التي مضت لتشكل المدملك لكن قد نخاطر ثانية ونخمن أن ذلك حدث في عصر ترسب المدملك ذاته . تطورت المدملكات في جنوب غرب فارس والعراق بشكل قوي وتصل إلى سمك ألف قدم أحيانًا وهي مميزة بشكل بارز بحصيات شرت حمراء وخضراء وحجر كلسي . تشكل هذه المدملكات مع بعض طبقات الصخر الرملي الخشن سلسلة البختياري لدى بلجرم والتي يعتقد أنها تعود إلى عصر البليوسين وتعلو بمضيق سلسلة فارس (الميوسين) . لاحظ لوفتوس[١] هذه الكتل عند نهر الفرات ووضعها في الجزء الأعلى .

لسوء الحظ لم يحتفظ بعينات من المدملكات في مجموعته في المتحف البريطاني لكنه أعطى سجلاً ممتازًا لتشكيلة الحصيات الموجودة في هذه الأماكن ومقارنة قوائمه مع تلك المقدمة السابقة تظهر تشابهًا كبيرًا جدًا .

سجل من الإسكندرية[٢] (خان الإسكندرية) بين بغداد والحلة ، سبعة عشر نوعًا من الحصيات والتي قد نذكر منها :

١ . مرو أبيض محمر مصفر وحليبي ـ أبيض .

---

(١) لوفتوس (دبليو . كي .) المجلة الفصلية للجمعية الجيولوجية ، ١٨٥٥ ، الجزء ١١ ، ص ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٢) الإسكندرية هي بلدة تقع جنوب بغداد في منتصف الطريق إلى الحلة ، وكانت محطة للقوافل بين المدينتين ، وأخذ خان الإسكندرية اسمه من اسم والي بغداد المشهور في منتصف القرن ١٦ اسكندر وهي في الوقت الحاضر بلدة كبيرة ويمر بها خط سكة حديد بغداد ـ البصرة . نقلاً عن الدكتور عبداللطيف ناصر الحميدان من قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الملك سعود . عن الأسكندرية انظر أيضًا : لوريمر ، دليل الخليج ، القسم الجغرافي ، جـ٧ ، ص ٢٣٧٩ . (المترجمان)

٦ . ظر من ألوان مختلفة من الرمادي إلى الأسود تقريبًا .
٧ . ظر أخضر فاتح يقترب من اليشب .
٩ . يشب أحمر بشكل رئيس وذي عروق بنية .
١٠ . حجر رملي شمعي قاس ضارب إلى البياض ، وأخضر ، ورمادي ، وأزرق ـ وأسود وتقترتب بعض النوعيات من الرخام .
١٢ . اردواز صواني من الرمادي إلى الأسود .
١٣ . جرانيت من نوعية ذات حبيبات دقيقة : لون رمادي مخضر (نادر جدًا) .

مرة ثانية ومن عقرقوف (عقار قوف)[١] على بعد ١٢ ميلاً شمال غرب بغداد يعطي التقرير التالي عن الحصيات في سهل «حصوي» هناك : «مثل الحصيات نفسها في الإسكندرية ماعدا تلك المذكورة في القائمة على أساس أنها نادرة /p.423/ :

« بالإضافة إلى ذلك فقد جمعت الآتي :
- جرانيت قرنفلي ـ قليلاً ـ مكون من مرو (كوارتز) ، فلسبار وأكسيد الحديد (نادر) .
- حجر بوفيري (؟) واحد
- حجر جيري مدمج بني فاتح مع عروق من السربنتين .
- العديد من حصيات المرو ، واليشب ، والظر ، والحجر الجيري ، وشكلها مسطح لدرجة أنها قد تؤخذ خطأ عند النظرة الأولى على أنها نقود معدنية .

(١) عقرقوف هو موقع على بعد ٣٠ ميلاً إلى الغرب من بغداد على نهر عيسى ويوجد فيه منخفض تتجمع فيه المياه يعرف بهور عقرقوف ، ويشتهر الموقع بوجود أثر لبقايا معبد قديم يعود إلى العهد الكيشي منذ القرن ١٥ ق.م وتسميه العامة قصر نمرود . نقلاً عن الدكتور عبداللطيف ناصر الحميدان من قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الملك سعود . عن عقرقوف أيضًا انظر : تافر نييه ، العراق في القرن السابع عشر ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بغداد : مطبوعات جمعية الرابطة الثقافية ، ١٩٤٤ ، ص ص٨٦ـ٨٧ . وأيضًا الملحق رقم ١٩ من نفس الكتاب ، ص ص ١٥٢ ـ ١٥٤ . (المترجمان)

«هذه نسب مئوية تقديرية للحصيات التي وجدت في الأسكندرية وعقرقوف :

المرو (كوارتز) ٣٠

ظر ، صوان ويشب ، ٤٠

حجر جيري ، وحجر رملي ، واردواز صواني ، وسربنتين ، وحجر بوفيري(؟) جرانيت ، وحجر جيري نيموليتي ومرجاني ، ٣٠»

مما يسمح بتعرفات محتملة للريوليتان السوداء والأرمدة البركانية الخضراء الفاتحة على أنها ظر أسود وأخضر ، فإن كل أنواع الحصيات التي جمعها الرائد تشيزمان في الجافورة تبدو موجودة أيضًا في المدملكات التي وصفها لوفتوس في العراق ويبدو محتملاً جداً أن مدملكات الجافورة قد تنتمي إلى سلسلة البختياري (البليوسين) . إذا كان هذا هو الحال فإن الاقتراح بأن الحجارة الرملية الجيرية البيضاء تمثل قسمًا من سلسلة فارس تصبح أكثر احتمالاً ، ولنا أن نتصور احتمالاً أن المدملك محتل طية مقعرة ضحلة ، أو منخفضًا وتعلو الحجارة الرملية الجيرية التي تنكشف إلى الشمال والجنوب منها .

أشار الرائد تشيزمان إلى حقيقة أنه جمع حصية جرانيت وحيدة ومتحللة كثيرًا من الرمل المقذوف خارج بئر على بعد ميل من جبل جوامر . هي عبارة عن صخرة جرانيت قرنفلية ، حجم بلوراتها مليمتر واحد وهي متحللة كثيراً ومعروفة بالمرو ومشربة بآثار من أكسيدات المنجنيز . إن وجودها وحيدة في الرمال هو أمر غريب ، لكن وجدت حصيات صغيرة مصدرها الصخور الجرانيتية على السهول الحصوية ، وسجل لوفتوس وجودها في المدملكات على نهر الفرات ويجب أن نعزو كسرة الجرانيت هذه إلى مصدر مماثل للحصى . تبدو على أية حال قطعة جرانيت بالغة الرداءة لتكون قد استخدمت مطلقًا في البناء أو الزخرفة .

لابد أيضًا من الإشارة إلى الأمثلة العديدة الجميلة للحصيات المحفورة ـ المسماة ريلنستين *Rillensteine* من قبل بعض المؤلفين الألمان ، والتي تنتج هنا كما في مناطق الصحاري الأخرى من حصيات الحجر الجيري . يكون العديد من حصيات الحجر الجيري من كل الأشكال والأحجام مثلمة بشكل رقيق بقنوات تحلل صغيرة /p.424/ تظهر كل تغير في الشكل من الأنواع المستقيمة تقريبًا إلى الأشكال المعقدة التي تذكر بتلافيف المخ الإنساني . من الملاحظ أن هذه الأنماط المثلمة موجودة فقط على حصيات الحجر الجيري ، وأنها تغطي سطح الحجر كاملاً حتى ولو كان مطموراً بعمق في الرمل . يظهر بعضها الذي تعرض للرياح كيف أن الرمل الذي تذروه الرياح قد بدأ يهذب أطراف الثلم ، وبدأ تطور التسطيح المعروف جيداً في الحصيات المسطحة أو الدريكاني (*Dreikante*) للصحاري الرملية .

طبقًا لچي . والثر الذي قام بدراسة مستفيضة للظروف الصحراوية ، فإن الحفر في حصيات الحجر الجيري يأخذ مكانه في التربة حيث تصبح الذوبانات السطحية مركزة . توجد الحصيات المحفورة على عمق عشرة إلى عشرين سنتيمتراً فقط وتأخذ طريقها تدريجيًا إلى السطح حيث قد تحافظ على سطوحها المزخرفة بدون تلف تقريبًا لفترات طويلة إلا إذا تعرضت لرمل ذرته الرياح .

قائمة بعينات الرائد تشيزمان

الموقع	تاريخ أخذ العينة	العينة
جبل أبو غنيمة ، الهفوف	ــــ	حجر رملي جيري أبيض
جبل قاره ، تسعة أميال شمال الهفوف	٢٣ـ١١ـ١٩٢٣	حجر رملي جيري أبيض
٥١٦٤ . ١٦ . جبل الحرملية	ــــ	حجر رملي جيري أبيض
٨ .	ــــ	مرجان نجمي متسلكن
٨ . سهل الحرملية	١٤ـ٢ـ١٩٢٤	حصيات حجر جيري محفور ومصقول بالريح
٥١٦٥ . ٨ . ١٠ . سهل سراميد	ــــ ــــ	ــــ حصيات مصقولة بالريح . مرو (كوارتز) أبيض « الحجر المتحرك» رمل مع حصيات
١٥ . بطن وادي السهباء، ٦ بوصات تحت رمل البطن الحالي	١٥ـ٢ـ١٩٢٤	مصقول بالماء حصية مرو(كوارتزيت)
١١ . جبل العاقولة	١٨ـ٢ـ١٩٢٤	من لبنة طين في قلعة خربة حجر رملي جيري أبيض

الموقع	تاريخ أخذ العينة	العينة
جبل يبرين الوسطى (الأوسط) ، جنوب شرق منطقة نخيل يبرين . أنقاض مفككة	١٩٢٤-٢-٢٠	/p.425/ حجر رملي جيري أبيض
٥١٦٥ . ٣. نفس المكان	ـــ	حجر رملي جيري أبيض
١٢ . جبل جوامر	ـــ	رمل أبيض وقرنفلي
٧. جوامر . تحت الحجر الرملي الجيري	ـــ	مسمت بالملح (١) رمل رمادي مفكك
٤ . حفرية لبئر متهالكة على بعد ميل جنوب جبل جوامر، ويبرين ، وقرب قلعة خربة .	ـــ	(٢) حصية من حجر رملي جيري (٣) حصية جرانيت بالغة التحلل وذات حبيبات دقيقة . حصيات محفورة
١٤ . قمة جبل العاقولة	١٩٢٤-٢-٢٤	ومصقولة بفعل الريح من أنواع مختلفة
١٣ . بطن وادي السهباء	١٩٢٤-٢-٢٥	مدملك أبيض صلب مع حصيات حجر جيري مصقولة بفعل الماء (١) حصيات صغيرة

الموقع	تاريخ أخذ العينة	العينة
٥. صحراء الجافورة	١٩٢٤-٢-٢٥	محفورة ومصقولة بفعل الريح من أنواع مختلفة (٢) حصية كبيرة من حجر جيري (٣) عقدة صغيرة شاحبة- رملية من العقيق الأبيض مدملك سهل التفتت مع
٩. صحراء الجافورة	١٩٢٤-٢-٢٦	حصيات مصقولة بالماء. حجر رملي جيري أبيض /p.426/
٢. جبل خرما زرنوقة	١٩٢٤-٢-٢٩	

ملحق رقم (٨)

سجل الأرصاد الجوية

(درجة حرارة الظل إلا إذا ذكر غير ذلك ، مقياس الحرارة هو الفهرنهايت)

التاريخ	المكان	الوقت	درجة الحرارة	الضغط الجوي
١٧ـ١١ـ١٩٢٣	العقير	٣,٥٠ بعد الظهر توقيت جرينتش	٧٢°	٣٠,٢
١٨ـ١١ـ١٩٢٣	العقير	عند شروق الشمس ،	٦٠°	٣٠,١٥
		عند الظهر بالتوقيت المحلي	٧٨°	–
٢٢ـ١١ـ١٩٢٣	الهفوف	عند الظهر بالتوقيت المحلي	٧١°	٢٩,٦٨
٢٤ـ١١ـ١٩٢٣	الهفوف	بعد ساعة من شروق الشمس ،	٦٩°	–
		ثلاث ساعات بعد غروب الشمس	٦٩°	–
٢٥ـ١١ـ١٩٢٣	الهفوف	عند الظهر بالتوقيت المحلي ،	٧٠°	–
		في الشمس في نفس الوقت	٨٤°	–
٢٧ـ١١ـ١٩٢٣	الهفوف	عند شروق الشمس	٦٧°	٢٩,٦٧
٢٨ـ١١ـ١٩٢٣	الهفوف	عند شروق الشمس ،	٦٢°	–
		عند الساعة ٨ مساءً بالتوقيت المحلي	٦٤°	–
٢٩ـ١١ـ١٩٢٣	الهفوف	عند شروق الشمس	٦١°	–
١ ـ١٢ـ١٩٢٣	الهفوف	عند شروق الشمس	٥٤°	٢٨,٠٠
٢ ـ١٢ـ١٩٢٣	الهفوف	عند شروق الشمس	٦٠°	–
٣ ـ١٢ـ١٩٢٣	الهفوف	عند الظهر بالتوقيت المحلي ،	٧٧°	–
		في الشمس في نفس الوقت	٩٢°	–
٦ ـ١٢ـ١٩٢٣	الهفوف	عند شروق الشمس	٥٩°	–

التاريخ	المكان	الوقت	درجة الحرارة	الضغط الجوي
٧ ـ١٢ـ١٩٢٣	الهفوف	عند شروق الشمس	٦٦°	٢٩,٦٤
٩ ـ١٢ـ١٩٢٣	الهفوف	عند شرق الشمس	٥٩°	٢٩,٨
١٠ـ١٢ـ١٩٢٣	الهفوف	عند الظهر بالتوقيت المحلي ،	٧٤°	–
		في الشمس في نفس الوقت	٨٥°	–
١٢ـ١٢ـ١٩٢٣	الهفوف	عند شروق الشمس	٦٠°	–
١٣ـ١٢ـ١٩٢٣	الهفوف	عند الساعة ١٠ , ٤ بتوقيت جرينتش	–	٢٩,٦
١٤ـ١٢ـ١٩٢٣	الهفوف	بعد ساعة من غروب الشمس	–	٢٩,٧
١٥ـ١٢ـ١٩٢٣	الهفوف	عند الظهر بالتوقيت المحلي	٧٣°	–
		في الشمس في نفس الوقت	٨٥°	–
١٨ـ١٢ـ١٩٢٣	الهفوف	عند شروق الشمس	٥٨°	–
٢٠ـ١٢ـ١٩٢٣	الهفوف	عند الظهر بالتوقيت المحلي	٧١°	٢٩,٧٥
٢١ـ١٢ـ١٩٢٣	الهفوف	عند شروق الشمس	٥٢°	–
٢٢ـ١٢ـ١٩٢٣	الهفوف	عند شروق الشمس	٥١°	–
٢٥ـ١٢ـ١٩٢٣	الهفوف	عند الظهر بالتوقيت المحلي	٦٦°	–
		الساعة الثامنة مساءً بالتوقيت المحلي	٦٥°	–
٢٦ـ١٢ـ١٩٢٣	الهفوف	عند شروق الشمس	٥٥°	–
٢٨ـ١٢ـ١٩٢٣	الهفوف	عند شروق الشمس	٥٠°	٢٩,٨
٦ ـ ١ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	٥٣°	–
٨ ـ ١ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	٥٤°	–
١٠ـ ١ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	٦٢°	٢٩,٦٥
١٤ـ ١ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	٦٢°	٢٩,٦ /p.427
١٥ـ ١ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	٥٥°	٢٩,٦

التاريخ	المكان	الوقت	درجة الحرارة	الضغط الجوي
١٦ـ ١ ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	°٤٨	–
		عند الظهر بالتوقيت المحلي	°٦٤	–
١٧ـ ١ ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	°٥٠	–
١٨ـ ١ ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	°٥٣	–
١٩ـ ١ ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	°٤٩	–
٢٠ـ ١ ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	°٤٩	–
٢١ـ ١ ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	°٥٦	٢٩,٧
٢٢ـ ١ ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	°٥٦	٢٩,٦
٢٣ـ ١ ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	°٦٣	٢٩,٥
		عند الظهر بالتوقيت المحلي	°٧٤	–
٢٤ـ ١ ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	°٦٣	٢٩,٥
٢٥ـ ١ ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	°٦١	٢٩,٧
		عند الظهر بالتوقيت المحلي	°٧٢	–
٢٦ـ ١ ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	°٥٧	–
٢٧ـ ١ ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	°٥٩	–
		عند الظهر بالتوقيت المحلي	°٧٦	–
٢٨ـ ١ ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	°٦٢	–
٢٩ـ ١ ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	°٦٤	–
		السابعة مساءً بالتوقيت المحلي	–	٢٩,٥٥
٣٠ـ ١ ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	°٦٣	٢٩,٦
		عند الظهر بالتوقيت المحلي	°٧١	–
٣١ـ ١ ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	°٦٦	٢٩,٤٥
		الثالثة مساءً بالتوقيت المحلي	°٧٥	–

التاريخ	المكان	الوقت	درجة الحرارة	الضغط الجوي
١ ـ ٢ ـ ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	٥٨°	–
٢ ـ ٢ ـ ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	٥١°	٢٩,٦
٣ ـ ٢ ـ ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	٥٨°	–
٤ ـ ٢ ـ ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	٥٣°	٢٩,٥
٥ ـ ٢ ـ ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	٥٢°	–
		الثالثة مساءً بالتوقيت المحلي	٦٩°	–
٦ ـ ٢ ـ ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	٥٣°	–
		عند غروب الشمس	٦١°	–
		ساعتان بعد غروب الشمس	٥٧°	–
		وفي الوقت نفسه في غرفتي	٦٢°	–
٧ ـ ٢ ـ ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	٤٧°	–
		عند الظهر بالتوقيت المحلي	٥٩°	–
		عند الظهر في الشمس	٧٧°	–
٨ ـ ٢ ـ ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	٤٦°	٢٩,٦٧
١٠ ـ ٢ ـ ١٩٢٤	الذليقية	عند الفجر	٥١°	٢٩,٥
١٠ ـ ٢ ـ ١٩٢٤	زرنوقة	الساعة الواحدة وخمس عشرة دقيقة بتوقيت جرينتش	٨١°	٢٩,٦
١١ ـ ٢ ـ ١٩٢٤	زرنوقة	عند الفجر	٤٨°	٢٩,٦
		درجة حرارة الرمل على عمق ثلاث بوصات من السطح في نفس الوقت	٥٤°	–
١٢ ـ ٢ ـ ١٩٢٤	زرنوقة	عند شروق الشمس	٥٢°	٢٩,٧

التاريخ	المكان	الوقت	درجة الحرارة	الضغط الجوي
١٣-٢-١٩٢٤	جناح الجافورة	عند شروق الشمس	٤٢°	٢٩,٦
١٣-٢-١٩٢٤	جبل ظرابين	بعد ساعة من غروب الشمس	٥٩°	٢٩,٥٥ /p.428/
١٤-٢-١٩٢٤	جبل ظرابين	عند شروق الشمس	٣٧°	٢٩,٤
١٥-٢-١٩٢٤	زيدا الجافورة	ضباب أبيض كثيف وندى عند شروق الشمس	-	٢٩,٣
١٥-٢-١٩٢٤	وادي السهباء	بعد ساعة من غروب الشمس	٧٠°	٢٩,٣٨ -
١٦-٢-١٩٢٤	وادي السهباء	عند شروق الشمس	٥٠°	٢٩,٣٥
١٦-٢-١٩٢٤	جبل العاقولة	بعد ساعة من غروب الشمس	٦٨°	٢٩,٦
١٧-٢-١٩٢٤	جبل العاقولة	عند شروق الشمس	٤٥°	٢٩,٥
١٧-٢-١٩٢٤	يبرين	الساعة الحادية عشرة وخمس عشرة دقيقة بتوقيت جرينتش	٨٥°	٢٩,٥
١٨-٢-١٩٢٤	يبرين	بعد ساعة من شروق الشمس	٦٤°	٢٩,٥
١٨-٢-١٩٢٤	يبرين	الساعة الثالثة بالتوقيت المحلي	٨٤°	-
١٩-٢-١٩٢٤	يبرين	بعد ساعة من شروق الشمس	٥٩°	٢٩,٤٧
١٩-٢-١٩٢٤	يبرين	عند الظهر بالتوقيت المحلي في الشمس وفي نفس الوقت	٨٦° ١١١°	- -

التاريخ	المكان	الوقت	درجة الحرارة	الضغط الجوي
٢٠-٢-١٩٢٤	يبرين	عند شروق الشمس	٥٩°	٢٩,٦
٢١-٢-١٩٢٤	يبرين	عند شروق الشمس	٤٨°	٢٩,٥٥
٢٢-٢-١٩٢٤	يبرين	عند شروق الشمس	٥٥°	٢٩,٤
٢٢-٢-١٩٢٤	يبرين	في الخيمة عند الظهر بالتوقيت المحلي	٩٠°	-
٢٣-٢-١٩٢٤	يبرين	عند الفجر	٥٨°	٢٩,٣٨
٢٣-٢-١٩٢٤	جبل العاقولة	الساعة الواحدة مساءً بتوقيت جرينتش	٩٢°	٢٩,٥٣
٢٤-٢-١٩٢٤	جبل العاقولة	عند الفجر	٥٦°	٢٩,٨
٢٤-٢-١٩٢٤	وادي السهباء	الساعة الخامسة مساءً بتوقيت جرينتش	٧٧°	٢٩,٣
٢٥-٢-١٩٢٤	وادي السهباء	ــــ	-	٢٩,٢
٢٦-٢-١٩٢٤	زيدا الجافورة	عند الفجر	٥٨°-	٢٩,١
٢٦-٢-١٩٢٤	جبل ظرابين	بعد ساعتين من غروب الشمس	٨٣°	-
٢٧-٢-١٩٢٤	جبل ظرابين	عند الفجر	٦٣°	٢٩,٤٥
٢٨-٢-١٩٢٤	زرنوقة	عند الفجر عند الظهر بالتوقيت المحلي في الشمس وفي نفس الوقت	٤٨° ٧٨° ١٠١°	٢٩,٦
٢٩-٢-١٩٢٤	زرنوقة	عند الفجر	٤٧°	٢٩,٦٨

التاريخ	المكان	الوقت	درجة الحرارة	الضغط الجوي
١ ـ ٣ـ١٩٢٤	الذليقية	ـــــ	–	٢٩,٦٧
٢ ـ ٣ـ١٩٢٤	الهفوف	عند الفجر	٦٥°	٢٩,٥٨
٣ ـ ٣ـ١٩٢٤	الهفوف	عند شروق الشمس	٦٠°	٢٩,٥
٦ ـ ٣ـ١٩٢٤	العقير	عند الفجر	٥٩°	٣٠,٢

الأسماء العربية للنجوم

النجـــم القطبـــي : اليدي أو الجدى

بنات أطلس السبع : الثريا

كوكبة الدب الأكبر : بنات اثني عشر

كـوكبـــة الجبـــــار : الميزان وعند البدو الجوزاء

الشـعرى اليمانيـــة : المرزم

سهيـل : سهيل

الزهـرة : الزهرة /p.429/

ملحق رقم (٩)
مستلزمات الرحلة

مشحذ للسكاكين والمشارط .

علبة ألوان مائية ودفتر رسم لتلوين الأسماك والزواحف والطيور .

فرشتا دهان مصنوعتان من شعر الجمل .

ممحاة هندية .

كرة واحدة من خيط قنبي قوي (يفضل ثلاثة) .

نازعة سدادات فلينية .

مفك براغي كبير .

مفك براغي صغير للمزواة .

خزنة أدوية هي عبارة عن صندوق خشبي بمقابض من الحبال مقاييس داخلة هي ١٦ بوصة × ١٠ بوصات بعمق ٦ بوصات، وبغطاء محكم الإغلاق على الصندوق وذي مفاصل حديدية قوية .

زجاجة كبيرة من زيت الخروع .

زجاجة تحوي ربع رطل من صبغة اليود .

بلورات من برمنجنات البوتاس .

ثلاث زجاجات صغيرة من القازلين .

زيت الكافور .

محقنة تحت جلدية مع فورمالين .

زيت شجرة الأوكالبتوس .

ست ضمادات إسعاف أولي - بوصتان ونصف بطول ست ياردات مضغوطة .

قطن طبي .

بزتا ميدان .

زجاجة من أملاح الفاكهة ماركة اينو .

أكسيد زنك (خارصين) معبأ في زجاجة عصير ليمون من ماركة برج إيفل .

مائة قرص من الأسبرين .

بودرة اليودوفورم معبأة في زجاجة عصير ليمون من ماركة برج إيفل .

مائة قرص من كبريتات الكينين (لم تكن كافية إذ كان الطلب عليها كبيراً وقدرت حق قدرها في كل مكان) .

ثلاث زجاجات صغيرة من ماركة بوڤريل .

بودرة حمض البوريك (نسيت وكان هناك حاجة لها) /p.430/

مرهم أسنان (نسي وكان هناك حاجة له) .

ميزان حرارة طبي (نسي وكان هناك حاجة له) .

مكبس زهور بيتي الصنع من صحائف ورق النشاف مع ظهر من تسع بوصات مربعة من ورق الكرتون الصلب .

شبكة لصيد الفراشات ذات عصا ضعيفة قرب الجزء الأعلى الذي هو على شكل y مشقوق وقويت العصا بقضيب من طرف الشكل y إلى وسط الشبكة .

زجاجة قتل .

دبابيس حشرات .

أوراق طي مانعة للشحم للفراشات .

رزمة نفثالين صغيرة .

صندوق مبطن بالفلين بقياس ٨ × ١٠ بوصات .

التصبير (تحنيط الحيوانات) :

صندوق قصديري أطواله ٩ × ٧ بوصات وبعمق ٢,٣٠ بوصة . يحتوي على :

ربع رطل من الصابون الزرنيخي في علبة تبغ قصديرية .

قلم رصاص صغير .

علبة واحدة من الدبابيس النحاسية القوية .

موقد زيتي صغير .

بكرة واحدة من أفضل القطن المفتول من ست شرائط بطول ٢٠٠ ياردة .

إبرة واحدة .

خمسون رقعة تعريف مطبوعة للجلود .

عشرون رقعة تعريف للجماجم .

زوج واحد من المقصات الكبيرة .

زوج واحد من مقصات الأظافر ذات أطراف حادة ومن أفضل الصلب الإنجليزي .

زوج واحد من كماشات الشمبانيا المصنوعة من الصلب .

اثنان من المشارط أو سكاكين الجيب .

سكين سلخ جلود كبيرة .

ملف مسطح .

زوج واحد من الملاقيط الصغيرة المستدقة الرأس .

زوج واحد من المقسمات النحاسية .

ميزان بوصات وملليمترات نحاسي واحد ـ ست بوصات .

فرشة غراء كبيرة واحدة } من أجل الصابون الزرنيخي
فرشة معجون صغيرة واحدة }

بضع قطع من القطن الطبي .

بضع قطع من خشب الصنوبر لوضع الجلود عليها .

رطل واحد احتياطي من الصابون الزرنيخي .

ثلاثة أرطال من بلورات النفثالين المفككة.

رزمة صغيرة من الإبر.

أربع لفات من القطن الطبي زنتها رطل واحد.

سلكان طويلان للذيول.

صفيحة بترول واحدة ذات فم ملولب سعة جالونين وتحوي جالونًا واحدًا من الكحول الميثل.

جرة ذات فم واسع بعمق عشر بوصات وعرض فمها ثلاث وثلاثة أرباع البوصة. نقلت هذه الجرة فارغة واستعملت لنقع العينات في الكحول /p.431/ لمدة يومين إلى ثلاثة أيام، وبعد ذلك كانت تستخرج وتصر جافة في القطن الطبي (كانت العينات الكبيرة تجفف في الشمس) ويعاد الكحول مرة أخرى إلى صفيحة البترول. استخدمت علب التبغ القصديرية بدلاً من الجرة لحفظ العينات الصغيرة. كانت العينات توضع في قطن وتحمل في الجرة أثناء السير.

بندقية عيار ٤١٠, ٠ في جراب من قماش القنب مع قضيب نحاسي للتنظيف.

٣٠٠ خرطوشة عيار ٤١٠, ٠ معبأة بطلقات غبارية.

٣٠٠ خرطوشة عيار ٤١٠, ٠ معبأة بست طلقات.

بندقية عيار ١٢ في غطاء صلب مع قضيب وزجاجة زيت للتنظيف واحتياطي زيت بندقية.

٣٠٠ خرطوشة عيار ١٢ معبأة بطلقات غبارية.

٣٠٠ خرطوشة عيار ١٢ معبأة بسبع طلقات.

٣٠٠ خرطوشة عيار ١٢ معبأة بأربع طلقات.

٢٥ طلقة قاتلة إذا كانت ماسورة البندقية سالكة.

٢٥ طلقة عيار ١٢ من مقاس رقم ١ (نسيت وكانت هناك لها حاجة من أجل صيد النسور والغزلان).

(حسبت الكمية السابقة على أساس خمس خرطوشات لكل بندقية يوميًا خلال المدة المتوقعة للرحلة مقسومة بالتساوي بين الطلقات الغبارية والطلقات ذات الرقم سبعة وترك كاحتياط ٢٠٪ من كميتي الطلقات عند قاعدة الانطلاق . خزنت الطلقات في صناديق مبطنة بالقصدير وذكر عدد الطلقات وحجمها خارج كل صندوق) .

اثنتا عشرة مصيدة لولبية من الصلب بحجم الجرذان .

اثنتا عشرة مصيدة لولبية من الصلب بحجم الفئران .

مؤونة من اثنان أو ثلاثة من جوز الكوكر . ملاحظة : يجب أخذ مصيدتين قويتين لأبناء آوى والذئاب .

آلة التصوير :

آلة تصوير كوداك اليدوية الخاصة رقم ثلاثة (ربع لوحة) ذات عدسات زيس (zeiss) = أفلام ٢٥ ,٣ × ٢٥ ,٤ وقسمت كل صورة إلى أربعة أجزاء ، قابض الفلم مقطع (مجزأ) وموصول بعضه ببعض بخيوط .

أربعة وعشرون من أفلام كوداك اليدوية قياس ٢٥ ,٣ × ٢٥ ,٤ يحوي كل منها على ست صور وخزنت في علب قصديرية .

أربعة من أفلام كوداك اليدوية قياس ٢٥ ,٣ × ٢٥ ,٤ يحوي كل منها اثنتي عشرة صورة .

(تاريخ انتهاء صلاحية هذه الأفلام المذكورة سابقًا هو سبتمبر ١٩٢٤ أو بعد أحد عشر شهراً من بداية الرحلة) .

صندوق مزواة قياساته ٤٣ بوصة × ١١ بوصة وبعمق ٥٠ ,٦ بوصات جميعها من الداخل ، وصنع الصندوق من خشب الصنوبر بسمك ٨/ ٧ من البوصة . لما كان العمل الميداني مستحيلاً مع البراغي فقد أزيلت هذه الأخيرة من أعلى

الصندوق على ظهر الباخرة واستبدلت بمفصلين ومن ثم ربط الصندوق بحبل . يحتوي الصندوق على الآتي :

مزواة واحدة مع قوائمها بطول ثلاث بوصات .

جهاز هبسومتري واحد ، وضع جهاز تحديد درجة الغليان في جراب جلدي مع ثلاثة موازين للحرارة مقياس أحدها صفر ـ ١٤٠ درجة فهرنهايت واثنان مقياسهما ١٨٠ ـ ٢١٥ درجة .

جهاز قياس ضغط معدني واحد .

شعلة كهربائية واحدة لرصد النجوم مع ثلاث بطاريات

دليل الإبحار "Nautical Almanack" للعام ١٩٢٣ والعام ١٩٢٤

دليل صيد السمك ويجب أن يكون مجلداً في قماش من القنب لا لون له . /p.432/

زجاجة واحدة من الكحول المميثل لجهاز تحديد درجة الغليان .

كتاب «إرشادات للمسافرين» "Hints to Travellers" مجلدان .

استمارة الحساب لتحديد نجمتي الشرق والغرب .

جهاز كرونومتر جيبي واحد محمول في جيبي دائما .

بوصلة موشورية محمولة في الجيب دائما .

دفتر ملاحظات مخطط واحد ذي غلاف متين مجلد بجلد أو بقماش قنب وهذا أفضل ويحتوي على مائة وعشرين صفحة أطوال كل منها ٤,٢٥ × ٦,٥٠ ويحمل في الجيب دائمًا .

ساعة	دقيقة	ثانية	°	الأميال خلال ساعة

حقيبة مؤن عسكرية من الحجم الكبير بعمق ١٣,٥٠ بوصة من أعلى الحقيبة إلى قاعها .

حقيبة مؤن عسكرية من الحجم الصغير بعمق ١١ بوصة وهي مفيدة للطلقات لكن الحجم الأكبر يكون الأكثر فائدة للطلقات ، والمصائد ، والعينات ومجموعة أدوات الاستعمال الشخصي .

صندوقي ڤينستا من الخشب المتشابك مبطنة بالقصدير وتحوي ستة أدراج ذات أعماق مختلفة . عملت جوانب الأدراج من الخشب وقيعانها من القماش . /p.433/

مراجع الترجمة والتعليق

أولاً : المراجع العربية :

القرآن الكريم

الأحسائي ، محمد بن عبدالله بن عبدالقادر

تحفه المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد . ط٢ الرياض : مكتبة المعارف ، ١٤٠٢هـ.

الإدريسي ، محمد بن عبدالله

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بورسعيد، مكتبة الثقافة الدينية [د . ت].

باقر ، طه

مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، بغداد : دار البيان ، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م .

إبن بشر ، عثمان

عنوان المجد في تاريخ نجد. الرياض : دارة الملك عبدالعزيز ، ط ٤ ، ١٤٠٣هـ

البعلبكي ، منير

المورد . قاموس ، إنجليزي ـ عربي . ط ٣ ، بيروت : دار العلم للملايين ١٩٨٩م.

بيل ، المس

فصول من تاريخ العراق القريب ؛ ترجمة جعفر الخياط ، بغداد ، ط ٢ ، [د. ت] .

تافرنييه

العراق في القرن السابع عشر ، ترجمة بشير فرانسيس وكوركيس عواد . بغداد : جمعية الرابطة الثقافية ، ١٩٤٤ .

الجاسر ، حمد

- المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ، المنطقة الشرقية ، ٤ أجزاء ، ط١ ، الرياض : منشورات اليمامة ، ١٣٩٩هـ.
- في شمال غرب الجزيرة ، الطبعة الثانية ، الرياض : دار اليمامة للبحث والنشر . ١٤٠١/ ١٩٨١ .

جينجز ، مايكل

طيور الخليج العربي ؛ ترجمة فكري بكر ، ط١ ، دبي : ١٩٩٣م .

الحسيني ، عبدالعزيز حسن وآخرون

الأساسيات التاريخية الفطرية والز راعية التي اشتملت عليها واتصفت بها بيئة واحة الأحساء ، ط١ ، ١٤١٣هـ.

حمزة ، فؤاد

- البلاد العربية السعودية ، الطبعة الثانية ، الرياض : مكتبة النصر الحديثة ، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م .
- قلب جزيرة العرب ، الطبعة الثانية ، الرياض : مكتبة النصر الحديثة ، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م .

ابن خميس ، عبدالله بن محمد

معجم اليمامة ، جزءان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

الريحاني ، أمين

تاريخ نجد الحديث . ط ٦ ، بيروت : دار بيروت ، ١٩٨٨م .

الزركلي ، خير الدين

- شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز ، ط ٣، ٤ أجزاء، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٥م .

- الأعلام ، ٨ أجزاء ، بيروت : دار العلم للملايين ، ط ١٢ ، ١٩٩٧م .

زكي ، عبدالرحمن

تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية ، القاهرة : المؤسسة العربية الحديثة ، ١٩٦١م .

سعيد ، أمين

فيصل العظيم . ط١ ، بيروت : ١٣٨٥هـ.

شرف ، محمد

معجم العلوم الطبية والطبيعية ، ط ٣ ، بيروت : مكتبة النهضة ، د. ت .

الشملان ، عبدالله خليفه

صناعة الغوص ، [د . م ، د. ت].

صدقي ، محمد كمال

معجم المصطلحات الأثرية ، ط١ ، كلية الآداب ـ قسم الآثار والمتاحف ، الرياض ، ١٤٠٨هـ.

العبيد ، عبدالرحمن

الموسوعة الجغرافية لشرقي البلاد العربية السعودية ، الطبعة الأولى ، الدمام : نادي المنطقة الشرقية الأدبي ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م .

العتيبي ، إبراهيم

تنظيمات الدولة في عهد الملك عبدالعزيز ، ط ١ ، الرياض : ١٤١٤هـ.

العثيمين ، عبدالله

نشأة إمارة آل رشيد ، الطبعة الثانية ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

العسقلاني ، أحمد بن حجر

بلوغ المرام من أدلة الأحكام ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م .

العناني ، أحمد

رحلات وليم ايرفن شيكسبير في شبه الجزيرة العربية ، من الأبحاث المقدمة للندوة العالمية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الطبعة الأولى ، جزءان ، الرياض : جامعة الرياض ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

عيد ، صبحي يوسف

الجغرافيا الزراعية لواحات الأحساء ، رسالة دكتواه ، قسم الجغرافيا ، كلية الآداب، جامعة القاهرة ، ١٣٩٩هـ.

غربال ، محمد شفيق (إشراف)

الموسوعة العربية الميسرة ، جزءان ، القاهرة : دار الجيل .

الغريب ، خالد بن جابر

منطقة الأحساء عبر أطوار التاريخ ، ط ٢ ، الخبر : الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

ڤيلبي ، سانت جون

بعثة إلى نجد . ترجمة د. عبدالله العثيمين ، ط١ ، الرياض : ١٤١٨هـ.

فيدال ، ف . ش

واحة الأحساء ؛ ترجمة الدكتور عبدالله بن ناصر السبيعي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م

لوريمر ، ج . ج

دليل الخليج ، القسم الجغرافي ، ٧ أجزاء ، قسم الترجمة بمكتب أمير دولة قطر .

مايلز ، س . ب

الخليج بلدانه وقبائله ؛ ترجمة محمد أمين عبدالله ، مسقط : وزارة التراث القومي والثقافة ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .

مهدي ، شفيق

الطيور المائية في العراق والوطن العربي ، بغداد : دار الرشيد للنشر ، ١٩٨٢م .

وزارة الزراعة والمياه

مقدمة في التاريخ الطبيعي للمملكة العربية السعودية ، ط ١ ، ١٤١٢هـ .

الوهيبي ، عبدالله

النفوذ البريطاني في البحرين ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، جامعة الملك سعود ، سنة ١٤٠٤هـ .

ابن هذلول ، سعود

تاريخ ملوك آل سعود ، جزءان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

Casper, E and Others

Locations of Meluhha, Dilmun and Makkan, J.E.S.H.O, Vol. xxi, part II .

Field, Michael

The Merchants:The big business Families of Arabia, London : John Marray, 1984.

Philby, H. St. J. B.

The Heart of Arabia, 2 vol, London: Constable and Company LTD, 1922

Mandaville , James

Flora of Eastern Saudi Arabia. London and New York : Kegan International. Riyadh : National Commission for Wild life conservation and Development 1990.

Migahid, Ahmad

Flora of Saudi Arabia, Fourth Edition , Riyadh: University Libraries, King Saud University , 1417-1996.

Platter, E.

Flora Arabica: Botanical Survey of India, 1919-1936

Winstone, H.V.F.

Captain Shakespear, 1st ed, London: Jonathan Cape, 1979 .

-Webster's new universal Unabridged Dictionary , Second Edition 1979.

الكشاف

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

« المحتويات »

الصفحة

قائمة الصور

الخرائط والمخططات